

مِنْهَا إِلَّا مِصْلَعٌ
فِي مِنْهَا إِلَّا مِصْلَعٌ

ابن فضيل العمرى
شَابُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ كَبْرٍ
الموافق سَنَةٍ ٧٤٩ هـ

أُشْرِقَ عَلَى تَحْقِيقِهِ الْمُوْسَوْعَةِ
وَحَمَقَوْهُ هَذَا السَّفَرُ

لِكَلِّ سَمَاءٍ لِلْجُبُورِيِّ

الْجُمْعُونَ الثَّالِثُ

مَحَالَكُ التَّرْقَهُ إِلَى إِسْلَامِيِّ وَالْتُّرْكِ وَمَصْرَ وَالشَّامِ وَالْمَجَانِ



دار الكتب العلمية®
Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah
DKI
أُسْتَادَهُ مُحَمَّدُ عَلِيٌّ بَيْدُونَ سَنَة١٩٧١ بَيْرُوت - لِبَانَان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohammad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، سيدنا محمد وآلـه الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين.

وبعد:

فهذا هو السفر الثالث من كتاب «مسالك الأ بصار في ممالك الأمصار» لشهاب الدين، أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري الدمشقي، المتوفى بها سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م.

وهو يؤرخ ممالك الشرق الإسلامي والترك ومصر والشام والحجاجز

وقد اعتمدت في تحقيقه على أربع مخطوطات وهي :

١- مخطوطة أحمد الثالث - طوبقيبو سراي - استانبول برقم ٢/٢٧٩٧ ص ١٧٨ - ٤٦٢ .
والتي قام بنشرها مصورة العلامة الدكتور فؤاد سزكين - معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية - فرانكفورت - ألمانيا الاتحادية ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .
وكان عليها جل اعتمادنا.

٢- مخطوطة أيا صوفيا - مكتبة السليمانية - استانبول برقم ٣٤١٨ .
المصورة في مكتبة الجامعة الأمريكية بيروت ، تحت رقم ميكروفيلم C.1 ، V.3 .
. 41

٣- مخطوطة أحمد الثالث - طوبقيبو سراي - استانبول برقم ٢٧٩٧ .
المصورة في مكتبة الجامعة الأمريكية بيروت ، تحت رقم ميكروفيلم C.3 ، V.3 .

. 41

وقد كتبت في الأصل برسم خزانة السلطان المملوكي ، والملك المؤيد شيخ ابن عبد الله المحمودي (ت ١٤٢٤هـ / ١٨٢٤م) ووقفها الملك المؤيد على طلبة العلم بجامعة (المؤيدي) في القاهرة.

٤- مخطوطة المكتبة الوطنية - المخطوطات العربية - باريس ، برقم VO ، A231 ، R4888 ، 2325

المصورة في مكتبة الجامعة الأمريكية بيروت ، تحت رقم ميكروفيلم C.4 ، V.3 ،

41.

* * *

أما طريقي في تحقيقه فقد ذكرتها في مقدمتي للسفر الأول من الموسوعة ، ولا داعي لذكرها .

* * *

وقد استفدت في تحقيقي لهذا السفر من القطعة التي نشرها د. محمد سالم بن شديد العوفي ، الأستاذ المشارك في كلية العلوم الاجتماعية بالرياض - المملكة العربية السعودية عن (مملكة الهند والسندي) مط المدنى - القاهرة - مصر ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .

والقطعة التي نشرها تشنر فرانتس عن (مملكة الأتراك والروم) ، في دورية الجغرافية الإسلامية ، المجلد ٩٤ ص ٢٩٠ - ١٩٠ ، أعاد نشرها د. فؤاد سزكين - لايبنغ - ألمانيا ١٩٩٣ .

والقطعة التي نشرها الأستاذ أيمن فؤاد سيد (ممالك مصر والشام والحجاج واليمن) ط المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٥ ، وقد سبق أن طبع (القسم الخاص بمملكة اليمن) من قبل دار الاعتصام - القاهرة ١٩٧٤ .

والقطعة التي نشرتها الأستاذة دورتيا كرافولسكي عن (مملكة مصر والشام والحجاج) ط المركز الإسلامي للبحوث - بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

كما أخذت من بعض التعليقات التي أوردها د. أحمد عبد القادر الشاذلي في تحقيقه للسفر الثالث من الكتاب ، نشرة المجمع الثقافي - أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة .

هذا ما استطعت تقديمها للقاريء الكريم والباحث الفاضل ، وما تمكنت منه ،
فعليَّ الجدُّ والاجتِهاد ، ومن الله التوفيق والسداد.

وهو حسبي الله ونعم الوكيل
عليه توكلت وإليه أُنِيب .

جمهورية العراق - الكوفة
كامل سلمان الجبوري



النوع الثاني وذرع الماء الإسلامي

عيلات الإسلام وأئمته مجدداته أحسن المعمور شروقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً لاملاً حتى طافت الحراره للمرى عصولاً إلى غاية البوة للمرط الذي ينافى بالآخر عزمه للستباب وسيان سار ذلك في عريش كل ملاد نساء معمور الجبوب ساكن السودان من جهاد البران والامتناع على تسلل من حراس اوطنه واطرافه والضارى باطراف الحبشة وعبابد بالطبقات والسمونى سودان المقرب جنوب قاته، وعاصمة معمور الممال من المضادى والسمونى بلاد الصكل فى شبابها آخر صبي ايران السماه بلاد النجاق وساقا سامت ذلك لحظان استططعينه وما ورثها العقبية والأرض الكبيرة وجذاب البحر الروي، وغایة معمور الشرق من شباب البران والاسلام ثلاث افت امر توران بلاد الصين إلى الخط واما العرب فانتهى به الاسلام إلى البحر الجبعاء بلا طير فى الشرق والغرب بلاد صالحته واز تركى القافية فالعرب الى سنتوانيه فى تلك الاسلام والصين وان كان خارجاً فدعة الاسلام فاسمه سلطان عظيم جليل العدد ضخم الملك وهو معلم زوران ولم يزل ذلك الترتك وبه تحت فاضل الارض اصر من ابناء جنكرخان وسباق ذر، منه ذكر اينا، جنكرخان تلك الاسلام وآله على ما ذكره فما وفها الهدى والرسند وهو اقفيه بالده الاسلام بشرق محين اخراً الى الجبوب ثم سانته الصين عبدها الحبر من جنوه صادلة دانكلا من شرقها والاسلام فى اخذصي نوران بين شبابها ارا اخذصي نوران على بد الاسلام وهي ملائكة تركستان دعاواه المهدى وآلهه بشرق محين احجز الى الجبوب بعد ما انتهى من جنوه صادلة الصين من شرقها عمالت الاسلام قصبه القوقاز

لـ(جعفر)

٤

اللهم

إلى يحيى ما كلار نظر إلى ساحول البيت من التحمر والصياع وغيره
 فاستخدنا الموضع واشرافه على مأجوله من العارة هناك رحاء
 لسليمان لو امررت ببناء ديرهاه النصارى في سجد للليل وسرت
 في اللندان بالمايس سرحت أذ يكون في حيى السجن والنماري ليس بين
 دارا إلى جب سجده ودبر المصادر مدينة ولتفطلت الكتبه
 بالبرق وهم الموضع احسن من موضع لذوا علا فجعل ذلك مدار
 الناس من كل اوبق من المسلمين والمصارى خطوط المدار الفموري
 على قدر هممهم ونعمهم وكان سليمان خط سجدة أصيلاً ودائماً
 للداره لطيفة قال له رجاعي هذا فهاستكون بيته عليه خط خط جامعاً
 خطياً كبيراً وداراً واسعاً وهو هذا المجامع وهذه الدار المعروفة بدار
 الامارة مثراً سليمان اراد هدم الكتبه وادخر خاماً صاعداً لها
 للجامع فراجعه رجا، عند ذلك وبيت أبي عبد الملك عبيده بالعقل
 القتبين من عدده وسكنه وما ملاه من ماء المدينة واجتمع وقت
 عبد الملك إلى ملك الرؤوم وكان الاسلام في ذلك الوقت ظاهراً
 على الروم فقاد ملك الرؤوم إلى عبد الملك من له على موضع آخر منه
 عذر الرؤوس لما في الاعتدال والحسن والخرج منها رخسا مشوراً وغير
 مشوراً يأهي الجميع وفضل عنه بيال انه كان يصيغه من الدار ومر
 دار ومر غزه بيال طائعاً وكمواً وكمان الدار ما قال النصارى من ذلك ان
 سلطان الرؤوم والشجرة تقتل العذر والرحم من عود إلى الخانق وسبت المقبره
 الرشيد ما سر المرأة المقرمة كرهاً وأخن سليمان إليها والذئبه

٤

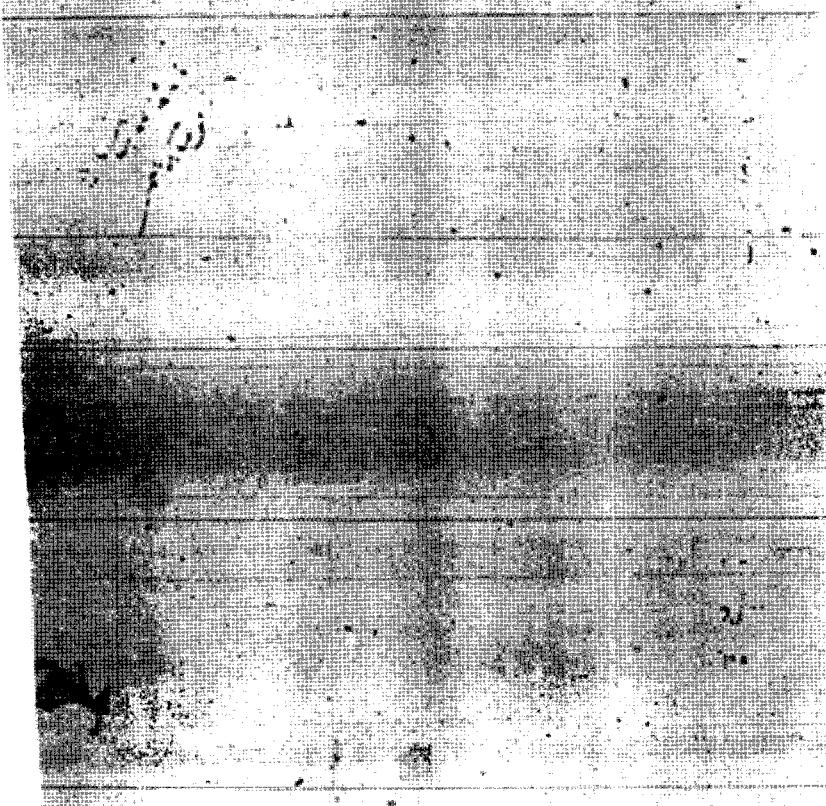


صفحة العنوان من - مخطوطة - أيا صوفيا - مكتبة السليمانية - استانبول رقم ٣٤١٨

كانت الكتابة الإسلامية ونفعها محدودة في تعزيز المغزى سترفاً على عجزها
في إثبات مكالمات لها، أمثلة على ذلك القرآن، المفرطة ولا إلى يحيى عليه
الصلوة، والآيات التي تأكّل في دفع حرج شرخه، مستعاب وسيئي نتائجها.
وتحتاج الكتبة إلى معرفة في المفهومين مسماك الحدود من عبادته
والدين، والأصناف، بما يقللها من حرارة مفهوم المعاشر في طرف
المعنى وتعذّل الحالات، ولهمي في مسودة أن تغير بحسب عامه ووعيه
لأنه لا يسأل من المفتاحي زمامي ولا أعمق في تطبيقات الحدود
معنى في المفهومين لراد العجاج، وما يأتى بذلك الخط من العصابة خطيب
الكتاب العظيم، ول الأرض الحكيم، حزير الحر الرومي، وعاصي
العقلاء، والذين يحيى في مسودة الحدود من عبادته،
والأصناف، بما يتحقق في تطبيق
الكتاب العظيم، ولهمي في المفهومين لراد العجاج،
ويحيى في مسودة الحدود من عبادته،
ويحيى في مسودة الحدود من عبادته،

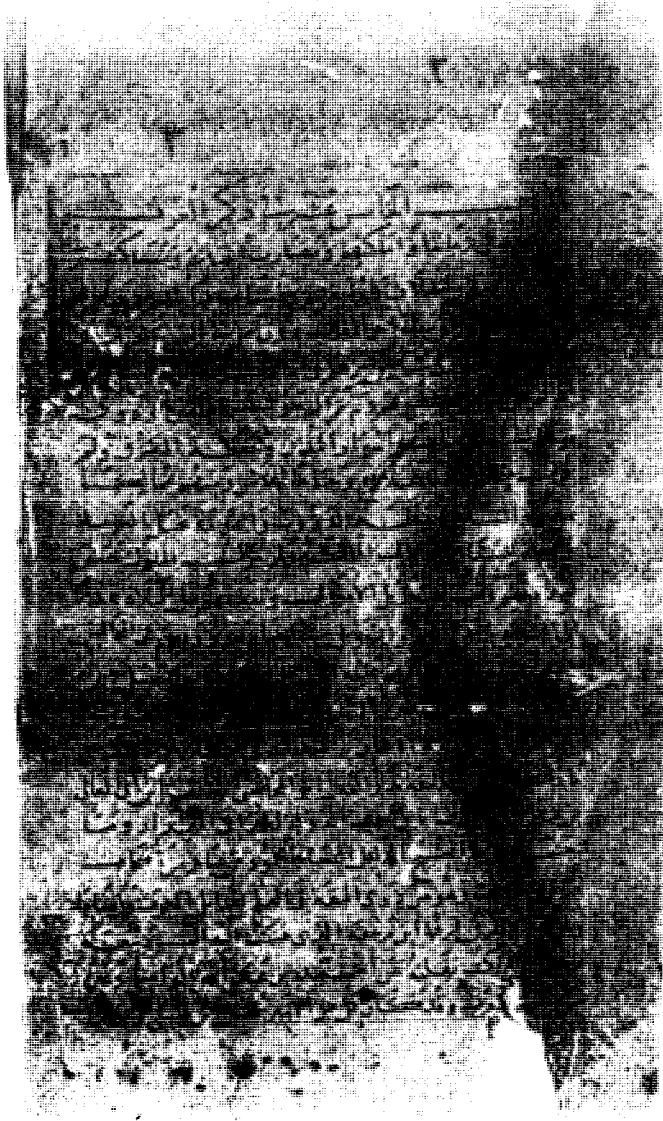
الامتناع ببعض تبرعاته وجزئين على في جميع ما يجاوره وأصوات
مخلوقات الآيات ودست وحاراتي في كل مقدمة علمية لطعامه يدعوه
الكرم الذي يسد بلا منصرف عن حول اليمين من الخير والعدل، وعنه
ذلك قد سمعت اوسع وشرأه على تحول من العوارف فنادق خالدة لعلها
تشتهر به صفات الحماري وسجدة المسلمين ولهم ما يليق به من
الشتاء والربيع في جسم من المسلمين والعنادى فلبيك دار إلى حمه
بهدى در وحاراته، به ولست عالم بالله والمر وهدى قوته احسن مر،
سرفنت ادر راعلاه فعل ذلك وبسبلا راكس من كل اوت سر اسلوب
العنادى يخطئون انما زلعا هم تزور على قدر قيمتهم وتعظيم
سكنان سليم حنط اسود امعنوا ودار الالعاب لطيفه فماله حم،
هذا ناق بواسته تكون مدنه عصمه خططا مقايله ودار داشه
منذ الدائم وهذه الارض المعروفة بدار الالوان متغير سليمان،
استفسد ولخدود حكمها وشدة الشاهزاده القتل طاعن
رسائل عندها كل كلامه ينفعه سهل السير من دور ومسكون
الناس بها السالمون للجائع وركع عبد الله على يده العائم
بعد الايام في ذلك الوقت ظاهر على الوجه فقد ذمله العزم
والملك من داعيهم بفتح اخرج منه عمه المترقب في الامر
الاسرار خرج معهار حاما مستورا وغيره وتسور ما يسكن الجن
في قبورها فالناس كان في بيته من الدار قدم دار لهم تكرزه

بعد ذلك لفترة مديدة و وكان المزمان للسنواري من ذلك الزمان ملك
الروم الذي يقتل العبيد فالحسام من عموداً إلى الحبا مع
و سميت المدينة الرومل بأسمه إسراء القائم ذكرها وأخر سلسلات
البعوا إلى عتبليه

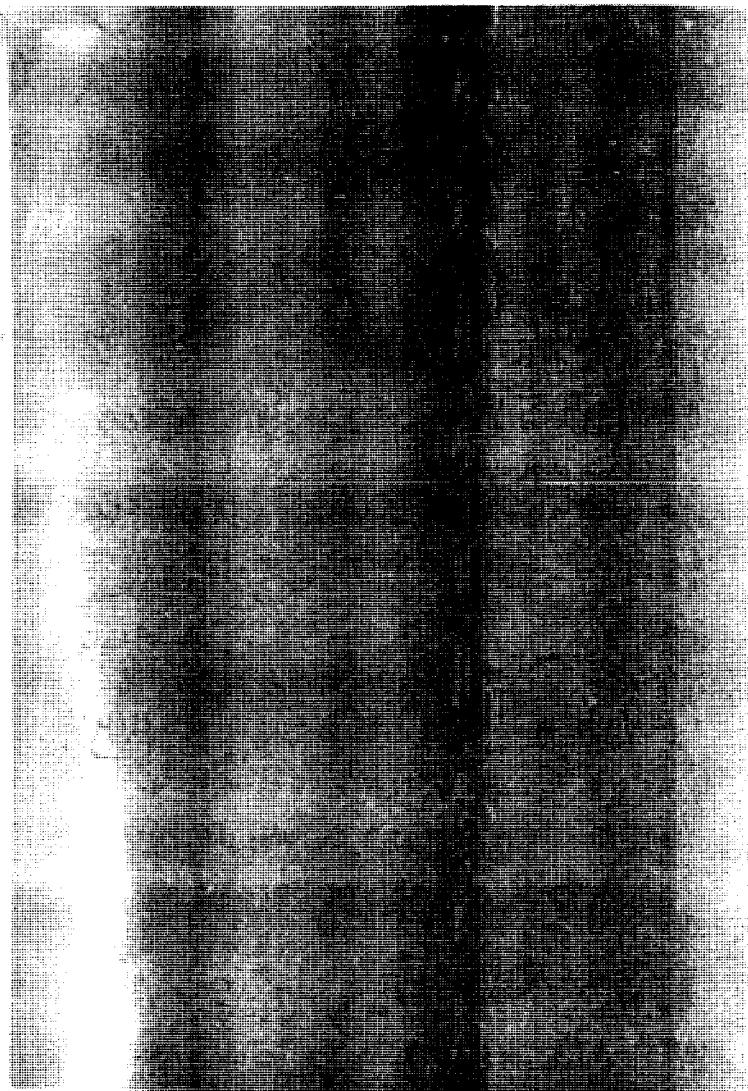




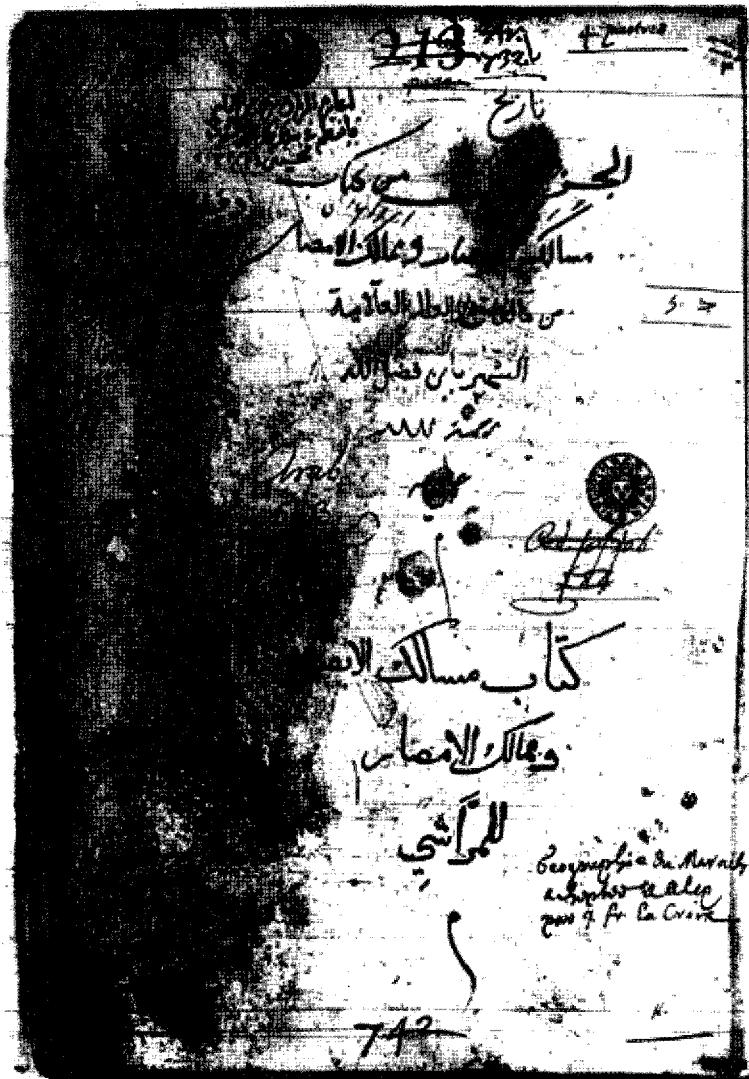
صفحة العنوان من - مخطوطة - أحمد الثالث - طوبقيوسراي - استانبول رقم ٢٧٩٧ مصورة مكتبة
الجامعة الأمريكية - بيروت رقم الفيلم 41. V3. C3



الصفحة الأولى من - مخطوطه - أحمد الثالث - طوبقيوسراي - استانبول رقم ٢٧٩٧ ، مصورة مكتبة
الجامعة الأمريكية ، رقم الفيلم 41. V3. C3



الصفحة الأخيرة من - مخطوطة - أحمد الثالث - طوبقيوسراي - استانبول رقم ٢٧٩٧ ، مصورة مكتبة
الجامعة الأمريكية ، رقم الفيلم 41. V3. C3



صفحة العنوان من - مخطوطه - باريس - المكتبة الوطنية -

المخطوطات العربية رقم ٧٥، A231، 2325

النوع الثاني في الأدب العربي والجسم رث بشرى يذكر
 أن الإسلام ولهذه الأفعال أصولاً فرضها وعمرها وجيبيها
 على الأبناء لا ينزلونها على الآباء إلا في أيام اليرود المفترط
 التي تأكله لا ينجزها سباقاً بحسب ما يساند ذلك في قبور كل ملك
 على مصر للنبي سليمان عليه السلام والبران والآمن بأصل حلول
 الإسلام على الأرض السارقة لآيات الحشود وعاصفة اللذات والمعني
 بالغرب وهو بحسب ما ذكره ابن خالد في التواريخ والمياد
 المستنصر بالله العادل في إيران وبلاد الهناء وما سبق ذلك
 سيد وماله إلى جنته والملائكة والأرض الكبير وجزر البحر
 فهو الشرف الذي يحيى والنور والعلم بذلك امتنان
 من الدين واس الشروق فإنه وفي الإسلام إلى
 ينظر في الشرق والغرب بلا صاحبه لأن لم يكن الغافل عن الغرب
 بل للغاية في تلك الأسلام والصين والآن خارج عن دين الأسلام
 فلابد من علم على المتقدمة خدا الله رب ومحظوظ قوران ولهم زل الكفر
 لترك كلامه حتى قائم وهو الآن لها نعمان بن عيسى بن عيسى وسبيله ذكر
 عند ذلك يأخذونه في الأسلام وأتعذر مانذكه فما ولهما أهدر

لهم إلهي أنت عبده المأذن له في كل أرض
أنت عبده الذي يحيي الموتى وأنت عبده الذي يحيي الموتى
أنت الذي تحيي بدمك المسلمين فلم علي موضع أحرى منك
عذاباً سلطتم على الاعداء والمسؤل عن عذابكم خالانا
العنده عذابكم ما أكون أطاعه وصلني إليك قال انه
عذابك من الله العظيم فهو مخصوص بالذين اغروا
الناس باللصوص كغيرك انك إن شئت لهم الرصمة
ستظل العذاب والرهاق من عذابك إلى الجاحظ وحيث المسنة
الشدة العذاب المتقدم على عذاب احسن شيل العذاب إلى
عذابك أبشر لك الخبر الثالث بحد الله وعورته وصل الله عزلا

محمد بن سليمان



وأشهد محمد الشعيري عزرا الله له ولوالد ربي واستكتبه جميع
المسلمين

مِسْنَالِ اللَّهِ الْأَصْلَكِ
فِي مِسْنَالِ اللَّهِ الْمُضْلَكِ

لِابْنِ فَضِيلَةِ التَّمِيمِيِّ
شَهَابِ الدِّينِ أَحْمَدِ بْنِ كَبِيرِيِّ
الْمُتَوْقَى سَنَةُ ٧٤٩ هِجْرَةً

أَشْرَفَ عَلَى تَحْقِيقِ الْمُوسَوَّعَةِ
وَهَقَّقَهُ فَهُنَا السَّفْرُ
كَاملُ سَلَامَانَ الْمُبُورِيِّ

الْجُمِيعُ الثَّالِثُ

مَحَالَكُ التَّرْوِيَّةِ إِلَيْ إِسْلَامِيِّ وَالْمُرْكَبِ وَمَصْرُوَّاتِ السَّامِ وَالْمَجاَنِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢/ النوع الثاني: في ذكر ممالك الإسلام جملة

ممالك الإسلام واقعة بحمد الله في أحسن المعمور شرقاً وغرباً وجنوبياً وشمالاً؛ لأنها لا تنتهي إلى غاية الحرارة المفرطة، ولا غاية البرد المفرط إلا فيما قل، ولا تخرج عن حد المستطاب. وسيأتي بيان ذلك في تحديد كل مملكة.

غاية معمور الجنوب مساكن السودان من عباد النيران والأصنام بما تغلغل من جزائر الهند وأطرافه، والنصارى بأطراف الحبشة، وعباد الحيات والهمج في سودان المغرب جنوب غانة.

ogaية معمور الشمال من النصارى والهمج ببلاد الصقلب في شمالها، أحد قسمي إيران المسماة بلاد القبجاق، وما سامت ذلك الخط من القسطنطينية وما وراءها إلى جليقية والأرض الكبيرة وجزائر البحر الرومي.

ogaية معمور الشرق من عباد النيران والأصنام بثالث أقسام توران من بلاد الصين إلى المحيط.

وأما الغرب فانتهى فيه الإسلام إلى البحر المحيط، وكلاً طرفي الشرق والغرب بلاد صالحة، وإن لم تكن الغاية، فالغرب إلى منتهى الغاية في ممالك الإسلام، والصين - وإن كان خارجاً عن دعوة الإسلام - فإنه ملك عظيم جليل القدر ضخم الملك، وهو معظم توران، ولم يزل لملك الترك وبه تحت قائهم والآن لقائهم^(١) من أبناء جنكيزخان. وسيأتي ذكره عند ذكر أبناء جنكيزخان.

فممالك الإسلام واقعة على ما ذكره:

(١) القان: الكلمة مغولية، تعني ملك كبير وسلطان عظيم.

فأولها: «الهند والسندي»، وهو واقعٌ في ممالك الإسلام بشرق محض آخذًا في الجنوب على مسامت الصين، يحدُّها البحر من جنوبها وبلاد الكفار من شرقها، والإسلام في أحد قسمي توران من شمالها، ثم إحدى قسمي توران مما بيد الإسلام وهي: تركستان، وما وراء النهر، وهي واقعةً بشرق محض آخذًا إلى الجنوب، يحدُّها السندي / ٣ / من جنوبها، والصين من شرقها، وممالك الإسلام قسمها الثاني وإيران من جنوبها.

ثم القسم الثاني مما بيد الإسلام من «مملكة توران» وهي: خوارزم وبلاد القبجاق، وهي واقعة في الشمال آخذة إلى المشرق يحدُّها أطراف الصين من شرقها، وببلاد الصقلب وما يليها من شمالها، أما جنوبها فخراسان وما سامتها، وغربها الخليج القاطع من بحر الروم على القيرم، وراءها ممالك الإسلام، والروم كلها من ممالك الإسلام.

ثم «إيران»، وهي تلي قسمي توران المذكورين، داخلة كالشعبة الفارقة بينهما. وذلك القسمان متشعبٌ عليهما مثل كمّي السراويل على سرجه، تحدُّها ممالك الإسلام من كل جهة وفي بعض جنوبها ينتهي إلى البحر الفارسي الآخذ على البصرة وما سامتها. وممالك «كيلان» واللر والشول وشنكاره والأكراد.

وببلاد «أتراك الروم» كلها في هذا القسم، خلا أن أتراك الروم حدُّهم الشمالي بلاد القسطنطينية.

ثم يليها «مملكة مصر والشام والحجاز»، وتلك عمود الإسلام وفسطاط الدين، يحدُّها ممالك الإسلام من كل جهاتها الأربع منتهية في الجنوب إلى اليمين. واليمن والحجاز كلاهما من جزيرة العرب، على ما يأتي تبيينه، ثم إلى البحر الآخذ على جدّة إلى أيله وينتهي في الشمال إلى البحر الرومي.

ثم «اليمن»، وهو جنوب الحجاز في نهاية جزيرة العرب، يحدُّها في جنوبها البحر الآخذ إلى الهند، ومن شرقها البحر الآخذ إلى جدّة، ومن شمالها الحجاز، ومن غربها بحر الحبشة.

ثم «ممالك الإسلام بالحبشة»، والحبشة متصلة بأطراف الواحات آخذة إلى الجنوب محيط بها بحر الحبشة من شرقها، وممالك نصارى الحبش وكفارهم من جنوبها، وكفارهم ثم الصحاري القفار من غربها، وشمالها الواحات.

ثم «الكائن»، وهو على ضيقة النيل على مسامته دُنْقلة.

ثم يليها من وراء بَرَقَة «مملكة إفريقيا»، يحدُّها من جنوبها كَفَّارُ السُّودَان، وبقية حدودها متَّهِيَّة إلى ممالك الإسلام، من شمالها البحَر الشامي.

ثم «بُرُ العَدْوَة» يحدُّها ممالك الإسلام من جنوبها بلاد البربر.

ثم «مَالِي» ومن شمالها بلاد إفريقيا /٤/، ومن غربها البحَر المحيط، ومن شمالها بحر الزُّفَاق إلى البحَر الشامي.

ثم «بُرُ العَلْوَة» وشرقها القِفار ثم يليها مَالِي وما معها، جنوبها غانة وبِلَاد كَفَّار السُّودَان، وغربها المحيط، وشمالها جبال البربر وبر العدوة، وشرقها القفار.

ثم يليها «جزيرَةُ الأَنْدَلُس»، وهي نهاية ممالك الإسلام، ولم يُسْتَ بجزيرَة ولكن كالجزيرة، يحيط بها من جانبها الجنوبي البحَر الشامي، ومن غربها وشمالها البحَر المحيط، ويَبْقَى شرقها مكشوفاً متَّصلًا بالأَرْضِ الكبيرة ذات الأَلْسِنِ الكثيرة. فلو مشَّى ماشٍ من نهاية غرب الأَنْدَلُس عند مخرج بحر الزُّفَاق في الجانب الشمالي إلى ناحية شرقه انتهى إلى الجبل المسمى بـ«بِيكَلُ الزَّهْرَة»، وهو آخر حد الأَنْدَلُس وفيه الأَبْوَاب المفتوحة، وقد تقدَّم ذكرها. ثم يمشي الماشي من تلك الأَبْوَاب إلى أن يخرج من شرقي هذا الجبل ويدخل في الأرض الكبيرة ويُمشي فيها إلى حيث شاء إلى الأرض شمَالًا وشَرْقاً وجنوباً لا يقطعه بحر، حتى إنه إذا أراد مشَّى على ساحل البحَر الشامي وما هو متَّصل به حتى ينتهي إلى حِجَّة، ثم يدور معها عند حِجَّة ببلاد الشام على شرقه، ثم يدور معه على ساحله الجنوبي حتى يعود إلى نهاية الغرب قُبَّالة المكان الذي بدأ منه عند مَخْرَج [بحر] الزُّفَاق في الجانب الجنوبي لا يقطعه دون ذلك قاطع ولا يمنعه مانع.

واعلم أنَّ الْأَمْرَ في تحديد الأقاليم الْعُرْفِية لا يجري في تحديد الدار والبستان ونحوهما؛ لأنَّ غالباً الدار والبستان تكون قطعاً مربعة أو مثلثة أو متساوية الجوانب، وليس الْأَمْرُ في الأقاليم الْعُرْفِية كذلك فإنَّ بعض جوانبها يكون مُداخلاً لإقليم آخر، وبعضها يكون فيه تقويس، وبعض جوانبها أعرض من بعض، والذي يحدد المكان إنما يحدده بالجهات الأربع وهي: الشَّرْقُ، والغَربُ، والجَنُوبُ، والشَّمَالُ، وذلك لا يصفو في الأقاليم الْعُرْفِية لِمَا ذُكِرَناه. ولو كانت الأقاليم قطعاً مربعة أو متساوية الجوانب لأمكن فيها ذلك، فينبغي أن يُعرَف العذر في التقصير في تحديدها لاسيما عند من لم يشاهدها وإنما /٥/ نقلها من الأوراق وأفواه الرجال، فإنَّ عذرَه في التقصير أوضح. وأيضاً فإنَّ في بعض الأقاليم يكون على شكل مثلث كجزيرتي الأَنْدَلُس وصِقلِّية، وبعضها يكون ذا خمسة أضلاع وأكثر وأقل ففيتعذر ذكر

ذلك بجهاته الأربع على الصحة.

ومن هذا نَسْعَ في ذكر الممالك مملكة مملكة. وهذا الباب هو المراد من هذا الكتاب وبسببه أَلْفُ وأَلْجَلِه صُنْفٌ. ونحن نأخذ في هذا الباب على التحرير في أكثر ما عرفنا، والتحقيق لأكثر ما لم نعرف بتكرار السؤال من واحد بعد واحد مما يعلمه من أحوال بلاده وما فيها، وما اشتغلت عليه في الغالب نواحيها. وكنت أسأل الرجل عن بلاده ثم أسأل الآخر والآخر لائق على الحق. فما اتفقت عليه أقوالهم أو تقارب فيه أثبته، وما اختلفت فيه أقوالهم أو اضطربت تركته، ثم إنني أترك الرجل المسئول مدةً أناسيه فيها عَمَّا قال، ثم أعيد عليه السؤال عن بعض ما كنت سأله، فإن ثَبَتَ على قوله الأول أثَبْتَ مقالَهُ، وإن تَزَلَّلَ أذهبَت في الريح أقواله، كل هذا لأنَّهُ في الرواية وأتوَّقَ في التصحيح، مع أننا أهل بَيْتٍ وظيفتهم مَجْمَعٌ وفودٌ، وموضع كل صدور وورود.

ولم نزل عند ملوك مصر والشام، رَحِمَ اللَّهُ مَنْ مَضَى مِنْهُمْ وَحَفَظَ مِنْ بَقِيَّ، بابهم المفتوح لكل طارق، وصحابهم الممنوح به كل جُودٍ دافق، فإلينا في أبوابهم أول كل وارد إليهم وآخر كل صادر عنهم. ومنذ نيطت بي التمام، إلى أن أثبتت على العمائم، إلى أن صرَّت ركن هذا الباب، وكَنَّ هذا السحاب، أسأل كل وارد على باب سلطاننا - أعزَّهُ اللَّهُ بُنْصَرَهُ - من جميع الآفاق، ووافد استكَنَ تحت جَنَاح لِوائِهِ الْخَفَاقَ، وما أخذت مع رسول يصل من ملوك الأرض في مُطَارحة حديث ومراوحة قديم وحديث إِلَّا وجريت باذلاً ذَلِّ السؤال عن بلادهم وأوضاع ملوكها ووظائف الرَّعَايا في سلوكها، وما للجنود بها وطبقات أرباب الرُّتب العالية من الأرزاق، ومقدار تفرقة خزائن الإطلاق، وكيف زَيَ كل أنس، /٦/ وما يمتاز به أهل كل طائفة من اللباس على ما يُذَكِّرُ ذلك إن شاء اللَّهُ تَعَالَى في مكانه. وبالله أستعين ومنه أسأل التوفيق، ولا حول ولا قوة إِلَّا بالله العَلِيِّ العظيم.

* * *

وهذا النوع أربعة عشر باباً
الباب الأول - في مملكة الهند والسندي.
الباب الثاني - في ممالك بيت جنكيزخان.
 وفيه أربعة فصول:
الفصل الأول - في الكلام عليهم جملياً.

الفصل الثاني - ففي مملكة القان الكبير، صاحب التخت. وهو صاحب الصين والخطا^(١).

الفصل الثالث - في التورانيين. وهو فرقتان:

الفرقة الأولى - فيما وراء النهر،

الفرقة الثانية - في خوارزم والبغاق.

الفصل الرابع - في الإيرانيين.

الباب الثالث - في مملكة الجيل.

و فيه أربعة فصول:

الفصل الأول - في بومن.

الفصل الثاني - في توليم.

الفصل الثالث - في كسْكَر.

الفصل الرابع - في رشافت.

الباب الرابع - /٧ في مملكة الجبال.

و فيه أربعة فصول:

الفصل الأول - في الأكراد.

الفصل الثاني - في اللُّر.

الفصل الثالث - في الشُّوش.

الفصل الرابع - في شنكارة.

الباب الخامس - في مملكة الآتراك بالروم.

و فيه ستة عشر فصلاً :

الفصل الأول: في مملكة كزمينان.

الفصل الثاني: في مملكة طنغرلو.

الفصل الثالث: في مملكته توازا.

الفصل الرابع: في مملكة عيدلي.

الفصل الخامس: في مملكة كصطمونية.

(١) الخطأ - بفتح الخاء - هي بلاد الصين الشمالية.

الفصل السادس: في مملكة قاويا.

الفصل السابع: في مملكة بُرشا.

الفصل الثامن: في مملكة أكيرا.

الفصل التاسع: في مملكة مَرْمَرا.

الفصل العاشر: في مملكة مغنيسيا.

الفصل الحادي عشر: في مملكة نيف.

الفصل الثاني عشر: في مملكة بركى.

الفصل الثالث عشر: في مملكة فوكه.

الفصل الرابع عشر: في مملكة أنطاليا.

الفصل الخامس عشر: في مملكة قراصار.

الفصل السادس عشر: في مملكة أَرْمَانَاك.

/٨/ الباب السادس - في مملكة مصر والشام والحجاج.

باب السابع - في مملكة اليمن.

و فيه فصلان:

الفصل الأول - فيما ييد أولاد رسول.

الفصل الثاني - فيما ييد الأشراف.

باب الثامن - في ممالك المسلمين بالحبشة.

و فيه سبعة فصول:

الفصل الأول - في أوفات.

الفصل الثاني - في دوارو.

الفصل الثالث - في أرابيني.

الفصل الرابع - في هَدِيَّه.

الفصل الخامس - في شرخا.

الفصل السادس - في بالي.

الفصل السابع - في داره.

باب التاسع - في ممالك مسلمي السودان على ضفة النيل الممتد إلى مصر.

و فيه فصلان:

-
- الفصل الأول - في الكانم.
 - الفصل الثاني - في التوبه.
 - الباب العاشر - في مملكة مالي.
 - الباب الحادي عشر - في مملكة جبال البيربر.
 - الباب الثاني عشر - في مملكة إفريقيَّة.
 - الباب الثالث عشر / ٩ - في مملكة بُر العَدْوَة.
 - الباب الرابع عشر - في مملكة الأندلُس.
 - [الباب الخامس عشر - في ذكر العرب الموجودين في زماننا وأماكنهم، ومضارب أختيهم ومساكنهم].

* * *

الباب الأول: في

ملكة الهند والسندي



في مملكة الهند والسندي

هذه مملكة عظيمة الشأن، لا يُقاس في الأرض بملكه سواها، لاتساع أقطارها، وكثرة أموالها وعساكرها، وأبهة سلطانها في رُؤوبه، ونزوله، ودست^(١) ملكه، وفي صيتها وسمعتها كفایة.

ولقد كنت أسمع من الأخبار الطائحة، والكتب المصنفة ما يملأ العين والسمع، وكانت لا أقف على حقيقة أخبارها، لبعدها مِنَّا، وتنائي ديارها عَنَّا، فلما شرعت في تأليف هذا الكتاب، وتبتعد ثقات الرواية، وجدت أكثر مما كنت أسمع، وأجلَّ مما كنت أظن، وحسبك ببلاد في بحراها الدُّر^(٢)، وفي بَرِّها الذَّهَبُ، وفي جبالها الياقوت^(٣) والماس^(٤)، وفي شعابها العُودُ^(٥) والكافور^(٦)، وفي مدنها أسرة الملوك، ومن

(١) دست الملك: أي العرش، أو الكرسي. أو الأريكة التي يجلس عليها الملك. «تكلمة المعاجم ٤/٣٤٩».

(٢) الدر: اللؤلؤ العظيم الكبير واحدته درّة، وجاء في «الموسوعة العربية الميسرة» (٧٧٨) «الأحجار الكريمة»، وهي مواد معدنية وأحياناً عضوية تستعمل في أغراض الزينة، تتصف بالجماد وقدرة الاحتمال والقدرة، لها خصائص ضوئية ذات بريق وتوهج. «المصباح المنير ١/٢٠٥».

(٣) الياقوت: حَجَرٌ ذَهْبِي يَكْثُرُ فِي جَبَلِ الرَّاهُونِ فِي إِحْدَى الْجَزَرِ الْوَاقِعَةِ خَلْفِ سَرَنْدِيبِ، تُحَذِّرُهُ الْرِّيَاحُ وَالسَّيُولُ، فَلَيَتَقْطَعَهُ النَّاسُ، وَمِنْ أَلْوَانِهِ الْأَحْمَرُ، وَالْوَرْدِيُّ، وَالْأَصْفَرُ، وَالْأَيْضُونُ، وَمِنْ خَواصِهِ قَطْعُ كُلِّ الْأَحْجَارِ مِثْلِ الْمَاسِ... «الصَّبْحُ ٢/١٠١ - ١٠٣».

(٤) الماس: «ويتكون من معدن الياقوت، تُخْرِجُهُ السَّيُولُ، وَالْرِّيَاحُ مِنْ مَعْدُنِهِ، وَهُوَ نُوعٌ بَلُورِي شَدِيدُ الْبَياضِ، رُجَاجِيٌّ يَخَالِطُ بِيَاضِهِ صُفْرَةً. يَقْطَعُ الْحَجَرُ، وَيَمْحُو التَّقْوِشَ الَّتِي بِجَمِيعِ الْأَحْجَارِ». «الصَّبْحُ ٢/١٠٦ - ١٠٧».

(٥) العُودُ: شَجَرٌ عَظِيمٌ، يَنْبُتُ بِلَادِ الْهِنْدِ، وَرِبِّيَا طَلْبُهُ مِنْ قَسْمِيرِ، وَسَرَنْدِيبِ، وَقَمَارِ. لَا تَصِيرُ لَهُ رَائِحةٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَعْنَقُ وَيُبَخِّرُ، وَيُقْسِرُ، يَسْتَخْرُجُ مِنْ قَلْبِ الشَّجَرِ. وَعِنْ قَطْعِ شَجَرٍ، يَدْفَنُ فَتَأْكِلُ الْأَرْضُ الْخَشَبُ وَيَبْقَى الْعُودُ لَا تَؤْثِرُ فِيهِ الْأَرْضُ. وَيُقَالُ أَنَّ الْأَشْجَارَ الْعُودَ فِي جَبَلٍ شَاهِقٍ لَا يَوْصِلُ إِلَيْهَا، فَتَنْكِسُ بَعْضُ أَشْجَارِهِ، وَتَأْكِلُ الْأَرْضَ مَا فِيهِ مِنْ خَشْبٍ وَيَقِيْ. أَصْلُ الْعُودِ الْخَالِصُ فَتَجْرِيُ السَّيُولُ إِلَى الْبَحْرِ وَيَقْذِفُ بِهِ إِلَى السَّاحِلِ فَيَلْتَقِطُهُ النَّاسُ، أَجْوَدُهُ مَا كَانَ صَلْبًا رَبِّيْنا ظَاهِرُ الرَّطْبَةِ، كَثِيرُ الْمَائِهِ وَالْدُّهْنِيَّةِ، الَّتِي لَهُ صَبَرٌ عَلَى النَّارِ، وَغَلِيَانِ، وَبِقَاءٌ فِي الشَّيَابِ، وَأَفْضَلُ أَلْوَانِهِ الْأَسْوَدُ، وَالْأَزْرَقُ،

وحوشها ، الفيل والكركدن^(١) ، ومن حديدها سيف الهند^(٢) ، وبها معادن الحديد والزئبق^(٣) والرصاص ، ومن بعض منابتها الزَّعفران ، وفي بعض أوديتها الْبِلُور^(٤) . خيراتها موفورة ، وأسعارها رَخِيَّة وعساكرها لا تُعَدّ ، وممالكها لا تُحَدّ ، لأهلها الحكمة ، ووفر العقل . أملك الأُمُّ لشهواتهم ، وأبدلهم للنفوس فيما يُطَلُّ به الرُّفْنى . قال محمد بن عبد الرحيم الإقليسي الغرناطي^(٥) في تحفة الألباب : «والْمُلُك

= الذي لا يياض فيه . «نهاية الأربع ١٢٣ - ٢٢٥ ، صبح الأعشى ٢ - ١٢٥ / ٢ - ١٢٦» .

(٦) الكافور : أشرف الصموغ قَدْرًا ، وأحقها بالتقديم ، لفضله في التركيب ، ودخوله في أصناف الأدوية والطيب ، ويقال فيه (الكافور) بالقاف بدل الكاف ، ينبع شجره في سفوح الجبال ، كما جاء في «نهاية الأربع» أيضًا عدد من الطرق في كيفية جمعه؛ منها أن يُحدَث شق في الشجرة ، ويُجْمَع ما ينزل من سائل صمغى في إناء ، وقيل إنه يوجد بين لقاء الشجرة وعددها مثل الصمغ صغارًا ، وكبارًا ، وقيل إنه يوجد في قلب العود بعد الخشب منظماً مثل الملح فِيَقْلُع منه ، وهو عدة أصناف . «نهاية الأربع ١١ / ٢٩٢ - ٢٩٥ و ٥٢٩٥ - ٥٣٠» .

وجاء في «إحياء التذكرة ٥٢٩ - ٥٣٠» أن أصل شجر الكافور من الصين واليابان يبلغ ارتفاعه عادة من عشرة إلى خمسة عشر متراً ، وربما يزيد يُرْعَز للزينة ، وَطَرْدُ الذباب .

وللمزيد من التفصيل انظر : «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤٢ / ٤ - ٤٤» .

(٧) الكركدن : يكثر في بلاد الهند ، ويسُمَّي الحمار الهندي ، له قرن واحدة في جبهته ، مُحَدَّد الرأس إلا أنه ليس بالطويل «الصبيح ٢ / ٣٥ ، نزهة المشتاق ٢ / ١٤٠» .

(٨) سيف الهند : تُنسب إلى الهند لأنها تصنع فيها ، ويقال : سيف مُهَنَّد . «الصبيح ٢ / ١٤٠» .

(٩) الزئبق : سِيال معدني ، منه ما يُستَقَى من معدنه ، ومنه ما يُسْتَخْرَج من حجارة معدنية بالنار ، معَرَّب (زيوه) بالفارسية ، والعامة تقول له : (الزَّيْبِق) وأصحاب الكيمياء المعدنية يُكَثُّون عنه بالعبد القرَّار لأنه يُغْرِي من النار ، ويستخدمونه في أكثر الأعمال «محيط المحيط ٢٦٤» .

كما جاء في «المعجم الوسيط ١ / ٣٨٧» أنه «عنصر فَلَزِيٌّ شائع في درجة الحرارة العاديَّة» .

(١٠) الْبِلُور : حجر بُورقَي وأصل اليقو提ة ، إلا أنه قُدِّت به أعراضٌ عن رتبة الياقوت ، اختلف في نفاسته يوجد في أماكن بربة من أرض الحجاز ، وهو أجوده ، وما يأتي من الصين دونه ، أما ما يأتي من بلاد الفرنج فهو غاية الجودة . أجوده أصفاه ، وأنفاه ، وأشفه ، وأبيضه وأسلمه من التشير ، يذوب في النار ، كما يذوب الزجاج ، يقبل الصبغ ، وإذا استقبل به الشمس ووَجَهَ موضع الشعاع الذي يخرج منه إلى خرقه سوداء احترق ، واستعملت فيها النار «الصبيح ٢ / ١١٣ - ١١٤» .

(١١) محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن الريـع ، أبو عبد الله ، وأبو حامد المازني القيسي الأنـدلسي الغرناطيـي ، عـالم أـدب حـافظ رـحـالة ، ولـد بـغرـنـاطـة سـنة ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ مـ ، رـحل إـلـى الإـسكنـدرـية ، وـحدـثـ في دـمـشـقـ ، وـسـمـعـ في بـغـدـادـ ، دـخـلـ خـراسـانـ ، ثـمـ رـجـعـ إـلـى الشـامـ ، وـأـقامـ في حـلـبـ ، وـتـوـفـيـ في دـمـشـقـ هـ / ٥٦٥ مـ . لـهـ كـتـبـ منها : «تحـفـةـ الـأـلـبـابـ وـنـخـبـةـ الـإـعـجـابـ» نـشـرـهـ الـمـسـتـشـرـقـ الـفـرـنـسـيـ جـرـيـلـ فـرـانـ فيـ الـمـجـلـةـ الـآـسـيـوـيـةـ ، وـ«نـخـبـةـ الـأـذـهـانـ فـيـ عـجـائـبـ الـبـلـدـانـ» وـ«عـجـائـبـ الـمـخلـوقـاتـ» وـ«الـمـعـرـبـ عـنـ عـجـائـبـ الـمـغـرـبـ» .

ترجمته في : الـواـفـيـ بـالـوـفـيـاتـ ٣ / ٢٤٥ - ٢٤٦ وـتـارـيـخـ آـدـابـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ ٣ / ٩٠ وـمـعـجمـ الـمـطـبـوعـاتـ ٢٩٩ ، وـالـأـعـلـامـ ٦ / ٢٠٠ .

العظيم، والعدل الكبير، والنعمة الجليلة، والسياسة الحسنة، والرخاء الدائم، والأمن الذي لا خوف معه، في بلاد الهند والصين. وأهل الهند أعلم الناس بأنواع: الحكمة، والطب، والهندسة، والصناعات العجيبة، التي لا يُقدر على مثلها.

وفي جبالهم وجزائرهم ينبت شجر العُود والكافور، وجميع أنواع الطيب: كالقرنفل^(١) وجوز بُوا^(٢)، والسبيل^(٣)، والدار صيني^(٤) والقرفة^(٥)، والسليخة^(٦)، والقاقلة^(٧)، والكبابة^(٨)، والبسّاسة^(٩)، وأنواع العقاقير، / ١٠ / وعندهم غزال

(١) القرنفل: أجوده القوي اليابس، الجاف الذكي، ومنه الرَّهْرُ، ومنه الشَّرْ، والزَّهْرُ منه ما صَفْرُ، والثُّمر منه ما غَلْظُ، وهو شجر عظام يشبه شجر الدر، يجلب من بلاد سفاله الهند، وأقصيها، له بالمواضع التي هو بها روانٍ ذكية ساطعة الطيب جداً، حتى أنهم يسمون أماكن القرنفل بريح الجنة. «كتاب البلدان» ١٢١-١٢٢، «نهاية الأربع» ٤٥-٤٦.

(٢) جوز بُوا: هو جوز الطيب، شجر كبير دائم الخضرة، يوجد في جزر الهند والملايو، وسيلان، سهل الكسر، رقيق القشرة، طيب الرائحة أجوده أشده حمرة، وأدسمه وأزرَّه، وأدناه أشده سواداً وأخفه وأويسه، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» ١/١٧٥، «إحياء التذكرة» ٢٢٧-٢٢٨.

(٣) السُّبُل: الناردين، وهو إما هندي إلى السواد طيب الرائحة، أو رومي ويُسمى «الإقليمي» يشبه الهندي في رائحته وأفعاله ولكنه أضعف، وسبيل الجبل المشهور بسبيل الأسد، وهو المر، ويوجد منه عشرة أنواع، وهي نباتات عطرية أشهرها عند العطارين السنبل الهندي وسوقه العطرية رائجة، ثم الرومي، ثم الخزمي، ويقال إن الأدوية التي تنبت فيها شجرة السنبل تكثر فيها الأفاعي، «كتاب البلدان» ١٢١، المخصص ١١/١٩٧، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» ٣٦/٣-٤٠، «نهاية الأربع» ٤٣/١٢، والصبح ٢/١٢٠، «إحياء التذكرة» ٣٧٣-٣٧٦.

(٤) الدار صيني: معناه بالفارسية شجرة الصين، ومنه الصيني، ومنه المعروف بالدارصوص، ومنه المعروف بالقرفة، وهي قرفة القرنفل، والدارصيني جسمه أضخم، وأثخن، وأكثر تخلخلًا من القرفة، وهو إلى القرفة أقرب لأن حمرته أقوى من سواده وأظهر، حريف الطعام، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» ٢/٨٣-٨٥.

(٥) القرفة: منها غليظ، ومنها رقيق، وكلاهما أحمر وأملس مائل إلى الحلو، فيه قليلاً، وظاهره خشن أحمر اللون إلى البياض قليلاً، رائحتها ذكية عطرة، وفي طعمها حدة، وحرافة مع حلاوة يسيرة. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» ٨٣.

(٦) السليخة: نبات عطري، كأنه قشر منسخ، تسمى باليونانية (كاسيلا أروماتيكم) وأنواعها كثيرة، وهي متشابهة، ولا تختلف إلا قليلاً حسب النبت، واسمها العطاري (قرفة الصين)، وهي من نفس فصيلة القرفة العادي، وهي أضعف من القرفة العادي، في قوتها زيتها، وقشورها أغليظ، «إحياء التذكرة» ٣٥٩.

(٧) القاقلة: نوع من الأفاوية العطرية، وهو صيفان: كبير، وصغير، والكبير حب أكبر من النبت بقليل له أقماع، وقشر، وفي داخله حب صغير مربع طيب الرائحة، ذو دَسَمَّ أغبر يؤتى به من اليمن، والهندي، وهو ذو طعم حريف. أما الصغير فليس له أقماع ولا قشر وطعمه أكثر حرافة، وأقل قبضاً. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» ٤/٢.

(٨) الكبابة: هو حب العروس: مثل الفلفل، لونها أصهب، منها كبير، ومنها صغير، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» ٤/٤.

(٩) البَسَاسَة: هي، قشور جوز بُوا الذي يكون فوق القشرة الغليظة، وهي لباسه، وقشره الغليظ لا يصلح =

المسك^(١)، وقطُّ الزَّيَاد^(٢)، ويخرج من بلادهم، أنواع اليواقيت، وأكثرها من جزيرة سرَّتِيب^(٣).

وقد حكى ابن عبد ربه^(٤)، في العقد^(٥)، عن نعيم بن حمَّاد^(٦)، قال: بعث

لشيء، وئمه يصلح للطبيب، وأجودها، الحمراء، وأدناء السوداء «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية».^(٧)

(١) في تحفة الأنابيب ٤٨-٤٩: «حيوان المسك الفائق، وهو حيوان كالغزال، يجمع المسك في سرته» وجاء في «مروج الذهب ١/١٨٠-١٧٤»، و«نهاية الأربع ٣/١٢-٦»، و«صبيح الأعشى ٢/١١٩»، أن أصل المسك من دابة ذات أربع أشيه بالظبي الصغير، توجد في مغارات الصين، وبين التبت والصين من بلاد الترك تصاد، وتؤخذ سريرها بما عليها من شعر، والمسمك فيه دم عبيط.

(٢) في تحفة الأنابيب ٤٩: «عندتهم حيوان الزَّيَاد، وهو نوع من الطبيب، وذلك الحيوان كالستور يحمل إلى بلد المغرب، وذلك عرق يؤخذ من ذلك الحيوان كالقطaran الأسود ثخيناً يسيل من جسده، وتزيد رائحته بالمغرب بحيث يكون أذكى من المسك».

(٣) سرَّتِيب: ديب بلغة أهل الهند، جزيرة في بحر (هركند) بأقصى بلاد الهند، فيها جبل (الرَّهون)، هي بط عليه آدم عليه السلام. «معجم البلدان ٣/٢١٦-٢١٥» كما يطلق عليها أيضاً اسم (سنكليليب) كتاب البيروني «٤٦٨» راجع أيضاً «نَزَهَةُ الْمُشْتَاقِ ٧-١٢»، وهي التي يطلق عليها اليوم، جمهورية سريلانكا «جغرافية القرارات ٢٩٣».

(٤) أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن خديبر بن سالم الأندلسي، أبو عمر: الفقيه، الأديب الإمام صاحب العقد الفريد. من أهل قرطبة ولد سنة ٢٤٦ هـ/٩٦٠ م. كان جده الأعلى (سالم) مولى لهشام بن عبد الرحمن بن معاوية. وكان ابن عبد ربه شاعراً مذكوراً فغلب عليه الاشتغال في أخبار الأدب وجمعها. له شعر كثير، منه ما سماه «الممحصات» وهي قصائد ومقاطع في المواعظ والزهد، نقض بها كل ما قاله في صباح من الغزل والنسيب. وكانت له في عصره شهرة دائمة. وهو أحد الذين أثروا بأدبهم بعد الفقر. أما كتابه «العقد الفريد - ط» فمن أشهر كتب الأدب. سماه «العقد» وأضاف التسخين المتأخر من لفظ «الفريد». وقد طُبع ديوانه «خمس قصائد» وأصيب بالفالج قبل وفاته أيام. توفي سنة ٣٢٨ هـ/٩٤٠ م. ولجرائيل سليمان جبور اللبناني كتاب سماه «ابن عبد ربه وعقده - ط» ولفؤاد أفرام البستاني «ابن عبد ربه - ط».

ترجمته في: جلدة المقتبس ١٠٤-١٠٣ رقم ١٧٢، تاريخ علماء الأندلس لابن الغرضي. وبغية الملتمس ١٣٧ وابن خلكان ١/٣٢، وسير أعلام النبلاء ٢٨٣ رقم ١٢٦، وفيه أن الذي كان مولى لهشام هو جدبر بن سالم. والبداية والنهاية ١١/١٩٣ ومجمل المجمع ١٥/٤٨٨ وبروكلمان في دائرة المعارف الإسلامية ١/٢٢٣ ويتيمة الدهر ١/٣٦٠-٤١٢، الأعلام ١/٢٠٧، معجم الشعراء للجعوري ١/٢٠١.

(٥) هذا النص في كتاب الحيوان للجاحظ.

(٦) نعيم بن حمَّاد بن معاوية بن الحارث بن هَمَّام بن سلمة بن مالك، الإمام الحافظ، أبو عبد الله الخزاعي، المروزي، الفرضي، الأعور صاحب التصانيف، أول من جمع المستدي في الحديث، وأعلم الناس بعلم الفراتض، من أهل مرو، طلب الحديث في العراق، والحجاج، ثم نزل مصر، ويفي بها حتى أشخاص إلى العراق في خلافة الواقع بالله بن المعتصم (٢٢٧-٢٣٢ هـ/٨٤٦-٨٤١ م).

ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز، كتاباً فيه:

«من ملك الأملال الذي هو ابن ألف ملك، وتحته بنت ألف ملك، وفي مربطي ألف فيل، وله نهران ينبعان العود، والألوة^(١)، والجوز^(٢) والكافور، والذي يوجد ريحه على اثنى عشر ميلاً، إلى ملك العرب، الذي لا يشرك بالله شيئاً.

أما بعد: فإني بعثت بهدية، وما هي هدية، ولكنها تحية، وقد أحببت أن تبعث إلى رجالاً يعلمني الإسلام والسلام». يعني بالهدية، الكتاب.

حدّثني الشيخ، العارف، المبارك، بقية السلف الكرام، مبارك بن محمود الإنباري^(٣)، من ولد مجد شاذان، حاجب خاصي^(٤)، نفع الله ببركاته، وهو الشقة الثبت، وله الاطلاع على ما يحكى، لمكانته، ومكانة أسلافه، من ملوك هذه البلاد. قال: إن هذه المملكة متعددة غاية الاتساع، يكون طولها ثلث سنين بالسير المعتمد، وعرضها ثلاثة سنين، وعرضها ما بين سومنات^(٥)، وسرنبيب، إلى غزنة^(٦)، وطولها

= وامتحن بالقول بخلق القرآن، فلما رفض حبس في سامراء، ولم يزل محبوساً حتى توفي في السجن يوم الأحد لثلاثة عشرة ليلة خلت من جمادي الأولى سنة (٢٢٨ هـ/٨٤٢ م)، وقيل سنة (٢٢٩ هـ/٨٤٣ م).

من كتبه: «الفتن والملاحم - خ» من نسخة في جامعة الرياض برقم ٢١٦.

ترجمته في: طبقات ابن سعد ١٩٩/٧، والتاريخ الكبير ١٠٠/٨، وتاريخ بغداد ٣٠٦/١٣، ٣١٤-٣٠٦، وحسن المحاضرة ٣٤٧/١، وسيرة أعلام البلاء ٦١٢/٥٩٥-٥٩٥، تهذيب التهذيب ٤٥٨/١٠-٤٦٣، ميزان الاعتدال ٢٣٨/٣، ممناقب الإمام أحمد ٣٩٧، هدية العارفين ٤٩٧/٢، الأعلام ٤٠/٨.

(١) الألوة: نوع من الشجر، إذا أحرقت أعوداه ظهرت منها رائحة جميلة، وهو من الفصيلة «الماريونية» وفصيلة «الأنجويجية» يخلط بفصيلة القرينة، ويسمى «العود الهندي»، أو «الند». «المعجم الوسيط ٢/٨٤٨».

(٢) الجوز: لعله (جوز الهند)، وهو النارجيل.

(٣) هكذا وردت أيضاً في «الوافي بالوفيات ٣/١٧٣»، أما في «الصبح ٥/٦٢» (الإنباري)، وجاء فيه (٥/٧١)، أن إنباري، نسبة إلى أبيات، وهي مدينة على ساحل بحر الهند، جاء في «الوافي بالوفيات ٣/١٧٣»، أنه من كبار دولة (محمد تغلق شاه)، ثم تردد، وعلمه هو الذي ترجم له (الحسيني) في «نزهة الخواطر ٢/١١٩» وقال عنه: «الشيخ الصالح مبارك ابن القاضي كريم الدين بن برهان الدين العمري البلاخي، ثم الكوفياني، أحد الرجال المعروفين بالصلاح والفضل، قدم الهند، وتقرب إلى الملوك، فجعلوه ميرداد، بدار الملك بدھلي، وتلك رتبة سامية دون الوزارة، فاشتغل بها زماناً، ثم لازم الشيخ نظام الدين محمد بن أحمد البدایوني)، وأخذ عنده الطريقة، ورفض الدنيا وأسبابها.

(٤) حاجب خاصي: أي الحاجب الخاص.

(٥) سومنات: من أشهر مدن إقليم (كجرات)، وهي بلدة كبيرة على ساحل البحر، بها كنيسة عظيمة، فتحها محمود الغزنوي، وكسر صنمها، «نزهة الخواطر ٩/١١٣».

(٦) غزنة: في معجم البلدان ٤/٢٠١: أن صحة لفظها عند العلماء «غُرْنِين»، ويعربونها فيقولون:

من الفرضة^(١) المقابلة لعدن، إلى سد الإسكندر^(٢) عند مخرج البحر الهندي من البحر المحيط، متصلة المدن ذات المنابر، والأسرة^(٣) والأعمال، والقرى، والضياع^(٤)، والرساتيق^(٥) لا يقطع بينها، ولا يفصل بينهما خراب.

قلت: وفيما ذكره من هذه المسافة، طولاً، وعرضًا - نظر - إذ لا تفي جميع المعمرة بهذه المسافة، اللهم إلا إن كان مراده أنَّ هذه مسافة من ينتقل فيها حتى يحيط بجميعها، مكاناً، فيحتمل على ما فيه. قال: وفي طاعة هذا السلطان^(٦)، أهل بلاد قرَاجِل^(٧) لهم منه هدنة وأمان، على قطائع^(٨) تُحمل إليه منهم يتحصل منها مال. وهذا جبل قرَاجِل به سبعة معادن ذهبًا يحصل منها ما لا يُحصى، وجميع هذه البلاد

= «جزنة»، وهي تطلق على مجموع بلاد «زابلستان» «وغزنة» قصبتها وهي الحد الفاصل بين خراسان والهند، ببردها شديد، تُسبِّب إليها عدد من العلماء، اتخاذها محمود بن سبكتكين عاصمة لدولته، وكذلك أبناؤه من بعده. يذكر «كي لسترنج» في «بلدان الخلافة الشرقية» (٣٨٧)، أنَّ غزنة اشتهرت في ختام المئة الرابعة للهجرة ومطلع المئة الحادية عشرة للميلاد، عندما أصبحت عاصمة للغزنويين، جدد بناءها محمود الغزنوي سنة (٥٤٤هـ/١١٤٩م).

(١) الفرضة: الفرائض مواضع، فقد يجوز أنْ يعني الموضع نفسه، وقد يجوز أنْ يعني القصور يشبهها بمشاريع المياه. *السان العرب* ٧١/٩.

(٢) سد الإسكندر: هو الإسكندر ذي القرنين وهو الذي بني سداً بين القوم الذين استنجدوا به، وبين يأجوج، ومجوج، الذين أفسدوا في الأرض، كما قصَّ ذلك القرآن الكريم في «سورة الكهف: الآيات ٩٣-٩٨». راجع ما جاء في «كتاب أحسن التقاسيم ٣٦٢-٣٦٥».

(٣) الأسرة: أرض سرّ كريمة طيبة، وقيل هي أطيب موضع في «السان العرب ٦/٢٣».

(٤) الضياع: جمع (ضياعة) ومعناها مال الرجل من النخل، والكرم، والأرض، كما تأتي بمعنى الأرض المُغْلَة، وتأتي أيضاً بمعنى العقار. *السان العرب* ١٠٠/١٠، المصباح المنير ٢/١٢.

(٥) الرساتيق: (الرُّزداق)، (الرُّستاق)، واحدٌ، فارسي مُعرَّب، ألحقوه «بقرطاس»، ويقال: (رُزداق)، (رُستاق)، والجمع (الرساتيق)، وهي السواد، قال ابن السكikt: (رسداق) و(رزداق)، ولا تقل: (رساتق)، ومعناه بيوت مجتمعة. *السان العرب* ١١/٤٠٦-٤٠٧.

(٦) أي (محمد تغلق شاه) أو طفل شاه.

(٧) قرَاجِل: جاء في رحلة ابن بطوطة ٤٨٣: أن بها جبل يقال له (جبل قرَاجِل) كبير يتصل بمسيرة ثلاثة أشهر، بينما وبين دهلي مسيرة عشرة أيام، وسلطانه من أكبر سلاطين الكفار. كما جاء في «الوافي بالوفيات» (١٧٣/٢) أنه جبل يقارب المحيط الشرقي، وهي (أي بلاد قرَاجِل) بلاد كفار، فيها معادن الذهب، وللسلطان (محمد تغلق شاه) أثاثة جزيلة عليها.

(٨) قطائع: الإقطاع، هو أنْ يُقطع لنفسه، أو لغيره أرضاً، أو أي نوع من المال الثابت، أو المنقول مما يجوز فيه تصرفه وتتنفذ فيه أوامرها، وهو نوعان: إقطاع تملِك، وإقطاع استغلال، وتُسمى الأرضون (قطائع)، واحدتها (قطيعة)، وقد يُطلق الإقطاع أحياناً على الضريبة، كما حدث في العهد الأيوبي. «الأحكام السلطانية ١٩٠، مفاتيح العلوم ٥٦، النظم الإقطاعية ٤٧٢».

بِرًا وبحراً مجموعة لسلطانها القائم الآن. إلا الجزائر المغلقة في البحر، فأما الساحل، فلم يبق به قيد فتُر إلا بيده فتح مَعَالِيقَه، /١١/ وَمُلْكُ معاقله، وله الآن السكّة والخطبة في جميع هذه البلاد، لا يشاركه فيها مشارك. قال: ولقد حضرت معه من الفتوحات العظيمة، ما أقوله عن المشاهدة والعيان على الجملة، لا على التفصيل، خوفاً من إطالة الشرح. فأول ما فتح مملكة «تِلْنِك»^(١)، وهي واسعة البلاد، كثيرة القرى، عدّة قراها تسع مائة الف قرية وتسعمائة قرية، ثم فتح بلاد «جَاجِنْكَز»، وبها سبعون مدينة جليلة كلها بَنَادِر^(٢) دخلها من الجوادر^(٣)، والفيلة، والقمash المنوّع، والطّيب، والأفاويه^(٤). ثم فتح بلاد «الكنوتي»، وهي كرسى تسعة ملوك، ثم فتح بلاد «دَوَاكِير»^(٥)، ولها أربع وثمانون قلعة، كلها جليلات المقدار.

قال الشيخ برهان الدين أبو بكر بن الخلال البزي^(٦): وبها ألف ألف قرية ومائتا ألف قرية.

عدنا إلى حديث الشيخ مبارك. قال الشيخ مبارك: (ثم فتح بلاد «دُورَسَمِند»^(٧)، وكان بها السلطان «بَلَالُ الدِّيَو» [وخمسة] ملوك كفار، ثم فتح بلاك «المَعْبَر»^(٨)، وهو

(١) تِلْنِك: ذكر ابن بطوطة: في رحلته ٤٣٨: أنها على مسيرة ثلاثة أشهر من (دلهي) وقد وجه إليها السلطان (محمد تغلق شاه) عندما استقر في السلطة. ابنه في عسكر عظيم، فيه كبار الأمراء، مثل الملك (تمور)، والملك (تكين)، والملك (كافور)، والمهردار، والملك (بيزم)، وغيرهم.

(٢) بَنَادِر: البَنَادِر، مرسى السفينة في الميناء، وقيل هو الميناء، وقيل المدن البحريّة، وقيل مقر التجار من المدن وقيل هو البلد الكبير الذي تتبعه بعض القرى. «القاموس المعجم ١/٣٩١، محظي المحظي، والمعجم الوسيط ١/٧١».

(٣) نص الصبح: (٨٩/٥)، «دخلها من الجوهر، والقمash النوع، والطّيب، والأفاويه».

(٤) الأفاويه: الفُوه: الطّيب، والجمع أَفَوَاه، مثل قُفل وأَقْفال، وأفَاوِيه جمع الجمع. ويقال لما يُعالج به الطعام من التوابل، أَفَوَاه الطّيب. «المصباح المنير ٢/١٤١».

(٥) في «الصبح ٨٩/٥» زيادة (ويقال لها دَكِير)، كما جاء في «الصبح» ٥/٧٠، أنها مدينة، ذات إقليم متسع، وهي مدينة قديمة جدّدها السلطان (محمد تغلق شاه)، وسمّاها قبة الإسلام، وفارقها، ولم تتكامل بعد.

(٦) وردت في الأصل: «البيزي» وما صوبناه من المراجع الأخرى منها «الصبح» ٨٩/٥ (نصها «البزي») وفي موضع آخر من «الصبح ٥/٦٩»: (برهان الدين بن الخلال البزي، الكوفي).

(٧) كما يقال لها (بَسَمَد) أو (قَسْمَد) وهي مدينة خصبة تقع إلى الشرق من نهر (مهران)، (السندي) حالياً، على يُعد فرسخ، وقيل نصف فرسخ «المسالك والممالك لللاصطخري ١٠٤، صورة الأرض ٢٧٦، ٢٧٩، موسوعة السندي والبنجاب ٢/٢٨٧».

(٨) المَعْبَر: جاء في تقويم البلدان ٣٦١: «وفيها يُجلب الناس، ويقصارتها يُضرب المثل، وفي شمالها جبال متصلة ببلاد (بلهرا) ملك ملوك الهند، وفي غربها يصب نهر (الصوليان) في البحر».

إقليم جليل له تسعون مدينة بُنادر على البحر يجيء من دخلها: الطيب، واللأنس، والقماش المنوع، ولطائف الآفاق).

وحدثني الفقيه العلامة سراج الدين أبو الصفا عمر بن إسحاق بن أحمد الشبلاني العوَضي^(١)، من إقليم عَوْض، من الهند، وهو من أعيان الفقهاء، الذين يحضرون حضرة السلطان^(٢) بدھلي، أن أمميات الأقاليم التي في مملكة هذا السلطان ثلاثة وعشرون إقليماً وهي: إقليم «دھلي»^(٣)، وإقليم «الدواكير»، وإقليم «المليتان»^(٤)، وإقليم «کهران»، وإقليم «سامانا»^(٥)، وإقليم «سيوسنان»^(٦)، وإقليم «وجا»، وإقليم «هاسي»^(٧)، وإقليم «سرستي»^(٨)، وإقليم «المَعْبَر» وإقليم «تِلْنَك»، وإقليم

(١) سراج الدين، أبو حفص، عمر ابن الشيخ نجم الدين شهاب الدين أحمد الغزنوبي، الهندي، المعروف بالسراج الهندي، هندي الأصل والمولد، مصرى الدار والوفاة، قاضي قضاة الحنفية في مصر خمسة عشر عاماً، ولد سنة (١٣٠٤ هـ / ١٣٠٥ م) وقيل سنة (٧٠٥ هـ / ١٣٥٦ م) قدم القاهرة قبل (سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م) قبل الأربعين من عمره. تولى قضاء العسكر في مصر سنة (٧٥٨ هـ / ١٣٦٧ م). من تصانيفه: شرح المُعْنَى في أصول الفقه، قاضي قضاة الحنفية استقلالاً سنة (٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ م). من تصانيفه: شرح المُعْنَى في أصول الفقه، للحنازي، زبدة الأحكام في اختلاف الأئمة الأعلام، شرح بديع الأصول، لابن الساعاتي، شرح الهدایة، المسنفى (التوضیح) الشامل في الفقه، وغيرها. توفي في سابع رجب سنة (٧٧٣ هـ / ١٣٧١ م).

ترجمته في: السلوك لمعرفة دول الملوك / ١٥٨١، ٢٠٠، ٢٣١-٢٣٠، وحسن المحاضرة / ٤٧٠-٤٧١، والنجم الزاهرا / ١١-١٢١، والمنهل الصافي / ٤٩٥، وشذرات الذهب / ٦-٢٢٨، ومنفتح السعادة / ٥٨، وزهرة الخواطر / ٩٥-٩٦، والأعلام / ٤٢/٥.

(٢) يقصد به السلطان (محمد تغلق شاه)، وقد ذكر ابن بطوطة في «رحلته»^{٥٠٣} خبر وجود هذا القاضي في حضرة السلطان. وكان يطلق عليه «قاضي قضاة الممالك في مصر».

(٣) دھلي: إحدى مدن (شاهجان آباد)، ويقال لها (دَلَّي) «نزة الخواطر» / ٩٧٦.

(٤) المُلْتَان: ولادية في إقليم السند، ملتان أيضاً مدينة مشهورة، أُتَّخذت قصبة لتلك الولاية، يسمى بها العرب «فَرْج بَيْت الْذَّهَبِ»، لأنها فُتحت في أول الإسلام، على يد (محمد بن يوسف) أخي (الحجاج بن يوسف الثقفي) وكان المسلمون في ضيق، وقحط، فوجدوا فيها ذهباً كثيراً فاتسعوا به، وسُمِّيت بـ(المليتان) نسبة إلى صنم كبير، كانت تعظمه الهندود. (المسالك والممالك لابن خرداذبة / ٥٦، المسالك والممالك / ١٠٣، صورة الأرض / ٢٧٨، نزهة المشتاق / ٤٦-٤١، نزهة الخواطر / ٩٠٩، موسوعة السندي البنجاب / ٢٨٤).

(٥) سامان: في نزهة الخواطر / ٩٨١: «سامانة كانت بلدة حسنة من توابع سرهندا».

(٦) سيوسنان: من أشهر مدن إقليم (تهته)، وبينها وبين ملتان مسيرة عشرة أيام، وُسُمِّيَ اليوم (سيوهن)، وتقع في مديرية (داود). «نزهة الخواطر» / ١١١، الحكومات العربية / ٦١، موسوعة السندي البنجاب / ٢٧٧.

(٧) هاسي: في رحلة ابن بطوطة / ٤٤٨، ٥٠١: (حانسي)، وفي نزهة الخواطر / ٩٨١: (هانسي)، من أشهر مدن إقليم (شاهجان آباد).

(٨) سرستي: يذكر ابن بطوطة في رحلته / ٤١٣: أنه وصل إليها بعد سَفَرِ دام أربعة أيام من مدينة

«كَجُرَات»^(١)، وإقليم «بَدْوَان»^(٢)، وإقليم «عِوَض»، وإقليم «القِنْوَج»^(٣)، وإقليم «لَكْنُوتِي»^(٤)، وإقليم «بِهَار»^(٥)، وإقليم «كِرَة»^(٦) وإقليم «مِلاوَة»^(٧)، وإقليم «لَهَاوَر»^(٨)، وإقليم «كَلَافُور»^(٩)، وإقليم «جَاجَنْكَز»، وإقليم «تَلْنَج»، وإقليم «دُورْسَمَنْد» وهذه «الأقاليم» تشتمل على ألف مدينة، ومائتي مدينة، كلها مدن ذات نِيَابَات^(١٠)، ١٢ / كباراً، وصغاراً، وبجميعها الأعمال، والقرى العامرة الآهلة،

=

(أَجُودَهَن)، وهي مدينة كبيرة تشتهر بكثرة الأرز، الذي يحصل منها إلى مدينة (دِهْلِي)، ويُقال لها (سرست)، و(سرشت). وربما تكون هي منطقة نهر (سَرْسُوتِي) وربما يكون موقعها الآن مدينة (سَدَهُور) ناحية سوراته الساحلية جنوب إقليم (كجرات)، المعروف حالياً (سوراتش). «تعريف مدن الهند وتحديثها» (العصور مجلد ٢ جزء ٢ ١٤٠ / ١٤٠).

(١) كَجُرَات: إقليم طوله ٣٠٢ ميل، وعرضه ٢٧٠ ميل، ويشمل ثلاثة عشرة مدينة. «نَزَهَةُ الْخَوَاطِرِ» ٧١ / ٩، ٧٢.

(٢) بَدْوَان: من مدن (شاهجان آباد) بينها وبين (دِهْلِي) مسافة عشرين يوماً، فتحها سلطان دولة المماليك في (دِهْلِي)، (قطب الدين أَيْكَي). «نَزَهَةُ الْخَوَاطِرِ» ٨٠ / ٩.

(٣) في الأصل «الفيوج» والتصحيح من رحلة ابن بطوطة ٤٩١ والصبح ٤٩١، وجاء اسمها في كتاب البيروني ١٥٨ : «كِنْوَج»، وذكر أنها تقع على غرب نهر (الكنك) وقد كانت بلداً كبيراً، إلا أنها تعطلت بسبب نقل مقر الملك عنها، إلى مدينة (بَارِي) كما جاء في «نَزَهَةُ الْخَوَاطِرِ» (٨٥، ٥٩ / ٩)، يقال لها (كَسْتُور)، وهي مدينة حسنة الأبنية، حصينة لها سور عظيم، كانت قاعدة مملكة الهند في القديم، فتحها (مُحَمَّدُ بْنُ سِكِّينِ الغَزْنَوِيِّ)، ثم (قطب الدين أَيْكَي)، وهي الآن بلدة صغيرة، خاوية على عروشها بينها وبين (دِهْلِي) مسيرة عشرة أيام.

(٤) لَكْنُوتِي: وَتُعْرَفُ بـ(لَكْنُو)، أو (لَكْنُوتِي)، وتقع شرق نهر (الكنك)، (الجانج)، إلى الجنوب من (القِنْوَج). «رَحْلَةُ ابْنِ بَطْوَطَةِ» (٤٨٩) و«أَطْلَسُ هَازَادِر» (٤١) و«أَطْلَسُ تَارِيخِ الْإِسْلَامِ» (٤٦ - ٢٤٦).

(٥) بِهَار: من أشهر أقاليم الهند، في العصر الإسلامي، (بِهَار) أيضاً اسم لمدينة اشتُرِخت عاصمة لأقاليم عُرِفَ باسمها، وقد كانت بلدة كبيرة، وعاصمة، ثم تحولت إلى بلدة صغيرة تابعة لإقليم (عَظِيم آباد) في الوقت الحاضر. «نَزَهَةُ الْخَوَاطِرِ» (٩٤ / ٩ - ٩٥).

(٦) كِرَة: ويقال لها (الكِيرِج، أو كِهِيدَا) عاصمة إقليم (الكجرات)، من مدن الهند القديمة، وهي حالياً بُلَيْدَة صغيرة بالقرب من مدينة (أَحْمَدَ آبَاد) التي أنشأها المسلمون في القرن التاسع الهجري، فأصبحت عاصمة للإقليم. «تعريف مدن الهند، وتحديثها» (العصور مجلد ٢ جزء ٢ ١٤١ / ١).

(٧) مِلاوَة: ويقال لها مَالَوَه، ولاية فسيحة طولها من (كوتَه) إلى (سُودَر) ٢٤٥ ميلاً، وعرضها من (جَنْدِيَرِي)، إلى (أَنْدَرِيَا) ٢٣٠ ميلاً. «نَزَهَةُ الْخَوَاطِرِ» (٩ / ١١٥)، راجع أيضاً «تعريف مدن الهند وتحديثها» (العصور مجلد ٢ جزء ١ ١٤٤).

(٨) في الأصل: «نَهَاوَر» والتصحيح من «الصِّبَغ / ٥، ٧٧، وَنَزَهَةُ الْخَوَاطِرِ / ٩، ٦٤، ١٠٦» وجاء فيه، أنها اسم مدينة أطلقه العرب، على مدينة (لاهور)، وكانت يطلقون عليها أَبْحِيَانَا (أَبْهَرُ)، وهي قصبة بلاد (البنجاب)، تقع على طريق القواول بين الهند، وأفغانستان.

(٩) يُقال لها أيضاً (كَلَانُور)، و(كَلَافُور)، وهي من أهم مدن (لاهور). «نَزَهَةُ الْخَوَاطِرِ» (٩ / ١٠٧).

(١٠) نِيَابَات: الْيَابَة، سلطان مختصّ فيما هو نائب عن الحضرة، والنائب هو المتصرف المطلق التصرف

ولا أعرف ما عدد قراها ، وإنما أعرف أنَّ إقليم «القِنْوَج» مائة وعشرون لُكَّاً ، كل لـكَ مائة ألف قرية ، فيكون اثنى عشر ألف قرية . وإقليم «تِلْنُك» وهو ستة وثلاثون لُكَّاً ، فيكون ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف قرية . وإقليم مالُوه ، أكبر من إقليم «القِنْوَج» ، ولـكَني لا أحـزـرـكـمـ عـدـهـ . وأما «المـعـبـرـ» فيشتمـلـ عـلـىـ عـدـةـ جـزـائـرـ كـبـارـ كـلـ واحدةـ مـنـهـاـ مـمـلـكـةـ جـلـيلـةـ ، مثلـ «كـوـلـمـ»ـ وـ «مـتـنـ»ـ ، وـ «الـسـيـلـانـ»ـ ، وـ «مـلـيـيـارـ»ـ .

وقال الشيخ «مبـارـكـ» : على «الـكـنـوـتـيـ»ـ مـائـاـ لـفـ مـرـكـبـ ، صـغـارـاـ خـفـافـاـ لـلـسـيرـ . إذا رـمـيـ الرـامـيـ فـيـ آخـرـهاـ سـهـمـاـ ، وـقـعـ فـيـ وـسـطـهـاـ ، لـسـرـعـةـ جـريـانـهاـ ، هـذـاـ غـيـرـ الـكـبـارـ ، وـلـاـ تـبـلـغـ بـعـضـ هـذـاـ عـدـدـ . وـمـنـهـ مـاـ فـيـ الطـواـحـينـ ، وـالـأـفـرانـ ، وـالـأـسـوـاقـ ، وـرـبـمـاـ لـاـ يـتـرـفـ بـعـضـ سـكـانـهـ بـعـضـ ، إـلـاـ بـعـدـ مـدـةـ ، لـاتـسـاعـهـ ، وـعـظـمـهـ . وـجـرـدـتـ مـنـ جـغـرافـياـ تـحـقـيقـاـ طـولـهـ ؛ وـهـوـ مـنـ الـوـاقـ وـاقـ^(١) ، إـلـىـ قـبـالـةـ عـدـنـ ، وـعـرـضـهـ مـنـ سـرـنـدـبـ ، إـلـىـ بـوـارـوـ الـوـاقـعـةـ غـرـبـيـ قـرـاقـفـ^(٢) . وأـقـولـ بـعـبـارـةـ أـبـسـطـ مـنـ هـذـاـ ، وـأـوـضـحـ لـمـنـ أـرـادـ تـأـمـلـ لـوـحـ الرـسـمـ فـيـ جـغـرافـياـ الـكـامـلـةـ ، فـنـقـولـ طـولـهـ مـنـ مـخـرـجـ الـبـحـرـ الـهـنـديـ ، مـنـ الـمـحـيطـ فـيـ نـهـاـيـةـ الـصـينـ ، فـيـ الـمـشـرـقـ دـوـنـ جـزـيرـةـ الـجـوـهـرـ ، وـالـوـاقـ وـاقـ الـمـائـلـةـ إـلـىـ

= في كل أمر يُراجع فيه؛ في المال، والجيش، والبريد، يستخدم الجندي، ويُرتَب الوظائف، إلا فيما هو جليل، كالوزراء، والقضاة، وكتاب السر، والجيش، فإنه ربما عَرَضَ على السلطان من يصلح، وقلَّ أن لا يُجَاب ويسمى أكابر التواب (ملك الأمراء)، وتنقسم النيابات إلى صغار تدخل في أعمال النيابات الكبار، ونيابات كبار كالشام مثلاً، وتولية السلطان في النيابات الكبار أكثر، بينما تولية التواب في الصغار أكثر، «الصبح» ٦/١٢-٧. وسيرد تفصيل ذلك في هذا السفر «ممالك مصر والشام والحجاج واليمن»،

(١) الـوـاقـ وـاقـ ، أوـ (الـوـقـوـاقـ)ـ : جاءـ فـيـ «كتـابـ الـبـيـروـنـيـ»ـ ١٦٩ـ : أنهاـ جـزـيرـةـ . منـ جـملـةـ (قـمـيرـ)ـ ، وـهـوـ اـسـمـ ، لاـ كـمـاـ تـنـظـهـ الـعـوـامـ مـنـ شـجـرـةـ حـمـلـهـ كـرـؤـوسـ النـاسـ تـصـبـحـ ، وـلـكـنـ (قـمـيرـ)ـ قـومـ الـأـوـانـهـ إـلـىـ الـبـيـاضـ ، قـصـارـ الـقـدـودـ ، عـلـىـ صـوـرـ الـأـتـرـاكـ ، وـدـيـنـ الـهـنـدـ ، مـحـرـمـيـ الـأـذـانـ ، وـأـهـلـ جـزـيرـةـ (الـوـقـوـاقـ)ـ مـنـهـمـ سـوـدـ الـأـلـوـانـ...ـ).

كما يذكر الفزويني في «آثار البلاد» ٣٣: أنها جزيرة في بحر الصين، تتكون من ألف وستمائة جزيرة، فيها ذهب وفيبر، حتى أن أهلها كانوا يتذدون سلاسل كلامهم وأطواق قردهم من الذهب، يأتون بالقمصان المنسوجة من الذهب.

كما يذكر في «عجائب المخلوقات» ١٥٤: أنها ألف وسبعمائة جزيرة، تملکها امرأة سُمِّيت بهذا الاسم، لأنَّ بها شجرًا يسمع من يمر بها صوته، كأنه يقول: «وـاقـ وـاقـ»، وأهلها يفهمون من هذا الصوت شيئاً، فيتطيرون منه. وقد أشار (البيروني) إلى خطأ هذا الاعتقاد.

(٢) قـرـاقـفـ: جاءـ فـيـ كـتـابـ (التـقوـيـمـ الـبـلـدـانـ)ـ ٤ـ .٥٠٤ـ -ـ ٥٠٥ـ : أنهاـ فـيـ أـقـصـيـ بـلـادـ الـتـرـكـ الشـرـقـيـ ، وـقـدـ كـانـتـ قـاعـدـةـ (الـتـترـ)ـ ، وـفـيـ جـهـاتـهـ (الـمـعـلـ)ـ ، وـهـمـ خـالـصـةـ (الـتـترـ)ـ ، وـمـنـهـ خـانـاتـهـ . كما جاءـ فـيـ «رـحـلـةـ اـبـنـ بـطـوـطـةـ»ـ ٦٤٤ـ : أنـ قـرـاقـفـ كـانـتـ مـنـ بـلـادـ (الـحـظـاـ).

الجنوب، آخذًا في البحر إلى حيث ينطفئ مغرباً على جزيرة الموجه^(١) - أم جزائر الصين - مع طول البحر، حتى ينتهي إلى فرضة المغرب، ثم يمتد من هناك براءً وبحراً، آخذًا في الشمال إلى بوارو وغربي قرافقُم، على حد بلاد كشتغد^(٢)، إلى حد بلاد مُكْران، ممتداً على نهر مُكْران^(٣)، إلى أن يدخل السندي في حده قريب كِرمان^(٤)، ثم ينتهي هناك إقليم الهند في البير^(٥)، وأخره المنصورة^(٦)، وتتصل جزائره في البحر

(١) جزيرة الموجه: هناك إشارة للمسعودي في «مروج الذهب ١٩٤-١٩٥» يذكر فيها، أن أهل هذه الجزيرة بپض، ذوو حسن وجمال ولهم خيل كثير، يشبه أهلها، أهل الصين في لباسهم، وهي بلاد منيعة تميز بالجبال الشاهقة.

(٢) كشتغد: لعلها تاشكند، أو طشقند، أو تاشكنت، وهي إقليم الشاس قدماً تقع إلى الغرب من (فرغانة)، على ضفة نهر (سَيْحون) الْيَمْنِي، الشمالية الشرقية، سماها العرب (الشَّان)، والفرس (جاج)، كانت أعظم المدن العربية، فيما وراء سَيْحون في العصور الوسطى، وكان يُقال لها (نبكث) لحق بها الدمار أثناء فتوحات (محمد خوارزم شاه)، ثم على يد (المغول) بعد ذلك، في أوائل المائة الثامنة الهجرية (الرابع عشرة ميلادية)، وهي عاصمة تركستان الروسية حالياً (بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٤، ٥٢٥).

(٣) مُكْران: اسم لسيف البحر، وولاية واسعة تشتمل على عدد من المدن والقرى، تقع الهند شرقها «معجم البلدان ٥/١٧٩-١٨٠»، وتعتبر جبال مُكْران القاحلة، امتداداً للمفازة الكبرى «بلدان الخلافة الشرقية ٣٦٧»، وتقع (مُكْران) حالياً في أقصى الجنوب من (إيران)، على ساحل بحر (عمان)، وهي بلاد صحراوية، يكاد يكون من المعندر اجياؤها. «الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي ٥٩١».

(٤) كِرمان: ولاية واسعة تقع بين فارس، ومُكْران، وسجستان، وخراسان، ومُكْران، ومفازة ما بين مُكْران، والبحر شرقها، وغريها أرض فاس، وشمالها مفازة خراسان، وجنوبيها بحر فارس، كثيرة النخل والزرع، والمواشي والضرع، بلغت قمة ازدهارها في عهد السلاجقة. «صورة الأرض ٣٦٦»، معجم البلدان ٤/٤٥٤، عاصمتها الإسلامية (السیرجان)، أو (الشيرجان)، واتخذ بنو (بوية) مدينة (بردسیر) عاصمة لهذا الإقليم، «بلدان الخلافة الشرقية ٣٣٩-٣٣٨».

(٥) البير: لعلها، (التَّیَز) إحدى مدن مُكْران اعتبرها (البشاري) أنها الباب الثاني، لهذا الإقليم، حيث إنَّ الباب الأول هو (طوران)، وهي على البحر، تشتهر بالتخيل، وكثرة الرباطات، وجامعها الحَسَن، فهي فرضة مشهورة في تلك البلاد. كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٤٧٨-٤٧٥»، المسالك والممالك للإصطخري ١٠٦-١٠٥، نزهة المشتاق ٣٧».

(٦) المنصورة: مدينة معروفة، اسمها بالهندية (باميران)، «نزهة المشتاق ٣٢-٣١»، وتقع على الجانب الشرقي لنهر السندي، اتخذها المسلمون عاصمة لبلاد السندي منذ أوائل القرن الثاني إلى أوائل القرن الخامس الهجري، بناها في أواخر العصر الأموي والتي بلاد السندي (عمرو بن محمد بن القاسم الثقيفي)، سنة ١٢١ هـ / ٧٣٨ م).

= «موسوعة بلاد السندي والبنجاب ٢/٢٦٧»، تُسمى (المنصورة) بـ(المحفوظة)، موقعها في الوقت

إلى قبالة عدن، وأما عرضه، فمن سرّتديب، وما هو على سمتها في الجنوب، إلى بوارو، وما على سمتها في الشمال وحدود هذه المملكة من الجنوب، البحر، وما يمتد معه من كورة قرّاجل، ومن الشرق لهاور، وكلاور، ومن الشمال بلاد الترك، ومن الغرب سالكوت^(١)، والمفارزة^(٢) / ١٣ / ومدينة دهلي، وهي قاعدة الملك، ثم بعدها قبة الإسلام، وهي مدينة الدواكير، جددها هذا السلطان^(٣)، وسمّاها (قبة الإسلام). قال: ودهلي في الإقليم الرابع. قلت: وهكذا قال الملك المؤيد^(٤) صاحب حماة - رحمه الله - في (تقويم البلدان)^(٥)، ونقله عَمِّنْ يوثق به من أهل هذا الشأن^(٦).

قال الشيخ مبارك: وأما قبة الإسلام فتكون في الثالث، وفارقتها، وما تكاملت ولی الآن عنها ست سنين، وما أظنها تكون قد تكملت، لعظم ما حصل الشروع فيه، من اتساع خطة المدينة، وعظم البناء. وأن هذا السلطان، كان قد قسمها على أن تبني

= الحاضر على بعد تسعه أميال من شهداء (ديور) بمديرية (سائبهر) بالستاند وأطلالها على مسافة ميلين من نهر (حميراؤ)، وتطلق العامة على منطقة المنصورة (ذكور)، قامت فيها دولة عربية، عُرفت بالدولة (الهبارية)، نسبة إلى هبار بن أسود الأسدي القرشي. (٤٠٢٤٦هـ - ٨٥٥-١٠٢٥م)، «الحكومات العربية» ٦٣-١٣٢.

(١) سالكوت: هكذا رُسمت في الأصل، لعلها (سيالكوت)، وهي مدينة على حدود كشمير، من أشهر مدن إقليم (لاهور)، يسمى بها (العرب) (سilkوت) و(سلكوت)، تبعد عن مدينة (لاهور) مسافة خمسة وسبعين ميلاً. «نזהه المخواطر» ٩/٦٤٠-٦٤٠.

(٢) المفارزة: تقع بين (كريمان)، و(مُكران)، و(الستاند) وهي أكثر سكاناً وأمناً من (المفارزة الكبرى) «صورة الأرض» ٤٣.

(٣) أي (محمد تغلق شاه).

(٤) إسماعيل بن علي بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، عماد الدين، صاحب حماه، ولد سنة ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م وكان أميراً في دمشق خدم الملك الناصر عندما كان في الكرك، ووعده بسلطنة حماه، فوفى له بذلك، له مشاركات علمية جيدة، في الفقه، والطب، والحكمة، وعلم الهيئة، محباً للعلماء، مقرراً لهم. من مؤلفاته: «المختصر في أخبار البشر»، أو «تاريخ أبي الفدا»، و«تقويم البلدان»، و«تاریخ الدولة الخوارزمية»، و«نوادر العلم»، و«الكتاش» في النحو والصرف، «والموازين»، وغيرها. توفي في المحرم من سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١م، ولما يكمل ستين من عمره.

ترجمته في: فوات الوفيات ١/١٨٣، آداب اللغة ٣/١٨٧، طبقات الشافعية للسبكي ٦/٨٤، والبداية والنهاية ١٤/١٥٨، الدرر الكامنة ١/٣٩٦، والمنهل الصافي ٢/٣٩٩، والتجموم الزاهرة ٩/٢٩٢، والأعلام ١/٣١.

(٥) طبع باعتناء وتصحيح (رينود)، و(البارون ماك كوكين بسان)، في باريس، بدار الطباعة السلطانية سنة ١٨٤٠هـ.

(٦) تقويم البلدان ٣٥٨.

محلات، لأهل كل طائفة محلة؛ الجندي في محلة، والوزراء والكتاب في محلة، والقضاة والعلماء في محلة، والمشائخ والفقراء في محلة، والتجار والكساب في محلة. وفي كل محلة ما تحتاج إليه من المساجد، والمواذن، والأسواق، والحمامات، والطواحين، والأفران، وأرباب الصنائع من كل نوع، حتى الصواغ، والصياغين، والدباغين حتى لا يحتاج أهل محلة إلى أخرى، في بيع ولا شراء ولا أخذ ولا إعطاء؛ لتكون كل محلة، كأنها مدينة مفردة، قائمة بذاتها، غير مفتقرة في شيء إلى سواها، وليس في هذه المملكة خراب، إلا تقدير عشرين يوماً مما يلي غرْنَة، لتجاذب صاحب الهند، وصاحب تُركُستان، وما وراء النهر^(١)، بأطراف المُنازعة، أو جبال معَطلة، أو شُعُراء^(٢) مشتبكة. ومتحصلات تلك من نبات العطر والأفواية، والعاقير الداخلية في أدوية الطب أعود نفعاً من الغلات المزدرعة بما لا يقاس.

قلت: وقد أُوقنني، الفاضلُ نظام الدين يحيى بن الحكم^(٣) على تأليف قديم في البلاد، وذكر فيه: إن جميع قرى المُلْتان مائة ألف قرية وستة وعشرون ألف قرية مُثبتة في الديوان، وهو ودهلي في الرابع، ومعظم المملكة في الثاني، والثالث، وكلها فسيحة، وببلادها صحيحة، إلا مزارع الأرز؛ فإنها وخيمة، وبقاعها ذمية. وحكي في ذلك التأليف أنَّ محمد بن يوسف الفقهي^(٤) أصاب^(٥) بالسندي أربعين

(١) هو، نهر (جِيُون)، أو (أَمُورِيَا).

(٢) شُعُراء: الشُّعُراء الشَّجَرُ الكثِيرُ والشُّعُراءُ من الأرض ذات الشَّجَر. (محيط المحيط ٤٦٩).

(٣) يحيى بن عبد الرحمن الجعْبُري، (وقيل الجعْفُري) الطياري البغدادي، نظام الدين، المعروف بابن النور، الحكيم، أصله من بغداد، اشتغل والده بصناعة الكحل، كثُر ماله، وأنشغل ابنه يحيى، فتأدب وبرع في الموسيقى، وكتب الخط الجيد، وكان من كبار الخطاطين في عصره واتصل بالقان أبي سعيد، وكتب عنه الكتب بالعربية، إلى مصر، وغيرها. قدم دمشق مع الوزير نجم الدين، ثم دخل القاهرة صحبته وخدم قوصون، ثم عاد إلى دمشق، توفي سنة ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ مـ. وقيل بعد ٧٧٠ مـ.

ترجمته في: ابن قاضي شهبة، وفيات سنة ٧٦٠ هـ وقال: وفاته بهذه السنة أو في التي بعدها، الدرر الكامنة ٤١٧/٤، الموسيقى العراقية ٤٤-٤٦، الأعلام ٨/١٥٣.

(٤) محمد بن يوسف الفقهي، أخو الحجاج، استعمله أميراً على صناع، وضمَّ إليه الجندي، وما زال والياً عليها إلى أن توفي سنة ٩١ هـ / ٧٠٩ مـ وقيل سنة ٩٠ هـ / ٧١٠ مـ.

ترجمته في: البداية والنهاية ٩/٨٠، والأعلام ٧/١٤٧، تاريخ خليفة بن خياط ٢٩٣، ٣١١، وتاريخ الرسل والملوك ٢/١٥٦، ٦/٤٩٨، تاريخ الإسلام للذهبي ٤/٥١، رغبة الآمل ٥/٣٠ و ٣٥، تاريخ الخميس ١٣١٣/٢.

(٥) جاء في «المسالك والممالك» لابن خرداذة ص ١٥٦: وسميت (المُلْتان). فرجَّ بيت الذهب، لأنَّ (محمد بن يوسف)، أخا (الحجاج بن يوسف) أصاب في بيت بها أربعين بَهَاراً ذهباً، والبهار ثلاثة

بَهَاراً^(١) من ذهب، كل بَهَار ثلائة، / ١٤ / وثلاثة وثلاثون مئاً^(٢)، قال: ومن بلاد غُزْنَة، والقندَهار آخر حدّه.

وسألت الشيخ مبارك، كيف بَرَ الهند وضواحيه؟ فقال لي: إن به أنهاراً متداًة، تُقارب ألف نهر كباراً وصغاراً، منها ما يضاهي النيل عظماً، ومنها ما هو دونه، ومنها ما هو دون هذا المقدار، وما هو مثل بقية الأنهر، وعلى صفات الأنهر القرى، والمدن، وبه الأشجار الكثيفة، والمُرُوج الفُجُح، وهي بلاد معتدلة لا تتفاوت حالات فصولها، ليست بمفرطة في حرّ، ولا بِرْد، كأنَّ كل أوقاتها ربيع، وتَهَبُّ بها الأُهُوَيَة، ويُتَنَسَّمُ النَّسَيْمُ اللطيف، وتتوالى بها الأمطار مدة أربعة أشهر، وأكثرها في أُخْرِيَّات الربيع، إلى ما يليه من الصيف، وبها أنواع من الحبوب؛ الحنطة والأَرْزُ، والشَّعير، والجَمْصُنُ، والعَدْسُ، والماشُ^(٣)، واللَّوْبِيَاء^(٤)، والسمسم، وأما الفول، فلا يكاد يوجد فيها - قلت: وأظن عدم الفول بها؛ لأنها بلاد حكماء، وعندهم أن الفول يُفسد جوهر العقل، ولها حَرَّمة الصابئة^(٥) - قال: وبها من الفواكه، شيء من

= وثلاثون مئاً، فسميت فَرْج بيت الذهب. والفرْج: الشَّغْرُ، يكون مبلغ ذلك الذهب ألف وثلاثمائة ألف وسبعين ألفاً وستمائة مثقالاً.

(١) بَهَاراً: البَهَارُ، الْجِمْلُ، وقيل: هو ثلاثة رطل بالقبطية، وقيل أربعمائة رطل، وقيل: ألف رطل، وقيل: البَهَار شيء يوزن به، وهو ثلاثة رطل وقيل: وعاء يوضع فيه الذهب والفضة، وقيل: كلمة بَهَار غير عربية، بل قبطية، وقيل: عربية، وهو ما يُحمل على البعير بلغة أهل الشام، «لسان العرب ٥/١٥١».

(٢) مَنَّ: المن، وزنه مائتين وسبعة وخمسين (درهماً)، وسبع درهم، (وبالمثاقيل) مائة وثمانون مثقالاً، وبالأوقي، أربع وعشرون أوقية، كما يطلق (المن) على ما يكال به السمن وغيره، وقيل يوزن به رطلاً. «مفآتيح العلوم ١٩، المصباح المنير ٢٤٩/٢ وفي الهند، يعادل المن ٤٠ سيراً، أو ٣٧ كيلو جراماً و(٣٦٠) جراماً. «نزهة الخواطر ٩/٣٨٠».

(٣) الماش: نوع من الحبوب الصغيرة، أخضر اللون، له عين كعین اللوبیاء، وهو على ثلاثة أنواع: ماش فاصولياء، واسمه العلمي (Fasoli), ويسمى (أقطن)، وماش (سُمْنَة)، وماش (لوبیا بلدي)، والثاني، يسمى (ماشة) وتوكـل جذوره، أما الأول، والثالث، فهما من اللوبیاء «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/١٢٦، إحياء التذكرة ٥٧٧-٥٧٨».

(٤) اللوبیاء: له ورق ناعم، وقصبان دقيق: شبيهة بالخيوط تتشبث بالثبات المجاور لها بعضه يستطيل، حتى يستظل تحته، له غلف، في جوفه حب مختلف اللون، منه ما يميل إلى الحمرة، ومنه ما يميل إلى البياض، ومنه ما يميل إلى السود «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/١١٢».

(٥) الصابئة: فُرْقَيْن أطلق عليهما اسم الصَّابِيَّة، المَنْدِيَا، وهي فرقه يهودية نصرانية، تمارس شعيرة التعميد في (العراق)، وصابئة حَرَانَ، وهي فرقهوثنية استمرت حتى بعد ظهور الإسلام. ويقال أن أول من أحدث مذاهب الصابئة رجل يُقال له (بوداسف)، الذي ظهر في عهد الملك الفارسي (طهمورث) وقال: إن الكواكب هي المدبرات، والواردات، والصادرات، وهي التي بمروتها في أفلاكها، =

التين، والعنب، والرمان الكثير الحلو والمُزّ^(١) والحامض، والموز، والخوخ، والأُثْرَج^(٢)، والليمون، واللیم، والنارنج^(٣)، والجميز^(٤)، والتوت الأسود المسمى بالفِرْصاد، والبطيخ الأصفر والأخضر، والخيار، والقِنَا، والعَجُور، والتين، والعنب هو أقل ما يوجد من بقية هذه الأنواع، وأما السَّفَرْجل^(٥) فيوجد بها، ويُجلب إليها، وأما الْكُمْشُرِي، والتفاح فهما أقل وجوداً من السَّفَرْجل، وبها فواكه أخر لا تُعهد في مصر والشام والعراق، وهي العِنْبا^(٦)، والمهوا، والكلج، والكويكا، وايجكي، والبكى، والنَّغْزَك، وغير ذلك من الفواكه الفائقة اللذينة. فأما النَّارِجِيل^(٧)، وهو

وقطعها مسافاتها واتصالها بنقطة، وانفصلتها عن نقطة يتم ما يكون في العالم من الآثار؛ من امتداد الأعمار وقصرها، وظهور المياه، وغيضها، وفي النجوم السيارة، وفي أفلالها التدبر الأكبر، فاحتذى به، وقال بقوله جماعة نشروا أفكاره بين الناس، كما أن الصابئة تذهب إلى أنَّ (أوريناس الأول)، و(أوريناس الثاني) أو (هرمس)، أو (أغاثيون) كانوا يعلمون الغيب فاتخذاهما نِيَان لهم، كما تُعد الصابئة من الرُّوحانيين أصحاب الهياكل، وهم فرق، أهمها (الحرَّانيين) أو (الحرَّانية)، (الكيماريين)، ولكل منها آراء تختلف مع الأخرى، وقد ظهروا في أول الأمر في شمال العراق، واتخذوا (حرَّان)، (كاريا القديمة) مركزاً لهم، ثم انتشروا بعد ذلك في أماكن أخرى، فانتشر (الكيماريون) في واسط، والبصرة والبطائج، راجع أخبار (الصابئة) مفصلة في «مروج الذهب ١/٨٩ - ١٥٢»، و«المملل والنحل ٢/٥ وما بعدها»، (دائرة المعارف الإسلامية ١٤/٩١ - ٢٤٦).

(١) المُزّ: بين الحلو والحامض «مختار الصحاح ٢٦٠».

(٢) الأُثْرَج: شجر معروف بأرض العرب، يعيش قرابة عشرين سنة، يشعر مرة واحدة في السنة، ثمرة طويلة شبيهة بلون الذهب، طيب الرائحة مع شيء من الكراهة، ويزره مثل بزر الكمثرى، منه ما هو تفه مائل إلى العذوبة قليلاً، ومنه الحامض القطاع «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١/١٠».

(٣) النارجِيَّج: شجرة ورقها أملَس لَيْن، شديد الخضراء، يَحْمِل حَمْلًا مُذَوِّراً مُلْسَ، في جوفه حمَاض كالأترج «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/١٧٤».

(٤) الجُمِيز: شجر كبير، وافر الفروع، مستديم الخضراء، تُصنَع من أخشابه السفن، والآلات الزراعية دائمة الاستعمال في الماء، أصله من التُّوبَة وتُنْقَل إلى مصر والشام، يُمْرَر بعد خمسة عشر عاماً، ثلاث مرات في السنة «إحياء التذكرة ٢١٨ - ٢١٩»، و«الموسوعة العربية الميسرة ٦٤٦».

(٥) السَّفَرْجل: اسمه باللغة اللاتينية، (سيدونيا) نسبة إلى (سيدون) جنوب فرنسا. ينمو في الأرض الطينية، والرملية، الخصبة، قليلة الرطوبة، يُعرَس متقارباً، كيلا تؤثر فيه أشعة الشمس، فتُحرِّقه، وتُكَسِّبه طعمًا قابضاً، يحتاج إلى خدمة كثيرة، وماء كثير، حتى لا يتَّلف، كما عُرف السَّفَرْجل في الهند، ونُسب إليها، وقيل (سفرجل هندي). «إحياء التذكرة ٣٥٦ - ٣٥٥».

(٦) العِنْبا: شجر لا ينبع في غير (الهند)، و(الصين)، ذو ساق غليظة، وأغصان، وأوراق شبيه بشجر الجوز، وله ثمر يجمعه أهل الهند، ويُكبسوه بالملح، والماء، ويُعمل بالخل، ويكون طعمه كطعم الزيتون، «نَزَهَةُ المُشْتَاق ٢٠»، و«الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/١٣٥».

(٧) النَّارِجِيل: نخلة طويلة، تميل بمرتقيها، حتى تدنى من الأرض للبنها، لها أقنا، في القنو الواحد ثلاثون نارجيلة، وشجر النارجيل يعيش سنوات طويلة، تصل إلى قرنين من الزمن، «نهاية الأربع ١١ - ١٢٩»، و«إحياء التذكرة ١٢٧ - ١٢٨».

السمى بالجوز الهندي، فلا شيء يعادله وهو أخضر، مملوء بدهنه. وأما الحمر^(١)، وهو المسمى بالتمر هندي فهو شجر بري ملء الجبال، والنارجيل. والموز بدھلي أقل مما حولها من بلادها، على أنه الموجود الكثير، وأما قصب السكر، فإنه بجميع هذه البلاد كثير ممتهن، ومنه نوع أسود جفا، صلب / ١٥ العيدان، وهو أجود لامتصاص لا للاعتصار، وهو مما لا يوجد في سواها، ويعمل من بقية أنواعه، السكر العظيم الكثير الرخيص من السكر النبات والسكر المعتاد، ولكنه لا يجمد بل يكون كالسميد الأبيض، وبها الأرز على ما حدثني به الشيخ مبارك بن مجد شاذان، على أحد عشرین نوعاً، وعندهم اللفت، والجزر، والقرع، والبادنجان، والهلیون^(٢)، والرئجیل، وهم يطبخونه إذا كان أخضر، كما يطبخ الجزر، وله طعم طيب، لا يعادله شيء. وبها السُّلُق، والبصل، والفوم، والشَّمَار^(٣) والصَّعْتَر^(٤) وأنواع الرياحين، من الورد، واللَّيْلُونَفَر^(٥)، والبَنَفَسَج^(٦)، والبَان^(٧)، وهو الخلاف،

(١) الحمر: شجرة كبيرة، مثل شجر الجوز، ينت في اليمن، والهند، والسودان، ورقه مثل ورق اللوبيا، صلب، وثمرة غلف دقائق سوداء عليها عسلية تُذْبَق باليد، وداخل الغلف حبٌ صلب أحمر اللون، فيه حلارة مع حموضة «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١ / ١٤٠».

(٢) الهلیون: نبات مشهور، ينت، ویُستَنبَت، ورقه كورق (الثَّبَت) بعضه لا شوك له، بزره مدور أخضر ثم يَسُوَدُ ويَحْمِرُ، في جوفه ثلاثة حبات صلبة، وبعضه كثير الشوك تمتد قضبانه على وجه الأرض «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤ / ١٩٥»، «إحياء التذكرة ٦١٦»، ويقول عنه ابن قبیة في «عيون الأخبار ٣ / ٢٨٩»: «مُدِرٌ للبول نافع من التُّولُج».

(٣) الشَّمَار: جاء في «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٢ / ١٣٤ و ٣ / ٦٩». أنه هو، الرازيانج، عند أهل مصر (والشام)، ومنه يَبْتَت، ومنه ما يُسْتَنبَت، ثمرة مستدير شبيه (بالكتربة)، حريف مسخن طيب الرائحة.

(٤) الصَّعْتَر: نبات بَرَّى، ويُسْتَانِي، وجَبَلِي، ورقه طويل، ومُدَوَّر، ودقِيق، وعرِيض، ولوئه، منه ما هو أسود ويُعرف بـ(الفارسي)، ومنه ما هو أبيض. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣ / ٨٣».

(٥) اللَّيْلُونَفَر: أو (اللَّيْلُوفَر)، اسم فارسي، معناه: (النيلي الأجنحة)، (النيلي الأرياش) ويُعرف في السريانية بـ(كرنب الماء). كما يسميه أهل الهند (نيتوفر)، والبنط (نيلوفريا)، والعرب (نيلوفة). يَبْتَت في الماء، وساقه ملساء، يطول بحسب عمق الماء، فإذا ساوي سطحه أُورق وأزهز، كما يَبْتَت في البر ويُعرف في مصر بـ(عرائس النيل) وهو كبير الأوراق، متعدد الألوان، أغلهما، أصفر، وأبيض، وأزهاره تفتح لمطلع الشمس، وعند غروبها تقض، وتُقطَّب على النمل فتمته، لهذا سمى (قاتل النمل)، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤ / ١٨٥»، «نهاية الأربع ١١ / ٢١٩ - ٢٢٠»، «إحياء التذكرة ٦١٢».

(٦) البَنَفَسَج: فارسي معرب من كلمة (بنفصة)، وهو نبات زينة، يَبْتَت في الأماكن الظلية، زهره اسمانجوني اللون، طيب الرائحة، معرق، ملين، من الأدوية الصدرية، «محيط المحيط ٥٦»، «إحياء التذكرة ١٧٨».

(٧) البَان: شجر سَبُطُ القوام لين، منه ما يقارب (الأثل) في ارتفاعه، ومنه قصير دون شجرة (الرمان)، =

والترجس^(١)، وهو العَبَرَ وثامر الحنا، وهو (الفاغية)^(٢)، وكذلك الشيرج^(٣)، ومنه وقيدهم وأما الزيت فلا يأتيهم إلا جَلَباً، وأما العسل فأكثر من الكثير، وأما الشمع فلا يوجد إلا في دور السلطان، ولا يسمع فيه لأحد.

وما لا يحصى من الدواب السائمة، من الجواميس والأبقار، والأغنام، والمعز ودواجن الطير من الدجاج، والحمام البلدي، والأوز، وهو أقل أنواعه، وأما الدجاج الهندي فيكاد أن يكون كالأوز في عظم المقدار. وكل هذا يباع بأرخص الأسعار، وأقل الأثمان. وأما السمن واللبن على اختلاف أنواعه فكثير لا يُعبأ به، ولا له قيمة. ويُباع بأسواقها من الأطعمة المُتَوْعَة، كالشواء، والأرز، والمطجن والمقلبي، والمنوع، والحلو المنوعة على خمسة وستين نوعاً، والفقاع^(٤)، والأشربة، ما لا يكاد يُرى في مدينة سواها.

وبها من أصحاب الصنائع، للسيوف، والقصي^(٥)، والرماح، وأنواع الرماح

= شديد الخضراء له زهر ناعم، يُخَلِّفُ قروناً مثل قرون (اللوبيا)، في داخلها حبٌ أكبر من (الحمص) له دهن طيب الرائحة. وقد شبهه المقدَّ بالبان، لطوله. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١/٧٩»، «محيط المحيط ٦٢».

(١) الترجس: نبات ورقه شبيه بورق (الكراث) وإن كان أدق منه، وأصفر، ساقه جوفاء ليس لها ورقة، ترتفع عن الأرض أكثر من شبر، زهره أبيض في وسطه شيءٌ أصفر، أجوده ما كان في الجبال، وهو طيب الرائحة، سمي بالـ(العَبَرَ) لعمومه، لأن العَبَرَ، الناعم من كل شيء، «المخصص ١٩٤/١١»، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/١٧٩»، «محيط المحيط ٨٨٧».

(٢) الفاغية: هو الزهر، يُقال أفعى النبات، إذا نُورَ، وقد حُصَّتُ الحناء، باسم الفاغية، فتُعرف بالفاغية من غير شبه، وهي تخرج جمعاً، ثم تظهر في رؤوسها نواراة بيضاء صغيرة كأنها زهرة (الكتربة) وهي نكتة حمراء. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/١٥٥».

(٣) الشيرج: نبات، يظهر في المواقع التي لا تُحرث، والقبور، والحيطان القديمة، أحمر اللون، يبلغ طول قضيبه نحو الذراع، ويحيط به في الصيف ورق دقيق، إذا بَرَدَ الجو، جفت وانتشر، وتبقى منه بقايا نحو أصله، يخرج في قضبانه زهر صغار في الصيف، ثم بزور صغار، رائحته حادة جداً. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/٧٤»، كما يُقال للشيرج دهن (الجلجلان) أي (السمسم) بالسريانية «إحياء التذكرة ٣٦٥ - ٣٦٨».

(٤) الفقاع: نوع من الشراب، يُعمل من أصناف متعددة؛ من الشعير، والعسل، والسكر، والخبز، مع بعض الأفواية، كالقرنفل، واللفلف، والسبيل، والكرفس، والنعنع، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/١٦٤».

(٥) القسي: جمع (قوس)، والقوس مؤنَّت تصغيرها (فُؤِس)، وتجمع أيضاً (أَفْوَس)، و(قياس) وكل ما انطف وانحنى، فقد استُؤسَّ، وتقُوَّسَ، وقوس. أول من عملها من العرب رجل اسمه (مايسخة)، من الأزد، فقيل لها (مايسخة)، ومن نعوتها الأخرى: الشَّرَبَع، والكتوم، والمرْتَهَشَة، والفراء، والبائنة. «كتاب السلاح ٢٢»، و«المخصص ٦/٣٧»، و«نهاية الأربع ٦/٢٢٢».

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار / السفر الثالث

والزَّرَد^(١)، والصُّوَاغ^(٢)، والزَّرَاكش^(٣)، والسَّرَاجين^(٤)، وغير ذلك من أرباب كل صنف مما يختص بالرجال والنساء، وذوي السيوف والأقلام^(٥)، وعامة الناس ما لا يُحصى لهم عدد.

وأما الجمال فقليلة، لا تكون إلا للسلطان، ومن عنده من الخانات والأمراء، والوزراء، وأكابر أرباب الدولة.

وأما الخيل فكثيرة، وهي نوعان: /١٦/ عَرَاب^(٦)، وبراذين^(٧)، وأكثرها مما لا يُحْمَد فعله.

ولهذا، يُجلب إلى الهند من جميع ما جاورها، من بلاد الترك، وتقاد إليها العِرَاب، من البحرين، وببلاد اليمن، والعراق، على أنَّ في داخل الهند حِيلًا عَرَاباً كريمة الأحساب، يُتعالى في أثمانها، ولكنها قليلة، ومتى طال مكث الخيل بها انحلت.

وأما البِغَال^(٨)، والحُمُر^(٩)، فمما يُعاب عندهم ركوبها، ولا يَسْتَحسن فَقِيه، ولا ذو علم ركوب بغلة.

(١) الزَّرَد: حلق الدرع، والجمع زرود، ويُقال لصانعها (زَرَاد) «كتاب السلاح ٢٩»، و«المخصص ٧٢٦».

(٢) الصُّوَاغ: جاء في «لسان العرب ١٠/٣٢٥»: والشيء مَضْوِغ، والصَّوْغ ما صبغ.

(٣) الزَّرَاكش: لفظ فارسي، يُطلق على النسيج المستخدم فيه الحرير، والذهب الخالص. «الملابس المملوكية ٦١».

(٤) السَّرَاجين: السَّرَاج: بائع السُّرُوج وصانعها، وحرفة السُّرَاجة، والسَّرَاج المصباح الذي يُسْرِح بالليل «لسان العرب ٣/١٢٢».

(٥) ذوي السيوف والأقلام: أي أهل الحرب، والإدارة. راجع «التعريف بالمصطلح الشريف ١٠٢»، «اللهب ١٠٦»، و«الفصل الممتع الذي كتبه ابن خلدون في السيف والقلم في المقدمة ٢/٦٩٥»، و«الألقاب الإسلامية ٦٩٥».

(٦) عَرَاب: جاء في «لسان العرب ٢/٧٩»: «عَرَبَةُ الْفَرَسِ: عَنْقُهُ وسَلَامَتُهُ مِنَ الْهَجَنَة... وَفَرَقُوا بَيْنَ الْخَيْلِ، وَالنَّاسِ، فَقَالُوا فِي النَّاسِ، عَرَبٌ وَأَغْرَابٌ، وَفِي الْخَيْلِ عَرَابٌ... وَالْخَيْلُ عَرَابٌ، خَلَافُ الْبَخَاتِيِّ، وَالبَرَادِينِ»، راجع أيضًا «المخصص ٦/١٧٧»، و«محيط المحيط ٥٨٦».

(٧) بَرَادِين: البراذين من الخيل، ما كان من غير تناجم العِرَاب «لسان العرب ١٦/١٩٥»، وجاء في «محيط المحيط ٣٤»، أنها التركى من الخيل، وخلافها (العِرَاب).

(٨) البِغَال: البَغْلُ الْحَيَوانُ (السَّتَّاجُ) الَّذِي يُركَبُ، وَالْأَنْثى (بَغَلَةُ)، وَالْجَمْعُ (بَغَالُ)، وَالْبَغْلُ أَقْلَ سُرْعَةِ لَلرَّكُوبِ وَالْحَتْمَلِ، أَبْوَهُ حَمَارٌ، وَأَمْهَ فَرَسٌ، وَقَيْلٌ بِالْعَكْسِ، وَقَدْ يُطْلَبُ (يُطْلَقُ) مَجاوِزًا عَلَى كُلِّ حَيَوانٍ أَبْوَهٍ، وَأَمْهَ مُخْتَلِفِي الْجِنْسِ.

(٩) الحُمُر: لعله يقصد «الحَمَارُ الْوَحْشِيُّ» راجع «لسان العرب ٥/١٩١»، و«محيط المحيط ٩٣».

فاما الحمار، فإن ركوبه عندهم مذلة كبيرة، وعار عظيم، بل ركوب الكل الخيل.
وأما الأثقال، فخواصتهم تحمل على الخيل، وعامتهم تحمل على البقر، يعمل
عليها الأكف^(١)، فيحمل عليها، وهي سريعة المشي، ممتدة الخطى.

وسائل الشيخ مبارك، عن مدينة دهلي^(٢)، وما هي عليه، وترتيب سلطانها في
أحواله، فحدثني، أن دهلي مدائن^(٣) جمعت مدينة، ولكل واحدة اسم معروف،
 وإنما دهلي واحدة منها، وقد صار يطلق على الجميع اسمها، وهي ممتدة طولاً
وعرضاً، يكون دور عمرانها أربعين ميلاً، بناؤها بالحجر، والأجر، وسقوفها
بالأخشاب، وأرضها مفروشة بحجر أبيض شبيه بالرخام، ولا يُبني بها أكثر من
طبقتين، وفي بعضها طبقة واحدة، ولا يُفرش بالرخام، إلا السلطان.

قال الشيخ أبو بكر بن الخلال: هذه دور دلي العتيقة، فأما ما أضيف عليها فغير
ذلك. قال: وجملة ما يُطلق عليه الآن اسم دلي أحد وعشرون مدينة.

ويساتينها على استقامة كل خط اثنا عشر ميلاً من ثلات جهاتها، فأما الغربي
فعاطل لمقاربته جبل لهابة.

وفي دهلي ألف مدرسة، وبها مدرسة واحدة للشافعية، وسائرها للحنفية، ونحو
سبعين مارستانًا^(٤)، وتسمى بها دور الشفا وفيها، وفي بلادها من الخوانق^(٥)،

(١) الأكف: جاء في «لسان العرب ١٠/٣٥١»، الأكاف من المراكب شبه (الرّحال) والأقارب) كما جاء
في «القاموس المحيط ٣/٢٢»، أكاف الحمار، كتاب، وغراب، ووكافه بزدعته، وجاء في «محيط
المحيط ١٢» الإكاف والوكاف، برذعة الحمار.

(٢) عن (وصف دهلي) راجع «رحلة ابن بطوطة ٤١٥-٤١٨»، و«كتاب تقويم البلدان ٣٥٨-٣٥٩».
(٣) يذكر ابن بطوطة في «رحلته ٤١٥» أن مدينة دهلي كانت في الوقت الذي دخلها وهو سنة ٧٣٤ هـ /
١٣٣٣ م تكون من أربع مدن متガورات متصلات، (دهلي)، وهي المدينة القديمة، (سيري) أو (دار
الخلافة)، و(تلق آباد) و(جنهان بناء).

(٤) مارستان: ويقال: (بيمارستان)، و(بيمرسنان)، كلمة فارسية مركبة من لفظين (بيمار) بمعنى مريض،
أو عليل، أو مصاب، (ستان) بمعنى مكان، أو دار، فهي (دار المرضى)، ثم اختصرت في
الاستعمال فصارت (مارستان)، كما يُطلق (مارستان) على المكان المعد لإقامة المجانين. «محيط
المحيط ٦٤»، و«تاريخ اليمارستانات ٤٤».

(٥) الخوانق: ويقال لها (الخوانك)، أو (الخانقاوات)، جمع (خانقاه)، أو (خانقاه)، وهي كلمة فارسية
معناها (بيت) وقيل أصلها (خونقا)، أي البيت الذي يأكل فيه الملك، عُرفت في الإسلام في حدود
سنة أربعين من الهجرة، وجعلت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى. «الخطسط ٢/٤١٤»، و«العصر
المماليكي ٤٣٢».

والرُّبُط^(١)، عدة ألفين مكاناً، وبها الدِّيارات^(٢) العظيمة، والأسواق الممتدة، والحمامات الكثيرة، وجميع مياهها من آبار قربة المُستنقى أعمق ما يكون سبعة أذرع، عليها السَّواغي، وأما شرب أهلها، فمن ماء المطر في أحواض وسيدة تجتمع ١٧ / فيها الأمطار، كل حوض يكون قُطْره^(٣) عَلْوَة^(٤) سهم أو أزيد، وبها الجامع المشهور المأذنة، التي قال: إنه ما على بسيط الأرض لها شبيه، في سُمْكِها وارتفاعها. قال الشيخ يرهان الدين بن الخلال البَرِّي الصوفي: إنَّ عَلْوَهَا سَمَائِهِ ذَرَاعَ فِي الْهَوَاءِ.

قال الشيخ مبارك: وأما قصور السلطان، ومنازله بِدْهُلي، فإنها خاصة يسكنه، وسكن حريمه، ومقاصير جواريه، وحظاياه^(٥) وبيوت خَدَمه، ومماليكه، لا يسكن معه أحد من الخانات^(٦) والأمراء، ولا يكون به أحد منهم، إلا إذا حضروا للخدمة، ثم ينصرف كل واحد إلى بيته. وخدمتهم مرتين في كُلِّ نهار، في بُكْرَة كُلِّ يوم، وبعد العصر منه. ورُتب الأمراء على هذه الأنواع، أعلاهم قدرأ، الخانات، ثم الملوك، ثم النساء، ثم الإصفهانية^(٧)، ثم الجناد.

(١) الرُّبُط: جمع رباط، وهي هنا بمعنى بيت الصوفية، ومنزلهم، ولكل قوم دار، والرباط دارهم، وللرباط أصله من السُّنَّة، إذا اتَّخذَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفقراء الصحابة الذين لا يأبون إلى أهل، ولا مال، مكاناً من مسجده يُقْمِدون فيه، عُرِفَ هؤلاء بأهل الصفة. «المصباح المنير ٤٢١/١»، و«الخطط ٤٢٧/٢».

(٢) الدِّيارات، مفردها (دار)، وهو المحلُّ، يجمع البناء، والعَرَضَة، كما تأتي بمعنى المدينة. «محيط المحيط ٢٩٨».

(٣) القُطْر: قُطْر الدائرة، الخط المستقيم، والواصل من جانب الدائرة إلى الجانب الآخر، بحيث يكون وسطه واقعاً على المركز. «التعريفات ١٨٦».

(٤) عَلْوَة: العَلْوَة، الغاية، وهي رمية سهم أبعد ما يقدر عليه، ويُقال: هي قدر ثلاثة ذراع إلى أربعين، والجمع عَلْوَات. «المصباح ١٠٦/٢».

(٥) حظاياه: القربيات إلى قلبه، ومن لَهُنَّ مكانة، وحظ، ومنزلة. راجع «مخختار الصحاح ٦٠»، و«محيط المحيط ١٧٨».

(٦) الخانات: الخان تركي، أطلق منذ القرن الأول أو الثاني من الهجرة، على شيوخ الأمراء في قبائل الترك، ثم أطلق على قُلَّة المغول، الذين يخضعون ولو أشيمياً لسيد الأسرة الأعظم، (الخاقان) أو (القان)، ثم لُقبَ به السلطان المغول في فارس والروم، وكانت أول معرفة المسلمين بهذا اللقب، عندما دخل خانات التركستان في الإسلام وبدأوا احتكارهم بالعالم الإسلامي، فال Amir (نصر بن علي) أطلق عليه هذا اللقب في سُكَّة بتاريخ ٣٩٠ هـ/٩٩٩ م، «الألقاب الإسلامية ٢٧٤».

(٧) الإصفهانية: أو الإسفهانية: لقب من ألقاب أرباب السيوف، وكان في الدولة الفاطمية لقباً على صاحب وظيفة تلي وظيفة صاحب الباب، ومعناها (قُقَدَمُ العَسْكَرِ)، وهو مركب من لفظين: فارسي، وتركي، (أسْفَه) بالفارسية، بمعنى (المقدّم)، و(سَلَار) بالتركية بمعنى (العسكري) «الصبح ٦/٧-٨».

وفي خدمته (ثمانون خاناً، أو أزيد)، وعساكره تسعمائة ألف فارس، من هؤلاء من هو بحضرته، ومنهم فيسائر البلاد، يجري عليهم كلهم ديوانه^(١)، ويشملهم إحسانه.

وعساكره من الأتراك، والخطا^(٢)، والفرس، والهند، ومنهم البهاليون^(٣)، والشطار^(٤)، ومن بقية الأنواع، والأجناس، كلهم بالخيل المسوّمة^(٥)، والسلاح الفائق، والتجمّل الظاهر.

وغالب الأمراء، والجند تشتعل بالفقه، ويتمذهبون خاصة، وأهل الهند عامة لأبي حنيفة (رضي الله عنه).

وله ثلاثة آلاف فيل مُحَقَّقة^(٦)، تُلَبِّس في الحروب البركصطوانات^(٧) الحديد

(١) الديوان، موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطة، من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش، والعمال، والديوان في الفارسية اسم (الشياطين)، فسمى الكتاب باسمهم، لحقفهم الأمور، ثم سمي مكان جلوسهم باسمهم، فقيل: (ديوان)، وهناك وجّه آخر عن سبب تسميته بهذا الاسم، هو أن (كسري) اطلع ذات يوم على كتاب ديوانه فقال: (ديوانه) أي (مجاني) فسمى موضعهم بهذا الاسم، وحُرفت الهاء تخفيضاً فقيل (ديوان) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من استخدم الديوان في الإسلام «الأحكام السلطانية ١٩٩». راجع أيضاً «المقدمة ٦٧٥ - ٦٧٩».

(٢) الخطأ: قبائل أو جماعات تتبع إلى أصول مغولية، على الأرجح، اصطبغت فيما بعد ببعض الملامح التركية، كانت تستقر في الأطراف الشمالية من بلاد الصين، وفي القرن العاشر الميلادي أسرّوا لهم دولة، عُرّفت في المصادر الصينية، باسم دولة أسرة لي أو (Leao). العلاقات السياسية. بين دولة الخطأ، والدول الإسلامية المعاصرة/ بحث منشور في مجلة كلية العلوم الاجتماعية في العدد الخامس ١٤٠ هـ ص ٤٠.

(٣) البهاليون: لعلها جمع (بهلوان)، وهي كلمة فارسية، معناها الشجاع الجريء. «محيط المحيط ٥٩».

(٤) الشطار: جاء في لسان العرب ٦/٧٦: «وَشَرَّطَ عَنْ أَهْلِهِ شُطُورًا، وَشُطُورَةً، إِذَا نَزَحَ عَنْهُمْ وَتَرَكَهُمْ مَرَاغِمًا، أَوْ مَخَالِفًا، وَأَعْيَاهُمْ خُبْثًا. وَالشَّاطِرُ، مَأْخُوذُهُ، وَقَدْ شَرَّطَ شُطُورًا وَشَطُورَةً، وَهُوَ الَّذِي أَعْيَاهُ أَهْلُهُ، وَمَؤْدِبُهُ خُبْثًا.. وَفَلَانْ شَاطِرُ أَيْ أَخْذَنْ حُوْغَرِ الْإِسْتَوَاءِ، وَلِذَلِكَ قَيلُ لَهُ شَطَرٌ، لَأَنَّهُ تَبَاعِدُ الْإِسْتَوَاءُ. وَجَاءَ فِي كِتَابِ «حِكَایَاتِ الشُّطَّارِ وَالْعَيَّارِيْنِ» ١٣ - ١٤: أَنَّهُمْ جَمَاعَةٌ عَاشُوا عَلَى هَامِشِ الْمَجْمُعِ، وَفِي سَنْحِ الْكَيَانِ الإِجْتِمَاعِيِّ، وَهُمْ لَيْسُوا لِصُوصًا بِالْمَعْنَى التَّقْلِيدِيِّ الشَّرِيرِ، وَإِنَّمَا مَتَّمِرُونَ سُدَّتَ فِي وِجْهِهِمُ السُّبْلُ الْشَّرِيعِيُّ، أَوْ الْمَشْرُوعِيُّ، فَلَمْ يَجِدُوا إِلَّا الْلِصُوصِيَّةُ وَالشَّطَّارَةُ، وَقَطْعُ الطَّرِيقِ سَبِيلًا، لِلتَّبَعِيرِ عَنْ قَضِيَّتِهِمْ، وَأَنفُسِهِمْ، وَهُمُ الطَّوَافُ الشَّعْبِيَّةُ، الَّتِي تَزَعَّمُ حَرَّكَاتُ الْمَقاوِمَةِ فِي (بَغْدَاد)، وَ(دَمْشِقُ)، وَ(القَاهِرَة) ضَدَّ الغَرَّاءِ وَالْمُحَاتِلِينَ.

(٥) المسوّمة: «الخيل المسوّمة التي لها سمة أي علامة». راجع «محيط المحيط ١٨٢».

(٦) محققة: أي تستحق أن يحمل عليها، ويُتفق بها. راجع «محيط المحيط ١٨٢».

(٧) البركصطوانات: ليس للخيل عند الحرب، يُقال لها (بركستوانات) مفردها (بركستوان) أو (بركستون) مصنوعة من الفولاذ، حُلّت محل التجافيف «نظم دولة سلاطين المماليك ٢٦/٢، «النصر المماليكي ٤١٨».

المذهب، وأما في أوقات السلم فتلبّس جلال الديباج^(١)، والوشي^(٢)، وأنواع الحرير، وترّين بالقصور، والأسرة المصفحة، وتُشَدَّ عليها البروج من الخشب المُسْمَرَة، ويتبّأ بها رجال الهند مقاعد للقتال، ويكون على الفيل من عشرة رجال إلى ستة رجال، على قدر احتمال الفيل.

وله عشرون ألف مملوك أتراك. قال البزّي: وعشرة آلاف خادم خصيّي وألف خِرَنْدار^(٣)، وألف بَشْمِقدار^(٤)، له مائتا ألف عبد رِكابيّة تلبس السلاح، ١٨ / وتمشي في رِكاب السلطان، وتقاتل رجاله بين يديه، وليس يستخدم أحدٌ من الخانات، والملوك، والأمراء، والإصفهسلاوية أجناداً، تقطع لهم الإقطاعات من قبلهم، كما هو في مصر والشام، بل ليس يُكَلِّفُ الواحد منهم إلا نفسه، وعدته من الجند، استخدامهم إلى السلطان، وأرزاقهم من ديوانه، ويبقى كلما تَعَيَّنَ لذلك الخان، أو الملك أو الأمير، أو الإصفهسلاير خاصّ لنفسه.

والحجّاب^(٥)، وأرباب الوظائف، وأصحاب الأشغال، من أرباب السيوف، من

(١) الْدِبَاج: مُعَرَّب، وهو ثوب سُدَاه ولحمته ابريسم «المصباح المنير ٢٠١ / ١» وجاء في «الموسوعة العربية الميسرة ٨٢٩»: أنه نسيج من مختلف الأجناس استعمل كثيراً في العصور الوسطى في الشرق، لباساً للرجل، وكانت تصنع منه بخاصة كُسَّي التشريف.

(٢) الوشي، نقش الثوب، ويكون من كل لون، والواشي الحائك. «محيط المحيط ٩٧١»، و«المعجم الوسيط ١٠٣٦ / ٢».

(٣) خِرَنْدار: الْخِرَنْدار، لقب يُطلق على من يقوم على خزانة السلطان، أو الأمير، أو غيرهما، وهو مركبٌ من لفظين، عربي وهو (خزانة)، وهي ما يُخْزَنُ فيها المال، وفارسي وهو (دار) ومعناها (مُمْسِك) ، فُحِدِّثَتِ الألْفَ والهاء من (خزانة) استقلاً، فصارت (خِرَنْدار)، ومعناها (مُمْسِكُ الْحَرَنَة). ومقدام الخِرَنْدار، من مُقْدَمِي الألْفَ. «الصَّبَحُ ٤ / ٤٦٣ / ٥، ٢١ / ٤، ١١٤»، و«زيادة كشف الممالك ٢٢٢ - ٢٢٠». و«تاریخ الممالک البحریة ٢٢٠ - ٢٢٢».

(٤) بَشْمِقدار: البَشْمِقدار، هو الذي يحمل نَعْلَ السلطان، أو الأمير، وهو مُركبٌ من لفظين أحدهما (بَشْمَق)، من اللغة التركية، ومعناه (النَّعْل) والثاني (دار) من اللغة الفارسية، ومعناه (مُمْسِك)، فيكون المعنى (مُمْسِكُ النَّعْل) ويدرك الفلقاشندي رواية أخرى لِرَسْم الكلمة نقاً عن صاحب كتاب (الأنوار الضوئية) في إظهار عَلَط الدَّرَة المضيّة في اللغة التركية وهو (بَصْمِقدار) لأن الصواب في (النَّعْل) (بِصَقَق). «الصَّبَحُ ٥ / ٤٥٩».

(٥) الحِجَاب: الحاجب، أمير وظيفته أن يُنْصَفَ بين الأمراء والجند، إما بنفسه، أو بمراجعة نائبه ويقدم إليه من يعرض، ومن يَرِد، وعَرْضُ الجنَد وما ناسب ذلك، أول ما عُرِفَ هذا الاسم في خلافة عبد الملك بن مروان ٦٨٤ - ٦٨٦ هـ / ٧٠٥ - ٧٠٦ م)، وكانت مهمَّة الحاجب إذ ذاك حِجْبُ السلطان عن العامة، وإغلاق بابه أو فتحه دونهم في مواعيٍّ معيّنة «الصَّبَحُ ٤ / ١٩ - ٢٠»، و«المقدمة ٦٧١ - ٦٧٥»، و«حسن المحاضرة ٢ / ١٣١، ١٣٣، ١٣٤».

الخانات، والملوك، والأمراء، لكل رتبة من يناسبها، على مقدارها. فاما الإصفهسارية، فلا يؤهل منهم أحد لقرب السلطان، وإنما يكون منهم نوع الولاة، ومن يجري مجراهم.

والخان، يكون له عشرة آلاف فارس، والملك ألف فارس، والأمير مائة فارس، والإصفهسارية دون ذلك.

واما أرزاهم، فيكون للخانات، والملوك، والأمراء، والإصفهسارية، بلاد مقررة عليهم من الديوان، إن كانت لا تزيد، فإنها لا تنقص، والغالب أن تجيء أضعاف ما عبرت^(١) به.

ولكل خان لگان، كل لگ مائة ألف تنكه^(٢)، كل تنكه ثمانية دراهم^(٣)، هذا خاص له، لا يخرج منه لجندي من أجناده شيء، ولكل ملك من ستين ألف تنكه إلى خمسين ألف تنكه، ولكل أمير من أربعين ألف تنكه إلى ثلاثين ألف تنكه، والإصفهسارية من عشرين ألف تنكه، وما حولها، وأما الجندي فلكل جندي من عشرة آلاف تنكه إلى ألف تنكه، وأما المماليك السلطانية فلكل مملوك من خمسة آلاف تنكه إلى ألف تنكه، وطعامهم وكساويمهم وعليقهم^(٤). والجند، والمماليك ليس لهم بلاد، وإنما يأخذون أموالهم نقداً من الخزانة، وأما أولئك^(٥) بلاد تلك غيرها.

قال: والآن إن لم تزد متحصلات البلاد المقتطعة لهم عن العبر، وإنما

(١) عبرت: في «مفاسيد العلوم»: العبر، ثبت الصدقات لكور من الكور، وغيره سائر الارتفاعات هو، أن يعتبر مثلاً ارتفاع السنة التي هي أقل ريعاً، والسنة التي هي أكثر ريعاً، ويجمعان ويؤخذ نصفهما، فتلك العبرة، بعد أن تُعتبر الأسعار وسائر العوارض.

وفي كتاب «العصر المماليكي»: العبرة، هي مقدار المساحة، وهي مقدار المربوط من الخارج، أو الأموال على كل اقطاع من الأرض وما يحصل عن كل قرية، من عين أو غلة».

(٢) تنكه: نقد ذهبي، أو فضي، يعادل (تولة، واحدة) أو (١١) جراماً، و(٦٦٤) ملي جراماً، كما يساوي أيضاً (٥٠) جيتلاً وقد عرفت الهند هذا النقد منذ عهد المماليك (٦٠٢ - ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م).

«نزة الخواطر» ٣٧٨/٩، ٣٨١.

(٣) دراهم: الدرهم فارسي مغرب «المخصص» (١٢/٢٧) والدرهم الشرعي، هو الذي تزن (العشرة) منه (سبعة) مثاقيل من الذهب، والأوقيه منه (أربعين) درهماً، وهو على هذا (سبعة عشر) الدينار، وزن المثقال من الذهب (اثنان وسبعون) جبة من الشعير، فالدرهم الذي هو (سبعة عشر) (خمسون جبة وخمساً جبة) وهي مقادير ثابتة بالإجماع «المقدمة» ٢/٣٧٠.

(٤) علائقهم: أي طعامهم، راجع «المصباح المنير» ٢/٧٦ و جاء في «محيط المحيط» ٦٢٧. أن (العليق) هو شعير الدابة، أو هو ما تعلقه الدابة من الشعر ونحوه.

(٥) أي الخانات، والملوك، والأمراء، والإصفهسارية.

تنقص، ومنهم من يحصل له قدر عبرته مرتين، وأكثر، وأما العييد فلكل عبد منهم في كل شهر مَنَان من الحِنْطة، والأرز، طعاماً لهم، وفي كل يوم /١٩/ ثلاثة أسيار^(١) لحم، بما يحتاج إليه، وفي كل شهر عشر تُنّكَات بيضاء^(٢)، وفي كل سنة أربع كساوِي.

ولهذا السلطان دار طراز^(٣)، فيها أربعة آلاف قَرَاز^(٤) تَعْمَل الأقمشة المنسوبة للخلع^(٥)، والكساوى، والإطلاقات^(٦)، مع ما يُحمل له من قماش الصين، والعراق، والإسكندرية. وهو يُفرّق في كل سنة مائتي ألف كسوة كاملة؛ مائة ألف كسوة في الربع، ومائة ألف كسوة في الخريف، فأما كساوى الربيع فغالبها من القماش الإسكندرى، عمل إسكندرية، وأما كساوى الخريف، فكلها حرير من عمل دار الطراز بدھلي، وقماش الصين، والعراق. ويُفرق على الخوانق والرُّبُط الكساؤى. وله أربعة آلاف زركشى، تعمل الترَاكش لباقي الحرير، وتعمل في مستعملاته^(٧)، ولما

(١) أسيّار: واحدة (سَيْر)، وهو من الأوزان الهندية، يساوي (٨٠) تولة، أو (٩٣٣) جراماً، أو (١٢٠) ما جمّاً. نزهة الخاطط / ٣٨٥.

(٢) أي من النقد الفضي.

(٣) دار طراز: جاء في "المقدمة ٢/٧٠٨-٧٠٩": أن من أئمّة الملك، والسلطان، ومذاهب الدول، أن ترسم أسماؤهم، أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدّة للباسهم، إما بالذهب أو بخيوط ملونة غير الذهب، والقصد من ذلك التمييز بلابسها، من السلطان فما دونه، وقد كان ملوك العجم يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك وأشكالهم، أو أشكالٍ وصورٍ معينة، ثم اعتراض ملوك الإسلام عن ذلك، يكتب أسمائهم، مع كلمات أخرى تجري مجرى الفال أو السجلات.

(٥) **الخلع:** الخلعة، ثوب يلبسُه الحاكمُ، ويُنْسَحَه هديةً بعد أن يخلعه، وهو بمثابة أمان للشخص الذي يخلعه عليه أكثر منه تكريماً له، وتطور مفهوم الخلعة في العصر المماليكي، وأصبح هدية شائعة، حتى أن موظفي الدولة اعتبروا ذلك حقاً مكتسباً، كمرتباتهم سواءً بسواءً، وقد عقد «القلقشندى» في كتابه «صحيح الأعشى ٤٥٢» فصلاً أطلق عليه عنوان (الخلع والشتاريف) وضح فيه كيف تختلف الخلع في أنواعها، وألوانها، ورسومها، حسب طبقات رجال الدولة، والمناسبات والأماكن التي يتم الخلع والتشريف فيها وكذلك «المقربيزى» في «المخطط ٢١٦/٢» ولمزيد من التفصيل حول موضوع (الخلع) داحع أيضاً «الملاس» المملوكية ١٠١.

(٦) الإطلاقات: هي ما يُقرّره السلطان لفته من موظفي الدولة، أو لأسرة من الأسر، أو لأحد أفراد رعيته سواء من أرباب الدولة، أو من غيرهم، من مخصصات نقدية أو عينية، وهي على ثلاثة أنواع: إما تُقرّر لمن فرّه غيره من سبطه من سلاطين أو ملوك، وإما ابتداء لتقرير ما لم يكن مقرراً قبل، وإما زيادة على ما هو مُقرّر. تفصيل ذلك في: (الصح ٤١ / ١٣).

(٧) مستعملاته: أي، الأشياء الخاصة به.

يَخْلُعُهُ عَلَى أَرْبَابِ دُولَتِهِ، وَيُعْطِي لِنَسَائِهِمْ.

وَيَفْرَقُ فِي كُلِّ سَنَةِ عَشْرَةِ آلَافِ فَرَسٍ عَرَبِيًّا مِّنَ الْخَيْلِ الْعَرَابِ الْمُسَوَّمَةِ؛ مِنْهَا مَا هُوَ مُسْرَجٌ مُلْجَمٌ^(١)، وَمِنْهَا مَا هُوَ عَرَبِيًّا بِلَا سَرْجٍ وَلَا لِجَامٍ، وَالْمُسَرَّجَاتِ وَالْمُلْجَمَاتِ عَلَى أَنْوَاعٍ؛ مِنْهَا مَا هُوَ مُلْبَسٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مُحَلَّى، ثُمَّ إِنْ تَلْكَ الْمُلْبَسَاتِ، وَالْمُحَلَّيَاتِ، مِنْهَا مَا هُوَ بِالذَّهَبِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ بِالْفَضْلَةِ. فَأَمَّا مَا يُعْطِي مِنَ الْخَيْلِ الْبَرَادِينِ، فَإِنَّهُ بِلَا حِسَابٍ، يُعْطِي جُشَارَاتٍ^(٢)، وَيَفْرَقُ مَئِينًا مَئِينًا، وَهُوَ عَلَى كُثْرَةِ الْخَيْلِ بِبَلَادِهِ، وَكُثْرَةُ مَا يُجْلِبُ إِلَيْهِ يَتَطَلَّبُهَا مِنْ كُلِّ قَطْرٍ، وَيَبْذُلُ فِيهَا أَكْثَرُ الْأَثْمَانِ، لَكُثْرَةِ مَا يُعْطِي وَيُظْلِقُ، وَهِيَ مَعَ هَذَا غَالِيَةُ الثَّمَنِ، مُرْبِحَةُ الْمَكَاسِبِ لِمَنْ يَتَاجِرُ فِيهَا، لَكُثْرَةِ الْمَكَاسِبِ، وَالْعَسَاكِرِ، وَجَمِيعِ الْخَلْقِ.

وَحَدَّثَنِي عَلَيْيَ بنُ مُنْصُورِ الْعُقَيْلِيِّ، مِنْ أَمْرَاءِ عَرَبِ الْبَحْرَيْنِ وَهُمْ مَمْنُونُ بِجَلْبِهِمْ إِلَى هَذَا السُّلْطَانِ، أَنَّ لِأَهْلِ هَذَا الْبَلَادِ عَلَمَةً فِي الْفَرَسِ يَعْرُفُونَهَا بَيْنَهُمْ، مَتَى مَا رَأَوْهَا فِي فَرَسٍ، اشْتَرَوْهُ بِمَا عَسَى يَبْلُغُ ثَمَنَهُ.

وَلِهَذَا السُّلْطَانِ نَائِبٌ مِّنَ الْخَانَاتِ يُسَمَّى (إِمْرِيت)، إِقْطَاعُهُ يَكُونُ قَدْرُ إِقْلِيمِ عَظِيمٍ نَحْوِ الْعَرَاقِ، وَوَزِيرٌ، وَإِقْطَاعُهُ يَكُونُ قَدْرُ إِقْلِيمِ نَحْوِ الْعَرَاقِ، وَلَهُ أَرْبَعَةُ نَوَابٍ، يُسَمَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِّنْهُمْ (شَقَّ)، وَلِكُلِّ مِنْهُمْ مِّنْ أَرْبَعِينِ أَلْفِ تَنْكَةٍ إِلَى عَشْرِينِ أَلْفِ تَنْكَةٍ، وَلَهُ أَرْبَعَةٌ / ٢٠ / (دِبِيرَانَ) أَيْ كِتَابٌ سِرٌّ - لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمْ مِّنْ مَدِينَةِ الْمَدَنِ الْبَنَادِرِ الْعَظِيمَةِ الدَّخْلِيِّ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمْ بِقَدْرِ ثَلَاثَمَائَةِ كَاتِبٍ أَصْغَرُ مِنْهُمْ، وَأَضْيقَ رِزْقًا لَهُ عَشْرَةُ أَلْفِ تَنْكَةٍ، وَأَمَّا أَكَابِرُهُمْ فَلَهُمْ قَرَى وَضِيَاعٌ، وَفِيهِمْ مَنْ لَهُ خَمْسُونَ قَرِيَّةً، وَلَصَدِرِ جَهَانَ، وَهُوَ اسْمُ قَاضِيِ الْقَضَاءِ، وَهُوَ فِي وَقْتِنَا كَمَالُ الدِّينِ بْنُ الْبَرَاهِنَ^(٣)،

(١) مُلْجَمٌ: الْلِّجَامُ فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ، وَهُوَ حَبْلٌ، أَوْ عَصَمٌ، يَدْخُلُ فِي فَمِ الدَّابَّةِ، وَيُلْزَقُ إِلَى قَفَاهِهِ. «المُخَصَّصُ ١٨٨/٦».

(٢) جُشَارَاتٌ: الْجُشَارُ، الْمَاشِيَةُ، وَيُقْصَدُ بِهَا أَحْيَانًا الْخَيْلُ وَالْبَقَرُ، الَّتِي تُسَاقُ مَعَ الْجَيْشِ، رَاجِعٌ «مِحيَطُ الْمَحِيطِ ١١٠»، وَ«النَّظَمُ الْإِلَاقِعَيَّةُ ٤٤٧».

(٣) كَمَالُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ الْبَرَاهِنِ الْعَزْنَوِيِّ، الْمَلْقُوبُ بِ«صَدِرِ جَهَانَ»، الْفَقِيهُ، الْإِمامُ الْعَلَامُ، قَاضِي الْقَضَاءِ، بِالْهَنْدِ وَالسَّنَدِ، ذَكَرَهُ «ابْنُ بَطْوَطَةُ» فِي «رَحْلَتِهِ» أَثْنَاءَ حِدَيَّهُ عَنْ فَتْحِ مَدِينَةِ دِهْلِيِّ سَنَةَ ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م، وَمِنْ تَدَالِيَّهَا مِنَ الْمُلُوكِ، حِيثُ نَقْلَ عَنْهُ خَبَرُ تَلْكَ الْمَدِينَةِ، كَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ تَلَقَّى مِنْهُ مُعَظَّمُ أَخْبَارِ سَلاطِينِ الْهَنْدِ، مَا عَدَ مُحَمَّدٌ تَغْلِقُ شَاهَ، حِيثُ اعْتَمَدَ فِي نَقْلِ أَخْبَارِهِ عَلَى الْمُشَاهِدَةِ، وَالْمَعَايِنَةِ عَنْ زِيَارَتِهِ لِبَلَادِهِ ٤٤١، ٤٢١ وَذَكَرَ صَاحِبُ «نَزَهَةِ الْخَوَاطِرِ ٢/١٢٩»: أَنَّ الشَّيْخَ الْفَاضِلَ مُحَمَّدَ بْنَ الْبَرَاهِنَ، الْقَاضِي كَمَالُ الدِّينِ الْهَانْسَوِيِّ، أَحَدُ كِيَارِ الْفَقَهَاءِ الْحَنْفِيَّةِ، قَرَأَ الْعِلْمَ عَلَى خَالِهِ الشَّيْخِ الْعَلَامِ فَخْرِ الدِّينِ الْهَانْسَوِيِّ، بَرَعَ فِي الْعِلْمِ، وَتَأَهَّلَ لِلْفَتْوَىِ، وَالْتَّدْرِيسِ، وَلِيِّ الْقَضَاءِ، حَتَّى صَارَ =

عشر قرى، يكون متاحصلها قريب ستين ألف تَنْكَة، ويُسمى صدر الإسلام، وهو أكبر نواب الحُكْم بالقضاء، ولشيخ الإسلام، وهو شيخ الشيوخ مثله. وللمحتسب قرية يكون متاحصلها نحو ثمانية آلاف تَنْكَة.

وله ألف طبيب ومائتا طبيب وعشرة آلاف بَزَّدار^(١) ترك الخيل، وتحمل الطيور المُعلمة للصيد، وثلاثة آلاف سَوَاق تسوق لتحصيل الصَّيد، وخمسمائة نديم، وألفان ومائتا نفرٍ من الملاهي، غير مماليكه الملاهي؛ وهم ألف مملوك، برسم تعليم الغنا خاصَّة، وألف شاعر من اللغات الثلاثة؛ العربية، والفارسية، والهنديَّة، من ذوي الذوق اللطيف، يجري على هؤلاء كلهم ديوانه، وتدر عليهم مواهبه. ومتى بلغه أنَّ أحداً من ملاهيه غَنِي لأحد قتله. وسألته عما لهؤلاء من الأرزاق؟ فقال: لا أعلم من أرزاق هؤلاء إلَّا ما للندماء، فإنَّ لبعضهم قريتين، ولبعضهم قرية، ولكل واحد منهم، من أربعين ألف تَنْكَة، إلى ثلاثين ألف تَنْكَة، إلى عشرين ألف تَنْكَة، على مقاديرهم من الخلум والكساوى، والإفتادات^(٢).

قال الشيخ مبارك: ويُمَدَّ^(٣) لهذا السلطان السُّمَاط أوقات الخدم في طرفي النهار مرتين في كل يوم، ويُطعم منه عشرون ألف نفر مثل: الخانات، والملوك، والأمراء، والإصفهانسارية، وأعيان الجند، وأما طعامه الخاص فيحضر معه عليه الفقهاء؛ مائتا

= أقضى قضاة الهند في عهد تغلق شاه، واستمر في هذا المنصب حتى آخر عهد (محمد تغلق شاه) الذي كان يقرره إلى نفسه، رغم عَشْمه وجوره.

(١) بَزَّدار: أو (البازار)، هو الذي يحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد على يده (والباز) أحد أنواع الجوارح، وحُصَّن بإضافته إلى الباز دون غيره، لأنَّه هو المتعارف بين الملوك في الزَّمن القديم «الصبح ٤٦٩/٥».

(٢) الإفتادات: جاء في «محيط المحيط ٦٩٧»: فقد مصدرٌ، ونباتٌ، أو شرابٌ من زبيب، أو عسل.

(٣) قارن بـ«الصبح ٩٥/٥»، وقد ذكر (أنَّ الخدمة، خدمتان، أحدهما الخدمة اليومية، فإنه في كل يوم يُمَدَّ الخوان في قصر السلطان، ويأكل منه عشرون ألف نفر من الخانات..الخ. والثانية الجمعية، حيث يجلس يوم الثلاثاء من كل أسبوع جلوساً عاماً للناس في ساحة عظيمة). وكذلك في «رحلة ابن بطوطة ٤٥٠ - ٤٥١»، وصف لترتيب طعام السلطان ذكر فيه، أنه على صفين، طعامٌ خاصٌّ، وطعمٌ عامٌ، أما الطعام الخاص فيحضره الأمراء، والخواص، وأمير العُجَاجَاب ابن عم السلطان، وعماد الملك (سرتَّيز)، وأمير المجلس، وغيرهم من يرى السلطان تكريمه من كبار النَّاس. وقد حضر ابن بطوطة طعام العام فقد وصف كيفية تقديمها، وكيف تُسجَّل أسماء من يحضره ونوعه، وكيفية ترتيب جلوس أرباب الدولة وعامة الناس على السُّمَاط. وبما يُبُدِّأ به من الشراب، وكيف يُكتَب جميع ما يحتويه الطعام أمام كل إنسان، ثم ما هي أنواع الأشربة بعد الفراغ من الطعام، كما ذكر أنَّ موعد تناول الطعام مرتين في اليوم، قبل الظهر، وبعد العصر.

فقيه في الغذاء والعشاء، ليأكلوا معه، ويبحثوا بين يديه.

قال الشيخ أبو بكر بن الخلال البزي: سألت طباخ السلطان، كم يُذبح في مطابخه كل يوم؟ فقال: يُذبح ألفان وخمسمائة رأس من البقر، وألفاً رأس من الغنم، غير الخيل /٢١/ المسمنة، وأنواع الطير.

قال الشيخ مبارك: ولا يحضر مجلس هذا السلطان من الجندي، إلا الأعيان، ومن دعته ضرورة إلى الحضور؛ لكترة عددهم، وكذلك مجالسة الخاصه، لا يحضر بها جميع أرباب الخدم من الندماء والمغاني إلا بالنُّوب، وكذلك أرباب الوظائف مثل: الْدُّبَيْرَانِ والأطباء ومن يجري مجراهم لا يحضرُون إلا باللُّوب، وأما الشعراء فلحضورهم أوقات مخصوصة في السنة، مثل: العيددين، والمواسم، ودخول شهر رمضان، وعندما يتجدد نصره على أعداء، أو فتوح من الفتوحات، أو غير ذلك مما تهّنى به السلاطين، أو يُتعرّض إلى مدحهم فيه.

وأمور الجندي خاصة، بل الناس عامة إلى (أمْرِيت)، وأمور الفقهاء والعلماء القاطنين، والواردين كلها إلى (صدرجهان)، وأمور الفقراء القاطنين، والواردين إلى (شيخ الإسلام)، وأمور عامة الواردين، والوافدين، والأدباء، والشعراء القاطنين والواردين إلى (الدبيران)، وهم كُتاب السرّ.

وحدثني قاضي القضاة، أبو محمد الحسن بن محمد الغوري الحنفي^(١)، أن السلطان محمد بن طغلق شاه، كان قد جَهَزَ بِيغصان، أحد كُتاب سره إلى جهة السلطان أبي سعيد^(٢) رسولًا وبعث معه ألف ألف تَنْكَة، ليتصدق بها في المشاهد،

(١) حسام الدين، الحسن بن محمد الغوري، ولِي قضاء الحنفية في مصر سنة ٧٣٨هـ / ١٣٣٧ م ثم عُزل عنه سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١ م، فوصل إلى حلب في ذي الحجة سنة ٧٤٢هـ وافداً من بغداد، ومنفياً من القاهرة؛ بسبب ما اعتمدته في الأحكام، ولمعاضدته لقوصون، ولسوء سيرته.

ترجمته في: تاريخ ابن الوردي ٤٧٤ - ٤٧٥، والسلوك ٦١١ - ٦١٣ وحسن المحاضرة ١٨٤ / ٢.

(٢) القان، أبو سعيد بن حَرَبَنْدَه بن أرغون بن أبغا بن هولاكو المُغْلِي، كان يكتب الخط الجيد المنسوب، ويجيد ضرب العود، وفيه رأفة ودية، وقلة شر، استقر في السلطة بعد وفاة والده حَرَبَنْدَه سنة ٧١٦هـ / ١٣١٦ م وقيل في أول جمادى الأولى سنة ٧١٧هـ / ١٣١٧ م بمدينة السلطانية قرب جبال كيلان وكان عمره إحدى عشرة سنة. خضعت له العراق، والجزيرة، وأذربيجان، وخراسان وأطراف ممالك ما وراء النهر، توفي في الأزد سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥ م بعد عشرين سنة من الحكم وُنقل إلى مدينة السلطانية ودُفن فيها.

ترجمته في: ذيول العبر ١٠٥ - ١٠٤ وتاريخ ابن الوردي ٢ / ٣٧٧ - ٣٧٨، ٤٤٤ وصبح الأعشى ٤ / ٣٥٨، والنجوم الرازحة ٣٠٩ / ٩، وقد جاء اسمه (بوسعيد).

بالكوفة، والعراق، وتلك الآفاق، وكان هذا بيعصان مُحَبِّث التية، فجمع أحواله عازماً على أنه لا يرجع إلى حضرة مُرسله، وصادف وصوله وفاة أبي سعيد، فتمكن مما قصدته، وحضر إلى بغداد، ومعه نحو خمسمائة فرس له ولأصحابه، ثم توجه إلى دمشق. قال: ثم بلغني أنه عاد منها إلى العراق، وأقام ببغداد، واستوطنها.

قلت: وقد حدثني بحال هذا، الفاضل نظام الدين، أبو الفضائل يحيى بن الحكيم، وقال لي: إنه رأه بدمشق لكنه لم يذكر مبلغ هذه الصدقة وكذا حكى لي عنه [السبكي]^(١)، والمُلتاني، والبزبي وإن تختلف الفاظهم، فمعناها واحد.

وقال كل منهم: إن هذا بيعصان من الفضلاء الأعيان والدينة^(٢) الأخيار.

قال الشيخ أبو بكر البزبي^(٣): - وهذا السلطان ترعد الفرائص لمهابته وتترزلل الأرض لموكبـهـ، وهو كثـير التـصـدـيـ / ٢٢ـ لأـمـورـ مـملـكتـهـ،ـ وهوـ يـجـلسـ بـنـفـسـهـ لـإـنـصـافـ رـعـيـتـهـ.

(١) **السبكي**: أكثر من واحد عاصر ابن فضل الله العمري، لقب بالسبكي؛ منهم:

القاضي تقى الدين، أبو الفتح، محمد بن عبد اللطيف السبكي ولد في دمشق ١٧٠٤ هـ / ٧٥٥ م وتووفي في يوم السبت ١٨ ذي القعدة سنة ٧٤٤ هـ / ١٣٤٣ م، وتابع الدين، عبد الوهاب بن تقى الدين علي السبكي. (٧٧١ - ١٣٢٦ هـ / ٧٧٧ - ١٣٦٩ هـ / ١٣٣٥ م)، وبلدر الدين أبو المعالي، محمد بن محمد بن عبد الطيف الشافعـيـ السـبـكـيـ (٧٣٦ - ٧٧١ هـ / ١٣٧٤ - ١٣٧٤ هـ / ١٣٧٤ م)، وكمال الدين أبو البركات السبكي الشافعـيـ المتوفـيـ سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٤ م، ومحمد بن عبد البر بن يحيى بن علي السبكي (٧٠٧ - ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ - ١٣٠٧ م)، وولي الدين، أبو ذر، عبد الله بن أبي البقاء بهاء الدين محمد بن عبد البر بن يحيى بن تمام السبكي. ولد في مصر، في جمادى الآخرة سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م، أحضر على زهرة بنت الخطمي، وأسمع على محمد بن غالى، ويحيى بن عبد الله، وأبى نعيم الأسرعدي، حفظ الحاوي، ناب في الحكم عن قريبه تاج الدين السبكي، ثم عن أبيه، استقل بالحكم في دمشق بعد موت أبيه، له نظم حسن، وكان قد باشر توقيع الدست. توفي في سابع شوال سنة ٧٨٥ هـ / ١٣٨٣ م بدمشق. ولعل سمعـهـ علىـ والـدـ العـمـرـيـ (يـحـيـيـ بـنـ فـضـلـ اللهـ)ـ وـعـلـمـهـ فـيـ الدـسـتـ.

يرجح لدينا أنه هو المعني هنا.

ترجمته في: الدرر الكامنة / ٢٣٩٨، والنجم الزاهرة / ١١٢٩٨.

(٢) **الديّنة**: جاء في «السان العرب / ١٧ - ٢٧» يقال: دان بكتـاـ دـيـانـةـ،ـ وـتـدـيـنـ بـهـ فـهـوـ دـيـنـ،ـ وـمـتـدـيـنـ.ـ كـمـاـ جـاءـ فـيـ (المـصـيـاحـ الـمـنـيرـ / ١٢٠)،ـ دـانـ بـالـإـسـلـامـ دـيـنـاـ،ـ يـالـكـسـرـ؛ـ تـعـبـدـ بـهـ،ـ وـتـدـيـنـ بـهـ،ـ كـذـلـكـ فـهـوـ دـيـنـ،ـ مـثـلـ:ـ سـادـ فـهـوـ سـيـدـ.

وجاء في «محـيطـ المـحيـطـ / ٣٠٢» الـدـيـنـ،ـ صـاحـبـ الـدـيـنـ،ـ وـالـمـتـمـسـكـ بـهـ.

(٣) راجـعـ ماـ ذـكـرـ اـبـنـ بـطـوـطـةـ فـيـ رـحـلـتـهـ عـنـ قـوـةـ هـذـاـ السـلـطـانـ،ـ وـحـشـهـ عـلـىـ تـطـبـيقـ شـعـائـرـ الـدـيـنـ،ـ وـحـفـظـ دـوـلـتـهـ،ـ وـإـنـصـافـهـ لـلـمـلـوـلـمـينـ (الـرـحـلـةـ ٤٤١ـ،ـ ٤٦٩ـ،ـ ٤٧٠ـ).

قال خواجا^(١) أحمد بن خواجا عمر بن مسافر^(٢)، فيما حكاه عنه: إنه يجلس لقراءة قصص الناس عليه جلوساً عاماً، ولا يدخل عليه من معه شيء من السلاح، حتى ولا السكين، إلا كاتب السر لا غير، والسلطان عنده سلاح كامل، حتى التركاش^(٣)، والقوس، والنشاب^(٤)؛ حيث قعد لا يفارقه سلاحه. قال: وهذا دأبه، دائمًا أبداً^(٥).

وأما ركوب هذا السلطان، فإنه يختلف؛ تارة يكون للحرب، وتارة يكون للانتقال في دهلي من مكان إلى مكان، وتارة يكون في قصوره، وأما إذا ركب إلى الحرب، فالجبال سائرة، والرمال سائلة، والبحار تتدفق، والبروق تلمع، وأمور تعتقد كذبها العيان، ويعتقل عن وصفها اللسان، وعن الفيلة من الأبراج مدينة، أو قلعة حصينة، ولا يرى الطرف إلا النفع المثار، ودرجى ليل ممتد على النهار. وشعار السلطان أعلام سود^(٦) في أوساطتها تنين^(٧) عظيم من الذهب، ولا يحمل أحد في الأعلام سواداً إلا له خاصة، وفي الميمنة له أعلام سود، وفي الميسرة أعلام

(١) خواجا: لفظ فارسي من ألقاب أكابر التجار، ومعنىه السيد، ونسبة المبالغة إليه (خواجكي) «صبح الأعشى ٦/١٣»، جاء في «محيط المحيط ٢٥٩»: أنها كلمة تجمل، يُلقب بها التجار ونظائرهم، أعجمية بمعنى معلم.

(٢) عمر بن مسافر الخواجا ركن الدين أستاذ الأمير شيخو المتوفى في شعبان سنة ٧٥٨ هـ / ١٣٥٦ م، وغيره من المماليك العمرية. توفي في ربيع الآخر سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م، وذكره المقريزي في أحداث سنة ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م عندما وفدي مع صاحب حصن كيما على الأمير شيخو في مصر، بعد غيبة طويلة، فسرّبه، لأنّه هو الذي جلبه من بلاده، وتنسب إليه، فقيل: شيخو العمري «السلوك ٢/٣، ٨١٥»، «أيمن السيد».

(٣) التركاش: هو الكثابة أو الجعبة التي توضع فيها النشاب، «كتاب السلاح ٣١»، والمخصص ٦/٥٦٩، «والعصر المماليكي ٤٢٣».

(٤) النشاب: هو ما يرمي به عن، القيسى (الفارسية)، وفي المقابل النيل، ما يرمي به عن القبي (العربية) «الصبح ٢/١٤٢».

(٥) كل هذه الاحتياطات، اتخذها (محمد طغلق شاه)، بسبب سياسة القمع والشدة التي مارسها مع أفراد رعيته فهو في قلق وخوف دائم من انتقامتهم منه.

(٦) لعل اتخاذ السلطان (محمد طغلق شاه) السواد شعاراً، له دلالته في ارتباطه وجبه للعباسيين.

(٧) تنين: جاء في «محيط المحيط ٧٤»: التنين الحوت والحياة العظيمة، وبياضٌ خفيٌ في السماء، يكون جسده في ستة بروج وذنبه في البرج السابع، دقيق أسود فيه التواء، وهو يتنقل تنقل الكواكب الجواري.

كما جاء في «الموسوعة العربية الميسرة ٥٥٢»: ذكر في الأساطير بأنه حيوان يجمع بين الزواحف والطير، له مخالب أسد، وأجنحة نسر، وذنب أفعى، كثيراً ما يتخذ شعاراً، أو رمزاً قومياً.

حُمْر^(١)، وفيها التّينان الذهب، وأما بقية الأمراء، فكل واحد يحمل ما يناسبه.

وأما ما يُدْقُ للسلطان من الرَّهْجِيَّات^(٢) في الإقامة، والسفر، فإنه يدق له مثل الإسكندر ذي القرنين^(٣)، وهو مائتا حمل نَقَارات^(٤)، وأربعون حملًا من الكوسات^(٥) الكبار، وعشرون بوقاً^(٦)، وعشرة صُنُوج^(٧)، وتدق له النّوب

(١) إذا استطعنا أن نعلل سبب اتخاذ السلطان (محمد تغلق شاه) السواد شعارًا له، وهو الشعار الذي اتخذه العباسيون، فإننا لا نملك دليلاً واضحاً على سبب ظهور الأعلام الحُمر في ميسره؛ هل مجرد تمييز لها عن الميمنة دون دلالة سياسة معينة؟ أم أنها مدلولها السياسي؟ ويزيد الأمر غموضاً أن الأعلام الحمر ظهرت شعاراً لبعض فرق جيش الخليفة الأموي «مروان بن محمد» (١٢٧ - ١٣٢ هـ / ٧٤٤ - ٧٤٩ م)، ثم بعد قيام الدولة العباسية سنة (١٣٢ هـ) رفعت الرايات الحمر شعاراً لبعض الثائرين على العباسيين، أمثال (العباس بن محمد بن عبد الله السفياني) سنة ١٣٢ هـ، (ومسلمة بن يعقوب بن علي المرواني) زعيم القيسية سنة (١٩٥ هـ / ٨١٠ م) بل إن (الخوارج) رفعوا الرايات الحمر شعاراً لهم في حروبهم مع العباسيين.

للوقوف على الألوان ودلائلها السياسية في العصر العثماني، راجع كتاب «بحوث في التاريخ العثماني لفاروق عمر ٢٤٢ - ٢٥٩».

(٢) الرَّهْجِيَّات: رَهْج، اسم ضرب في الإيقاعات الموسيقية، زمان دوره الأعظم، (٢٢ من ٤)، وهو من الإيقاعات المركبة بالتوصيل من أدوار صغار. «الموسوعة الميسرة ٨٨٢».

(٣) الإسكندر ذو القرنين: هو الإسكندر بن فيلفوس اليوناني، من أهل (مقدونية) استولى على جميع (بلاد الروم)، وملك (دارا)، (العراق)، (الشام)، (مصر)، (الجزير)، ثم استولى على (فارس)، وهدم بيوت النار، قتل (الهراة)، وأحرق كتبهم، كما فتح (الهند)، بعد قتل ملكها، وخرّب بيوت أصنامه، وصالح ملك (الصين)، وملك (النَّبت)، وسار باتجاه الشمال، وملك البلاد الواقعة في ذلك الاتجاه ودانت له مختلف الأمم، وبلغ ديار يأجوج ومأجوج، وقد اختلفت الأقوال حولهم، وأقربها إلى الصحة أنهم نوع من الترك لهم قوة ومتانة، فشكى له أهل تلك البلاد من فسادهم. فبني لهم السد كما جاء بيانه في سورة الكهف الآية ٨٣ حتى الآية ٩٨. ثم رجع إلى العراق فمات في طريقه في (شهرزور) بعلة الخوانق، وكان عمره ستًا وثلاثين سنة، ودفن في تابوت من ذهب مرصع بالجوهر، وطلبي بالصبر، لثلا يتغير، وحمل إلى أمه في الإسكندرية، وكانت مدة ملكه أربع عشرة سنة. «الكامل في التاريخ ٢٨٢ / ١ - ٢٩١».

(٤) نَقَارات: مفرد (نَقَارَة)، وهي عند (الموَلَّدين) شبه الدَّنَّ، من الجلد، يُضرَبُ عليها. «محيط المحيط ٩١١» و«الفنون الجميلة ٣٤٤».

(٥) الكوسات: صنوجات من نحاس، تشبه الترس الصغير، يُدْقُ بأحدتها على الآخر بإيقاع مخصوص. «الصَّبَح ٩٤ / ٤».

(٦) بوقا: وهو ما يُنفخ فيها لإعلان التَّفَير في العسكر، وإرهاب الأعداء، بسبب ما تصدره من صوت. «التعريف ٢٧٧».

(٧) الصُّنُوج: آلات نحاسية يُضرَبُ بعضها على بعض. «الصَّبَح ١٣ / ٤»، وجاء في «محيط المحيط ٥٢٠»، أنَّ (الصُّنُوج) «صحيفة مدورة من النحاس، يُضرَبُ بها على الأخرى معرَّب (سنج) بالفارسية جمعها (صُنُوج)، ويقال، لما يجعل في إطار التَّفَّف من الهنات المدوره (صُنُوج) أيضاً، وهذا مما =

الخمس^(١) أيضاً، ويحمل معه ما لا يحصى من الخزائن وغير ذلك، ما لا يكاد يعد من الجنائب^(٢).

وأما في الصيد^(٣)، فإنه يخرج في خف لا يكون معه أكثر من مائة ألف فارس ومائتي فيل، ويحمل معه أربعة قصور خشب على ثمان مائة جمل، كل قصر على مائتي جمل ملبسة جميعها ستور حرير سود مذهبة، وكل قصر طبقتان، غير الخيم، والحرّاكاوات^(٤).

وأما في الانتقال من مكان إلى مكان للتنزه، أو ما هذا سبيله، فيكون معه نحو ثلاثين ألف فارس، وهذه العدة من الفيلة، وألف جنيب مُسرحة ملجمة، ما بين ملبيس بالذهب ومحلى /٢٣/، ومطوق، ومنها المرصع بالجواهر، واليواقيت.

وأما ركوبه في قصوره، فقال لي الشيخ محمد الحُجْنَدِي^(٥)، وكان من دخل دهلي واستخدم في الجند بها: إنَّ رأَهُ، وقد خرج من قصر إلى آخر، وهو راكب، وعلى رأسه الجُنْر^(٦)، والسلاح داريَة وراءه، محمولاً بأيديهم السلاح، وحوله قريب

تعرف العرب، (جك) بالفارسية، كما جاء في «الموسوعة العربية الميسرة ١١٣٢» إنها آلة قديمة، من آلات الإيقاع الموسيقي، تُصنَع من النحاس الأصفر الرقيق على هيئة لوحين مستديرين، قطر كل منهما (٣٠ سم) تقريباً، يمكن أن يُضرب بأحدهما فوق الآخر. وتستعمل الفرق العسكرية هذه الآلة في الوقت الحاضر، وتُسمى الكاسات، كما تستخدم في الكائنات.

(١) المقصد، بالتوب الخامس، أوقات تغيير تناوب الوقوف لحراسة السلطان، وهي: الظهر، والعصر، والعشاء، ونصف الليل، وعند الصباح. «العصر المماليكي ٤٨٢».

(٢) الجنائب: جاء في «مشارق الأنوار ١٥٥»: «والجنب أن يتجنب مع الفرس الذي يسابق عليه فرس آخر، أي يُقاد بغير راكب، حتى إذا من الغاية تحمل راكبه على الفرس المجنوب ليسقط، يريده لجامه وجريه بغير راكب».

كما جاء في «السان العرب ١٢٨»: «وفرس طوع الجناب وطوع الجنب، إذا كان سلس القياد، أي إذا جُنِبَ كان سهلاً منقاداً».

(٣) تحدث (ابن بطوطة)، عن صفة خروج السلطان للصيد، راجع: «الرحلة ٥١٧ - ٥١٩».

(٤) الحرّاكاوات: الحرّاكاه، «بيت من خشب، مصنوع على هيئة مخصوصة، ويُغَشَّ بالجوخ، ونحوه. تُحمل في السفر، لتكون في الخيمة للميت في الشتاء لوقاية البرد» الصبح ١٣٨/٢».

(٥) هو، «محمد الحُجْنَدِي شمس الدين، نزيل المدينة، كان صالحًا، عابداً، مواظباً على الصف الأول، منقطعاً عن الناس، يقطع الليل بالذكر، ويُحكى عنه في تكثير الطعام عجائب، أرخ ابن فرحون وفاته سنة ١٣٦٢هـ/١٢٦٤م».

ترجمته في: الدرر الكامنة ٥/٨٥.

(٦) الجُنْر: يقول عنه ابن بطوطة في «الرحلة ٤٣٧»: والسلطان هنالك، يُعرف بالشَّظَر (جُنْر)، الذي يُرفع فوق رأسه، وهو الذي يُسمى بديار مصر (القبة، والظير) ويُرفع بها في الأعياد، وأما بالهند، والصين، فلا يفارق السلطان في سفر ولا حضر.

اثني عشر ألف مملوك جمِيعهم مشاة، ليس فيهم راكب إلا حامل الجُنْتر، والسلاح دَارِيَّة^(١). والجَمَدارِيَّة^(٢)؛ حملة القماش. وقال لي الشيخ مبارك: إن هذا السلطان، يَحْمِل على رأسه، حيث يركب، الجُنْتر، فاما في خروجه إلى الحروب، والأسفار الطويلة، فإنه يحمل على رأسه سبعة جِتورَة، منها اثنان مرصعان، ليس لهما قيمة، ولدسته، من الفخامة، والعَظَمة، والقوانيين الشَّاهِنْشاَهِيَّة^(٣)، والأوضاع السلطانية، ما لم يكن مثله، إلا لـإسكندر ذي القرنين، أو لـمَلِك شَاه^(٤) بن ألب أرسلان، وأما الخانات والملوک والأمراء، فإنه لا يركب أحد منهم في السَّفَر والَّحَضَر، إلا بالأعلام، وأكثر ما يحمل الخان، تسعه أعلام.

وأقل ما يحمل الأمير ثلاثة، وأكثر ما يَجُرُّ الخان في الحضرة عشرة جنائب، وأكثر ما يجرّ الأمير في الحضرة جنبيان. فأما في الأسفار فمهما وصلت قدرة كل واحد منهم، ووسيعه صدره وكرمه. مع أنهم إذا حضروا باب السلطان تضاءلوا، لطمس شمسه كواكبَهم، ولَطْمَ بحرِه سَحَائِبِهم.

ويقول القلقشندي في «الصبح» ٤/٧-٨: «المِظَلَّةُ، ويُعبَرُ عنها بـ(الجُنْتر)، بجمِيم مكسورة، قد تبدل شيئاً معجمة، وتاءً مثناة فوق، وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، على أعلىها طائر من فضة، مطلية بالذهب، تُحْمَلُ على رأسه في العيدين، وهي من بقايا الدولة الفاطمية».

(١) السلاح دارية: لقب لحملة سلاح السلطان في الماجامع الجامدة، والمقدم عليهم من المماليك السلطانية، وهو المتحدث في (السلاح خاناه) السلطانية، وما يُستعمل لها، أو يُقْدَم إليها، ولا يكون إلا واحداً من الأمراء مقدمي الألف، و(السلاح دار) مكون من لفظين: (سلاح)، عربي (دار) فارسي، بمعنى ممسك، فيكون المعنى (ممسمك السلاح) «الصبح» ١٨/٤ و٥/٤٦٢، و«زيادة كشف الممالك» ١١٤.

(٢) الجَمَدارِيَّة: الجَمَدار هو الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه، وأصله (جامadar) فخذلت الألف بعد الجيم، وبعد العيم استثقالاً، وقيل: (جمَدار)، وهو في الأصل مركب من لفظين فارسيين، أحدهما (جاما)، ومعناه الثوب، والثاني (دار) ومعناها ممسك، فيكون المعنى (ممسمك الثوب) «الصبح» ٥/٤٥٩. وجاء في «حسن المحاضرة» ٢/١٣٤ أنَّ (الجمدار) هو «ما سُكَّ البُقْجَة التي للقمash».

(٣) الشَّاهِنْشاَهِيَّة: شاهِنْشاه، لقب من ألقاب ملوك الفرس، في عهد الدولة الساسانية، ويعني (ملك الملوك)، وقد جاء هذا اللقب، نتيجة إطلاق لقب «ملك» على أفراد الطبقة الأولى في الدولة الساسانية؛ وهم الأفراد الذين يحكمون في أطراف الدولة وحكام الإمارات التي كانت خاضعة للساسانيين أمثال: الأمراء العرب في (الحيرة). وهذا ما سَوَّغَ أن يكون لقب رأس الدولة الساسانية «ملك الملوك» (شاهِنْشاه). «الصبح» ٦/١٦ و«إيران في عهد الساسانيين» ٨٧ - ٨٨.

(٤) هو السلطان السلاجوقى، جلال الدولة أبو الفتح ملكُشاه بن ألب أرسلان، جلس على عرش السلطة السلاجوقية، بعد وفاة والده ألب أرسلان سنة ٤٦٥ هـ/١٠٧٢ م في عهد الخليفة العباسي «القائم بأمر

وهذا السلطان مع هذا ذويه، وإحسان، وتواضع الله تعالى. حدثني أبو الصفا عمر بن إسحاق الشبلاني، أنه رأى، وقد نزل إلى جنازة فقيه صالح مات، وحمل نعشة على عنقه.

وله فضيلة جمّة؛ يحفظ كتاب الله تعالى، وكتاب الهدایة^(١) في مذهب الإمام أبي حنیفة^(٢) رضي الله عنه، ويجيد في المعقول^(٣)، ويكتب خطأً حسناً، وله يد ممهدة^(٤) في الرياضة وتأديب النفس والأدب، ويقول الشعر وينظمه، ويستند، ويفهم معانيه، ويباحث العلماء، ويناظر الفضلاء، ويؤخذ خصوصاً الشعراء بالفارسية، فإنه عالق بأهداها، عارف بشعابها، قال: ولقد سمعته يبحث في معنى تقدم الأمس على اليوم، من أي قبيل هو؟ لأنهم قالوا: إن التقدم، إما أن يكون بالزمان، أو بالرتبة، أو بالذات، وهذا لا يجوز أن يكون [واحداً] من هذه الأقسام، وقرر أنَّ /٢٤/ قولهم انقضى بهذا؛ لأن الأمس متقدم، لا بشيء من هذا. قال: ولقد رأيته يأخذ بأطراف الكلام على كل من حضر على كثرة العلماء. قال: والعلماء تحضر مجلسه، وتقطر في شهر رمضان عنده، يأمر (صدر جهان) كل ليلة واحداً من حضر بأن يذكر نكته، ثم تتجاذب الجماعة أطراف البحث فيها، بحضورة السلطان، وهو كواحد منهم، يتكلم

= يقول عنه «عماد الدين الأصفهاني»: «وكان ملكشاھ، ملکا سیرته العدل، وسريرته الإنصاف، والفضل، شجاعاً، مقداماً، صائب الرأي والتبيير، ضيقاً بالجاج والسرير، أيامه في أيام آل سلجوقي، الواسطة في العقد». كانت ولادته في التاسع من جمادى الأولى سنة ٤٤٧ هـ /١٠٥٥ «وفاته في السادس عشر من شوال سنة ٤٨٥ هـ /١٠٩٢ م). «تاریخ دولة آل سلجوقي»، ٥٧، ٧٠، ٨٠ .

(١) لعله كتاب (الهدایة شرح بداية المبتدئ) لمؤلفه (برهان الدين علي بن أبي بكر بن عبد الجليل الفرغاني المرغيناني) المتوفى سنة ٥٩٣ هـ /١١٩٩ م). «كشف الظنون»، ٢٠٣١، والأعلام، ٧٣ /٥، ومعجم المؤلفين ٤٥ /٧ .

(٢) هو النعمان بن ثابت بن زوطى، التبّعى بالولاء، الكوفي، أبو حنیفة إمام الحنفية فقيه مجتهد، أصله من فارس، ولد بالكوفة سنة ٨٠ هـ /٢٩٩ ونشأ بها، مارس مهنة عمل القز، وبيعه، امتنع عن القضاء لعمر بن هبيرة في الكوفة، وعن القضاء للخليفة العباسى أبي جعفر المنصور في بغداد ثقى وورعاً، جسمه المنصور إلى أن مات. سنة ١٥٠ هـ /٧٧٧ م، وعمره سبعون سنة، من مؤلفاته: «الفقه الأكبر» في الكلام وقيل إنه منسوب إليه، و«الستّد» في الحديث، و«العالِم والمتعلّم» في العقائد، و«المخارج» في الفقه، و«الرد على القدرية».

ترجمته في: الفهرست ٢٥٥ - ٢٥٦ و تاريخ بغداد ١٢٣ - ٣٢٣ ، ووفيات الأعيان ٥ /٤٠٥ - ٤١٥ ، ومرآة الجنان ١ /٣٣٠ - ٣٣٣ ، والبداية والنهاية ١٠٧ /١٠٨ ، والنجوم الزاهرة ١ /١٢ - ٣٣٣ ، ومفتاح السعادة ٢١٦ - ١٩٥ /٢ ، والأعلام ٨ /٣٦ .

(٣) المعقول : علم يُبحث فيه عن العقل. راجع «محيط المحيط» ٦٢٢ .

(٤) ممهدة: متمكنة «القاموس المحيط» ٣٥٢ /١ .

معهم، ويبحث بينهم ويورّد عليه.

وهو^(١) من لا يُرَخِّص في مخدور، ولا يُقْرَأ أحداً على منكر، ولا يتجرّأ أحد أن يتظاهر في بلاد بمحرم، وأشد ما ينكر على الخمر، ويقيم الحد فيه، ويبالغ في تأديب من يتعاطاه من المقربين إليه.

حدثني السيد الشريف تاج الدين بن أبي المجاحد الحسن السمرقندى: أن بعض الخانات الأكابر بـدهلي كان يشرب الخمرة، ويدمنها ويُصرّ عليها، وكان يُنهى، فلا ينتهي، فغضب عليه هذا السلطان غضباً شديداً، وأمسكه وأخذ أمواله، فكان جملة ما وجد له أربعمائة ألف ألف مثقال^(٢)، وبسبعين ألف ألف مثقال ذهبأ أحمر.

وفي هذه الحكاية كفاية في مبالغته في إنكار المنكر، وفي سعة أموال هذه البلاد، فإن هذا المبلغ، إذا حُسب بالقناطير المصرية، كان ثلاثة وأربعين ألف قنطار^(٣)، وبسبعمائة قنطار ذهباً، وهذا مما لا يكاد يدخل تحت حصر ولا إحصاء. وحكي لي هذا الشريف، حسن السمرقندى، وهو من جال الأرض، وجاب الآفاق، عن أموال هذه البلاد، ما تحار العقول فيه، من مثل هذا وأشباهه.

وله^(٤) من وجوه البر والصدقات ما تسطّره الدنيا في صحائف حسانتها، وتُرْقِمُه الأيام في غُرر جبهاتها، سمعت منه أحاديث جملتها ما علمت تفصيلها، حتى حدثني الشيخ المبارك. مبارك: أن هذا السلطان، يتصدق في كل يوم بلّكين، لا أقل منها، يكون عنهما من نقد مصر والشام ألف ألف وستمائة ألف درهم، في كل يوم، ربما بلغت صدقته في بعض الأيام خمسين لّكاماً، ويتصدق عند رؤية كل هلال، من كل شهر

(١) راجع ما كتبه ابن بطوطة في «رحلته ٤٦٩»، عن اشتداد السلطان في إقامة الصلاة وإقامة أحكام الشع.

(٢) مثقال: هو اسم لما يُقْلَل، سواء كُبُر، أو ضُعُر، وغلب عُرفه على الصغير، كما صار في عُرف الناس إسماً على الدينار، ويسّمى المثقال من الفضة درهماً، ومن الذهب ديناراً، فهو وزن لم يختلف في جاهلية ولا في إسلام، حيث يساوي أربعة وعشرين قيراطاً، وهو يساوي اثنين وسبعين حبة شعير من الوسط باتفاق العلماء، ما عدا (ابن حزم)، الذي قدره باربعة وثمانين حبة. «الصبح ٤٣٦/٣»، و«المقدمة ٢/٧٠١ - ٧٠٢»، و«كتاب القود الإسلامية ٤».

(٣) قنطار: القنطار، معيار، قيل: وزن أربعين أوقية من ذهب، وقيل: ألف ومائة دينار. وقيل: مائة وعشرين رطلًا «سان العرب ٦/٤٣١ - ٤٣٢».

(٤) راجع ما دونه، ابن بطوطة في «رحلته ٤٥٢ - ٤٦٤» من أخبار السلطان (محمد تغلق شاه) في الجود والكرم، وعطائه وجوازه، للعلماء، ومن وفده على بلاده من الغرباء، يقول ابن بطوطة: «إنما أذكر منها ما حضرته، وشاهدته، وعايتها، وتعلم الله صدق ما أقول، مع أن الذي أحكمه مستفيض، متواتر، وبالبلاد التي تقرب من أرض الهند، كاليم، وخراسان، وفارس، مملوءة بأخباره، يعلمون حقيقتها، ولا سيما جوده على الغرباء». «الرحلة ٤٥٢».

بلكين، عادة دائمة لا يقطعها. وعليه راتب مستمر لأربعين ألف فقير، لكل واحد منهم، في كل يوم درهم واحد، وخمسة / ٢٥ / أرطال^(١) خبز وقمح، أو أرز. وقرر ألف فقيه في مكاتب^(٢)، أرزاقهم على ديوانه، تعلم الأيتام، وأولاد الناس القراءة والكتابة ولا يدع بدھلی سائلاً یستَعْطِي الناس، بل كل من استعطى مُنْعَ من هذا، وأُجْرِي عليه ما یُجْرِي على أمثاله من الفقراء.

فأما إحسانه إلى الغرباء، ومن يؤمّله، فما يكاد يخرج عن حد التصديق. حدثني الفاضل نظام الدين أبو الفضائل، يحيى بن الحكيم الطيّاري، قال: كان عندنا بالأَرْدُو، في خدمة السلطان أبي سعيد رجل اسمه عضد^(٣) الدولة ابن قاضي يَزْدُ، يروم الوزارة، ولا يؤهل لها ولا يعد من أكفاءها، فلا يزال يُشَغَّب على الوزراء، ويُفْتَن بين أهل الأَرْدُو، فاتفق رأيهم على إبعاده، فبعثوه رسولاً إلى دھلی برسالة مضمونها السلام، والوداد، وللسُّؤال والافتقاد، وعملوا هذا صورة ظاهرة، لإبعاده، وكان قصدهم، أن لا يعود، فلما حصل في دھلی، وحضر في حضرة هذا السلطان، وأدى الرسالة، أقبل عليه وَشَرْفَه بالخلع والعطاء، وأَحَلَّه من كفِه^(٤) في محل الرَّحْب والسعنة، وأطلق له حملاً من المال. ثم لما أراد الانصراف عائداً إلى مرسليه، قال له: ادخل إلى الخزانة وخذ مما شئت، وكان هذا السيد عضد رجلاً داهية، فلما دخل الخزانة، لم يأخذ سوى مصحف واحد، فسمع السلطان بهذا فاعجبه، وقال له: لأي شيء ما أخذت إلا هذا المصحف؟ فقال: لأن السلطان قد أغنااني بفضلِه، ولم أجده أشرف من كتاب الله، فازداد إعجابه بفعله، وبكلامه، ووقعَ منه موقع الاستحسان، وأعطاه مالاً جمِّاً^(٥)، منه ما هو خاص بنفسه، ومنه ما هو لأبي سعيد على سبيل المهادة، وكان جملة ما اتصل إليه منه، مما هو لأبي سعيد، وما هُوَ لَه ثمانمائة

(١) أرطال: الرَّطل والرَّطل، يُوزَن به وَيُكَال، وهو اثنتا عشرة أوقية بالوزن، أمّا بالكيل، فيعادل نصف مَنْ. «لسان العرب ١٣ / ٣٠٤».

(٢) مكتب: جاء في لسان العرب ٢/ ١٩٣، «المَكْتَب»: موضع الكتاب، والمُكْتَب: المعلم، والكتاب: موضع التعليم، والجمع الكتاب، والمكتب، وبرى المبَرَّد، أن المكتب: موضع التعليم، والمُكْتَب: المعلم، والكتاب: الصبيان.

(٣) جاء في «الدرر ٣/ ٦٩»: أنه عضد الدولة ابن قاضي يَزْدُ، التاجر الخواجا، كان مشهوراً بكثرة البيان والمعرفة، أرسله أبو سعيد إلى السلطان (محمد بن تغلق شاه) ملك الهند، وبالغ في إكرامه.

(٤) كفَه: كفَه ضمه إليه، وجعله في عياله، وفلان يعيش في كنف فلان في ظله. «لسان العرب ١١ / ٢١٩».

(٥) جمِّاً: أي كثيراً. «المصباح المنير ١ / ١٢٠».

تومان^(١) ؛ - التومان عشرة آلاف دينار^(٢) رائجاً، الدينار ستة دراهم، فيكون هذا المبلغ ثمانية ألف دينار رائجاً، عنها ثمانية وأربعون ألف درهم - فلما عاد بهذا المال المدود، خشي أن يؤخذ في الأردو منه فرقه أقساماً، وغيره عن العيون، وكان أمير أحمد بن خواجا رشيد، وهو أخو الوزير، قد وقع له أمر اقتضى إخراجه من الأردو، وروعي لمكان أخيه الوزير غياث الدين محمد^(٣)، وكتب له بأن يكون أمير الأيلكاه، ومعنى هذا، أنه يحكم، حيث حل من المملكة؛ حتى على حكامها، فصادف في طريقة هذا السيد عَصْدُه، فأخذ منه شيئاً كثيراً، احتمل أنه عمل منه عدة حمول من أولني الذهب، والفضة، ليقدمها إلى أبي سعيد والخواتين^(٤)، وأحسبه [سأله] العود إلى الأردو فعاجله الموت، ثم مات أبو سعيد والسيد عَصْدُه، وتصرمت تلك الأيام، وذهب الذهب، ولم يغن أحداً ما كسب.

قال ابن الحكيم: وهذا السلطان صاحب دهلي كَرَمَه خارق، وإحسانه إلى الغرباء عظيم، قصده بعض القضاة، من بلاد فارس، وقدَّمَ إليه كتاباً حِكْمَةً، منها «الشفا»^(٥) لابن سينا^(٦)، واتفق أنه لما مثل بين يديه، وقدَّمَها له أحضر إليه حِمْلَ

(١) تومان: التومان عشرة آلاف، وقطعة تساوي نحو تسعه غروش، فارسي، جمعها (تومانات)، و(تومان). «محيط المحيط ٧٥».

(٢) اختلف في أصله، فقيل عربي، وقيل فارسي، والمشهور عنه أنه قطعة من الذهب بينما الدرهم قطعة من الفضة، لذا يُشبه الدينار بالشمس، والدرهم بالبدر، وقد تعرض كغيره من أنواع العملات إلى التعديل في وزنه؛ فالعادة، أن يكون (منقاداً)، ولكن وُجد من السلاطين من زاد فيه، وأنقص منه. راجع «النقود الإسلامية» (٢٩٤-٢٩٥)، و«محيط المحيط ٥٢٥»، و«النظم الإقطاعية ٤٠٦».

(٣) لعل الوزير غياث الدين محمد أرباكاؤن، أقامه القرآن (أبو سعيد)، مكان والده، (أرباكاؤن) المتوفى سنة ٧٣٦ هـ/١٣٣٥ م سلطاناً على العراق، وأذربيجان والروم. «السلوك ٢/٢ ص ٤٠٦».

(٤) الخواتين: جمع (خاتون)، وهي لفظة (تركية) أو (ترندة) تُلقب بها نساء الملوك عند العرب وإذا أضيفت إلى جنب الاسم، تقوم مقام السيدة، للإشارة إلى الجليلات من نساء المجتمع خصوصاً أميرات الأسرة الحاكمة، مثل (تركان خاتون)، راجع «محيط المحيط ٢١٧»، و«الألقاب الإسلامية ٢٦٤-٢٦٦».

(٥) كتاب في الحكمة، والمنطق، يذكر حاجي خليفة في «كشف الظنون ٢/١٠٥٥» أنه يقع في ثمانية عشر مجلداً، شرحه أبو عبد الله محمد بن أحمد الأديب التجاني (البجائي)، صاحب تحفة العروس، واختصره شمس الدين عبد الحميد بن عيسى الخسروشاهي التبريزى، المتوفى سنة ٦٥٢ هـ/١٢٥٤ م).

(٦) أبو علي، الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، فيلسوف، طبيب شاعر، وصاحب تصانيف في الطب، والفلسفة، والمنطق، والطبيعتيات والإلهيات، ولد في قرية من قرى بخاري هي (خرميستانا) وفي رواية (أفشنة) في صفر من سنة ٥٣٧ هـ/٩٨٠. وفي العشرين من عمره، حفظ القرآن الكريم ونال حظاً وافراً من الأدب، وأصول الدين، وعلوم الحساب، والهندسة، والجبر، وغيرها من العلوم، وبرع بها حتى أنه لُقب بـ(الشيخ الرئيس). توفي بهمندان يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ٤٢٨ هـ/١٠٣٦ م).

جليل من الجوادر الثمينة فحثا له منه ملء يده، وأعطاه له، وكان بعشرين ألف مثقال، من الذهب، هذا غير بقية ما وصله به.

وحدثني الشريف السمرقندى: إن أهل بخارى^(١)، يقصدونه بالبطيخ الأصفر المبقى عندهم في زمن الشتاء، فيعطيهم عطاء جزيلاً. قال: ومنهم واحد أعرفه، حمل إليه حملين من البطيخ، فتلف غالبه، ولم يصل معه إلا اثنان وعشرون بطيخة، فأعطاه ثلاثة آلاف مثقال من الذهب.

قال الشيخ أبو بكر بن أبي الحسن المُلْتَانِي، المعروف بابن التاج الحافظ: الذي بلغنا بالملتان، واستفاض عندها بها. ثم إني سافرت إلى دهلي، وأقمت بها، ووجدت هذا أيضاً مستفيضاً فيها، أن هذا السلطان، التزم أنه لا يُنطق في إطلاقاته بأقل من ذلك.

وحدثني الخُجَنْدِي، قال: قصته، واتصلت به، فأنعم على بألف مثقال من الذهب، ثم سأله، إن كنت أختار الإقامة أو العود، فقلت: اخترت الإقامة، فأجراني في جملة الجند.

وحدثني الشيخ أبو بكر بن الخلال البري الصوفي قال: بعث هذا السلطان، مع جماعة، أنا /٢٧/ منهم [ثلاثة لكوك] ذهباً إلى بلاد ما وراء النهر^(٢); لتفرق على العلماء لكاً منها، ويُصدق على الفقراء بذلك منها، ويُبَايع له باللّك الثالث.

قال: وقال لنا: بلغني أنَّ الشيخ برهان الدين^(٣) الصاغرجي، -شيخ سَمَرْقَنْد^(٤)-

من تصانيفه: «القانون في الطب»، «لسان العرب» في اللغة، «الموجز الكبير» في المتنق، «الشفا» في الحكمة.

ترجمته في: وفيات الأعيان /٢-١٥٧-١٦٢، وسير أعلام النبلاء /١٧-٥٣١-٥٣٧، ودائرة المعارف الإسلامية /١-٢٠٣-٢١٠، والأعلام /٢-٢٤١-٢٤٢. ومعجم المؤلفين /٤-٢٣-٢٠.

(١) بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر، وأجلها، يُعَبَّرُ إليها من آمل الشط، وبينها وبين جيوجون يومان من هذا الوجه، وكانت قاعدة ملك السامانيين «معجم البلدان /١-٣٥٣».

(٢) بلاد ما وراء النهر، اسم أطلقه العرب على المناطق الواقعة شمال نهر (جيوجون)، «بلدان الخلافة الشرقية /٤٧٦».

(٣) يقول عنه ابن بطوطة في رحلته ٤٥٧: «كان برهان الدين أحد الوعاظ الأئمة، كثير الإيثار، باذلاً لما يملكه، حتى أنه كثيراً ما يأخذ الديون، ويؤثر على الناس، بلغ خبره إلى السلطان، فبعث إليه أربعين ألف دينار، وطلب منه أن يصل إلى حضرته، فقبل الدنانير، وقضى دينه منه، وتوجه إلى بلاد الخطأ، وأبى أن يصل إليه. وقال: لا أمضي إلى سلطان يقف العلماء بين يديه».

(٤) سَمَرْقَنْد: تقع في أعلى نهر (جيوجون) على بعد ١٥٠ ميلاً شرق بخارى. يطلق عليها بالعربية اسم (سُمُران) كانت قاعدة للصُّنْدُع. «معجم البلدان /٣-٢٤٦»، و«بلدان الخلافة الشرقية /٥٠٦».

فريد في العلوم والzed، وأنه لا يُثْبِت عنده مالاً، فأعطوه أربعين ألف تَنْكَة يتزود بها إلى المُلْتَان، ثم إذا دخل بلادنا، جدّنا عليه بالأموال. ثم قال: وإن لم تجدوه أعطوا هذا المبلغ لأهله، ليوصلوه إليه، إذا جاء ويعرّفوه بأننا نطلب له لِتَرَوْد إلى الملتان.

قال: فلما وصلنا إلى سَمَرْقَنْد، وجدناه قد دخل إلى بلاد الصين، فأعطينا المال، لجاريته، وعَرَفْناها برغبة السلطان فيه، وحَتَّه في طلبه.

وحدثني الفقيه أبو الصفا، عمر بن إسحاق الشبلي، أن هذا السلطان، لا يفارق العلماء سَفَرًا ولا حَضَرًا، قال: وكنا معه في بعض غزواته، فلما كنا في أثناء الطريق جاءته من مقدمة عساكره كُتُبُ البشري بالفتح، ونحن بين يديه فحصل له السرور وقال: هذا ببركة هؤلاء العلماء، ثم أمر بأن يدخلوا بيت المال، ويحملوا من المال ما قَدَرُوا عليه، ومن كان منهم ضعيفاً يُسْتَبِّبَ مَنْ يحمل مَنْ ذلك المال عنه.

قال: فدخلوا إلى الخزانة، ولم أدخل أنا، ولا كثير من أمثالي؛ لأننا لم نكن من تلك الطبقة. وحمل أولئك، كل واحدٍ كيسين، كل كيس عشرة آلاف درهم، إلا واحداً منهم، فإنه حمل ثلاثة أكياس، اثنين تحت إبطيه، وآخر فوق رأسه، فلما رأهم السلطان ضحك تعجباً من حرص الذي حمل الثلاثة، وسأل عن بقية الجماعة [مِمَّن] لم يدخل مثلي، فقيل له: إن هؤلاء دون أولئك، لأن أولئك من المدرسين؛ وهؤلاء من المعيدين^(١)، فأمر لكل واحدٍ منا بعشرة آلاف درهم، ففرقٌ علينا.

قال: ومنار الشرع عنده قائم، وسوق أهل العلم لديه رائق، يُشار إليهم بالتوقير والإجلال^(٢)، وهو في غاية المحافظة على ما ينقاًم به ناموسهم^(٣)، من إصلاح

(١) المعيد، المعيد، ثاني رتبة، بعد المدرس، المدرس، وانصرف، أعاد للطلبة ما ألقاه المدرس إليهم، ليفهموه ويحسنوه «الصبح ٤٦٤ / ٥».

(٢) بالرغم مما اشتهر به السلطان (محمد تغلق شاه) من توقير وإكرام وإحسان للعلماء، إلا أنه كان أحياناً شديد البطش ببعضهم من يخالف أوامرها، أو يعلن معارضته البعض تصرفاته، ومن تعرّض لبطشه الشيخ «شهاب الدين ابن شيخ الجام الخراساني»، الذي رفض خدمته، وأعلن رفضه في مجلس عام، وقال: «لا أخدم ظالماً» فتفتّح لحيته، وفاته إلى (دولة آباد) سبعة أعياماً، بل سقاه العُذْرَة، وضرب عنقه بعد ذلك، وكذلك الفقيه المدرس (عفيف الدين الكاساني) قتلته، قتلة شنيعة؛ قطع رأسه مع الذراع وبعض الصدر، بسبب معارضته لبعض تصرفاته. كما قتل الشيخ (زاده) المسمى بـ(هود) حفيد (ركن الدين بن بهاء الدين بن أبي زكريا المُلْتَانِي)، وسجن الشيخ (شمس الدين بن ناج العارفين) بعد أن سمل عينيه حتى توفي، كما قتل أيضاً أولاده وكذلك قتل الشيخ (علي الحيدري) وغيرهم، لأسباب لا توجب القتل، وإنما هو تسرع السلطان وجهه لسفك الدماء، وقد بسط (ابن بطوطة) أخباره مع هؤلاء العلماء في «رحلته ٤٧٨ - ٤٧٢».

(٣) ناموسهم: النَّامُوس هو «الشرع الذي شرعه الله» (كتاب التعريفات ٢٥٨)، ويكون المعنى على هذا، ما ينقاًم به شرّعهم).

الظاهر والباطن، والمداومة، على قراءة العلم /٢٨/ وإقرائه والتحرى في كل أمورهم، والاقتصاد في جميع أحوالهم.

وهذا السلطان لا يتأتى عن الاجتهاد في الجهاد بَرًّا وبَحْراً، لا يثنى عنه عِنَانه^(١)، ولا سِنَانه^(٢)، ولا يزال هذا دأبه بنصب عينيه، ودبر أذنه، وقد بلغ مبلغاً عظيماً في إلقاء كلمة الإيمان، ونشر الإسلام في تلك الأقطار حتى سطع في ذلك السواد ضوء الإسلام، وبرقت في تلك الأنواء^(٣) بوارق الهدى، وهَدَمَ بيوت النيران، وكسرَ البدود^(٤)، والأصنام، [وأَخْلَى] البرّ من ليس بِبَرًّ، إلا من هو تحت عقد الذمة^(٥)، واتصل به الإسلام إلى أقصى الشرق، وقابل مطلع الشمس لألاء الصباح

(١) أي عنان فرسه، راجع «المخصص» ١٨٩/٦.

(٢) سنان: السنان: قيل هو (الخرص)، وقيل (الرمج)، وقيل: رمح قصير، يُتَّخذ من الخشب «كتاب السلاح ١٦»، و«المخصص» ٢٩/٦، و«انهاية الأربع» ٢١٧/٦.

(٣) الأنواء: جمع مفرده نوء، وهو المطر، كما جاء (النوى) بمعنى الوجه الذي يقصد المسافر، راجع «لسان العرب» ٢٠/٢٢٢، و«المصباح المنير» ٢/٣٠٤.

(٤) البدود: مفردها (بد) وهو صنم الهند الأكبر، ويسمى كل صنم بداً. «مفآتيح العلوم» ١٠١ وجاء في محيط المحيط ٣٠، البد: «الصنم، وبيت الصنم، مُعرَّب (بت) بالفارسية».

(٥) عقد الذمة: رتبته دون (الأمان) بالنسبة للإمام، وذلك، إنما يُقرّره بعوض يأخذه منهم، بخلاف الأمان. أما معناه، فهو عبارة عن التزام تقريرهم في دار المسلمين، وحمايتهم، والذبّ عنهم، ببذل الجزية، أو الإسلام من جهتهم، يختص بهذا العقد، على الأرجح، الإمام، أو نائبه، فهو من الأمور الكلية، التي تحتاج إلى نظر واجتها. ويشرط للعقود له: التكليف، والذكرة، والحرية، وأن يكون من أهل الكتاب؛ كاليهود، والنصارى، والمجوس، ومن بهم سُنة أهل الكتاب، والسامرة في حال موافقة أصولهم، أصول اليهود، والصَّابَة، في حال موافقة أصولهم أصول النصارى. مدة العقد غير مُفَيَّدة بوقت محدد ينتهي عنده.

ويقرر العقد في جميع البلاد الإسلامية، ما عدا الحجاز واليمامة، ومخالفتها. ويُطلب منهم إذا عُقد لهم الذمة، عدة أشياء:

الجزية، وضيافة من يمر بهم من المسلمين، (مع تقيد الإقامة بثلاثة أيام، وكذلك تقيد عدد الضيوف من فرسان، ورجاله، وعدد دوابهم..)، وهي على غير الفقير من أهل الذمة)، الانقياد لأحكام المسلمين، عدم ركوب الخيل، إنزال المسلمين صدر المجلس، وصدر الطريق، التمييز عن المسلمين في اللباس، ألا يرفعوا ما يبنونه من بنيان على جيرانهم المسلمين، وألا يساونه به، وألا يحدثوا كنيسة، ولا بيعة، فيما أحدهم المسلمين من بلاد؛ كالبصرة، والكوفة، وبغداد، والقاهرة، ولا بلد أسلم أهلها عليها: كالمدينة واليمن، وكذلك لا يجوز إحداث كنيسة، أو بيعة، أو الإبقاء على القديم منها فيما فتح عنوة، أما ما فتح صلحًا بخروج، فيجوز فيها إحداث الكنائس، وإبقاء القديم منها.. وأخيراً معرفة ما يتৎقص به عهدهم. مثل قتال المسلمين بلا شبهة، منع الجزية، الزنا بمسلمة...إلخ. على ما هو مبسوط في «الصبح» ١٣-٣٥٦.

المشرق، وأوصل راية الأمة المحمدية، كما قال أبو نصر العتبى^(١): إلى حيث لم تصل إليه رجاء راية، ولا تُلْتَ بِهِ سورة، ولا آية، فعمر الجوامع والمساجد، وأبطل التطريب بالأذان، وأسكت المزمزة بالقرآن، وبَيْوًا^(٢) أهل هذه الملة قمم الكفار، وأورثهم بتَأْيِيدِ الله أموالهم، وديارهم، وأرضاً لم يَطأوها، وهو مع هذا تَمَدَّ له خَافِقَة^(٣) مع كل خَافِقَة^(٤)، ففي البر عَقْبَان^(٥) الأعلام^(٦)، وفي البحر غَرْبَان^(٧) السفن الجواري المنشآت كالاعلام، حتى إنه لا يخلو يوم من الأيام من بيع آلاف مؤلفة من الرقيق، بأقل الأثمان؛ لكثرة السبي والأخذ.

حدثني كل هؤلاء أن الجارية الخدَّامة لا يتعدى ثمنها، بمدينة دهلي ثمان تَنَكَّات، واللواتي يصلحن للخدمة والفراش (خمس عشرة تَنَكَّة) وأما في غير دهلي فإنهن بأرخص من هذه الأثمان.

قال لي أبو الصفا عمر بن إسحاق الشبلي: إنه اشتري عبداً مراهقاً نفاعاً^(٨) بأربعة دراهم. وقس على مثل هذا. قال: ومع رخيص قيمة الرقيق، وهو أنه يوجد من الجواري الهنديات، من يبلغ ثمنها عشرين ألف تَنَكَّة وأكثر. وهكذا قال لي ابن التاج الحافظ الملطي. قلت: وكيف تبلغ الجارية هذا الثمن مع الرخيص؟ قال لي كل واحد في مجلس على انفراد: لحسن خلقها، ولطف خلائقها، ولأن غالب مثل هذه

(١) أبو النصر، محمد بن عبد الجبار العتبى من (أبى نصر العتبى)، أصله من الري، نشأ في خراسان في كف خاله أبي نصر العتبى، وهو من وجوه عمالها وفضلاها، عمل كاتباً للأمير (أبى علي)، ثم للأمير أبى منصور سبكتكين مع أبي الفتح البستى، كما تولى نياية خراسان عن شمس المعالى قابوس بن وشمكير، استوطن نيسابور، وأقبل على خدمة الآداب والعلوم إلى أن توفي سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩م.

من مؤلفاته: «لطائف الكتاب» في الأدب، و«اليميني» نسبة إلى يمين الدولة محمود بن سبكتكين المعروف بـ«تاريخ العتبى» وقد شرحه المتنبى في مجلدين.

ترجمته في: يتيمة الدهر ٤٤٨، وكتشف الظنو ١٥٥٣، وكشف الظنون ٢٠٥٢، وهدية العارفين ٢٦، والأعلام ١٨٤، ومعجم المؤلفين ١٢٦/١٠.

(٢) بَوَا: هنا بمعنى إِكْنَ، «المصباح المنير ١/٧٥».

(٣) خَافِقَة: راية. «القاموس المحيط ٣/٢٣٥».

(٤) خَافِقَة: المفازة الملساء. «السان العرب ١٢/٣٧٠».

(٥) عَقْبَان: جمع عَقَاب، وهو من أعظم جوارح الطير. «المخصص ٨/١٤٥».

(٦) الأعلام: الجبال، والعلَم، الجبل الطويل. «السان العرب ١٥/٣١٥».

(٧) غَرْبَان: جمع غَرَاب، وهو طائر أسود كبير، يُضرب به المثل في السود، والبعد، والبكور، يُقال: أحذر من الغراب، ودون هذا شيب الغراب. «محيط المحيط ٦٥٤».

(٨) نَفَاعَ: أي كثير النفع، ينفع الناس، ولا يضر. «السان العرب ١٠/٢٣٧».

الجواري، يحفظن القرآن، ويكتبن /٢٩/ الخط، ويرويين الأشعار والأخبار، ويُجذّن الغناء، وضرب العود، ولعب الشطرنج، والنَّرْد^(١)، ومثل هذه الجواري يتفاخرن في مثل هذا، فتقول الواحدة: أنا آخذ قلب سيدِي في ثلاثة أيام. فتقول الأخرى: أنا آخذ قلبه في يوم. فتقول الأخرى: أنا آخذ قلبه في ساعة فتقول الأخرى: أنا آخذ قلبه في طرفة عين. قالوا: إنَّ ملاح الهنديات أكثر حسناً من الترك والقفجاج^(٢) مع ما يتميزن به من التخريج العظيم، والتفنن الفاتن. غالبيهن ذهبيات الألوان، وفيهن بياض ذات بياض ساطع، مختلطًا بالحمرة، وعلى كثرة وجود الترك، والقبجاج والروم، وسائل الأجناس عندهم، لا يفضل أحد على ملاح الهنديات سواهن، لكمال الحسن، والحلوة، وأمور أخرى تدق عنها العبارة.

حدثني سراج الدين عمر الشبلي أنه لا يلبس ثياب الكِتَان^(٣)، المجلوبة إلى هذه المملكة، من الروس^(٤)، والإسكندرية، إلا من لبسه السلطان منهم، وإلا ففُحصهم

(١) الترد: آلة لعب، وضعها (آردشير بن بابك) أول طبقة الأكاسرة من ملوكهم، ولذا قيل له: (نَرْد شير)، رَتَبَ الرقعة الثاني عشر بيّناً، بعد مشهور السنة، والمهارك ثلاثين قطعة، بعد أيام الشهر، وجعل الفصوص بمثابة الأفلاك، ورَصَّها مثل تقلبها ودورانها، وقد ورد في الشريعة فم اللعب به. «الصبح ١٤٨-١٤٩».

(٢) القفجاج: ويقال لهم (القبجاج) أو (الخفشاخ)، أو (الخفجاج)، وهم جنس من الترك، أهل حل وترحال، يسكنون صحراري أو إقليم (الدَّشْت) الواقع إلى الشمال، والشمال الغربي من بحر الخزر (قزوين) كان لشح مورادهم، وقوسة مناخ بلادهم، واعتمادهم على الرعي، (الذى كثيراً ما يتلف لشدة البرودة، فتنفق مواشيهم)، أثره فيما كانوا يعانونه من جهد وطنك العيش، وربما لجأوا في بعض المرات لبيع أبنائهم من شدة الفقر، وكانوا مع ذلك، يتميزون بالوفاء والشجاعة، وتجنب الغدر، مع قوة أجسامهم، وجمال صورهم وظرف شمائهم، استكثروا منهم الملك الصالح، نجم الدين أيوب، واتخذ منهم مماليكه وانخرطوا في الجيوش المصرية، ووصلوا إلى أعلى المراتب، وتَسَنَّ بعضهم ذُرَّةَ الْمُلْكِ والسلطة. «كتاب تقويم البلدان ٢٠٦»، و«التعريف بالمصطلح الشريف ٦٥»، و«صبح الأعشى ٤٤١-٤٤٦»، و«بلدان الخلقة الشرقية ٥٢٩».

(٣) الكِتَان: نبات سنوي، أول من زرعه المصريون، كان كثير الانتشار في عهد موسى عليه السلام، منه صنعت أول الأقمشة للإنسان، انتشرت زراعته من آسيا وإفريقيا إلى أوروبا منذ زمن بعيد، وكثر زراعته حالياً في هولندا، وبلجيكا وفرنسا، ساقه أدق من ساق التيل، تتفرع نحو القمة، وتحمل أوراقاً دقيقة حادة، زهره أزرق، ثمرة كالعلبة يحتوى على عشرة بذور صغيرة مفرطحة لامعة، لونها ضارب للحمرة. «إحياء التذكرة ٥٣٥».

(٤) الروس: جاء في «معجم البلدان ٣/٧٩»: يقال: لهم (رُسُس)، وهم أمة متاخمة للصقالبة، والترك، لهم لغة، ودين وشريعة، مستقلة، عددهم مائة ألف، لا زرع لهم ولا ضرع، كثيراً ما تغير عليهم الصقالبة، ويأخذون أموالهم. بينما ذكر ابن خرداذة في «المسالك والممالك ١٥٤»: أنهم جنس من الصقالبة، وللمزيد من المعلومات عن الروس، راجع ما كتبه (ابن فصلان) في «رسالته ١٧٥ - ١٨٨».

وثيابهم من القطن الرفيع، قال: تُعمل منه ثياب شبّهات بالمقاطع البغدادية، ولكن أين المقاطع^(١) البغدادية، أو النصافي^(٢) منها؟ لرفعتها، ولطافة بشرتها، فإن بعضها يوازي اللوانس في رفعتها، مع الصفق^(٣) والمائية.

وحدثني الشيخ مبارك أنه لا يركب بالسرور الملبوسة، أو المحلاة بالذهب، إلا من أنعم السلطان عليه بشيء منها، فإذا أنعم عليه بشيء من المُحلّى بالذهب كان إذاً له في اتخاذ ما شاء منه. وأما عامة ركوبهم، ففي الملبس أو المُحلّى بالفضة. قال: والسلطان يُنعم على من في خدمته، على اختلاف أنواعهم؛ من أرباب السيف والقلم والعلم بكل شيء جليل، ونوع نفيس؛ من البلاد والأموال والجواهر والخيول، والسرور المحلاة بالذهب، والمناطق^(٤) الذهبية، والأقمصة المختلفة الأنواع والأجناس إلا الفيلة، فإنها لا تكون إلا له، لا يشاركه فيها مشارك من جميع الناس.

قال: والفيلة لها رواتب كثيرة لعلوفاتها، لعل هذه الثلاثة آلاف فيل، / ٣٠ / لا يكفيها إلا دخل مملكة كبيرة. فسألته كم لها؟ قال: تختلف أجناسها، وأشكالها، وعلى قدر اختلافها علوفاتها. وأنا أقول لك، أكثر ما يريد كل فيل. في كل يوم، وأقل ما يريد، أما أكثر ما يريد في كل يوم، فهو أربعون رطلاً من رز، وستون رطلاً من شعير، وعشرون رطلاً من سمن، ونصف حمل حشيش^(٥). وأما ما تريده سواسها^(٦)، والقومة^(٧) عليها

(١) المقاطع: جاء في «لسان العرب ١٠/١٥٦»: أن المقاطعات، تطلق على جميع الثياب القصار، والقطع ضرب من الثياب الموسّاة، والجمع قطوع، والمقاطعات، بروء عليها بشيء مقطوع، والقطع، المنقة..

(٢) النصافي: التّصيف، الخمار، والنصف ثوب تتجلّل به المرأة، فوق ثيابها كلها، سمّي نصيفاً لأنّه بين الناس، وبينها، فتحجز أبصارهم عنها. «لسان العرب ١١/٢٤٥»، قماشها من نسيج الحرير، والكتان، أو القطن الخشن «العصر المملوكي ٤٨١».

(٣) الصفق: يقال: «ثوب صفيق متين بَيْن الصفة، وقد صَفَقَ صفة، كُثُفَ نسجه، وأصنقه الحائك». وثوب صفيق وسفيق جيد النسيج» «لسان العرب ١٢/٧٣».

(٤) المناطق: مفردتها (منطقة) وهي ما يُشد بها الوسط، غالباً ما تكون من الذهب، أو الفضة، وأحياناً من الجلد أو القماش، وتسمى (حِيَاصَة) «التعريف ٢٧٣»، «صبح الأعشى ٢/١٣٤، ٤/٥٢-٥٣»، «الخطط ٤٧» و«الملاس الملوكي ٤٧»، «العصر المملوكي ٤٧».

(٥) الحشيش: هو اليابس من النبات، أو الكلا والعشب، ولا يقال للرطب منه حشيش. «المصباح المنير ١/١٤٨».

(٦) سواسها: جاء في «لسان العرب ٧/٤١٣»: «السياسة، القيام على الشيء بما يصلحه، والسياسة فعل السائن، يقال: هو يسوس الدواب، إذا قام عليها وراضها والوالى يسوس رعيته».

(٧) القومة: أي المهتمين بشؤونها. راجع: «لسان العرب ١٥/٤٠٥».

فجملة كثيرة، وأمور كثيرة، قال: وشحنة^(١) الفيلة رجل كبير من أكابر الدولة. قال الشبلي: يكون إقطاعه، قدر إقليم كبير، مثل العراق.

وهياً وقوف ملوك هذه المملكة في مواقف الحرب؛ أن يقف السلطان في القلب، وحوله الأئمة والعلماء، والرّماة قدامه وخلفه، وتمتد الميمنة والميسرة موصولة بالجناحين، وأمامه الفيول الملبيسة بالإركضوانات الحديد، وعليها الأبراج المستترة فيها المقاتلة، على ما قدمنا القول فيه، وفي الأبراج منافذ لرمي النّشاب. ومرمى قوارير النفط^(٢)، وقدام الفيول العبيد المشاة، في خف من اللباس، بالسيوف والسلاح، يُقسّحون مجال الفيول، ويُعرّقبون^(٣) الخيول بالسيوف، والرّماة في الأبراج، تكشف عليهم من خلفهم، من فوق، والخيل في الميمنة، والميسرة تضم أطراف الأرض على الأعداء، وتقاتل من حول الفيول، وورائها، فلا يجد الهارب مغاراً ولا مدخلاً، فلا يكاد يتّسجو قدامهم لاحتياط العساكر المحدقة بهم، وموقع النّشاب والنّفط من فوقهم، ومخلسة الرجال لهم من تحتهم، فيأيّهم الموت من كل مكان، ويحيط بهم البلاء من كل جهة. ولقد تهيأ لهذا السلطان^(٤) القائم بها الآن ما لا تهيأ لأحد قبله من ملوك هذه المملكة، من النصر والاستظهار وفتح الممالك، وهدم قواعد الكفار، وحلّ عقد السّحر، وإبطال، ما كانت تتعلّل به الهند، من

(١) شحنة: الشحنة، يطلق على الشرطة، ويقال لرئيس الشرطة، صاحب الشحنة، وللوظيفة الشحنكية، وللعلم المقصود بـ(شحنة الفيلة) هنا هو المسؤول الأول عن رعايتها، والاهتمام بها، أي رئيس سواها، والقومة عليها، قياساً بـرئيس الشرطة، أو صاحب الشحنة. عن معنى الشحنة، راجع: «صبح الأعشى» / ٥، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٤ وـ«نظم الإقطاعية» / ٤٩٦، وـ«العصر المماليكي» / ٤٤٩.

(٢) قوارير النفط: عبارة عن قذائف من مواد ملتهبة، وقد تسب إلى عبد الله بن الزبير، استخدامه آنية من النفط الملتهبة في حجم اليد، أثناء حصاره في مكة المكرمة، كما عُرف عن البيزنطيين استخدامهم للنار الإغريقية، وهي مزيج من النفط، والقار، والزيت النباتي، والشحم، ومعادن ومواد ملتهبة أخرى، وقد تعرف المسلمون على سر صناعة النار الإغريقية من البيزنطيين، واستخدموها في حربهم ضد الصليبيين، في مصر والشام. «الموسوعة العربية الميسرة» / ١٨٤١ (١٨٤١) وقد ورد في الموسوعة أن حصار عبد الله بن الزبير في مكة، كان سنة (١٠) من الهجرة (٦٣١ م)، وهذا خطأ؛ لأن ابن الزبير حاصر في مكة من قبل الأمويين أكثر من مرة الأولى كانت سنة (٦٨٣ هـ / ١٢٣ م)، على يد مسلم بن عقبة المُرّي، والثانية سنة (٦٩٢ هـ / ١٢٣ م) على يد الحجاج بن يوسف التمفي (وقد قُتل ابن الزبير في هذه السنة) «ال الكامل في التاريخ» / ٤، ١٢٣، ٣٤٨.

(٣) أي: أنهم يقطعون عراقب فيول العدو بسيوفهم. فقد جاء في «لسان العرب» / ٢، ٨٣: «وعرّقب الذَّابَةِ، قطع عرقها.. والعُرْقُوبُ، عصب مؤثر خلف الكعبين».

(٤) المقصود به، السلطان محمد تغلق شاه».

الصور والتماثيل ولم يبق، إلا ما هو داخل البحار من القليل، الشاذر^(١)، النادر الذي لا حكم له، ولا جُلْم يُلْم يحفظ هذا السلطان، حتى يستكمله، ويغسل بالسيف ما بقي /٣١/ منه، فتضوّعت^(٢) أندية الهند^(٣) من ذكره بأطيب من طيبها، وتحلى زمانه بها، بأعلى قيمة من جواهرها، وهو اليوم جامع ذيول تلك الأقطار، وما سك نطاق البراري، والبحار، وإذا قيل اليوم سلطان الهند، لا يطلق على سواه، ولا يصح هذا الاسم الكريم إلا على مسماه. قال الشبلي: وحقّيق على مسلم، أن يدعوا سلطان هذا في الله جهاده، وذلك معروفة، وتلك سجایاه.

وحكى لي محمد الحُجْنَدِي أنَّ لهذا السلطان في كل أسبوع يوماً عاماً يجلس فيه للناس جلوساً عاماً، وهو يوم الثلاثاء؛ يجلس في ساحةٍ عظيمة، متسعة إلى غاية يُضرب له فيها جَثْرٌ كبيرٌ سلطاني، يجلس^(٤) في صدره، على تختٍ عالٍ^(٥) مُصَفَّح بالذهب، مُرْضَع بالجوافر، ويقف^(٦) أرباب الدولة حوله، يميناً، ويساراً، وخلفه السلاح ذاتية، والجمدارية، ومنْ حُكْمه بين أرباب الأشغال الخاصة حُكْمُهم، وأرباب الوظائف على منازلهم، ولا يجلس إلا الخانات، وصدر جهان، والدُّبُرَان، يعني كتاب السرّ، بين يديه، والحُجَّاب وقوفٌ، وينادي مناداة عامة، أنه من كان له شكوى يحضر فيحضر كُلَّ من له شكوى، أو حاجة يسأل السلطان فيها، فإذا حضروا، ووقف بين يديه، لا يُضرب ولا يُمنع، حتى يُنهي إليه شكواه، ويأمرُ السلطان فيه بأمره وأما بقية الأيام فإنه يجلس في طرفٍ كل نهار، ويركب في الخانات، والملوك، والأمراء جميعهم إلى بابه، ومن رَسْمِه أنَّ أحداً لا يدخل عليه بسلاخ^(٧) كبيرٍ، ولا سكينٍ صغيرة، ومن جاءه اعتبر قبل دخوله. دون المكان، الذي

(١) الشاذر: أي المتنزق في كل وجه. راجع: «السان العربي» /٦٦٦/.

(٢) أي انتشرت سمعته، راجع في معنى (تضوّع) «القاموس المحيط» /٣٥٩/.

(٣) أي مجالس أهل الهند، فالنادي هو، مجلس القوم، ومجتمعهم «مشارق الأنوار» /٢٧/.

(٤) يقول ابن بطوطة: وأكثر جلوسه بعد العصر، وربما جلس أول النهار، وجلوسه على مصطبة مفروشة بالبياض فوقها مرتبة، ويجعل خلف ظهره مخددة كبيرة وعن يمينه متكأ، وعن يساره مثل ذلك، وقووده كجلوس الإنسان للتشهد في الصلاة، وهو جلوس أهل الهند كلهم» «الرحلة» /٤٤٣/.

(٥) ويقال له: (سرير الملك)، «وهو» منبر من رخام بصدر إيوان السلطان الذي يجلس فيه «التعريف» /٢٧٣/، «والعصر المماليكي» /٤٤٢/.

(٦) راجع هيئة وقف أرباب الدولة حول السلطان في «رحلة ابن بطوطة» /٤٤٣-٤٤٢/.

(٧) يقول ابن بطوطة في «الرحلة» /٤٤٢-٤٤٣/: «ودار السلطان بدھلی تُسمى (دار سرّ) ولها أبواب كثيرة»، كما ذكر أنَّ أهل الأنفار، والأبواق، والصرنایيات يجلسون على الأبواب: الأولى، والثانية، والثالث، فإذا جاء أمير، أو كبير ضربوها، وقالوا: جاء فلان ابن فلان. كما ذكر أنه يوجد في خارج =

يجلس فيه سبعة أبواب بعضها داخل بعض، وعلى الباب الأول البراني منها رجلٌ معه بوق، فإذا جاء أحدُ من الخانات، أو الملوك، أو أكابر الأمراء، نُفخ في البوّاق إعلاماً للسلطان بأنه قد جاءه كبير، ليكون دائمًا على تيقظ، واستعداد من أمره. ومن جاء به كائناً منْ كان يترجّلُ من الباب الأول البراني، ويمشي إلى أن يدخل السبعة الأبواب، إلى حضرة السلطان، وثمَّ من شرف بالإذن له، بأن يعبر راكباً / ٣٢ إلى الباب السادس، ولا يزال البوّاق عملاً إلى أن يقارب الداخِل الباب السابِع. ويجلس على ذلك الباب كُلُّ منْ دخل إلى أن يجتمعوا، فإذا تكامل المجيء أذن لهم في الدخول، فإذا دخلوا جلس حوله من له أهلية^(١) الجلوس، ووقف سائرهم، وقدع القضاة، والوزراء، والديْران، كتَابُ السرّ؛ وهم الموقعون^(٢) إلى جانبِ من المكان، لا يقع فيه نظرُ السلطان عليهم، ومُدَّت الأسمطة^(٣)، وقدَّمت الحُجَّاجُ القِصَصَ^(٤)، ولكل طائفة حاجب يرفع قصصهم، وحاجاتهم على يده. ويقدَّم جميعُ الحجاج القِصَصَ إلى حاجبي صاحِيهِ، وهو الحاجبُ الخاصُّ، المُقدَّمُ على الكلِّ، فَيَعْرِضُها

= الباب الأول الجلادون، الموكلون بضرب أعناق من يأمر السلطان بقتالهم، ويوجد دهليز كبير يفصل بين البابين، الأول، والثاني في دكاكين مبنية من جهتيه، يجلس فيها التوبة من حفاظ الأبواب، وبين الباب الثاني، والثالث دكانة كبيرة، يجلس فيها التوبة من حفاظ الأبواب، وبين الباب الثاني، والثالث دكانة كبيرة، يجلس فيها نقيب القباء، أما الباب الثالث ففيه دكاكين يقعد فيها كتاب الباب.

(١) جاء في «كتاب التعريفات ٤١»: «الأهلية، عبارة عن صلاحية لوجوب الحقوق المنشورة له، أو عليه».

(٢) جاء في «لسان العرب ١٠/٢٨٨»: والتَّوْقِيعُ، ما يُوَقَّعُ في الكتاب، ويُقَالُ: «السرّ»، وجاء في كتاب «زيدة كشف الممالك» (١٠٠) «وبديوان الإنشاء عدة موقعين، وهم قسمان: قسم يسمون موقعي الدَّسْت، هم أجَلُهم، ولهم مراتب، شيء أعلى من شيء، وقسم يسمون مُؤْعَنُ الدرج، ولهم أيضاً مراتب». كما ذكر صاحب «الصبح ٣/٤٨٨-٤٨٧، ٥٢٢، ١٤٠، ٣٢٢/٣٢٢». ثلات وظائف للموقعين هي: موقع القلم الدقيق وهو كاتب السر، أو كاتب الدست ورتبتة تلي رتبة صاحب ديوان الإنشاء والمكاتب، يجالس الخليفة أكثر أيام الأسبوع، يذاكر في كتاب الله تعالى، وأخبار الأنبياء والخلفاء، ويقرأ عليه ملح السير، ويُقْرَأُ يده في تجويد الخط، ثم هو الذي يجلس إلى جانب وزير السيف يوقع بما يأمر به في المظالم، وموقع القلم الدقيق وبسطه، وموقع الحكم. أما «المقرizi» فقد ذكر في «الخطط ١/٤٠٢» وظيفة التوقيع بالقلم الدقيق، ووظيفة التوقيع بالقلم الجليل فقط.

(٣) الأسمطة: هي موائد الطعام «الصبح ٣/٥٢٣».

(٤) القصص: هي طلب، وشكایات، والتماس الناس، التي ترفع إلى السلطان، راجع «الصبح ٣/٤٨٧-٤٨٨»، وقد جاء في كتاب «العصر المملوكي ٤٦٢» أن القصص ترفع إلى حضرة السلطان، عن طريق موظف خاص اسمه (قصة دار).

على السلطان، ثم إذا قام السلطان، جلس إلى كاتب السرّ، فأدى إليه الرسائل بما رسمه السلطان في ذلك فينفذها. ثم إذا قام السلطان من المجلس. جلس في مجلس خاص، واستدعى العلماء، فيحضر من له عادةً فيجالسهم ويؤنسهم، ويأكل معهم، ويتحدث هو وإياهم. وهم بطانته^(١) الخاصة، ثم يأمر بالانصراف، ويخلو بالنديم والمعاني، تارة ينادم بالحديث، وتارة يُعْنَى له، وهو على كل حال في المحايل، والخلوات، عفيف الخلوة، ظاهرُ الذيلِ، يحاسِب نفسه على الحركات والسكنون، ويراقب الله في السرّ، والعلن، لا يرتكب محرماً، ولا يفسح فيه.

قال لي الشّبلي: حتى أنه لا يوجد بدهلي خمر بالجملة الكافية، لا ظاهراً، ولا مضمراً لتشديد هذا الرجل فيه^(٢)، وإنكاره على من يعانيه^(٣)، قال: مع أنَّ أهل الهند لا رغبة لهم في الخمر، ولا في المسكرات استغناء بالتبول^(٤)، وهو حلال طيب لا شبهة فيه، مع ما فيه من أشياء لا يوجد في الخمر بعضها، وهو أنه يُطِيب النكهة، ويُصْرِف الأطعمة، ويسقط الأنفُس بسُطُّاً عظيماً، ويورثها سروراً زائداً مع ثبوت العقل، وتصفية الذهن، ولذادة الطَّعم. فاما أجزاءه؛ فهو ورق التَّبُول، والفوْفل^(٥)،

(١) بطانته: أي أصحابه، «القاموس المحيط ٤/٢٠٤».

(٢) يقصد، السلطان (محمد تغلق شاه).

(٣) يعاني: أي يهتم به، راجع «القاموس المحيط ٤/٣٦٩».

(٤) التَّبُول، أو التَّابُول: يُعرف بـ«التَّبُول»، أو (تامول)، أو (شاه صيني) أو (بان)، طعم ورقه، طعم القرنفل عطري حريف، من الفصيلة (الفلسفية)، من نوع (الفلفل)، لا ثمر له، تستعمل أوراقه (مضغة)، وبعض الأمم مثل (الهند)، و(الملايو) تضيف إليه جوز (الفوفل)، و(الجير) الحي، و(القرفة)، و(الكات)، ويستعملونه مكيناً، مهيجاً للقوقة الجنسية، ناتجاً للشهوة، ويستعمل الآن في (إندونيسيا) مضغة تصبغ الفم والأسنان بلون أحمر، وهو المكيف الوطني هناك. وهو من نوع الشجر المتسلق المداد، دائم الخضرة، يعمر خمسين عاماً، يغرس، كما تغرس دولي العنبر، يصنع له عريش من القصب أو يغرس مجاوراً لشجر النارجيل، فيتسلق عليه، وورقه كبير الحجم يضافي الشكل غير متساوي الجانبين، كان (التبول) مدرجًا في سجل الأدوية الرسمية البريطانية (الدستور العقاري) British Pharma Copae لكنه ألغى، لأنَّه ليس علاجياً بل مقوٌّ وقتياً، وكيفَ، يسبب استعماله التعود عليه والانهيار العصبي بعد زمن. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١/١٣٣».

و«إحياء التذكرة ١٩٥-١٩٦»، و«نرفة الخواطر ٢٥/٩»، و«حضارة الهند ٧٩».

(٥) الفوفل: نخلة، مثل نخلة النارجيل، تحمل كباش، مثل التمر، يصل عدده إلى مائة حبة؛ منه أسود، ومنه أحمر، في طعمه شيء من حرارة، ويسير من مرارة، بارد، شديد القبض، مقوٌ للأعضاء، يكثر في الهند، وسيلان، والملايو، والصين، كما يزرع في مصر وتوجد زراعته في منطقة أسوان «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/١٦٩-١٧٠»، و«نهاية الأربع ١١/١٣٠»، و«نرفة الخواطر ٩/٤٢»، و«إحياء التذكرة ٩٧-٩٩».

نُورَةٌ^(١) تُعْمَل خاصّةً^(٢).

قال: ولا يَعْدُ أهْلُ تلك الْبَلَاد كرامةً أَبْلَغَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ إِذَا ضَيَّفَ الرَّجُلَ الْآخَرَ وَأَكْرَمَهُ بِمَا /٣٣/ عَسَى أَنْ يَكُونَ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَطْعَمَةِ، وَالْأَشْوَيْةِ، وَالْحَلَالَاتِ، وَالْأَشْرِبَةِ، وَالرَّبَاحِينِ، وَالْطَّيْبِ، وَلَا يَحْضُرُ التَّنَبُّولُ، لَا يُعْتَدُ لَهُ بِكَرَامَةٍ، وَلَا يُعْدُ أَنَّهُ أَكْرَمَهُ. وَكَذَلِكَ، إِذَا أَرَادَ الرَّئِيسُ إِكْرَامًا أَحَدًا مِنْ بَحْضُورِهِ يَنَاوِلُهُ التَّنَبُّولُ^(٣). قَلْتُ: وَهَذَا نَظِيرٌ مِسْكٌ الْأَيَّاقِ فِي مَمَالِكِ أَوْلَادِ جَنْكَرْخَانَ^(٤)؛ وَالْأَيَّاقُ، هُوَ قَدْحٌ حَمْرٌ أَوْ ثَمْرٌ يُمْسِكُهُ الْكَبِيرُ، لِمَنْ أَرَادَ إِكْرَامَهُ، أَوْ الرَّجُلُ، لِمَنْ أَرَادَ خِدْمَتَهُ، وَهُوَ أَبْلَغُ خَدْمَةٍ عَنْهُمْ، وَسِيَّاْتِي بِمَشِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى ذَكْرُ هَذَا فِي مَوْضِعِهِ.

وَحَدَّثَنِي العَالَمُ سِرَاجُ الدِّينِ أَبُو الصَّفَا عَمْرُ الشَّبَلِيُّ، أَنَّ هَذَا السُّلْطَانُ مُتَّلِّعٌ إِلَى مَعْرِفَةِ أَخْبَارِ مَمَالِكِهِ، وَبِلَادِهِ وَأَحْوَالِ مَنْ حَوْلَهُ مِنْ جَنُودِهِ، وَرَعَايَاِهِ، وَأَنَّ لَهُ نَاسًا يُسَمِّونَ الْمُنْهَيِّنَ^(٥)، وَطَبَقَاتِهِمْ مُخْتَلِفَةٌ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يُخَالِطُ الْجَنْدَ، وَالْعَامَةَ، فَإِذَا عَلِمَ مَا يُجْبِي إِنْهَاوَهُ إِلَى السُّلْطَانِ أَنْهَاهُ إِلَى أَعْلَى طَبَقَةٍ مِنْهُ، ثُمَّ يُنْهِيَهَا ذَلِكَ الْمُنْتَهَى إِلَى آخَرَ الْأَعْلَى فَالْأَعْلَى إِلَى السُّلْطَانِ. فَأَمَّا أَخْبَارُ الْبَلَادِ النَّائِيَّةِ، فَإِنَّ بَيْنَ حَضْرَةِ السُّلْطَانِ،

(١) نُورَة: يُقالُ لَهُ أَيْضًا (الْكَلْس)، وَ(الْجِير) أَيْ كَلْسُ الصَّدْفِ، وَإِذَا لَمْ يَأْخُذْ الْكَلْسَ لَمْ يَحْسُنْ طَعْمَهُ، وَلَمْ يَخْمُرْ الْعُقْلَ، راجِعٌ أَيْضًا (نَفْسُ الْمَصْدَرِ) ٤/٧٦ - ٧٧.

(٢) لَأَنَّ كَلَاً مِنْ (التَّنَبُّول)، وَ(الْفَوْفَل) مَزْدَرَعٌ، أَمَّا (الْتُّورَةُ) فَتُصْنَعُ مِنَ الْحَجَرِ، الَّذِي يُحْرَقُ وَيُسُوِّي مِنْهُ الْكَلْسَ، أَوْ مِنْ صَدْفَ الْحَيْوَانِ الْبَحْرِيِّ، الَّذِي يُقالُ لَهُ (فَرْوَقْسُ)، أَوْ مِنْ رَدَى الرَّخَامِ. «الْجَامِعُ لِمَفْرَدَاتِ الْأَدْوِيَةِ وَالْأَغْذِيَّةِ» ٤/٧٦، وَ«الْسَّانُ الْعَرَبِيُّ» ٧/١٠٣.

(٣) يُذَكِّرُ ابْنُ بَطْوَطَةَ فِي «رَحْلَتِهِ» ٤٥٩، أَنَّهُ عِنْدَمَا قَدِمَ أَحَدُ الْأَمْرَاءِ الْعَابِسِيِّينَ، وَهُوَ غَيَاثُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْقَاهِرِ بْنِ يُوسُفِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ابْنِ الْخَلِيفَةِ الْمُسْتَنْصِرِ بِاللَّهِ، عَلَى السُّلْطَانِ، أَحَدُ التَّنَبُّولِ بِيَدِهِ وَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَهَذَا أَعْظَمُ مَا أَكْرَمَهُ بِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَفْعُلُهُ مَعَ أَحَدٍ.

(٤) جَنْكَرْخَانُ: اسْمُهُ (تَمَرْجِينُ)، مَجْهُولُ النَّسْبِ، عَمِلَ فِي بَدَائِيَّةِ حَيَاتِهِ لَدِيِّ (أَزْبَكِ خَان) حَتَّى غَضَبَ عَلَيْهِ وَطَرَدَهُ مِنْ خَدْمَتِهِ، بِسَبِّبِ وَشَایِةِ بَعْضِ أَقْرَانِهِ، فَأَخْذَ بِجَمْعِ الْأَبْيَاعِ، وَالْأَنْصَارِ، فَانْضمَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْأَوزَبَكِ، وَقَدَّمَهُ الْمُغْفُلُ عَلَيْهِمْ سَنَةَ ٩٩٥هـ / ١٢٠٢م فَحَارَبَ (أَزْبَكِ خَان) وَقُتِلَهُ، وَمَلَكَ بِلَادَهُ، هَزَمَ (الْحَيَّطَ)، وَهَزَمَ (خُوايِرْمَ شَاهَ) وَقُتِلَهُ، فَاستَولَى عَلَى الْمَمَالِكِ؛ تُرْكِسْتَانُ، وَبِلَادُ مَا وَرَاءِ النَّهَرِ، وَبِلَادُ الْجَبَلِ، وَخَرَاسَانُ، وَأَذْرِيْجَانُ، وَالْعَرَاقُ. دُونَ قَوَافِلِهِ وَتَشْرِيعَاتِهِ الَّتِي عَرَفَتْ بِ(الْيَاسَا) فَتَمَسَّكَ بِهَا أَبْناؤُهُ مَعَ بَعْدِهِ، يَقُولُ عَنْهَا ابْنُ كَثِيرٍ: «وَأَكْثَرُهُمْ مُخَالِفٌ لِشَرِائِعِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكُتُبِهِ». تَوَفَّى فِي رَمَضَانَ سَنَةَ ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م) بَعْدَ أَنْ خَلَفَ سَيِّدَهُ مِنَ الْأَبْنَاءِ.

راجِعُ أَخْبَارِ أَبْنَائِهِ فِي: تَارِيخِ فَاتِحِ الْعَالَمِ جَهَانِكَشَائِيِّ، وَسِيرِ أَعْلَامِ الْبَلَاءِ ٢٢ - ٢٤٣، ٢٤٤، وَالْبَدَائِيَّةُ وَالنَّهَايَةُ ١٣ - ١١٧، ١٢١، وَالنَّجُومُ الْمَازِهَرَةُ ٦، ٢٦٨، وَشَذِيرَاتُ النَّهَبِ ٥/١١٣.

(٥) الْمُنْهَيِّنُ: جَاءَ فِي «الْسَّانُ الْعَرَبِيُّ» ٢٠/٢٢٠: «الْإِنْهَاءُ، الْإِبْلَاغُ، وَأَنْهَيْتَ إِلَيْهِ الْخَبْرُ. فَانْتَهَى، وَتَنَاهَى أَيْ بَلَغُ، وَتَقُولُ: أَنْهَيْتَ إِلَيْهِ السَّهْمَ أَيْ أَوْصَلْتَهُ إِلَيْهِ، وَأَنْهَيْتَ إِلَيْهِ الْكِتَابَ، وَالرَّسَالَةَ».

وبين أمهات الأقاليم أماكن مقاربة بعضها من بعض شبيهة بمراكيز البريد^(١) في مصر والشام، ولكن هذه قربة المدى بين المكان، والمكان يقدر أربع غلوات نشّاب أو دونها، وفي كل مكان عشرة سُعَاء^(٢)، ممن له خفة في الجري، يحمل الكتب بيته وبين من يليه، إذا أخذ أحدهم الكتاب جرى به جرياً قوياً بأشد ما يمكنه أن يستد، وأقوى ما يمكنه أن يجري إلى أن يوصله إلى الآخر، فيجري كالأول، إلى المكان الذي يليه ويرجع حامله إلى مكانه على مهلة، فيصل الكتاب من المكان البعيد إلى المكان بعيد في أقرب الأوقات، أسرع من البريد والنّجابة^(٣).

قال: وفي كل مكان من هذه الأماكن المركزية، مساجد تقام بها الصلوات، ويأوي إليها السفار، وبرك ماء للشرب، وأسوق لبيع المأكولات، وعلوفة الدواب، فلا يكاد يحتاج إلى حمل ماء، ولا زاد، ولا خيمة.

(١) مراكيز البريد: هي «الأماكن التي تقف فيها خيل البريد لتغيير خيل البريدية فيها فرساً بعد فرس» (الصبح ١٤/٣٧٢) وجاء في «التعريف» أن البريد أربعة فراسخ، والفرسخ، ثلاثة أميال، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمي، والذراع أربعة وعشرون إصبعاً، والإصبع أربع شعيرات ظهر واحد إلى بطن أخرى، والشعيرة أربع شعرات من ذنب بغل. ومراكيز البريد في عصر العمري، مؤلف (مسالك الأ بصار)، لم تكن على هذا القدر من المسافات؛ بسبب تفاوت الأبعاد، تارة لبعد الماء، وتارة لأنس بقرية، كان البريد معروفاً في عهد الأكاسرة؛ ملوك الفرس، والقياصرة؛ ملوك الروم. وفي الإسلام، أول ما نظم البريد في عهد معاوية بن أبي سفيان، عندما استقرت له الخلافة، واحتاج إلى سرعة وصول أخبار البلاد من مختلف أطرافها. فوضع له بعض دهاقين الفرس، وأهل أعمال الروم (البُرُد) واتخذوا لها بغالاً ياكف يسافر عليها البريد، وقيل إن ذلك تم في عهد عبد الملك بن مروان). وفي نهاية الدولة الأموية، بسبب ما ساد البلاد الإسلامية من اضطرابات صاحبت سقوط دولةبني أمية، وقيام دولةبني العباس، انقطع البريد، ولم يُشدَّ له سرج، أو تلجم له دابة طيلة أيام «السفاح»، و«المنصور». وفي أيام «المهدي» نظم «البريد» ليأتيه بأخبار ابنه «الرشيد» الذي كان غازياً لبلاد الروم، فقطع البريد بعد قبول الرشيد من جهة الروم، واستمر مدة خلافة المهدي. وفي أيام «الرشيد» نظم «يحيى بن خالد البرمكي» البريد على ما كان عليه أيام بني أمية فرتبت البغال في المراكيز، وكان لا يجهز عليها إلا الخليفة، أو صاحب الخبر، واستمر البريد طيلة أيام الدولة العباسية قطعه (بنو بويه) كي يخفوا عن الخليفة أخبار تحركاتهم، واستمر الأمر كذلك أيام السلاجقة، الذين استبدلوا البريد، بالرسل بينهم على الخيل، والإبل، واتخذ الزنكيون النّجابة، وأعدت لهم البُحْثُ المستحبة، وكذلك الأيوبيون، و«المماليك» حتى أيام الملك «الظاهر بيبرس»، فأعاد تنظيم البريد على ما كان عليه في الدولة الأموية. راجع تفصيل ذلك في «التعريف ٢٣٩-٢٤٢»، و«الصبح ١٤/٣٦٦-٣٧٠» و«نظم دولة سلاطين المماليك ١/٦٠».

(٢) سعاء: جاء في «لسان العرب ١٩/١٠٧»: السعَى العدو، وسعى، عدا، وسعى إذا مشي، وسعى إذا عمل، وسعى إذا قصد.

(٣) النّجابة: النّجيب من الإبل: العتيق، الذي يُسابق عليه، والنّجيْب من الإبل أيضاً القوي، الخفيف السريع، والمقصود بالنّجابة، الذين يستخدمون هذا النوع من الإبل لنقل الأخبار والرسائل، أو إبلاغ المهمات، راجع «لسان العرب ٢/٢٤٥»، و«التعريف ٢٤١».

قال: ومن جملة عناية هذا السلطان، جَعْلُ بين قاعدي ملكه، وهم دِهْلي، وقَبَّةُ الإسلام في هذه الأماكن /٣٤/ المعدّة لإبلاغ الأخبار طبولي، فحيثما كان في مدينة وفتح باب الأخرى، أو أغلق تدُّقَ الطبلُ، فإذا سمعه مجاوره دَقَّ، فَيُعلَمُ خَبَرُ فتح المدينة التي هو غاب عنها، وغلقه في وقت الحاضر كل يوم بنوية.

ولهذا السلطان مهابة تسقط لها القلوبُ، مع قربه من الناس، ولينه في كلامه وحديثه، وكل من أراد الوصول إليه، وصل إليه لا يُبعده عَظَمُ حِجَابٍ^(١)، ولا عموم حِجَاب، وقد أدرَ الله في أيامه الأرزاق، وكثُرَ المواد، وضاعف النعم، على أن الهند ما زال موصوفاً بالرخاء، معروفاً بالسخاء. حدثني الحُجَّنَّـي، قال: أكلت أنا وثلاثة نفر رفاق لي في بعض بلاد دِهْلي لحاماً بقريراً وخبزاً وسمناً حتى شبنا بِجِيتل وهو أربعة فلوس^(٢).

(١) حِجَابُ السُّرِّ، والحجاب اسم ما احتجب به، وَكُلُّ ما حال بين شيئاً حِجَاب والجمع حُجْبُ، وأحْتَجَبَ الْمَلِكُ عن الناس، وَمَلِكٌ مُحَجَّبٌ لسان العرب ١/٢٨٩.

(٢) فلوس: الفلس معناه في اللاتينية، كيس النقود وقد أخذته اليونان من اللفظ اللاتيني (Follis) وأخذته العرب من اليونان، وقد ذكر المقريزى، في «إغاثة الأمة» ٦٦-٧٢: أن سبب ضربه، هو أنه كان في المبيعات مُحَفَّرات يَقْلُلُ ثمنها عن درهم، أو جزء من الدرهم، فهي لا تستحق أن تُباع بأحد الندين؛ الذهب أو الفضة، فوضعوا إزاءها نحاساً يضربون منه قطعاً صغاراً سُمِّيَتْ (فلوساً)، اشتهرت في مصر، والشام، وعراتي العرب، والعجم، وفارس، والروم قديماً، وضررت في مصر أيام الكامل الأيوبي (٦١٥-٦٢٥هـ/١٢١٨-١٢٣٧م) ثم تابع ضربها بعد ذلك، يقول المقريزى: «وكان الفلوس أولاً تُعد في الدرهم الكاملي ثماني وأربعون فلساً، ويُتَسَمَّ الفلس أربع قطع نقام كل مقام فلس. يُشتري بها ما يُشتري بالفلوس، فيحصل بذلك من الرفق لذوي الحاجات ما لا يكاد يوصف». وبعد سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م، أصبح كل فلس يزن (مثقالاً) والدرهم يُعدُّ أربعة وعشرون فلساً وفي سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م) وزنت الفلوس بالميزان لخفتها، فأصبح الفلس زنة درهم، ثم أصبح الرطل من الفلوس بدرهمين، ويدرك القلقشندي في «الصحيح ٤٤٠-٤٣٩/٣»، أنه أحدث في سلطنته (حسن بن محمد بن قلاوون) سنة ٦٧٥٩هـ/١٣٥٧م)، فلوس اشتهرت بالجدد، زنة كل فلس منها مثقال، وكل فلس منها قيراط من الدرهم، يقول القلقشندي: «فجاءت في نهاية الحسن، وبطل ما عداه من الفلوس، وهي أكثر ما يتعامل به أهل زماننا» ولكن هذه الفلوس أدخل عليها ما قلل قيمتها بعد ذلك، حيث أقصى وزنها عن المثقال، فأصبح منها ما هو دون الدرهم، وصار تكوينها غير مستدير، فأصبحت توزن كل مائة وثمانية عشر رطلًا بالمصري بمبلغ خمسة درهم، وقد حمل الناس الفلوس المضروبة من الديار المصرية، إلى الحجاز، واليمن، وغيرها من الأقاليم. وهناك نوع من الفلوس غير مطبوع، عبارة عن نحاس مُكسَّر من الأضفَر والأحمر، يقال لها (العتق)، وهي ما أشار إليها المقريزى، بأن زنة الرطل منها بدرهمين، ويدرك القلقشندي أنه عندما عملت الفلوس الجدد، استقر كل رطل منها بدرهم ونصف، وعندما ارتفعت أسعار النحاس، نفذت الفلوس من الديار المصرية، وخلط النحاس المكسور بالفلوس الجدد، وراج معها على مثل وزنها.

وسأذكر معاملاتهم، ثم ذكر الأسعار عندهم؛ لأنها مرتبة على المعاملة. وبها تعرف.

ولقد حدثني الشيخ مبارك قال: اللّك الأحمر مائة ألف تُنْكَة، واللّك الأبيض مائة ألف تُنْكَة. تُنْكَة الذهب، وهي المسمّاة عندهم التُنْكَة الحمراء ثلاثة مثاقيل، والتُنْكَة التُقْرَة^(١)، وهي الفضة ثمانية دراهم فشتكانية^(٢). وهذا الدرهم الفشتكانى^(٣) هو وزن الدرهم التُقْرَة. معاملة مصر والشام، وجوازه جوازه، لا يكاد يتفاوت ما بينهما، وهذا الدرهم الفشتكانى، هو أربعة دراهم سلطانية وهي المسمّاة الدكّانية^(٤) - وهذا الدرهم السلطاني يجيء ثلث درهم، سشتكانى - وهو درهم ثالث يتعامل به في الهند - وجوازه بنصف وربع درهم هستكانى، ولهذا الدرهم السلطاني نصف، يُقال له: يكاني، وهو بجيتل واحد، ولهم درهم آخر اسمه دوازدھا كانى جوازه بدرهم ونصف درهم هستكانى، ودرهم آخر اسمه شازردكانى، وجوازه بدرهمين، فحييند دراهم الهند، ستة: شازردكانى، دوازديكانى، هستكانى، سشتكانى، سلطاني، ويكانى. أصغرها الدرهم السلطاني، وهذه الدرهم الثلاثة كلها مما يُتعامل به، والمعاملات بينهم بها دائرة، والأكثر بالدرهم السلطاني، وهو الذي تقديره ربع درهم من نقد مصر والشام، وهذا الدرهم السلطاني، هو بثمانية فلوس، والثمانية فلوس هي جيتلان، كل جيتل أربعة فلوس، فيكون الدرهم الهستكانى، الذي هو مثل درهم التُقْرَة معاملة مصر والشام / ٣٥ / اثنين وثلاثين فلساً.

ورطلهم يُسمى سير، وهو وزن سبعين مثقالاً عنها بصنّحة^(٥) الدرهم بمصر، فإنه

(١) التُقْرَة: التُقْرَة، من الذهب والفضة، القطعة المُذَابة، وقيل مأسِك مجتمعاً والتُقْرَة السبيكة، والجمع نقار. «المخصص ٣٠ / ١٢»، و«السان العربي ٧ / ٨٧».

(٢) جاء في «نزهة الخواطر ٩ / ٣٧٨»: فليعلم أن النقود التي كانت مروجة أيام الملوك، وفيما بعدهم كانت على ثلاثة أقسام: الذهبية، ويسموها (تنكـة) وزنها (تولة واحدة) غالباً، والفضية، يسمونها أيضاً (تنكـة)، وزنها أيضاً كان (تولة واحدة)، والنحاسية، ويسموها (جيتـل) بكسر الجيم، وزنها (تولة واحدة)، وقيل: تولة وثلاثة أرباع منها، وكان (التنكـة الفضية) واحدة منها، تعدل خمسين جيتـلاً.

(٣) يبدو أن هذا الدرهم كان يعرف باسمين هما: فشتكانى وهستكانى، خاصة وأن المؤلف بعد أن استعرض دراهم الهند ذكر أنها تحضر في ستة دراهم. ذكر منها الدرهم (الهستكانى) دون (الفشتكانى) وقد ورد ذلك في جميع النسخ، ومثله في ذلك مثل الدرهم (السلطاني) الذي عُرف أيضاً باسم آخر هو (الدكـانى). وكذلك، الدرهم (دواز دهـكانى) الذي أطلق عليه أيضاً (دوازديـكانى) هذا أمر. ولعله الأقرب. أما الأمر الآخر، فهو أن يكون قد وقع تصحيف في الاسم لتشابه الأسمين في الرسم، فاستبدلت الهاء فاء، أو العكس.

(٤) جاء في «الصبح ٥ / ٨٤»: «الدرهم السلطاني، ويُسمى (وكانى) وهو ربع درهم من الدرـاهـم المصرية.

(٥) صنـحة أو سـنـحة: بالفارسـية (سـنـكـة) أي الحـجـر، وهي وزـنـ، وـمـعيـارـ ولـضـيـطـ أـوزـانـ السـكـةـ الإـسـلامـيـةـ، =

مائة ودرهمان وثلاثان، وكل أربعين سيراً من واحد. ولا يعرف عندهم الكيل. وأما الأسعار، فإنَّ أوسطها القمح، كُلُّ مَنْ بدرهم ونصف هستكاني، والشعير كل مَنْ بدرهم واحد منه، والأرز كل مَنْ بدرهم ونصف وربع منه، إلا أنواعاً معروفة من الأرز، فإنها أعلى من ذلك. والحمص كل مَنِين بدرهم واحد هستكاني، ولحم البقر والماعز سعر واحد، ويباع كل ستة أسيار بدرهم سلطاني، وهو ربع درهم هستكاني، والغنم كل أربعة أسيير بدرهم سلطاني، والأوز كل طائر بدرهمين هستكانيه، والدجاج كل أربعة طيور بدرهم هستكاني، والسكر كل خمسة أسيار بدرهم هستكاني، والنبات^(١) كل أربعة أسيار بدرهم منه.

ورأس من الغنم الجيدة السمينة الفائقة بتنكة واحدة عنها ثمانية دراهم هستكانية، والرأس البقر الجيد بتنكتين، وربما كان بأقل، والجاموس كذلك، وأكثر مأكلهم لحوم البقر والمعز، قلت للشيخ مبارك: هذا لقلة الغنم؟ قال: لا، ولكن عادة، وإن فالأغنام لا تُعدُّ في كل قرية في الهند إلا بالآلاف [المُؤلقة] والدجاج كل أربعة طيور فائقة بدرهم واحد بالمصري، وأما الحمام والعصافير وأنواع الطير فأباقل الأشياء ثمناً.

وأما أنواع الصيد، من الوحش^(٢) والطير بها فكثير، وبها الفنك^(٣)، والكركدن، وإنما فيلة الزنج أجل.

وأمارتهم في الملبوس لبسهم البياض، وثياب الجوخ^(٤)، وثياب الصوف إذا

= اتَّخَذَ عَبْدُ الْمُلْكَ بْنَ مَرْوَانَ صِنَاجًا مِنْ زِجَاجٍ تَسْتَحِيلُ عَلَى الْزِيَادَةِ، أَوِ النَّفْعِ. «لِسَانُ الْعَرَبِ ٣/١٣٦»، و«كتاب النقد الإسلامية» ضمن كتاب «تعريف النقود، والدواوين في العصر الأموي» للدكتور حسان حلاق ١١١٧، والموسوعة العربية الميسرة ١١٣٢.

(١) يقصد به سكر نبات، وهو ما يسمى عند الأطباء (سكر طبرزد)، وهو سكر صلب شديد يسميه أهل مصر (السكر نبات) «شرح أسماء العُقَّارِ» ٣١.

(٢) الوحش: كل شيء من دواب البر، مما لا يُستأنس، مؤنث، وهو وحشي والجمع وحوش. «لسان العرب ٨/٢٦١».

(٣) الفنك: اسم ذوبية، تشبه (الثعالب) صغير الحجم، جميل الشكل، واسع العينين، وله أذنان قائمتان، عظيمتا الحجم، صوته كالثعلب، وهو من حيوانات الصحاري يُسمى بالإنجليزية (فينك). Fennec له (وبر) أبيض خالطه حمرة، يتَّخذ من جلوده الفراء، ويُعتبر من أطيب أنواعه، فهو أبُرد من السمُور وأخر من السنجاب، وكثيراً ما يُجلب من بلاد الصقالبة. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/١٦٨»، و«الصبح ٢/٤٩»، و«إحياء التذكرة ٤٩٦».

(٤) الجوخ: جمعه أجواخ: وبالتركية (جوقة)، وهي نسيج من صوف صفيق يكتسي به، يقول المقرizi في «الخطط ٢/٩٨»: «أدركت الناس، وقلما تجد فيهم من يلبس الجوخ، وإنما يكون من جملة ثياب

جُلُب إِلَيْهِمْ، يَبْاع بِأَرْفَعِ الْأَثْمَانِ، وَلَا يَلْبِسُ الصَّوْفَ إِلَّا أَهْلُ الْعِلْمِ، وَالْفَقْرُ وَلِبْسُ
الْسُّلْطَانِ، وَالخَانَاتِ، وَالْمُلُوكِ، وَسَائِرُ أُوبَابِ السَّيُوفِ نَتْرِيَانَ وَتَكْلِاَوَاتِ^(١) وَأَقْيَةَ
إِسْلَامِيَّةَ^(٢) مُحَصَّرَةً إِلَى وَسَاطِ حُوازِرِ مِيَّةَ^(٣)، وَعِمَائِمَّ^(٤) صَغَارَ، لَا تَعْدَى الْعِمَامَةَ خَمْسَةَ
سَتَةَ أَذْرَعَ، وَمِنَ الْلَّانِسِ الرَّفِيعِ، وَحَدَّثَنِي الشَّرِيفُ نَاصِرُ الدِّينِ مُحَمَّدُ^(٥) الْحَسِينِيُّ الْكَارَمِيُّ
الْمَعْرُوفُ بِالرُّمْرُدِيِّ، وَهُوَ مَنْ دَخَلَ إِلَى الْهِنْدَ مَرَّتَيْنِ وَأَفَامَ عَنِ الْسُّلْطَانِ قَطْبَ الدِّينِ^(٦)
بِدَهْلِيِّ، أَنَّ غَالِبَ / ٣٦ / لِبَاسَهُمُ الْبِيَاضُ، وَغَالِبَ جَمِيعَاتِ^(٧) أَكْسِيهِمُ التَّرِيرَةِ^(٨)

الأكابر جوخ لا يلبس إلا في يوم المطر، وإنما يلبس الجوخ من يرد من بلاد المغرب، والفرنج، وأهل الإسكندرية، وبعض عوام مصر، فأما الرؤساء، والأكابر، والأعيان فلا يكاد يوجد فيهم من يلبسه، إلا في وقت المطر فإذا ارتفعت المطر نزع الجوخ ثم ذكر بعد ذلك أنه عندما غلت الأسعار دعت الضرورة أهل مصر إلى ترك أشياء مما كانوا فيه من الترف. وصار الناس يلبسون الجوخ راجع فم، معن، الجوخ «محيط المحض ١٣٤»، وتكلمة المعاجم العربية ٢/٣٢٨.

(١) التكالاوات: ثياب تلبس في الهند ومصر، فوق (الأقية) التترية ويلبس فوقها القباء الإسلامي «الصبع

(٢) أقية إسلامية: لباس خارجي، للرجال، يُلبس فوق التكلاوات، فارسي الأصل، سُمي بذلك لتقبضه، وقصره، قبوت الشيء جمعته منه (اليلمَّق) فارسي مغرب، (والفرُّوج) مشقوق من الخلف، ومنها ما هو طويل، ومنها ما هو قصير إلى الركبة، مفتوح عند الرقبة، كانت له أكمام ضيقة فجعلوها المعتصم فضيقاً، وأكمامها عريضة بلغت ثلاثة أذرع، «المخصوص ٤/٨٦»، و«٤٢/٤٣»، و«الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي»، ٢٨٠-٢٨٤.

(٣) خوارزمية: نسبة إلى (خوارزم) إقليم منقطع عن (خراسان)، وعن (بلاد ما وراء النهر) يحيط به من الغرب بعض بلاد الترك، ومن الجنوب خراسان، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر، ومن الشمال بلاد الترك أيضاً. يقع في آخر نهر جيحون على جانبيه، قصبهة تسمى (خوارزمية) خربها النهر، وبنى الناس، لهم مدينة من ورائها، «كتاب تقويم البلدان ٤٧٦»، و«بلدان الخلافة الشرقية ٥٠٢».

(٤) العائم: جاء في «المخصص ٤/٨٢»: أن العامة، هي ما يُلْاث على الرأس تكبيراً.

(٥) لعله هو الذي أشار إليه «ابن حجر» في «الدرر / ٤ / ٥١» بقوله: محمد بن الحسين الشريف، ولد توقيع الدّست بمصر، لما ولّ أبوه كتابة السّرّ بحلب، وكان يكتب من إنشاء أبيه، ولم يُسمع له بنظم، ولا نثر، وكانت وفاته في شهر ربّع الأول سنة ٧٦٣ هـ (١٣٦١).

(٦) هو الملك المؤيد قطب الدين مبارك شاه بن محمد الخلجي، استقر له الحكم سنة (٧١٧هـ/١٣١٧م)، بعد أن خلع أخيه (شهاب الدين)، ثم قتله مع بقية أخوته بعد حبسه معهم في مدينة (كوالياز). قُتل على يد أكبر أمرائه (خسرو خان) في خامس ربيع الأول سنة (٧٢١هـ/١٣٢١م). «نَزَّةُ الْخَوَاطِرُ» (١٥-١٦، ٩١-١٩١).

(٧) جاء في «السان العرب ٩/٤٥٠»: «فجمعت علي ثيابي أي لبست الثياب التي يبرز بها إلى الناس، من الإزار، والرداء، والعمامه، والدرع، والخمار، وجمعت المرأة الثياب، لبست الدرع ، والمُلحفة، والخمار، كما جاء في «المصباح المنير ١/١١٨»، وأخذ (جمجم ثيابه) أي مجتمعها.

(٨) التترية: نسبة إلى التتر، وهي شعوب انحدرت من أصل مُغولي، ويختلف مدلول التتر باختلاف العصور. «دائرة المعارف الإسلامية» ٥٧٦ - ٥٧٧.

مزركشة^(١) بالذهب، ومنهم من يلبس مطرّز الكمين، بزركش^(٢)، ومنهم من يعمل الطراز بين كتفيه، مثل المُعْلَم^(٣)، وأقباعهم^(٤) مربعة الإنبساط، مُرَصّعة بالجواهر، غالب ترصيعهم بالياقوت، والماس، وتظفير شعورهم ذؤابات مَرْخِيَّة، كما كان يفعل عسكر مصر والشام، ويُعمل في الذؤابات^(٥) شراريب^(٦) حرير، وتشدّ في أوساطِهِنَّ المناطق من الذهب، أو الفضة، وأخفاف^(٧)، ومهاميز^(٨)، وأما السيف، فلا تشدّ إلا في الأسفار، وأما في الحضر فلا تشدّ. وأما الوزراء والكتاب فمثل زى الجند، ولكن لا يشدون المناطق، وبعضهم يرخي له عذبات^(٩) أمامهم، مثل عذبات الصوفية، وأما القضاة، والعلماء فلبسهم فرجيات^(١٠) شبّهات بالجندات، ودراريع^(١١)

(١) مزركشة: بمعنى مطرزة، راجع «الملاس المملوكيّة» ٤٢.

(٢) المقصود (بالزركش) هنا، ما نسج من الحرير، والذهب الحالص، وهو مستعار من الفارسية، «الصبح ٤١ / ٤»، و«الملاس المملوكيّة» ٦١.

(٣) اسم عُرف به (التتر)، وانتشر في منغوليا، وآسيا الوسطى، وقد استعمله رسميًّا جنكيز خان. «دائرة المعارف الإسلامية» ٤ / ٥٧٦ - ٥٧٧.

(٤) وأقباعهم: القيع، طاقية صغيرة، تُلبس تحت العمامة. «الملاس المملوكيّة» ٩٠.

(٥) ذؤابات: جمع (ذؤابة)، وهي الظفيرة من الشعر. «المصباح المنير» ١ / ٢٢٦.

(٦) شراريب: جاء في «المحيط» ٤٥٨: أنها جمع (شَرَاب)، وهي عند المولدين ضمة من خيوط يعلق طرفاها الواحد بالطربوش، وغيره، ويتلذّل طرفاها الآخر.

(٧) أخفاف: جمع خُفت، وهو ما يلبس في القدم، فارسيٌّ مُعرّب، أصله في الفارسية (مُوزَّة) وجمعها (مَوَازِجَة)، يُقال للصغير منه، (الجُرْمُون)، وهي أنواع منها:

(الهِبْرِيَّة)، وهي يمانية جيدة، (العَتَبْلَن)، و(الْمُوقَق). «المخصص» ٤ / ١١٤.

وجاء في «محيط المحيط» ٢٤٥ - ٢٤٤: أن الخفت (واحد الخفاف)، التي تلبس في الرجل سُميّ به لخفته، وهو شرعاً ما يسْتَرُّ الكعب، وأمكن به السفر، أو المشي فرسخاً فما فوق، والجُرمُوق ما يلبس فوق الخف لحفظه من الوحل، ونحوه على المشهور، وقيل هو الخف الصغير وللمزيد من المعلومات راجع «الملاس المملوكيّة» ٦٣ - ٦٤.

(٨) مهاميّز: المهمّاز، آلة حديد تكون في رجل الفارس، فوق كعبه، فوق الخف، وما في معناهما، ومؤخرةً إصبع محدد الرأس، إذا أصاب جانب الفرس وأسرعت في المشي، وجئت في العدو، وهو تارة يكون من ذهب محض، وتارة من فضة، وتارة من حديد مطلبي بالذهب، أو الفضة. «الصبح ٢ / ١٣٦»، و«الخطط» ٢ / ٢١٧، و«الملاس المملوكيّة» ٦٤.

(٩) عذبات: جمع (عذبة)، والعذبة: هي طرف الشيء. «السان العربي» ٢ / ١٧٥، و«القاموس المحيط» ١ / ١٠٥.

(١٠) فرجيات: نوعٌ من الأقبية تتالف من ثوب واسع له كُمَان، وفيه شَوْقٌ من خلفه، تصنع من الوبر، وتلبس في الشتاء. «المخصص» ٤ / ٨٦، و«الملاس العربية الإسلامية» ٢٧٨ - ٢٨٠.

(١١) دراريع: جمع (درّاعة)، ضرب من الثياب، وهي جبة مشقوقة القدم حتى أعلى القلب، ومزرورة بأزار، وعرى ومنها أنواع لا تكون إلا من الصوف، «المخصص» ٤ / ٣٦، و«الملاس العربية الإسلامية في العصر العباسي» ٢٥٥.

وأما عامة الناس فَقُمْص^(١)، وفرجيات مفندرة، ودراريع.

وحدثني الشبلي أن أهل دهلي، أهل ذكاء، وفطنة، فصحاء في اللسان الفارسي، والهندي، [ولهم] دقة أفهمام، وصفاء أذهان، وغالبهم ينظمون الشعر بالفارسي، والهندي، ومنهم من ينظم الشعر بالعربي، ويجيد فيه، وكثير ممن يمدح السلطان منهم، ومن ليس لهم اسم في ديوانه، فيقبل عليهم، ويجيزهم.

قال لي الشبلي: وأحد دبیران السلطان له عادة أن يمدحه إذا تجدد له فتح، أو أمر كبير، ورسمه عليه أن يأمر بأن تُعد له أبيات قصيده ويعطى بكل بيت عشرة آلف تُكَّة، وكثيراً مما يستحسن السلطان منه شيئاً أو يعلم له ضرراً، فما يأمر له بشيء مخصوص على التعين، وإنما يأمره بأن يدخل إلى الخزانة، ليحمل ما أطاق فلما رأني عجبت مما يحكىء، من كثرة هذا الإنفاق، والبساطة، في المواهب، والإطلاق. قال: وهو مع هذه السمعة المفرطة في بذل العطاء، لا ينفق نصف دخل بلاده.

وحدثني شيخخنا فريد الدهر، شمس الدين الأصفهاني^(٢)، قال: كان قطب الدين الشيرازي^(٣) رحمه الله يثبت صحة الكيمياء^(٤)، قال: فبحثت معه في بطلان الكيمياء،

(١) القُمْص: هو «الجلباب». (المخصص ٤/٨٤)

وجاء في «السان العرب» ٨/٣٥١ - ٣٥٠: «القميص الذي يُلِّس، معروف مذكور، وقد يُعنى به الدرج فيؤنث، والجمع أَقْبَضَة، وَقُمْصَ، وَقَمْصَان، وللمزيد من المعلومات عن القمصب، راجع «الملابس العربية الإسلامية» ٢٠١ - ٢٠٨».

(٢) شمس الدين محمد بن عثمان الأصفهاني، المعروف بابن العجمي الحنفي، كان مدرساً بالإقبالية، حدث بالمدينة النبوية، ودرس أيضاً بالمدرسة الشريفة النبوية، وحدث بدمشق، وكان فاضلاً، وجمع منسقاً على المذاهب، «تاریخ ابن الوردي» ٢/٤٣٥. ويدرك صاحب «الوافي بالوفيات» ٨/٢٥٥ أنه من مشايخ العمري قرأ عليه، وأخذ عنه الأصول.

(٣) قطب الدين الشيرازي: هو قطب الدين، محمد بن مسعود بن مُصلح، الفارسي، الشيرازي، الشافعي، العلامة، ولد في شيراز سنة ٦٣٤ هـ/١٢٣٦ م. تعلم مهنة الطب من والده، ومن عمه، ومن الزكي التركشائي، والشمس الكتبوي، وعمل طبيباً بالمرستان، كما درس علم الهيئة والإرشادات على يد النصير الطوسي، سكن تبريز وأقرأ فيها العلوم العقلية، ودرس في دمشق الكشاف، والقانون والشفاء، وغيرها، كان من أذكياء العالم، ولقبه عند الفضلاء الشارح العلامة. من تصانيفه: شرح المختصر، وشرح المفتاح للسكاكيني، وشرح الكليات لابن سينا، وشرح الإشراف للشهوردي، وله كتاب في الحكمة سماه غرة الناج. توفي في ٢٤ رمضان، وقيل ١٧ رمضان من سنة ٧١٠ هـ/١٣١٠ م عن ست وسبعين سنة.

ترجمته في: ذيول العبر ٤/٢٥، وتاريخ ابن الوردي ٢/٣٧٠، والدرر الكامنة ٥/١٠٨، والسلوك ج. ٢، ق. ٩٦، ١/٢، والنجم الزاهرا ٩/٢١٣، والأعلام ٧/١٨٧ - ١٨٨.

(٤) الكيمياء: لفظ عربي، اشتقاقة من كمي يكمي، إذا ستر وأخفى، ويلقى: كمي الشهادة يكميها، وإذا

فقال لي: أنت تعلم ما ينتف من الذهب في الأبنية، والمستعملات، ومعادن الذهب لا يحصل منها /٣٧/ نظير ما ينفد، وأما الهند، فإني حررت أنَّ له ثلاثة آلاف سنة، لم يخرج منه ذهب إلى البلاد، ولا دخل إليه ذهب، فخرج منه، والتجار من الآفاق تقصد الهند بالذهب العين^(١) وتعوض عنه بأعراض^(٢)، حشائش^(٣) وصموغ^(٤) لا غير، فلولا أنَّ الذهب يُعمل [لعدم بالجملة] الكافية.

قال شيخنا^(٥) شهاب الدين: أما قوله عما يدخل إلى بلاد الهند، من الذهب، ثم لا يخرج منه فصحيح، وأما إثباته لصحة الكيشيماء، فباطل لا صحة له. قال: وبلغني أنَّ ممَّن تقدَّم هذا السلطان، فتح فتوحًا، فأخذ من الذهب وسق^(٦) ثلاثة عشر ألف بقرة، قُلت: والمشهور عن أهل هذه البلاد جَمْع الأموال، وتحصيلها، حتى أن بعضهم إذا سُئِلَ كم معك؟ فيقول: ما أعرف، إلا أنِّي ثانٍ ولد يجمع على مال جَدِّه، أو ثالث ولد في هذا النَّقْب^(٧)، أو في هذا الجُب^(٨)، وما نعلم كم هو؟ وهم

= كتمها، وتسمى (الحكمة) وتسمى (الصَّعْدَة)، «مفاسيد العلوم ١٩٣». وهو العلم الذي يُعني بطبيعة المادة، وتركيبها، وما يتناولها من تغيرات «الموسوعة العربية الميسرة ١٥٣٠ - ١٥٣١». «١٥٣١ - ١٥٣٠».

(١) أي بالذهب نفسه، فعين الشيء نفسه، راجع «محيط المحيط ٦٤٩».

(٢) أغراض: الأعراض، أو العروض، هي الأمتدة التي لا يدخلها كيل، ولا وزن، ولا تكون حيواناً، ولا تكون عقاراً، «المصباح المنير ٥٣/٢».

(٣) حشائش: لعله يريد ما تستهر به بلاد الهند من منتجات زراعية من حبوب ونحوها مما هو مزدرع، راجع في معنى الحشائش، «تاج العروس ٤/٢٩٧ - ٢٩٩»، و«تكميلة المعاجم العربية ٣/١٧٥ - ١٩٩».

(٤) صموغ: جاء في «كتاب النبات ٣/٨٦ - ٨٧»: الصَّمْعُ، ما جَمِدَ من نَصْح الشجر، ولم يكن له مَمْضَغَةٌ، يُقال: أَصْمَعَ الشَّجَرُ، إِذَا أَخْرَجَ صَمْعَهُ، فهو نصوح ينضجها الشجر، بلا استخراج مستخرج، كما أطلق التُّورِي الصِّموغ على أصناف كثيرة، بلغت ثمانية وعشرين صنفًا، مثل: الكافور، المُضْطَكَا، الصَّبْرُ، الْمُرُّ، الحلبيَّة، القطران، الزُّفَرُ، الْأَنْزَرُ، القمح العربي. وغيرها. راجع «نهاية الأرب ١١/٢٩١ - ٢٩٢».

(٥) محمد بن المجد عبد الله الحسين الأزبلي، ثم الدمشقي الترزاوي، شهاب الدين، أبو الفرج، ولد سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م، تولى قضاة الشافعية بدمشق في ذي القعدة سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م، توفي في دمشق في رجب من سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م.

ترجمته في: تاريخ ابن الوردي ٤٥٠/٢، والدرر الكامنة ٤/٨٦ - ٨٧.

(٦) وسق: الوَسَقُ، حِمْلُ بَعِيرٍ، وَالجَمْعُ وُسُوقُ، وَالوَسَقُ، ستون صاعاً، بصاع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلهِ وَسَلَّمَ، والصَّاع خمسة أرطال وثلث، وهو على هذا الحساب مائة وستون مَنَّا، والوَسَقُ ثلاثة أَفْزَةٍ، وحَكَى بعضُهُمُ الْكَسْرُ لِغَةً، وَجَمِعَهُ أَوْسَاقٌ، مِثْلُ حِمْلٍ وَأَحْمَالٍ. «المصباح المنير ٢/٣٣٦».

(٧) النَّقْبُ: جاء في «المصباح المنير ٢/٢٩١»: نقْبُ الحَاطِطَ، ونحوه، من بَاب قَتْلٍ، حَرَقَهُ. وجاء في «محيط المحيط ٩١٠»: نقْبُ الْحَاطِطَ، حَرَقَهُ وَهُوَ كَالنقْبِ فِي الْخَشْبِ.

(٨) الجُبُّ: هو البئر التي لم تُطُوِّ، وممَّا وجد لا مما حَفِرَهُ النَّاسُ «القاموس المحيط ١/٤٥». وفي «محيط

يتخذون أجياباً، لجمع الأموال، ومنهم من ينقب في بيته، ويتخذ به بركة ويسدها، ولا يدع إلا مقدار ما يسقط منه الدنانير، ليُجمَع فيها الذهب وهم لا يأخذون الذهب المقصو^(١)، ولا المكسور، ولا السبائك^(٢)، خوفاً من العين^(٣)، ولا يأخذون إلا الدنانير المسكوكة^(٤)، وفي بعض جزائرهم من ينصب على سطح داره علماً، كلما تكامل لأحد هم جَرَّة ذهب، حتى يكون لبعضهم عشرة أعلام وأكثر.

وحدثني الشيخ برهان الدين أبو بكر بن الخلال محمد البري الصوفي، قال: بعث هذا السلطان عسكراً إلى بلاد وهي مجاورة للدواكير في نهاية حدودها، وأهلها كفار يدعى كل منْ ملَكَ منهم (الرَّأْس)، فلما نازله جيوش السلطان، بعث يقول لهم: قولوا للسلطان، أنه يكُف عننا، ومهما أراد من المال نبعث له ما أراد من الدواب، لأحمله له. بعث أمير الجيش يُعرفه بما قال، فأعاد جوابه، بأنَّه يكُف عنهم القتال، ويؤمنه للحضرمة معه، فلما حضر إلى السلطان أكرمه إكراماً كثيراً، وقال له: ما سمعت مثل ما قلت، فكم عندك من المال، حتى قلت إنَّا نبعث لك مما أردنا من الدواب لتحملها؟ فقال: تقدَّمني سبع رأت في هذه المملكة جمع كل واحد منهم سبعين ألف باين^(٥) / ٣٨ / أموالاً، وكلها عندي حاصلة. فقال: والباين؟ هو صهريج

= المحيط^(٦): الجُبُ، البئر، أو الكثيرة الماء، البعيدة القدر، أو الجيدة الموضع من الكلأ. أو التي لم تُظُرَ، مما وُجد محفوراً لا مما حفره الناس، ويطلق على الْهُوَةَ، التي لا يُعرف قرارها، جمعها أجياب، وجاب، وجابة.

(١) المقصو: جاء في «المحيط المحيط»^{٥٢٤}: «صاغ الشيء هناء على مثال مستقيم، كما يُفعل في صوغ الحلي، والأواني من الذهب والفضة، والصُّونُغ عند الصرفيين، هو أن يُؤخَذ مادةً أصلٍ، ويُتَصَرَّفُ فيها بإحداث هيئة، وزيادة معنى، فتبقى مادةً الأصل، ومعناه في الفرع، كما في صوغ الحلي، والأواني من الذهب والفضة».

(٢) السبائك: السبيكة، القطعة المذوَّبة من الذهب، أو الفضة وجمعها سبائك. «المخصص»^{٣١ / ١٢}، و«المحيط المحيط»^{٣٩٤}.

(٣) الغبن: في البيع والشراء، الوكس، أو الخداع، ومنه ما هو يسير وهو ما يقوم به مقوم، ومنها ما هو فاحش، وهو ما لا يدخل تحت تقويم المقومين.

(٤) المسكوكة: السكّة، هي الخَتْم على الدنانير، والدرهم، المُتَعَامِل بها بين الناس بطابع حديد يُقْسِّي فيه صُورٌ، أو كلماتٌ مقلوبة، ويُضرب بها على الدينار، والدرهم، فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة، ولحفظ السكّة، كان اسمًا للطابع، وهي الحديدية المُتَخَلِّنة لذلك، ثم تُقلَّ إلى أثراها، وهي النقوش المائلة على الدنانير، والدرهم، ثم نقل إلى القيام على ذلك والناظر في استيفاء حاجاته، وشروطه، وهي الوظيفة فصار علماً عليها في عُرف الدول، وهي وظيفة ضرورية للملك «المقدمة ٢ / ٧٠٠ - ٧٠٠».

(٥) ورد في «رحلة ابن بطوطة»^{٥٣٥}، اسم (الباين) وذكر أنه في الهند، عبارة عن بئر متسعة جداً

متسع جداً ينزل له بسلام من أربع جهات فأعجب السلطان مقاله، وأمر بأن يختتم على الأموال باسمه، فتحتمت باسم السلطان، ثم أمر (الرا) بأن يجعل له نواباً في مملكته، ويُقيّم هو بنفسه في حضرته بدھلی، وعرض عليه الإسلام، فأبى فأقره على دینه، وأقام في حضرته، وجعل له نواباً في مملكته، وأجرى السلطان عليه ما يليق بمثله، وبعث إلى تلك المملكة أموالاً جمةً فرقت على أهله صدقة عليهم؛ لكونهم انتظروا في عديد رعاياه، ولم يتعرض إلى البواينات وإنما ختم عليها وأبقاها على حالها تحت ختمه. وقد ذكرت هذا على ما ذكره البزبي، وهو معروف بالصدق، والعهدة عليه، والعائد فيها إن كان يعود فإليه.

وحدثني علي بن منصور العقيلي، من أمراء عرب البحرين^(١)، قال: إن سفارنا ما تقطع عن الهند، وعندنا كثير من أخباره، وتواترت الأخبار عندنا، أن هذا السلطان محمد بن طغلق شاه، فتح فتوحات جليلة، وأنه مما فتح مدينة لها بحيرة ماء، في وسطها بيت بدّ معظم عندهم، يُقصَد بالذور، وكان كل ثذر يجيء إليه، يُرمى في تلك البحيرة فلما فتحها قيل له عن ذلك، فشقّ نهرًا من تلك البحيرة، وصرف الماء منها إلى أن تصرف، ثم أخذ ما كان هناك من الذهب، وحمل منه وسقّ مائتي فيل وألاف من البقر.

قال: وهو رجل جواد كريم، يُحسن إلى الغرباء، سافر مِنْ رجالان إليه، وشملتهما السعادة بالحضور عنده فأنعم عليهما، وشرفهما بالخلع وأجرى عليهما الأموال الجمة، وكانا مِنْ لا يُؤبه إليه، من عَرَبِنا، ثم خيرهما في المقام، أو العود، فاختار الواحد منهما المقام فأعطاه بلداً جليلاً، وما لا جزيلاً، وشيئاً كثيراً من مواشي، الغنم والبقر، وهو الآن هناك مُمَوِّلاً مُخْلولاً^(٢) وأما الآخر فسأل العودة فأنعم عليه بثلاثة آلاف تككٍ ذهباً، وأعاده مَجْبُراً مَجْبُراً^(٣).

= مطوية بالحجارة، لها درج ينزل إليها إلى ورد الماء، وبعضها يكون في وسطه وجوانبه القباب، من الحجر، والسقائف، والمجالس. ويفاخر ملوك البلاد وأمراؤها بعمارتها في الطرقات التي لا ماء بها.

(١) البحرين: إقليم على ساحل بحر الهند، بين البصرة وعمان، من أهم مدنه، الخطط، والقطيف، والأرة، وهجر، وهي العاصمة، وبينونة، والزاره، وجوانا، والسابور، ودارين، والغابة، سُمِّي بهذا الاسم، لأنّ في ناحية قراه بحيرة على باب الأحساء، صالح أهلها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في السنة الثامنة من الهجرة وأمّر عليهم (العلاء بن عبد الله بن عماد الحضرمي) حليفبني عبد شمس. «الطبقات الكبرى ١/٢٦٣»، «معجم ما استجم ١/٢٢٨» و«معجم البلدان ١/٣٤٦-٣٤٨».

(٢) مُخْلولاً: جاء في «السان العرب ١٣/٢٣٨»: الخول، ما أعطى الله تعالى الإنسان من العبيد والخدم. وتحول الرجل، الذي يملك أمرورهم، وخولك الله مالاً أي ملك.

(٣) مَجْبُراً: أي مسروراً «القاموس المحيط ٢/٤٢»، و«المحيط المحيط ١٤٢».

八八

الباب الثاني: في مالك بيت هنرخان

- ٣٩ / وفيه فصول:
- * الفصل الأول: في الكلام عليهم جُملياً.
 - * الفصل الثاني: في مملكة القان الكبير صاحب التخت؛ وهو صاحب الصين والخطا.
 - * الفصل الثالث: في التورانيين، وهم فرقان:
الفرقة الأولى فيما وراء النهر.
والفرقة الثانية في خوارزم والق وجاق.
 - * الفصل الرابع في الإيرانيين.

الفصل الأول

في الكلام عليهم جُملياً

جعلتُ هذا فصلاً جامعاً لذكرهم قبل ذكرهم على التفصيل في ممالكهم؛ لأنَّ هؤلاء منهم أربعة سلاطين بيد كل منهم مملكة عظيمة، استولوا بها على غالب المعمور من حدود الفرات إلى نهاية الشرق على الخط المستقيم المتصل بالسند^(١) فالمسمي منهم بالقان^(٢) الكبير - وهو المتغلغل في الشرق منهم - وهو القائم مقام جنکزخان والجالس على تخته^(٣)، وسيأتي ذكره - إن شاء الله تعالى - .
والثاني منهم؛ هو صاحب إيران بجموعها وهي التي كانت بيد الأكاسرة^(٤).
والثالث منهم؛ هو صاحب القبجاق.

والرابع منهم؛ صاحب مملكة ما وراء النهر، فانقسمت بينهم مملكة توران؛ وهي مملكة الترك القديمة وبها كان أفراسياپ^(٥).
وأما صاحب إيران فهو يفخر على الملوكين صاحب القبجاق وصاحب ما وراء النهر بأنَّ جدَّه الأكبر هولاكو بن تولي بن جنکزخان^(٦) - وهو جد القان الأكبر الآن - .

(١) السند: هو النهر الفاصل بين إيران والهند قديماً، والسند إقليم باكستان الحديثة ونهر يجري بها. «رحلة ابن بطوطة، تحقيق الشيال ٢٦٢».

(٢) القان: كلمة مغولية، تعني ملك كبير وسلطان عظيم، وقد سبق تعريفها.

(٣) التخت: كلمة فارسية، تعني العرش، كرسى الحكم. «لسان العرب ٤٢٢/١».

(٤) الأكاسرة: جمع كسرى، مأخوذة من اللفظ الفارسي خسرو، وهو لقب ملوك الفرس قبل الإسلام.

(٥) أفراسياپ: أكبر الملوك الأسطوريين التورانيين من نسل تورين افريدون، جلس على ملك توران بعد يشنگ.

(٦) هولاكو بن تولي: الابن الرابع لجنکزخان، وأمه سبورقو قيتي بيكي ابنة جاكمبو أخي اونك خان ملك أقوام (كرايات)، قاد جيوش المغول جنوب البلاد الإسلامية وقضى على الإسماعيلية والخلافة العباسية، واستولى على الشام، وهزمت جيوشه في عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ أمام المصريين، وتوفي سنة ٦٦٣ هـ.

انظر: «جامع التواریخ لرشید الدین ٢١٩/٢».

والملكان الآخران يفخران بأن جنكرخان لـما قـسـمـ الـبـلـادـ بـيـنـ بـنـيهـ مـلـكـ جـديـهـماـ وـلـمـ يـمـلـكـ تـولـيـ ولاـ هـوـلـاـكـوـ ولـدـهـ جـدـ صـاحـبـ إـرـانـ - بلـ كـانـ هـوـلـاـكـوـ بنـ تـولـيـ منـدوـيـاـ مـنـ جـهـةـ أـخـيـهـ مـنـكـوـ كـيـكـاخـانـ^(١) وـارـثـ الـمـلـكـ وـالتـختـ.

حدـثـنـيـ الفـاضـلـ نـظـامـ الدـيـنـ أـبـوـ الـفـضـائـلـ يـحـيـيـ بـنـ الـحـكـيـمـ نـورـ الدـيـنـ عـبـدـ الرـحـمـانـ الطـيـارـيـ / ٤٠ـ / الـكـاتـبـ الـبـوـسـعـيـديـ^(٢): أـنـهـ كـانـ أـرـسـلـهـ لـدـفـعـ الـإـسـمـاعـيـلـيـةـ^(٣) وـالـأـكـرـادـ^(٤); فـلـمـاـ أـخـذـ بـغـدـادـ^(٥) تـمـكـنـ وـعـصـىـ وـاسـتـقـلـ بـنـفـسـهـ.

وـالـوـاـضـحـ الـجـلـيـ ماـ سـنـذـرـهـ عـنـ شـيـخـنـاـ الـفـرـدـ نـادـرـ الـوـجـودـ أـبـيـ الشـنـاءـ الـأـصـفـهـانـيـ^(٦) - إـنـ شـاءـ اللـهـ - فـيـ ذـلـكـ.

(١) منكو كيكاخان: ابن تولي بن جنكرخان، حكم ما بين ١٢٥١-١٢٥٨ م نجان بالبق.

(٢) البوسيدي: نسبة إلى أبي سعيد هاد بن أولجايتو وخدابندة بن أرغون بن آباها بن هولاكو، من سلاطين الإيلخانيين. انظر: الدرر الكامنة ٤٦٩/٣.

(٣) الإمامية: وهم فرقة من المسلمين تعتقد بإمامية إسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق، ولهم أسماء مختلفة في شتى المناطق منها: الباطنية، والتعلمية، والسبعية، والحسينية، والملحدة، والقرامطة. انظر: موسوعة الفرق الإسلامية ١٠٢-١٠٨.

(٤) الأكراد: شعب يسكن هضبة فسيحة في آسيا الوسطى، وببلادهم موزعة بين تركيا وإيران والعراق وغيرها. المعجم الوسيط ٢/٨١٣.

(٥) بغداد: عاصمة العراق، مدينة السلام، تقع على نهر دجلة، كانت حاضرة الدولة العباسية، أسسها أبو جعفر المنصور. مراصد الاطلاق ٢/٢٠٩.

(٦) أبو الشناء الأصفهاني: محمود بن عبد الرحمن (أبي القاسم) ابن أحمد بن محمد، شمس الدين الأصفهاني، أو الأصفهاني: مفسر، وصوفي، كان عالماً بالعقليات. ولد بأصفهان سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٦م، وتعلم فيها. ورحل إلى دمشق فأكرمه أهلها، وأعجب به ابن تيمية. وانتقل إلى القاهرة فبني له الأمير «قوصون» الخاتقاه بالقرافة، وربته شيئاً فيها، فاستمر إلى أن مات بالطاعون في القاهرة سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م. من كتبه «التفسير - خ» في صوفية (دار الكتب الشعبية ١/٤٣) مخطوطة كاملة نفسته (٨٤٣ ورقة) كبيرة، منه الجزء الرابع مخطوط، سماه «أنوار الحقائق الربانية» قال الصفدي:رأيته يكتب في تفسيره من خاطره من غير مراجعة، و«تشييد القواعد - خ» في شرح تجريد العقاد للنصراني الطوسي، و«شرح فصول النسفي - خ» و«مطالع الأنوار في شرح طوالع الأنوار للبيضاوي - ط» و«نظرة العين - خ» مصور في معهد المخطوطات، في المنطق، مع «شرحه - خ» - ناضرة العين - لأحمد بن عمر المالكي (٧٩٥)، و«البيان - خ» في شرح مختصر ابن الحاجب، أصول، و«بيان معاني البديع - خ» شرح البديع لابن الساعاتي في أصول الفقه، و«شرح مطالع الأنوار» للأرموي في المنطق، و«شرح كافية ابن الحاجب - خ» و«شرح منهاج البيضاوي».

ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/٣٢٧ وبيغية الوعاة ٣٨٨ وفهرست الكتبخانة ١/١٤٢، و١/٢ و٥٤ و٥٣٩ و٢٢٩ و٢٧٢ والبدر الطالع ٢٩٨ وشذرات الذهب ٦/١٦٥، و 450 وطبقات الشافعية ٢٤٧ والطبقات الوسطى - خ. و 37 و Brock.S.2:131 وفوائد البهية ١٩٨ والصادقة، الرابع من الريتونة ٨ وفي مفتاح السعادة ٢/٤٩ وفاته سنة ٧٤٧ تصحيف تسع وأربعين. وكشف الظنون ١٩٢١ =

[جنكيز خان]

وأما أصل جنكيز خان جدّ هؤلاء الملوك في النسب، فنحن نذكر من متنه نسبهم إلى أن نأتي إلى جنكيز خان منبعهم ومشروع الياسة^(١) لهم، ثم نفرّع نسب كل ملك من هؤلاء الأربعه فنقول وبالله التوفيق:

قيل: إن جنكيز خان ينتهي نسبه إلى امرأة تسمى آلان قوا. كانت متزوجة بزوج أولدها ولدين اسم أحدهما: بكتوت، والآخر: بلكتوت. وأبناء هذين الولدين يسميان عند المغل^(٢) الدرلنكية.

ثم مات زوجها وبقيت مرملة بغير زوج، فحملت فأنكر عليها الحمل، وحملت إلى من له الحكم بينهم لينظر في أمرها فسألها ممّن حملت؟ فقالت: ما حملت من أحد إلاّ أني كنت قاعدة وفرجي مكشوف فنزل نور دخل في فرجي ثلاث مرات فحملت منه هذا الحمل، وأنا حامل بثلاثة ذكور؛ لأنّ دخول ذلك النور كل مرّة بولد ذكر فأمهلوني حتى أضع، فإن وضعت ثلاثة ذكور، فاعلموا مصدق قولي وإنّ فرأيكم فيّ، فولدت ثلاثة أولاد ذكور في بطنه واحد؛ بوقن فوغاغي، وبوسن سالجي، وبوذنجر. وهؤلاء الثلاثة المسّمون بالنورانيين نسبة بالنور الذي أدعّت أمّهم أنه نزل في فرجها؛ ولهذا يقال عن جنكيز خان إنّه ابن الشمس.

وبوذنجر عليه عمود النسب إلى جنكيز خان، فنقول: إنّ هذا بوذنجر بن الآن قوا أولد بغا، وبغا أولد ذو توم منن، وذو توم منن أولد قيدو، وقيدو أولد باي سنقر، وباي سنقر أولد تومنية خان، وتومنية خان أولد قيل خان، وقيل خان أولد تربان، وتربان أولد بيسوكي بهادر، وبيسوكي بهادر أولد جنكيز خان جدّ هؤلاء الأربعه.

٤١/ ونحن الآن نسرد نسبه منه إلى الآن، فواصل أن نفرّع أنساب هؤلاء الأربعه منه فنقول: جنكيز خان بن بيسوكي بهادر بن تربان بن قبل خان بن تومنية

= وأخبار التراث العربي، العدد ٦٤ ص ٣٦ و«نشرة مكتبة /١» علوم العربية /٢.

(١) الياسة: وهي بالمعنى المثلثة يساري، وتعني الأحكام والقانون، وهي مجموعة من القوانين التي وضعها جنكيز خان ليسير عليها قومه.

«تاريخ جهانكشاي وعطاط الله جويني»، ترجمة د. محمد التونجي، حلب ١٩٨٥، ٦٢/١.

(٢) المغل: هم المغول، شعب لم يكن على عهد جنكيز خان، سوى مصطلح رسمي، وكان مجھولاً لدى بقية الشعوب، وكان حكام الصين يطلقون عليهم التار.

والمعنى: هم المغال، والمتغورو قبائل تركية سكنت قرب نهر اونون «تاريخ التمدن الإسلامي /٣».

خان بن باي سنقر بن قيدو بن ذو توم من بن بغـا بن بودنجر بن الآـن قوا، إلى هذه المرأة متنهـى نسبهم.

وهذه الحكاية في نسب جنكـز خان أكذوبة قبيحة، وأحدوثة غير صحيحة وإن صحت عن المرأة، فلعلـها احتالت على سلامـة نفسها من القـتل، ولعلـها سمعـت قـصـة مريم الزـكـيـة، فتعلـقت بـحـيلـ الشـبـهـةـ حتى أصلـتـ أـقوـاماـ بشـبـيهـ ذلكـ الحقـ وزـورـتـ كـذـباـ علىـ مثلـ ذـكـ الصـدقـ: [من البـسيـطـ]

قد يـبعـدـ الشـيءـ منـ شـيءـ يـشـابـهـ إـنـ السـماءـ نـظـيرـ المـاءـ فيـ الزـرـقـ
وـهـاـ نـحـنـ بـذـكـرـ نـبـذـةـ منـ اـبـتـادـ حـالـ جـنـكـزـخـانـ، وـتـرـقـيـهـ إـلـىـ أـنـ مـلـكـ، وـدـانـتـ
لـهـ مـلـوـكـ تـلـكـ الـدـيـارـ قـبـلـ الـخـوضـ فـيـ سـيـاقـةـ أـنـسـابـ هـؤـلـاءـ الـمـلـوـكـ وـاتـصالـهـمـ بـهـ،
فـنـقـولـ: حـكـىـ الصـاحـبـ عـلـاءـ الدـينـ عـطاـ مـلـكـ الـجـوـيـنيـ^(١): أـنـهـ كـانـ مـلـكـ عـظـيمـ فـيـ
قـبـيلـةـ عـظـيمـةـ يـدـعـىـ أـونـكـ خـانـ^(٢). وـكـانـ مـطـاعـاـ فـيـ قـبـيلـتـهـ، يـُنـقادـ غـلـيـهـ عـظـمـاءـ رـعـيـتـهـ فـرـدـدـ
إـلـيـهـ جـنـكـزـخـانـ فـيـ حـالـ صـبـاهـ وـقـرـبـهـ وـأـدـنـاهـ، وـتـوـسـمـ فـيـ النـجـابـةـ وـالـرـئـاسـةـ، فـزـادـ فـيـ
أـرـتـقـائـهـ عـلـىـ أـقـرـبـائـهـ، وـأـعـلاـهـ عـلـىـ مـنـ سـوـاهـ حـتـىـ نـشـأـ بـيـنـهـمـ الـاتـحـادـ، وـانتـسـجـ الـوـدـادـ
فـشـبـّـتـ نـارـ الـحـسـدـ فـيـ أـقـرـبـاءـ ذـلـكـ الـسـلـطـانـ، وـنـفـخـ فـيـ روـعـهـمـ فـحـيلـ الشـيـطـانـ أـنـ
وـضـعـواـ لـجـنـكـزـخـانـ الـمـرـاصـدـ وـالـمـصـاـيدـ، وـدـفـنـواـ لـهـ الـأـوـابـدـ وـالـمـكـائـدـ، وـأـعـمـلـواـ الـفـكـرـ
فـيـ قـطـعـ حـبـلـ اـتـصـالـهـ عـنـهـ، وـوـضـعـ مـوـجـبـاتـ قـتـلـهـ وـانـفـصـالـهـ مـنـهـ؛ فـلـمـاـ بـالـغـواـ فـيـ
الـوـقـيـعـةـ، وـأـسـرـفـواـ فـيـ الـغـيـبـةـ وـالـشـيـعـةـ، تـغـيـرـ أـونـكـ خـانـ عـلـىـ جـنـكـزـخـانـ تـغـيـرـاـ لـمـ
يـظـهـرـهـ، وـأـسـرـ كـدـراـ لـمـ يـنـفـرـهـ، وـجـمـعـ فـكـراـ فـيـ ذـنـبـ يـأـخـذـهـ بـهـ أـوـ يـتـحلـهـ أـوـ جـرمـ يـتـقولـهـ،
وـاستـشـارـ فـيـ أـصـحـابـهـ، وـجـعـلـ التـوـقـعـ لـذـلـكـ دـأـبـهـ؛ فـاتـقـ أـنـ سـخـطـ أـونـكـ خـانـ عـلـىـ
صـبـيـنـ / ٤٢ـ منـ مـمـالـيـكـهـ، فـخـافـهـ وـالـتـجـنـاـ إـلـىـ حـوـزـةـ جـنـكـزـخـانـ وـاسـتـجـارـاـ بـهـ؛ فـأـحـسـنـ
إـلـيـهـمـ وـحـنـاـ عـلـيـهـمـ وـوـعـدـهـمـ بـإـزاـلـةـ كـدـرـ الـسـلـطـانـ وـتـلـافـيـ مـاـ كـانـ، فـأـنـطـقـهـمـ لـسـانـ
إـلـيـهـمـ بـهـذـهـ: [منـ الطـوـيـلـ]

إـذـاـ التـزـمـ الـمـقـدـارـ حـبـلـ سـعـادـةـ أـتـاكـ جـمـيـعـ الـكـائـنـاتـ مـسـاعـداـ

(١) عـلـاءـ الدـينـ عـطاـ مـلـكـ بـنـ بـهـاءـ الدـينـ الـجـوـيـنيـ: مـنـ كـتـابـ التـارـيـخـ الـإـيـرانـيـيـنـ الـمـعـرـوـفـينـ فـيـ الـعـصـرـ الـمـغـولـيـ، كـانـ أـبـوهـ وـأـخـوهـ أـصـحـابـ دـيـوانـ جـوـيـنـ، عـمـلـ فـيـ بـغـادـ أـربـعـةـ أـعـوـامـ، وـلـكـنـهـ قـبـضـ عـلـيـهـ بـوـشـاـبـهـ وـزـيـرـ بـاقـاخـانـ وـتـوـفـيـ سـنـةـ ٧٨١ـهــ. أـهـمـ مـؤـلـفـهـ: جـهـانـگـشاـيـ.
انـظـرـ: عـطاـ مـلـكـ جـوـيـنيـ وـكـاتـبـهـ جـهـانـگـشاـيـ: دـ. مـحـمـدـ السـبـاعـيـ رسـالـةـ دـكـتوـرـاهـ طــ
إـرـانـ صـ١٦٧ـ.

(٢) أـونـكـ خـانـ: رـئـيـسـ قـبـائلـ الـكـرـاـيـتـ وـالـسـاتـيـزـ، وـكـانـ ذـاـ قـوـةـ وـمـكـانـةـ تـفـوقـ غـيـرـهـاـ.

وإذا جرى القضاء على صعب سهله وإذا أرادك الله لأمر هياك له وقالا له: إنَّ السلطان أونك خان يتوقع لك الواقعة، ويترصد لك الإحن الشنيعة؛ فخذ حذرك، وأصلح أمرك، فرحل من ليلته بأتباعه وجماعته، ودهمه أعداؤه سحراً فلم يجدوا له أثراً ولا عرروا له خبراً، ونفر العسكر ميلوه فلم يلقوه، وقيل: بل لحقوه فعطف بجماعته إليهم وقاتلهم حتى أتى عليهم وغم مالهم؛ فلما جمع أتباعه وأقاربه وأعزَّ مقامه وحمى جانبه، ودبَّ رجاله وآلها، وبذل لهم قوته وماله، وخصَّ بإحسانه ذينك الصغيرين دون الناس، وأنزلهما متزلة العينين من الرأس وسمى كُلَاً منها ترخاناً^(١)، وكتب له أماناً وفرماناً^(٢) بفراغه من جميع المؤمن والكلف وتفرغه لانتهاز الفرصة، واقتطاف الطرف، وأن ينهب في الفتوح قبل كل ناهب، وليس له قبل كل سالب ويدخل على يده عامة البيوت فلا يمنع، ويحكم فلا يدفع، وأن لا يؤخذ بذنب كثيرة؛ ولو تكررت ذنبه واستمرت عيوبه، وأجرى ذلك لجميلتها وأحادتها، وأن يستمر ذلك إلى سبعة أبطن من أولادها.

ومن نسلهما الآن قوم لا عادية عليهم ولا لوم، محترمون عند الملوك، جارون على ذلك النهج المسلوك.

ثم شرع في الإحسان إلى جميع من رحل عن أونك خان وباءعده واتصل به وعاضده، وأفشنَّ فيهم الإنعام، وبثَّ فيهم الإعزاز والإكرام حتى تتالوا إليه أفواجاً، وتواردوا إليه فرادى وأزواجاً.

وأولادهم الآن أقرب الأخصين وأخص الأقربين، فقوي بذلك أمره وإمارته واشتدت شوكته ومهابته، وراسل القوَّاد فانقادت، واستلان القلوب / ٤٣ / فلانت أو كادت فحيئنْ جرد عسكراً كثيناً وتبعاً ولفيفاً لمحاربة السلطان أونك خان وأمده باخر يتلوه فنازلت العساكر الجنکزخانية، فقتل في أقرب أمد، وملك جنکز خان ما كان له من علة وعدد.

ثم بعث جنکز خان إلى القبائل المتباudeة، والبطون المتباينة بما عرفهم به من حاله وعدله وبأسه وفضله وعلو شأنهم إن انضموا إليه، وتأيد سلطانهم إن عكفوا عليه، فتوالوا إليه كالسيل ورمل الفلا ورجل الجراد.

(١) ترخان: أو طرخان، طرخون، لقب يحمله أمراء وملوك تركستان. «جامع التواریخ ٢/١٧ هـ».

(٢) فرمان: كلمة فارسية تعنى أمر وحكم سلطاني، وتجمع: فرامين وفرمانات. «معجم الألفاظ العامية، لانیس فریحة» ١٢٩.

وكان من أعظم القبائل المجيبة لدعوته الداخلة في إياته القانعة برياسته قبيلتان بالغتان في العدد، نهايتان في الاستعداد والعدد؛ إحداهما تدعى أويرات^(١)، والأخرى فنورات^(٢).

وأما القبيلة التي هي خدمه، ومنها عظمه تسمى قيات؛ وهي أكثر القبائل شهرة، وأتمّها كثرة.

وكان اسمه القديم «تموجين»؛ فلما توطد أمره وعلا قدره سمي جنكرخان^(٣).

نبذة من عقيدته وياسنته وقادته وعدّته:

قال الصاحب علاء الدين عطا ملك الجوياني: الظاهر من عموم مذاهبهم الإدانة بوحدانية الله تعالى، وأنه خلق السماوات والأرض، وأنه يحيي ويميت، ويغنى ويفقر، ويعطي ويمعن، وأنه على كل شيء قادر.

قال: وفي جهانكشاي^(٤): أن من أولاده من كان بملة عيسى، ومن دان بملة موسى، ومنهم من اطرح الجميع، وكل من اعتقاده من بنية مذهبًا لم يكن له تعصب على غيره، ومنهم من تقرب بالأصنام.

وكان جنكرخان إذا تهدّد أحداً من الملوك أو كاتبه بالتحذير من صولته، قال له: إن أطعت كان لك كما وکذا من الإعزاز والتقرّيب، وإن عصيت فالله أعلم بما يكون حالك معنا.

قال: ويلمح من هذا القول نوع من التوكل والتفويض.

وأمام الياسة وأحوالها كثيرة؛ فمنها ما يوافق الشريعة المحمدية، قال: ولعله أن هذا الرجل لم يقف على سيرة ملوك، ولا طالع كتاباً؛ وجميع ما نسب إليه من ذلك صادر عن قوة ذهنه /٤٤/ وحسه، واستدرك الأصلح من قبل نفسه؛ فإنه استخرج لكلّ منهم سهماً، وفقد قاعدة مقررة، ولكلّ ذنب عقوبة مقدرة، وعین حدوداً لا إمهال له عندهم ولا مغيرة. وأواعز أن يتعلم ذلك صغار أهله ويسرى امثاله عن عقب

(١) اويرات: إحدى القبائل المغولية. «جهانكشاي ١/٧١».

(٢) فنورات: أيضاً إحدى القبائل المغولية «جهانكشاي ١/٧١».

(٣) في رحلة ابن بطوطة ٢٤٤: «إنه كان يعمل حداداً بأرض الخطأ، وكان له كرم نفس وقوة وبسطة في الجسم، كان يجمع الناس ويطعمهم حتى صار له جماعة، فقدموه على أنفسهم، وغلب على بلده قوي واستفحّ أمره، فغلب على ملك الخطأ وملك الصين والختن وكاشخر والممالق».

(٤) جهانكشاي: من تواریخ العصر المغولي، تأليف علاء الدين عطا ملك الجوياني، ألف سنة ٦٥٨ هـ، وقع في ثلاث مجلدات عن أحوال وقائع المغول حتى سنة ٦٥٥ هـ.

الرجل منهم وكنسله؛ بعد أن أثبتها في كتاب سماه «الياسا الكبيرة»^(١). وأمر أن يوضع في خزانته ويتوارثها أقارب عصبه وذراته، ونسخ ما كان لهم من قديم عوائد مذمومة بتتسكّات محمودة مفهومة؛ فمن ذلك:

أنَّ من زنى سواء إن كان محصنًا أو غير محصن قتل.

ومن لاط قتل.

ومن تعَمَّد الكذب قتل.

ومن سحر قتل.

ومن تجسس على قوم قتل.

ومن دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قتل.

ومن بال في الماء قتل.

ومن أعطى بضاعة وخسر ثم أعطى ثانية وخسر إلى الثالثة قتل.

ومن أطعم أسير قوم أو كسه أو سقاه بغير إذنهم قتل.

ومن وجد هارباً أو أسيراً أو عبداً ولا يرده قتل.

وكانوا يعتمدون في ذبح الحيوان أن تكتف قوائمه ويشق جوفه ويدخل أحدهم

يده إلى قلبه ويمرسه فركاً حتى يموت، أو يخرج قلبه.

ومن ذبح كذبيحة المسلمين ذبح.

ومن وقع جمله أو فرسه وثقله في كرٌ أو فرٌّ ومرٌّ عليه من يتلوه بعده ولم ينزل

لمساعدته قتل.

وقيل: كانت لهم ياسة قديمة: «إنَّ من ارتمس في الماء قتل».

وكان جنکز خان يعظم رؤساء كلّ أمّة وملّة، ويتخذ تعظيمهم وسيلة إلى الله تعالى.

قال: والمشهور من حالهم إسقاط المؤن والكلف عن العلوبيين^(٢) والقراء^(٣) والقراء والفقهاء والأطباء وأرباب العلوم على اختلافهم والزهاد حتى عن المؤذنين، ومغسلّي الموتى. ومن آدابهم المستعملة وقوانينهم أشياء كثيرة منها: أن لا يأكل أحد

(١) كتاب القواعد الكبير «جهانگشاي ٦٢/١»: وهو القانون العرفي للمغول.

(٢) العلوبيون: وهم ذرية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٣) القراء: المتصوفة.

من يد أحد طعاماً حتى يأكل المطعم منه أولاً؛ ولو كان المطعم أميراً والمطعم أسيراً ولا يخصل أحد بالأكل وحده دون أن يطعم جميع من وقع نظره عليه ذلك الطعام، ولا يمتاز أمير بالشبع من الزاد دون أصحابه، بل يقسمون الزاد بالسوية، ولا يرمي أحد بالماكول رمياً وقد قابل /٤٥/ مناولة باليد، ولا يخطو أحد موقد نار ولا طبق زاد، ومن اجتاز بقوم يأكلون فله أن يجلس إليهم ويأكل معهم من غير استئذان، وإن لا يدخل الإنسان يده في الماء بل يأخذ ملء فيه ويغسل يديه ووجهه، ولا يبخل أحد على الرماد، ولا يطأ عتبة الخرقاء^(١).

قال: وسمعت أنهم كانوا لا يرون غسل الثياب البتة ولا يميزون بين ما يميّزه المسلمين في شيء من ظاهر ونجمس البتة.

قال: ومن قوانينهم التي ألفت منهم: أن لا يتعصبو لمذهب من المذاهب على مذهب، وأن لا يفخمو الألفاظ والألقاب في كلام، بل يتلفظ باسم السلطان كما يسمى غيره، فيقال قد تقدم قاآن أو خان يكذا وكذا، وأن لا يتعارضوا لمال ميت أصلاً ولو ترك ملء الأرض ولا يدخلونه خزانة السلطان.

قال: وأما ترتيب العساكر والقانون المقرر في ذلك فاعلم أنه لا ينقل في تاريخ قديم ولا حديث أن عسكراً اجتمع لسلطان كثرة كما اجتمع لهم كثرة عدد وعُدد وقمة وصبراً وطاعة لسلطانهم إلا لأجل مشاهرة ولا توقع مال وجاه، بل لمجرد الطاعة حسب.

ثم إذا رجعوا من القتال وكرب الحرب إلى السكون والسلم أخذ السلطان منهم القلان^(٢) والقبجور^(٣) والأولاد^(٤) والبدرقة^(٥) من غير ضجر منهم ولا تأسف منهم؛ بل يؤدونه إليه مختارين، ومتى تجهزوا لقتال عرضوا آلات الحرب وغيرها على أمرائهم حتى تعتبر أمراؤهم الخيط والإبرة، ويؤاخذونهم على تجويد آلٍ أو تقدير في سلاح.

(١) **الخرقاء:** بيت يسمى عندهم الخرقة، وهي عصى من الخشب يجمع شبه قبة، وتجعل عليها اللبود، ويفتح أعلىه لدخول الضوء والرياح جعل البادهنج ويسد متى احتاج إلى سده «رحلة ابن بطوطة» ٢٠٠.

وورد أنه: خيمة كبيرة، سرادق سلطاني.

(٢) في هامش الأصل، «القلان»: دراهم ترصد برسم الكلق مقررة على البلاد.

وهي ضريبة كانت موجودة قبل القبجور، تجيبي من المسلمين وغير المسلمين. «تركتستان» ٦٥٦.

(٣) **القبجور:** ضريبة تجيبي بنسبة ١٪ من الماشي، وتوزع على الفقراء والمعوزين.

(٤) في هامش الأصل، «الأولاد»: خيل البريد.

(٥) في هامش الأصل: **«البدرقة»:** في معنى البائزة، البائز: لوح البريد.

والبائز: لوح من الذهب أو الفضة أو الخشب أحياناً. «تركتستان» ٦٨٨ - ٧٣٨.

قال: وأغرب من ذلك أنّ نساءهم تنهض في حال بعدهم وسفرهم بجميع ما يتوجه على رجالهم العياب من الكلف والسخر السلطانية.

ومن ذلك: أنَّ كلَّ بنتٍ حسناً تجتمعُ منْ كُلِّ مَكَانٍ وَيَحْمِلُنَّ جَمِيعاً فِي رَأْسِ كُلِّ سَنَةٍ إِلَى السُّلْطَانِ فَيَخْتَارُ مِنْهُنَّ مَا يَصْطَفِيهُ لَهُ وَلَأُولَادِهِ، وَيَرِدُ الباقي.

ومن أحسن الترتيبات وضعهم أمراء الألوف^(١) والمئات^(٢) والعشرات^(٣) فهو أبغض نظام لما يحاولونه، وأسرع إفهام لما يطلبونه.

ومن جملة بأسهم: أنه إذا كان أمير في غاية القوة والفطنة وبينه وبين السلطان كما بين المشرق /٤٦/ والمغارب حتى أذنب ذنبًا يوجب عقوبة بعث إليه، ولو من أحسن أصحابه من يؤذيه بموجب ما يقتضيه ذنبه، ولو كان في ذنبه ما يوجب قتلته ألقى نفسه بين يديه ذليلاً، وأخذه الرسول بموجب جرم حقيراً كان أو جليلاً.

ومنها: أنَّ كلَّ أميرٍ لا يترددُ إلَى سواهِ، ولا يتغيَّرُ عن موضعه؛ فإنَّ فعلَ ذلك عوقبُ أو قتلٍ، لا يترددُ إلَى أحدهمْ أولاده.

ومنها: وضعهم البريد بكلّ مكان طلباً لحفظ الأموال وسرعة إيصال الأخبار ومستجدات الأحوال.

وكان لجنه خان عادة مستمرة؛ وإن كانت إلى الآن سارية في الأولاد وهي وفور الرغبة في الصيد والأمر به والركوب إليه في كل وقت يتفرغ فيه من القتال والمنازل، وربما استعملت حركته على مسيرة ثلاثة أشهر، ويحافظ العسكر على ما تحويه تلك الحلقه، ويضايقون ما بين الخراكي^(٤) والبيوت بالحجال. ولم يكن غرض السلطان من ذلك مجرد الصيد خاصة؛ وإنما مراده تمرين عساكره، واستمرار وامره، وإدمانهم على استعمال السلاح وسفك الدماء، وتغلب القوة الغضبية والمقاهرة على الأرواح.

ومن عاداتهم: أَنَّه متى خرج من قبل واحِدٍ منهم شيءٌ من الصيود أَدْبَ بحسبِ ما يتقدّم في أمره؛ بل ربّما قتلوه.

ويسوقون تلك الصيد كسوق الغنم، وتتواتر الرسل إلى السلطان بصورة حالها

(١) أمير الألف: أي تحت إمرته ألف جندي، وهو عادة لا يقل عن (خان).

(٢) أمير المائة: أي تحت إمرته مائة جندي، وهو عادة لا يقال عن (بيك).

(٣) أمير العشرة: أي تحت إمرته عشرة جنود، ويسمى (أونباشي) وأون بمعنى عشرة، وباشي بمعنى رئيس.

(٤) الخراكي: جمع خركاه، وهي الخيمة الكبيرة.

وكثرتها وقلّتها فإذا ضاقت الحلقة وترامت الصيود مشحونة بغرائب الوحش والحيوانات السهلية والجلبية دخل هو وأولاده وخواصه وتتوقوها في القتل والقنص والتفرّج؛ وربما استشرف القان من مكانٍ عالٍ لينظر فروسية أولاده، وقوّة مراسمهم؛ وإذا تخلّف من تلك الصيود بعد ذلك شيء اجتمع ولدانهم وصبيانهم وشفعوا إلى السلطان في إطلاق ذلك المتخلّف.

وحكى في بعض صيودهم واجتماع ما اجتمع في بعض تلك الحلق لهم من الوحش وضاقت عليهم المذاهب، وعاينت التلف فاستقبلت السلطان بوجهها وجاء إليه بالصياغ العالي على هيئة المستعطف /٤٧/ المستجير فتقدّم بفك الحلة وإطلاق تلك الوحش.

قال الصاحب علاء الدين الجوني: كان له عدة أولاد ذكور^(١) وإناث من الخواتين^(٢) والسراري^(٣). وكان أعظم نسائه أو يولجين بيكي. وفي رسم المغول تعظيم الولد بنسبة والدته فكان له من هذه المذكورة أربعة أولاد معدين للأمور الخطيرة وهم كتخت ملكه بمنزلة أربعة قوائم سدته.

وكان أكبرهم توشى والد قردوا^(٤)، وباته^(٥)، وبركة^(٦)، وتركجار^(٧)؛ فوشى توشى على الصيد والقنص؛ لأنّه أمرؤ محبوب إليهم موصوف عندهم. ورتب جفتاي - الذي هو أصغر منه - لتنفيذ الياسات والأرغوا^(٨) والمقابلات وأمثال ذلك.

ورتب أوكتاي^(٩) لما يتعلّق بالعقل والرأي والتدبير والولاية والعزل، واختيار الرجال، و اختيار الأعمال، وعرض الجبوش وتجهيزها.

وحكى: أنه قال لأولاده في جملة وصاياه إليهم وحثّه لهم على الموافقة وإجراء

(١) وهم: جوجي وجفتاي واوگداي وتولوي «تركمستان ٧١٥».

(٢) الخواتين: جمع خاتون، وهي السيدة عريقة النسب أو زوجة الملك.

(٣) السراري: جمع سرية، وهي الجارية.

(٤) لعله: جوجي بن جنکزخان.

(٥) باته: أي باتو بن جوجي.

(٦) بركة: هو بركا وبركاي وبركاء «جامع التواریخ ١٤/١، ١٤/٢، ٢٣٢».

(٧) تركجار: لعله تولوي، الابن الرابع لجنکزخان لوروده حسب ترتيب أولاده.

(٨) الأرغوا: أو يرغو أو يارغو: كلمة مغولية بمعنى العدل والقانون، ويارغوجي بمعنى القاضي «جامع التواریخ ٢٢٧/١، ترکستان ٥٥٩-٦٨٣».

(٩) أوكتاي: هو أو گتاي قآن بن جنگرخان «جامع التواریخ ٢/٢١».

الأمور على انقياد الصغير للكبير، وضرب لهم أمثالاً منها: أنه دفع إليهم عدّة أسهم مفردة، وأمر بكسر كل واحد منها فكسر في أسرع وقت، ثم جمع من تلك الأسهم عدّة كبيرة وأمر كل واحدٍ منهم بكسرها مجتمعة فعجزوا، قال: كذا حالكم في الوهن متفرقين.

ولما عرضت لهم الممالك وذلت لهم المسالك عيّن لكل منهم أقليماً بمفرده ومنزلأً يختصّ بحشده وعدده؛ فعيّن لأخيه أوكتين نويان^(١) حدود بلاد الخطأ^(٢)، وعيّن لولده الكبير توشى من حدود قيالق غلى أقصى شفشين وبخاري^(٣)؛ وعيّن لجغتاي من حدود الإيغور^(٤) إلى سمرقند وبخاري. وجعل لنفسه مقاماً في قياس مجاوراً ومالقاً، وجعل ولده أوكتايولي عهده.

وكان موضعه في عهد حدود اعل وقرا باق؛ فلما جلس على تخت السلطنة انتقل إلى الموضع الأصلي بين الخطأ وبلاط الإيغور، وأعطى ذلك الموضع لولده كبوك. وكان ولده تولي متصلةً به، وبالجملة كان موضعه نقطة دائرة ملكه وبنوه حوله كمحيط الدائرة. وكان أولاده وأحفاده أزيد من عشرة آلاف؛ هذا ما ذكره الصاحب علاء الدين.

وقد سألت شيخنا فريد الدهر شمس الدين /٤٨/ الأصفهاني عنبني جنکز خان، فقال: إنَّ جنکز خان أولد أربعة أولاد هم: جوخي، وأجدى، وطولي، وأوكتاي؛ فقتل جوخي في حياة أبيه. وكان أكبر أولاده وأعزّهم، وخلف أولاداً.

قال ابن الحكيم: هم؛ باتوغا، وأورده، وبركة، وييوك، وجمني.

قال شيخنا شمس الدين: المشهور باتو وبركة ابن جوخي؛ فلما قتل أبوهم كان جنکز خان أبوه قد عيّن له دست القبجاق وما معه وأضاف إليه آراك وتبريز وهمدان

(١) يقصد به تولوي، حيث كان يحمل لقب نوين الأكبر، وكان أصغر إخوته، واللقب باللغولية يكه نوين «جامع التواریخ ق ١٢٧ / ٨ ط بوزن».

(٢) الخطأ: قبائل سكنت شمال شرق إيران في عهد السلاجقة وأقاموا دولة سنة ٥١٨هـ، كانت بين ممالك المغول وخوارزم، قضى عليهم سنة ٦٠٩هـ. «جامع التواریخ ١١٥ / ١».

(٣) البلغار: من بلغار القولجا، وهي مدينة الصقالبة، شديدة البرد لا يكاد البرد يقلع عن أرضهم صيفاً ولا شتاءً. «انظر: مراصد الإطلاع ٢١٩ / ١».

(٤) الإيغور: قوم من الأتراك يدينون بال المسيحية واليهودية والمانوية، وهم أكثر أقوام الأتراك والمغول تمدنًا، كانوا يقطنون شمال شرق ترکستان، وشمال نهر قاريم، وكان لهم خط خاص بهم وهو الخط الإيغوري. «جامع التواریخ ١٩٥ / ١».

ومُراغة، وأوصى جنكرخان بأن يكون تخته لولده الصغير أوكتاي، وأن تكون مملكة ما وراء النهر وما معه لولده الآخر جدai^(١)، ولم يجعل لطولي شيئاً؛ فاستقلَّ أوكتاي بتخت أبيه جنكرخان، واستقلَّ بدست القبجاق وما معه ولم يتمكن جدai ممّا له من مملكة ما وراء النهر.

ثم مات أوكتاي وأرث التخت وملك بعده ولده كيوك. وكان رجلاً شريراً جباراً مسلطاً، قوي النفس، فقوي علىبني أبيه، وحكم عليهم حكماً قاهراً^(٢)، وهو معانده باتو وزرع يده. وبعث أميراً اسمه الجكداي إلى أران وبقية المضافات معها إلى باتو وأمره بإمساك نواب باتو بها وحملهم إليه، وسمع نواب باتو بذلك فكتباً إلى باتوا بالاستذان على ما يكون اعتمادهم عليهم، فوصل الجكداي المجهز من جهة كيوك.

وفي تلك الساعة بعينها عاد جواب باتوا على نوابه بمسك الجكداي وتقييده وحمله إليه، فقامت شيبة أولئك النواب المقيدين، ففكوا قيودهم، وأمسكوا الجكداي وقيدوه وحملوه إلى حضرة باتوا فسلقه بالماء؛ فلما بلغ هذا كيوك مرسله عزّ عليه وعظم لديه، وجمع ستمائة ألف فارس، وسار كل واحدٍ منهم لملتقى الآخر وقتاله؛ فلما تقاربا حتى كان بينهما نحو عشرة أيام مات كيوك فاضطراب من كان معه. ثم اتفق رأي الخواتين والأمراء على مكاتبة باتو فكتباً إليه بإعلامه بممات كيوك، وإنه هو أحق بتخته فيفعل ما يراه.

فقال باتو: لا حاجة لي به؛ وإنما أبعث إليه بعض أولاد تولي. وعيّن له منكوقان بن تولي وجهز إليه هو وأخوه قبيلة قان /٤٩/ وهو لا كو، وجهز معهم باتو أخاه برقة في مائة ألف فارس من بهادرية^(٣) العسكري ليجلسه على التخت، ثم يعود فأخذه معه وتوجه به، ثم أجلسه وعاد؛ فلما مرّ ببخاري اجتمع بالشيخ سيف الدين الباخري^(٤) من أصحاب شيخ الطريقة نجم الدين كبرى^(٥)، وحسن موقع كلام

(١) جدai: وهو أوكتاي.

(٢) كان كيرك سفاحاً، عقد حلفاً بين المغول والعالم المسيحي ضد المسلمين. «تركتان ٦٩٤».

(٣) البهادرية: جمع بهادر، وهي لفظة فارسية تركية بمعنى شجاع، بطل، وكان هؤلاء يشكلون فرقة للحرب الخاص للقآن «تركتان ٥٤٩».

(٤) الشيخ سيف الدين الباخري: من شعراء القرن السادس الهجري، ومن مشايخ المتصوفة، كان مريداً للشيخ نجم الدين كبرى، عاصر العطار، أشعاره بالفارسية، مات سنة ٦٢٩هـ. «فرهنك أدبيات فارسي ٨٣».

(٥) نجم الدين كبرى: أبو الجناب، أحمد بن عمر، من رجال التصوف، مؤسس السلسلة الكبروية، قتل =

الباخرزي عنده وأسلم على يده، وتأكدت الصحبة بيته وبين الباخرزي فأشار عليه الباخرزي بمكاتبة المستعصم الخليفة^(١) ومتابعته ومهاداته، فكاتب الخليفة وبعث إليه هدية وترددت بينهما الرسل والمكاتبات والتحف والمهاداة.

ثم إنَّ منكوقان لما استقلَ بالخت ملك أولاد جغطاي مملكة ما وراء النهر تقيداً لما كان جنكيز خان أوصى به لأبيهم جغطاي ومات دونه.

وعلت كلمة منكوقان وجاءت إليه رسل أهل قزوين وبلاد الجبال يشكون من سوء مجاورة الملاحدة لهم وضررهم بهم، فجهزهم أخا هولاكو في حيوش جمة لقتال الملاحدة وأخذ قلاعهم وقطع دابر دولتهم؛ فحسن هولاكو لأخيه منكوقان أخذ ممالك الخليفة، وخرج على هذا؛ فبلغ هذا بركة بن جوخي فصعب عليه لما تأكد بيته وبين الخليفة من الصحبة، وقال لأخيه باتو: إننا نحن أقمنا منكوقان وما جزاءنا منه أنه يكافتنا بالسوء في أصحابنا، وينقض عهدهنا، ويختبر ذمتنا ويتعرض إلى ممالك الخليفة وهو صاحبي وبيني وبينه مكاتبات وعقود مودة، وفي هذا ما فيه من القبح.

وبح على أخيه باتو فعل هولاكو، فبعث باتو إلى هولاكو بأنه لا يتعدى مكانه فجاءته رسالة باتو؛ وهو وراء نهرو جيرون ما عَبَرَه، فأقام في موضعه بمن معه سنتين كاملتين حتى مات باتو، وتسلطَ أخوه برقة بعده فحيثُ قويت أطماع هولاكو وبعث إلى أخيه منكوقان يستأذنه في إمضاء ما كان أمره به من قصد ممالك الخليفة وانتزاعها منه وحسن له ذلك فأجابه إليه.

ودخل هولاكو إلى البلاد وأوقع باللاحدة^(٢) واتَّهم سبعمائة نفرٍ من أكابر همدان وتلك البلاد المضافة إلى باتو، ثم إلى برقة / ٥٠ / بالميل إلى برقة، والمباطنة على هولاكو ومنكوقان، وقتلهم عن آخرهم وامتدَّ في البلاد وقصد دست القباجاق وعدا إليه، وأقام ثلاثة أيام لا يجد مقاتلاً؛ فلما كان في اليوم الرابع دهمتهم الخيل

= سنة ٦١٠ هـ، له: فواتح الجمال، ورسالة الخائف الهائم، وله أشعار كثيرة، قتل في هجوم المغول.
«فرهنك أدبيات ٥٠٢».

(١) المستعصم: آخر خلفاء العباسيين، تولى الخلافة العباسية سنة ٦٤٠ هـ وقتل سنة ٦٥٦ هـ على يد المغول، كان ضعيف الرأي لم يكن له من الحكم شيئاً، سيطر عليه نساؤه ووزراؤه. «البداية والنهاية»، ٢٠٠ / ١٣.

(٢) يقصد بهم الإسماعيلية، وهم عدة فرق ويخص منهم الصباحية أتباع حسن الصباح المسمى بشيخ الجبل، وأخر حكامهم خورشاه المعترض سنة ٦٥٥ هـ، سكنوا قلاع أصفهان وقوهستان، وأشهر قلاعهم آل موت. «انظر: فتوحات هولاكو خان ٧ - ١٠» وقد أوردنا تفاصيلاً عنهم في هامش سابق.

وداسهم بركة بجنوده وعساكره، ودارت الدائرة على هولاكو حتى هم بالهزيمة فترك أمير كبير كان معه اسمه سنتاي وهو المنسوب إليه عقبة سنتاي بالعراق، وأمسك برأس فرس هولاكو، وقال له: أين تروح؟

ثم استمر القتل في أصحابه، فتأخر حتى صار نهر الكرّ بينه وبين بركة، وجاء بركة حتى وثبت على نهر الكرّ، ولم يجد له سبيلاً إلى العبور، ورجع هولاكو وعاد في البلاد. وعاماً في تيار الفساد، وفعل فعلته، وقويت العداوة بينه وبين بركة قان، وخف حادة من الجيش لمقاومة أعدائه.

ثم لما جرى على بغداد ما أجري العيون دماً، وأسائل النفوس أسفأً استأثر هولاكو بجلال الدين ابن الدوادار^(١) الخليفة المستعصمي، واتخذه هولاكو موضع رأيه، ومكان سرّه؛ فلما كسر هولاكو وتضعضعت روان جيشه - كما ذكرنا - شكا إلى جلال الدين بن الدوادار ما أصابه من الكسرة وفناء جنوده، فقال له جلال الدين: عندي عسكر جيد خير من هؤلاء، قال: من هم؟ قال: عسكر الخليفة، فإن ابن العلقمي^(٢) قطعهم وإلا فهم أحيا موجودون وأنا أجيبهم إليك فأعجب هولاكو

(١) جلال الدين بن الدوادار: أحد أركان الحكم في عهد الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين، وكان ينوي خلع الخليفة وإجلاد آخر. «تاريخ الخلفاء للسيوطى» .٤٦٤

(٢) ابن العلقمي: محمد بن أحمد (أو محمد بن محمد بن أحمد) بن علي، أبو طالب، مؤيد الدين الأسدي البغدادي المعروف بابن العلقمي: وزير المستعصم العباسي. ولد سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م. اشتغل في صباه بالأدب. وارتقي إلى رتبة الوزارة سنة ٦٤٢هـ، فولى بها أربعة عشر عاماً. ووثق به «المستعصم» فألقى إليه زمام أمره. وكان حازماً خيراً بسياسة الملك، كتاباً فصيحاً لإنشاء. اشتملت خزانته على عشرة آلاف مجلد، وصنف له الصغاني «الباب» وابن أبي الحميد «شرح نهج البلاغة» ونفي عنه بعض ثقات المؤرخين خبر المحاجمة على المستعصم حين أغار هولاكو على بغداد سنة ٦٥٦هـ، وولي له الوزارة مدة قصيرة ومات سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، ودفن في مشهد الإمام موسى بن جعفر الكاظم ببغداد، وخلفه في الوزارة ابنه عز الدين «محمد بن محمد بن أحمد» جاء عنه في المسجد المسبوك: «.. كان - ابن العلقمي - عالماً، أديباً، حسن المحاضرة، دمت الأخلاق، كريم الطبع، خير النفس، كارهاً للظلم، خبيراً بتدبیر الملك، لم يباشر قلع بيته ولا استئصال ماله..». وللمحمد الشیخ حسین الساعیدی کتاب بعنوان «مؤید الدین ابن العلقمی» ط. وغيره.

ترجمته في: الحوادث الجامعية، المنسوب لابن الفوطي، ٢٠٨ و ٣٣٦ و ٢١٢ / ١٣ Weir T.H. في دائرة المعارف الإسلامية ١/٢٤١ و شذرات الذهب ٥/٢٧٢ والمسجد المسبوك ٦٤٠ ، والوافي بالوفيات ١/١٨٥ و تاريخ الخميس ٢/٣٧٧ و مرآة الجنان ٤/١٤٧ و ابن الوردي ٢/٢٠١ والنجم الزاهر ٧/٢٠ وفوات الوفيات ٢/١٥٢ و ابن خلدون ٥/٥٣٧ والسلوك للمقرizi ١/٣٢٠ و ٤٠٠ وأخبار الدول للقرمانی ١/١٨٠ - ١٨٢ ، الأعلام ٥/٣٢١

كلامه، ووقع منه موقعًا حسناً، وكتب له يراليع^(١) مضمونها: «إننا قد جهزنا جلال الدين بن الدوادار في شغل مهم لنا ورسمنا له بما يفعل، ورسومنا أن يمثل جميع الخوانين والأمراء والنواب والقراولات وكافة الناس أمر جلال الدين المذكور، وأنه مهما فعل يقتل من يريد ويخلّي من يريده!، وأن لا يعارض في أمر من الأمور، ولا يتعرض عليه بسبب من الأسباب، ومن هذا ومثله فتوجّه جلال الدين وحظ يده في كل من بقي يجده من أمراء المغول وأكابرهم والمقربين عند هولاكو، وفعل فيهم ما أراد وفتى فيهم أنواع الفتوك حتى وصل إلى بغداد واستعد فيها /٥١/ لما يريد أن يعمله، وأخذ منها ما أراد ومن أراد؟! ودخل البرية هارباً من هولاكو على عزم الوصول إلى مملكة مصر فأدركه أجله قبل الوصول إليها.

وبلغ هولاكو ما فعله جلال الدين في المغل من الفتوك والقتل والتنكيل، ثم ما أخذه من بعده وخرج به هارباً منه، فانفطرت كبدة ومات غمماً^(٢).

قال شيخنا شمس الدين الأصفهاني: ومات هولاكو ولم يملك ملكاً مستقلأً، وإنما كان نائباً عن أخيه منكوقان ولا ضربت باسمه صكّة درهم ولا دينار؛ وإنما كانت تضرب باسم أخيه منكوقان.

ثم كان هكذا أبغا^(٣)، ومن بعده إلى أن استقلَّ أرغون بن أبغا^(٤) بالملك وأضاف اسمه في السكّة إلى اسم صاحب التخت أمير لا يزال مقيم في مملكة إيران مع هولاكو، وبنيه له عندهم حرمة كبيرة، ومكانة محفوظة حتى ملك محمود غازان بن أبغا^(٥) فكتب اسمه بمفرده على السكّة وأسقط اسم القان - صاحب التخت - وأهان أمر أميره حتى لم يبق له وضع ولا حرمة، وامتهن ذلك الجانب، واستقلَّ بالملك والسلطنة في بلاده.

(١) يراليع: مفردتها يرليغ، وهي كلمة مغولية بمعنى حكم وأمر، تعادل الكلمة فرمان الفارسية. «صبح الأعشى ٤٢٣/٤».

(٢) مات هولاكو سنة ٦٦٣هـ، ودفن في جبل شاهو قبال دهخوارقان.

(٣) أبغا بن هولاكو: هو آباقا، حكم بعد والده ثانية عشر عاماً، ومات سنة ٦٨٠هـ. «جامع التواریخ مج ٢/ح ٨٦-٣».

(٤) أرغون بن أبغا: هو أرغون بن آباقا، حكم بعد أبيه (٦٨٣-٦٩٠هـ). «جامع التواریخ مج ٢/ح ١٢٣-١٦٧».

(٥) محمود غازان بن أبغا: هو محمود قازان بن آباقا، صاحب العراقين وخراسان وفارس وأذربيجان والروم، أسلم وحسن إسلامه سنة ٦٩٤، وفشا الإسلام في التتار، طرق الشام وغلب عليه، مات قرب همدان سنة ٧٠٣هـ. «فوات الوفيات ٤/٩٧، جامع التواریخ ٢/١٤».

قال: أنا ما أخذت البلاد إلا بالسيف وقام الأمر على هذا مدّة محمود غازان ومن بعده.

قال الشيخ: ولهذا ينتقص ملوك بنى جنكيزخان بيت هولاكو، يقولون: إنهم ما نقلوا الملك عن جنكيزخان ولا عن وراث جنكيزخان؛ وإنما أخذوه باليد والعدوان، ومطولة الأيام.

وسأذكر في ترجمة مملكة إيران شبهة أخرى في دعوى ملوك دست القبجاق إنَّ مراغة وتوريز لهم على ما كان يبلغنا من أخبارهم في كل وقت، ثم ما حدث به الفاضل نظام الدين أبي الفضائل يحيى بن الحكيم.

وسألت ابن الحكيم والشريف محمد بن حيدرة الشيرازي: عمن يعلم أنه بقي من أولاد هولاكو؟ فقال كل منهما: إنَّه لم يبق أحد محقق النسب إلا ما قيل عن محمد المنصور إلى عبرجي على كثرة اختلاف فيه.

ثم جاءت الأخبار وصحت بعدم هذا محمد.

وقال لي / ٥٢ / نظام الدين بن الحكيم: إنَّ أهل هذا البيت تفانوا بعضهم على يد بعض لخوف القائم منهم على ملكه حتى إنَّ كثيراً من أبناء ملوكهم كانوا يتخفون من الملك القائم، حتى إنَّ بعضهم كان يخلد إلى الحرف والمهانات لتسقط همة فيترك ويجعل هذا سبيلاً للخلاص وطلبًا للسلامة حتى إنَّ بعضهم كان قد عمل نساجة، وبعضهم عمل في الأدم، وبعضهم باع الشعير علafaً.

ومن هذا قال ويقال في أنساب كل منتبِّب منهم لكثرة التخليط من الأمهات ومخالط آبائهم للعوام حتى خفت أنسابهم فجهلت أحوالهم.

وأخبرني الأمير الكبير المقدم نسيب السلطنة طايريغا: أنه أول من استقلَّ من هذا البيت لسلطان جدهم جنكيزخان^(١) - والتلفظ الصحيح جنكص خان^(٢) بالصاد -

(١) حكم بعد محمود غازان بن أرغون:

أولجايتور خداينده رغون (٧٠٣-٧١٦هـ).

أبو سعيد بهادر بن أولجايتور (٧١٦-٧٣٦هـ).

آياقا خان بن أرتتو.

موسى خان بن علي (٧٣٩-٧٣٦هـ).

محمد خان بن منگو تيمور.

ساتي بييك بنت أولجايتور (٧٣٩هـ).

شاهجان تيمور بن ألا فرنگ (٧٤٠-٧٣٩هـ).

ثم أوكديه - والتلفظ الصحيح به أوكداي^(١) - ثم كيوك قان^(٢)، ثم مونككا قان^(٣) بن طولي بن جنكيز خان ثم آدي يكا، ثم قبلى قان^(٤)، ثم دمرقان^(٥)، ثم برياي، ثم تزي طيزى، ثم قيسان قان، ثم سندمرقان.

فأما نسبة إلى جنكيز خان فهو: سندمر قان بن طرمالا بن خمكم بن قبلى قان بن طولي بن جنكيز خان. وهذا نسبة.

وأما ملوك الترك - وهي تركستان وما وراء النهر -

وأولهم جغطاي بن جنكيز خان، وقد نبهنا على أنه لم يستقل، ثم ولده مكتوكان، ثم ابنه قراهولاوو، ثم ولده مبارك شاه.

ثم إنَّ القان بلغه إنَّ قيدو بن توشابن كيوك بن أوكداي بن جنكيز خان تسلط بهذه المملكة، فخافه لكون كيوك عمَّه كان وارث التخت عن أبيه أوكداي، وأبوبه أوكداي كان وارثه عن أبيه جنكيز خان فسيير براق^(٦) بن بسنطوب بن منكوقان بن جغطاي لدفع قيدو فدفعه وقعد مكانه.

ثم استقلَّ براق، ثم دوا^(٧) - ولد براق -، ثم أولاد دوا، واحداً بعد واحد وهم: كيجان^(٨)، ثم أسبنغا^(٩)، ثم كيك^(١٠)، ثم الجكداي^(١١)، ثم دواتمس^(١٢)، ثم

= سليمان خان (١٢٤٥-١٢٤٥ هـ).

طغا تيمور خان (١٢٤٦-١٢٥٣ هـ).

أنوشيروان العادل (١٢٥٦-١٢٥٦ هـ). «جامع التواریخ ٢/١٤».

(٢) فترة حكمه (١٢٠٦-١٢٢٧ هـ).

(١) فترة حكمه (١٢٢٩-١٢٤١ هـ).

(٢) فترة حكمه (١٢٤٦-١٢٤٨ هـ).

(٣) فترة حكمه (١٢٥١-١٢٥٨ هـ).

(٤) قوبيلاي قآن (١٢٦٠-١٢٩٤ هـ).

(٥) تيمور قآن (١٢٩٤-١٣٠٧ هـ).

(٦) هو براق بن اسن دوا بن موتكن بن جغطاي، حكم ما بين ١٢٦٦-١٢٧١ م.

(٧) دوا بن براق، حكم ما بين سنة ١٢٨٢-١٣٠٧ م وهو الحاكم العاشر في السلسلة الجغتائية.

(٨) هو قونجوق بن دوا حكم سنة ١٣٠٨ م.

(٩) هو ابن بغا بن دوا، حكم ما بين ١٣١٨-١٣١٨ م.

(١٠) كيك: كان كافراً تولى حكم ما وراء النهر (رحلة ابن بطوطة ٢٤٦) حكم ما بين سنة ١٣١٨-١٣٢٦ م.

(١١) جكداي: هو الجكطي كان كافراً تولى الحكم بعد أخيه بگ «رحلة ابن بطوطة وهو أيلجيادي بن دوا، حكم سنة ١٣٢٦ م».

(١٢) هو دواتمر بن دوا، حكم سنة ١٣٢٦ م.

ترماشيرين^(١) - رحمة الله - ثم رجل ليس هو بابن دوا اسمه توزون^(٢) بن أوكاكان بن [جنكر خان] وتخلى من خلال هؤلاء من توثب على الملك ولم ينتظم لهم حال، / ٥٣ / ولا علت لهم أعلام دولة. وممن أراد الملك وعلت كلمته، ولم يُملّك، ساولو بن أركتمر بن بغاء تمر بن براق.

وبقي الملك بعد موت ترما شيرين - رحمة الله - متخبطاً حتى قام هذا جنغصوا؛ فأمّا نسبه إلى جنكر خان فهو: جنغصو بن دراتمر بن طوا بن برقان بن بسنطو بن منكوقان بن جغطاي بن جنكرخان باسمه جدأي وهو مصحح لما يقول، عارف به. وأمّا ملوك دشت القبجاق فأول من ملك منهم باتو بن جوجي بن جنكرخان، ثم أخيه بركة^(٣).

ثم وجميع ملوكبني جنكرخان يغلب عليهم الكرم، وتخويل من قصدهم لا يرضي أحد منهم بالقليل. فأمّا القان الكبير منهم - صاحب الخطأ - فتلك شيمته لا تسمح إلا بالذهب ليس هذا من واحدٍ بعينه، بل كل من تسنم منهم ذرورة ذلك التخت كانت هذه سجاياه.

أما ما يحكى في القديم منهم عن منكوقان بن طولي بن جنكرخان، فيخشى حاكيه أن ينسب إلى الخرافه في حديثه والمجازفة في قوله.

حكي الشيخ الفاضل شمس الدين أبو العباس أحمد بن أبي المحاسن الطبيبي، قال: حدثني عز الدين أبو البقاء الأردويلي، قال: سمعت بكرم القان منكوتبر فقصدت حضرته متفرجاً بتلك البلاد ومتوصلاً إليه، ولازمت بابه مدةً وما لي من يوصلني إليه ولا لي أحد من أرباب دولته؛ فيبينا أنا ذات يوم هناك من جملة الناس طلب التخصيص فحملت إلى رجلٍ سري بباب منكوتبرقان^(٤)، فأمر الترجمان ذلك الرجل فسألني عن اسمي وبليدي وحالتي ومقدمي، فشرحت له أمري، فقال: أشرف

(١) ترما شيرين: سلطان ما وراء النهر هو طرمشيرين، عظيم المقدار، كثير الجيوش والعساكر، ضخم المملكة شديد القوة، عادل الحكم، بلاده متوسطة بين أربعة ملوك «رحلة ابن بطوطة ٢٤٦ هو ابن دوا حكم ١٣٢٦ - ١٣٣٤ م».

(٢) هو بوزن بن دوا تيمور، حكم سنة ١٣٣٤ م.

(٣) بركه بن جوجي بن برکای جوجي بن جنكرخان، حكم ما بين ١٢٥٧ - ١٢٦٦ م، «جامع التواریخ ٢ / ٣٣٢».

(٤) منكوتبرقان: هو موتوكو تيمور بن كوقوخان بن باتوني جوجي، حكم ما بين سنة ١٢٦٧ - ١٢٨٠ م «شجرة النسب، تركستان ٧١٩».

القان فرأك فاستغريك فأمر بالسؤال عنك ونحن نعلمك، ثم ذهب الرجل هنيهة، ثم طلبني، فأحضرت إلى بين يدي منكوتير قان وهو في خفّ من الناس، وبقي يحدث ذلك الرجل؛ وهو يحدث الترجمان ويسألني عن أشياء من أمور بلادي وطريقي وما رأيت.

ثم قال: القان؛ يقول لك: ما جاء بك من بلادك البعيدة إلى هنا وأيُّ شيء معك من طرف البلاد تقدمه له، فقلت /٥٤/ له: ما جاءني إلاً ما سمعت من كرم القان وليس معي شيء، ولو كان معي شيء ما فارقت أهلي ووطني وجئت؛ فلما أعادوا عليه كلامي ضحك خفياً، ثم أشار إليهم - أيًّ أنه صدق - وأمر لي بشيء ما فهمته؛ فلما خرجنا قال لي ذلك الرجل المخاطب لي: قد أمر لك القان بما يصل إليك، ثم قال لي: على أي جهة تعود إلى بلادك؟ قلت له: في البحر إلى الحجاز لأحج ثم أعود إلى بلادي، فحمل لي إلى المركب هناك أمتعة بعثها بعدهن ومكة بألف ألف درهم.

وحكى لي الفاضل نظام الدين أبو الفضل يحيى بن الحكيم قال: قصد رجل منكوتير قان بزجاج من عمل حلب، ووصل إليه وقدمه له، فشرب في بعض أوانيه فأعجبه ما شفَّ من جوهر الزجاج عن حمرة الشراب، فقال: هذا من أين؟ فقيل له: من حلب، فقال: تعطِّي له حلب!، فقال بعضُ وزرائه: إنَّ حلب ليست لنا، فقال: فيوقف هذا الرجل ويصبُّ عليه الذهب، حتى يعطيه! فقالوا له: توقفه في خركاه ويصبُّ عليه الذهب، فقال: أنتم غرضكم بهذا لن يموت ولا يكون في فضاء، فعملوا ما قاله فجاء جملًا كثيرة عظيمة فجمعوها، وقالوا له: قد عملنا ما رسم القان، ولكننا نريد أن يقع نظر القان عليه قبل أن يأخذه، فقال: هاتوه؛ فلما رآه، قال: أنتم ما قصدكم إلاً أنْ أبصر هذا فأستكرثه. أعطوه هذا وقدره معه مرة أخرى فأعطوه.

وحكى أيضًا: أنَّ فراشاً كان يخدم تولي بن جنکز خان - أبي منكوتير - ثم خدم منكوتير قان بعده، ثم عدم وتطلبه منكوتير فلم يجده فيبينما هو يوماً في الصيد رأى الفراش في بعض الجبال وقد ساءت حاله وطال شعره وظفره، فقال له: أين كنت؟ فقال: في هذه البرية، فقال: ما حملك على هذا؟ قال: التسمية، قال: لا قُل لي الصحيح؟ فقال: هو ما أقول للقان، فقال له منكوتير: لا ما حملك على هذا إلاً العشق فأطرق فقال له منكوتير: فلمن أنت عاشق؟ فسكت، فعلم منكوتير أنه عاشق في أحد من جهته، فقال له: كأنك عاشق فلانة؟ /٥٥/ لا فلانة؟ لا فلانة؟ يعد عليه واحدة بعد واحدة من خواتينه وأتباعهن، وهو يقول: لا، إلى أن ذكر واحدة من

أجل حظا ياه، فسكت الفراش، فقال منكوت مر: أنت عاشق في هذه بلا شك.
 ثم إنَّه طلبها وقال لها: فلان له على أبي حق وعليّ، وهو عاشق فيك، وما له
 في هذا ذنب ولا لك، هذا شيء يتعلّق بقلبه ما له فيه حيلة، وأريد أن أزوّجك به
 فبكت، وقالت: يا قان بعدك أتزوج بهذا؟ فقال: سوف تبصرين ما أعمل.
 ثم إنَّه عمل طوي وسأل النساء أن ينصب للفراش كرسيًا فوقهم وأجلسه فوق
 الجميع، فقالوا له: الأمرُ أمرُ القان فنصب له كرسيًا فوقهم وأجلسه عليه، وزوّجه
 بتلك الحظية، وعمل له يرتاً^(١) عظيماً لا يصلح إلَّا للقومين الكبار وأجراه مجرى
 واحد منهم.

قلت: ومن تأمَّل هذه الحكاية عرف سعة إحسان هذا الرجل وكرمه، فإنَّه أخذ
 غلاماً لا يُؤْبَه إليه جعله ملكاً، وسمح له بما لا يسمح بمثله من المال والجاه
 والمحبوب.

* * *

(١) يرتاً: كلمة مغولية تعني خيمة أو مقر إقامة. «فرهنك عميد ٢٠٠١/٢».

الفصل الثاني

في مملكة القان الكبير صاحب التخت، وهو صاحب الصين

قد ذكرنا في صدر الفصل الأول: أنَّ القان الكبير هو القائم مقام جنكز خان، والجالس على تخته؛ وهو متغلغل في الشرق، ومقامه نجان بالق من بلاد الخطا؛ وهو أجلٌ ملوك توران التي في مملكة الترك^(١) من قديم الدهور والأباء، وبها وبماجاورها أو قاربها كان أفراسياب^(٢)، غير أنَّه خرج عن هذا القان ما هو الآن لابني عمدة الدين؛ تقدم ذكرهما.

إلى هذا القان إشارة الثلاثة أبناء عمِّه؛ وهو كال الخليفة عليهم، فإذا تجدد في مملكة أحدٍ منهم منهم كبير^(٣) مثل لقاء عسكر، أو قتل أمير كبير بذنب، أو صلة إليه ليست - أي الحكم أو ما يناسب هذا - أرسل إليه وأعلمه ولا افتقار إلى استيذانه، ولكنها عادة مرعية.

٥٦ / قال الفاضل نظام الدين ابن الحكيم الكاتب البوسعدي^(٤): إنَّ هذا القان ما يزال يكتب إلى كل من القانات^(٥) الثلاثة يأمرهم بالاتحاد والألفة، وإنَّه إذا كتب إليهم بدأ باسمه قبلهم، وكلاهم مذعنون له بالتقديم عليهم.

وحذني بكثير مما عليه صاحب هذه المملكة، وأنَّهم على ما هم عليه من الجاهلية على السيرة الفاضلة الشاملة لأهل مملكته، ومن يرد إليها بجناح العدل

(١) المغول فرع من الأتراك.

(٢) بطل أسطوري توراني قديم، حارب رstem حروباً طويلة، وأخيراً قتله Rstem، وهو جزء من الصراع الإيراني التوراني (انظر: شاهنامة الفردوسي ٣٥).

(٣) أمر هام مشكلة كبير ويسمى هذا الاجتماع باسم الطوى أي الضيافة «رحلة ابن بطوطة ٢٤٨» أما القوريلتاي فهو اجتماع لتنصيب إلقآن «تركستان ٦٤٩».

(٤) نسبة إلى أبي سعيد بهادر بن أولجايتو خدابنده بن أرغون بن القآن هولاكو.

(٥) القانات جمع مفرد قان، وهي في الأصل قآن تعادل الكلمة شاهنشاه وخاقان وقيصر - والقآن سمة لكل من يلي الملك عند المغول «رحلة ابن بطوطة ٤٢٣».

والإحسان ومعاملتهم بقشور من لحاء شجر التوت^(١) مطبوعاً باسمه، فإذا عشق ذلك المتعاطي به حمله إلى نواب هذا القان، وأخذ عوضه مع خسارة لطيفة^(٢) كما يؤخذ في دار الضرب على ما يؤخذ إليها من الذهب والفضة ليضرب بها؛ وأهل مملكته هم أهل الأعمال اللطيفة والصناعات البدعة التي سلمت إليهم فيها الأمم، وقد ملئت الكتب من أحوالهم بما أغنانا عن ذكره، ومن عادة المجيدين في الصنائع أنّهم إذا عملوا عملاً بدليعاً حملوه إلى باب الملك، وعلق به ليراه الناس، ويبقى سنة كاملة؛ فإن سلم من عائب أسدى إلى صانعه صنائع الإحسان، وإن عيب عليه وتوجه العيب وضع قدر الصانع، وإن لم يتوجه العيب قوبل من عاب عياً غير متوجه قصد الأذية.

ومما حكى في هذا: إنَّ صانعاً منهم صور في نقوش الثياب الكمخا عصفورةً على سبلة حتى مثله كأنَّه حقيقة؛ فلما علقه حيث يعلق مثله استحسنه كُلُّ من رأه حتى مرّ به رجل فعايه فسئل: لأي شيء عبته؟ فقال: لأنَّ العصفورة إذا قعد على سبلة أمالها وهذه مستقيمة ما هي مائلة فاستحسن قوله، ووضع قدر الصانع، هذا مما يُحكى عنهم.

وأما ما يُحكى لي عن المشاهدة والعيان؛ فمحكم لي الصدر^(٣) بدر الدين حسن الأسردي التاجر: أنَّ بعض صناعهم عمل سرجاً من آختاء البقر ودهنه وأبدع صناعته، ثم قدمه إلى القان فأعجبه ووقع منه موقع الاستحسان، ولم يشك أنَّه معمول من خشب /٥٧/ مثل بقية السروج، فقال له صانعه: أما علمتم هذا مما خشبه؟ فقالوا: لا فأوقفهم على إنه من آختاء البقر فاستحسنوا جودة صناعته ولطف تدقيقه.

وحكم لي: أنَّ بعض صناعهم عمل ثياباً من الورق وباعها من التجار على أنَّها من الكمخاوات الخطائية^(٤) لا يشك فيها أحد، ثم إنَّه لما جاز هذا عليهم أطلعهم على حقيقة حالها فعجبوا لهذا.

قال بدر الدين حسن: ولقد رأيت منهم من هذه الأعمال ما تُحرِّر في العقول، ويدخل الأفكار.

(١) هي نوع من العملة المستعملة، فهناك عملة من الذهب والفضة ولحاء الشجر وتسمى جميعها بايزه.
«جامع التواريخ» ٢٤٧/١.

(٢) وتسمى كانند وهي مختومة بخاتم السلطان «رحلة ابن بطوطة» ٤١٥.

(٣) الصدر، هي وظيفة مرموقه تقارب وزير، وصدر أعظم الأن بماعني رئيس الوزراء في الأردية، وصدر تعنى هنا الزعامة الدينية ومنها صدر جهان وصدر الصدر وهي ألقاب تمنح لرجال الدين آنذاك.

(٤) الخطائية نسبة إلى الخطأ، وهم قوم من الترك سبق التعريف بهم - وتأتي الخطأ والخطأ والقراخنة.

وأمّا ما حديثي به السيد الشريف تاج الدين حسن بن الجلال السمرقندى؛ وهو من حال في الأرض، وجال في الأفق؛ وهو من الثقة، وقد دخل الصين وجاز بلاده، وجاب آفاقه، وجاس خلاله، وجال في أقطاره، قال: إنَّ قاعدة الملك به مدينة خان بالق^(١)؛ وهي مدینتان قديمة وجديدة بناها ديدو - أحد ملوكها - سميت باسمه ديدوا، وفي وسط مدينة ديدو المذكورة منزل القان الكبير؛ وهو قصر عظيم يسمى «كوك طاق» ومعناه في اللغة المغولية «القصر الأخضر»؛ لأن القصر عندهم طاق، والأخضر كوك؛ وهي خلاف اللغة التركية فإن كوك فيها هو الأزرق. ونزلوا الأماء حوله خارج قصره.

قالا : وأما ترتيب هذه المملكة فإنَّ لهذا القان أميرين كبيرين هم الوزراء، ويسمى كل من يكون في هذه الرتبة «جنکسان»^(٢)، دونهما أميران آخران يسمى كل من يكون في هذه الرتبة «بنجار»، دونهما أميران آخران يسمى كل من يكون في هذه الرتبة «زوجين»، دونهما أميران آخران يسمى كل من يكون في هذه الرتبة «سمجين»، دونهما أميران آخران يسمى كل من يكون في هذه الرتبة «يوجين». ورأس الكتاب / ٥٨ / ويسمى كل من يكون في هذه الرتبة «كنجون» وهو بمنزلة كاتب السر.

ويجلس القان كلَّ يوم في صدر دار فسيحة تسمى «شن» هي عندهم مثل دار العدل عندنا ، ويقف حوله الأمراء المذكورون عن اليمين وعن الشمال على مقادير الرتب ورأس الكتاب المسمى كنجون في آخرهم؛ فإذا شكا أحد شعوبه، وسائل حاجة المذكور فيقف عليها هو ومن معه في الرتبة، ثم يوصلانها إلى من يليهما في الرتبة، وكذا إلى أن تصل إلى القان ويأمر فيها بما يراه مع العدل التام والإنصاف المفترط.

قال: وهذا القان الكبير ذو ملك كبير وعسكر مديد.

قال: والذي أعلم من أمره أنَّ له بزداًراً يركب الخيل، وعساكره من المغلعشرون توماناً؛ وهي بمائتي ألف فارس، وأما من الخطا فما لا يحصى.

قال: وببلاد الصين تشمل على ألف مدينة درت كثيرة منها ، والطريق إلى سمرقند إلى خان بالق - على ما يذكر من سمرقند إلى نيلي - عشرون يوماً.

(١) مدينة خان بالق أو خان بالغ أو باليق اسم قديم لمدينة بكين الحالية عاصمة الصين «انظر : فرهنك عميد ١/٨٢٨» وخان بالق من أعظم مدن الدنيا - مدينة السلطان في وسطها «رحلة ابن بطوطة ٤٢٣».

(٢) جنکسان: أمير يعادل درجة وزير وهي جنکساتك.

ونيلي هي أربعة مدن بين كل مدينة والأخرى فرسيخ واحد، ولكل واحدة منها اسم يخصُّها؛ فالواحدة نيلي، والأخرى نيلي بالق، والأخرى كنجك، والأخرى تلان.

ومن مدينة نيلي المذكورة إلى المالق عشرون يوماً، ومن المالق إلى قراجواجا إلى قمحو - هي أول بلاد الخطأ - أربعون يوماً، ومن قمحو إلى خان بالق أربعون يوماً، ثم من خان بالق إلى الخنسا^(١) طريقان طريق في البر، وطريق في البحر؛ وفي كلّ منها من خان بالق إلى الخنسا أربعون يوماً، وطول الخنسا^(٢) يوم كامل، وعرضها نصف يوم، وفي وسطها سوق واحد ممتد من أولها إلى آخرها، وكلّ شوارعها وأسواقها مُبلطة بال بلاط، وبناؤها خمس طبقات بعضها فوق بعض، وكلّها مبنية بالأخشاب والمسامير، وشرب أهلها من الآبار. وأهلها في قشف عيش وغالب أكلهم لحوم الجواميس والأوز والدجاج والأرز والموز وقصب السكر والليمون، وقليل رمان؛ وهي شبيهة بمزاج مصر في حرّها و هوائها، وأسعارها متوسطة، ويجلب إليها الغنم والقمح ولكنه قليل، ولا يوجد بها من الخيل إلا ما قلّ عند الأعيان الأكابر. وأما الجمال فلا يوجد بها شيء منها البته، فإن دخل إليها جمل عجبوا منه.

قال الشريف جلال الدين حسن السمرقندى: وأما مدينة خان بالق فمدينة طيبة وافرة الأقوات، رخية الأسعار، ويحمد بها الماء في زمن /٥٩/ الشتاء، ويسيل إلى الصيف فيبرد به الماء، ويشقّ أحد المدينتين منها وهي مدينة ديدو نهر، وبها أنواع الفواكه إلا العنب فإنه قليل، وليس بها نارنج ولا ليمون ولا زيتون، ويعمل بها السكر والنبات مما يحمل إلينا من مدينة الزيتون. وأما ما بها من الزروع والدواب والجمال والخيول والأبقار والأغنام فما لا يدخل في الإحصاء.

قال: وبين خان بالق ومدينة الزيتون^(٣) شهر واحد تقديرًا، ومدينة الزيتون بندر على البحر المحيط؛ وهي آخر العمارة.

(١) الخنساء: هي كانتون الآن وهي ميناء صيني، أسماء ابن بطوطه الخنساء أو الخنسا «رحلة ابن بطوطة ٤٢٠» والبحارة العرب اطلعوا عليها اسم الخنساء وحُرف إلى خانسو ثم كانتون «انظر: العالم الإسلامي - محمود شاكر، القاهرة ١٩٨١ ص ٢٠٣».

(٢) انظر: وصف الخنساء وهي عاصمة الصين الجنوبيّة آنذاك بتاريخ وصف المعروف بتجزية الأمسار وتزريجه الأعصار لعبد الله بن فضل الله الشيرازي، وكذلك عند ابن بطوطة ص ٤٢٠.

(٣) مدينة الزيتون على المحيط الهادي، وهي مدينة ليس بها زيتون، وهي مدينة كبيرة تصنع بها ثياب الكمخا والأطس وتعرف بالنسبة إليها، وبها مرسني كبير. «رحلة ابن بطوطة ٤١٧».

قال: وأمّا مدينة قراقرم فإنّها مدينة جليلة فيها غالب عساكر القان الكبير، ويعمل بها القماش المليح الفاخر، والصناعات الفائقة، وغالب ما يحتاج القان إليه يستدعي منها؛ لأنّها دار استعمال، وأهلها أهل صناعات فائقة وأعمال.

قال الشريف حسن السمرقندى: وبلاد الصين كلها عمارة متصلة من بلد إلى بلد ومن قرية إلى قرية، ومعاملتهم بورق التوت، ومنها كبار ومنها صغار، فمنها ما يقوم في المعاملة مقام الدرهم الواحد، ومنها ما يقوم مقام درهفين، ومنها ما يقوم مقام خمسة دراهم وأكثر إلى ثلاثين وأربعين وخمسين ومائة؛ وهو يوجد من لحاء شجر التوت اللين، ويختتم باسم القان وتجري به المعاملات فإذا عتق وأضمحل حمل إلى الخزانة وأعطي عوضه مع غرم قليل.

قال لي الشريف السمرقندى: ومن عجائب ما رأيت في مملكة هذا القان الكبير أنه رجل كافر، وفي رعاياه من المسلمين أمم كثيرة، وهم عنده مكرمون محترمون، ومتى قتل أحد من الكفار مسلماً قُتل الكافر القاتل هو وأهل بيته وتنتهي أموالهم، وإن قتل مسلم كافراً لا يقتل وإنما يطلب بالدية، ودية الكافر عندهم حمار لا يُطلب منه غير ذلك.

وسألته عن أهل الصين وما يحكى عنهم من رزانة العقل وإتقان الأعمال، فقال: هم أكثر مما يقال.

وكنا جماعة بحضورة سيدنا وشيخنا فريد الدهر وارث العلم والحكمة شمس الدين / أبي الثناء محمود الأصفهاني، فقال الشريف السمرقندى: أنا أحكي لكم ما جرّ لي؛ كنت أشكو ضرساً في فمي، فرأني بعض من كنت ألفت به في بلاد الصين، وأنا أتألم لشدة الضربات، فسألني عمن بي فشكوت إليه وجع ضرسي فاستدعي شخصاً حطاباً قصير القامة، فقال له: ابصر حال هذا المسكين، فنظر إلى فمي، وبقي يقلب أضراسي بيده هنئه، ثم أخرج ضرسي الواحد ونصف الآخر ولم أشعر لهما بألم، ثم أخرج من خريطة له كانت معه أضراساً كانت كواهل وأنصافاً وأنثلاثاً وأرباعاً معدة عنده لوضعها في موضع ما يقلع، ثم لم يزل يقيس مواضع ما قلع لي حتى وضع موضعها من تلك الأضراس ثم ذرّ عليها ذروراً ودهنها بدهن التآمت به لوقتها، وأمرني أن لا أشرب عليها الماء يومي كله، ففعلت كأنّي ما قلعت شيئاً وأراني أضراسه فوجدناها كأحسن ما يكون المستجددين ظاهر عليها إنها ليسوا من نوع البقية، والضرس المشعوب، يظهر أنّ نصف الشعب من غير النصف الأول. وحدّثني الفاضل نظام الدين يحيى بن الحكيم: أنّ لأهل هذه البلاد عقولاً راجحة،

وأعمالاً دقيقة، وهم يقولون: الفرنج عور، وبباقي الناس عُمى - يعني إنَّ صنائعهم صناعة بصير بعين، وبباقي الناس صناعتهم صناعة من هو أعمى ما يبصر ما يعمل.

وحكى لي من أحوال هؤلاء القوم ما يُنبئ عن عقول جمَّة وترتيب حسن وقهقنة في الأمور؛ فمَمَّا حكى لي عنهم: أَنَّ في مدن الخطا مطابخ يطبخ فيها الأطعمة الفائقة والمشروب للذين مما لا يوصف حسنه، أَنَّ يقدَّم منه إلى الملوك معدة لمن يشتري منه من الأكابر حتى إنَّ أحدهم إذا اهتمَّ بضيافة كبير بعث إلى صاحب المطبخ من تلك المطابخ، وقال له: عندي ضيف وأريد له ضيافة بكلِّ ما في وقت كذا؛ فإذا كان ذلك الوقت حمل إليه ما يناسب إرادته وشرطه من بداع المأكل والمشرب؛ كل شيء في وقته وإنْ كان المضيف ما له مكان /٦١/ يصلح للضيافة أعدَّ له صاحب المطبخ مكاناً بكلِّ ما يحتاج إليه من البسط والفرش والألات والعلمان على قدر ما حده له المضيف من القيمة بحسب صاحب المطبخ حساب مكسيبه في كل ذلك عن أجنته والمطبخ والدار والفرش وكلفة الطعام والشراب وإتمام كلِّ شيء بحسابه بقانون معين لا يزيد ولا ينقص من غير أن يحصل على المضيف تفريط ولا خيانة في شيء مما قبل أو جل.

قلتُ: وحدثني الشريف الفاضل أبو الحسن علي الكربلاوي التاجر - رحمه الله - وكان قد اجتمع بقان هذه البلاد وكثير من ملوك الأرض مع ما شاهده من عظمة سلطان هذا السلطان، وطاعة رعاياه له، وأمنهم في دولته، وقال لي: إنَّ لهذا القان أربعة وزراء يصدرون الأمر في مملكته كلها، ولا يراجع القان إلا في القليل النادر. ووصف لي: أَنَّ إذا أراد الركوب أَنَّ لا يركب إلا في محفَّة، لا يظهر للناس إلا في يوم واحد؛ وهو مثل يوم مولده من كلِّ سنة؛ فإنه يركب فرساً ويخرج إلى الصحراء ويعمل بها من الأطعمة والسماطات ما يغمر الناس ويكون مثل يوم العيد عندهم.

وحدثني الصدر بدر الدين عبد الوهاب بن الحداد البغدادي التاجر: أَنَّه وصل إلى الخنسا ووصف عظمة بنائها وسعة رقعة مدینتها مع تشحط الأقوات بها، ووفر المكاسب فيها، ورخص الرقيق الجيد فيها، وفي كُلِّ تلك البلاد.

قال: وأهلها يتفاخرون بكثرة الجواري والسراري حتى إنَّ ليوجد لأحد التجار وأحاد الناس أربعون سرية فما زاد على ذلك.

قلت: وكل ما ذكرناه في هذا هو على سبيل الاستطراد وإنَّ فالبسط المقصود: أَنَّ هذا القان هو أكبر الملوك الجنكيزانية الأربع.

الفصل الثالث

في التورانيين

وهم فرقان:

٦٢ / الفرقة الأولى في ما وراء النهر.

والفرقة الثانية في خوارزم والقبيحاق.

الفرقة الأولى: في ما وراء النهر وما قبلها وما بعدها من ممالك تركستان هي من أجل الممالك وأشهرها، والنهر المشهور بهم هو جيحون^(١)؛ وهو النهر الذي ينبع من ونج^(٢) حتى يصب في بحيرة خوارزم^(٣). وهي ممالك طائرة السمعة، طائلة البقعة. أسرة ملوك، وأفق علماء، ودارة أكابر، ومقداد أولوية وبنود^(٤)، ومجرى سوابق وجندو. كانت بها سلطنة الخانية^(٥)، آل سامان^(٦)، وبني سبكتكين^(٧).

(١) نهر جيحون ببلاد ما وراء النهر ويعرف في الفارسية بأمودريا والاسم الآري القديم له فخروا أو وكشو وأحد روافده الآن وخشن وعرف عند العرب تجريات «تركستان ١٤٦».

(٢) ونج وهي ونه وهي ببلاد ما وراء النهر «انظر: معجم البلدان ٤/٩٣١».

(٣) بحيرة خوارزم هي بحيرة آرال في الوقت الحاضر ويصب بها نهرا سيحون وجيحون.

(٤) بنود جمع مفرد بند، والبند هو العلم الكبير «المعجم الوسيط ١/٧٣».

(٥) يقصد خانية خوارزم، والخانية هو إقليم أو منطقة وخوارزم أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها، لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة، والعمارة الكبيرة والمحاسن الأثيرة «رحلة ابن بطوطة ٢٣٩».

(٦) آل سامان: هم أولاد سامان المنسب إلى بهرام جوبين، وكان أسد بن سامان في خدمة غسان بن عباد والي خراسان فأكرمه وأنعم على أولاده وجعلهم ولاة على سمرقند وفرغana واشروسته وهرات، وقد استقلوا فيما بعد وأسسوا دولة آل سامان التي تكونت على يد إسماعيل الساماني سنة ٢٧٩ هـ واستمرت حتى قضى عليها محمود الغزنوي آخر القرن الرابع الهجري «انظر: روضة الصفا - النسخة العربية ٧٩ وما بعدها».

(٧) بنو سبكتكين: هم أولاد ناصر الدين سبكتكين، كان علاماً تركياً وليتَكين صاحب خراسان في عهد =

والغورية^(١)، ومن أفقها بزغت شمس آل سلجوقي^(٢)، وامتدت في الإشراق والشروع؛ وغير هذه الدول مما طمَّ سيول هذه الممالك على قربها.

فأما قبل انتقالها إلى الإسلام فكانت في ملوك الترك لا تُرام ولا تشقّ لها سهام، خَيَّم بها الإسلام، وجازت ملكها هذه الأمة. برقت بالإيمان أسرتها، وتطرزت بالجوامع والمساجد قراها.

ثم بنيت بها المدارس والخوانق والربط والزوايا، وأجري الوقف عليها، وكثُر من العلماء أهلها، وسارت لهم التصانيف المشهورة في الفقه والحديث والأصول والخلاف. وكان منهم الرؤساء والأعيان والأعلام والكتاباء أهل البحث والنظر.

ولبخاري^(٣) في هذه المزايا الفاضلة أوفى الأقسام، ولم يُعد علم الفقه هذه الآفاق مشرقاً، ولم يُعد علم هذه الأرض محققاً. وما يقال في مملكة من بلادها بخاري وسمرقند^(٤) وترمذ^(٥) وخجند^(٦) والمالق^(٧) وغزنة^(٨)؛ وأنخوات هذه

= منصور بن نوح الساماني، ولما مات اليتکین وابنه إسحاق استقل سبکتکین بحكم غزنة سنة ٣٦٦هـ وأسس الدولة الغزنوية «انظر: روضة الصفا النسخة الفارسية ٤/٢٨ - النسخة العربية ١٢٩، ابن الأثير ٧/٨٦، ابن كثير ١١/٢٨٦».

(١) الغوريون: هم أهل بلاد الغور، حارب قائدتهم محمد بن سوري محمود الغزنوی وذكر صاحب طبقات ناصري أنهم أسلموا في عهد خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ونفذه ذلك القول العتبى في تاريخ اليميني، وقد أسس الغوريون دولة واتخذوا من غزنة عاصمة لها «انظر: روضة الصفا - الترجمة العربية ١٤١».

(٢) آل سلجوقي: ظهر السلاجقة في بلاد ما وراء النهر واستولوا على خراسان بقيادة طغرل بيك السلجوقي وحاربوا مسعود الغزنوی حتى طردوه خارج خراسان وغزنة وأسسوا دولة السلاجقة.

(٣) بخاري: قاعدة ما وراء نهر جيحون، ينسب إليها الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، خربها اللعين تكيرخان «رحلة ابن بطوطة ٢٤٤، مراصد الأطلاع ١/١٦٩» ما زالت بخاري قائمة الآن في جمهورية أوزبكستان.

(٤) سمرقند: من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالاً، مبنية على شاطئ وادٍ يعرف بوادي القصارين عليها التواعير «رحلة ابن بطوطة ٢٥١» مدينة ما زالت قائمة في جمهورية أوزبكستان، بلد معروف مشهور بما وراء النهر «مراصد الأطلاع ١/٧٣٦».

(٥) ترمذ: مدينة كبيرة حسنة العمارة والأسواق، تختلقها الأنهر، بها البساتين الكثيرة «رحلة ابن بطوطة ٢٥٢».

(٦) خجند هي خجندة من أعمال فرغانة ثم صارت في القرن العاشر الهجري وحدة إدارية قائمة بذاتها، ومدينة خجند من كبريات مدن ما وراء النهر بها قلعة وشهرستان وريضة «الاصطخري ٣٣٣، ابن حوقل ٣٩٤ - ٣٩٥، الطبرى ٢/١٤٣٩».

(٧) المالق: المالق أو المالق: مدينة كانت تقع بالقرب من مدينة كولجه الحالية على شاطئ نهر أيلى الذي يصب في بحيرة بلکاشن «انظر: حاشية بوشيه على جامع التواریخ ٤١٠ - ٤١١».

(٨) غزنة: هي غزني وغزنين، بلد محمود الغزنوی، شديدة البرد «رحلة ابن بطوطة ٢٦١» وهي قاعدة ملك

الأمهات، وأخبارها مشهورة، وأثارها مشهودة.

ومن نظر في كتب التوارييخ رأى مثل يمين المتوسم من أحوال هذه البلاد ومن فيها؛ وهي واقعة في الرابع، ونادر منه في الثالث أو مائل إلى الخامس لا يكاد يبلغه في أوسط المعمور، وأوسع الأرض، إذا قيل: إنها أخصب بلاد الله وأكثر ماءً ومرعى لم يعد القائل الحق في أوصافها ذات الأنهر السارحة، والمروج الممتدة كائناً نشرت الحلل على آفاقها أو كسرت الحلي على حصبائها.

وهذه المملكة طولها من ماء السندي إلى ماء إيلا /٦٣/ المسماً قراخوجا؛ وهو بـ الخطأ.

وعرضها من ونج - وهو منبع ماء جيحون - إلى حدود كركانج^(١).

قاعدة خوارزم

وحدها من الجنوب جبال البتم^(٢) وماء السندي الفاصل بينهما وبين السندي، ومن المشرق أوائل بلاد الخطأ على خيلاط وكلكسان؛ وما هو على سمت ذلك، من الشمال مراعي باران وكجند وبعض خراسان إلى بحيرة خوارزم، ومن الغرب بعض خراسان إلى خوارزم إلى مجرى النهر أخذًا إلى الخلل^(٣).

ومن بلاد هذه المملكة فرغانة^(٤) والشاش^(٥) والستجاب^(٦) وأشروسنة^(٧) وبـ بلاد الخلل، وفيها طرف من السندي من غزنة إلى جنوبيها.

= محمود الغزنوي، وتقع الآن في إفغانستان.

(١) كركانج: هي جرجانية، حاضرة أمراء المأمونية في خوارزم، وهي گرگانچ «تركتستان ٢٤٨ - ٢٥٠» فرنگ أدبيات فارسي ٢٦ وأطلق العرب عليها جرجانية، وأطلق عليها المغول أرگينج «المقدسي ٢٨٩ - ٢٨٨».

(٢) البتم: منتفعات وجبال ينبع منها نهر زرفشان، وهي أيضًا تأتي بتمان «تركتستان ١٦٨».

(٣) الخلل: مقاطعة واقعة بين نهري ينج ووخش وهي تسمى ختل وختلان، وأهم نواحيها وادي نهر كجي سرخاب «تركتستان ١٥١».

(٤) فرغانة: مدينة عامرة في بلاد ما وراء النهر، ما زالت حتى الآن تابعة لجمهورية أوزبكستان - «انظر: وصف فرغانة عند بارتولد ٢٧٢ وما بعدها».

(٥) الشاش: هي حاج من أعمال أشروسنة، وهي ناحية من نواحي ما وراء نهر سیحون متاخمة لبلاد الترك وهي أكثر ثغر كان في وجه الترك وجاج هي طشقند الحالية «انظر: آثار البلاد ٥٤٨، تاريخ بخارى لغامبرى ٩٤».

(٦) استيğاب: هي اسفيجاب أو اسييجاب وهي قرب الشاش من بلاد فرغانة «معجم البلدان ٤/ ١٠١٤».

(٧) أشروسنة: من قصبات ما وراء النهر من أعمال بخارى «آثار البلاد ٥٤٠».

وأقاليم هذه المملكة واقعة فيها على ما يذكر، وببلاد الختل آخذة على جانب جبال البتم مغرياً بشمال، ويليها الصعورامات في الشمال، ثم تزيد إلى ما يُنَاخِم خوارزم، وببلاد فرغانة آخذة على جانب جبال البتم شرقاً بشمال؛ ويليها بلاد السابون في الشمال، وأعمالها إلى حيط عبد الله بن حميد - المعروف بحائط القلاص - في خارجه بلاد استجابة في الشمال بشرق.

وببلاد الغزنة ممتدة في نهاية الشمال من أطراف بحيرة خوارزم في الغرب إلى بلاد استيğاب في الشرق. ومراعي باران وحجندة داخل بلاد الغزنة بينها وبين حائط القلاص وببلاد أشروسنة في الوسط على نهاية الأنهر النازلة من جبال البتم من جهة المشرق.

وأماماً أكابر مدنه المشهورة

وهي القواعد العظام والأمهات الكبار فإقليم غزنة، وإقليم ما وراء النهر؛ وهو بخارى، وسمرقند، وخجندة، وترمد، وإقليم الشاس - وهو الشاش - ومغالق؛ وإقليم فرغانة وهو بدمغنان^(١) ورباط سرهنك، وأيدكان، وأوس؛ وإقليم تركستان شهر كند وجند ونار جندو وأطرار^(٢) وشبرم ومكل وجاص كن وبرساكن وأفردابان ونيلى وكنجك وطوان - وهو المسماي بلاس - ونيكي كن وشيكول والمالمق وبيش مالق وحبوك وقرشا وختن وكاشغر وبدخشان ودراوران /٦٤/ ودرة وبلاصاغاون. كل واحدة ذات مدن وأعمال ورساتق^(٣) وقرى وضياع، مأوى الأتراك وغيل أسودهم، وجّو عقبانهم.

وقرشا قاعدة الملك بها الآن؛ وهي على نهر قراجوجا في نهاية الحد، ثم بخارى، ثم سمرقند، ثم غزنة. وإن كانت بخارى مما لا تسير إليها ركابهم، ولا ترسى عليها خيامهم؛ ولكن لعظمتها مكانها، وسالف سلطانها، وسيأتي ذكر هذه القواعد في مواضعها.

ولم يسلم ملوك هذه المملكة إلا من عهده قريب فيما بعد خمس وعشرين

(١) مرغنان: وهي أهم مدن القراخانين ومن أشهر نواحي فرغانة «معجم البلدان ٤/٥٠٠».

(٢) أطرار وهي أتراك: مدينة من بلاد الترك آخر ولاية خوارزم شاه قتل حاكمها جماعة من التجار المغول سنة ٦١٧هـ، وكان هذا سبباً في غزو المغول للمسلمين «ابن الأثير ١٢/٣٦١-٣٦٢».

(٣) رستاق: جمع مفرده رستاق وهي القرية «فرهنگ رازی ٤٠٨».

وبسبعينمائة^(١); أول من أسلم منهم برماسيرين^(٢) - رحمة الله - وأخلص الله، وأيد الإسلام، وقام به أشدّ القيام، وأمر به أمراءه وعساكره، فمنهم من كان قد سبق إسلامه، ومنهم من أجاب داعيه وأسلم. وفشا فيهم الإسلام، وعلا عليهم لواوه حتى لم تمض عشرة أعوام حتى اشتمل فيها بمائه الخاص والعام، وأغان على هذا ما في تلك الممالك من الأئمة العلماء والمشايخ الأتقياء، فاغتنموا من الترك فرصة الإذعان فعالجلوهم بدعة الإيمان؛ وهم الآن على ما اشتهر عندنا واستفاض أحقر الناس على دين، وأوقفهم على الشبهات بين الحلال والحرام، وعساكرهم هم أهل النجدة والبأس لا يجحد هذا من طوائف الترك جاحد ولا يخالف فيه مخالف.

حدثني خواجا مجد الدين إسماعيل السلامي، قال: إذا قيل في بيت هولاكو: إنَّ العساكر قد تحرَّكت من باب الحديد - يعني من بلاد خوارزم والقبياق - لا يحمل أحد منهم لهم همّا؛ فإذا قيل: إنَّ العساكر تحرَّكت من خراسان - يعني من جهة هؤلاء السقط، لأنَّ هؤلاء أقوى ناصراً وأولئك أكثر عدداً؛ إلاَّ أنه يقال: إنَّ واحداً من هؤلاء بمائة من أولئك.

قال: ولهذا خراسان عندهم ثغر عظيم لا يهمل سداده، ولا يزال فيه من يستحق ميراث التخت، أو من يقوم مقامه لما وقر لهؤلاء في صدورهم من مهابة لا يقلقل طودها فإنهم طالما بلوهم في الحروب، وابتلوا بهم فيها.

وحدثني الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيى بن الحكيم ما معناه: إنَّ بلاد هؤلاء متصلة /٦٥/ بخراسان متداخلة بعضها بعض لا يفصل بينهما بحر ولا نهر ولا جبل ولا مفازة، ولا شيء مما يمنع أهل هذه البلاد عن قصد خراسان، وبينها وبين خراسان أنهار جارية ومراع متصلة؛ فإذا أرادوا خراسان تنقلوا في المرعى واستدرجوها استدراجاً لا يبين ولا يظهر إنَّ لقصد بلاد بل للتوسيع في المرعى فلا يشعر بهم إلاَّ وهم بخراسان حتى إذا صاروا فيها جاسوا بها خلال الديار وعاشروها فيها عيث الذئاب؛ وهم مع سيرهم المجد من بلادهم إلى خراسان لا مشقة عليهم ولا على دوابهم؛ لأنهم من ماء إلى ماء ومن مرعى إلى مرعى.

(١) علاء الدين طرمشيرين (ترما شيرين) سلطان ما وراء النهر ولِي الملك بعد أخيه، وكان أخوه كافراً ويدعى الجكتي، كما كان أخوه الملك الأسبق گېڭ كافراً، وقد أسلم طرمشيرين، وملك بلاداً واسعة «انظر: رحلة ابن بطوطة ٢٤٦-٢٤٨».

(٢) كذا ورد اسمه في الأصل، وصوابه «ترماشيرين».

قال ابن الحكيم: ولهذا يخاف ملوكنا عادية هؤلاء؛ لأنَّهم لا يعلمون بهم إلاَّ وهم معهم.

قلت: ومن هذه البلاد نجم سلطان الدولة السلجوقية في عهد السلطان مسعود السبكي^(١)، وأول ما بزغ كوكبهم ثم استعلى نيرهم، ونبع معينهم ثم فاضت أبحرهم. وكان الاحتجاج بالتنقل في المرعى هو السبب لجرِّ الملك إليهم حتى أشهرت أعلامهم، وانتشرت أيامهم على ما هو مرقوم في صدور السير وصفحات التواريخ، ولم يزل لأهل هذه المملكتين قديمة.

وكان سكان الهند لا يلزمون مقاومتهم، ولا يَقْنُون إلاَّ بتصور الأقيال مصادمتهم حتى علت - والحمد لله - بالهند دولة الإسلام، وزادت اليوم بسلطانها القائم علوًا، وتناهت غلوًا، فنامت عيون أهل هذه البلاد لهيبة ذلك السلطان لعدم هجوده، وسكنت ثعالبهم المخاللة بزئير أسوده.

ولقد كان أهل هذه المملكة لا تزال تجوس أطراف الهند خيولهم، وتحتجف به الأموال والأولاد سيولهم حتى نشأ بالهند سلطانه الآن، وشَّمَّ للحرب ذيله، وجاهد الأعداء في كل قطر.

واختلفت كلمة أهل هذه البلاد على ملوكها فانكَفُوا لباس ذلك السلطان، واختلاف ذات البين، فكان ملوك هذه المملكة من أولاد جنكرخان وأتباعهم من المحافظة على ياسة جنكرخان والتبعيدات المعهودة /٦٦/ من أهل هذا البيت من تعظيم الشمس والميل إلى آراء البخشية^(٢)، تابعين لما وجدوا عليه آباءهم يعضون عليهم بالتواجد مثل تمسك القان الكبير، ومن في مملكته بها بخلاف الفخذين الآخرين ببلاد خوارزم والقبيحاق وأهل مملكة إيران؛ وإنْ كان الملوك الأربع من أولاد جنكرخان ومن نبعته نبعوا، ومن أفقه طلعوا؛ لكنَّ بهذه المملكة والخطا أشد بياسته تمسكاً، ولطريقته اتباعاً، وهما مع هذا أعدل بنى أيهما حكمًا، وأنشراهما له في بلادهما ورعاياهما.

(١) مسعود بن محمود الغزنوي حكم سنة ٤٢٢ هـ بعد حبس أخيه محمد، ولم يستطع أن يواجه السلاجقة والغوريين ففر إلى الهند، ولكنَّه قُتل على يد جماعة من أتباع ابن أخيه أحمد «روضة الصفا - ١٦٠ - ١٦٤».

(٢) البخشية: كانت ديانة المغول الشامية، وهي عبادة الخان الأعظم ابن الإله المعبد «فتوات هولاكو - ٦» ولفظ بخشى من السنسكريتية Bhikkshu وهو لقب يطلق في الأصل على الرهبان البوذيين «تركمستان ٥٥٥».

وقد قدمنا التنبيه: على أنَّ رعايا هذه المملكة وقرارية أهلها من قدماء الإسلام السابقين إليه. وكانوا مع كفرهم ملوكهم في جانب لا تتطرف إليهم أذية في دين ولا حال ولا مال؛ فلما آل الملك إلى ترماسيرين^(١) - كما ذكرنا - دان للإسلام وأظهره في بلاده، ونشره في خافقي ملكه، واتبع الأحكام الشرعية، واقتدى بها، وأكرم التجار الواردين عليه من كل صوب. وكانت قبله الطرقات لا تفتح لتجار مصر والشام إليها، ولا يهم مضطرب في الأرض منهم بالمرور عليها؛ فلما ملك ترماسيرين كثر قصد التجار له، وعادوا شاكرين منه حتى صارت بلاده لهم طريقاً قاصداً ومنهجاً مسلوكاً.

حدثني الصدر بدر الدين حسن الأسرعري: كان ترماسيرين يعامل به التجار والواردين عليه من الإكرام ومزيد الإحسان، وأخذ قلوبهم بكل إمكان.

قال صاحب كتاب صفة أشكال الأرض ومقدارها^(٢): «ما وراء النهر من أخصب الأقاليم منزلة وأنزهها وأكثراها خيراً، وأهلها يرجعون إلى رغبة في الخير، واستجابة لمن دعاهم إليه مع قلة غائلة، وسلامة ناجية، وسماحة بما ملكت أيديهم مع شدة شوكة ومنعة وبأس ونجدة وعدة وآلة وكراع وبسالة وعلم وصلاح. فأماماً الخصب [بها] فليس من إقليم إلا يقطن أهله مراراً قبل أن يقطن ما وراء النهر /٦٧ مرة واحدة، ثم إن أصيبوا ببرد أو بحر أو بافة تأتي على زروعهم وغلالتهم ففي فضل ما يسلم في عروض بلادهم ما يقوم بأودهم، حتى يستغنووا به عن شيء ينقل إليهم من غير بلدهم، وليس بما وراء النهر مكان يخلو من مدن أو قرى ومراح لسوائهم»^(٣)، وليس شيء لا بد للناس [منه] إلا وعندهم منه ما يقيم به أودهم، ويفضل عنهم لغيرهم؛ فأماماً طعامهم في السعة والكثرة فعلى ما ذكرناه.

(١) وهو السلطان المعظم علاء الدين طرماسيرين «ابن بطوطة ٢٤٦» وهو ترماسيرين بن دوا بن براق بن أسن دوا بن متوكن بن جعفاري بن جنكير خان، حكم خانية جعفاري ما بين سنة ١٣٢٦ - ١٣٣٤ م.

(٢) وهو كتاب «صورة الأرض» نشرته دار مكتبة الحياة - بيروت [دت].

لابن حوقل، محمد بن حوقل البغدادي الموصلي النصيبي، أبو القاسم، رحالة من علماء البلدان، كان تاجراً، رحل من بغداد سنة ٣٢١ هـ ودخل المغرب وصقلية، وجاب بلاد الأندلس وغيرها.

ويقال: كان عيناً للفاطميين. له: «المسالك والممالك، وقد طبع باسم صورة الأرض» المذكور أعلاه، توفي بعد سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م.

ترجمته في: دائرة المعارف الإسلامية ١٤٥، الحالة المسلمين في العصور الوسطى ٣٩ - ٤٢، الأعلام ١١١ / ٦.

(٣) السوائم: مفرداتها سائمة وهي كل إبل أو ماشية ترسل للرعى ولا تعلف «المعجم الوسيط ٤٨٣ / ١».

وأما مياهم فإنَّها أذب المياه وأبردها وأخفَّها، قد عمَّت جبالها وضواحيها ومدنها إلى التمكُن من الجمد في جميع أقطارها، والثلوج من جميع نواحيها، وأمَّا الدواب ففيها من النتاج ما فيه كفايتهم.

ولهم من نتاج الغنم الكثير، والسائلة المفرطة، وكذلك الملبوس فإنَّ لهم من الصوف والقز^(١) وطرائف البز^(٢).

وببلادهم من المعادن وخصوصاً الزئبق الذي لا يقاربه في الغزاره والكثرة معدن. وأمَّا فواكههم فإنَّك إذا تبطنت الصعد وأشروستنة وفرغانة والشاش رأيت من فواكههم ما يزيد على سائر الآفاق حتى ترعاها دوابهم، ويجلب إليها من محاسن الأشياء وطرف البلاد ما يتنافس الملوك فيه.

وأمَّا سماحتهم فإنَّ الناس في ما وراء النهر كأنهم في دار واحدة، ما ينزل أحدٌ بأحدٍ إلا كأنه رجل دخل دار نفسه، لا يجد المضييف من طارق يطرقه كراهية؛ بل يستفرغ جهده في إقامة أوده من غير معرفةٍ تقدَّمت، ولا توقع لمكافأةٍ بل اعتقاد السماحة بأموالهم؛ وهم في كل أمرٍ على قدره فيما ملكت يده. وحسبيك أنك لا ترى صاحب ضيافة يستقل بمؤنته إلا كانت همته اقتناه قصر فسيح ومنزل للأضياف، فتراه [عامة] نهاره في إعداد ما يصلح لمن يطرقه، وهو متשוק إلى وارد عليه ليكرمه؛ فإذا حلَّ بأهل ناحية طارق تنافسوا فيه.

وهم فيما بينهم يتبارون في مثل هذا الشأن حتى يجحف بأموالهم كما يتبارى سائر الناس في الجمع والمكاثرة والمال.

قال: ولقد شهدت /٦٨/ آثار منزل بالصعد قد ضربت الأوتاد على باب داره بخيول الضيافان إنَّ ما بها مكث لا يغلق ما يزيد على مائة سنة لا يمنع من نزولها طارق؛ وإنَّما نزل به ليلاً على بعنة المائة والمائتان. والأكثر من الناس بدوا بهم وحشمهم من طعامهم ودثارهم وعلف دوابهم ما يكفيهم من غير أن يتكلف صاحب المنزل أمراً بذلك، أو يتجشم عياله وأمه مع البشاشة بأضيافه لعلم سروره بهم كل من شهدَه.

قال: وترى الغالب على أهل المال والثروة صرف أموالهم على خاصة أنفسهم في الملاهي وما لا يرضي الله تعالى، والمناسفات فيما بينهم.

(١) القز: وهو الخز ويعني الحرير الخام.

(٢) البز: نوع من الثياب «المعجم الوسيط ٥٦/١».

والغالب على أهل الثروة والمال في ما وراء النهر صرف أموالهم في عمل المدارس وبناء الرباطات وعمارة الطرق والأوقاف على سُبُلِ الجهاد، ووجوه الخير، وعقد القناطر، إلا القليل من ذوي البطالة. وليس من بلدي ولا سبيل مطروق، ولا قرية آهلة إلا وفيها من الرباطات^(١) ما يفضل عن ينزل به.

قال: وبلغني أنَّ بما وراء النهر زيادة على عشرة آلاف رباط، وفي كثير منها إذا ترك النازل أطعم وعلق على دابته.

قال: وقلَّ ما رأيت خاناً^(٢) أو طرف سكّة أو محلّة أو مجتمع ناس [إلى حائط] بسم مرقد في المدينة وظاهرها إلا وبه ماء مسبَل بجمد.

قال: وحدَثني من له خبرة: إنَّ بسم مرقد وظواهرها ما يزيد على ألفي مكان يسكنى فيها ماء الجمد مسبَل عليه الوقوف من بين سقاية مبنية وحباب نحاس منصوبة وقلال خزف مشتبة في الحيطان.

وأما بأسهم فمشهور مستفيض؛ وفي بعض الأخبار أنَّ المعتصم سأل عبد الله^(٣) أو كتب إليه يسأله عن من يمكنه حشده من خراسان وما وراء النهر؛ فأنفق إلى نوح بن أسد بن سامان^(٤)، فكتب إليه: أن ثمَّ ثلاثة وألف قرية إذا خرج من كل قرية فارس

(١) مفرده رباط وهو ملجاً للفقراء من المتصوفة «المعجم الوسيط ١/٣٣٥».

(٢) الخان مكان فسيح خاص لنزل التجار، وهو مكون من طابقين، طابق لنزول الدواب والثاني لإقامة التجار [انظر: فرنگ رازی ٢٦٠] والخان: الفندق «المعجم الوسيط ١/٢٧٢».

(٣) عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق الخزاعي، بالولاء، أبو العباس: أمير خراسان، ومن أشهر الولاة في العصر العباسي. أصله من «باذغيس» بخراسان، وكان جده الأعلى «زريق» من موالي طلحة بن عبد الله (المعروف بطلحة الطلحات) ولد سنة ٩٧٨هـ / ١٨٢م. وولي صاحب الترجمة إمرة الشم، مدة ونقل إلى الدينور. ثم ولاه المأمون خراسان، وظهرت كفاءته فكان له طبرستان وكerman وخراسان والري والسوداد وما يتصل بتلك الأطراف. واستمر إلى أن توفي بنسيابور (وقيل: بمرو) سنة ٢٣٠هـ / ٨٤٤م وللمؤرخين إعجاب بأعماله وثناء عليه، قال ابن الأثير: كان عبد الله من أكثر الناس بذلاً للملال، مع علم ومعرفة وتجربة، وللشعراء فيه مراتٌ كثيرة، وقال ابن خلkan: كان عبد الله سيداً نبيلاً عالياً للهمة شهماً، وكان المؤمنون كثيراً الاعتماد عليه. وقال الذبيبي في دول الإسلام: كان عبد الله من كبار الملوك. وقال الشاشتي: كان المؤمنون بتباوه ورباه.

ترجمته في: ابن دقمق ٤/٦٥، المحبر ٣٧٦، ابن الأثير ٧/٥، الطبرى ١١/١٣، وفيات الأعيان ١/٢٦٠، تاريخ بغداد ٩/٤٨٣، الولاة والقضاء ١٨٠، البستاني ١/٥٥٩، الديارات ٨٦/٩١، التاج ٤/٢٨، الأعلام ٤/٩٣.

(٤) نوح بن أسد بن سامان: صاحب سمرقند. وليهما في أيام المؤمن العباسى، سنة ٢٠٤هـ. ثم صحب المؤمن في إحدى زياراته لخراسان، وعاد معه إلى بغداد، فلزم خدمته إلى أن ولاه ما وراء النهر (سنة

وراجل لم يبن [على] أهلها فقدهم^(١).

قلت: ولقد حدثني الصدر مجد الملك يوسف بن زاذان /٦٩/ البخاري: أنه يوجد عند آحاد العامة من عشرين دابة إلى خمسمائة دابة لاطفة عليها في إقتنائها لكثرة الماء والمراعي.

قال: وهم أهل طاعة لسلاطينهم، وانقياد لأمرائهم، حتى إنَّ المحتول لأمورهم يتصرف في أموالهم وأمورهم وسائر أحوالهم تصرف المالك في ملكه، والمستحق في حقه منبسطاً في ذلك ماداً يده لا هو يتخيّل، ولا صاحب المال والحال يتشكّل؛ كلاماً طيب القلب، قرير العين، راض بصاحب.

حدّثني الشريف السمرقندى : أَنَّ أَهْلَ هَذِهِ الْبَلَادِ فِي الْغَالِبِ لَهُمْ بَوَاعِثُ هَمْ
عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ وَالْمَظَاهِرَةِ عَلَى الْحَقِّ ، وَالْمُضَاهاَةِ فِي الْخَلَالِ الْحَمِيدَةِ إِلَّا مِنْ قَلْ ،
وَقَلِيلٌ مَا هُمْ .

وقد ذكر علي بن مشرف^(٢) في كتاب ألفه باسم الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ - صاحب الموصل^(٣) - ذكر فيه ما وراء النهر، فقال: وهي في الدنيا أنموذج الجنة في الآخرة، لا يحمل المسافر فيها ماء ولا زاداً، ولا يحتاج رفياً ولا يستشكل طريقاً، مكان فاتك وناسك ورد إليها قفل تجّار مات منهم واحد له بضائع جليلة وأموال، ولم يكن ثم له وارث، فاحتاط نواب الديوان على ماله، وبلغ هذا سلطان الناحية فأنكر غایة الإنكار، فقال: ما لنا نحن والأموال وإلاً فهم أحق برفيقهم وأولئي بماليه، ثم طلب التجّار وأمرهم بتسلیمه فامتنعوا، وقالوا: هذا رجل لا وارث له متنّاً، ولا في

= ٢٣٧) تابعاً لبني طاهر. فأقام إلى أن توفي فيها نحو سنة ٢٤٥هـ/نحو ٨٦٠م. وخلفه أخوه «أحمد بن أسد».

وهو أحد أبناء أسد بن سامان مؤسس الدولة السامانية.

ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨٣/٣ وحمزة الأصفهاني ١٥٠، ودائرة المعارف الإسلامية ١١/٧٧،
وابن خلدون ٤/٣٣٣ والأعلام ٨/٥٠.

(١) صورة الأرض - ٣٨٤ - ٣٨٧

(٢) علي بن مشرف: هو علاء الدين، أبو الحسن، علي بن مشرف المارديني الشافعى الأديب، كان في حدود سنة ٦٢٠هـ، له: إثبات الدليل في صفات الخليل وهو ديوان شعر «هدية العارفين ١/٧٠٥».

(٣) بدر الدين لؤلؤ: صاحب الموصل في عهد أرسلان شاه بن مسعود ثم في عهد ولده القاهر، ولما توفي القاهر سنة ٦١٥هـ، انفرد بالسلطة ودام حكمه ثلاثة وأربعين عاماً، وقد صالح هولاكو، ودخل في طاعته وحمله الأموال في بغداد، توفي سنة ٦٥٦هـ.

ترجمته في: أبي الفداء / ١٩٨ - تاريخ ابن خلدون / ٥١١٥ - دائرة المعارف للبساطي / ٥٤١ - ٤٣٢.

بلده، ولا نعرف له وارثاً بالجملة، ولا نعلم [من] يرثه إلاّ بيت المال، وتجارته تقارب ثمانمائة ألف درهم وقد مات متأثراً وأنتم أحق به فغضب، وقال: لا والله نحن ما نأخذ إلاّ ميراث من مات من بلادنا ولا وارث له؛ وأما هذا فملك بلاده أحق بميراثه، خذوا المال فاحملوه إليه، قال: فأخذوه معهم إلى توريز وأعطوه لصاحبها؛ لأن الرجل كان منها.

ورأيت في كتاب آخر سماه مؤلفه «تفضيل الرحلة» أَلْفَه لبدر الدين لؤلؤ أيضاً، ولم يسم مؤلفه نفسه، قال: / ٧٠ / وعبر في طريقنا إلى خان بالقى ببلاد كثيرة أَجَلُها ما وراء النهر، وهي مما تنفذ العبارة دونها ما شئت من حسن وإنسان، ومورد ولدان، وفاكهه صنوان وغير صنوان^(١)، وما كما قال عن برد إحسان، ملك كبير وخير كثير، وأقوام بهم يلذ العيش، ويليق عند ثباتهم الطيش، قوم كرام لا يخف لهم أطواب أحلام، وفي بلادهم معادن أشرفها الرجال ومنها اللعل الأحمر، واللازورد الأزرق، وما هو من هذه الأمثل.

قلت: وبالغ في وصفها؛ وهي كذلك، وأما ما أشار إليه من المعادن فيها فهو بدخشان؛ وهي مع مملكة ما وراء النهر وليسحقيقة منه ولا من تركستان، بل هو إقليم قائم بذاته محدود لل المجاورة مع أخواته قد حوى كل بديع من حيوانه ومعدنه ونباته.

قلت: وبلغني ممن أثق به منهم: أنَّ من يسوق ملوكهم إِنَّه إذ راح من عساكرهم ألف فارس إلى مكان، وقتل منهم تسعمائة وتسع وتسعون فارساً، وسلم ذلك الفارس الواحد، قتل ذلك الواحد لكونه لم يقتل مع البقية، اللهم إلا إن حصل النصر لمن سلم.

وملوك هذه المملكة منبني جنکز خان، وقد قدمنا القول: أنَّ أحوالبني جنکز خان متقاربة في ممالكتهم لمشيئهم على ياسة جنکز خان، ولا تكاد تمتناز أهل المملكة من ممالكتهم عن الآخرين إلا فيما قلّ ومعاملة ممالك قسمی إیران هؤلاء وأهل خوارزم والقیاق و معظم إیران بالدينار الراچ - وهو ستة دراهم - وفي بعض هذه بالخراساني؛ وهو أربعة دراهم. ودارهم هذه المملكة خاصة من فضة خالصة غير

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: «وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُّجْوَرٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَبٍ وَرَزْعٍ وَنَجْلٌ صَنْوَانٌ وَغَيْرُ صَنْوَانٍ يُسْقَى يَسْقَى وَيَمْرُ وَيَقْصِلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَّاتٍ لَّا يَتَّسِعُ لِقَوْمٍ يَعْقُلُونَ» [سورة الرعد: الآية ٤].

مشوشة؛ فهـي وإن قـل وزـنها عن الدرـهم معـاملـة مصر والشـام فإنـها تـجـوز مـثـل جـواـزاـها لـخـلوـص هـذـه الدرـاهـم وـغـشـ تلكـ لأنـ...^(١)

ثم إنـ تلكـ الدرـاهـم نـوعـانـ؛ درـهم بـشـمـانـية فـلوـسـ، وـدرـهم بـأـرـبـعـة فـلوـسـ. ويـوجـدـ بهـذهـ المـملـكةـ منـ الـحـبـوبـ وـالـقـمـحـ وـالـشـعـيرـ وـالـحـمـصـ وـالـأـرـزـ وـالـدـخـنـ وـسـائـرـ الـحـبـوبـ خـلاـ الـفـولـ، وـأـسـعـارـهاـ جـمـيـعـاـ رـخـيـةـ؛ /٧١ـ/ـ فـإـذـاـ غـلـتـ فـيـهاـ الـأـسـعـارـ أـغـلـىـ الـغـلـوـ كـانـتـ مـثـلـ أـرـضـ الرـخـصـ بـمـصـرـ وـالـشـامـ وـبـهـاـ فـوـاكـهـ الـمـنـوـعـةـ التـمـارـ؛ العـنـبـ، وـالـتـينـ، وـالـرـمـانـ، وـالـتـفـاحـ، وـالـكـمـثـرـىـ، وـالـسـفـرـجـ، وـالـخـوـخـ، وـالـعـيـنـ، وـالـمـشـمـشـ، وـالـتـوتـ، وـالـبـطـيـخـ الـأـصـفـرـ، وـالـبـطـيـخـ الـأـخـضـرـ، وـالـبـطـيـخـ الـأـصـفـرـ بـهـذـهـ الـبـلـادـ نـهاـيـةـ، وـالـبـخـارـيـ، وـالـسـمـرـقـنـدـيـ أـحـسـنـ أـنـوـاعـهـ، إـنـ كـانـ الـخـوـازـمـيـ يـزـيدـ عـلـيـهـ فـيـ الـحـسـنـ وـالـلـذـاذـةـ عـلـىـ ماـ نـذـكـرـهـ فـيـ مـكـانـهـ.

وـبـهـاـ الـخـيـارـ وـالـقـثـاءـ وـالـلـفـتـ وـالـجـزـرـ وـالـكـرـنـبـ وـالـبـاـذـنـجـانـ وـالـقـرـعـ وـسـائـرـ أـنـوـاعـ الـبـقـولـ، وـأـنـوـاعـ الـرـيـاحـينـ مـنـ الـورـدـ وـالـنـرـجـسـ وـالـآـسـ وـالـلـيـنـوفـرـ وـالـحـبـقـ وـالـبـنـفـسـجـ، إـنـ قـلـ.

وـلـاـ يـوجـدـ بـهـاـ الـأـتـرـجـ وـالـنـارـنـجـ وـالـلـيـمـونـ وـالـلـيـمـيـمـ وـلـاـ الـمـوزـ وـلـاـ قـصـبـ السـكـرـ وـلـاـ الـقـلـقـاسـ وـلـاـ الـمـلـوـخـيـاـ؛ فـإـنـهـاـ مـنـ ذـلـكـ عـارـيـةـ الـحـدـائـقـ خـالـيـةـ الدـوـحـ إـلـاـ يـأـتـيـ مـنـ الـمـحـمـضـاتـ إـلـيـهاـ مـجـلـوـبـاـ.

فـأـمـاـ الدـوـابـ: الـخـيـلـ وـالـبـغـالـ وـالـحـمـيرـ وـالـإـبـلـ الـبـختـ^(٢)ـ وـالـبـقـرـ وـالـغـنـمـ، وـأـقـلـهـاـ الـبـغـالـ وـالـحـمـرـ، وـأـكـثـرـهـاـ الـأـغـنـامـ؛ فـإـنـهـاـ فـيـ هـذـهـ الـبـلـادـ كـمـاـ يـقـالـ أـعـوـزـتـهـاـ الـزـرـاـبـ وـبـالـمـالـقـ^(٣)ـ وـمـاـ يـلـيـهـاـ يـمـلـأـ الـفـضـاءـ وـيـسـدـ عـيـنـ الـشـمـسـ.

وـهـيـ بـلـادـ قـرـيبـةـ مـنـ الـاعـتـدـالـ لـاـ تـفـرـطـ فـيـ حـرـّـ وـلـاـ بـرـدـ ذاتـ عـيـونـ دـافـقـةـ، وـأـنـهـارـ سـارـحةـ، وـمـرـاعـ مـتـسـعـةـ مـرـيـعـةـ، وـخـصـبـ مـفـرـطـ؛ يـزـكـوـ حـيـوانـهـاـ وـبـنـاتـهـاـ وـمـعـادـنـهـاـ.

قـالـ لـيـ الشـيـخـانـ صـدـرـ الدـيـنـ مـحـمـدـ وـمـحـمـدـ الـخـنـدـيـانـ الصـوـفـيـانـ بـالـخـانـقـاهـ القـوـصـيـةـ: إـنـهـ لـوـلـاـ مـوـتـانـ يـقـعـ فـيـ خـيـلـ الـمـالـقـ وـأـغـنـامـهـاـ فـيـ بـعـضـ الـسـنـوـاتـ لـمـاـ أـبـيـعـتـ ولاـ يـوـجـدـ مـنـ يـشـتـريـهـاـ لـكـثـرـتـهـاـ وـبـرـكـاتـ نـتـاجـهـاـ.

قاـلـ: وـمـدـيـنـةـ بـدـخـشـانـ بـهـاـ مـعـدـنـ الـلـعـلـ الـبـدـخـشـانـيـ؛ وـهـوـ الـمـسـمـيـ فـيـ الـبـلـادـ

(١) بـيـاضـ بـالـأـصـلـ.

(٢) الـإـبـلـ الـبـختـ: هـيـ الـإـبـلـ الـخـرـاسـانـيـ وـاـحـدـهـاـ بـخـتـيـ. وـجـمـعـهـاـ بـخـاتـيـ وـبـخـاتـ «الـمـعـجمـ الـوـسـيـطـ»، ٤٢ـ/ـ١ـ.

(٣) الـمـالـقـ أوـ الـمـالـيـقـ مـدـيـنـةـ كـانـتـ قـرـبـ كـولـجـ الـحـالـيـةـ عـلـىـ شـاطـئـ نـهـرـ إـيلـيـ الـذـيـ يـصـبـ فـيـ بـحـيـرـةـ الـكـاشـ

«انـظـرـ: حـاشـيـةـ بـلـوـشـيـهـ عـلـىـ جـامـعـ التـوارـيـخـ ٤١٠ــ٤١١ـ».

بالبلخش، ومعدن اللازورد الفائق؛ وهمما في جبل بها يحفر عليهما في معادنها فيوجد اللازورد بسهولة ولا يوجد اللعل إلا بتعب كثير وإنفاق زائد وقد لا يوجد بعد التعب الشديد والإنفاق الكبير؛ ولهذا عز وجوده، وغلت قيمته فكثر طالبه، والتقت الأعناق إلى التحلب به.

٧٢/ قلت: وأنفس قطعة وصلت إلى بلادنا من البلخش قطعة وصلت مع تاجر في الأيام العادلية الزينية، وأحضرت إلى العادل كتبغا وهو بدمشق إذ ذاك^(١).

قال لي أحمد ناظر الصاغة: أحضرني الصاحب شهاب الدين أحمد الحنفي ومن يعرف الجوهر، وجماعة من الأكابر منهم نجم الدين الجوهرى وأرانا تلك القطعة فرأيناها قطعة جليلة مثلثة على هيئة المشط زنتها خمسون درهماً؛ وهي نهاية في الحسن وغاية في الجودة، كاد يضيء إليها المكان، وسألنا عن قيمتها كم تساوى؟ فأشرنا كلنا إلى نجم الدين الجوهرى؛ لأننا لم يمكننا أن نتكلّم بشيء قبله، فقال له: كم قيمة هذه القطعة يا نجم الدين؟ فقال: ما يعرف قيمة هذه إلا من ملك مثلها، أو رأي مثلها، وأنا وأنت والسلطان وجميع من حضر ما رأي مثلها ولا قريباً منها فكيف نعرف قيمتها؟ فاستحسن هو وكل من حضر قوله، وصالحوا صاحبها.

و سنذكر جملة مما هي عليه قواعد هذه البلاد؛ وأول ما نبدأ بقراشا قاعدة الملك بها وإن لم تكن شيئاً مذكوراً. ولها شيء على اختلاف حالات الزمان شهرة تذكر، ولكن لما شملتها به في دولة ملوكها إلا من نظارات السعادة لنسبتها إلى أنها سكن لهم، وإن كانوا ليسوا بسكان جدار ولا متدرسين في ديار؛ ولكن لاسم وسمت به وسمت به.

وأما بخارى

فأم أقاليم ويم تقسيم، وقد كانت للدولة السامانية قطب نجومهم السائرة، ومركز أفلакهم الدائرة. وكانت تلك الممالك كلها تبعاً لها. وكان السامان بها وإن لم يتسموا بالسلطنة، ولا وسموا بغير الإمارة كالخلفاء، ولا يباشر الأمور إلا نوابهم ولا يخرج إلى الحروب إلا قوادهم، ودست^(٢) قواعد دولتهم، وأذعنوا لهم ملوك الأقطار، ولم تكن ملوك بنى بويه^(٣) على عزم سلطانهم إلا كالأتيا لهم يحملون

(١) العادل كتبغا هو أنوشيروان بن طغاي تيمور، حكم ما بين ٧٤٤ - ٧٥٦هـ «جامع التواریخ» ١٤/٢.

(٢) دست: مقر حكم السلاطين. «المعجم الوسيط» ٢٩٢/١.

(٣) بنو بويه: ينسبون إلى بهرام گور، قيل إنهم من نسب ديلم بن ضبة، وذكرهم ابن مسکویه في تجارب =

إليهم الحمول والقماش المطرّز بأسمائهم وأسماء أرباب دولتهم كالوزير والحاچب.
وحكى أبو نصر العتبى^(١) / ٧٣ : وكتب نوح بن [أسد] الساماني^(٢) إلى ابن
بويه كتاباً يهدّه فيه؛ فكتب جوابه: «يَنْثُرُ قَدْ جَنَّلَنَا فَأَكْتَفَرَ جِنَّلَنَا فَلَانَا بِمَا تَعْدَنَا
إِنْ كَثُنَتْ مِنَ الْمَلِكِيَّاتِ»^(٣).

ثم لم يرسل هذا الجواب خوفاً لما وقر في صدورهم من مهابة آل سامان إلى أن
قضى الله فيهم بأمره، وولى زمانهم وجاء زمان سبكتكين على أثره.

قال العتبى: وحمدت تلك العلة.

قال صاحب كتاب «أشكال الأرض»^(٤): ومقدارها: «لم أر ولم أسمع بظاهر بلد
أحسن من بخارى؛ لأنك إذا علّوت لم يقع نظرك من جميع النواحي إلا على خضرة
تتصل خضرتها بلون السماء؛ فكان السماء مكبة زرقاء على بساط أخضر تلوح القصور
في ما بين ذلك التراس التبتية والحبب الملاطية، أو كالكواكب العلوية بياضاً ونوراً
بين أراضٍ، وضياع مقوسة بالاستواء مهندمة كوجه المرأة بغاية الهندسة؛ وليس بما
وراء النهر ولا غيرها من البلاد أحسن قياماً بالعمارة للضياع منهم مع كثرة متزهات
في سعة المسافة، وفسحة المساحة متصلة بعتصد سمرقند»^(٥).

قال: «ويحيط ببخارى وقرابها ومزارعها سور^(٦) نظره اثنا عشر فرسخاً في مثلها

= الأم: يزعمون إنهم أبناء يزدجرد وأكد ذلك صاحب الكامل في التاريخ، جدهم أبو شجاع بويه
استولى أبناؤه على بلاد الديلم طبرستان وكيلان ومازندران والري وقزوين وهمدان وأصفهان،
وسيطروا على الخليفة العباسي، واستمرت دولتهم حتى سنة ٤٨٧هـ. (انظر: روضة الصفا ١٨١ وما
بعدها، تجارب الأمم ٢٧٩/٦، ابن كثير ١١/١٧٣ وما بعدها، ابن الأثير ٧/٢٢١ وما بعدها).

(١) أبو نصر العتبى: أبو نصر، محمد بن عبد الجبار العتبى: مؤرخ من الكتاب الشعراة، أصله من الري،
نشأ في خراسان، وولي نيابتها، ثم استوطن نيسابور وانتهت إليه رياضة الإنماء في خراسان والعراق،
وناب عن شمس المعالى قابوس بن وشكمير في خراسان إلى أن توفي سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٦م. له
كتاب «تاريخ اليمين» ألفه للسلطان محمود الغزنوى، و«الطائف الكتاب» في الأدب.
ترجمته في: «فرهنگ أدبيات فارسي ٢٣٩، ٢٨١-٢٨٩، الذريعة ٣/٢٥٦، الأعلام
٦/١٨٤-١٨٥.

(٢) يعده بياض في الأصل بمقدار سطر واحد، وبياض بمقدار ٣ أسطر في مقدمة الصفحة القادمة.

(٣) سورة هود: الآية ٣٢.

(٤) يقصد: صورة الأرض.

(٥) انظر: صورة الأرض ٣٩١.

(٦) انظر: أسوار القلعة وأبوابها في تاريخ بخارى للترشخي، وتاريخ بخارى لغامبرى ترجمته د.أحمد
الساداوى.

كلّها عامرة ناضرة زاهرة.

ولبخاري سبعة أبواب حديد؛ وهي باب المدينة، وباب بور، وباب حفرة، وباب الحديد، وباب قهندر^(١)، وباببني أسد^(٢)، وباببني سعد^(٣).

ولقهندر هنا ببابان أحدهما يعرف الريكسitan^(٤)، والأخرى باب الجامع^(٥) يشرع إلى المسجد الجامع.

وعلى الربض دروب؛ فمنها درب يخرج إلى خراسان يعرف بدرب الميدان، ودرب يلي المشرق ويعرف بدرب إبراهيم، ويليه درب يعرف بالربعة، ويليه درب المردكسان^(٦)، ويليه درب كلباذ^(٧)، ويليه درب الوفهار^(٨)، ويليه درب سمرقند، ويليه درب /٧٤/ بغاشلوز^(٩)، ويليه درب الراميشة^(١٠)، ويليه درب حدس^(١١)، ويليه درب غشج^(١٢).

وليس في مدينة بخاري ولا قهندر^(١٣) ماء جاري لارتفاعها، ومياها من النهر الأعظم الجاري من سمرقند، ويتشعب من هذا النهر الأعظم في مدينة بخاري نهر يعرف بنهر فشيرديز^(١٤) فيأخذ من نهر بخاري ويجري في درب المردكسان على حد

(١) يقصد به كهن دز، وقد أوردها في كل المخطوط قهندر، وكهن دز تعني القلعة القديمة «فرهنگ رازی ٣٣١-٧٣٧».

(٢) بنو أسد وبنو سعد بطون من قبائل عربية الأصل، صحبت قتبة بن مسلم الباهلي عند فتحه بخاري واستوطنت بجوار المدينة القديمة وبعضاً منهم استقر بالمدينة.

(٣) يذكر الأصطخري أن أبوابها كانت أحد عشر باباً وهي: باب الميدان، إبراهيم، الريو، المردكسان، كلباذ، التوبهار، سمرقند، فغاسكون، الراميشة، حدشرون، غشج «المسالك والممالك ٣٠٦ وما يليها».

(٤) الريكسitan في الغرب، وكان يسمى بباب علف خروشان أو كاه فروشان (أي باعة العلف) «تاريخ بخاري نرشخي ٧/٢٢».

(٥) باب المسجد الجامع في الشرق وأطلق عليه الترشخي باب غوريان.

(٦) المردكسان وهو باب سلخانه الحالي «تركتستان ١٩٦».

(٧) كلباذ وهو باب كوله (قرشي). الحالي «تركتستان ١٩٦».

(٨) وهو التوبهار وهو الآن باب مزار.

(٩) فغاسكون وهو باب إمام خاليا.

(١٠) الراميشة وهو الآن باب أوغلان.

(١١) باب جدشرون وهو الآن باب طلبيج.

(١٢) باب غشج وهو الآن باب شيركيران.

(١٣) القلاع القديمة.

(١٤) وهي منارة زر الكبرى كما ذكرها الأصطخري ص ٣٠٧ وما يليها.

باب إبراهيم حتى ينتهي إلى باب البلعمي^(١)، ويقع في نهر نوكندة^(٢)، وعلى هذا النهر نحو ألفي بستان وقصور وأراض كثيرة شهرتها منه.

ومن فم هذا النهر إلى مغيبته نحو فرسخ ونهر يعرف بجوبار يكاد يأخذ من المذكور آنفًا في وسط المدينة بموضع يعرف بمسجد أحمد ويغيب بنبي كندة. وعلى هذا النهر شرب بعض الريض ونحو ألف بستان.

ونهر يعرف بجوبار القوارير يأخذ من النهر المذكور، وبموضع يعرف بمسجد العارض فيسقي بعض الريض؛ وهو أغزر وأعمر الأراضي من نهر بكار. ونهر بتو كندة يأخذ من النهر المذكور ومن المدينة عند رأس سكة خنع فيسقي بعض الريض ويغيب في المفازة.

ويليه نهر الطاحونة يأخذ من النهر المذكور في المدينة بموضع يعرف بالنوبها^(٣)، وعليه بيوت أهل الريض، ويدير أرجحية كثيرة حتى ينتهي إلى بيكند^(٤)، ومنه شرب أهل بيكند.

ونهر يعرف بنهر كشنة يأخذ من النهر في المدينة عند النوبهار، عليه شرب أهل النوبهار فيفضي إلى حصون وضياع وبساتين حتى يجاوز كشنة.

ونهر يعرف بنهر تاج يأخذ من النهر المعروف بالريكسان، ويسمى بعض الريض وينتهي إلى قصر رباح؛ فيسقي نحو ألف بستان وقصوراً هناك وأراضي كثيرة دون البساتين.

ونهر الريكسان يأخذ من النهر المذكور يقرب إلى الريكسان ومنه يشرب الريكسان وأهل القهندز ودار الإمارة حتى ينتهي إلى قصور جلال ديزه.

ونهر يأخذ من النهر المذكور بقرب قنطرة حمدونة تحت الأرض إلى حياض بباب بنى أسد، ويقع فضله في فارقين القهندز. وهذه الأنهار طائفة بخاري وجنانها.

(١) باب الشيخ الجليل أبي الفضل، هذا هو اسمها ويقصد به أبو الفضل البلعمي وزير السامانيين المتوفى سنة ٣٢٩ هـ «تركتستان ١٩٩».

(٢) هو قناة نوكندة وتأخذ من القناة الرئيسية عند دار حمدونه وهي مصب لبقية القنوات.

(٣) النوبهار: موضع قديم كان به صنم، وبه معبد يعد من أعظم بيوت الأصنام في بلخ ببلاد خراسان والتي بناها منوجهر بن أيرج بن افريدون «آثار البلاد ٤٧٦/٩».

(٤) بيكند: اسم مدينة ببلاد ما وراء النهر قرب بخاري، وبيكند هنا قناة تأخذ من القناة الرئيسية وتصب في نوكندة.

ولها رساتق كثيرة ونواح نفيسة وأعمال جليلة وضياع ليس /٧٥/ مثلها لأهل بلد، وإن كان لأهل ناحية أو إقليم ما يضاهي بعضها فليس كهني على الفورها وكثيرتها^(١).

«وَجَمِيعُ أَبْنِيَّةِ بَخَارِيٍّ عَلَى اشْتِبَاكِ الْبَنَاءِ وَالتَّقْدِيرِ فِي الْمَسَاكِنِ وَارْتِفَاعِ أَرْاضِيِّ الْأَبْنِيَّةِ فَهِيَ مُحَصَّنَةٌ بِالْقَهْنَدَزَاتِ، وَلَيْسَ فِي دَاخْلِ هَذَا الْحَائِطِ جَبَلٌ وَلَا مَغَارَةٌ وَلَا أَرْضٌ عَامِرَةٌ».

وأقرب الجبال إليها جبل وذكر، ومنه حجارة أبنيتها وفرش أرضهم، ومنه طين الأوانى والكلس والجص، ولهم خارج المدينة ملاحمات.

ومحاطتهم من بساتينهم وما يحمل إليهم من المفاوز من الغصا والطرفاء.

وأراضي بخاري كلها قرية من الماء؛ لأنها مغيبة ماء السعد؛ ولذلك لا تثبت الأشجار العالية بها مثل المركب والجوز وما أشبهها؛ وإذا كان من هذا الشجر شيء فهو قصير غير تمام.

ومن عمارة بخاري أنَّ الرجل ربما أقام على الجريب^(٢) الواحد من الأرض فيكون فيه معاشه وكفافه هو وجماهير أهله.

ولبخاري مدن في داخل حائطها وخارجها؛ فأماماً داخله فالطاويس^(٣)، ومحلب، ومغركلس، وزبيدة، وحجارة^(٤)؛ وهي كلها من داخل الحائط وكلها ذات منابر ومن خارجه بيكتند، وفريبر، وكرمنية، وجدمنكن، وجز عامكث، ومديا محدث^(٥).

وجميع المدن التي داخل الحائط متقاربة في القدر والعمارة، ولجميعها فهندزات

(١) انظر: صورة الأرض ٣٩٨-٤٠٠.

(٢) الجريب: مساحة من الأرض المزروعة تعادل عشرة آلاف متر مربع «فرهنگ رازی ١٩٦» وتعني المزرعة ومكيال مقداره أربعة أقفرة «المعجم الوسيط ١١٩/١»، انظر: دائرة المعارف الإسلامية/ مادة (جريب)، وتاح العروس ١٧٩/١.

(٣) الطاويس على مسافة سبعة أو ثمانية فراسخ من بخاري، ولكنها داخل سور الذي يحيط بخاري وضواحيها وقد أخذت اسمها منذ سنة ٩١٦هـ حين شاهد العرب الطاويس، وكان الاسم القديم لهذه الناحية أرفود «انظر: الاصطخري ٣١٣، المقدسي ٢٨١، الطبرى ٢/١٢٣٠، معجم البلدان ١/٢٠٩».

(٤) وردت المدن التالية: زرمان، وربنجن، وحديمتكن، وطاويس
«انظر: الاصطخري ٣٣٤، ابن خرداذبة ٢٦، الطبرى ٢/٥٢٩ الترشخي ١٠، معجم البلدان ٤/٢٦٨».

(٥) خراجر كرمينة، وخديمتكن، وجرغا نكث، ومديا مجكث.

عامرة وأسواق جادة وبساتين كثيرة، سيما ما كان يبكتد فإنَّ بها من الرباطات ما ليس
ببلدان ما وراء النهر كرباط هوا وما يقاربه، ويقال: إنَّ كان بها ألف رباط، ولها سور
عظيم حصين، ولها مسجد جامع قد تنوَّق فيه وفي بنائه وزخرف محرابه، وليس بما
وراء النهر أحسن زخرفة منه.

وفرير مدينة قرية من جيحون؛ ولها قرى عامرة؛ وهي في نفسها حصينة مقصودة
بفاخر المطاعم والمأكل الطيبة اللذينة، وهي مدينة بقية الحفاظ قدوة أهل المشرق
والمغرب أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري^(١)، وكفى به فخرًا باقياً، وذكرًا
دائماً.

وأهل بخاري يرجعون إلى أدب وعلم وفقه وديانة وأمانة، وحسن سيرة، ولجميل
معاملة، وإفاضة خير، ويدلُّ معروض، وسلامة /٧٦ نية، ونقاء طوية.

ويتحدث أهل بخاري على قديم الأيام بطريف من أحاديثهم؛ وهو أنَّهم
يتناوضون من غير خلاف.

إنَّ من بركة وقهندز أنه ما أخرج منها جنازة والٍ قظ، ولا عقد فيها لواء ولا راية
خرجت منها.

وكان أول من اتخذها داراً وجعلها قراراً من آل سامان أبو إبراهيم إسماعيل بن

(١) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله: حبر الإسلام، والحافظ لحديث رسول الله ﷺ، صاحب «الجامع الصحيح - ط» المعروف بصحيف البخاري، «التاريخ - ط» أجزاء منه، «الضعفاء - ط» في رجال الحديث، «خلق أفعال العباد - ط» و«الأدب المفرد - ط». ولد في بخاري سنة ١٩٤ هـ / ٨١٠ م، ونشأ يتيمًا، وقام برحمة طوبيلة (سنة ٢١٠) في طلب الحديث، فزار خراسان والعراق ومصر والشام، وسمع من نحو ألف شيخ، وجمع نحو ست مئة ألف حديث اختار منها في صحيحه ما وثق برواته. وهو أول من وضع في الإسلام كتاباً على هذا النحو. وأقام في بخاري، فتعصب عليه جماعة ورموه بالتهم. فأخرج إلى حرثناك (من قرى سمرقند) فمات فيها سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م. ويعتبر كتابه في الحديث من طليعة الكتب التي المعمول عليها، وهي: صحيح البخاري (صاحب الترجمة) وصحيف مسلم (٢٠١ - ٢٢٦ هـ) وسنن أبي داود (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ) وسنن الترمذى (٢٠٩ - ٢٧٩ هـ) وسنن ابن ماجه (٢٠٩ - ٢٧٣ هـ) وسنن النسائي (٢١٥ - ٣٠٣ هـ).

ترجمته في: تذكرة الحفاظ / ١٢٢ وتهذيب التهذيب / ٤٧ و ٤٧ الوفيات / ١ و ٤٥٥ و تاريخ بغداد / ٤ - ٣٦ وتهذيب الأسماء واللغات، القسم الأول من الجزء الأول ٦٧ والسبكي ٢ / ٢ والخميس ٣٤٢ / ٢ وآداب اللغة / ٢١٠ و دائرة المعارف الإسلامية / ٣ - ٤١٩ و ٤٢٦ وطبقات الحنابلة / ١ - ٢٧٩ و ٢٧١ و معجم المطبوعات ٥٣٤ ، وانظر: هدى الساري مقدمة فتح البخاري / ٢ - ١٩٣ و ٢٠٦ وفي مجلة «العرب» الباكستانية (رمضان ١٣٧٩) أن قبر البخاري اندر وبني مكانه قبر آخر، وهو في قرية تعرف الآن بقرية «خواجه صاحب» على ٣٠ كيلو متراً من سمرقند، في طريق بخاري، الأعلام / ٦ - ٣٤ .

أحمد^(١)؛ فإنه جاءته ولایة خراسان وهو مقيم بها، فنزل بساحتها واتخذها قاعدة له، ثم توالى عليها بنوه إلى آخر أيامهم، وانقضاء أحکامهم على ما قدمنا.

وأما سمرقند فإنها مدينة مرتفعة ولها قهندز، وربض يشرف الناظر بها على شجر أخضر وقصور تزهو، وأنهار تطرد، وعمارة تتقد، لا يقع الطرف بها على مكان إلا ملأه، ولا على بستان إلا استحسنـه^(٢).

قال صاحب كتاب أشكال الأرض: «وقد قضت أشكال السرو فشهدت بطرائف الحيوان من الأفيلة والإبل والبقر والوحش المقلبة بعضها على بعض كالمنتاجية؛ هذا إلى أنها تُطرد، ويرك بمذخرة طريقة المعاني وقصور مستشرفات»^(٣).

قال مسلم بن قتيبة: لما أشرفـت على سمرقند: شبهوها ، فلم يأتوا بشيء، فقال: كأنـها السماء في الخضرـة، وكأنـ قصورـها النجوم الزاهـرة، وكأنـ جداـولـها أنهـار المـجرـة فاستحسنـوا هذا التشـبيـه.

«وبـسمـرقـندـ حـصنـ، ولـهاـ أـربـعـةـ أـبـوـابـ؛ بـابـ مـاـ يـليـ المـشـرقـ وـيـعـرـفـ بـبـابـ الصـينـ مـرـتفـعـ عـنـ وـجـهـ الـأـرـضـ، يـنـزـلـ إـلـيـ بـدـرـجـ كـثـيرـ، مـطـلـ علىـ وـادـيـ السـغـدـ؛ وـبـابـ مـاـ يـليـ الـمـغـرـبـ يـعـرـفـ بـبـابـ التـوـبـهـارـ؛ وـهـوـ عـلـىـ نـشـرـ مـنـ الـأـرـضـ؛ وـبـابـ مـاـ يـليـ الشـمـالـ يـعـرـفـ بـبـابـ بـخـارـيـ، وـبـابـ مـاـ يـليـ الـجـنـوبـ يـعـرـفـ بـبـابـ كـشـ»^(٤).

وفي سمرقند ما في المدن العظام من الأسواق الحسان والحمامات والخانات^(٥)

(١) إسماعيل بن أحمد بن سامان، أبو إبراهيم: ثاني أمراء الدولة السامانية في ما وراء النهر (Transoxiane) ولد بفرغانة سنة ٢٣٤ هـ / ٧٤٨ مـ. وولي بعد وفاة أخيه (نصر بن أحمد) وأقره المعتصم العباسي في ولايته سنة ٢٧٩ هـ. ثم ولاه خراسان مضافة إلى ما وراء النهر. وكان موفقاً في قمع الثورات، حازماً في سياسـتهـ، ووثـقـ بهـ المـعـتـضـدـ واعـتمـدـ عـلـيـهـ المـكـتـفـيـ، وصـفـاـ لهـ جـوـ الإـمـارـةـ فيـ خـراسـانـ وـمـاـ وـرـاءـ النـهـرـ إـلـيـ أـنـ تـوـفـيـ فـيـ بـخـارـيـ سـنـةـ ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ مـ. وـكـانـ يـلـقـبـ بـالـأـمـرـيـ المـاضـيـ. وـلـهـ اـشـتـفـالـ بـالـحـدـيـثـ. وـجـمـعـ أـحـدـ القـضـلـاءـ «ـشـمـائـلـ»ـ فـيـ كـتـابـ.

ترجمـتهـ فـيـ: ابنـ خـلـدونـ ٤/٣٤٤ وـسـيـرـ أـعـلـامـ النـبـلـاءـ ١٤/١٥٥-١٥٥ رقمـ ٩٠، وـالـلـيـابـ ١/٥٢٣، وـابـنـ الأـثـيـرـ ٢/٤ وـالـعـتـبـيـ ١/٣٤٨ وـهـوـ يـعـتـبـرـ إـسـمـاعـيلـ هـذـاـ أـوـلـ رـجـالـ الدـوـلـةـ السـامـانـيـةـ، وـشـنـدـراتـ الذـهـبـ ٢/٢١٩، وـتـارـيـخـ سـنـيـ مـلـوـكـ الـأـرـضـ ١٥٢، الأـعـلـامـ ١/٣٠٨.

(٢) انظر: صورة الأرض ٤٠٢-٤٠٥.

(٣) انظر: صورة الأرض ٤٠٦-٤٠٥.

(٤) ذكر الاصطخري أن لها أربعة أبواب هي: بـابـ الصـينـ، وـبـابـ التـوـبـهـارـ أوـ الـحـدـيـثـ، وـبـابـ بـخـارـيـ أوـ أـشـرـوـسـةـ، وـبـابـ كـشـ أوـ الـبـابـ الـكـبـيرـ «ـالـمـسـالـكـ وـالـمـمـالـكـ ٣١٦-٣٦٦، اـبـنـ حـوـقـلـ ٣٦٥-٣٧٩ـ»ـ.

(٥) الخانات: مفردـهاـ خـانـ، وـهـوـ بـنـاءـ لـإـقـامـةـ التـجـارـ يـدـعـونـهـ أـحـيـاـنـاـ الفـنـدقـ كـمـاـ عـنـدـ اـبـنـ بـطـوـطـةـ.

والمساكن، ولها مياه جارية تدخل إليها في نهر، وقد بني عليه مسناة عالية من الأرض، وفي بعض المواقع بل في وسط المشرق من حجارة يجري عليها الماء من موضع يُعرف بالصفارين^(١) إلى أن يدخل باب المدينة خندق عظيم مستقل، فاحتاج إلى مسناة في هذا الخندق / ٧٧ حتى يجري الماء إلى المدينة.

وهو نهر قديم جاهلي في وسط أسواقها بموضع يعرف برأس الطاق من أعظم موضع بسمرقند؛ ولهذا النهر على حاشية مستغلات موقوفة على مرماته ومصالحه وعليه الحفظة صيفاً وشتاءً الربض بها أبواب تغلق.

ويزعم بعض الناس: أنَّ تبعاً المسمى أسعد أبا كرب ابنتي مدينة سمرقند، وأنَّ ذا القرنين أتمَّ بعض بنائتها^(٢).

قال صاحب كتاب أشكال الأرض: «وأخبرني أبو بكر الدمشقي، قال: رأيت على بابها الكبير صفيحة حديد وعليها كتابة زعم أهلها أنها بالحميرية^(٣)، وأنَّهم يتوارثون ذلك إنَّها من صنعة تُبَّع^(٤)، وبعض الكتابة: إنَّ من صنعاء إلى سمرقند ألف فرسخ».

قال: ثم وقعت الفتنة بسمرقند وأحرق الباب الذي كانت عليه هذه الصفيحة وأعاده أبو المظفر محمد بن لقمان بن نصر بن أحمد بن أسد^(٥) حديثاً كما كان من حديد، ويعرف بالصفيحة.

قال بعض الأطباء: وتربة سمرقند صحيحة يابسة لولا كثرة البخارات من المياه الجارية في سكناهم ودورهم وكثرة أشجار الخلاف عندهم لأضرر بهم فرط يبسها وبناؤها من طين وخشب.

وكان أهلها في إظهار المروءات أكثر من سواهم، والبلد كلَّه طرقه وسکنه وأسواقه وأزقته مفروشة بالحجارة.

ومياههم من وادي السعد، وهذا الوادي من بلاد البتم على ظهر الصاغانيات وله

(١) الصفارون: جمع مفرده صفار يفتح الصاد وتشديد الفاء بمعنى صانع النحاس «فرهنگ رازی ٥٦٢».

(٢) انظر: صورة الأرض ٤٠٦ - ٤٠٧.

(٣) الحميرية: لغة أهل اليمن، وحمير دولة ذات حضارة قامت في اليمن عقب دولة معين وقبل دولة سبا، وينسب إليها الخط واللغة الحميرية.

(٤) تُبَّع: لقب أعظم ملوك اليمن وجمعة تابعة «المعجم الوسيط ٨٥ / ١» وهي مثل شاه، ملك، وقيصر، وكسري، وخان.

(٥) ابن عم الأمير نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني المتوفى ٣٣١ هـ «روضة الصفا».

مجمع ماء يعرف بمحى مثل بحيرة حواليها القرى. ومن مبدأ هذا الوادي إلى أن ينتهي إلى سمرقند أزيد من عشرين فرسخاً، فإذا جاوز سمرقند بنحو مرحلتين انشعب منه نهر يعرف بقى. وليس بالصعد نهر أوفر عمارة منه، ولا أعظم قصوراً وقرىً وماشية.

ونهر قى هو ثلث السعد ويتشعب من هذا النهر المسمى قى أنهار كثيرة، ويسيقى زيادة على مرحلتين، ثم يتشعب من وادي الصعد أنهار كثيرة إلى حد بخارى حيث تأخذ منه أنهار بخارى المذكورة ستة مشتبكة القرى والبساتين والأنهار؛ /٧٨/ ولو اطلع مطلع من الجبل على وادي الصعد لرأى خضراء متصلة لا يرى في أضعافها غير قهندز أبيض أو قصر ساقم مشيد؛ فأماماً فرجه منقطعة عن الخضراء أو أرض بائرة أو غامرة، فقل ما ترى»^(١).

قال صاحب كتاب أشكال الأرض: «ومن حد بخارى إلى وادي السعد يميناً وشمالاً ضياع تتصل إلى جبال المتم لا تقطع خضرتها، ومقدارها في المسافة ثمانية أيام، مشتبكة بالبساتين، والخضراء والرياض محفوفة بالأنهار الجارية والأحواض في صدور رياضها ومبانيها مخضرة الأشجار والزروع متدة على جانبي واديهما من وراء الخضراء، ومن وراء الخضراء على جانبي النهر مزارعها وقصورها والقهندزات من كل مدينة ومدينة من كل مدينة، ومدينة تبصر في أضعاف خضرتها كأنها ثوب دياج أخضر قد شهر بمجاري مياهها وزينت بين صيف قصورها في ارعنى بلاد الله وأحسنها أشجاراً، وأطيبها ثماراً.

وعامة مساكن سمرقند بالبساتين والرياض والمياه الجارية فما تخلو سكة ولا محلّة ولا ناحية ولا سوق ولا دار ولا قصبة من نهر جار أو بركة واقفة، وبسائل ما وراء النهر من أنهار المتخرقة، والرياض المتصلة، والأشجار المختلفة، والشمار الكثيرة ما لا يوجد مثله في سائر الأمصار لا دمشق ولا غيرها؛ وإن قيل: إنَّ متنزهات الدنيا أربعة؛ غوطة دمشق أحدها. وقال بعضهم: إنها أفضليها؛ ولكنَّ سعد سمرقند أطول وأعرض وأفصح وأكثر ماءاً وأمدُّ مدى تجول العين في فضائِه»^(٢).

حدَّثني السيد الشريف جلال الدين حسن بن أبي المجاهد الحسيني السمرقندى عن طول مدى السعد، فقال: يقدر عشرة أيام بالسير المعتاد.

قلت وقد قال صاحب أشكال الأرض: إنَّ يكون ثمانية أيام، فقال: لا، لا يكاد

(٢) انظر: صورة الأرض ٤٠٩-٤٠٧.

(١) انظر: صورة الأرض ٤٠٩-٤٠٧.

يقصر عن عشرة أيام فأين غوطة دمشق من هذا؟ أو كلها من منبع الماء من واديها إلى تناهيه لا يبلغ نصف يوم مع كون السعد مكسوفاً كتافر العين من أوله إلى آخره /٧٩ في فرد مدى نظر وما غوطة دمشق هكذا لاكتناف الجبلين لواديها؛ ولأنَّ أنهار السعد واضحة في خلل خمائتها ممتدة في بسيط الحضرة لا يحتجب ولا يخفى عن العين، ولبيست الأنهر بدمشق مكسوفة إلا في مجرى الوادي بها. فأمّا إذا أشرف المستشرف عليها فإنه لا يرى إلا ما يليه، ولا تقع عينه إلا على ما يحاذيه، ولقد بقي من سمرقند منعة الأ بصار على ما نابها من التوابع، واعتبرت أنهارها من الشوائب، ويليت به أغصانها مما تشيب له الذوابع أيام جنکرخان وأبنائه، وما رميته به من حوادث الحديث في تلك المُندَد، وإذا حصل الإنصاف قيل: إنَّ غوطة دمشق قطعة من سعد سمرقند.

«وأمّا البتم فهو جبال شاهقة سامقة منيعة، والغالب عليها النزهة والحضره والبللة المعروفة بالطرخون^(١)، وهي قري آهلة بالناس.

وبالبتم حصون منيعة جداً، وفيها معادن ذهب وفضة وزاج ونوساذر؛ وفي كل جبل من جبال البتم كالغار وقدبني عليه واستوثق من أبوابه وكواه. وفيها عين يرتفع منها بخار يشبه الدخان بالنهر والنار بالليل؛ فإذا تلبد هذا الدخان في حائط ذلك البيت وسقفه قُلع منه النوساذر. وداخل هذا البيت من شدة الحرّ ما لا يتھيأ لأحد أن يدخله إلا احترق إلا أن يلبس اللبود المبلولة، ويدخل المختلس ويأخذ ما يقدر عليه حتى يظهر، فإذا خفي في مكان حضر عليه في آخر إلى [أن] يوجد؛ وإذا لم يكن عليه مبنياً يمنع البخار من التفرق لم يضر من قاربه حتى إذا احتنق في بيت احترق من يدخله لشدة الحرّ»^(٢).

وأما غزنة^(٣) فكانت مستقر سبكتكين^(٤) - والد السلطان يمين الدولة وأمين الملة محمود - فلما انقضت الدولة السامانية بابتداء أيامه وتبدل ملاهיהם بحد حسامه.

(١) الطرخون: هو الترخون نوع من الخضروات (فرهنگ رازی ٥٧٤) بقلة زراعية معمرة، أوراقها تؤكل (المعجم الوسيط ٥٧٣/٢).

(٢) انظر: صورة الأرض ٤١٥.

(٣) غزنة: بلد السلطان محمود بن سبكتكين، كانت كبيرة، شديدة البرد «رحلة ابن بطوطة ٢٦١».

(٤) سبكتكين هو ناصر الدين سبكتكين، كان مملوكاً لأليتگين وعمل بحجابة أبي إسحاق حتى مات الأخير فتولى أمر غزنة وأسس دولة الغزنويين (انظر: أخبارها في زين الأخبار ردیزی ٥٤، روضة الصفا ١٢٩ وما بعدها، ابن كثير ٢٨٦/١١، ابن الأثير ٨٦/٧).

وكانت غزنة دارهم ومثواهم استمروا بها، ونقلوا عن بخارى قاعدة الملك إليها، ثم تناوب بنوه /٨٠/ الجلوس على سريرها، ثم استقرت الملوك الغورية وقاعدة سلطانهم ومنبع أعواهم.

وغرنة مخصوصة بصحبة الهواء، وعذوبة الماء والأعراض بها قليلة؛ وأرضها لا تولد الحيات والعقارب والحشرات المؤذية؛ ومنها خرج الرجال الأنجاد. وتأمل مواقف ملوكها في غزو الهند والترك وذبّهم عن بيضة الإسلام والملك وما أبقيت آثار الغورية - رحمهم الله - على قصور عددهم وقصر مدهم، لقد كملوا ما بدأ به السلطان محمود بن سبكتكين في غزوات الهند وشنوا بها الفتوح حتى دخل الإسلام تلك الممالك العظمى.

وعلى الحقيقة ما فتحوا الهند، بل فتحوا الدنيا وبذلك على هذا ما تقدم ذكره.
وأما غزنة فهي مدينة مضافة للسندي، وقيل: إنها منها.

وقال صاحب كتاب صفة الأرض: إنَّ غزنة من بلاد السندي؛ وهي واقعة في الثالث.

قال أبو سعيد منصور - زعيم جرجان^(١) - ولم أر بلدة في الصيف أطيب، وفي الربيع أشهى، وفي الخيرات أنظف من غزنة؛ وهي قليلة الأشجار؛ ولهذا صحّ هوائها وسلم من مرورها على النقائع الوخمة، وأصول الشجر المعقة.

وأما تركستان فملكة لو انفردت، وكانت ملكاً كبيراً وسلطنة جليلة، زهرة الدنيا وطراز الأرض. بلاد الترك حقيقة. من كناسها رمت غزلانها، ومن غاباتها أصحرت ليوثهم.

وهي إقليم فسيح المدى، قديم الذكر منشأ حماة ومشرب كماة؛ وهي المرادة بقولهم: بلاد الترك، ولم تزل الملوك تلحظها لاتفاق بوادرها، والتقاء زواخرها فأشدّ ما أنكرت فجاءت قدامهم في سورة غضبهم ولفعحة نارهم فأمالت السيوف حصائد آجالهم، ولم يبق إلاّ من قلّ عديده.

حكى لي من جال في رساتيقها وجاز في قراها: أنه لم يبق من معالمها إلاّ رسوم دائرة، وأطلال بالية على بعد.

والقرية /٨١/، مشيدة البناء مخضرة الأkenاف، فيأنس لعله يجد بها أنيساً ساكناً، فإذا جاءها وجدها عالية البناء، خالية من الأهل والسكان إلاّ أهل العمد وأصحاب

(١) جرجان هي گرگان، إقليم في شمال إيران المجاور لخوارزم ويقع الآن في جمهورية تركمانستان.

السائمة، ليست بذات حرث ولا زرع؛ وإنما خضرتها أطلعتها تباريها، وبها من النباتات البرية لا يذرها باذر، ولا زرعها زارع ويوجد بها خلف من بقايا العلماء وتجري البتم بالتراب لعدم الماء.

«وأما الشاش^(١) فمقدار عرضها مسيرة يومين في ثلاثة أيام، وليس بخرسان ولا ما وراء النهر إقليم صغير على قدرها في صغر المساحة أكثر منها منابر وقرى عامرة وقوة شوكة؛ وهي في أرض سهلة ليس بها جبل ولا أرض مرتفعة حزنة؛ هي أكبر ثغر، وأبنائهم من طين، وعامة دورهم تجري فيها المياه؛ وكلُّها مستترة بالخضراء؛ ولها مدن كثيرة تتداوى وتتقارب مسافتها»^(٢).

«وأما استيğاب^(٣) فمدينة لها قهندز وربض؛ أما القهندز فخراب، والمدينة والربض عامران.

وعلى المدينة سور يحيط بها مقدار فرسخ، وفي ربعها مياه وبساتين، وبناؤها بطين؛ وهي مستوٍ من الأرض، ولها أربعة أبواب.

وهي مدينة ذات خصب وسعة، ولا خراج عليها، ومن مدنها: الطراز^(٤)، وبوحكرت، وكحندة.

«وأما باراب^(٥) فهو اسم الناحية، ومقدارها في الطول والعرض أقلَّ من يوم، وبها منعة وبأس؛ وهي في سبخة؛ وأما غياض ومزارع وقصبتها تسمى كندر، ومنها فيلسوف الإسلام أبو نصر البارابي^(٦) مفسِّر كتب القدماء، المتقدم في العلوم العقلية

(١) الشاش: هي جاج من أعمال أشروستة «آثار البلاد» -٥٤٨ تاريخ بخارى لغامري ٩٤.

(٢) انظر: صورة الأرض ٤٦.

(٣) استيğاب: هي واسية جانب قرية قرب الشاش من بلاد فرغانة «معجم البلدان» ٤/١٠١٤.

(٤) الطراز هي تلأس الواقعة في صحراء لامس «الجويني» ٢/٧٧ -٩١.

(٥) باراب تقع على ضفتي سيردريا (سيحون) «تركتستان» ٢٩٢.

(٦) محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابي، ويعرف بالمعلم الثاني: أكبر فلاسفة المسلمين. تركي الأصل، مستعرب. ولد في فاراب (على نهر جيحون) سنة ٢٦٠ هـ/٩٧٤ م وانتقل إلى بغداد، فنشأ فيها، وألف بها أكثر كتبه. ورحل إلى مصر والشام. واتصل بسيف الدولة ابن حمدان. وتوفي بدمشق سنة ٣٣٩ هـ/٩٥٠ م كان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره، ويقال إن الآلة المعروفة بالقانون من وضعه؛ ولعله أخذها عن الفرس فوسعاها وزادها إتقاناً فنسبها الناس إليه. وعرف بالمعلم الثاني، لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأول) وكان زاهداً في الزخارف، لا يحفل بأمر مسكن أو مكسب، يميل إلى الانفراد بنفسه، ولم يكن يوجد غالباً في مدة إقامته بدمشق إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض. له نحو مئة كتاب، منها «الفصوص - ط» ترجم إلى الألمانية، «إحصاء العلوم والتعریف بأغراضها - ط» و«آراء أهل المدينة الفاضلة - ط» و«إحصاء الإيقاعات - خ» =

على كل متقدم ومتأخر.

والناس يقولون: الفارابي، والصحيح البارابي - بالباء الموحدة - لأنَّ هذه تسمية تركية، وليس في اللغة التركية فاء.

وأمّا خجنده^(١) فإنها متاخمة لفرغانة؛ وهي في جملتها، وهي منفردة بأعمال خاصة؛ وهي على نهر الشاش في غربه، وطولها أكثر من عرضها وبساتينها ودورها متفرقة، ولها قرئي يسيرة.

وهي مدينة نزهة وفواكهها حسنة /٨٢/ ولكنها تضيق بها من درعاتها فتجلب الغلات من فرغانة وآشروسنة إليها، وينحدر إليهم بها السفن من نهر الشاش؛ وهو نهر عظيم، ويعظم بأنهار تجتمع إليه في حدود الترك وعموده نهر يخرج من بلاد الترك في حدود دوازكند، ثم يجتمع إليه أنهار فيغزر، ويمتد على خجندة يمُرُّ على ساكت فيجري إلى باراب، وإذا جاوز حدّ صيران جرى في برية يكون في حاشية بلد الأتراك العرن فيمتد حتى يقع في بحيرة خوارزم.

قال صاحب كتاب أشكال الأرض: «وهو نهر إذا امتدّ يكون نحو ثلثي نهر جيحون.

وأمّا فرغانة فهو اسم الإقليم؛ وهو عمل عريض موضوع على سعة مدنها وقرها وقاعدتها مدينة أخشيلب^(٢)؛ وهي على شط نهر الشاش على أرض مستوية؛ ولها

= في النغم، نحو ٣٠ ورقة، في معهد المخطوطات، و«المدخل إلى صناعة الموسيقى - خ» و«الموسيقى الكبير - ط» و«الأداب الملوكيّة - خ» و«مبادئ الموجودات» رسالة ترجمت إلى العربية وطبعت بها، وإبطال أحکام النجوم - خ» نسخته بطهران، و«أعراض ما بعد الطبيّة - خ» و«السياسة المدنية - خ» و«جوانب السياسة - ط» رسالة، و«النوميس» و«الخطابة» و«وما ينبغي أن يتقدم الفلسفة» وكتاب في أن «حركة الفلكل سرمدية» ولمصطفى عبد الرزاق، كتاب «فيلسوف العرب - ط» في سيرته، ومثله «الفارابي - ط» لإلياس فرح، و«الفارابي - ط» لعباس محمود.

ترجمته في: وفيات الأعيان /٢٧٦ وطبقات الأطباء /٢١٤٠ و ١٤٠، Brock. I: 232 (210), S. I: 375 و ٢٢٤/١١ و تاريخ حكماء الإسلام ٣٠ و ابن الوردي /١ ٢٨٤ و آداب اللغة /٢ ٢١٣ و آداب البداية والنهاية ٤٩٠ و ٤٠٢ و ٣١٤ و ٥٧ وفي المقتطف Princeton 26 I, 589 و ١٠٦/١ و ٢٣٦ في دائرة المعارف الإسلامية /١ ٤١٢ - ٤٠٧ و ٢٥٩ وأخبار مستفيض عنه. والوافي بالوفيات /١ ٢٦٢ و ٢٣٦ وكاردوفو Carra de Vaux B. في الكفاءات ١٨٢ و ٢٣٦ ثم ١/٢٦٦ : إحصاء العلوم / مقدمته. وانظر Huart 28I، ومحاضرات الفلسفة العربية للكونت دي جalarza ٤ - ٣٥ ومجلة معهد المخطوطات /٤ ٣٩، الأعلام ٢٠/٧.

(١) لينين آباد الحالية في تاجيكستان.

(٢) هي أخسيكث قصبة فرغانة آنذاك - جنوب غربي نامجان تقع على نهر سردبار الأيمن، لها خمسة أبواب انظر وصفها عند ابن حوقل ٣٩٣ - ٣٩٤، المقدسي ٣٧١.

قهندز وربض ومقدارها نحو ثلث فرسخ، وبناؤها من طين، وعلى ربضها سور وعليه أبواب من المدينة.

وفي الربض مياه جارية، وحياض كثيرة؛ وكل باب من أبواب ربضها يفضي إلى بساتين ملتفة، وأنهارها لا تقطع مقدار فرسخين وبجادتها إذا عبر نهر الشاس مروج ومزارع كثيرة ومال مقدار مرحلة، ويليها مدينة قنا - وهي من فرغانة - من أنزه مدنها؛ لها قهندز وربض؛ والقهندز خراب، والجامع في القهندز، وأسوقها في ربضها، ودار الإمارة في الربض وعليه سور محيط به، ولها بساتين كثيرة، ومياه غزيرة، ويليها في الكبر أوش^(١) من فرغانة ملاصقة للجبل وهي مدينة عامرة ذات قهندز عamer، ولها ربض وعليه سور ولها ثلاثة أبواب^(٢).

أوزكند^(٣) وهي آخر مدن فرغانة لها قهندز وربض وأسوقها في الربض مطرزة بالبساتين والمياه الجارية^(٤).

قال صاحب كتاب أشكال الأرض: «وليس بما وراء النهر أكثر قرى من فرغانة؛ وربما بلغ حد القرية مرحلة لكتمة أهلها وانتشار مواشيهم في المراعي»^(٥).

وسألت عن هذا العميد أبا المكارم حميد بن محمد الفرغاني، فقال: كانت أكثر مما قال، والبلاد باقية على هذا الحال في الاتساع؛ / ٨٣ / ولكن قد قلل ناسها. وأما أشروسنة^(٦) فهو اسم الإقليم كالسعن، وقاعدتها مدينة بومحكت^(٧)، وبها من المدن أرسبيا نيكت^(٨) وعرق^(٩) وفنكث^(١٠) وساباط^(١١) ورامين^(١٢).

(١) أوش: إحدى مدن فرغانة، وكانت من أكبر مدن الثغور مع الترك، وهي ثالث مدن فرغانة من حيث الرقعة وت تكون من شهرستان وقلعة وربض (الأصطخري ٣٣٥).

(٢) الأبواب الثلاثة هي: باب الجبل، وباب النهر، وباب مغكدرة (تركمستان ٢٦٧).

(٣) أوزكند: تكتب أيضاً يوزكند بها شهرستان وقلعة وربض ولها أربعة أبواب، وتقع على نهر قرادريا «ابن خرداذبه ٣٠».

(٤) انظر: صورة الأرض ٤٢٠. (٥) انظر: صورة الأرض ٤٢٠.

(٦) أشروسنة: إقليم من بلاد الترك عاصمته بونجكث وهي تكتب أشروسنة «انظر: ابن خرداذبة ٢٩، الأصطخري ٣٤٣».

(٧) بومحكت هي بونجكث أو بونجكث كانت تتكون من قلعة وشهرستان يشقه النهر، وربض «الأصطخري ٣٢٦ - ٣٢٧، ابن حوقل ٣٧٩ - ٣٨٠، المقدسي ٣٧٧».

(٨) هي مدينة ارسبيانيك أو ارسبيانيكث، على حدود فرغانة (المقدسي ٣٦٥).

(٩) عرق وهي غزن على فرسخين من فنكث وستة من خجند (الأصطخري ٤٣٢٦).

(١٠) فنكث: هي فنكث على ثلاثة فراسخ بونجكث على طريق خجند (ابن حوقل ٤٠٤، الأصطخري ٣٢٦).

(١١) سباتط: وتقع ما بين سمرقند وخجند، بينها وبين زامين ثلاثة فراسخ «انظر: الأصطخري ٣٤٣».

قال صاحب الروض المعطار في أخبار الأقطار: «أشروستة أرض يحيط بها من إقليم ما وراء النهر من شرقها بعض فرغانة، ومن غربها بلاد الصعد والصغانيات، وشمالها بلاد الشاس»^(١).

ولاشروستة مدن كثيرة ومملكتها واسعة جليلة، ويقال: إنَّ فيها اربع مائة حصن، ولها وادٍ عظيم يأتي من نهر سمرقند، ويوجد في ذلك الوادي سبائك الذهب.

وقال صاحب كتاب أشكال الأرض: «أما مدينة تومجكث^(٢) فهي مسكن الولاية تحرز رجالها نحو عشرة آلاف رجل^(٣)، وبناؤها بطين وخشب، وعليها سور، ولها ريض وعلى ربعها سور، ولها سور ثالث من [وراء] ذلك.

وللمدينة الدخلة بابان^(٤)؛ وداخل المدينة المسجد الجامع والقهندز، ودار الإمارة في الربض في مربعة الأمير.

ويجري بالمدينة الدخلة نهر كبير عليه رحى وأسواقها في المدينة الدخلة؛ ولها بساتين وكرום وزروع؛ وذلك كله دون السعد، ولها أربعة أبواب، ولها ستة أنهار جميعها من عين واحدة ومتبع واحد. مقدار مائتها يزيد على عشرة أرحبة، ومن المدينة إلى منبع الماء مقدار نصف فرسخ، ويليها في الكبر مدينة زامين^(٥) وهي على طريق فرغانة إلى السعد، وباقي بلادها متقاربة في الكبر والتزهه والبساتين والمياه^(٦).

الفرقة الثانية: في خوارزم والقبحاق

حدّثني الشيخ نجم الدين بن الشمام الموصلي: أنَّ هذه المملكة مُتسعة الجوانب طولاً وعرضًا كثيرة الصحراء، قليلة المدن، وبها عالم كثير لا تدخل تحت حدّ؛ وليس لهم كبير بقع لقلة السلاح ورداءة الخيول. / ٨٤ / وأرضهم سهلة قليلة الحجر لا

= المقدسي ٣٤٢، ابن خرداذبة ٢٧ ويدرك اسكفارسكي إنها قرية اسكي سقط «تركمستان حاشية ص ٤٢٧٩».

(١٢) رامين: هي زامين الواقعة على ضفتي نهر، بجوار مدينة سرستنه الجديدة «ابن حوقل ٣٨١ - ٣٨٠ المقدسي ٢٧٧».

(١) الروض المعطار في أخبار الأقطار: لمحمد عبد المنعم الحميري (ت أوائل القرن الثامن الهجري).

(٢) بونجكث: كبرى مدن أسرؤشتة وقصبتها.

(٣) في القرن العاشر الهجري «انظر: الأصطخري ٣٢٧».

(٤) الباب الأعلى وباب المدينة «ابن حوقل ٣٧٩ - ٣٨٠».

(٥) زامين: تقع على ضفتي نهر ليس بعيداً عن مخرجيه من الجبال «ابن حوقل ٣٨١ - ٣٨٠، المقدسي ٢٧٧».

(٦) انظر: صورة الأرض ٤١٤.

تطيق خيل ربيت فيها الأوعار؛ فلهذا يقلّ غناء أهل هذه المملكة في الحروب، وليس لملوكيهم عظيم عناية بالأوضاع، وترتيب سلطان هذه البلاد في أمور جيشه وسلطانه ترتيب مملكة العراق والعجم في عدة الأمراء والأحكام والخدم؛ ولكن ليس لأمير الألوس^(١). والوزير بها تصرف أمير والألوس والوزير بتلك المملكة. ولا لسلطان هذه المملكة نظير ما لذلك السلطان من الدخل والمجابي وعدد المدن والقرى، ولا مشى أهل هذه المملكة على قواعد الخلفاء مثل أولئك.

ولخواتين هؤلاء مشاركة في الحكم معهم وإصدار الأمور عنهم مثل أولئك وأكثر إلا ما كانت عليه بعذاذ بنت جوبان^(٢) - امرأة أبي سعيد بهادر بن خدابنده - فإننا ما رأينا في زماننا ولا سمعنا عن قارب زماننا أن امرأة تحكمت بحكمها. وقد وقفت على الكثير من الكتب الصادرة عن ملوك هذه البلاد من عهد بركة^(٣) وما بعده وفيها: واتفقت آراء الخواتين والأمراء على كذا أو ما يجري هذا المجرى.

وقاعدة الملك بها السراي^(٤) وهي مدينة صغيرة بين رمل ونهر، وقد بنيت بها سلطانها القائم بها الآن أزبك خان^(٥) مدرسة للعلم؛ وهو معظمه لجانب العلم وأهله.

وحديثي الصدر زين الدين عمر بن مسافر: أنَّ هذا السلطان أزبك غير ملتفٍ من أمور مملكته إلَّا إلى جمليات الأمور دون تفصيل الأحوال، يقنع بما جمل إليه ولا

(١) الإلوس: الكلمة مغولية تعني قبيلة وجماعة، فهناك الوس جوجي والوس جغتاي والوس هولاكو.

(٢) بغداد بنت جوبان: هي بنت جوبان أمير أمراء أبي سعيد بهادر وقد قتل أبو سعيد بهادر أخاه ثم قتل أبوها وأخويها على يد حاكم هراة، وتزوج أبو سعيد بهادر من بغداد خاتون وكانت أجمل النساء وتحت الشيخ حسن فطلقها الشيخ حسن وتزوجها، وكانت أحظمي النساء لديه حتى قتلت أبي سعيد بهادر لأنَّه هجرها فقتلها الشيخ حسن وجلس على العرش «رحلة ابن بطوطة ١٥٢-١٥٤».

(٣) برکای خان من نسل جغتاي حارب هولاکو وابنه آباچاخان، وكان قد أسلم وحسن إسلامه «انظر: جامع التواریخ ١٤/٢، ٣٤١/١» وهو برکة بن جوجي حكم ما بين سنة ١٢٦٦-١٢٥٧م «ترکستان ٧١٩».

(٤) مدينة السراي: حاضرة السلطان أزبك، وهي من أحسن المدن قال عنها ابن بطوطة أنها في بسيط من الأرض تغص بأهلها كثرة، حسنة الأسواق متعددة الشوارع بها الأص وهم مسلمون والقمحق والجركس والروس والروم وهم نصارى «رحلة ابن بطوطة ٢٣٨-٢٣٧».

(٥) أزبك خان: أحد الملوك السبعة الكبار، عظيم المملكة، شديدة القوة، كبير الشأن، رفيع المكان، قاهر لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمى، مجتهد في جهادهم، وبلاه متعددة، ومدنه عظيمة منها الكفا والقرم والماجر وآزاق وسودان وخوارزم وحاضرته سرا «رحلة ابن بطوطة ٢٢٠» وهو أزبك بن طوغريلجه بن مونكوتيمور بن توقوخان بن باتو بن جوجي، حكم ما بين ١٣١٣-١٣٤١م «ترکستان ٧١٩».

يفحص عن وجوهه في القبض والصرف؛ وأنَّ لكل امرأة من خواتينه جانبًا من الحمل^(١)؛ وهو يركب كلَّ يوم إلى امرأةٍ منها يقيم ذلك اليوم عندها يأكل في بيتها ويشرب^(٢)، وتلبسه بدلة قماش كاملة، ويخلع التي كانت عليه؛ وممن يتفق من حوله وقماشه ليس بفارق الجنس ولا غالٍ الثمن.

وهو مسلمٌ، حسن الإسلام، متظاهر بالديانة والتمسك بالشريعة، محافظ على إقامة الصلاة ومداومة الصيام مع قربه من الرعايا والقادرين إليه. / ٨٥ / ولبيت يده بمبسوطة بالعطاء، ولو أراد هذا لما وفى له به دخلٌ بلاده.

وغالب رعاياه أصحاب عُمد في الصحراء أقواتهم من بواسطتهم من الخيل والبقر والغنم، والزرع عندهم قليل؛ وأقله القمح والشعير. وأمَا الفول فلا يكاد يوجد، وأكثر الموجود عندهم من الزروع الدخن منه أكلهم، وعليه فيما يخرج الأرض كلّهم. والأسعار في جميع هذه المملكة رخيصة إلى غاية.

الأكرانج^(٣) أم إقليم خوارزم؛ وهي المعبر عنها بخوارزم؛ فإنها متصلة في أسعار الغلات؛ قلَّ أن ترخص، بل هي إما فعلية أو متوسطة لا تعرف الرخص أبداً. وأمَا اللحوم فإنَّها رخيصة وكثيراً ما تذبح الخيل بهذه البلاد.

وأمَا سكان البرّ منهم فإنه لا يباع ولا يشتري بينهم اللحم، وغالب أكلهم من لحوم الصيد واللبن والسمن والدخن؛ فإن تلفت لأحد منهم دابة مثل فرس أو بقرة أو شاة ذبحها وأكل هو وأهله منها، وأهدي إلى جيرانه؛ فإذا تلفت لهم أيضاً شاة أو بقرة أو فرس ذبحها وأهدي إلى من أهدى إليه فلا يكاد تخلو بيوتهم من اللحم بهذا السبب؛ لأنَّ هذا معروف بينهم كأنَّ هدية اللحم بينهم قرضٌ يُوفى.

وفي سلطان هذه المملكة طوائف الجركس^(٤) والروس^(٥) والأص^(٦)؛ وهم أهل

(١) وكذلك كان يفعل أبو سعيد بهادر «انظر: رحلة ابن بطوطة ١٥٤».

(٢) تكون كل خاتون من خواتينه على حدة في محلتها، فإذا أراد أن يكون عند واحدة منها، بعث إليها بمن يعلمها بذلك فتهيأ له «رحلة ابن بطوطة ٢٢١».

(٣) أي گرگانج التي سماها العرب المسلمين جرجانية وسماها المغول أوركنج.

(٤) الجركس: أو الشركس أو نشركسيا، قوم يقطنون إقليماً شاسعاً من ولاية كوبان في روسيا أوروبا، والشراكسة رعاة ومقاتلة، في الغالب طوال القامات، عارض المنكبين، نحاف الجسم صغار اليدين والرجلين، «دائرة معارف البستانى ٤٣٩ / ١٠».

(٥) الروس: قوم كانوا ضمن أملاك جوجي وأولاده وكان بعضهم يسكن مدينة السرا عاصمة دولتهم في القرن الثامن الهجري، وكانوا في المنطقة الواقعة شرق جبال آرال.

(٦) الأص: هم الآس ويعرفون عند بعض الكتاب بالألان والأوستنيت «جامع التواریخ ٢١٢ / ١».

مدن عامرة آهلة وجبال مشجرة مثمرة ينبت عندهم الزرع، ويدرّ المضرع، وتجري الأنهر، وتجنى الشمار، ولا طاقة لهم بسلطان هذه البلاد، وهم معه وإن كانت لهم ملوك كالرعايا؛ فإن داروه بالطاعة والتحف والطرف كف عنهم وإلا شن عليهم الغارات وضايقهم بالحصار.

وكم مرة قتل رجالهم وسيئ نسائهم وذريتهم وجلب رقيقهم إلى أقطار الأرض. وما ينظم إلى جناح هذا السلطان قوم من الترك في نهاية الشمال من حدوده، وهم في جهد من قشف العيش؛ لأنهم ليسوا أهل حاضرة لهم زرع. وشدة البرد تهلك مواشיהם؛ وهم همج رعاع لا لهم مسكة بدين ولا رزانة في عقل، وهم لشنة ما بهم من سوء الحال؛ إذا /٨٦/ وجد أحدهم لحمًا سلقه ولم ينضجه، وشرب مرقه وترك اللحم ليأكله مرة أخرى، ثم يجمع العظام ويعاود صلتها مرة أخرى وشرب مرقها، وقس على هذا بقية عيشهم.

وأخبرني الصدر جمال الدين عبد الله الحصني التاجر: أن ليس كثير من أهل بادية هذه المملكة الجلود سواء أكانت مذكاة أو ميّة مدبوغة أو غير مدبوغة من الحيوان الظاهر أو غير الحيوان الظاهر، ولا يعرفون في المأكل ما يعاف مما لا يعاف ولا التحرير من التحليل، وأنهم في الأزمات يبيعون أولادهم ليتوتووا بأثمانهم إذا ضاقت بهم الأحوال في بعض السنين، ويقولون عمن يبيعون من أولادهم: نعيش نحن ولا وهو خير مما نموت نحن وهو.

وجاريت الصدر زين الدين عمر بن مسافر في حديث هذه البلاد وسألته عما قاله عبد الله الحصني، فقال لي: كلّ ما أخبرك به صحيح.

قلت: وترك هذه البلاد هم خيار الترك أجناساً؛ لوفائهم وشجاعتهم وتجنبهم الغدر مع تمام قاماتهم، وحسن صورهم، وظرافة شمائهم؛ ومنهم معظم جيش مصر؛ لأن سلطينها وأمراءها منهم منذ رغب الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل^(١) في مشارق المماليك القبجاق.

= والأوسيت الآن إقليم ذات حكم ذاتي في الاتحاد الروسي وتسمى أوسيتيا الشمالية وآخر تابع لجورجيا ويسمى أوسيتيا الجنوبية وبها يسكن الأصـ.

(١) أيوب (الملك الصالح) بن محمد (الملك الكامل) بن أبي بكر (العادل) بن أيوب، أبو الفتح نجم الدين: من كبار الملوك الأيوبيين بمصر. ولد في القاهرة سنة ٥٦٠ هـ / ١٢٠٦ م ونشأ بها. وولي بعد خلع أخيه (العادل) سنة ٦٣٧ هـ. وضبط الدولة بعزم. وكان شجاعاً مهيباً عفيفاً صموتاً. عمر بمصر ما لم يعمره أحد من ملوكبني أيوب. وفي أواخر أيامه أغارت الإفرنج على دمياط (سنة ٦٤٧ هـ) واحتلوها

ثم انتقل الملك إليهم مالت ملوكهم إلى الحبسية^(١) ورغبت في الاستكثار منهم حتى أصبحت مصر بهم آهله المعالم محمية الجوانب منهم أقمار مواكبها وصدر مجالسها وزعماء جيوشها وعظاماء أرضها، وحمد الإسلام مواقفهم في حماية الدين وجهادهم أقاربهم وأهل جنسهم في الله لا تميل لهم حنه ولا تأخذهم في الله لومة لائم وكفى بالنصرة الأولى نوبة.

«عين جالوت»^(٢)

لما خرج الملك المظفر قطز^(٣) - صاحب مصر إذ ذاك - في سنة ثمان وخمسين وستمائة وكسر عساكر هولاكو على عين جالوت، ورحل هولاكو عن حلب عائداً، ونهض الجيش المصري بما عجزت عنه ملوك أقطار الأرض مع اجتهاد السلطان جلال الدين محمد بن خوارزم شاه^(٤) /٨٧ - رحمه الله تعالى - حتى قتل.

=
وأصاب البلاد ضيق شديد، وكان الصالح غائباً في دمشق، فقدم ونزل أمام الفرنج وهو مريض بالسل فمات بناحية المنصورة سنة ٦٤٧هـ /١٢٤٩م، ونقل إلى القاهرة. من آثاره قلعة الروضة بالقاهرة.
ترجمته في: خطط المقربي ٢٣٦ /٢ وابن إياس ٨٣ /١ والسلوك للمقربي ١ /٢٩٦ - ٣٤٢ وتاريخ الإسحاقى ١٨٩ ومرآة الزمان ٧٧٥ /٨ والأعلام ٣٨ /٢.

(١) المماليك الذين يجلبون من الحبشة.

(٢) عين جالوت: من مدن الشام، وفيها وقعت معركة حامية بين المغول والمصريين بقيادة قطز في ٢ سبتمبر سنة ٦٥٨هـ «النجوم الزاهرة ٧٩ /٧، ابن كثير ١٣ /٢٢٠، السيوطي ٤٧٥، ابن إياس ١ /٣٠٦، القلقشندي ٢ /١٠٥».

(٣) قطز بن عبد الله المعري، الملك المظفر، سيف الدين: ثالث ملوك الترك المماليك بمصر والشام. كان مملوكاً للمعز «أبيك» التركمانى. وترقى إلى أن كان في دولة المنصور بن المعز «أتابك» العساكر. ثم خلع المنصور، وتسلط مكانه (سنة ٦٥٧هـ) وخلع على الأمير ركن الدين «بيبرس» البندقداري وجعله «أتابك» العساكر وفوض إليه جميع أمور المملكة. ونهض لقتال «اللتار» وكانوا بعد تحرير بغداد قد وصلوا إلى دمشق، وهددوا مصر؛ فجمع الأموال والرجال، وخرج من مصر، فلقي جيشاً منهم في «عين جالوت» بفلسطين، فكسره (سنة ٦٥٨هـ) وطارد فلوله إلى «بيسان» فظفر بهم، ودخل دمشق في موكب عظيم، وعزل من بقي من أولادبني أيوب واستبدل بهم من اختار من رجاله. ورحل بريء مصر. وبينما هو في الطريق تقدم منه أتابك عسکره «بيبرس» ووراءه عدد كبير من أمراء الجيش، فتناولوه بيسيوفهم فقتلواه سنة ٦٥٨هـ /١٢٦٠م. ودفن بالقصير. ثم نقل إلى القاهرة.

ترجمته في: مورد اللطافة، لابن تغري بردي ٣٨ - ٣٥ وابن إياس ٩٦ /١ والسلوك للمقربي ١ /٤١٧ - ٤٣٥ وفيه: يقال: إن اسمه محمود بن ممدود وإن أنه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وإن أبوه ابن عم السلطان جلال الدين، وإنما سبى عند غلبة التتار، فبيع بدمشق ثم انتقل إلى القاهرة.

والنجوم الزاهرة ٧٢ /٧ وفوات الوفيات ١٣٢ /٢ وذيل الروضتين ٢١٠ والأعلام ٥ /٢٠١.

(٤) جلال الدين محمد بن خوارزم شاه وأخر سلاطين الدولة الخوارزمية، حارب التتار وقاومهم، وضاعت دولته في أول هجماتهم، قتل سنة ٦٢٩هـ «العبر ٥ /١١٤»، وهو جلال الدين منكربتي أو منكربتي بن

ولم يكن الجيش المصري بالنسبة إلى الجيوش الجلالية إلا كالنقطة في الدائرة والنسبة من البحر والله يؤيد بنصره من يشاء ﴿...كُمْ مَنْ فِتَّقَ فَلَيْلَةً غَبَّتْ فِتَّةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الْمُصْدِرِينَ﴾^(١). وهذا من المعجزات النبوية؛ وهو قوله^(٢) - ﷺ : «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على من عاداهم إلى يوم القيمة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك، ألا وهم الجندي العربي»، وقوله: «ألا وهم الجندي العربي» زيادة في بعض الروايات، وهذه الرواية إن لم تصح روایتها صحت بالمعنى؛ لأن هذه الطائفة هي كانت الطائفة الظاهرة التي أرادها النبي - ﷺ - في قولهم وعناهم بها؛ لأنه لم يظهر على التمار سواهم، وبهذه النصرة دامت النصرة على التمار. وكانت بهم لا بغيرهم مع كثرة من كان من ملوك الإسلام واجتهدوا في الجهاد فتماسك بهذه المرأة رقم الإسلام وبقيت بقية الدين ولو لا لانصياع شعب الأمة وهي عمود الملة ووصلت خيل عبدة الشمس إلى أقصى المغرب، ودكت جميع رعنان الأرض.

وهذه جملة معترضة ساقها الاستطراد بذكر أهل البلاد.

ونعود الآن إلى ذكر ما كان فيه من ذكر بلادهم وأحوالهم فيها.

هذه البلاد من أكثر الأرض ماءً ومرعى وأخصبها زرعاً إذا زرع بها؛ ولكنهم أهل حلٍ وترحال، وأصحاب ماشية ليس لهم مبالغة بالزرع والغراس؛ ولقد كانت قبل استيلاء التمار عليها معمورة الجوانب؛ وهي الآن في بقايا تلك العمارة إذا زرع بها، ولكنهم فيها الأشجار المختلفة الأنواع من الفواكه العنبر والرمان والسفرجل والتفاح والكمثرى والمسممش والخوخ والجوز، وبها فاكهة تسمى بلغة القبجاق بابيك شبيهة بالتين.

والفواكه الموجودة عندهم الآن من بقايا مآباد من غراس من كان قبل هؤلاء من كأن لهم عنابة بالزرع والنصب؛ وهي كثيرة الوجود في جبالهم وما يحدث إلى المدن / ٨٨ مع كثرة مآباد.

وأما البطيخ فشحّت عندهم سحابه وشحّت على غيرها خاصة الأصفر، فإنه يبقى

= علاء الدين محمد ابن نكش بن إيل أرسلان بن أتسز بن قطب الدين محمد بن أنوشتكين غرفة حكم ١٢٣١ - ١٢٢٠ م «تركمستان ٥١١». ^١

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

(٢) انظر: الحديث النبوي الشريف في سنن الترمذى ٢١٩٢ ، مستدركات الحاكم تصوير بيروت ٤ / ٥٥٠ ، سنن ابن ماجه ، عيسى الحلبي القاهرة ٦.

عندهم طول السنة ويقده منه، وهو في غاية صدق الحلاوة وطيب الطعم مع ما يحكته من كثرة وجوده ورخصه. ومنهم من يستخرج ماءه ويعقد منه الحلواة.

ويمدنهم كثير من الخضراوات كالللفت والجزر والكرنب وغير ذلك، فأماماً في مدن الجركس والروس والأص، فإنه كثير عندهم جداً. وبها العسل الكثير الأبيض اللون اللذيد الطعم الخالي من الحدة.

وقد فشى الآن فيهم الإسلام، واسرق على أقطارهم نور الإيمان. وكان أول من دان بالدين الحنيف من ملوكهم بركة بن جوجي بن جنكيزخان^(١) ومنه لمعت في آفاقهم الشوارق إلى أن صدع الآن الضحي وتقلّصت في جمهورهم جلابيب الدجى إلا في النادر القليل.

ومع استعلائهم على جيوش الجركس والروس والماجار^(٢) والأرمن^(٣) يختلس تلك الطوائف أولاد هؤلاء وتبيعهم من التجار مع ظهور الإسلام في هذه الطائفة وإقرارهم بالشهادتين فهم مخالفون لأحكامها في كثير من الأمور.

وأول هذه الطائفة وأخرها لا يقفون مع ياسة جنكيزخان وقوف غيرهم مع مؤاخذة بعضهم البعض أشد المؤاخذة في الكذب والزنى ونبذ المواثيق والعهود.

ومن شأن ملوكهم إذا غضبوا على أحد من أتباعهم أخذوا ماله وباعوا أولاده؛ وكذلك إذا سرق سرقة استحق المسروق له مال السارق وأولاده وبايعهم.

ومن خطب إلى أحد بناته وأعطاه القليل زوجه لها ثم لا يعود يسأله عنها كما ذكرنا في مملكة ما وراء النهر.

وقال لي المولى الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيى بن الحكيم: إنَّ لسلطان هذه المملكة على جميعهم خراج يتأنّى منهم؛ وربما طلبوها بالخارج في سنة ممحلة لوقوع الموتان بدوا بهم وسقوط الثلج وجماد الجمد فباعوا أولادهم لأداء ما عليهم.

وحديثي الشريف /٨٩/ شمس الدين محمد الحسيني الكريلائي التاجر في شهر رجب الفرد سنة ثمان وثلاثين وسبعيناً حال عوده من هذه البلاد، وكان قد تجول

(١) أسلم برقة بن جوجي بن جنكيزخان على يد معلمه المسلم «طبقات ناصري» طبعه سخاو ٤٤٦.

(٢) الماجار: قوم من الترك كانوا يسكنون في مدينة الماجر وهي مدينة كبيرة من أحسن مدن الترك على نهر كبير وبها البيساتين والفوواكه الكثيرة «انظر: رحلة ابن بطوطة ٢١٩».

(٣) الأرمن هم أهل أرمينية (أرمنستان) الذين بقاياهم ببلاد سيس «صبح الأعشى ١/٣٧٠» وهي الآن جمهورية أرمينيا.

فيها في سفره وغرب فيها، ووصل إلى أقجاكerman وببلاد البلغار، وقال لي: إنَّه اشتريَ في سفرته هذه مماليك وجواري من آبائهم وأمهاتهم لاحتياجهم لخروج يسكن ملکهم إليهم بالركوب إلى بلاد إيران واحتاجوا إلى بيع أولادهم، وجلب ريقاً عالياً غالياً.

وهذه المملكة قديماً هي بلاد القبجاق فلما فاضت عليها التتار صارت القبجاق لهم رعايا، ثم خالطوهم وناسبوهم، وغابت الأرض على الجبلة والأصل، فصار الكل كالقبجاق كأنَّهم جنس واحد لسكن المغل أرض القبجاق ومصادرتهم لهم وببلادهم في أرضهم وهكذا طول المكث في كل بلد وأرض يحوز العائز إليها، ويتحول الغرائز إلى طباعها - كما قدمنا ذكره - وقد يقل اختلاف الألوان أو يزيد لسبب آخر غير البلدية.

قلتُ: ولقد كان في السرب والبلغار من قديم دار اسلام، ومستقر إيمان، ذكر هذا المسعودي في مروج الذهب وغيره^(١). فأما الآن فقد تبدلت بإيمانها كفراً، وتداولتها طائفة من عباد الصليب، ووصلت منهم رسلاً إلى حضرة سلطان مصر سنة إحدى وثلاثين بكتاب إلى سلطانها من صاحب السرب والبلغار يعرض نفسه على

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر، من أهم كتب التاريخ في القرن الرابع الهجري مؤلفه أبو الحسن بن علي حسين المسعودي، ويتناول الكتاب وقائع البشر من مولد آدم حتى سنة ٣٣٢ هـ وهذا الكتاب مطبوع في أربعة مجلدات في عدة طبعات في القاهرة وبيروت ودمشق.

أما المؤلف فهو علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن المسعودي، من ذرية عبد الله بن مسعود: مؤرخ، رحالة، بحاثة، من أهل بغداد. أقام بمصر وتوفي فيها سنة ٤٦٢ هـ / ٩٥٧ م. قال الذهبي: «عذاه في أهل بغداد، نزل مصر مدة، وكان معتزلياً. من تصانيفه «مروج الذهب» - ط» و«أخبار الزمان» و«أباده الحديثان» تاريخ في نحو ثلاثين مجلداً، بقي منه الجزء الأول مخطوطاً، و«التبيه والإشراف - ط» و«أخبار الخارج» و«ذخائر العلوم» وما كان في سالف الدهور» و«الرسائل» و«الاستذكار» بما مر في سالف الأعصار» و«أخبار الأمم من العرب والعجم» و«خزائن الملوك وسر العالمين» و«المقالات في أصول الديانات» و«البيان» في أسماء الأئمة، و«المسائل والعلل في المذاهب والمملل» و«الإبانة عن أصول الديانة» و«سر الحياة» و«الاستبصار» في الإمامة، و«السياسة المدنية» في السياسة والاجتماع. وهو غير المسعودي الفقيه الشافعي وغير شارح المقامات الحريرية.

ترجمته في: فوات الوفيات ٤٥ / ٢ ولسان الميزان ٤ / ٢٢٤ وطبقات الشافعية ٢ / ٣٠٧ والنجم الزاهرة ٣ / ٣١٥ وسير أعلام النبلاء ١٥ / ٥٦٩ رقم ٣٤٣. وتنكرة الحفاظ ٣ / ٧٠ وBROCK S.i: 220 «فازيليف» في كتابه العرب والروم ٣٨٢ إن كتب المسعودي مما يقرأ المسلمين والأوربيون على السواء ويجدونه ممتعًا طلياً. ولذا استحق لقب «هيروdotus العرب» وهو اللقب الذي أضافه عليه «كريمر» في «الثقافة في الشرق» ٢ / ٤٢٣ ووفاته في بعض المصادر سنة ٣٤٥، الأعلام ٤ / ٢٧٧.

مودته وسائل منه سيفاً يتقلّده وسنحقاً^(١) يقهر أعداءه به فأكرم رسوله وأعدّ نزله وجهز له معه خلعة كاملة: طرد وحش مقبض بسنجاب مقنليس على إسكندرى وكلوطه زركش وشاش بطرزين رقم ومنطقه ذهب وكلاليب ذهب وسيف محلّى وسنحق سلطاني أصفر مذهب.

وهم يدارون سلطان القبجاق لعظمة سلطانه عليهم، /٩٠/ وأخذه بخناقهم لقهرهم منه.

قلت: والقسطنطينية^(٢) مجاورة لأطراف ملك القبجاق وملك الروم معه في طلب دائم واقتراحات متعددة في كل وقت. وملك الروم على توقد جمرته، وكثرة حماته وأنصاره يخاف عادية شره، ويقترب إليه بالمدار، ويدافع معه الأيام من وقت إلى وقت.

وما زالت الأيام هكذا وما زالت تلك حالهم مع ملوك هذه من أبناء جنکز خان منذ تدبروا هذه الأرض وما تخلو منهم مدة من تجديد عهود ومسالمة إلى مدد تؤجل بينهم، وأشياء تحمل من جهة ملوك الروم إلى القان بمملكة القبجاق.

ذكر العزّ حسن الإربلي: أنَّ بدر الدين حسن الرومي التاجر السفار حدثه: أنَّ حدود هذه المملكة من جهة جيرون خوارزم وصفناق وسوداق وباركند وجند وسراي، ومدينة ماجر وازاق وأقجا كرمان وكفة وسوداق وسقمسين ولكل وبلغار، وأعمال سيريا وأمل.

حدود بلاد الخطأ:

قال: ومدينة باكوى^(٣) هي أحد مدن إقليم شروان^(٤) وعندها الباب الحديد الذي يسميه الترك دمر قبو، ومن الباب الحديدي الذي هو عبارة عن مدينة باكوى إلى حدود بلاد الخطأ من جهة سيروابير يكون مسیر القفل مسيرة خمسة أشهر، هذا هو طول هذه المملكة.

(١) سنحق: اللواء «المعجم الوسيط ٤٧١/١».

(٢) القسطنطينية: مدينة متناهية في الكبر، مقسمة قسمين بينها نهر، عظيم المد والجزر، أحد القسمين يسمى أسطنبول والثاني الغوطة «رحلة ابن بطوطة ٢٣٢-٢٣٣».

(٣) باكوى: مدينة عامة على شاطئ بحر الخزر، عاصمة جمهورية آذربيجان الحالية.

(٤) شروان: إقليم في بلاد القوقاز وهي غير شيروان إحدى قرى بخارى بجوار مجكث، وذكر البغدادي شروان قرب بحر الخزر «مراصد الإطلاع ٧٩٣/٢».

وفي هذه المملكة من الأنهر الكثيرة المشهورة: سيحون، وجيحون، وطربنا، وايقل، وبابين، وتن، وطونو؛ فمن سيحون إلى طربنا مسيرة أربعة أشهر، وبين سيحون وجيحون خمسة عشر يوماً، ومن جيحون إلى بابين خمسة عشر يوماً، ومن بابين إلى أتيل عشرة أيام، ومن أتيل إلى تن شهر واحد، ومن تن إلى طربن عشرة أيام، ومن طربن إلى طربنا شهر واحد. ويقلب جيحون وأتيل إلى بحر القلزم وسيحون /٩١/ فهي إلى قصبة ورمل تحت مدينة جند بثلاثة أيام فيقلب هناك وتأتي الأنهر المذكورة تقلب إلى بحر عمان، وهذه السبعة أنهر في هذه المملكة ويتصل منها إلى إقليم ما وراء النهر سيحون وجيحون.

قلت: الذي يصح أن جيحون يقلب في بحيرة ملح نحو مائة فرسخ، ويقع بها نهر الشاش أيضاً.

وأما من زعم أن جيحون يرمي في القلزم^(١) فغلط منه؛ وإنما اشتبه ذلك لعظم هذه البحرة، وبين مرمى جيحون ونهر الشاش نحو من عشرة أيام وتعرف هذه ببحيرة خوارزم^(٢)، وعلى وسطها جبل يسمى جغر يجمد عند الماء حتى يبقى إلى الصيف.

قال الإربلي: ومن مشاهير مدنهما بلغار، وأقصر ليها أربع ساعات ونصف.

قال حسن الرومي: ثم سألت مسعود الموقت بالبلغار عن هذا؟ فقال: جربناها بالآلات الرصدية فوجدناها أربع ساعات ونصفاً تحريراً، وهو غاية نقصان الليل بها. وأما قصبة أفتكون فحررناها فوجدنا أقصر ليها ثلث ساعات ونصفاً أقصر من ليل البلغار بساعة واحدة، قال: وبين بلغار وأفتكون مسافة عشرين يوماً بالسير المعتاد.

والقصبة في مصطلح العجم: المدينة الصغيرة.

قال: وبعد أفتكون بلاد سبر وابر، ثم بعدها بلاد جولمان، فإذا سافر المسافر من جولمان - على شرقها - يصل إلى مدينة قراقروم، ثم إلى بلاد الخطأ، وبها القان الكبير، وهي بلاد الصين.

قال: وإن سافر المسافر - على غربها - وصل إلى بلاد الروس، ثم إلى بلاد الفرنج وسكان البحر الغربي.

قلت: أما الآن فمقر القان خان بالق.

(١) القلزم أيضاً هو البحر الأحمر الآن، نسبة إلى مدينة على ساحل بحر اليمن (الأحمر) وهي على آخره من جهة مصر وهي السويس حالياً (انظر: مراصد الإلطاع ١١١٧/٣).

(٢) بحيرة خوارزم: يصب بها ماء جيحون وسيحون، ماؤها ملح ولا ينقص «مراصد الإلطاع ١٦٨/١».

قال: وبلاط السبر وجولمان مضافة إلى باشقرد^(١)، وفي بلاط باشقرد قاضي مسلم معتبر.

وبلاط السبر وجولمان شديدة البرد لا يفارقهم الثلج مدة ستة أشهر لا يزال يسقط على جبالهم وبيوتهم وبلادهم؛ ولهذا /٩٢/ تقل مواشيهم عندهم، وهم سكان قلب الشمال والواصل عندهم وإليهم من الناس قليل، والأقوات عندهم قليلة.

ويحكى عنهم: أنَّ الإنسان منهم يجمع عظام أيَّ حيوان كان، ثم إنَّه يغلي عليها بقدر كفایته، ثم يتركها وبعد سبع مرات لا يبقى فيها شيء من الدهن.

قال: وهم مع ضيق العيش ليس في أجناس الرقيق أنعم من أجسامهم ولا أحسن من بياضهم، صورهم تامة الخلقة في حسن وبياض ونعومة عجيبة، زرق العيون.

قال العزَّ حسن الإربلي: وحسن الرومي سافر في هذه البلاد وذكر أكثرها.

وقال؛ قال الشيخ علاء الدين بن النعمان الخوارزمي: إنَّ طول هذه المملكة من بحر إسطنبول إلى نهر آرليس ستة أشهر، وعرضها من بلغار إلى بلاد البلغار إلى باب الحديد أربعة أشهر تقريباً.

وأما الشبهة في دعوى ملوك القبجاق أنَّ توريز ومراغة لهم على ما أخبرني به المولى نظام الدين أبو الفضائل يحيى الطياري: أنَّ القان الكبير لما جرد هولاكو لقتل الإسماعيلية ومن كان يتعرضي بالجبال سأله هولاكو في تكثير الجيوش معه فجرد منه من عسكر كل واحد من ملوك بني جنکز خان عسكراً؛ فلما فتح بهم ما فتح من البلاد بقيت تلك العساكر معه فرتب لكل فرقة منهم علوفة على قطر من الأقطار فكان ما رتب للعسكر المجرد معه من جهة صاحب بلاد القبجاق وخوارزم على توريز ومراغة فبقوا يأخذون علوفتهم منها.

ثم لما مات هولاكو وملك ولده أبغا خادعوه بطريق أنَّ سلطانهم بركة يريد أن يبني جاماً بتوريز فمكنته منه فبنوه، وكتبوا عليه اسم السلطان بركة، ثم سألوا أن يعملوا لهم كرخاناه لاستعمال أقمشة لهم بها فمكنته منها، وبقوا يستعملون بها القماش للسلطان بركة ودام الحال على هذا إلى أن وقع بينهما وتلاقياً وكسر بركة لأبغا فخفق أبغا /٩٣/ وأبطل الكرخاناه^(٢).

(١) باشقرد: هي باشقرد أحد أقاليم بلاد ما وراء النهر، وهو جنس من الترك باسم البشكردية، لهم إقليم مستقل الآن داخل الاتحاد الروسي. وباشقرد بلاد بين القسطنطينية وبلغار «مراصد الإطلاع ١٥٣/١».

(٢) كرخاناه: هي كارخانة وتعني مصنع أو معمل، من الكلمة الفارسية كارخاته بنفس المعنى «فرهنگ رازی ٦٧٦».

ثم لما نسبت تلك الواقعة الكائنة وهدي ما بين ملكي الملكين أعيدت الكرخانا، على أنهم هم يحضرون من بلادهم أموالاً لاستعمال ما شاءوا فيها كلما تماست المدد، وجعلوا الجامع والكرخانة المبنيتين باسم السلطان بركة سبباً لهذه الدعوى، ولقد جاءت رسالتهم إلى محمود غازان بطلب توريز ومراغة، وقالوا له: هذه جيوش أبينا فتحها سيفهم، وهي لنا وحقنا بالإرث عنهم فأعطانا حقنا

فقال لهم قازان^(١): أنا ما أخذت الملك إلا بالسيف لا بالميراث؛ ومما أخذته وحذته بسيفي توريز ومراغة وبيني وبينكم السيوف فيها.

ثم لم يزل السلطان القائم الآن بمملكة الفجاق يتعلق بحال هذه الشبهة ويطالب بدعوى هذه الوراثة.

وسئل الشيخ علاء الدين بن النعمان عن جيوشه؟ فقال: كثيرة توفوت الحصر، فقال: كم هم بالتقريب؟ فقال: لا أعلم، لكن خرج مرّة عليه وعلى القان الكبير أسبغا^(٢) سلطان ما وراء النهر وتغلب وقطع الطريق، وقال: أنا أحق بالملك منهمما، ونهب السيارة وأخرج يداً عن طاعة القان، فكتب القان إلى تيقينا بأن يقاتلته فجرد إليه من كل عشرة واحداً، فبلغ عدّة المجردين مائتين وخمسين ألفاً.

قال النعمان: وهذا الذي دخل تحت العدد والإحصاء سوى المجتمعه والطماحة.

قال: وألزم كل فارس بغلامين وثلاثين رأساً من الغنم وخمسة أرؤس من الخيل، وقد زين نحاساً وعجلة برسم حمل السلاح وغزا أسبغا وكسره وانتصر عليه نصرة ظاهرة ثم عاد مؤيداً منصوراً.

قال: النعمان: مبدأ عرض هذه المملكة من دمر قبود؛ وهي مدينة من بناء الإسكندر كان عليها باب من الحديد، وليس هو الآن إلى بلاد بوغرز، وطولها من ماء لمرين - وهو أعظم من نيل مصر بكثير - من ناحية بلاد الخطأ إلى إسطنبول^(٣) ويتجاوز هذا الطول قليلاً إلى بلاد تسمى نمح^(٤).

(١) قازان: هو غازان بن أرغون بن آباقا بن هولاكو حكم ما بين ١٢٩٥-١٣٠٤ م «تركستان ٧١٧».

(٢) أسن بغا بن دوا بن براق بن أسن دوا بن موتكن بن جفتاي، حكم ما وراء النهر ١٣١٨-١٣١٠ م «تركستان ٧٢١».

(٣) أسطنبول: هي إسطنبول، وهي القسم الواقع بالعدوة الشرقية من النهر، وهي مدينة في سفح جبل داخل البحر نحو تسعة أميال وهي قسم من القسطنطينية «رحلة ابن بطوطة ٢٣٣» وهي الآن إسطنبول وأسلامبول والأستانة.

(٤) نمح من بلاد الروس.

٩٤ / قال: وبلاط نمح مشتركة بين بلاد الروس والفرنج.

قال النعمان: والتجار لا يتعذرون مدينة بلغار، يسافرون إلى بلاد جولمان، وتجار جولمان يسافرون إلى بلاد بووزة؛ لأنّها من أقصى الشمال، وليس بعدها عمارة غير برج عظيم من بناء الإسكندر على هيأة المنارة العالية وليس بعده مذهب إلا الظلمات.

فسئل: أيُّ شيء عندك الظلمات؟ قال: صحار وجبال لا يفارقها الثلج والبرد ولا تطلع عليها الشمس ولا ينبت فيها نبات، ولا يعيش فيها حيوان أصلاً^(١)، متصلة ببحر أسود لا يزال يمطر والغيم منعقد عليها ولا تطلع عليه الشمس أصلاً أبداً.

قال النعمان: وقيل: إنَّ الإسكندر مرَّ بأطراف أوایل - جبال الظلمات القرية من العمارة - فرأى فيها إنساناً من جنس الأتراك أشبه الناس بالوحوش لا يعرف أحد بلغتهم، وإذا أمسكهم أحد فرُوا من يده يأكلون من نبات الجبال المجاورة لهم فإذا قحطوا أكل بعضهم بعضاً، فمَرَّ بهم ولم يعترضهم.

قال النعمان - وقد ذكر صاحب مملكة القبجاق - وأكثر رعية هذا الملك سكان غربي الشمال وهم أمم لا يحصون وأكثربنهم روس، ثم من بعدهم أتراك دشت القبجاق؛ وهم قبائل كثيرة فيهم مسلمون، وفيهم كفار ويبيعون أولادهم وقت الغلاء والقطح.

وأما وقت الرخص فيسمحون ببيع البنات دون البنين ولا يبيعون الولد الذكر إلا عن غلبة.

وحدثني الفاضل شجاع الدين عبد الرحمن الخوارزمي الترجمان: أنَّ مدينة السراي بناها بركة قان على شط نهر توران^(٢)؛ وهي في أرض سبخة بغير سور، ودار الملك بها قصر عظيم على عالياته هلال ذهب قنطاران بالمصري، ويحيط بالقصر أبراج مساكن لأمرائه، وبهذا القصر مشتاهم.

قال: وهذا النهر يكون قدر النيل ثلث مرات أو أكثر وتجري به السفن الكبار /

(١) والسفر إليها لا يكون إلا في عجلات صغار تجرها كلاب كبيرة فإن تلك المفارزة فيها الجليد، فلا ثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة فيها، والكلاب لها الأظفار فتشتت أقدامها في الجليد «رحلة ابن بطوطه ووصف أرض الظلمة ٢٢٥-٢٢٦».

(٢) نهر توران: اسم منطقة يحدها من الغرب خوارزم ومن الجنوب نهر جيرونون (تقويم البلدان ٤٨٣) ومدينة سراي بركة وسراي واقعة على نهر يسمى الآن نهر أتيل، وذكره ابن بطوطه نهر اتل «رحلة ابن بطوطه ٢٣٧».

٩٥ / تساور إلى الروس والصقلب^(١) ، وأصل هذا النهر أيضاً من بلاد الصقلب.
 قال : وهي - يعني السراي -^(٢) مدينة كبيرة ذات أسواق وحمامات ، ووجوه بر
 مقصودة بالأجلاب ، في وسطها بركة ماء من هذا النهر ، يستعمل ماؤها للاستعمال.
 وأما شريرهم فمن النهر يستقى لهم في جرارٍ فخار وتصف على العجلات وتجر
 إلى المدينة وتبيع بها.

وبعدها عن خوارزم نحو شهر ونصف ، وبينها وبين السراي مدينة وحق ومدينة
 قطلو عنه ستة دراهم.

قال : والأسعار في خوارزم والسراي لا يكاد يتباين ما بينهما ، والرطل
 الخوارزمي وزنه ثلاثة وثلاثون درهماً وأقواتها فيما يذكر من القمح والشعير
 والدخن - ويسمى عندهم الأزرن^(٣) ، والماش^(٤) ، والجاورس^(٥) ، وهو شبيه بحب
 البرسيم - وليس يباع عندهم هذه الحبوب إلا بالرطل. يقال : كل حمل حمار بكذا ،
 وحمل الحمار عندهم مائة رطل بهذا الرطل.

والسعر المتوسط للقمح بدینارين ونصف ، وكذلك الماش والشعير بدینارين
 وكذلك الدخن ، وكذلك الجاروش أو أزيد ، والغالب أن يكون سعره قياس سعر
 القمح ، وسعر الشعير واللحم الضاني على السعر المتوسط في كل ثلاثة أرطال
 بدرهم.

وبها من جميع الفواكه إلا النخل والزيتون وقصب السكر والموز والأترج
 والليمون والنارنج.

وفيها من أنواع الطير والوحش ، وبها الغزلان كباراً جداً يكون الغزال قدر بقر
 الوحش.

وبها معدن يخرج منه أحجار يعمل منها قدور ، تقيم القدرة نحو ستين سنة لا
 تتغير.

(١) الصقلب : هم الصقالبة ، جيل الناس من الناس كانت مساكنهم إلى الشمال من بلاد البلغار وانتشروا
 الآن في كثير من شرق آسيا وهم المسمون الآن بالسلاف .

(٢) هناك مدینتان باسم السراي ، أحدهما باسم سراي بركة والأخرى السراي ويقعان على نهر واحد مع
 بلغار.

(٣) الأزرن : نوع من الحبوب شبيه بالأرز وليس هو و قريب من القمح والشعير « فرهنگ عمید ١١٢ / ١ » .

(٤) الماش : نوع من الحبوب يشبه العدس وهو من نوعية القمح « انظر : فرهنگ عمید ٢ / ١٧٣٧ » .

(٥) الجاورس هو گاورس النزرة العويجة ، نوع من النزرة ثمرة في أعلى « انظر : فرهنگ عمید ٢ / ١٦٧٤ » .

وبيها جبل يقال له جبل الخيل من خوارزم به عين تعرف به ذوى الأمراض المزمنة، ويقيمون عندها سبعة أيام، في كل يوم يغتسلون بمائها بكرةً وعشية، ويشربون عقىب كل اغتسال إلى أن يتضلعوا فيحصل لهم البرء ويجيرون سمة لا يوجد بها عظم إلا الميل الذي في سلسلة الظهر وإنما فكلها لحم ورأسها /٩٦ غضروف.

وخوارزم^(١) على جيرون بين شعوبين منه مثل السراويل، وبخوارزم مائة بيت يهود ومائة بيت نصارى لا غير ولا يسمح لهم في الزيادة على ذلك.

ويلي خوارزم أرض مدورة، وتسمى هذه الأرض المدوره منقلاغ^(٢) طولها خمسة أشهر وعرضها كذلك وكلها صحراء وسكنها اسم كثيرة من البرجان، ويفصل بين هذه الأرض وبين جيرون جبل اسمه آق بلقان شمالي خراسان وخوارزم إقليم منقطع عن خراسان وعمّا وراء النهر ويحيط فيها المفاوز من كل جانب وحده متصل بحد الغربة مما يلي الشمال والغرب وجنوبه وشرقيه خراسان وهو على جانبي جيرون، وقصبه في الجانب الشمالي منه ويسمى كات^(٣) باللغة الخوارزمية، وفي الجانب الجنوبي العرجانية.

وفي هذا الإقليم عدّة مدن؛ وأول مدن خوارزم بلد يسمى الظاهرية مما يلي أمل، وتمتدّ العمارة في جانبي جيرون معًا.

وملوك هذه المملكة مُشَاهِمُ السراي - كما ذكرنا - ومصيفهم ...

ثم وجميع ملوك توران وتنارها بجبل اسمه آراق طاغ طوله من أقصى الصين إلى أقصى الغرب ينقطع بالبحر المحيط عند متهي سبته، ويقع البحر الرومي كلما اشتق منه وسائل بلاد توران في جنوبه.

وحدود مجتمع مملكة أذبك طولاً من درعان خوارزم من المشرق إلى كاشغر وعرضًا من خوارزم إلى أقصى بلاد سبر التي يجلب منها السمور والسنجب وهي من بلاد الصقالبة.

قال: وليس بعدهم في العمارة شيء.

(١) أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها، لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكبيرة «رحلة ابن بطوطة ٢٣٩».

(٢) منقلاغ، شبه جزيرة «انظر: معجم البلدان ٤/٦٧٠».

(٣) كات: رستاق عاصمة خوارزم «تركستان ٢٥٠».

وقال: وقد جاء جدي فُتياً من بعض أهلها كيف تكون صلاة أهل بلد لا يغيب عنهم الشفق حتى يطلع الصبح لسرعة انقضاء الليل.

قال: فلما صارت هذه المملكة بعد ملوك الخوارزمية إلى بني جنكيزخان استمروا بعساكر خوارزم على حالهم على إقطاعاتهم؛ وكل من كان بيد آبائه شيء هو الآن بيد أبنائه.

قال: والأمراء لهم بلاد منهم من يعمل بلاده /٩٧/ في السنة مائتي ألف دينار رائجاً وما دون ذلك إلى مائة ألف دينار رائج.

وأما الجند فليس لأحد منهم إلا نقود تؤخذ من على النطع وكلّهم سواء؛ لكل واحدٍ منهم في السنة مائتا دينار راجع.

وقد كان زيهيم زي عسكر مصر والشام في الدولة الإسلامية وما يناسب ذلك؛
فاما الآن فزيهيم زي التمار إلا أنهم بعمايئ صغار مدوره.

10

الفصل الرابع

في مملكة الإيرانيين

وهي العراق والعمّ (١) وخراسان (٢)، هذه المملكة طولاً من نهر جيحون المحيط بآخر حدّ خراسان إلى الفرات القاطع بينهما وبين الشام. وعرضًا من كرمان المتصل بالبحر الفارسي المنقسم من البحر الهندي إلى نهاية ما كان يد بقايا الملوك السلاجوقية بالروم على نهاية حدود العلايا وأنطاكية من البحر الرومي (٣).

ويفصل في الجانب الشمالي بين هذه المملكة وبين بلاد القبجاق النهر المجاور لباب الحديد وهو المسماً باللغة التركية دمر قابو (٤)، وبحر طبرستان وهو المسماً بحر الخرز والقلزم (٥).

أخبرني الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيى بن الحكيم الطياري: أنَّ هذه المملكة تكاد تكون تربيعية (٦)؛ فيكون طولها بالسير المعتمد أربعة أشهر، وعرضها أربعة أشهر.

وهذه هي المملكة الصائرة إلى بيت هولاكو بن طولي بن جتكزخان وتدالوها السلاطين من أبنائها إلى الآن، وهي متوسطة في المععور من أجل ممالك الأرض وأوسطها في الطول والعرض، وبها تخت الأكاسرة (٧) إلى أن تسلّم الإسلام.

ثم استقرت بها قاعدة الخلافة العباسية إلى آخر الأيام، ذات أقاليم كثيرة، ومدن كثيرة مشتملة على رستاق (٨) وأعمال وخطط وجهات.

(١) إيران: العراق العجمي.

(٢) خراسان: أحد الأقاليم الإيرانية المشهورة يقع شمال شرق إيران، وعاصمتها نيسابور.

(٣) البحر الرومي: البحر الأبيض المتوسط.

(٤) دمر قابو: من اللغة التركية يعني الباب الحديد.

(٥) ويُدعى أيضًا بحر قزوين وبحر مازندران وبحر طبرستان وبحر گیلان.

(٦) أي مربعة الشكل.

(٧) جمع مفردته كسرى وهو حاكم الفرس من الكلمة البهلوية خسرو «فرهنگ رازی ٢٧٧».

(٨) جمع مفردته رستاق وتعني قرى «فرهنگ رازی ٤٠٨، فرهنگ رازی عميد ١٠٧٢/٢».

و قاعدة الملك بها الآن توريز^(١) ثم السلطانية.

وبيت هولاكو يرون أنَّ الملك من قعد على التخت بأوجان، وأوجان / ٩٨ / في ظواهر توريز، وفيها من المماليك العظيمة العراقان؛ عراق العرب، وعراق العجم وخراسان وكرمان وفارس وأذربيجان وآران والري والجبال وديار بكر وربيعة والجزيرة وأرمينية^(٢) وكرجسان^(٣) والروم^(٤).

وإذا أنصفت هذه المملكة كانت قلب الدنيا على الحقيقة؛ وهذه المملكة تندرج في مطاويها عدّة ملوك كلهم عبيد سلطانها كصاحب هري^(٥) - وأصل اسمها حقيقة هرات - وصاحب كرمان^(٦)، وصاحب گيلان^(٧)، وصاحب سمنان، وصاحب مالاين، وصاحب أزرق ونحن نتكلّم عن قواعد الملك بها.

أما توريز فواقعة في أذربيجان، وهي مدينة قديمة اعرقت في السعادة أنسابها، وثبتت في النعمة قواعدها.

وأما السلطانية فواقعة في عراق العجم بناها السلطان محمد خدابنده، أو ابن أرغون بن أبيغا بن هولاكو^(٨) بناها ووسع فناها وأتقنت قسمتها في الخطوط والأسواق، وجلب إليها الناس من أقطار الأرض، ومن أقطار مملكته واستجلبهم إليها بما بسط لسكانها من العدل والإحسان، وهي الآن عاصمة آهلة كأنّما مرّت عليها مئين السنين لكثرة من استوطنهَا، وتأهل بها وأولد من الولد فيها، وقد مضت عليها مدة يبلغ بنوها مبالغ الرجال، ومنهم من جاز إلى رتبة الاتّهال.

وأما أوجان فهي بظاهر تورير ذات مروج ممتدة وماء جمّ وبها قصر اتخذه أواخر ملوكهم صار معداً لمotel السلطان. وبني أكابر الأمراء قصوراً لمنازلهم حوله.

فاما عامة الخواتين والأمراء والكبار فإنّهم يتخلدون زورياً^(٩) من القصب كالحظائر ينزلون بها أيام نزولهم بأوجان ببابا في مشاتيهم، وينصبون مع حظائرهم الخركاوات^(١٠) والخيم وتتمّ السوق وتبقى مدة مستاهم بها، مدينة متّسعة الجوانب، فسيحة المذاهب حتى إذا إلى مصيفهم راحلين منها أحرقوا تلك الحظائر لكثرة ما

(١) وهي تبريز.

(٢) هي جمهورية أرمينيا الآن.

(٣) هي جمهورية جورجيا الآن.

(٤) هي جمهورية تركيا الآن.

(٥) هري وهراء: وهي مدينة قائمة الآن في أفغانستان.

(٦) كرمان: إقليم شرقي إيران.

(٧) گيلان هي گيلان وجيلان.

(٨) أولجايتو بن أرغون بن آباقا بن هولاكو المعروف عجمد خربنده ثم خدابنده حكم ما بين ١٣٠٤ -

١٣١٦ في إيران والعراق وهو السلطان الثامن في سلسلة أبناء هولاكو «تركتستان ٧١٧».

(٩) زورياً جمع مفرد زربية وهي الحظيرة.

(١٠) خركاوات جمع مفرد خركاه وهي خيمة كبيرة «فرهنگل عميد ١ / ٨٥٠».

يتولد فيها لا يحرق من الأفاغي / ٩٩ / والحيات.

أخبرني الفاضل نظام الدين أبو الفضل يحيى بن الحكيم: أنه يُغrom على تلك الحظائر خزائن أموال، ثم يحرقونها لا يبالون بها.

وملوك هذه المملكة مشتاهم بأوجان، وفي بعض السنين ببغداد؛ وأماماً مصيفهم فبقراباغ^(١) - باللغة التركية معناه البستان الأسود - وتربيته سوداء، وثم قرى ممتدة؛ وهو صحيح الهواء والماء كثير المرعى؛ وإذا نزل به الأردو والأردو هو محلّة السلطان، وأخذت الأمراء به والخواتين منازلهم ينصب به مساجد جامعة وأسواق منوعة يوجد بها من كل ما في أمهات المدن الكبار حتى يكون للخياطات أسواق و محلات، ولا مكر على أحد بل كل أمراء وما استحسن؛ وإنما الموجودات على كثرتها من الملابس والماكل والمشارب والماعون وأجر الصناع غالية جداً لتكلفة المحمول ومؤنة الأسفار حتى يبلغ الشيء ثمن مثله مرتين وأكثر.

وأما الكلام في توريز، فإنها مدينة غير كبيرة المقدار، والماء مساق مجلوب إليها، وبها أنواع الفواكه، ولكنها ليست بغایة من الكثرة.

وأما أهلها فمن أظهر الناس حشمة، وأكثرهم ظاهراً بنعمة، ولهم الأموال المديدة والنعم الوافرة والتفوس الأبية للدنيا، ولهم التجمل في زيهم جميعه من المأكل والمشرب والملبوس والمرکوب، وما منهم إلا من يأنف أن يذكر الدرهم في معاملته بل لا معاملة بينهم إلا بالدينار، وهو مسمى عندهم بالرائج عندهم ستة دراهم، هو معاملة تلك المملكة إلا بغداد وببلادها وخراسان.

فاماً معاملات بغداد فستائي في مكانها.

واماً خراسان فديnarها أربعة دراهم - كما تقدم ذكره في مملكة ما وراء النهر - وفي بعضها هذا الرائع.

ولنرجع إلى ما كنا في ذكره من أمور توريز، فذكرنا أنها مدينة ليست بخارقة في الكبر، ولا لها حواضر في خارجها، وهي اليوم أم أيران جميعاً لتوجه القاصد / ١٠٠ / من كل جهة إليها، وبها محطة رحال التجار والسفار، وبها دور أكثر الأمراء الكبار المصاحبین لسلطانها، لقربها من أوجان؛ وهي مستقر أكثر أوقاتهم.

ويشتّد البرد بتوريز كثيراً وتتوالى الثلوج بها حتى إنه ليتخد سروات أهلها في أدرهم أدرأً مستوية لا انفراج في سقوفها ولا في دوائرها ولا ضوء لها إلاً ما تؤديه طاقات حيطانها من وراء الزجاج المركب عليها.

واماً السلطانية فأوسع بقعة وفضاء وأكثر فاكهة وماء؛ وهي مع كون بعض سلاطين

(١) قراغ: إقليم ذات حكم ذاتي تابع لأرمينيا.

هذا البيت أنشأها إلماهم بها أقلَّ من توريز، وبها قلعة مبنية مرحلة على بسيطها ، فاما الموجود بتوريز وبالسلطانية من الفواكه فمن أنواعها خلا ما لا يطلع في البلاد المفترطة البرد كالأتوج والنارنج والليمون والليمون والرطب والقصب والموز وما يجري هذا المجرى فإنه لا يجيء إليها إلا محمولاً من العراق؛ وهي بلاد ما للزيتون بها نبات.

فاما ما عدا هذا من الشمار والرياحين وغالب الخضروات، فإنها لا تعدم أنواعها من كثير متوسط وقليل على اختلاف الشجر والنبات والقمح والشعير والحمص والعدس والفول متوسط الوجود بها، ولو توفرت الدواعي على الفلاحة والزرع لكثرة مغلاتها وعظمت جبارتها، لكن ملوكها لا التفات لهم إلى ذلك.

فاما الأسعار بتوريز والسلطانية فمتى نزل السلطان على جهة غلت أسعارها لكثره اتباعه والتازلين معه مع قلة الزرع في الأصل.

واما ما لا يتزد علىه السلطان فأسعاره رخيصة ولا إلى الغاية ولا يباع بتوريز والسلطانية وببلادهم - يعني أهل هذه المملكة - غالباً في الغالب قمح ولا شعير ولا شيء مما سوى هذا إلا بالميزان، وليس لهم إلا المن^(١)؛ وهو بتوريز رطلان بالبعدادي فيكون زنته مائتين وستين درهماً وبالسلطانية المن زنته ست مائة درهم، وما معاملتهم - فكما تقدم - بالدينار الرائق.

سألت الفاضل نظام الدين أبا الفضل يحيى بن /١٠١/ الحكيم عن السعر المتوسط في توريز والسلطانية؟ فقال: أما مع نزول السلطان فغلا حيث كان، وأما مع عدم نزوله فلا يكاد ينحوت بيع الخبز كل منين بسدس الدينار وهو درهم واحد، وهكذا الشعير إذا رخص قليلاً.

واما في السلطانية فعلى نسبة هذا السعر، وأما ما يباع بالأردو فاغلى لتتكلف حمولته، وأما اللحم في الكل فكثير جداً.

ومما لا بدَّ من ذكره في هذه المملكة مدينة بغداد دار السلام ومدار الإسلام؛ لأنَّ مما لا يجوز إهمال ذكرها وإخلاء هذا الكتاب من شيء من حالها؛ فإنَّها وإن لم تكن اليوم كرسى ملك؛ فإنَّها كرسى ملك الوجود.

وقد تقدم القول: إنَّ أبا جعفر المنصور^(٢) بناها وهي جنبان على ضفتين دجلة شرقى

(١) المِنْ: ميزان يختلف مقداره من مكان آخر.

(٢) عبد الله بن محمد بن علي بن العباس، أبو جعفر، المنصور: ثاني خلفاء بنى العباس، وأول من عني بالعلوم من ملوك العرب. كان عارفاً بالفقه والأدب، مقدماً في الفلسفة والفلك، محباً للعلماء. ولد في الحمية من أرض الشراة (قرب معان) سنة ٩٥ هـ / ٧١٤ م وولي الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح سنة ١٣٦ هـ وهو يبني مدينة «بغداد» أمر بتطييطها سنة ١٤٥ وجعلها دار ملكه بدلاً من «الهاشمية» التي =

وغربي كل منها مدينة كبيرة عظيمة غنية بنفسها عن الأخرى إحداها ببناء المنصور، والأخرى بناها المهدي^(١) موضع مسكنه وبينهما جسران منصوبان أحدهما يعرف بالعتيق، والثاني بالجديد، وهما منصوبان على دجلة شرقاً بغرب على سفن وزوارق أوقفت في الماء ومدّت بينها السلاسل الحديد المكعبية بالكتاب الشقال وفوقها الخشب الممدد، وعليها التراب مغدف بالقير^(٢) يمرّ عليها أهل كل جانب إلى الآخر بالجمال والخيل والحمول.

=
بنها السفاح. ومن آثاره مدينة (المصيصة) و(الرافقة) بالرقة، وزيادة في المسجد الحرام. وفي أيامه شرع العرب يطلبون علوم اليونانيين والفرس، وعمل أول أسطر لاب في الإسلام، صنعه محمد بن إبراهيم الفزاروي. وكان بعيداً عن اللهو والسب، كثير الجد والتفكير، وله تواقيع غاية في البلاغة. وهو والد الخلفاء العباسيين جميعاً. وكان أفلحهم شجاعاً وحرزاً إلا أنه قتل خلقاً كثيراً حتى استقام ملكه. توفي بئر ميمون (من أرض مكة) محرماً بالحج سنة ١٥٨ هـ / ٧٧٥ م، ودفن في الحجون (بمكة) ومدة خلافته ٢٢ عاماً. يؤخذ عليه قتله لأبي مسلم الخراشاني (سنة ١٣٧ هـ) ومعدنته أنه لما ولـي الخليفة دعا إليه، فامتنع في خراسان، فألح في طلبه، فجاءه، فخاف شره، فقتله في المدائـن. وكان المنصور أسمر نحيفاً طويلاً القامة خفيف العارضين معـرق الوجه رحب اللحـيـة يخـضـبـ بالـسوـادـ، عـرـيـضـ الجـبـةـ «كـأنـ عـيـنـيهـ لـسـانـانـ نـاطـقـانـ، تـخـالـطـهـ أـبـيـهـ الـمـلـوـكـ بـزـيـ النـسـاكـ» أـمـهـ بـرـبـرـةـ تـدـعـيـ سـلامـةـ. وكان نقش خاتمه «الله ثقة عبد الله وبه يؤمن» وما كتب في سيرته «أخبار المنصور» لعمر بن شبة النميري.
ترجمته في: ابن الأثير ٥/١٧٢ ثم ٦/٦ والطبرى ٩/٢٩٢ - ٣٢٢ والبداء والتاريخ ٦/٩٠ واليعقوبى ٣/١٠٠ وتاريخ الخميس ٢/٣٢٤ و٣٢٩ وفيه: «كان في صغره يلقب بمدرك التراب ، وبالطويل ، ثم لقب في خلافته بأبي الدوانيق ، لمحاسبته العمال والصناع على الدوانيق؛ وكان مع هذا يعطي العطاء العظيم». والنبراس لابن حمـيـةـ ٢٤ـ ٣٠ـ وفيهـ: «قـتـلـ مـنـ لـاـ يـحـصـيـ مـنـ قـرـيـشـ وـمـضـرـ وـرـبـعـةـ وـالـيـمـ وـأـهـلـ الـبـيـوتـ مـنـ الـعـجـمـ وـالـفـقـهـاءـ وـالـشـعـرـاءـ. وـكـانـ طـبـولـهـ مـنـ جـلـودـ الـكـلـابـ» والمـسـعـودـيـ ٢/١٨٠ - ١٩٤ـ وـفـيـهـ: «كـانـ يـقـوـلـ: وـلـدـتـ فـيـ ذـيـ الـحـجـةـ، وـوـلـيـتـ فـيـ ذـيـ الـحـجـةـ، وـأـعـذـرـتـ فـيـ ذـيـ الـحـجـةـ، وـوـلـيـتـ الـخـلـافـةـ فـيـ ذـيـ الـحـجـةـ، وـأـحـسـبـ أـنـ الـأـمـرـ يـكـوـنـ فـيـ ذـيـ الـحـجـةـ؛ فـكـانـ كـمـاـ ذـكـرـ، تـوـفـيـ فـيـ ذـيـ الـحـجـةـ». وتـارـيـخـ بـغـدـادـ ١٠/٥٣ـ وـابـنـ السـاعـيـ ١١ـ ٢٣ـ وـفـوـاتـ الـوـفـيـاتـ ١/٢٢٣ـ ، الـأـعـلـامـ ٤/٧١١ـ .

(١) محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي العبسي، أبو عبد الله، المهدى بالله: من خلفاء الدولة العباسية في العراق. ولد بإيذان (من كور الأهواز) سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٤ وولي بعد وفاة أبيه وبعده منه (سنة ١٥٨ هـ) وأقام في الخلافة عشر سنين وشهرأً، ومات في ماسيدان، صريعاً عن دابته. في الصيد، وقيل مسموماً سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م. كان محمود العهد والسيرة، محباً إلى الرعية، حسن الحال والخلق، جواداً، يقال: إنه أجاز شاعراً بخمسين ألف دينار؟ وكان يجلس للمظالم ويقول: أدخلوا على القضاة فلو لم يكن ردي للمظالم إلا حياءً منهم لكتفي. وهو أول من مُشي بين يديه بالسيوف المصلتة والقصي والنشاب والعمد، وأول من لعب بالصوالحة في الإسلام. وهو الذي بني جامع الرصافة، وترتبه بها، وانمحى أثر الجامع والتربة بعد ذلك.

ترجمته في: فوات الوفيات ٢/٢٥ ودول الإسلام للذهبي ١/٨٦ والبداء والتاريخ ٦/٩٥ وفيها أن المهدى «رد لاء آل زيد، من نسبهم إلى أبي سفيان، إلى عبد الثقفي، وكتب بذلك إلى المدن والأمسار» واليعقوبى ٣/١٢٥ وابن الأثير ٦/١١ و٢٧ والطبرى ١٠/١١ - ٢١ والنبراس ٣١ - ٣٥ والمـسـعـودـيـ ٢/٢٠١٩٤ـ وـتـارـيـخـ بـغـدـادـ ٥/٣٩١ـ وـابـنـ السـاعـيـ ٢٣ـ وـلـوـافـيـ الـوـفـيـاتـ ٣/٣٠٠ـ ، الـأـعـلـامـ ٦/٢٢١ـ .
(٢) مـغـدـفـ بـالـقـيرـ: مـغـطـىـ بـالـقـيرـ (انـظـرـ: الـمعـجمـ الـوـسـيـطـ ٢/٦٦٩ـ .

وعلى ضفتى دجلة قصور الخلافة والمدارس والأبنية العلية بالشبابيك والطاقات^(١) المطلة على دجلة، وبناؤها بالأجر - وهو المسمى بمصر بالطوب - ومن بيتها ما هو مفروش بالطوب، وما هو مفروش بالقير. ولهم الصنائع العجيبة في التزويق بالطوب. وبها تلاقى دجلة والفرات وبها البساتين المونقة والحدائق المحدقة. وأما التخيل فلثمراتها فضل على ما سواها من أنواع منوعة من التمر والرطب، وبها أنواع الرياحين والخضروات والغلال وسعرها متوسط في الغالب لا يقاد يرخص. وبها ديناران أحدهما يسمى العوال عنه اثنى عشر درهماً، الدرهم بقيراط، وجنين وذلك الدينار عشرون قيراطاً، كل قيراط ثلات حبات، كل حبة أربع فلوس نقره^(٢) عن كل فلس فلسان أحمران.

والثاني الدينار المرسل وبه أكثر مبايعتهم ومعاملات تجارهم عنه عشرة دراهم. فأما الرطل البغدادي فوزنه مائة وثلاثون درهماً، والمن بها مثله من توريز وهو رطلان بالتوراني.

وأما كيل الغلال بها فأكثرها الكز^(٣) وهو ثلاثون كارة، كل كارة^(٤) قفيزان^(٥)، فيكون الكرستون قفيزان والقفيز مكوكان^(٦)، والمكوك خمس عشر أق^(٧). وتختلف الكارة في الغلال والقمح والهرطبان وهو كارة كلّ منها مائتان وأربعون رطلاً، وكارة الأرز ثلاث مائة رطل، وكارة كل من الشعير والحمص والعدس والهرطبان مائتا رطل، وكارة الحبة السوداء المسماة بالشونيز مائة رطل. قال الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيى بن الحكيم: أنَّ القانون ببغداد إنَّ كر القمح تسعة وثلاثون ديناً ونصف دينار، والشعير خمسة عشر ديناً كلاماً من العوال.

قال: ولعلَّ هذا هو السعر المتوسط لا يكاد يميل فيه القانون عن معدله، وأما إذا كان المشتري ببغداد فناهيك بقلة الأقوات والغلاء الزائد. وإذا شتى السلطان ببغداد

(١) الطاقات: جمع مفرده طاقة وهو النافذة، الفتحة.

(٢) النقرة: هي الفضة «فرهنگ عمید ۱۹۱۵/۲، فرنگ رازی ۹۵۹».

(٣) الكز: گز، مقياس يعادل متر، وهو گز بالكاف الفارسية «فرهنگ رازی ۷۵۸».

(٤) كارة: مقياس قديم.

(٥) القفيز: مقياس قديم «فرهنگ رازی ۶۶۵».

(٦) مكوك: مكيال قديم يختلف مقداره باختلاف اصطلاح الناس عليه في البلاد، قيل: يسع صاعاً ونصفاً، جمعه مكاكيك «المعجم الوسيط ۹۱۷/۲».

(٧) آق: هي آقة: نقد قدره أربعينات درهم أو ثمانية وأربعون ألف جرام، بطل استعمالها في مصر جمعها أفق «المعجم الوسيط ۲۲/۱».

فناهيك بقلة الأقوات، نزل بدار تعرف بالجاثيلق^(١) من أدر الخلافة هي الآن باقية البناء تامة البهجة صالححة المنازل للملوك.

قال قاضي القضاة أبو محمد الحسن الغوري: إنها ليست من ديار الخلفاء بل هي دار الدوادار^(٢) الكبير، وكان قد نزلها الجاثيلق في زمان هولاكو. وكان معظمًا عنده لمكانه من قطر خاتون زوجة هولاكو^(٣).

ولقد سألت الصدر مجد الدين بن الدوري عن السبب في قلة الغلال ببلاد العراق مع امتداد سوادها وقبول أرضها للنبات؟ فقال: لهذا سببان! قلة الزرع لما استهلكه القتل زمان هولاكو، وميرة العراق لماجاوره من البلاد.

وببغداد خاصة، وهذه المملكة عامّة الآثار الجميلة والآثار الباقيّة من الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق^(٤) / ١٠٣ والربط والبيمارستانات^(٥) والصدقات الجارية ووجوه البر المتعددة، ومن يوفّي صفات محاسن العراق، وقد كانت قبلة ملوك الآفاق وما بالعهد من قدم، ومنها قلائد الأعناق، وترابها لمي القبل وإثمد الأحداق.

وسألت الفاضل نظام الدين أبا الفضل يحيى بن الحكيم: إن كانت الأوقاف باقية في نواحي هذه المملكة عليها الآن أم تناولتها أيدي العدون فأخبرني بأنها جميعها جارية في مجاريها لم يتعرّض إليها متعرّض لا في دولة هولاكو ولا فيما بعدها، بل كل وقف بيد متوليه ومن له الولاية عليه؛ وكل ما يقال من نقص أحوال الأوقاف بالإيران جميعاً هو من سوء ولاة أمرورها لا من سواهم.

وحذّثني هذا الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيى بن الحكيم الطياري بكثير من أحوال هذه المملكة وقواعد ملوكها وترتيب جنودها وجيوشها؛ فممّا حديثي: أنَّ السلاطين بها لا التفات لهم إلى أمرٍ ولا نهيٍ في البلاد ولا في متحصلات الدخل والخرج فيها، بل الوزير هو حامل هذه الأعباء، ولله التصرف المطلق في الولاية والعزل والعطاء والمنع لا يشاور السلطان إلَّا على ما جلَّ من المهمّات فيما قلَّ من الأمور كلها وبهذه عقدها وحلّها.

(١) الجاثيلق: رئاسة رؤساء الكهنة السريان في بلاد المشرق «الأعلام ٣٠٨ / ٥» ومقدم الأساقفة جمعه جنالقة «المعجم الوسيط ١١١ / ١».

(٢) الدوادار: من الكلمة دوات دار أي صاحب الدواة، يعني الكاتب «انظر: فرهنگ رازی ٣٥٦».

(٣) قطر خاتون: زوجة هولاكو هي دوقوز ختون كانت مسيحية وهي ابنة ملك الكرابيت «جامع التواريخ ٢٢٠ / ٢».

(٤) خوانق: جمع مفرده خانقه، مكان يقيم فيه المتصرف، وهي الصومعة والتكتة «فرهنگ رازی ٢٦١».

(٥) البيمارستانات جمع مفرده بيمارستان، وترد أحياناً مارستان في الفارسية غالباً في العربية وهي دار الشفاء «فرهنگ رازی ٧٤» وينذكرها ابن بطوطه مانستار «رحلته ص ٢٣٥».

فاما أمر الجيوش والعساكر فإلى كبير أمراء الألوس؛ وهو المسماى بـبكلاري بك - أي أمير الأمراء - كما كان قطلوشاه^(١) مع السلطانين محمود غازان وأخيه محمد خدابنده، وجوبان مع محمد خدابنده، ثم بعده مع ولده السلطان أبو سعيد بهادرخان. وهذا القائم الآن الشيخ حسن بن حسين بن أقيغا^(٢) مع السلطان محمد بن طشمر بن استمر بن عبرجي^(٣).

وأمراء الألوس أربعة: بكلاري بك وثلاثة آخرون، ويسمى هؤلاء الأربعه أمراء القول، ويشرط أن يكون هؤلاء هم الذين تكتب أسماؤهم في اليراليغ^(٤) والفرمانات^(٥) بعد اسم السلطان ثم اسم الوزير بعدهم ولا يتوقف في كتابه.. / ١٠٤ / اسم من الأسماء من هو غائب منهم عن الأردو، بل تكتب أسماؤهم كلهم حضر منهم من حضر، وغاب من غاب، وكل ذي سيف لا يخرج أمره عن القائم بهذه الوظيفة التي هي إمرة أمراء الألوس، وكل ذي قلم ومنصب شرعى لا يخرج عن الوزير.

وطبقات الأمراء أعلىها التوين^(٦) وهو أمير عشرة آلاف، ثم أمير ألف، ثم أمير مائة، ثم أمير عشرة. هذه طبقات رتبهم لا نقص فيها ولا مزيد عليها.

وعامة العسكر لا تزال أسماؤهم في دواوينهم على الأفراد، بل كل طائفة عليهم في الديوان فارس معين إذا رسم له بالركوب ركب منهم العدة المطلوبة.

وسألت الفاضل أبا الفضائل يحيى بن الحكيم عن مقدار عدة الجيش؟ فقال: أما المتزل في دواوينهم فما يبلغ عشرين تومناً^(٧)، وأما إذا أرادوا ركعوا بثلاثين تومناً وما يزيد عليها، وهم اليوم في انتبات شمال، وشتات آراء لا يلتئم لهم جمع ولا يضمُّهم وفاق.

قلت له: فكم مقدار ما لهؤلاء من الأرزاق، فقال: أما ما هو مستقر لهم في دواوينهم من زمان هولاكو فلا يرضى أحدهم من كبارهم به ولا بأضعافه مرات.

(١) قطلوشاه أو قطلوشاه من كبار القادة المغول، قتل سنة ٧٠٧ هـ. «انظر: الدرر الكامنة ٣٣٩/٧».

(٢) حسن بن حسين بن أقيغا وهو ابن عممة السلطان أبو سعيد بهادر وقد تغلب على الملك بعد موت السلطان «انظر رحلة ابن بطوطة ١٥٤».

(٣) طشمر بن استمر بن عبرجي هو طاش دمر.

(٤) يراليغ: جمع مفرد يرليغ وهي كلمة مغولية بمعنى حكم أو أمر «فرهنگ رازی ١٠٣٨».

(٥) الفرمانات جمع مفرد فرمان والفرمان هو الحكم أو الأمر.

(٦) توين: توين وتويان، لفظ مغولي لأمراء وقادات المغول الكبار «فرهنگ رازی ٩٧١، فرنگ عمید ١٢٣٤ - ٢٣٥» وتوين معناها رئيس تومن أي رئيس فرقه من عشرة آلاف «انظر: حاشية كاتمير على جامع التواريخ ٨٦، صبح الأعشى ٤٤٢/٤».

(٧) تومن: قائد ألف في العصر المغولي «فرهنگ عمید ١/ ٢٣٤» وهي تعادل عشرة آلاف دينار «فرهنگ رازی ١٧٩» وتومان تعنى عشرة ريالات في العصر الحديث.

وأما الصغار فما يتجاوز أحدهم المستقر له، قلت: فكم هو المستقر في الديوان، وبكم تقنع كبارهم الآن؟ فقال: المقرر من قديم لكل نونين أمير تoman تومنان - وهو عشرة آلاف دينار رائق - منها ستون ألف درهم.

وأما اليوم فما يقنع النونين منهم إلا بخمسين توماناً - وهي خمسمائة ألف دينار رائق - عنها ثلاثة آلاف ألف درهم، ومن خمسين توماناً إلى أربعين توماناً.

وأما كبارهم بكلاري بك فالذي استقر لجوبان ثم لعن بعده ثلاثة مائة تومان - وهي ثلاثة آلاف ألف دينار، عنها ثمانية عشر ألف ألف درهم - مع ما يحصل لكل من أمراء الألوس الأربعه من الخدم الكثيرة في البلاد جميعاً عند تقريرات الضمان لها على ضمانها، على ما تُنهَى عليه في موضعه.

قال: وأما أمير الألوف ومن دونه فلا يتجاوز أحد منهم مقررته القديمة في الديوان لأمير ألف ألف دينار رائق عنها ستة آلاف / ١٠٥ / درهم.

وأما أمير المائة والعشر وكل واحد من العسكر - أي الجندي - فمائة دينار رائق عنها ستمائة درهم لا تفوق بينهم، هذا هو المقرر الجاري من قديم؛ وإنما تبقى مزية أمير المائة أو العشرين أنه يأخذ لنفسه شيئاً مما هو للعسكرية.

ولكل طائفة أرض لنزولهم توارثها الخلف عن السلف منذ ملك هولاكو هذه البلاد، وفيها منازلهم، ولهم بها مزرع لأنقوانهم لكتفهم لا يعيشون بالحرث والزرع، هذه جملة ما هو لعساكر إيران ما ازداد وما هو مستقر في الديوان.

وأما الخواتين فالذى لهن الآن منه ما يبلغ للمخاتون الواحدة مائتا توماناً؛ وهو ألف ألف دينار، عنها اثنا عشر ألف ألف درهم وما دون ذلك إلى عشرين توماناً؛ وهو مائتا ألف دينار عنها ألفاً ألفاً ومائتا ألف درهم.

وقال لي الفاضل أبو الفضل يحيى بن الحكيم: وهذا قد يزيد وينقص؛ وأما الوزير فله مائة وخمسون توماناً؛ وهو ألف ألف وخمسمائة ألف دينار رائق عنها تسعة آلاف ألف درهم.

قال: ولا يقنع عشرة أضعاف هذا في تقارير البلاد.

وأما الخواجكية^(١) من أرباب الأقلام فمنهم من يبلغ في السنة ثلاثة مائتين توماناً؛ وهي ثلاثة مائة ألف دينار عنها ألف ألف وثمانمائة ألف درهم.

قال: وبهذه المملكة ما لا يحصى من الإدارات والمعيشات والمرسومات حتى إن بعض الرواتب تبلغ عشرين ألف دينار. وأما الإدارات من المبلغ فإنها تبقى

(١) الخواجكية: جمع مفرده خواجة، وهو لقب يعادل كلمة السيد والرئيس، وهنا تعني الكاتب، وكان هذا اللقب يطلق على أهل العلم والأدب «انظر: فرهنگ رازی ۲۴۰».

لصاحبها كالمملك يتصرف فيه كيف يشاء من بيع وهبة ووقف لمن أراد، والمعايش لمرة الحياة لا غير والمرسومات والإنعمات.

قال: وهي مما لا يحصى.

قال: ومن هؤلاء من المستوفين^(١) من له الضبط على اتساع أقطار الممالك.

قال: وأما وظيفة القضاة فعادة هذه المملكة أن يكون بها في صحبة السلطان قاضي قضاة الممالك؛ وهو يولي في جميع المملكة على تناهى أقطارها إلاّ العراق فإنّ لبغداد قاضي قضاة /١٠٦/ مستقلّ بها يولي بها، وفي بلادها جميع عراق العرب.

وقال لي قاضي القضاة أبو محمد الحسن الغوري: إنَّ آخر ما استقرَّ له ستَّ قريٰ وتومان عشرة آلاف دينار في السنة.

قال الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيى بن الحكيم: إنَّ ملوك هذه المملكة وأمراءها لهم ميلٌ كلٌّ إلى الشراب؛ فملوكها اشتغالهم كله بذلك، وأمور دولتهم منقسمة بين أمير الألوس والوزير على ما تقدم، ولاشتغال سلاطينهم باللذات وانعكافهم على منى نفوسهم، ومتنهى شهواتهم، عرضوا عن تدبير البلاد وأحوالها ولم يفكروا في مالها إنْ كثُر أو قُل. وبملتهم كيس^(٢) ونعمان وهما مغاص المؤلُّ، وبالدامغان في حيلها معدن ذهب.

قال لي شيخنا الإمام العلامة فريد الدهر شمس الدين أبو الثناء محمود الأصفهاني: إنَّ هذا المعدن قليل المتحصل لكثرة ما يحتاج من الكلف حتى يستخرج. وبشنكاوة شرقى العجم البازهر^(٣) الحيواني يوجد بمعاليق الایائل؛ وهو الذي لا يباريه شيء في مقاومة السموم.

قال ابن البيطار^(٤): وأجوده الأصفر ثم الأغبر، وخاصة النقع من السموم

(١) المستوفي: هو المحاسب والمحصل للحقوق وهي وظيفة انظر: فرهنگ رازی ٨٦٠.

(٢) كيس: تعجيم قيس، جزيرة في وسط البحر تعدد من أعمال فارس، وتعد من أعمال عمان «مراصد الأطلال ١١٩٢/٣» وهي الآن جزيرة كيش.

(٣) البازهر: هو من الكلمة الفارسية باد زهر المأخوذة من البليوية Patyahr وتعني ضد السم، الترياق المضاد للسم «فرهنگ عمید ٤١٧/١».

(٤) عبد الله بن أحمد المالقي، أبو محمد، ضياء الدين، المعروف بابن البيطار: إمام النباتيين وعلماء الأعشاب. ولد في مالقة، وتعلم الطب، ورحل إلى بلاد الأغارقة (Grece) وأقصى بلاد الروم، باحثاً عن الأعشاب والعارفين بها، حتى كان الحجة في معرفة أنواع النبات وتحقيقه وصفاته وأسمائه وأماكنه. واتصل بالكامل الأيوبي (محمد بن أبي بكر) فجعله رئيس العشائين في الديار المصرية. ولما توفي الكامل استقبله ابنه (المملك الصالح أيوب) وحظي عنده واسurement شهرة عظيمة. وهو صاحب كتاب «الأدوية المفردة - ط» في مجلدين، المعروف بمفردات ابن البيطار. وله «المعني في الأدوية المفردة - خ» مرتب على مداواة =

الحيوانية والنباتية ومن عض الهوام ولدغها؛ وإذا شرب منه مسحوقاً أو مسحولاً وزن اثني عشرة شعيرة خلص من الموت، وإذا امتصه تبادر للسم نفعه، وإن نشر على موضع لسع الهوام حين يلسع اجتنب السم.

وبها الإنمد على مسافة يوم من أصبهان^(١) في حفر بالأرض وهو الذي لا يقوم شيء مقامه؛ وإنما قل النوع الجيد الآن.

سألت شيخنا شمس الدين محمود الأصفهاني عن سبب قلته؟ فقال: لانقطاع عرقه فما بقي منه يوجد إلا ما يُرى منه.

وبهذه المملكة مستعملات القماش الفاخر من النخ والمخلم^(٢)، والكمخا، والعتابي والنضافي والصوف الأبيض الماردديني^(٣)؛ وهو النهاية في بابه.

وتُعمل البسط الفاخرة في مواضع بها مثل شيراز^(٤) واقصرا^(٥) وتوريز.

وحذّنني شيخنا فريد الدهر شمس الدين أبو الثناء محمود الأصفهاني: أن بمدينة قشمير مسيرة ثلاثة أيام عن أصفهان عين ماء سارحة نزرة يسمى ماؤها بماء الجرادلة خاصة أن يحمل من مائها في إناء إلى الأرض التي أتاها الجراد فيعلق ذلك الإناء في تلك الأرض فيقصدها ما لا يحصى من طير يقال له سار^(٦) يأكل ما فيها من الجراد حتى يفني.

قال لي شيخنا شمس الدين: وتعليق هذه الإناء شرط في خاصيته بحيث لا يمس الأرض في طريقه، ولا في مكان تعليقه.

وحكى لي الأمير السيد المجيد في كتابه محمد بن حيدر الشيرازي: أنه بين الدامغان واستراباذ من خراسان عيناً ظاهرة إذا ألقى فيها نحاسة فار ماؤها وأزبدت

الأعضاء، و«ميزان الطيب -خ» و«الإيانة والإعلام»، بما في المنهاج من الخلل والأوهام -خ في مكتبة الحرم المكي (٣٦ طب) نقد فيه منهاج البيان لابن جزلة، توفي في دمشق سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م.

ترجمته في: طبقات الأطباء ١٣٣ / ٢ وفتح الطيب ٦٨٣ / ٢ وآداب اللغة ٣٤١ / ٢ وDictionnaire Brock I: 647 و دائرة المعارف الإسلامية ١٠٤ / ١ وفواث الوفيات ٢٠٤ / ١ والالفهرس التمهيدي ٥٢٤ وفهرس المخطوطات المصورة ٣ طب ٥ ، الأعلام ٦٧ / ٤ .

(١) أصبهان: هي أصفهان إحدى المدن الإيرانية مجاورة لبلاد اللور «معجم البلدان» ٤٠٤ / ٢ .

(٢) النخ والمخلم: النخ، نوع من القماش القطني أو الحريري «فرهنگ رازی ٩٤٤» والمخلم، نوع من القماش الناعم «فرهنگ رازی ٨٣٩».

(٣) الكمخا والعتابي والنضافي والماردديني: أنواع من الأقمشة.

(٤) شيراز: قاعدة فارس، وهي مدينة أصلية البناء، تضارع دمشق «انظر وصفها عند ابن بطوطة ص ١٣٦».

(٥) أقصرا: من بلاد الروم وتابعة لملك العراق «انظر: رحلة ابن بطوطة ١٩٦».

(٦) سار: طائر صغير أكبر من العصفور يظهر أول الربيع، غذاؤه العنبر والتوت لحمه حلال «فرهنگ عمید ١١٤٣ / ٢».

وتکدر جوہا^(١).

وحَدَثْنِي / ١٠٧ / شيخنا فريد الدهر شمس الدين الأصفهاني : أَنَّ بِما زَنْدَرَانَ وَهِيَ الْمَسْمَاءُ طَبْرِسْتَانَ عَيْنَ مَاءٍ ، مِنْ حَمْلِ مَائِهَا تَبَعَّتْ دُودَةً طَوْلَ أَنْمَلَةِ الْإِنْسَانِ ؛ فَلَوْ حَمَلَ الْمَاءَ تَسْعَةً وَكَانَ مَعَهُمْ عَاشِرٌ لَمْ يَحْمِلْ الْمَاءَ تَبَعَّ كلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ تَلْكَ الدُودَةُ وَاسْتِحَالَ الْمَاءُ مِرْأً لَوْقَتِهِ ، وَاسْتِحَالَ الْمَاءُ كُلُّ مِنْ هُوَ وَرَاءُهُ مُرْأً ، وَأَمَّا مِنْ هُوَ عَلَى جَانِبِهِ فَلَا يَسْتَحِيلُ مَاوِهُ .

وَمِنْ عَادَةِ هَذَا السُّلْطَانِ أَنْ يَصْبِهِ فِي الْأَرْدُوِ فِي كُلِّ حِلٍّ وَمُرْتَحِلٍ أَعْيَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْمُدْرِسِينَ بِرَوَاتِبِ جَارِيَاتِ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَمَعَ كُلِّ مِنْهُمْ فَقَهَاءُ وَطَلَبَاءُ . وَهُؤُلَاءِ هُمُ الْمَسْمَونُ بِمَدْرِسِيِّ السِّيَارَةِ ، وَمَعَهُمْ أَعْيَانُ الْحَوَاصِلِيَّةِ الرَّوْسَاءِ ، وَطَوَافَتِ الْدَوَّاِبِينَ وَالْكِتَابَ وَمِنْ جَمِيعِ أَرْبَابِ الصَنَاعَةِ وَالْمَهَنِ حَتَّى يَكُونَ الْأَرْدُو كَالْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ يَتَرَكُ وَيَرْجِلُ مَعَهُ .

وَأَخْبَرَنِي الصَّدِرُ مَجْدُ الدِّينِ إِسْمَاعِيلُ السَّلَامِيُّ : أَنَّهُ يَوْجِدُ بِالْأَرْدُوِ خِيمَ وَخَرَكَاوَاتٍ مَنْصُوبَةٍ تَكْتَرِي لِلنَّاسِ^(٢) لِمَنْ يَصْبِهِ الْأَرْدُوِ وَمَا لَهُ مَأْوَى أَوْ مَنْ يَجِيءُ غَرِيبًا إِلَيْهَا يَكْتَرِيَهَا وَيَنْزَلُهَا فِيهَا وَبِهَا الْكَبَارُ وَالْمُتَوَسِّطُونَ وَالصَّغَارُ . وَأَسْوَاقُهُمْ وَهِيَ الْمَسْمَاءُ بِالْبَازَارِ^(٣) مَشْتَمَلَةٌ عَلَى مَا يَكُونُ فِي الْمَدَنِ الْعَظَامِ مِنَ الْمَلْبُوسِ وَالْمَطْعُومِ وَالْمَشْرُوبِ وَغَيْرِ ذَلِكِ / ١٠٨ / مَا لَا حَاجَةُ بَنَا إِلَى ذَكْرِهِ ، وَلَيْسَ يَعْتَرِضُ نَاسُكُهُمْ عَلَى فَاتِكُهُمْ ، وَلَا قَاتِلُهُمْ مِنْ بَأْسِهِمْ .

وَمِنْ قَاعِدَةِ هَذَا السُّلْطَانِ أَنَّهُ إِذَا تَرَكَ مِنْزَلًا وَهُوَ الْمَسْمَىُ عِنْدَهُمْ الْيَرْقَ^(٤) يَنْصِبُهُ بِالْبَعْدِ مِنْهُ غَلْمَانٌ لَا يَتَجَاهِزُهُمْ رَاكِبَهُ ، وَأَمْرَاوَهُ يَلْتَزِمُ مَعَهُ أَعْظَمَ الْآدَابِ فَمَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِذَا قَارَبَ خَرْكَاهُ الْقَانِ عَلَى نَحْوِ عَشْرِينَ غُلْوَةَ نَشَابٍ أَوْ أَكْثَرَ إِلَّا يَنْزَلُ عَنْ فَرْسِهِ وَيَمْشِي .

قَالَ لِي الصَّدِرُ مَجْدُ الدِّينِ إِسْمَاعِيلُ : إِنَّهُ رَأَى جَوْبَانَ عَلَى مَا كَانَ بَلْغَ مِنْ

(١) وَرَدَتْ هَذِهِ الْقَصَّةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤْرِخِينَ وَفِي أَمَاكِنَ أُخْرَى ، فَقَدْ ذَكَرَهَا مِيرْخَوَانِدُ فِي كِتَابِهِ رُوضَةُ الصِّفَا «انظر : التَّرْجِيمَةُ الْعَرَبِيَّةُ ص ١٣٢» كَمَا ذَكَرَهَا نَظَامُ الدِّينِ أَحْمَدُ فِي الطَّبَقَاتِ الْكَبِيرِ «انظر : التَّرْجِيمَةُ فِي رِسَالَةِ الدُّكْتُورَاهُ لِلْدُكْتُورِ أَحْمَدِ عَبْدِ الْقَادِرِ الشَّاذِلِيِّ بِجَامِعَةِ الْقَاهِرَةِ ٦/١ ، وَعِنْ أَبْنِ الْأَئِمَّةِ فِي كَامِلِهِ ٧/٨٧ ، وَابْنِ كَثِيرٍ فِي الْبَدَائِيَّةِ وَالنَّهَايَةِ ١١/٢٨٦».

(٢) تَؤَجِّرُ لِلنَّاسِ .

(٣) الْبَازَارُ : السُّوقُ «فَرْهَنْگُ رَازِيٍّ ٤٢» .

(٤) يَرْقُ : وَهِيَ بُورَتٌ بِمَعْنَى مَقَامٍ ، خَيْبَةً «فَرْهَنْگُ رَازِيٍّ ١٠٤٣» وَتَأَقِي بِمَعْنَى أَرْدُو «تُركِستان١ ٥٦١» .

العظمة، وأبو سعيد معه اسم بلا معنى، وهو متى وقعت عينه على الأردو نزل ومشى فيتعجب بعد المسافة فيقعد على كرسي صندلي^(١) ليستريح ثم يمشي ثم يقعد ليستريح مرات حتى يصل إلى باب الكرباس^(٢)؛ وهو باب الخان.

قال: ولكل من الخواتين، وكل من الأماء الأكابر يرق بذاته ينزل فيه، وكل يرق من هذه كامل بالأسواق، وكل ما يحتاج إليه من عادة هذا السلطان أن لا يعمل مواكب ولا يجلس لخدمة ولا لقراءة قصص عليه، وإبلاغ مظالم إليه، بل له من أبناء الأماء خاصة له يقال لهم الأبناء فيه هؤلاء هم حوله لا يكاد منهم من يفارقه.

فاما النساء، فإنهم يركبون في غالب الأيام إلى باب الكرباس، وينصب لهم هناك كراسى صندلية^(٣) يجلس كل أمير على كرسي بحسب مراتبهم الأعلى ثم الأدنى، ويدخل الوزير في بكرة كل يوم على القان ويبيت النساء على باب الكرباس إما يخرج القان أو يأذن لهم، أو لا هذا ولا هذا فإذا حضر طعام القان بعث إلى كل أمير منهم شيئاً للأكل بمفرده يأكله هو ومن انسنم معه ثم يتفرقون، كل واحد إلى من اتفق بحضوره من النساء حضر، ومن لم يحضر لم يطلب بحضور إلا إن دعت الحاجة إلى طلب أحد منهم طلباً.

ولهؤلاء شغل شاغل بالركوب إلى الصيد في غالب أيامهم فهم يجتمعون بعضهم بعض ولهذا ما لهم يوم مخصوص بموكب ولا خدمة. فاما من له ظلامة فشكواه إنْ كانت متعلقة بالعسكرية /١٠٩/ إلى أمير الألوس، وإنْ كانت متعلقة بالبلاد والأموال والرعايا فشكواه إلى الوزير.

وفي الغالب ما يكون أمير الألوس بالأردو لأنفراوه في المصيف أو في المشتل أو الصيد أو قصد ثغر من الثغور، فغالب الشكاوي على أطلاقها مردودة إلى الوزير وليس في هذه البلاد قاعدة محفوظة تمشي على نظامها بل كل من انصوى إلى خاتون من الخواتين، أو أمير من النساء أو كبير من الخواجكية قام بأمره إما في قضاء حاجة يطليها أو إزالة ظلامة يشكوها حتى من النساء والأمهات من يقتل ويوسط بيده بغير أمر القان ولأمير الألوس.

(١) صندلي: وهو الكرسي «فرهنگ رازی ٥٦٤».

(٢) الكرباس: بفتح الكاف، قماش قطني ينسج باليد «فرهنگ رازی ٦٩٥».

(٣) كراسى صندلية: وهي كتبة بمخدع، كرسى مخصوص بجوانب «فرهنگ رازی ٥٦٤».

وأما اليراغ^(١) والأحكام الصادرة عنهم فالمتعلق بالأموال يسمى الطرطغا^(٢)، وهذه صادرة عن رأي الوزارة، وأمره المتعلق بالألجية^(٣) وهو البريد يسمى... وهي أيضاً صادرة عن الوزير قد أقام لها أساساً بذاتهم ومرجوعهم إليه المتعلق بالعسكر يسمى.. وهو صادر عن أمير الألوس.

وليس لأحدٍ على الجميع خطًّا إلَّا الوزير، وإنما العادة أن يأمر الوزير بكتابة ما يرى ثم تؤخذ خطوط المتحدثين في ذلك الذي يكتب ثم تحرر مسورة وتعرض على الوزير فإذا بحث عنها فيكتبه؛ كما نبهنا عليه من قبل اسم السلطان ثم تحته اسم المرأة الأربعاء ويخلل تحته مكان هو غير من يكتب ثم يأتي الوزير ويكتب في المكان الخالي: فلان سووي - أي هذا كلام فلان - يسمى نفسه، ثم إن كان متعلقاً بالمال أثبت حيث يشته مثله وإلَّا فلا.

وأما المتعلق بالعسكر فمنشأ الأمر فيه عن أمير الألوس يأمر به، ثم على بقية الترتيب ولا خط لأمير الألوس بيده.

وَقَاعِدَةُ أَصْحَابِ الْوَلَائِمِ مِنَ الدَّوَاهِينِ عِنْهُمْ - كَمَا هُوَ بِمَصْرِ وَالشَّامِ - لَا يَعْلَمُ صَاحِبُ عَلَمَةٍ حَتَّى يَرَى خَطًّا نَائِبَهُ عَلَيْهِ أَوْلًا، لِيَعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ نَزَلَهُ عِنْهُ.

وأخبرني الفاضل أبو الفضائل يحيى بن الحكيم : أنَّ الذي للأمراء والعسكرية لا يكتب به / ١١٠ / مرسوم ؛ لأنَّ كُلَّ طائفة ورثت طائفة ورثت مالها من ذلك عن آبائها وهم على الجهات التي قررها لهم هولاكو لا يتغير بزيادة ولا نقص إلَّا أكابر الأمراء الذين حصلت لهم الزيادات فإن ذلك الوقت كتب لهم بها بأمر القان أصدر بها الوزراء عنه.

قال: ومن الخواتين والأمراء من أخذ بماله و ببعضه بلاداً فهي له مما له وكثيراً من أخذ بلداً عن مبلغ متاحصل ذلك الملك أضعافه وأقل هذه المملكة قد داخلهم العجم وزوجهم وتزوجوا منهم وخلطوهم بالنفوس في الأمور فلهذا تفخت قواعدهم وجرت على عوائد الخلفاء والملوك في غالب الأمور قوانينهم.

ولقد كان هولاكو من أول ما أخذ بغداد على نية إجراء الأمور في مجارتها وإبقاء الأحوال على ما كانت، ولكنه ما تهيأ له لشدة من كان معه على المغولية

(١) اليرالغ: جمع مفرده يرليغ، لفظ مغولي بمعنى حكم، مرسوم «صبع الأعشى» / ٤٢٣ - ٤٢٨».

(٢) الطرطمغا: المرسوم الخاص بالأموال يسمى بهذا الاسم.

(٣) الألجبية: المرسوم الخاص بالوزارة.

وإفراط تخوف الناس منهم؛ فإنهم لكترة خوفهم منه تجنبوا لقاءه فزالت عنهم رتبهم وتغيرت عليهم أحوالهم. ولقد كان يقنع منهم بالطاعة والانقياد والمداراة بالمال عن استئصال البلاد ولكن المقادير لا ترد سهامها ولا تصدّ أحكامها.

وفي هذه المملكة عدّة ملوك مثل صاحب هري^(١) وهي - هري من خراسان - في أخرىات البلاد مجاورة لكرمان، وبها ملك من بقایا ملوك السبکتکینية يتوارثون ملکها ذات بلاد وأعمال وجایة وأموال وسلطانها عسکر، يقال: إنها عشرون ألفاً، وهم لا يبلغون ذلك. وكان قد آل ملکها إلى غیاث الدين محمد السبکتکیني، وإليه لجأ جوبان بن جلو - أمیر ألوس إیران - في واقعته مع السلطان أبو سعيد فإن لصحبة كانت بينهما، وكان مع جوبان ولده خلوقان وهو ابن بنت السلطان محمد أولجایتو خداپنده - وهي أخت السلطان أبي سعيد فتقلاهما وأنزلهما في القلعة عنده ثم خنقهما تقرباً إلى السلطان أبي سعيد وبعث باباهام جوبان وكان بها / ١١١ / إصبع زائدة إلى حضرة بوسعيد إعلاماً بتحقيق قتلها. وكان بوسعيد قد تزوج ببغداد خاتون بنت جوبان بعد تحيده منه فأمر بإقامة العزاء عليها، ثم نقل جثتها إلى حضرته وجدد العزاء عليهما، ثم حمل إلى مكة المعظمة فطيف بهما، ثم حمل إلى المدينة الشريفة النبوية فدفنا بالبقاء منها^(٢).

ومات غیاث الدين - المذکور - وانتقل الملك بعده لولده.

وهذه هري مدينة جليلة من أجل مدن خراسان مشهورة موصوفة بالحسن والنعمة وبها الماء السارح والشجر الكثير رخية الأسعار حكمها حکم ما سواها من خراسان إلا إنّها مملكة تداولها ملوك، وكلهم في طاعة صاحب إیران وتحت أمره. وعسکر هري من الفرس وفيهم البهالوين^(٣) ذوو الأساس والقوة.

وأخبرني شيخنا فريد الدهر شمس الدين أبو الثناء محمود الأصفهاني: أنَّ بالقرب من هري شيخ موجود اسمه شهاب الدين أحمد الجامي جليل القدر واسع الحرمة والمال، له خمسة آلاف مملوك يصرفهم في أرزاقه، ومكاسبهم كثيرة ومستغلات أملاكه وزروعه وتربية دود الفرز واستخراج الحرير له، وعمله بما يجيء منه

(١) هراء: مدينة عظيمة من مدن خراسان بناها الإسكندر وحولها سور عظيم، وليس بخراسان أجمل ولا أعمّر ولا أخصب ولا أكثر خيراً منها «آثار البلاد ٤٨١» ولأهلها صلاح وعفاف وديانة «رحلة ابن بطوطة ٢٥٤».

(٢) وفي رحلة ابن بطوطة ١٥٤ إنّهما دفنا في مكة.

(٣) البهالوين: جمع مفرده بهلوي ويعني الشجاع والبطل.

الجمل الكثيرة التي لا تكاد تحصر.

قال: وهذا الجامي مرعي الجانب عند سلاطين إيران، كان يفرش سجادته إلى جانب السلطان خدابنده، فقيل لخدا بنده: كيف بلغ هذا منك هذه الرتبة؟ قال: كنت مجردأً في زمان أخي محمود غازان بستين ألف فارس فضاق بنا الوقت لقلة ما نأكل نحن ودواينا فأقام بنا جمِيعاً هذا الشيخ أربعة أشهر من ماله.

وحكى لي من أثق بقوله: أنه رأه على مني وهو حاج ومعه ألف جمل أو أثقل عليها أمواله وأثقاله.

قال ورأيت غياث الدين صاحب هری واقفاً في خدمة الجامي والجامی^(١)، قاعد لا يكتثر بوقوف صاحب هری بين يديه.

وبهذه المملكة أبلة البصرة^(٢) وشعب بوان^(٣) / ١١٢ / وما نصف متنزهات الدنيا الأربع ذات المحسن المنوعة.

فاما الأبلة فمدينة قديمة دثرت الآن وبقي متنزهها على ما كان، والأبلة نهر مشتق من دجلة مرفوع إلى البصرة لسقي بساتينها.

والبصرة أشهر من أن توصف حدائقها المختلفة، وجداولها المحففة وما تفتر به رياضها من بداع الزهارات، وتفردت به حدائقها من يانع الشمرات.

قال الجاحظ^(٤): ونهر الأبلة شقه زياد مقابلة نهر معقل، وبينهما البساتين

(١) جامي: أبو نصر أحمد بن أبي الحسن المعروف بشيخ جام، من مشايخ المتصوفة في النصف الأول من القرن السادس الهجري قضى عمره في الرياضة والإرشاد، مات سنة ٥٣٦هـ ولله عدة كتب أهمها: أنيس الثنائيين، كنز الرحمة، روضة المذنبين، بحار الحقيقة ومفتاح التجاه، وهو غير الشاعر عبد الرحمن الجامي المتوفى سنة ٨٩٨هـ. انظر: فرهنگ أدبيات فارسي ١٥٧.

(٢) أبلة البصرة: بينها وبين البصرة عشرة أميال، كانت مدينة عظيمة يقصدها التجار من الهند وفارس رحلة ابن بطوطة ١٢٧.

(٣) شعب بوان: شعب يإقليم فارس به الرياض والأشجار الكثيفة والزهور الرقيقة، وهو مكان بديع.

(٤) عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ: كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقـة الجاحظـية من المعترـلة. مولـده: سنة ١٦٣هـ / ٧٨٠م. ووفـاته سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٩م في البـصرـة. فـلـجـ في آخر عمرـهـ. وكان مشـوهـ الخـلـقـةـ. ومـاتـ والـكتـابـ علىـ صـدـرهـ. قـتـلـهـ مجلـدـاتـ منـ الكـتبـ وـقـعـتـ عـلـيـهـ. لـهـ تـصـانـيفـ كـثـيرـةـ، مـنـهـ «الـحـيـوانـ - طـ» أـربـعـةـ مجلـدـاتـ، وـ«الـبـيـانـ وـالـتـبـيـينـ - طـ» وـ«سـحـرـ الـبـيـانـ - خـ» وـ«التـاجـ - طـ» وـيـسـمـيـ أـخـلـاقـ الـمـلـوـكـ، وـ«الـبـخـلـاءـ - طـ» وـ«الـمـحـاسـنـ وـالـأـضـدـادـ - طـ» وـ«الـتـبـصـرـ بـالـتـجـارـةـ - طـ» رسـالـةـ نـشـرتـ فـيـ مجلـةـ المـجـمـعـ الـعـلـمـيـ العـرـبـيـ، وـ«مـجـمـوعـ رسـائـلـ - طـ» اـشـتمـلـ عـلـيـ أـربعـ، هـيـ: الـمـعـادـ وـالـمـعـاشـ، وـكـتـمـانـ السـرـ وـحـفـظـ الـلـسـانـ، وـالـجـدـ وـالـهـزـلـ، وـالـحـسـدـ وـالـعـدـاوـةـ. وـلـهـ «ذـمـ الـقـوـادـ - طـ» رسـالـةـ صـغـيرـةـ، وـ«تـبـيـهـ الـمـلـوـكـ - خـ» فـيـ ٤٤٠ وـرـقـةـ، وـ«الـدـلـائـلـ وـالـاعـتـارـ =

والقصور العالية والمباني البدعة، يتسلل مجراء، وتهلل بكرةً وعشاء، وتظلل الشجر وتغني به زمر الطير وهي من الحسن حيث يشهد العيان ويظهره فنون الأفنان.

والأبلة هي المدينة القديمة وإنما اختطفت البصرة عرضها، وفيه يقول القاضي

التنوخي^(١): [من الكامل]

أحِبَ إِلَيَّ بَنْهُرٍ مَعْقُلٌ الَّذِي
عَذْبٌ إِذَا مَا عَلَّ مِنْهُ نَاهِلُ
مُتَسْلِسْلٌ وَكَانَهُ لصَفَائِهِ
وَكَانَهُ يَاقُوتَهُ أَوْ أَعْيَنُ
عَذْبٌ فَمَا تَدْرِي أَمَاءُهَا
ولَهُ بَمَدْ بَعْدَ جَزِيرٍ ذَاهِبٍ
إِذَا نَظَرَتْ إِلَى الأَبْلَةِ خَلَّتْهَا
كُمْ مَنْزِلٍ فِي نَهَرِهَا إِلَى السَّرُورِ

= على الخلق والتدبر - ط» و«فضائل - الأتراك - ط» و«العرفة والفراسة - خ» و«الربيع والخريف - ط» و«الحنين إلى الأوطان - ط» رسالة. و«النبي والمتنبي» و«مسائل القرآن» و«العيرو والاعتار في النظر في معرفة الصانع وإبطال مقالة أهل الطبائع - خ» و«فصيلة المعتزلة» و«صياغة الكلام» و«الأصنام» و«كتاب المعلمين» و«الجواري» و«النساء» و«البلدان» و«جمهرة الملوك» و«الفرق في اللغة - خ» في تذكرة النواذر، و«البرصان والعرجان والعميان والحولان - ط» و«القول في البغال - ط» و«كتاب المغنين» و«الاستبداد والمشاورة في الحرب». ولأبي حيان التوحيدي كتاب في أخباره سماه «تقريظ الجاحظ» اطلع عليه ياقوت. وجمع محمد جبار المعيد العراقي، ما ظفر به متفرقًا في شعره، في «رسالة - ط»، ولشقيق جيري «الجاحظ معلم العقل والأدب - ط»، ولحسن السنديسي «أدب الجاحظ - ط»، ولغزاد أفرام البستاني «الجاحظ - ط»، ومثله لحنا الفاخوري.

ترجمته في: إرشاد الأريب ٦/٥٦ - ٨٠ والوفيات ١/٣٨٨ - ٤٨٧، وأمراء البيان ٣١١ - ٤٨٧، وابن الشحنة: حوادث سنة ٢٥٥ وفيه: عن الجاحظ، قال: «ذكرت للمتوكل لأعلم أولاده، فلما استحضرني استبع منظري فأمر لي بعشرة آلاف دينار وصرفني». وآداب اللغة ٢/١٦٧ ولسان الميزان ٤/٣٥٥ وال فهي من التمهيدي ٥٥٠ ومجلة لغة العرب ٩/٢٦ وتاريخ بغداد ١٢/٢١٢ وأعمال المرتضى ١/١٣٨ وتذكرة الألبا ٢٥٤ والبعثة المصرية ٤٠ ودائرة المعارف الإسلامية ٦/٢٣٥ و ٢٣٩، S.I: 152، Brock I: 185، وتنزهه وتنزهه النواذر ١٠٨ وانظر «مشاركة العراق» لكوركيس عواد، الرقم ١٨٢ ففيه رسائل أخرى من تأليفه نشرت في العراق. الأعلام ٥/٧٤.

(١) هو محمد بن محمد بن عمرو، زين الدين التنوخي (نسبة إلى عدة قبائل تدعى بتونخ أقاموا بالبحرين) وهو الدمشقي ثم البغدادي الأديب المتوفى سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م، له: أقصى الغرب في صناعة الأدب».

ترجمته في: «هدية العارفين ٢/١٥٤، والأعلام ٧/٣٥».

وكأنما تلك القصور عرائس
والروض حليٌّ وهو فيه ترفلٌ
هزجاً يُفل لها الثقيل الأول
يوم الوداع وغيرهم يتراحل
حلاً بها عقد الهموم محلٌّ
ومعمدٌ ومحبرٌ ومهللٌ
فتحال ذا عيناً وذا خداً وذا
ثغراً يُغضض مرأة ويُقبل
ويحيط بالأبلة نهرها المشتق لها ونهر المعقل؛ فلهذا صارت بين سلكيهما في
أبهى منظر وأحرز معلم، وبها التخيل المائسات القدد المائلات في خضر البرود شيء
رطبها الجنية، وثراتها الهنية كأنها السكر المذاب بل شفاه لعس معلولة الرضاب.
وأما شعب بوان فهو بظاهر همدان يشرف عليها من جبل يقال له بالفارسية
الرند، والشعب في سفحه يصاحك في الأفق ثغر صبحه، والأنهار تنحط عليه من
أعلى الجبل، ويناجيه صبها برقة الغزل، يتنهى على أنديتها مقبلاً، ويتراحم على شفاهها
الحوّ مقبلاً، قد تكسرت على رياها فأوهمت الغوازي في حلاها بقلب عوارضها
المُخضرة كالعدار، والتفت حدائها إليها كأنها اعتذار؛ وهو من أبدع بقاع الأرض
منظراً، وأندى دوهاً نمراً.

قال المبرد^(١): أشرفت على شعب بوان فنظرت فإذا بماء منحدر كأنه سلاسل
فضة وترية كالكافورة، وروضة كالثوب الموشى، وأشجار متهدلة، وأطيار متباوية.
ولقد حدثني من رأها، وطيب مفارقها بشرها، أنها تذهب بالأباب، وينذهب بها
عصر الشباب، لا تقاد الشمس تسقط من إرданها، ولا الكوكب تغيب من فرجات
أغصانها.

(١) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الشمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد: إمام العربية ببغداد في زمانه، وأحد أئمة الأدب والأخبار. مولده بالبصرة سنة ٢١٠ هـ/٨٢٦ م. ووفاته ببغداد سنة ٢٨٦ هـ/٩٩٩ م. من كتبه: «الكامن - ط» و«المذكر والمؤنث - خ» نسخة منه في أول المجموعة ٥٣٤ في الاسكوريات، و«شرح لامية العرب - ط» مع شرح الزمخشري، و«إعراب القرآن» و«طبقات النحاة البصريين» و«نسب عدنان وقططان - ط» رسالة. و«المقرب - خ» قال الزبيدي في شرح خطبة القاموس: المبرد بفتح الراء المشددة عند الأكثر وبعدهم يكسر. ترجمته في: بغية الوعاة ١١٦، ووفيات الأعيان ٤٩٥ / ١ وفيه: «وفاته سنة ٢٨٦ وقيل ٢٨٥» وسمط الآلي ٣٤٠ والسيرافي ٩٦ وتاريخ بغداد ٣٨٠ / ٣ وأداب اللغة ١٨٦ / ٢ ولسان الميزان ٤٣٠ / ٥ وزهرة الأنبا ٢٧٩ وطبقات التحويين ١٠٨ ، ١٢٠ ، ٦٧ ، الأعلام ١٤٤ / ٧.

ولقد مرَّ أبو الطيب المتنبي^(١) بشعب بوان لما توجه إلى عضد الدولة ابن بويه^(٢) واستطابه واستطال نزولاً به، واستطار إعجاباً بما هزَّ فيه هزة الحمام من

(١) أحمد بن الحسين بن عبد الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي، أبو الطيب المتنبي: الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة. وفي علماء الأدب من يعده أشعار الإسلاميين. ولد بالكونفية سنة ٩١٥ هـ / ٣٠٣ م في محللة تسمى «كندة» وإليها نسبته. ونشأ بالشام، ثم تقلل في الباذية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس. وقال الشعر صبياً. ووفد على سيف الدولة ابن حمدان (صاحب حلب) سنة ٩٣٧ هـ فمدحه وحظي عنده. ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيدى وطلب منه أن يوليه، فلم يوله كافور، فغضب أبو الطيب وانصرف يهجو، وقصد العراق، فقرىء عليه ديوانه. وزار بلاد فارس فمر بأرجان ومدح فيها ابن العميد وكانت له معه مساجلات. ورحل إلى شيراز فمدح عضد الدولة ابن بويه الديلمى. وعاد يربى ببغداد فالكونفية، فعرض له فاتك بن أبي جهل الأسدى في الطريق بجماعة من أصحابه، ومع المتنبي جماعة أيضاً، فاقتتل الفريقيان، فقتل أبو الطيب وابنه محسد وغلامه مفلح، بالنعمانية، بالقرب من دير العاقول (في الجانب الغربى من سواد بغداد) سنة ٩٦٥ هـ / ٣٥٤ م. وفاتها هذا هو حال ضبة بن يزيد الأسدى العينى، الذى هجا المتنبي بقصيدته الباية المعروفة. وهي من سقطات المتنبي. أما «ديوان شعره - ط» فمشروح شروحًا وافية. وقد جمع الصاحب ابن عباد لفخر الدولة «نخبة من أمثال المتنبي وحكمه - ط» وتبارى الكتاب قديماً وحديثاً في الكتابة عنه، فألف الجرجانى «الوساطة بين المتنبي وخصوصه - ط» والحاكمي «الرسالة الموضحة في سرقات أبي الطيب وساقط شعره - خ» والبديعي «الصحيح المنبي عن حيثية المتنبي - ط» والصاحب ابن عباد «الكشف عن مساوىء شعر المتنبي - ط» والشاعلى «أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه - ط» والمتميم الإفرقي «الانتصار المنبي عن فضل المتنبي» وعبد الوهاب عزام «ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام - ط» وشفيق جبرى «المتنبي - ط» وطه حسين «مع المتنبي - ط» جزان، ومحمد عبد المجيد «أبو الطيب المتنبي، ما له وما عليه - ط» ومحمد مهدي علام «فلسفة المتنبي من شعره - ط» ومحمد كمال حلمى «أبو الطيب المتنبي - ط» ومثله لفؤاد البستانى، ول محمود محمد شاكر، ولتركي المحاسنى.

ترجمته في: ابن خلكان / ٣٦١ وعاهد التنصيص / ٢٧ وابن الوردي / ٢٩٠ وابن الشحنة: حوادث سنة ٣٥٤ هـ. ولسان الميزان / ١٥٩ وفيه: «كان إذا ذكر له حادث تنبأه يستنكره ويقول: ذلك شيء كان في الحداثة! وإذا سئل عن معنى المتنبي يقول: هو لقب من الألقاب» وفيه: «كان والده يلقب عيadan - بفتح فسكون». وتاريخ بغداد ١٠٤ / ٢٤ والمنتظم ٣٧١ / ٢٤ والمستشرق بلاشير R. Blachere في دائرة المعارف الإسلامية ٣٦٣ / ٣٧١ ودار الكتب ٢٠٠ / ١ الاعلام ١١٥ / ١.

(٢) فناخسرو، الملقب عضد الدولة، ابن الحسن الملقب ركن الدولة ابن بويه الديلمى، أبو شجاع: أحد المغوليين على الملك في عهد الدولة العباسية بالعراق. ولد سنة ٣٢٤ هـ / ٩٨٣ م. تولى ملك فارس ثم ملك الموصل وببلاد الجزيرة. وهو أول من خطب له على المتناب بعد الخليفة، وأول من لقب في الإسلام «شاهنشاه» قال الزمخشري (في ربيع الأبرار): «وصف رجل عضد الدولة فقال: وجْهِهِ أَلْفُ عَيْنٍ، وفِيمْ فِيهِ أَلْفُ لِسَانٍ، وصَدَرَ فِيهِ أَلْفُ قَلْبٍ!». كان شديد الهيبة، جباراً عسوفاً، أديباً، عالماً بالعربية، ينظم الشعر، نعته الذهبي بالنحوى، وصنف له أبو علي الفارسي «الإيضاح» و«التكلمة». كما صنف له أبو إسحاق الصابى كتاب «التاجي» في أخبار بنى بويه، ولقبه بتاج الملة، ومدحه فحول الشعراء كالمنتبي والسلامى. وكان شيئاً، وهو الذي عمر مرقد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

طربه؛ فلما سمع لغة أهل العجم، وقاد إلى فصاحته قومه البكم استغرب بينهم نفسه، فقال^(١): [من الوافر]

مغاني الشّغب طيباً في المغاني
ولكن الفتى العربي فيها
ملاعب جنة لوسار فيها
١١٤ / طبت فرساننا والخيل حتى
غدونا تنفض الأغصان فيه
فسيرث وقد حجبن الشمس عنى
وألقى الشرق منها في ثيابي
لها ثمر تشير إليك منها
يقول بشعب بوان حصاني
أعن هذا يسار إلى الطعنان
وقد ذكرنا ما اشتغلت عليه هذه المملكة الجليلة من الأقاليم، وجملًا من
محاسن هذه المملكة وترتيبها، وسنذكر الآن ما لا بد منه؛ فمن ذلك :

بلاد الجبال : وهي تشتمل على المياه التي تجري على البصرة والكوفة، وحدها الشرقي مفارة خراسان وفارس وأصفهان، والغربي أذربيجان، والشمالي الديلم والري وقزوين والجنوبي العراق وخوزستان.

وتشتمل على مدن مشهورة - ذكرناها فيما تقدم من الكتاب -

وببلاد الديلم : وهي سهل وجبلان؛ فأما السهل فهو بلاد العجل وما معها؛ وهي الآن تسمى كيلان، والجبل متعد عليها من الجنوب إلى الشمال، وطبرستان هي كيلان أو في حكمها، وكذلك مازندران.

وكيلان وإن كانت من هذه المملكة فإنها مفردة لمملوك سيأتي ذكرهم.

= في النجف، وكان كثير العمران، أنشأ ببغداد البيمارستان العضدي وعمر القنطر والجسور، وبني سوراً حول مدينة الرسول ﷺ. أخباره كثيرة متفرقة أتى على معظمها ابن الأثير في الكامل. توفي ببغداد سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٣ م وحمل في تابوت، دفن في مشهد النجف.

ترجمته في : ابن الأثير / الجزآن ٨ و ٩ وبغية الوعاة ٣٧٤ و سير أعلام النبلاء ٣٤٧ - ٣٤٥ / ١٧ رقم ٢١٤ ، وابن الوردي / ١٣٠٥ وابن خلkan / ١٤١٦ والبداية والنهاية ١١ / ٢٩٩ ومرآة الجنان ٢ / ٣٩٨ رقم ٢ وروض الأخبار المختصر من ربيع الأبرار - خ الأعلام ١٥٦ / ٥ .

(١) من قصيدة قوامها ٤٨ بيتاً في ديوانه ٥٤١ - ٥٤٥ .

وسجستان ومنها هرمز بلاد تحيط بها مما يلي الشرق مفارزة بين أرض مكران وأرض السند وبين سجستان وفارس، ومن ناحية الغرب خراسان، وشيء من أرض الهند، وما يلي الشمال أرض الهند، وما يلي الجنوب المفارزة التي بين سجستان وفارس وكرمان وخراسان ويشتمل على كور ويحيط به من شرقه نواحي سجستان وببلاد الهند وجبال الغور وغريبه مفارزة فارس وريفه، ومن الغرب من حدّ قومس إلى المغرب وفيها من حدّ جرجان وبحر الخزر إلى خوارزم على العمارة. ومن الناس من يعُدُ هراة / ١١٥ / من خراسان ومنهم من يعدها بذاتها، وأقدم مدنها بناءً مرو الشاهجان.

قال: إنها من بناء ذي القرنين وهي في أرض مستوية بعيدة عن الجبال لا يرى فيها جبل وهي كثيرة الرمال، وفيها ظهرت دولة بني العباس في دار آل أبي النجم المعطي.

وأحسن مدنها مدينة نسا؛ وهي في غاية الحصانة كثيرة المياه والبساتين. ومن خراسان قوهستان وأهلها كلهم شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عليه السلام -، وأرمينية وأران وأذربيجان. حدودها مما يلي الشرق الجبال وببلاد الديلم وشرقي بحر الخزر، وما يلي الغرب حدود بلاد الأرمن، ومن جهة الشمال اللان وجبال القفق، ومن الجنوب العراق وبعض الجزيرة.

وأجل هذه النواحي أذربيجان، وأجل مدنها قديماً أردبيل. قال الزواوي: تكون أعمالها ثلاثين فرسخاً وبها كانت كبار الإمارة في صدر الإسلام، ثم كانت تليها مراغة. وكانت قديماً مقرًا للجند وتليها أرمينية وبينها وبين مراغة بحيرة كيودان وهي مالحة، وليس بها سمك ولا دابة وتخالف فيها المراكب بين أرمينية ومراغة وطولها نحو عشرين فرسخاً. فأماماً مُذ بنيت توريز لم تبق يذكره معها سواها.

وفي أرآن باب الأبواب وهي مدينة على بحر الخزر؛ وهي ميناء ذلك البحر واليها مرسى السفن.

وكرستان هي داخلة في حدود ما ذكرنا مع أرمينية ومدينتها تفليس^(١) على نهر

(١) هي تبليس الحالية عاصمة جمهورية جورجيا.

الكرّ - وقد تقدّم ذكر الحال مفصلاً فيما تقدّم -

والجزيرة وديار بكر وربيعة ومضر وهي مصاقيبة لبلاد العراق وجزيرة العرب والجزيرة بين الفرات ودجلة، وقد كانت هذه بمجموعها مملكة جليلة قائمة بذاتها في الدولة الأتابكية وخوزستان.

وشرقيها حدّ فارس وأصبهان، وغربيها رستاق واسط، وشمالها حد الصimirه والكرج - كرج أبي دلف وهو قصور مفرقة - والكرّ حتى يتصل على غربى الجبال، أي إلى أصبهان والجنوبي ينتهي بعضه / ١١٦ / إلى بحر فارس وبعضه إلى رستاق واسط، والبحر دائر عليها من آخر الشرقي إلى أول الغربي وجبال القفص والبلوص في حدّها الجنوبي مما يلي الجنوب قريبة من البحر، وقربها جبال الفضة قريب مدينة جيرفت من كرمان؛ وكلّها جبال عامة.

وأمّا البلوص ففي سفح جبال القفص ولا يخاف أهل القفص من أحدٍ إلاّ منهم وهم بادية يسكنون بيوت الشعر ولا يؤذون أحداً، وجبال بادن خصبة متعددة ذات أشجار. وكان أهلها مجوساً زمان بنى أمية ثم أسلموا في أوائل الدولة العباسية وبقوا في منعة حتى ولـي يعقوب^(١) وعمرو^(٢) أبا الصفار فملكو جبالهم.

(١) يعقوب بن الليث الصفار، أبو يوسف: من أبطال العالم، وأحد الأمراء الدهاة الكبار. كان في صغره يعمل الصقر (النحاس) في خراسان ويظهر الزهد. ثم تطوع في قتال الشراة، فانضم إلى جمّع، ظفر في معركة معهم. وأطاعه أصحابه، واشتدت شوكته، فغلب على سجستان (سنة ٢٤٧ هـ) ثم امتلك هرآء وبوشنج. واعتبرته الترك، فقتل ملوكهم وشتّت جموعهم، فهابه أمير خراسان وغيره من أمراء الأطراف. ثم امتلك كرمان وشيراز، واستولى على فارس، فجبي خراجها. ورحل عنها إلى سجستان قاعدة ملكه. وكتب إلى الخليفة ببغداد، وهو يومئذ «المعتز بالله» يعرض طاعته ويقدم له هدايا من نفائس غنائمها بفارس. وفي سنة ٢٥٩ اتحل لنفسه عنراً في اقتحام نيسابور، فدخلها عنوة، وقبض على أميرها محمد بن طاهر (آخر الأمراء من هذه الأسرة) وتم له ملك خراسان وفارس، فطبع ببغداد، فرحف إليها بجيشه، وكان الخليفة فيها «المعتمد على الله» فخرج جيش المعتمد، ونشبت بينهما حرب طاحنة، ولم يظفر الصفار، فعاد إلى واسط ينظر في شأن إمارته الواسعة، فتوفي بجند نيسابور (من بلاد خوزستان) سنة ٢٦٥ هـ / ٨٧٩ م وكان الحسن بن زيد العلوي يسميه «الستنان» لثباته.

ترجمته في: ابن خلكان ٢/٣١٢ وابن الأثير ٧/٢٠٧ والمسعودي، طبعة باريس: انظر فهرسته. وابن خلدون ٤/٣٢١ والطبرى ١١/٢٥٣ وما قبلها، والنجم الزاهرة ٣/٤٠ ومطالع البدور ٢/١٣٥ ومرأة الجنان ٢/١٨٠ وحمزة الأصفهانى ١٤٨، الأعلام ٨/٢٠١.

(٢) عمرو بن الليث، الصفار (آخر يعقوب): ثانى أمراء الدولة الصفارية. وأحد الشجعان الدهاة. ولـي بعد وفاة مؤسس الدولة أخيه يعقوب بن الليث (سنة ٢٦٥ هـ) وأقره المعتمد العباسى على أعمال أخيه كلها، وهـي: خراسان وأصبهان وسجستان والـسند وكرمان، فأقام ست سنين. وزعله المعتمد سنة ٢٧٤ هـ فامتنع فسـير إليه جيشاً، فانهزـم الصفار إلى كرمان ثم قاتل عـسـكـرـ المـوقـقـ سنة ٢٧٤ هـ ورـدـهـ عنـ =

وكرمان ومدينتهم السيرجان ثم جيرفت وهي بلد خراسان، والأختان التوعستان، وقد رخص فيما الجمع بين الأختين، والفریدتان الـيـتـيـمـاتـانـ، ولا يوصف بالـيـتـمـ إـلـاـ الواحدة إـلـاـ إذا كانت اثـتـيـنـ: السـمـعـ والـبـصـرـ، والـبـحـرـ والمـطـرـ.

وأفضل ما جهز له أبو بكر الجيوش، وفتحه عمر الفرقدان المـعـتـنـقـانـ، والنـيـرانـ المتـأـلـقـانـ مـرـكـزـ الـاعـلـامـ وـالـإـلـاعـلـامـ وـالـسـيـوـفـ وـالـأـقـلـامـ قـطـبـاـ تـلـكـ الدـائـرـةـ، وـافـقاـ نـجـومـهاـ الزـاهـرـةـ؛ عـرـاقـ الـعـربـ، وـعـرـاقـ الـعـجمـ.

وعـرـاقـ الـعـربـ وـالـأـولـ أـكـبـرـ وـالـثـانـيـ أـشـهـرـ لـمـكـانـ الـخـلـفـاءـ مـنـهـاـ، وـكـورـ عـرـاقـ الـعـجمـ عـظـيمـةـ جـلـيلـةـ - ذـكـرـنـاـ فـيـماـ تـقـدـمـ عـنـهـ ذـكـرـ الـأـفـالـيـمـ مـاـ نـبـنيـ عـلـيـهـ - .

وـأـمـاـ عـرـاقـ الـعـربـ فـهـوـ دـوـنـهـ وـإـنـ كـانـ غـاـيـةـ فـيـ الـفـخـامـةـ، وـنـهـاـيـةـ فـيـ الـضـخـامـةـ.

وـكـانـ مـلـوـكـ الـفـرـسـ دـلـ إـيـرـانـ^(١) شـهـرـ وـمـعـنـاهـ...ـ، وـهـوـ اـثـنـتـيـعـشـرـ كـورـةـ.

وـقـالـ لـيـ الـفـاضـلـ أـبـوـ الـفـضـائلـ يـحـيـيـ بـنـ الـحـكـيـمـ الطـيـارـيـ الـبـوـسـعـيـدـيـ: إـنـ كـلـ كـورـةـ مـنـهـاـ أـسـتـانـ^(٢) وـطـسـاسـجـةـ^(٣) سـتـونـ طـسـوـجـاـ وـتـرـجـمـةـ أـحـازـهـ وـتـرـجـمـةـ الـطـسـوـجـ نـاحـيـةـ.

فالـكـورـةـ الـأـولـىـ: كـورـةـ سـتـارـسـادـ فـيـرـوزـ: وـهـوـ خـمـسـةـ طـسـاسـيـجـ وـطـسـوـجـ خـانـقـينـ،

وـمـنـ الـجـانـبـ الـشـرـقـيـ سـقـيـ ثـامـراـ.

= كـرـمـانـ وـسـجـسـتـانـ. وـرـضـيـ عـنـهـ الـمـعـتـمـدـ سـنـةـ ٢٧٦ـ هـ فـوـلاـهـ شـرـطـةـ بـغـدـادـ، وـكـتـبـ اـسـمـهـ عـلـىـ الـأـعـلـامـ. وـوـلاـهـ (ـالـمـعـتـضـدـ) خـرـاسـانـ بـعـدـ وـفـاةـ (ـالـمـعـتـمـدـ) سـنـةـ ٢٧٩ـ هـ وـأـضـافـ إـلـيـهـ الـرـيـ سـنـةـ ٢٨٤ـ هـ ثـمـ وـلـاـيـةـ ماـ وـرـاءـ الـنـهـرـ. قـالـ أـبـنـ الـجـوـزـيـ (ـفـيـ حـوـادـثـ سـنـةـ ٢٨٦ـ هـ): «ـوـوـرـدـ يـوـمـ الـخـمـيسـ لـشـمـانـ بـقـيـنـ مـنـ جـمـادـيـ الـآـخـرـةـ هـدـيـةـ عـمـرـ بـنـ الـلـيـثـ مـنـ نـيـساـبـورـ، وـكـانـ مـبـلـغـ الـمـالـ الـذـيـ وـجـهـ بـهـ أـرـبـعـةـ آـلـافـ دـرـهـمـ، مـعـ عـشـرـيـنـ مـنـ الـدـوـابـ بـسـرـوجـ وـلـجـمـ مـحـلـةـ، وـمـئـةـ وـعـشـرـيـنـ دـاـبـ بـعـجـلـاـلـ مـشـهـرـةـ، وـكـسـوـةـ حـسـنـةـ وـطـيـبـ وـبـيـزـةـ وـطـرـفـ» وـعـظـمـتـ مـكـانـتـهـ عـنـدـ الـمـعـتـضـدـ، فـظـلـبـ أـنـ يـوـلـيـهـ مـاـ وـرـاءـ الـنـهـرـ، فـجـاءـهـ اللـوـاءـ بـذـلـكـ، وـهـوـ بـنـيـساـبـورـ. وـأـمـتـنـعـ عـلـيـهـ إـسـمـاعـيـلـ بـنـ أـحـمـدـ السـامـانـيـ (ـوـكـانـ وـالـيـ مـاـ وـرـاءـ الـنـهـرـ) فـنـشـتـ بـيـنـهـمـاـ مـعـارـكـ إـنـتـهـتـ بـظـفـرـ السـامـانـيـ فـيـ (ـبـلـخـ) وـأـسـرـ الصـفـارـ (ـسـنـةـ ٢٨٧ـ هـ) فـبـعـثـ الـمـعـتـضـدـ إـلـيـ السـامـانـيـ بـوـلـاـيـةـ خـرـاسـانـ، وـأـمـرـ بـالـصـفـارـ فـجـيـءـ بـهـ إـلـيـ بـغـدـادـ، فـسـجـنـ فـيـهـ إـلـيـ أـنـ تـوـفـيـ سـنـةـ ٢٨٩ـ هـ، وـقـيـلـ خـتـقـ، قـبـلـ مـوـتـ الـمـعـتـضـدـ بـيـسـيرـ.

تـرـجـمـتـهـ فـيـ: أـبـنـ الـأـثـيـرـ /٧ـ، أـبـنـ خـلـدونـ /٤ـ، ٣٢٦ـ، العـتـبـيـ /١ـ، مـنـقـرـيـوـسـ /١ـ، ٢٦٩ـ، الـمـنـظـمـ /٦ـ، ١٧ـ، ٣٧ـ، الـأـعـلـامـ /٥ـ، ٨٤ـ، ٨٥ـ.

(١) يـقـصـدـ بـعـراقـ الـعـجمـ إـيـرـانـ.

دـلـيـلـاتـ إـيـرـانـ: أـبـطـالـ إـيـرـانـ، دـلـيـلـاتـ جـمـعـ مـفـرـدـهـ دـلـيـرـ وـهـيـ كـلـمـةـ فـارـسـيـةـ بـمـعـنـىـ شـجـاعـ وـبـطـلـ «ـفـرـهـنـگـ رـازـيـ

ـ٣ـ٥ـ».

(٢) أـسـتـانـ: إـقـلـيـمـ أوـ مـحـافـظـةـ، كـلـمـةـ فـارـسـيـةـ مـنـ الـبـهـلوـيـةـ Ostanـ وـتـعـنـيـ وـلـاـيـةـ «ـفـرـهـنـگـ عـمـيدـ /١ـ، ١٣٤ـ».

(٣) طـسـاسـجـةـ: جـمـعـ مـفـرـدـهـ طـسـوـجـ وـهـيـ مـنـ تـسـوـ الـتـرـكـيـةـ بـمـعـنـىـ جـزـءـ مـنـ أـرـبـعـةـ وـعـشـرـيـنـ جـزـءـاـ «ـانـظـرـ

ـفـرـهـنـگـ عـمـيدـ /١ـ، ٥٧٦ـ».

والكوره الثانية: كوره سارشاد مهز: وهي ثمانية طساسيج: طسوج جشابور، وتسوج نهر بوق، وتسوج كلواذا وبها كلواذا؛ وهي /١١٧/ مدينة قديمة، وبها يسمى الكلدانيون الطائفة المشهورة المعدود منها كيومرث^(١) وطمهمورث^(٢) وجمشيد^(٣) والضحاك^(٤).

وطسوج نهر بين طسوج حازر وتسوج المدينة العتيقة، وتسوج زاذان. الأعلى، وتسوج زاذان الأسفل.

والكوره الثالثة «كوره سارشاه قبادو»: وهي ثمانية طساسيج: طسوج رستاقباد، وتسوج سلسل، وتسوج الدستين، وتسوج السدمحين، وتسوج براز الرود، وتسوج الدسكرة والرساتيق.

والكوره الرابعة «كوره باريغان خسره»: وهي خمسة طساسيج: طسوج النهروان الأعلى، وتسوج النهروان الأوسط، وتسوج النهروان الأسفل، وتسوج بادريا، وتسوج باكسيا.

والكوره الخامسة «كوره ساره شاه سابور»: وهي خمسة طساسيج: طسوج دجلة والفرات، وتسوج الزندورد، وتسوج الثرثور، وتسوج الأستان، وتسوج الخوارج.

الكوره السادسة «كوره ستار شاه بهمن»: وهو أربعة طساسيج: طسوج بهمن أردشير، وتسوج ميسان، وتسوج دست ميسان؛ وهو الأبلة، وتسوج أبرقاد.

والكوره السابعة «كوره ستان العليا»: وهي أربعة طساسيج: طسوج فiroز سابور - وهي الأنبار - وتسوج مسكن وهو دجيل، وتسوج قطربل، وتسوج بادرويا.

والكوره الثامنة «وهي كوره ستان سيريايكان»: وهي خمسة طساسيج؛ طسوج نهر سير وتسوج، وتسوج الرومان، وتسوج كومى، وتسوج نهر درفيط، وتسوج نهر جوير.

(١) كيومرث: أول ملك أسطوري حكم على الأرض وهو في العربية جيومرث وبالبهلوية كيمرد أو كيه مرت «حماسه سرای در ایران ص ٣٩٩».

(٢) طهمورث: تهمورث ملك أسطوري حكم بعد هوشنك ورد في شاهنامة الفردوسي بأنه تعلم ثلاثين لغة وحكم ثلاثين عاماً «حماسه سرای در ایران ٤١٨ - ٤٢٣».

(٣) جمشيد: هو ابن تهمورث، حكم بعد أبيه، وهو أيضاً من الملوك الأسطوريين «حماسه سرای در ایران ٤٢٤».

(٤) الضحاك بن مرداس، العربي الذي قتل جمشيد، وحكم بلاد ايران حتى قتله أفریدون البطل الأسطوري الایرانی «ن. م ٤٥١ وما بعدها».

والكورة التاسعة «هي كورة بدر ويرشان»: وهي الرواني وهي ثلاثة طساج: طسوج الزاب الأعلى، وتسوج الزاب الأوسط، وتسوج الزاب الأسفل.

والكورة العاشرة «وهي كورة ستان لهقياد الأعلى»: وهي ستة طساج: طسوج بابل، طسوج حطروبة، /١١٨/ وتسوج الفلوحة العليا، وتسوج الفلوحة السفلية، وتسوج النهرين، وتسوج عين التمر.

الكورة الحادية عشرة «وهي كورة ستان لهقياد الأوسط»: وهي أربعة طساج: طسوج العبة والده، وتسوج سورا وبارسوما، وتسوج نهر الملك.

والكورة الثانية عشرة وهي تمام «وهي كورة ستان لهقياد الأسفل»: وهي خمسة طساج: طسوج فرات وبادفلي، وتسوج السالحين، وتسوج نستر، وتسوج رومستان، وتسوج هرمز دخوه.

قلت: ولم أذكر مدن هذه المملكة هنا لكثرتها؛ ولأنها قد تقدم عند ذكر الأقاليم ما لا يحتاج معه إلى إعادة ولا فيه نقص يفتقر إلى زيادة، والذي ذكرناه الآن من كور العراق هو عمل بغداد الداخل حسابه فيما يختص بها من السوداء دون ما هو مفرد لبقية ما معها من المدن والبلاد، والذي أعددنا ذكره هنا مما تقدم ذكره؛ إنما هو للإعلام بمقدار هذه المملكة وما جمعت أطرافها من الأقاليم والأمصال والممالك العظيمة، والمدن الكبار مما اجتمعت في جمعه الأكاسرة، ودأبت الدولة العباسية في تحصيله، وقد صارت كلها بيد ملوك بيت هولاكو؛ وهي واسطة الأرض وخالصة المعمورة، وسرّة الدنيا، وأسرة العلياء فسبحان الله العظيم الوهاب الكريم يرزق من يشاء بغير حساب، ويعطي بلا احتساب؛ لا راد لما قضى، ولا مانع لما أعطى يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك من يشاء^(١).

على أنَّ هذا البيت في وقتنا هذا قد وهى نظمه، وهو نجمة، وهو ان على الناس أمره، وحمد تحت الرماد جمره منذ مات أبو سعيد بهادرخان آخر ملوكهم المجمع على طاعته.

ثم هم بعده في دهباء مظلمة، وعمياء معتمدة، لا يفضي ليتهم إلى صباح، ولا جملتهم المفرقة إلى اجتماع ولا فساد ذات بينهم إلى صلاح؛ في كل ناحية هاتف يدعى باسمه، /١١٩/ وخائف آخذًا جانبياً إلى قسمه؛ وكل طائفة تتغلب وتقيم قائمًا

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَمَّ مَلِكَ الْمُلْكِ تُؤْمِنُ الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مَمْنُ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدِكَ الْحَيَاةُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٦) «سورة آل عمران: الآية ٢٦».

يقول هو من ابناء القان، وتنسبه إلى فلان ابن فلان، ثم يضمحل أمره عن قريب، ولا تلحق دعوته تبلغ حتى يدعان لا يجib، وما ذلك من الدهر بعجيب، وملوك هذا البيت وإن كانوا ملوكاً من قديم الزمان، وبينهم وبين ما يكون بين الملوك من الشنان. وكان متألفهم على ما وجدوا عليه آباءهم لا يسمون ل الإسلام، ولا يتركون آباءهم فإنهم أهل هم تدك لها الجبال، وكرم تدك به الأموال.

فأمّا نجدهم وبأسمهم فأول دليل على مبلغهم منه ما ملكوه بسيوفهم من المشرق إلى الشام، وإلى الآن ما تقادمت الأيام. وأما كرمهم قد ذكرنا منه ما يدل عليه.

حدّثني شيخنا فريد الدهر أبو الثناء محمود بن أبي القاسم الأصفهاني - أطال الله بقاه - أنَّ خواجا رشيد الدولة^(١) ألف كتاباً سماه وقدمه للسلطان خدابنده، وقال له: إنَّ أرسطو عمل كتابه المسمى .. وقدمه للاسكندر فأجازه عليه ألف دينار، وما أنت ممن يرضى أن يكون دون الإسكندر؛ فقبل خدابنده الكتاب وأمر له

(١) فضل الله (رشيد الدولة، أو رشيد الدين) ابن أبي الخير (عماد الدولة) ابن علي (موفق الدولة) أبو الفضل الهمذاني: وزير، من المشتغلين بالفلسفة والطب والتاريخ. اتصل بملك التتار «محمود غازان» وخدمه بطنه إلى أن ولّي الوزارة له، ثم لأخيه «خدابنده» من بعده. وقام بكثير من أعمال التبر في «تبزيز» كالخوانك - جمع خانكاه - والمدارس. وصنف كتاباً في «تفسير القرآن» على طريقة الفلاسفة، فنسب إلى الإلحاد. ومرض القان «خدابنده» فاشترى رشيد الدولة في علاجه، فمات، فقالوا إنه كان سبب موته، فقتلوه سنة ٧١٦هـ/١٣١٦ م وفصلت أعضاؤه وأرسل إلى كل بلد عضو منها. وحمل رأسه إلى «تبزيز» ونودي عليه: هذا رأس اليهودي الملحد. وقالوا: إن آباء كان يهودياً عطارة، وإنه، أي رشيد الدولة، أسلم قبل أن يتصل بغازان. وقد احترقت - أو أحرقت - كتبه بعد قتله، وبقي منها «جامع التواريـخ - خ» أربع مجلدات، بالعربية والفارسية، طبعت النسخة الفارسية منه باسم «تاريخ غازاني» و«مقتاح التفاسير - خ» في دار الكتب، مقدمة لتفسير له يعرف بالتفسير الرشيدـي، و«الأسئلة والأجوبة الرشيدـية - خ» في استنبول، ويسمى «جامع التصانيف الرشيدـية» و«مجموعة رسائل - خ» تشتمل على ٥٢ رسالة، جمعها كاتبه شمس الدين محمد الأبرقـوي وصدرها بـمقدمة. قال الذهبي: كان له رأـي ودهاء ومرءـة. عاش نحو ٧٥ سنة .

ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/٢٢٣ - ٢٢٢ وفيه تحقيق مقتله سنة ٧١٦ وعرف برشيد الدولة، وسماه «فضل الله بن أبي الخير بن غالـي» وصححـه صاحب الذريـعة ٣/٢٦٩ بـابـن «علي» مكان «غالـي» وعرفـه برشـيدـ الدين، كما في تاريخـ العـراق ١/١٥ و٣٩٩ و٤٥٢ وما بـعدهـا. وفي السـلوكـ للمـقرـيزـي ٢/١٨٩ مـقتـلهـ سنةـ ٧١٨ وـاسمـ جـدهـ فيـ «ـ غالـيـ». وفيـ شـذرـاتـ الـذهبـ ٦: ٤٤ مـقتـلهـ سنةـ ٧١٧ وـانـظـرـ دـارـ الـكتـبـ، مـلـحقـ الـأـولـ ٧ وـ٥: ٩٩ وـطـوـبـيـقـبـوـ ٣/٦٢، ٥٩٨ وـالـذـرـيـعـةـ ١٠/٢٤٧ وـفيـ أـسـمـاءـ الرـسـائـلـ، الـأـعـلـامـ ٥/٥٢ .

(٢) فرغـ فيـ الأـصـلـ بـمـقـدـارـ ٤ـ سـمـ وـأـظـنـهـ كـتـابـ «ـ جـامـعـ التـوارـيـخـ».

بنظير ما أمر به الإسكندر لأرسطو فأخذ به خواجا رشيد الدولة أملاكاً وعقاراً قيمتها قدر المبلغ ثلاثة مرات.

قال: والأملاك إلى الآن في يد أولاده وذريته.

قلت: وأحبّ السلطان المذكور - على ما بلغنا - امرأة مغنية من بغداد فأطلق لها ما لا يحصى ولا يدخل في حساب.

وحدثني من أثق به: أنَّ أبغا بن هولاكو كان يأنس برجل فاتفق أن صحبه في سفر إلى جهة ملا، وكانت يوم ذاك خزانة أموالهم فأمر به أن يدخل إليها ويأخذ ما أراد منها؛ فلما دخل إليها لم يأخذ سوى دينار واحد عمله في فيه؛ فلما حضر بين يديه سأله عمّا أخذ فألقى الدينار من فيه، وقال: يا قان شبت وامتلأت حتى خرج من فمي فضحك وأعجبه منه ما قاله وأمر له بعشرة توانين عنها مائة ألف رائح بستمائة ألف درهم فأخذها.

وحدثني قاضي / ١٢٠/ القضاة أبو محمد الحسن الغوري: أنَّ فقيراً وقف كيختو^(١) في أيام سلطنته وشكى إليه ضرره، فأمر له بثلاثة توانين - وهي ثلاثون ألف بمائة وثمانين ألف درهم - فاستكثر هذا طاجار وزيره وما تجاسر أن يشاوره فسكبها في قطع في طريق كيختو ليبصرها فيستكثر المبلغ؛ فلما عبر عليها ليختو رآها سأله عنها، فقيل له: هذا الذي رسمت به لذلك الفقير، فقال: هذا هو كيس؟ قالوا: نعم، قال: والله مسكون، أنا والله كنت أعتقد إنَّا أعطيناه شيئاً وهذا ما هو شيء اعطوه مثله مرَّة أخرى فأعطيه.

* * *

(١) هو كيخانو بن آباقا خان بن هولاكو، حكم ما بين سنة ٦٩٤ - ٦٩٠ هـ. «جامع التوارييخ»، ١٤/٢. تركستان ٨١٨.

الباب الثالث: في

مملكة الجيل

وفيه أربعة فصول:

- الفصل الأول: في بومن.
- الفصل الثاني: في توليم.
- الفصل الثالث: في كسكر.
- الفصل الرابع: في رسفت.

في مملكة الجيل

ونحن نذكر في هذا الباب في رسفت من مملكة الجيل^(١) ما تيسر لنا ذكره جملة. حدّثني الشريف محمد بن أحمد بن عبد الواحد الجيلي : أنَّ بلاد كيلان في وطأة يحيط بها أربع حدود من الشرق : إقليم مازندران^(٢) ، ومن الغرب موقعان^(٣) ، ومن الغرب عراق العجم يفصل بينهما جبل يعرف مازندران ، يعرف بإسناده في سفحه الجنوبي قرَّى ممتدة تسمى بلاد التارم^(٤) داخلة في مملكة كيلان ، وبأيدي ملوكها.

وهو جبل عالٍ لا يرقى إلَّا من طلوع الشمس إلى العصر؛ وهو جبل مشجر فيه عيون كثيرة ، وبه سكان من الأكراد ومن الشمال بحر القلزم ويأخذ على توريز فيه وكيلان مشتمل على أربعة مدن كبار لكل مدينة منها في الغالب ملك ينفرد بذاته منها وبأعماله المضافة إليه ، وهي تؤمن قرية من الجبل إلى وسطه ، وتوليم تليها إلى البحر بشرق وكسكر^(٥) يليها إلى جهة موقعان مصادقة للبحر وطول مجموع كيلان مما في أيدي هؤلاء الملوك الأربع؛ وهو شرق بغرب نحو عشرة أيام وعرضها وهو جنوب شمال نحو ثلاثة أيام تزيد وتنقص ، وجميع أهلها حنابلة.

قال : وهي شديدة الأمطار والأنهار كثيرة الفواكه خلا النخل والموز وقصب السكر / ١٢١ / والممشمش ويجلب إليها المحمضات من مازندران.

(١) الجيل : طائفة تسكن گيلان أو جيلان ، والجيلان نزل قوم من أبناء فارس من أهل اصطخر من طرف من البحرين «مراصد الاطلاع ١ / ٣٦٨».

(٢) مازندران : اسم ولاية طبرستان «مراصد الاطلاع ٣ / ١٢١٩».

(٣) موقعان : ولاية فيها قرى ومرجع يحتملها التركمان للرعوي وهي من آذربيجان «مراصد الاطلاع ٣ / ١٣٣٥».

(٤) بلاد التارم : كورة واسعة في الجبال بين قزوين وجيلان «مراصد الاطلاع ١ / ٢٤٩».

(٥) كسكر : كورة واسعة وقصبتها واسط القصب التي بين الكوفة والبصرة «مراصد الاطلاع ٣ / ١١٦٦» ، الآن تابعة لإقليم فارس.

ومدن مازندران غير مسورة، ولملكوهم قصور علية، وجميع مباني كيلان بالطوب المشوي مفرشة بالطوب مثل بغداد مسقفة بالخشب، وببعضها معقودة أقباء عليها قس مظفور.

وفي غالب ديارها آبار قريبة المستقى نحو ذراعين أو ثلاثة أو أقل، والأنهار تحكم على كل مدينة.

وغالب أقوات كيلان الأرز يعمل منه خبز مليح ورقاق مع تيسير القمح والشعير. والغنم والبقر كثيرة عندهم وأسعارها متoscطة إلى الرخص.

وبها المساجد الجليلة ومدارس تسمى عندهم الخوانق وزوايا وحمامات لطاف يجري إليها الماء من الأنهر.

وبها الحرير الكثير، ولها حصون في نواحي مازندران وجزائر في القلزم بها رمان وبلوط وفواكه، ولا يجري بها ماء، وبها تحصنهم عند مغالبة العدو لهم ولملكوهم زي جمل على قدر دخل بلادهم فأنه ليس بالكثير ضيق بلادهم؛ ولأنها لا مسكن بها ولا مؤذي فيها لهم أمراء الطليخانات^(١).

ويركب الملك بالرقة السلطانية والحجاب والسلاح دارية^(٢) والجمدارية^(٣) والجنايب المجرورة، ويركب الأمير ووراهه صاحب أربعة وخمسة وأكثر ولباسهم فيه إسلامية ضيقة الأكمام وتخافيف صغار، ويشدون المناطق والبنود^(٤)، وخيلهم براذين جياد مشكورة وسروج منها المحلى بالفضة، وزيهم كلهم قريب من الزي العسكري الخوارزمي.

ويتخد بظواهر قصورهم ملوكيهم ميادين خضراء يعمل في أوساطها قصوراً صغراً من الخشب فيها جلوسهم للخدم والمظالم وجميع جنود هؤلاء الملوك الأربع نحو عشرين ألف فارس ما بين ميدونة^(٥) ومطوعة^(٦) ومن يضمهم الجموع والحسود من الفارس والراجل.

(١) الطليخانات جمع مفرد طبل خانه، بيت الطبل، والمقصود بها هنا الأمراء الذين يدقون لهم الطبل.

(٢) السلاح دارية: جمع مفرد سلاح دار وتعني حملة السلاح.

(٣) الجمدارية: جمع مفرد جمدار وهو من اللفظ الفارسي جامة دار أي حملة الملابس «فرهنگ رازی ۱۹۱».

(٤) البنود: جمع مفرد بند وتعني العلم الكبير.

(٥) ميدانه أي المسجلين في الديوان، والديوان وهو الدفتر يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء «المعجم الوسيط ٣١٦/١».

(٦) مطوعة: هم المتطرعة الذين يتطوعون للجهاد ونحوه، يقال: لهم مطوعة بتخفيف الطاء «المعجم الوسيط ٥٩١/٢» ويأتي اللفظ باسم غازيان وإحداث «انظر: تركستان ١٣٤٧».

وهو لاء الملوك الأربعة لا يزال بينهم الخلف حتى إذا قصدتهم عدو خارجي عنهم تألفت قلوبهم واجتمعت كلمتهم وصاروا حزباً واحداً على عدوهم.

ولقد قصدوا أيام هولاكو فما قدر عليهم، ثم قطلو شاه في سبعين ألف فارس وانتصر على صاحب /١٢٢/ تومن وكسكر، وامتنع صاحب توليم وضرب معه مصافاً بالفارس والراجل وحمل بنفسه على قطلو شاه على أنه معقر إليه؛ فلما قاربه أحمس قطلو شاه بالغدر منه فولى منهزاً فطعنه فألقاه عن فرسه قتيلاً فنزل إليه وقطع أذنيه بالحلقتين اللتين فيهما.

ثم ركب وساق إلى التتار وقطع عليهم المياه، وسدّ عليهم الطرق بالأخشاب العظيمة فأفناهم إلا الشديد فراحوا أهلهم بين قتيل وغرق متوجل في الطين وضال بالجبل؛ وهم بحصانة بلا دهم بالبحر من جانب، وتوعير المسالك إليهم، لا يدینون لمملوك إيران، ولا يطعم أحد في ملكهم وطبرستان وما زندران والجبل كما قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قُطِعَ مُتَجَوِّرٌ﴾^(١) ﴿وَمَنِ الْجِبَلُ جَدُّ بَيْضٍ وَحُمُرٍ تُخْتَلِفُ الْوَتْهَا وَعَرَبِيْثُ شَوْدَه﴾^(٢).

قلت: وبما ذكره من شدة أهل بأسها ذكرت قول صاحب شاه غاه في تاريخ الفرس - وقد ذكر ما زندران وعصيان أهلها، قال: وهو مردة الجن.

قال الشريف: وببلاد الجيل مقسمة بين ثمانى ملوك؛ ملك اللاهجان^(٣)، وملك سخام، وملك برشب، وملك كسفت، وملك بومن، وملك توليم، وملك كسكر، وملك برشب والمملوك الأربعة الآخرون دون هولاء، ومع هذا فلا ينقاد منهم ملك لملك، ولا يذعن واحد لآخر.

قال: وجملة بلاد الجيل بلاد خصبة ورخاء ولحم وحبّ وفاكهه أقطارها سخية، وأسعارها رخيصة، ولا يخطب بها للمتاز، وإنما تضرب السكة باسم مملوك التتار؛ لأنّه لو ضرب واحد من ملوك الجيل السكة باسمه لم تخرج دراهمه في بلد جاره الآخر لشدة ما بينهم من الإحن والجفوة.

قال: ولا يدخل بلاد الجيل مملوك ولا جارية، بل كلّا هما أحجار ولا يتعدى واحد منهم شأن أبيه، وما كان عليه حتى إنَّ الفلاح منهم ليقتنى العدد الكبير /١٢٣/.

(١) سورة الرعد: الآية ٤. (٢) سورة فاطر: الآية ٢٧.

(٣) اللاهجان: وهي بلد منحاز عن بقية بلدان جيلان، يقطع بينهما نهر، وأهلها من الشيعة الزيدية في القرن الثامن الهجري «مراصد الاطلاع ١١٩٥/٣».

من الخيل ليبيعها ويربح بأثمانها، ومع هذا لا يتجاسر على ركوبها ولو ركبها قتل.
وبالجملة ريض وخوانق، وغالب ما يجري بها أحكام مذهب الإمام أحمد بن
حنبل^(١) - رضي الله عنه - .

ونحن لا نذكر من ملوكها إلا أربعة المشاهير المترجم لهم في هذا الكتاب على ما ذكرناه.

الفصل الأول: في يوم

صاحب بومن شافعي المذهب دون من معه من بلاد الجيل. مذهب نشا عليه ملوكها وعسكرهم يزيد على الألف فارس؛ وهو صاحب اللاحجان بلادهم قليلة وإنما غالب دخلها من التجار؛ والحرير بها كثير؛ ولهذا بينهما وبين التمار مكارمة ومهاداة لدخول التجار بلادهما لجلب الحرير منها واحتياجهما إلى ما عندهما من الحرير على من يدخل إليهما، وبقية بلاد الجيل محتاجة أيضاً إلى بومن واللاحجان لأجل هذا و حاجتهم إلى بومن أكثر لما يوجد بها من القماش والمعمولات؛ وبها فيما يحاذيها من الجيل معدن حلييد.

(١) الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله، الشيباني الوائي: إمام المذهب الحنبلي، وأحد الأئمة الاربعة. أصله من مرو، وكان أبوه والي سرخس. ولد ببغداد سنة ١٦٤ هـ / ٧٨٠ م. فنشأ منكباً على طلب العلم، وسافر في سبيله أسفاراً كبيرة إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والشغور والمغرب والجزائر والعراقين وفارس وخراسان والجبال والأطراف. وصنف «المسندي» - طـ ستة مجلدات، يحتوي على ثلاثين ألف حديث. وله كتب في «التاريخ» و«الناسخ والنمسوخ» و«الرذد» على الرنادقة فيما ادعت به من متشابه القرآن - طـ و«التفسيير» و«فضائل الصحابة» و«المناسك» و«الزهد» - خـ في خزانة الرابط (٢٩٢ كـ) و«الأشربة» - خـ و«المسائل» - خـ و«العلل والرجال» - خـ في أي صوفية (الرقم ٣٣٨) وكان أسمر اللون، حسن الوجه، طويل القامة، يليس الأبيض ويختضب رأسه ولحيته بالحناء. وفي أيامه دعا المؤمنون إلى القول بخلق القرآن ومات قبل أن يناظر ابن حنبل، وتولى المعتصم فسجن ابن حنبل ثمانية وعشرين شهراً لامتناعه عن القول بخلق القرآن، وأطلق سنته ٢٢٠ هـ. ولم يصبه شرّ في زمن الواثق بالله - بعد المعتصم - ولما توفي الواثق وولي أخوه المتوكل ابن المعتصم أكرم الإمام ابن حنبل وقدمه، ومكث مدة لا يولي أحداً إلا بمشورته. وتوفي الإمام وهو على تقدمه عند المتوكل سنة ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م. ومما صُنف في سيرته «مناقب الإمام أحمد» - طـ لابن الجوزي. و«ابن حنبل - طـ» لمحمد أبي زهرة.

ترجمته في: تاريخ دمشق ٢٨٢ وحلية الأولياء ٩٦١ والجمع ٥ وصفة الصفوة ٢٩٠ وإشراق التاريخ - خ وابن خلkan ١٧١ وتاريخ بغداد ٤١٢ والبداية والنهاية ١٠١٣٢٦-٣٢٥ والفهرس التمهيدي. وجولديزير Goldziher في دائرة المعارف الإسلامية ١٤٩١-٤٩٦ ومخطوطة الطاهرية ٢٣٢ وتنكرة التوادر، الأعلام ١٢٠٣.

قال: وصاحب بومن يدعى النسب إلى بيت الشرف، وله اهتمام بأهل العلم والفضل، ولباس الملك والجند والملك بها نوع من لباس التتار، ولباس علمائهم قريب من زي التجار، ولهم عذبات^(١) كالصوفية إلى قدامهم وعامة أهلها كعامة من جاورهم.

* * *

الفصل الثاني: في صاحب توليم

صاحبها أمره قريب من صاحب بومن، ولكن لا حرير في بلاده؛ وهو حنبلي المذهب، وعدة عسکره نحو ألف فارس؛ وهم أفرس أخوانهم.
ولصاحبتها - في وقتنا هذا - على ملوك الجيل سيماء استظهار؛ لأن عسکر توليم كان لهم في واقعة قطلوشاه اليد الطولى والبطش الغالب فثبت لهم في قلوب جيرانهم ما هو ظاهر عليهم إلى الآن، وزيّها كزيّ أخواتها.

* * *

الفصل الثالث: في كسر

صاحبها له جولة في ملوك توليم، وجيشه أكثر عدداً من بقية ملوك الجيل وبلاطه أوسع وأرضه أخصب وأكثر حباً وفاكهه /١٢٤/، وأغناها وأبقاراً مما حولها، ولها رفق زائد ممن يجاورها من الأكراد، وما تجلبه إليها من الأجلاب، وأسعارها أرخي وأرخص مما سواها وزيّها كزيّ أخواتها.

* * *

الفصل الرابع: في رسفت

وهم أميل إلى الجبل، وأبعد عن البحر؛ وإنما رسفت أدنى إلى الجيل منها.
وهي مناسبة لأخواتها في غالب أحوالها؛ وهي كثيرة السمك والطير.
ومنها الشيخ العارف السيد عبد القادر الكيلاني^(٢) - قدس الله روحه، ونور

(١) عذبات: جمع مفردتها عذبة، وهي طرف الشيء «المعجم الوسيط ٢/٦١١».

(٢) عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست، أبو محمد، محبي الدين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي: مؤسس الطريقة القادرية. من كبار الزهاد والمتصوفين. ولد في جيلان (وراء طبرستان) سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م وانتقل إلى بغداد شاباً، سنة ٤٨٨هـ، فاتصل بشيوخ العلم والتصوف، وبرع في

ضريحه - وهو القليل مثلاً، العديم مثلاً، الواحد علمًا وعملًا، وستأتي إن شاء الله ترجمته في مكانها.

أساليب الوعظ، وتفقهه، وسمع الحديث، وقرأ الأدب، واشتهر. وكان يأكل من عمل يده. وتتصدر للتلاميس والإففاء في بغداد سنة ٥٢٨هـ وتوفي بها سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م له كتب، منها «الغنية لطالب طريق الحق - ط» و«الفتح الرياني - ط» و«للمستشرق مرجليوث الإنجليزي رسالة في ترجمته نشرها ملحقة بالمجلة الآسياوية الإنكليزية. ولموسى بن محمد اليوتيني كتاب «مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني - خ» ولعلي بن يوسف الشطاطوفي «بهجة الأسرار - ط» في مناقبه، ولمحمد بن يحيى التاذفي «قلائد الجواد في مناقب الشيخ عبد القادر - ط» وترجم عبد القادر بن محبي الدين الإربيلي عن الفارسية «تفريح الخاطر في مناقب الشيخ عبد القادر - ط».

ترجمته في: النجوم الزاهرة ١٠٨/١ وطبقات الشعراني ٣٧١/٥ وفوات الوفيات ٢/٢ ونور الأنصار ٢٢٤ وشذرات الذهب ١٩٨/٤ وهو فيه: «عبد القادر بن عبد الله» ومثله في الإعلام لابن قاضي شهبة - خ. وتاريخ السليمانية ٢١١ وهو فيه: «عبد القادر الجيلاني - الكيلاني - نجل أبي صالح زنكي دوست، وفي بعض الروايات جنكي دوست» والتكامل لابن الأثير ١٢١/١١ وهو فيه «الشيخ عبد القادر بن أبي صالح أبو محمد الجيلاني. كان من الصالح على حال، وهو حنفي المذهب، وفي معجم الشيخ ١/٥٢ «جنكي دوست، أبي: العظيم القدر» وفي دليل خارطة بغداد (١٧٧٨) أن مشهده أبي: موضع دفنه. يعد من المواقع المهمة التي كانت داخل سور بغداد الشرقية. وذلك من الناحية الخططية لمدينة بغداد القديمة. لأنه من الأماكن القديمة القليلة التي لا تزال قائمة في مواضعها الأصلية إلى الآن، وقد أنشئ عند المرقد مسجد جامع واسع. وعلى مصلاه قبة فخمة مبنية الهندسة الهندية بالحجر الكاشاني الملون بالأصباغ المختلفة مع النقش الجميل. تحيط بها المآذن. وحول المصلى رواق واسع عقد على أساسين من الرخام الأبيض. وانظر: بهجة الأسرار ٨٨، الأعلام ٤/٤٧.

الباب الرابع: في

مملكة الجبال

وهي أربعة فصول:

الفصل الأول: في الأكراد وفيه فصل جامع لأحوال سكان الجبال.

الفصل الثاني: في الترّ.

الفصل الثالث: في الشول.

الفصل الرابع: في شنكارة.

وبладهم جميعها بلاد خصب زائد ومزارع وموارد وزروع وفواكه
وثمر متشابه وغير متشابه؛ وكلهم أهل غناء ودفاع وحصانة وامتناع.

الفصل الأول

في الأكراد

الذي نقول - وبالله التوفيق - إنَّ الأكراد وإنْ دخل في نوعهم كل جنس أتى ذكره في هذه الفصوص فإنَّهم جنس خاص من نوع عام وهم ما قارب العراق وديار العرب دون من توغل في بلاد العجم، ومنهم طوائف بالشام واليمن. ومنهم فرق مفترقة في الأقطار وما حول العراق وديار العرب جمهرتهم.

وغلب في زماننا بما يقارب ما يقارب ماردين منهم إبراهيم بن علي المسمى بالعزيز مالو^(١)، واستفحَل أمره وقويت شوكته، واجتمعت عليه جموع وبرقت لها أسنة ودروع وثواب باسمه الداعي، وتقييدت دون غابته المساعي.

ثم مات وقام ابنه بعده، ولكنَّه ما حكى الوالد الولد، ولا سد الشبل موضع الأسد.

وأما الفصل الجامع لأحوال سكان الجبال هؤلاء وغيرهم، فإنَّا نقول - وبالله التوفيق - إنَّ المراد بالجبال على المصطلح؛ /١٢٥/ هي الجبال الحاجزة بين ديار العرب وديار العجم وابتداؤها جبال همدان وشهرزور^(٢) وانتهاؤها صياصي الكفرة، بل بلاد التكفور^(٣)؛ وهي مملكة سيس وما هو مضاد إليها بأيدي بيت لارن ولم أذكر من عشائرهم إلا من كنت بهم خبيراً، ولم اسم فيها منهم إلا بيت ملك أو إمارة تبدأ بجبال همدان وشهرزور وأربيل^(٤) وتنتهي إلى دجلة الجزيرة من كوار الموصل وترك

(١) هو إبراهيم شاه ابن الأمير سيني، تغلب على الموصل وديار بكر «رحلة ابن بطوطة ١٥٤».

(٢) شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين إربيل وهمدان «مراصد الإطلاع ٨٢٢/٢».

(٣) بلاد التكفور: نسبة إلى تكفور ابن السلطان جرجيس وهي القسطنطينية العظمى «رحلة ابن بطوطة ٢٣٣».

(٤) إربيل: مدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع «مراصد الإطلاع ٥١/١» في شمال العراق وهي اليوم جزء من إقليم كردستان - العراق.

ما وراء النهر دجلة إلى نهر الفرات لقلة الاحتفال به على أنَّ الذي ذكرته هو خلاصة المقصود إذ لم يبق إلا أكراد الجزيرة وقرى ماردين^(١)، وهم لكل من جاورهم من الأعداء الماردين مع أنَّ أماكنهم ليست منيعة، ومساكنهم للعصيان غير مستطيعة فهم طائفة بجبل همدان وشهرزور يقال لهم الكورانية منهم؛ حمد، ورعية؛ وكلهم ألواناً شوكة وجمية مقيمون بموضع يقال له رياوامست الأمير محمد، ومكان ثانٍ يقال له درشك أميرهم الأمير محمد وعدة القوم تزيد على خمسة آلاف لا بينهم ولا خلاف، ومن بعدهم الكلالية لهم قوم لهم مقدار وكمية تعرف بجماعة سيف الدين صبور ومقامهم دانرك ونهارند إلى قرب شهرزور وعدتهم ألف رجل مقاتلة قوية، وأميرهم يحكم على من جاورهم من العصابة الكردية حكم الملك على جنده، ويقدر على جمع عدد أصناف عشيرته؛ لأنهم واقفون بصدق كلمته، وحسن سيرته.

ومن الكلالية سوى هؤلاء طائفتان؛ أحدهما مقيمة بنواحي دقوق وعدهم ألف أو دونها، والأخرى باشنة من نواحي أذربيجان عدّة رجالها مئتان، وكانوا أكثر من ذلك عدداً، وأوفر مداداً لما كان الملك شرف الدين بن سلار - صاحب إربيل - من جهة التتر، قتله رجل من الكفار فعصى قومه على الكفار، وهاجر بعضهم إلى مصر والشام وبقي ولده الأمير محمد حاكماً على من باشنة / ١٢٦ / من قبيلته، وولده الأمير عثمان - أمير المن - أقام بوطنه من عشيرته؛ فلما توفي ولده توفاهم سواهم.

ويلي الكلالية بجبل همدان قوم يقال لهم رنكالية أصحاب شجاعة وحيلة وعدتهم ألفان يقال لهم جماعة جمال الدين بالان بحكم يحكم على بلاد كنكور وما جاورها من البقاع والكور.

وأما بلاد شهرزور فكان يسكنها طوائف من الأكراد قبل خراب البلاد أكثرهم رجالاً وأوفرهم أموالاً طائفتان؛ أحدهما يقال إنها اللوسة، والأخرى تعرف بالبابيرية رجال حرب وأقفال طعن وضرب نزحوا عنها بعد واقعة بغداد في عدد كثير من أهل السوداد النساء والأولاد وأخلو ديارهم ووفدوا إلى مصر والشام، وتفرقوا منهم الأحزاب، وأصابتهم الأوصاب، وعظم فيهم المصائب، ولكل أجل كتاب، وقد بقي في أماكنهم، وسكن في مساكنهم قوم يقال لهم الخركيسة ليسوا من صميم الأكراد وببلاده شهرزور قوم آخر بينها وبين اثنين يبلغ عددهم ألفي نفر، فقال لهم السيولية

(١) ماردين: مدينة عظيمة على سفح جبل، من أحسن مدن الإسلام، لها قلعة تسمى الشهباء «رحلة ابن بطوطة ١٥٩».

ذوو شجاعة وحمية لهم، وهم قسمان: قسم مورك آين عز الدين محمود، والآخر قسم يعرف بالأمير داود ويعرف بداود بدران.

ثم يليهم الغرياوية وهم يسكنون بعض بلاد بستان وبيدهم من بلاد إربيل أماكن آخر يزيد عددهم على أربعة آلاف نفر. كان أميرهم أبو بكر يلقب بسيف الدين وتولاهم بعدهم ولده شهاب الدين.

ثم يليهم قبيلة يقال لهم الحسانية ذوو أنفس قوية ينقسمون على ثلاثة بطون وهم نحو ألف، أكبر بطونهم طائفة عيسى بن شهاب الدين كراي؛ ولهم الجغر لقلعة بري والحاامي الثاني، وثاني بطونهم نفزان؛ نفر يقال لهم البلية، والآخر يعرف بالجاكية. وكان الأمير عبد الله بن شهاب الدين زنكي أمير النفررين، وثالث بطونهم كان / ١٢٧ لفخر الدين أمير قيم، والآن أخوه اختيار الدين عمر بن أبي بكر.

وتختص الحسانية ببلاد الكركار وشاركتهم العرياوية في آخر الخفاررة المأمورة بدريند قرايلي مشاركة الآخرين.

ثم يليهم بلاد الكرجيين ودقائق السافية عدتهم تزيد على سبعمائة. وكان أميرهم شجاع الدين با Becker ذاًباً عن دينه محارباً عن حزبه.

ومن ذلك موضع يقال له بين الجبلين من أعمال إربيل قوم يخدمون للدولتين ويدارون الفترين فهم في الشتاء يعاملون التر بالمجاملة، وفي الصيف يعيتون سرايا الشام في المحاملة وعدهم كعدد الكلالية. وكان أميرهم تاج الدين الخضر بن سليمان كاتباً ذا بنان ولسان، وفدا إلى باب الملك المنصور السيفي قلاوون^(١) بمصر.

(١) قلاوون الألفي العلائي الصالحي النجمي، أبو المعالي، سيف الدين، السلطان الملك المنصور: أول ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام، والسابع من ملوك الترك وأولادهم بمصر. كان من المماليك، قبجافي الأصل، ولد سنة ٦٢٢٣هـ، اعتقته الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧هـ، فأخلص الخدمة للظاهر بيبرس. وقام بأمر الدولة في أيام العادل سلامش ابن الظاهر، فكان يخطب له العادل على منابر مصر. وضربت السكة باسمهما. ثم خلع العادل، وتولى السلطة مفترداً (سنة ٦٧٨هـ) وجلس على سرير الملك في قلعة الجبل. وأغار التتار على بلاده، فقاتلهم وظفر بهم. وهاجم ملك النوبة مدينة أسوان ونهبها، فأرسل إليه قلاوون من هزمه وغنم منه مغانم كثيرة. واستمر إلى أن توفي بالقاهرة سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م. وكان من أجل ملوك «المماليك» قدرأً ومن أكثرهم آثاراً، شجاعاً، كثير الفتوحات، أبطل بعض المظالم. ومن آثاره «البيمارستان» بين القصرين. قال ابن إياس: كان قليل الكلام بالعربي. مدة ملكه إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر.

ترجمته في: مورد اللطافة، لابن تغري بردي ٤٤-٤٢ وابن إياس ١١٤ وخطط المقرizi ٢٣٨/٢ ووليم موير ٥٥ والسلوك ٦٦٣ والتلجمون الظاهرة ٧/٢٩٢ ووفيات الوفيات ٢/١٣٣ وفيه: اشتري بألف دينار ولهذا كان يقال له: الألفي. والنوح السيد ٤٧٥ وما بعدها، الأعلام ٢٠٣/٥.

ثم احترمه المنية وعاد أولاده الأربع إلى أوطانهم في الأيام العادلية الزينية مع عز الدين سنقر من الشهيرورية، والمبرازين شجاع الدين من الأذخية وبهاء الدين بن جمال الدين خوش من الحميدية. إذ لم يجدوا لهم في الدولة الزينية حرمة مرعية ولا أخباراً مرضية.

ثم يلي هؤلاء من إربل المازنچانية وهم طائفة ينسبون إلى الحميدية لم يبق لهم أمير غير أمرائهم وعدتهم تنضاف إليهم في شدّتهم ورخائهم ولا تنقص عدّة الحميدية عن ألف مقاتل.

وهؤلاء المازنچانية يتعاونون الصلافة، ويتشبهون بالناس في الآلات واللباس؛ لأن أميرهم كان من أمراء الخلافة من الدولة العباسية، لقب من ديوان الخلافة بمبراز الدين واسمها كك. وكان يدعى الصلاح وتتندر له النذور فإذا... إليه قبلها ثم أضاف إليها مثلها من عنده وصدق بهما معاً.

قال الحكيم الفاضل شمس الدين أبو عبد الله محمد بن ساعد الأنصاري - وقد ذكره - : كان ذا شجاعة وصبر وتحيل ومكر وعقل وفکر وتدبر وسياسة وثبتت ورياسة ، / ١٢٨ / لا يهمل عدداً لصغره وحقارته، ولا يهاب من أراد به سوءاً لعظمه وجسارتة.

نقل عن ابن الصلايا - رحمه الله - أنه قال - حين أعطاه خبز أبيه سيف الدين محمد وحباه: لقد توسمت في هذا الشاب سعادة لم أتوسمها في أحد سواه فكان كما توسمه الصاحب - رحمه الله - فرأه كذلك إذا قام في التتر في ذلك المقام وتمكن ابن يافث من ابن سام وتشتت أهل الإسلام، وانحل ما عهد من النظام، ولم يبق من الرجال القادرين على القتال إلا سكان الجبال، فما أعجز الكفار استئصالهم وتحققوا أن سهامهم لا تناولهم عاملوهم بالمكر والخدع، وهادنوهם على تخليه الخارج سداً للذرية، وقدموا منهم اثنين، وحكموهما عليهم من الوجهين؛ مما كان من وجه بلاد العجم كان مبارز الدين كك متحدثاً فيه، وما كان من مدن العجم كان الأسد بن سكاكين الحائز لنواحيه وجعلوهما ملكين، وأعطوهما بايزتين.

ثم استنابوا المبارز كنك في إربل وأعمالها وصرفوه في سيفها ومالها، وأقطعوه عقر سوسن بكمالها، وأضافوا إليه هراوتل ، وقدموه على خمسمائة فارس أو يزيدون. وسعد بسعادته قومه، وأناف على أمسه يومه، وكثير في عشيرته الأمراء لاشتباكهم معه في النسب، وغلب أقرانه بعناد الدولة والدنيا لمن غالب. وكان ترى همتَه

همة الشبان وهو ابن تسعين ، وتولى هذه المملكة وهو ابن عشرين ، ما قصده عدو إلا مكنه الله منه ، ولا رسم ملك من ملوك التتر بقتله إلا هلك قبل نفاذ أمره وامتثاله ، ولم يبلغ ما بلغ من ملكه وكثرة رجاله ، ولا تمنعه جباله ، ولكن سعادته وإقباله.

ثم مات وخلفه ولده عز الدين . وكان يكنى به فيما ألف منه وعرف به . ثم أخوه نجم الدين خضر . وكان من الرفاهية على سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبسوطة^(١) ، ونعم مما ترك أبوه موروثة ، إلى ١٢٩ / حاشية وغاشية ، وعقار وماشية ، وسعادات قديمة وناشية .

ومكانته في الدولتين الإسلامية والتتارية لا تطاول ، ورتبه عالية في الجهتين لا تحاول ، وابساط في اللذات ، وشرف بالعرض والذات ، ويد لا تقصر في أدب ، ولا تبالي بلاغتها بما تنفق من كنوز الفضة والذهب . وكانت ترد على الأبواب السلطانية بمصر ونواب الشام منه كتب تنهل بماء الفصاحة كالسحب ، وتسرح من أحياها الأبكار العرب .

ثم مات - رحمة الله - وخلفه ولده وجري على سنته ، ونمته في أهل بيته منتته .

ويلي يسار وأعمالها ، وتل حفتون ، وبلادها بلاد السهرية المشهورين باللصوصية ؛ وهي من بلاد شقلاباذ^(٢) إلى خفتيان^(٣) أبي علي ، ويعرف بخفتيان الصغير ، وما بين ذلك من الدست والدربند^(٤) الكبير ؛ وهم قوم لا يبلغ عددهم ألفاً ، وجبالهم عاصية ، ودربندهم بين جبلين شاهقين يشقهما الزاب^(٥) الكبير ، وينقلب على صخورهما بصوت مفزع ، وهدير قوي عليه ثلاث قناطر ؛ اثنتان منها بالحجر والجير ، والوسطى مظفورة من الخشب كالحصير ، علوها عن جهة الماء مائة ذراع في

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿فِيهَا سُرُورٌ مَرْفُوعٌ ۖ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعٌ ۖ وَكَارِفٌ مَصْفُوفٌ ۖ وَرَزَابٌ مَبْسُوتٌ ۚ﴾ ^{﴿١٦﴾}
﴿١٣﴾ سورة الغاشية: الآيات ١٣ - ١٦ .

(٢) شقلاباذ: قرية كبيرة في سفح الجبل المطل على إربل ، بينها وبين إربل ثمانية فراسخ «مراصد الإطلاع ٨٠٦ / ٢» .

(٣) خفتيان: قلتان عظيمتان من أعمال إربل إحداهما على طريق مراغة والأخرى في طريق شهرزور «مراصد الإطلاع ٤٧٥ / ١» .

(٤) دربند بشروان وهو باب الأبواب «مراصد الإطلاع ٥٢١ / ٢» .

(٥) هو الزاب الأعلى بين الموصل وإربل «مراصد الإطلاع ٦٥٢ / ٢» .

الهواء، وطولها بين الجبلين خمسون ذراعاً في عرض فراعين.
وقد ينقل تارة من أرضه فينقص من طوله أو يزداد في عرضه، تمرّ عليه الدواب بأحمالها، والخيل برجالها.

وهي ترتفع وتنخفض وتنبسط وتنقبض، يخاطر المجتاز عليها بنفسه، ويقامر بعقله، وهم يأخذون الخفارة عندها، يجيلون ما شاءوا بعدها؛ فإنَّ الدربند مضيق على نهر عميق.

وهم أهل غدر وخديعة، وقبائح شنيعة، لا يستطيع المسافر مدافعتهم فيه بل ترضيه سلامته نفسه.

قال الحكيم شمس الدين محمد بن ساعد: إنْ ثُبَّ أحد من الأكراد إلى الجن فهم هؤلاء حقاً، وإن صعب مسلك دربتد فهذا أصعب المسالك وأشقى. كان أميرهم الحسام بن عمقيان أبقى ما ترك ولا أبقى.

ومجاورهم قوم يقال لهم الزرزارية؛ وهي كلمة أعمجمية معناها ولد الذئب؛
ويقال / ١٣٠ / إنهم من تكرّد من العجم المنسوبين إلى ملوكهم، ذكره بعض أهل التاريخ.

ولهم عدد جمّ منهم زراع وأمراء وأغنياء وفقراء، يبلغ عدّة رجالهم خمسة آلاف، قليل بينهم الخلاف، ومنهم زهاد يشار إليهم، وفقهاء يعتمد في الفتوى عليهم. مساكنهم من مرت^(١) إلى جبل خنجرين المشرف على أسنة من ذات اليمين؛ وهو جبل عاليٌ مشرف بمكانه على جميع الجبال. كأنَّ هواء الزمهرير. وكأنَّ للسحب مغناطيس يجذبها بالخاصة قد نصب عليه للتذرير ثلاثة أحجار طول كل حجرة عشرة أشبار وعرضه ربع هذا المقدار، تُخانته نحو ثلثي ذراع، منحوت من جميع الأضلاع، مركب من حجر مربع، تُخانته تزيد على ذراع في التقدير. على كل من الثلاثة كتابة قديمة لم يق منها سوى المعالم؛ وهي من الحجر المانع الأخضر الذي لا يغيره البرد ولا الحر ولا يتأثر إلا في ألف السنين تأثير لا يكاد يبيّن، فالوسط منها على بسطة رأس جبل، والآخران في ثلث عقبته لمن صعد أو نزل يقال: إنها نصب لمعنى الإنذار، وإنَّ المكتوب عليها أخبار من أهلكه الثلج والبرد في الصيف، وهم يأخذون

(١) مرت: قرية بينها وبين أرمية منزل واحد في طريق تبريز «مراصد الإطلاع ٣/١٢٥٤».

الخفارة تحته ويدركون أو يوارون من هلك ببرده.

وبيد الزرزارية أيضاً بلاد ملازكrd والرستاق بقلاعها ومزارعها وضياعها ولا يحملون لأحد شيئاً من ارتفاعها. وكان لهم أمير جامع لكلتهم مانع لشوكتهم يسمى نجم الدين بن باساك.

ثم توفي وتولاهم من بعده ولده المسمني جيدة؛ ولما أدركه الأجل وتوفي تولاهم ولده عبد الله. وكان لهم أيضاً أمير شجاع عفيف له رأي وتدبير يقال له: الحسام شير الصغير، حوله من عشيرته عصبة تسير بسيرته، وكذلك كان لهم أمير آخر جيد السير يسمى باساك بن الحسام شير الكبير.

وآخر منهم له بابك قوي يدعى بهاء الدين بن جمال الدين أبي علي، وأمراء غير هؤلاء من ينطوي في طائفتهم ويدخل في جماعتهم إذ لا يبلغ قدر استطاعتهم يستغنى عن ذكر اسمه عن تقدم.

وينضم إلى الزرزارية شرذمة قليلة العدد، هي لهم كالمدد، تسمى /١٣١/ باسم قرينه بالكان منفردة بمكان مشرف على عقبة الخان يأخذون عليها الخفارة باليد القوية ويحولون بين الحسانية قتل أميرهم توبك مع نجم الدين وعاد قومه لهم بالرعاية تبلغ عدتهم ثلاثة وثمانين رجل.

ومنهم الجولمركية وهم قوم نسبوا إلى الوطن لا إلى النفر بل هم طائفة منبني أمية يقال إنها حكمية^(١) انتصروا بالجبال عند غلبة الرجال عليهم واستغنا بمنعتها عند استعمال البنادق ومخالطة الناس طلباً للسلامة من أعدائهم وفاراراً من اعتدائهم فانخرطوا في سلك الأكراد فسلموا.

وهم الآن في عدد كثير يزيدون على ثلاثة آلاف كان ملکهم عماد الدين بن الأسد بن مشكلان.

ثم خلفه ولده الملك أسد الدين وتحت يده من المعادن ما ينقل من الزرنيخين إلى سائر الأماكن. وكان ظهر له معدن اللازورد فأخفاه لثلا تسمع به ملوك التتر فيطلبونه، ومعقله الذي يعمد عليه من أنفع المعامل على جبل عال مقطوع بذاته قرن الجبال قائم في وسطها مع الانفصال شامخ في الهواء، راسخ فيما حوله من الماء،

(١) حكمية نسبة إلى مروان بن الحكم.

والزاب الكبير مصدق به، فاصل بينه وبينهما بإذن ربّه لا محظّ للجيش عليه، ولا وصول للسهام إليه سطحه للزراعة متسع، وفي كل ضلع من جوانبه كهف مرتفع يأوي إليه من شاء للامتناع فيمتنع والماء محيط بأسسه، والثلج لا يزال يشتعل سببه برأسه والصعود إليه في بعض الطريق يستدعي العبور على أوتاد مضروبة مصلحة لمن يطيق ومن لا يستطيع التسلق جرّاً بالحبال يعلق بها، وكذلك ترفع البغال للطواحين والذخائر التي يحتاج إليها في كل حين.

والملك عليهم معتبر على الأكراد، ولهم على كلمته إعقاد، يدعى بهاء الدين ابن قطب الدين، وولده في الملك يجري مجراه، ويختلف في سيرته أباءه. وكان له ابن عم آخر يدعى بشمس الدين داود عصى على دولة الأعداء مدةً، وعجزوا عنه وقد اجتهدوا في غيلته بكل حيلة فلم يقدروا عليه فالبغوا في الإحسان إليه، وأمروه بالانتقال عن الجبل ليأمنوا اعتماده فاختص التوصل في التوسل حتى سكن ببعض المدن؛ /١٣٢/ فلما قرأ في دار كانت بُنيت للسلطان وغرس في ما حولها بستانًا جامعاً لأشجار ذات أفنان مختلفة الشمار، محفوفة بالارتفاع ارتفاع مغلّه من دنانيرهم عشرون ألف دينار.

والدار أعظم ما يكون من دور السلطنة لما فيها من البسط والآلات المثبتة فخلوها في سكناها، وسمحوا له بالفاكهه وثمنها، إلى أن اخترمه ريب المنون، فترك ولده الحركة وعاد إلى حربهم يؤدى إليه خراج بلاده، ويقطع منها ما شاء من أقاربه وأجناده، ويأخذ الخفارة من جميع الطرقات من أذربيجان، من تبريز إلى خوئي ونقشوان^(١).

وكلّ وظائف مستخدميه بضمّان من الكتاب والمشدين والتواب والمتصرفين والوكلاء ولا يقدم طعامهم ضيفانه إلى ثلث الليل إلى نصف نصف النهار، أي غداء كان ولا يطعم ضيفانه إلى ثلث الليل عشاء، ولا يجعل في خبزه ملحًا ليأكل منه من كان حرياً وصلاحاً.

ويجاور الجولمركيه من الأكراد قوم يسكنون الجبال من بلاد تدعى مرکوان كثيرة الثلوج والأمطار، مخصبة ربيعها زاهر بأنواع النبات والأزهار ووصفها منوط بالحنان الأطياف وشتاؤها وافر الأسمان والألبان غزير اللحوم المتنوعة وهي مترخمة لا رمية

(١) نخجوان: وهي منطقة واقعة بين إيران وأرمينيا وتابعة لأذربيجان.

من بلاد أذربيجان. وكان لهم بها أميران بدر الدين والأمير حسن أخوان شقيقان، وبالرعاية رفيقان، تبلغ عدّتهم ثلاثة آلاف وهم لمن جاورهم من الزرزارية والجولمركية أخلاق ويعاملونهم بالرأفة والإحسان.

ويجاور الجولمركية من قبل بلاد الروم جبال وبلاط يقال لها كوار ذات سعة وإمكان ومرعى للحيوان و خصب مستمر فيسائر الأحيان، وإليها ينسب من بها من الشمال فيحسب أنه من قبيله. وكان الأمير شمس الدين هو المداري عنهم وعدة قومه ثلاثة آلاف.

ويلي الجولمركية وجه عقر شوشن، وببلاد العمادية، وببلاد الزيبار، وببلاد الهاكلر.

أما الزيبارية فيبلغون خمسمائة عدداً أصحاب بازارية^(١) لهم سوق وبلد. وكان حروب بينهم وبين المارنجارية / ١٣٣ / مددأ.

ثم قر قرارهم وأنجدوا وأركان ملكهم أحدهما الأمير إبراهيم ابن الأمير محمد الزامي. وكان موقراً في زمن الخلافة، معروفاً بالحشمة، وبقي ولده بعده صغيراً فاحتاج إلى الاعتقاد بالمبازل لكيون له ظهيراً.

والثاني الشهاب بن بدر الدين برش توفي أبوه وخليفه كبيراً؛ ولو لا المارنجانية لم يدع لهم سواه أميراً فاستولى على الرعية استيلاء كثيراً.

وأما الهاكارية فإنّهم مقيمون ببلاد العمادية تزيد عدّتهم على أربعة آلاف حربية. وكانت إمارتهم إلى أميرين أخوين؛ أحدهما الأمير أبو بكر، والآخر الأمير علي؛ يعرف والدهما بالطراوسي.

فاما أبو بكر فإنه كان ممتنعاً برجاته وكثرة احتياله وقوته جباله ونوابه وجيشه وأحزابه، وبقي مدةً لا يعبأ بهم ولا به مع أنه سير له العساكر واستعلن عليه بكلّ ما كرّ إلى أن حكم بالموصل نصرياني يقال له مسعود البرقوطي عزل عنها الأمير رضي الدين بابا القزويني البكري - رحمه الله - فاحتلال النصرياني على الأمير أبي بكر بكل حيلة وأعانه عليه في المكيدة بعض القبيلة فحسنوا له الوثائق إليه، والنزول في الطاعة على يديه، وسير له الرهائن أربعة من الصبيان إلى السلطان أحدهم مبارك شاه،

(١) أي رجال السوق والتجار نسبة إلى البazar وهو السوق.

والثاني سيف الدين ابن المبارز كنك الذي استتباه في العقر أبوه. والآخران أحمد وجركتم والدهما بلغ بكر الدين كان بإربيل نائباً في ذلك الزمان فاغتر ونزل إلى البابا وبقي عند السلطان معظم المقدار إلى عدت فيه ذوو الاعتراض، وقالوا: إن أحضر ولده وأهله بما عليه اعتراض.

ولما طلبوا منه سير إليهم بالنزول فلم يأخذوا أمره بالقبول، وعاد مؤكداً لطلبهم برسول، وتأخر حضورهم فاشتبيهت على السلطان أمرهم فأمر بالاحتياط عليه وعلى من معه من أصحابه. وكان إذ ذاك متوجهاً إلى حمص في أحزابه.

فلما وصلوا إلى مراغة أذربيجان توجه حسان أجابه الداعي السلطان، وكان موثوقاً عنده في المكان /١٣٤/ فانتهز الفرصة في الخروج من الوثاق، وخلص من معه من الرفاق. وركب ما وجد من الخيل عرياناً وساق، بناءً على أنَّ الجبل قريب، وطبعاً في أن يدركه الليل فيستتر فلما أحسَّ القوم بفاراه، وخافوا صولة سلطانهم ونادوا أولاً على آثاره، فتبينه عليه قوم من الأحتاجية وهم رعاة الخيل، وهو تحت فرسه بكزلك؛ وهي مدية فرمأه أحدهم بسهم أصحابه به، وتواتب عليه أصحابه فلم ينج منهم أحد إلاَّ رجل كان لما انهزموا قد دخل البلد.

وأما أكثر الراهائن فإنَّ البارز شير سير من سرق ولده وهرب كل منهم فلحق ولده، ويقي الأمير على أخيه مستقلاً بالهكارية وحده إلى أن أتاه اليقين فخلف فيهم ولده غرس الدين صاحب قلعة هروز.

ونشأ الأمير محمد ابن الأمير أبي بكر شجاعاً فقصد قلعة الجبال فأخذها وأحرق بابان الدور وأراد أن يقيم بها إن ساعده القدر المقدور.

والهكارية يأخذون الخفارة في أماكن كثيرة من بخارى إلى جبل الجزيرة، ويليهم من قبل المرج جبال القمرانية وكهف داود وهذه الأماكن أوطن النسبية وقليل ما هم لكنها حماة رماة وطعامهم مبذول على خصاصه، وعدتهم لا تزيد على خمسمائة، وأميرهم مقيم بالقمرانية يقال له...^(١)

ويقابل الجولمركية من قبل الموصل التحتية، وهم قوم كانوا يضاهون الحميدية لكنهم شعبهم أكثر، وقبيلتهم أكثر؛ فكان لهم كبراء وأعيان فهلك أمراؤهم، وتشتت كبراؤهم، وتفرق جمعهم المعهود، ولم يبق منهم إلاَّ شرذمة قليلة تفرق بين القبائل والشعوب.

(١) بياض بالأصل.

وكان من بقایا أمرائهم فخر الدين - خدم صاحب ماردین - فأبعده لأقوال
قيلت.

وشعبهم كثيرة، وقبائلهم متفرقة؛ منهم السنديه وهم أكثر شعبيهم عدداً، وأوفهم
مداداً، يبلغون ثلاثة ألف مقاتل مختال مخالن. والمحمدية وكان أميرهم شروين لا
تزيد على ستمائة رجل؛ والراسنية كانوا أولي عدٍ وعدٍ وجمع ومدد إلى أن نزح
أميرهم البدر بن كيابك /١٣٥/ من ذلك البلد بالأهل والولد إلى متعة، وقد تشتت
شملهم، وتفرق جمعهم. عذتهم لا تزيد في بلد الموصل لا تزيد على ألف رجل،
وأميرهم علاء الدين كوك بن إبراهيم، ولا يتقص في بلد الفقر خمسماة وأميرهم
عمر بن أبي علي، وموسى بن بهاء الدين.

والدبالية هم يسكنون الجبال المقلوب والمختار مطلوبون بالخفاره؛ أميرهم
كلي ولا تزيد عذتهم على ألف متفرقين في البلاد، متمزقين بكل واد.

* * *

الفصل الثاني: في اللر

وهؤلاء طائفة كثيرة العدد، ومنهم فرق مفرقة في البلاد، وفيهم ملك وإمارة،
وإقدام وشطارة، ولهم خفة في الحركات، وصدق في القول.

يقف الرجل منهم إلى جانب البناء المرتفق، ويلتصق بطنه بأحد الزوايا القائمة
به، ثم يصعد فيه إلى أن يرتقي صهوته العليا. ومنهم من يخالس الرجل ماله ويأخذه
منه وهو لا يدرى؛ وربما أمسك الرجل منهم وضرب بالسياط وعقوب أشد العقاب
فلا يقرّ أنه أخذ ولا يعرف فإذا حلف بستر الله وأقسم عليه به أقرّ واعترف.

وفي بلاد مصر والشام منهم طوائف، وفي البلاد الشامية معظمهم، ولهم في هذا
وقائع مشهورة، وأحوال مشهودة.

ومما يُحكى: أنَّ السلطان صلاح الدين أبا المظفر يوسف بن أيوب^(١)

(١) يوسف بن أيوب بن شاذى، أبو المظفر، صلاح الدين الأيوبي، الملقب بالملك الناصر: من أشهر ملوك الإسلام. كان أبوه وأهله من قرية دوين (في شرق أذربيجان) وهم من بطن الرواديه، من قبيلة الهاذية، من الأكراد. نزلوا بتكريت، وولد بها صلاح الدين سنة ٥٣٢هـ /١١٣٧م، وتوفي بها جده شاذى. ثم ولد أيوب (أيوب) عملاً في بغداد والموصل ودمشق. ونشأ في دمشق، وتفقه وتأدب وروى الحديث بها وبمصر والإسكندرية، وحدث في القدس. ودخل مع أخيه (نجم الدين) وعمه (شيركوه) في

خدمة نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي (صاحب دمشق وحلب والموصل) واشتراك صلاح الدين مع عمه شيركوه في حملة وجهها نور الدين للاستيلاء على مصر (سنة ٥٥٩هـ). فكانت وقائع ظهرت فيها مزايا صلاح الدين العسكرية. وتم لشيركوه الظفر أخيراً، باسم السلطان نور الدين، فاستولى على زمام الأمور بمصر، واستوزرته خليفتها العاضد الفاطمي. ولكن شيركوه ما لبث أن مات. فاختار العاضد للوزارة وقيادة الجيش صلاح الدين، ولقبه بالملك الناصر. وهاجم الفرنج دمياط، فصدهم صلاح الدين. ثم استقل بملك مصر، مع اعترافه بسيادة نور الدين. ومرض العاضد مرض موته، فقطع صلاح الدين خطبته، وخطب للعباسيين، وانتهى بذلك أمر الفاطميين، ومات نور الدين (سنة ٥٦٩هـ). فاضطررت البلاد الشامية والجزيرة، وُدُّعي صلاح الدين لضبطها، فأقبل على دمشق (سنة ٥٧٠هـ) فاستقبلته بحفاوة. وانصرف إلى ما وراءها، فاستولى على بعلبك وحمص وحماة وحلب. ثم ترك حلب للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، وانصرف إلى عيلين جدين: أحدهما الإصلاح الداخلي في مصر والشام، بحيث كان يتردد بين القطرين، والثاني دفع غارات الصليبيين ومهاجمة حصونهم وقلاعهم في بلاد الشام. فبدأ بعمارة قلعة مصر، وأنشأ مدارس وأثاراً فيها. ثم انقطع عن مصر بعد رحيله عنها سنة ٥٧٨ إذ تبعته أماته حوادث الغارات وصد الاعتداءات الفرنجية في الديار الشامية، فشغلته بقية حياته. ودانت لصلاح الدين البلاد من آخر حدود النوبة جنوباً وبرقة غرباً إلى بلاد الأرمن شمالاً، وببلاد الجزيرة والموصل شرقاً. وكان أعظم انتصار له على الفرنج في فلسطين والساحل الشامي «يوم حطين» الذي تلاه استرداد طبرية وعكا ويافا إلى ما بعد بيروت، ثم افتتاح القدس (سنة ٥٨٣هـ) ووقائع على أبواب صور، فدفع مجيد عن عكا انتهى بخروجه من يده (سنة ٥٨٧هـ) بعد أن اجتمع لحربه ملكاً فرنساً وانكلتراً بجيشهما وأسطوليهما. وأخيراً عقد الصلح بينه وبين كبير الفرنج ريكارد قلب الأسد Richard Coeur de Lion (ملك إنكلترا) على أن يحتفظ الفرنج بالساحل من عكا ويافا، وأن يسمح لحجاجهم بزيارة بيت المقدس، وأن تخرب عسقلان ويكون الساحل من أولها إلى الجنوب لصلاح الدين. وعاد «ركارد» إلى بلاده. وانصرف صلاح الدين من القدس، بعد أن بني فيها مدارس ومستشفيات ومكث في دمشق مدة قصيرة انتهت بوفاته سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م. وكان رقيق النفس والقلب، على شدة بطولته، رجل سياسة وحرب، بعيد النظر، متواضعاً مع جنده وأمراء جيشه، لا يستطيع المتقرب منه إلا أن يحس بحب له ممزوج بھيبة، اطلع على جانب حسن من الحديث والفقه والأدب ولا سيما أنساب العرب وووقيعهم، وحفظ ديوان الحماسة. ولم يدخل لنفسه مالاً ولا عقاراً. وكانت مدة حكمه بمصر ٢٤ سنة، وبسوريا ١٩ سنة، وخلف من الأولاد ١٧ ذكراً وأنثى واحدة. وللمصنفين كتب كبيرة في سيرته، منها: «الروضتين - ط» لأبي شامة، في تاريخ دولته ودولة نور الدين، و«النواذر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ط» لابن شداد، ويسمى «سيرة صلاح الدين» و«البرق الشامي - خ» سبعة أجزاء، في أخباره وفتوحاته وحوادث الشام في أيامه، لعماد الدين الكاتب، و«التفتح القسي في الفتح القدسي - ط» لعماد الدين أيضاً، و«صلاح الدين الأيوبي وعصره - ط» لمحمد فريد أبي حديد، و«حياة صلاح الدين الأيوبي - ط» لأحمد بيلي المصري.

ترجمته في: وفيات الأعيان ٢/٣٧٦، وتأريخ الخميس ٢/٣٨٧ وابن إياس ١/٦٩ وابن خلدون ٤/٥٧٩ وابن الأثير ١٢/٣٧ والسلوك للمقرizi ١/٤١ - ١١٤ والإسلام والحضارة العربية ١/٢٩٠، ٢/٢٨٩ وطبقات السبكي ٤/٣٢٥ والدارس ٢/١٧٨ ومرآة الزمان ٨/٣٢٥ =

- رحمة الله - حضر إليه رجل منهم، وأظهر له أشياء من أفعاله اللطيفة، وحركاته الخفيفة حتى إنه وقف إلى جانب بناءً مرتفع وارتفع والتصق به وارتفع حتى استوى على أعلى؛ وصلاح الدين - رحمة الله - يظهر العجب من شطارته، وخففة حركته وقدرته على ما لا يقدر عليه مثله؛ فلما نزل خلع عليه وأكرمه وحمله على فرس وأقطعه إقطاعاً جليلاً، وقال له: اشتئي أن يكون عندنا جماعة منكم فإننا ما نستغني عنكم لتوصل بكم.

/ ١٣٦ / إلى حصن الأعداء، فبقي ذلك الّرّي^(١) يجلب له واحداً بعد واحد من يقدر على هذا منهم؛ فكلما جاء واحد منهم أكرمه صلاح الدين وخلع عليه وأقطعه الإقطاع حتى لم يبق أحد منهم، وبقي مدةً لم يُحضر أحداً إلى صلاح الدين، فقال له: لأي شيء ما عدت جبت لها أحداً، فقال: والله يا مولاي ما بقي أحد يقدر على هذا مثلنا؛ فلما تحقق صلاح الدين في ذلك أسرّها في نفسه ثم جمعهم وأوقف خلف كل رجل منهم رجلاً وأواماً إليه فضربوا رقاب أولئك النفر؛ لأن صلاح الدين لما رأى ذلك فزع منهم على نفسه وخلف إن هو قتله وحده يبقى وراءه من يفعل مثل فعله فاحتال عليهم بذلك لثلا ينزل عليه أحدهم فيقتله به.

وأما ما يروى من مشي هذه الطائفة على الجبال المنصوبة على قامات من الأرض وانقلابهم عليها في الهواء حتى يصير رأس الرجل منهم منكساً إلى الأرض ورجله متصلة بالجبل، ثم يستوي على قامته ثم يمشي على الجبل بالقبقاب ويلعب فوقها بالمخاريق ما تحار له الألباب، ويحال فيه إلى نوادر العجب العجاب. أن نساءهم يفعلن وتركتها أشد ركض ثم تطبع عنها في قوة جريها إلى الأرض ثم تتب عليها فيستوي على ظهرها ثم تصير حزاماً لبطنها ثم تترك صهوة الفرس وتعتنق العنق تارة من أعلىها، وتارة من تلقاء صدرها إلى غير ذلك من عجائب الأفعال، وغرائب الخفة في المجال.

ودأب من هو منهم في الشام أحد ما قدوا عليه، ووصلت أيديهم إليه. وقد عرف صبرهم على الضرب فما بقي يضرب أحد منهم إذا اتهم بل يحلف بستر الله ويقسم عليه به فيقرّ ويعرف ويرد ما أخذ ويقول: نحن نأخذ قبيح، ونرد ملبح. وقد

= ومفرق الكروب ١٦٨ وما بعدها. وترويج القلوب ٨٧، ٨٨ وحلى القاهرة ١٠٧ - ١٩٤ والإعلام، ابن قاضي شهبة - خ. والتجموم الراهن ٦٣ - ٣/٦ وشذرات الذهب ٤/٢٩٨ والفاطميون في مصر ٣٠٨ والشر فنامه ٩١ - ٨٠ Huart i89، وختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، لسيد أمير علي ٣٠٣ - ٣٢٠ ودوائر المعارف البريطانية والفرنسية والإسلامية، الأعلام ٨/٢٢٠.

(١) نسبة إلى الّرّ واللار وللور، وهي من بلاد إقليم فارس، تقع قرب شيراز.

أوردنا هاتين اللقطتين بعيارتهم على ما هي عليه.
وهم ببلادهم أهل منعة؛ وهي المران كبير وصغير، ومأمور وأمير،
وسارقهم لا يقطع /١٣٧/ على السرقة هكذا جرت عادتهم في بلادنا.

الفصل الثالث: في الشول

وهؤلاء حكمهم حكم شنكارة، وما يبعد بعضهم من بعض في موازنة العقول؛
إلا أنه لا يخلو بينهم من دماء تطلّ، ومواثيق فيما بينهم تحلّ؛ وفيهم كرم وسماح
تقصدتهم القراء^(١) وتنزل في قراهم، وتقيم في ضيافتهم وقرائهم. ولهم فيهم حسن
الظن إذا نزلتهم الفقير أنزلوه في بيوتهم يمسي ويصبح عندهم وبين نسائهم؛ فإن
أطلعوا على أحد منهم أنه خان أو تطرق إلى حريم آخر جوه من بيوتهم وتبعوه فإذا
نجا وإنما أدرك قتل. ولا يقتلون أحداً منهم في بيوتهم ستراً على حريمهم، وتحوها من
تغيرة القراء عنهم لحسن ظفهم فيهم.

* * *

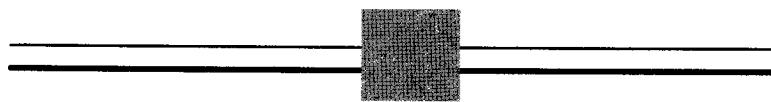
الفصل الرابع: في شنكارة

وهم أحسن من اللر طريقاً، وأقل فريقاً، وفيهم رعاية الذمام، وتمسك من
الشريعة المطهرة بزمام، ولهم يأس وشجاعة، وعندهم لأمرائهم سمع وطاعة على
أنهم أشد من الأسود إذا غضبوا، وأخف من البروق إذا وثبوا، يكون الرجل منهم في
أسفل الجبل العالي، ثم يأخذ في الصعود ويرشق محاذيه السهم فيكاد يسبق السهم
وقد بلغ غايته وما انحدر أو يوافي هو وإياه على قدر.

* * *

(١) القراء: المتصرفون.

الباب الخامس: في
ملائكة الأرض بالروم



== الباب الخامس ==

في مملكة الأتراك بالروم

أما المسماة الآن بـمملكة الروم فقد كانت مملكة لا تُرام، ولا يحلق إليها مرام وهي مما هو من الخليج القسطنطيني^(١)، ممتداً على جنوب بحر نيطش^(٢) ومانطيش محجوزة بجبال يزل الطرف عن صهواتها، ويخل الطرف بعوائدها في اقتحام حجراتها، وكانت آخر وقت زمان بقايا بني سلجوقي معدن الخيرة والخير، ومسلك مسكن الملك صاحب القبة والطير، وكان لسلطانها من إرث آبائه حرمة محفوظة، ونعمة على معاطف الملوك ملحوظة.

وقد تقدم /١٣٨/ في هذا الكتاب ما ينبع على ما لهذه البلاد من المجد من الطارف والتلاد.

كانت على عهد الروم الباقي عليها نعمتهم إلى الآن محبتكم الأغنة، ومشتبك الأسنة دار القياصرة، ومكسر الأكاسرة، وكان لملكها الرتبة العليا، وكانت بقسمة التعديل ثلث الدنيا؛ لأنه لم يكن يسمى من ملوك الأرض إلا ملوك الفرس والروم والترك.

وهكذا قسم أفريدون^(٣) جد هؤلاء الملوك الثلاثة الأرض بينهم بالأثلاث، فالروم لهم الثالث وهم أهل التثلث^(٤) وهذا الذي نحن في ذكره الآن مما وقع في

(١) الخليج القسطنطيني هو بحر مرمرة أو بحر إيجة الواصل بين بحر بنطس والبحر الروسي.

(٢) بحر بنطس هو البحر الأسود، وهو في وسط المعمورة بأرض الصقالبة والروس، يخرج منه الخليج يمر بسور قسطنطينية، ولا يزال يتضاعق حتى يقع في بحر الشام «مراصد الأطلاع ١٦٥/١».

(٣) فريدون: من الأبطال الأسطوريين عند الفرس، وهو من نسل جمشيد، أبوه آبتن وأمه فرانك، قتل الضحاك، وله ثلاثة أولاد هم: ابيج وسلم وتور، قسم عليهم العالم المعروف آنذاك فكان هناك التوارينيون والإيرانيون، أما سلم فكان في الشام وما يليها «حماسه سراي ٤٦٩-٤٦١».

(٤) لقولهم الأب والابن والروح القدس.

قسمهم وطبع إلى وقتنا بطبائع اسمهم هو الواقع على شرقي الخليج القسطنطيني متصلًا بأرمينية وديار العرب والعواصم والشام.

وهو أثر الممالك بلا احتشام، خلا أنه بكثرة التلوج كالوح الوجه في شبابه، أشيب اللمة في قباه، لا يستسقى له محب لاتراك ولا يسام، ولا بارق فيه لعارضة برق ولا يسام، إلا أن صخوره تتفجر ماء، وتتبخر أنواء، تعقد دون السماء سماء، فتخصب زرعها، ويخصم المحل ضرعها، ويخصف ورق الجنة على العدائق ثمرها، وينعها وتطرب ورقها لمنظرها البديع ومخبرها، من صناعة صناع الربيع، فلا تسمع إلا كل مطرية تناجي النجفي، وتشجي الشجفي، وتخلب قلب الخلي، وتهب الغواني ما في أطواقها من الحلي، يعجب ثوبها السنديسي، ونباتها المتعلق بذيل البهار سجافها القنديسي، فلا تجول في أرضها إلا على أرائك، ولا تنظر إلا نساء كالحور العين ولدانًا كالملائك.

وآخر ما كانت في الأيام السلجوقية على ما قدمنا ذكره دار بهجة وسناء، ومجلس أنس لكتؤوس وغناء، انتهيا العيش بها نهباً، وقطعوا الأيام بالعسرات فيها وثباً، ثم جرى عليها ملك أولاد جنكيزخان، لما فاضوا على الأرض من كل مكان، إلا أنهم أبقوا على بقايا السلجوقية الملك بالروم وحكموا معهم من يمنع أسودهم الرابضة أن تشب، ويستدر لهم غير ما خلوا من الثدي وتحتلب، ثم أزالتهم الأيام، وأذاحتهم لتمتد ستور الظلام.

وكان من دخول الملك الظاهر أبي الفتح بيبرس البندقداري /١٣٩٠/ الصالحي^(١)

(١) بيبرس العلائي البندقداري الصالحي، ركن الدين، الملك الظاهر: صاحب الفتوحات والأخبار والأثار. مولده بأرض القباق سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م. وأسر فيبع في سيواس، ثم نقل إلى حلب، ومنها إلى القاهرة. فاشترأه الأمير علاء الدين أيكين البندقدار، وبقي عنده، فلما قبض عليه الملك الصالح (نجم الدين أيوب) أخذ بيبرس، فجعله في خاصة خدمه، ثم اعتقه. ولم تزل همته تصعد به حتى كان «أتايك» العساكر بمصر، في أيام الملك «المظفر» قُطز، وقاتل معه التتار في فلسطين. ثم اتفق مع أمراء الجيش على قتل قطز، فقتلوه، وتولى «بيبرس» سلطنة مصر والشام (سنة ٦٥٨هـ) وتلقب بالملك «القاهر، أبي الفتوحات» ثم ترك هذا اللقب وتلقب بالملك «الظاهر». وكان شجاعاً جباراً يباشر الحروب بنفسه. وله الوقائع الهائلة مع التتار والإفرنج (الصليبيين) وله الفتوحات العظيمة، منها بلاد «النوبة» و«دنقلة» ولم تفتح قبله مع كثرة غزو الخلفاء والسلطانين لها. وفي أيامه انتقلت الخلافة إلى الديار المصرية سنة ٦٥٩هـ.

وأثاره وعمائمه وأخباره كثيرة جداً. توفي في دمشق سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م ومرقده فيها معروف أقيمت =

إلى قيسارية ما هو مشهور وكسر عليها طائفة من رؤوس التتار، ثم عاد ولم يقرّ له بها قرار، بعد أن جلس على تخت آل سلجوقي ولبس التاج وضرب باسمه الدينار والدرهم، واستبشرت به أهل تلك الدار لكته خاف عاقبة لموافقة طالع الوقت لتجم سعدتهم، ورجم ضدّهم ولم يكن قد آن لجمرتهم أن يخمد لهبها، ولا الجداول سيوفهم أن تجمد عليها قربها، فاستمرت أيدي المغل عليها واضمحل ملك آل سلجوقي حتى سقط من يديها فغلبت طوائف الأتراك هنالك على كثير من تلك الممالك إلا بقية حفظت المغل مطالع أفقها، وأمسكت آخر رمقها، ودارت طوائف الأتراك ملوك المغل على ما غلت عليه وبقي منهم من يدخل في طاعتهم على أنه يسلم إليهم ولا يخرج شيء من يديه واستمرت أحوالهم معهم من الطاعة والعصيان والتذكرة والنسيان حتى تماست المدد، وخر رواق الدولة الجنكزخانية أو وهي منه بعض العمد، فحيثئذ ثبتت أقدامهم، ونبتت في مغارس الاستمرار أيامهم.

ومنذ غلبوها على الروم كاتبوا ملوك مصر^(١) واتخذوهم ظهراً، وعدوهم لحوادث الأيام ذخراً، حتى إن منهم من رغب في تقليد يكتب له بالنيابة فيما هو فيه فكتب له وجهز إليه بالصنايق^(٢) والألوية والأعلام والتشاريف التمام والسيف المحلي والحصان المركوب والجناحب وهم إلى يومنا هذا أهل ود وصفاء وحسن عهد ووفاء ولكلثرة ما خلطهم به الامتزاج وصل منهم من اتخذ مصر والشام داراً وأخذ بهما الأميرة والإقطاع، وجرى فيما تحت حكم الأمر المطاع، ورسلهم حتى الآن لا تقطع عن مصر والشام والمكاتب واردات وصادرات، والهدايا مقيمة وسائلات، ومع هذا كل واحد منهم بما آتاه الله من فضله.

ونحن الآن نذكرهم على التفصيل، ونكتفي بالقليل،وها نحن نشرح حال كل

= حول المكتبة الظاهرية. ولمحمد جمال الدين كتاب «الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره - ط». ترجمته في: فوات الوفيات ٨٥/١ والنجم الزاهر ٩٤/٧ وابن إياس ٩٨/١ وابن ١١٢ وفيه اسم أبيه «بركة خان» وابن الوردي ٢٢٤/٢ ووليم موير ٤١ والتعيمي ٣٤٩/١ والسلوك للمقرizi ٤٣٦/١. ٦٤١ وسوبرنهيم M.Sobernheim في دائرة المعارف الإسلامية ٣٦٣/٤ وهو يذكر مولده سنة ٧٦٢٠هـ، الأعلام ٧٩/٢.

(١) يقصد مكاتبات بركة خان إلى الظاهر بيبرس والتي بدأت سنة ١٢٦٢م.

(٢) الصنايق جمع مفرده صنْجَق أو سنجق وهو اللواء وحاكم اللواء.

طائفة متغلبة على هذه البلاد، والمملكة التي استولت عليها، وما استقر في يديها، على ما نتبه عليه في موضوعه.

وقد ذكر أبو الفضل /١٤٠/ عبد الله بن عبد الظاهر^(١) دخول الملك الظاهر - رحمة الله - هذه البلاد وخروجه منها في رسالته قال فيها:

وسرنا لا يستقر بنا قرار، ولا يقتدح من غير سبابك الخيل نار، ولا نقيم إلا بقدر ما يتزيد الزائر، من الألهة أو يتزوّد الطائر، من النغبة تحمل همّنا الخيل العاق، ويكتبوا البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق. وكان السلطان من حلب قد أمر جميع عساكره باذراع لامات حربهم، وحمل آلات طعنهم وضربهم.

ورحلوا من حلب جرائد على الأمر المعهود، قد خففوا كل شيء حتى عن السيف الغمود، فسرنا في جبال يشتته فيها سلوك الأرض، وأودية تهلك الأشواط فيها إذا ملئت الفروج من الركض^(٣)، واستقبلنا الدرب كما قال المتنبي^(٤): [من الطويل]

رمي الـدرب بالـخـيل العـتـاق إـلـى العـدا
وـما عـلـمـوا أـنَّ السـهـام حـمـiolـu
فـلـمـا تـجـلـى مـنْ دـلـوـكـ وـصـنـجـةـ
عـلـتـ كـلـ ظـوـدـ رـتـةـ وـعـوـيـلـ
عـلـى طـرـقـ فـيـها عـلـى طـرـقـ رـفـعـةـ
وـفـي ذـكـرـها عـنـدـ الـأـنـيـسـ خـمـولـu

(١) عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجنامي الروحي السعدي القاضي، محبي الدين، مؤرخ مصرى عاش ما بين ٦٩٢-١٢٩٢هـ (١٢٢٣-١٢٩٢م) نشا بالقاهرة وخدم السلاطين الثلاثة الأوائل في دولة المماليك البحرية في مصر وهم الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، وخليل بن قلاوون، صارت له رئاسة ديوان الإشاء.

له ثلاثة مؤلفات عن السلاطين الثلاثة وهي: الروض الزاهر في سيرة الملك الناصر، وتشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، والروضة البهية الزاهرة في خطط المعازية القاهرة «موسوعة العلوم الإسلامية والعلوم والعلماء والملوك» - حققها وراجعها بول غلينونجي وأخرون - بيروت /١٣٠/ وكتاب الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦ - وكتاب تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور تحقيق د. مراد كامل، القاهرة ١٩٦١.

(٢) كتب هذه الرسالة إلى الصاحب بهاء الدين بن حنا، وزير الملك الظاهر. بعض فقراتها في كتاب الظاهر في سيرة الملك الظاهر للقاضي محبي الدين بن عبد الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط الرياض ١٩٧٦هـ /١٣٩٦م، ص ٤٥٤-٤٧١.

وهي في صبح الأعشى ١٣٩/١٤.

(٣) في الأصل: «الأرض» وما صوبناه من الروض الزاهر.

(٤) ديوان المتنبي بشرح البرقوقي ٣/٢٢١-٢٢٨.

ومررنا على دلوك وهي رسوم باكية على سكانها، ضاحكة عن تبسم أزهارها، وقهقة غدرانها، ذات بروج مشيدة، وأركان موطدة، ونيران تزاويق موقدة، في عمد من كنائسها ممددة، وسرنا إلى مرج الديباج نتعادى، وذلك في ليلة مدلهمة ذات أندية، وإن لم تكن من جمادى، لا يثبت تربها تحت قدم المارّ، وكأنما سالكها يمشي على شفا جرف هار^(١).

وبتنا نستخف بالنسبة إليها ليلة الملسوع، وتتنمى العين فيها هجمة هجوع، وأخذنا في اختراق غابات أشجار تخفي الرفيق عن رفيقه، وتشغله عن اقتداء طريقه، حولها معاشر أحجار كأنها قبور بعثرت، أو جبال تفطرت، بينها مخائض، لا بل مغائض، كأنها بحار فجرت^(٢)، ما خرجنا منها إلا إلى جبال قد تمنطق بالجدائل، وتععممت بالثلوج، وعميت مسالكها فلا أحد إلا وهو قائل: «فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ»^(٣) أو إلى سبيل من خروج، تضيق مناهجها بمشي الواحد، وتلتفت شجراتها التلفاف / ١٤١ / الأكمام على الساعد، ذات أوغار زلقة، وصدرور شرقه وأودية بالمزدحمين مختنقة، حتى وصلنا إلى الحدث الحمراء، المسممة الآن بكينوك، ومعناها المحترقة كان قسطنطين والد صاحب سيس^(٤) قد أخذها من أصحاب الروم وأحرقها وتملكتها، وعم بها الضرر لبلاد الإسلام، ثم سير السلطان إليها عساكرًا من حلب، فافتتحها بالسيف، وقتل كل من كان بها من الرجال وسيبي الحرير والذرية وخربت من ذلك الحين، وما بقي بها من يكاد يبيان وشاهدنا منها ما بناء سيف الدولة بن حمدان^(٥): [من الطويل]

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: «أَفَمَنْ أَسَسَ بُيْكَةً عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ أَنَّهُ وَرِضُوا حَيْثُ أَمْ مَنْ أَسَسَ بُيْكَةً عَلَى سَقَّا حُرُوفٍ هَكَارٍ فَلَمَّا هَرَبَ فِي كَارِجَهُمْ وَاللهُ لَا يَهِيءُ لِأَقْوَمَ أَفْلَلِيُّونَ» **﴿١﴾** «سورة التوبة: الآية ١٠٩».

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة: «إِذَا أَبْعَادُتُ حُرُوفَهُنَّا» **﴿٢﴾** «سورة الانفطار: الآية ٣».

(٣) سورة غافر: الآية ١١.

(٤) سيس: هي سيواس، من بلاد ملك العراق، سنة العمارة، واسعة الشوارع على حدود الروم «رحلة ابن بطوطة ١٩٧».

(٥) علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي الريعي، أبو الحسن، سيف الدولة الحمداني: الأمير، صاحب المتنبي ومدوحه. يقال: لم يجتمع بباب أحد من الملوک بعد الخلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيخوخ العلم ونجمون الدهر! ولد في ميافارقين (بديار بكر) سنة ٩١٥هـ / ٣٠٣ م ونشأ شجاعاً مهذباً عالى الهمة. وملك واسطاً وماجاورها. ومال إلى الشام فامتلك دمشق. وعاد إلى حلب فملكها سنة ٩٣٣هـ، وتوفي فيها سنة ٩٦٧هـ. ودفن في ميافارقين. أخباره ووقائعه مع الروم كثيرة. وكان كثير العطايا، مقرباً لأهل الأدب، يقول الشعر الجيد الرقيق، وقد يُنسب إليه ما ليس له.

بنها فأعلى والقنا يقرع القنا
وموج المانيا حولهم متلاطم
وقيل لسلطانتا هناك على قدر أهل العزم تأتي العزائم
غصب الدهر والملوك عليها فبنها في وجنة الدهر خالا
فبتنا بها وجيادنا إذا زلت مشت كالأراقم على البطون، وإن تكاسلت جر بعضها
بعضاً بالصهيل والحديث شجون، وخضنا في أثناء ذلك مخائض سوافع، كأنها لأجل
عوم الخيل بها سمي كل منها لأجل ذلك سابع، كلما قلنا هنا بحر قد قطعناه،
اعرض لنا جيل، وكلما قلنا هنا جبل قد طلعناه بأن لنا وادٍ نستهون دون الهوى فيه
نفاد الأجل، ثم وصلنا كوكصو وهو النهر الأزرق، الذي رد الملك الكامل منه سنة
الدربنات، لما قصد التوجه إلى الروم، وللوقت عبرنا ركضاً، واعجلت الخيل فما
درت هل خاضت لجة أم قطعت أرضاً، وبيات الناس من ير هذا النهر الآخر
وأصبحوا متسللين في تلك الشم، ووقع السنابك يسمع من تلك الجبال الصم، حتى
وصلوا إلى أقجا دريند، فما ثبتت يد فرس لمصافحة صفاها، ولا نعله لمكافحة
رحها، ولا رجله لمطارحة قواها.

وتمرنت الخيل على الاقتحام والازدحام في التطرق، وتعودت ما تعودت
الأووال في الأوعار من التسرب والتسلق، تنحظ انحطاط الهيدب، وترتفع ارتفاع
الكوكب، حتى حصل الخروج من منتهى الدربن، وبيات السلطان في وطأة هناك،
وسمحت السحب بما شاءت من برد وبرد، ١٤٢ / وجاءت الرياح بما آلم الجلد
واستند الجلد

وانشرت العساكر حتى ملأت المفاوز، وملكت الطرق على الماز وأخذتها
على الجائز وقدم سقر الأشقر في الجاليش، فوقع على ثلاثة آلاف فارس من التتار
مقدمهم كراي، فانهزموا من بين يديه، وأخذ منهم من قدم للسيف السلطاني فأكل
نهمه وأسار، واستمررت تلك سنة فيمن يؤخذ من التتار ويؤسر، وبيات التتار على

= وهو أول من ملك حلب منبني حمدان، وله أخبار كثيرة مع الشعراء، خصوصاً المتنبي والسرى
الرافى والنابى والبيغاء والرأواء وتلك الطبقة.

ومماكتب في سيرته «سيف الدولة وعصر الحمدانين - ط» لسامي الكيالي.

ترجمته في: يتيمة الدهر ٢٢٨ / وفيات الأعيان ٣٦٤ / زيدة الحلب ١١١-١٢٢، الاعلام ٤ / ٣٠٣-٣٠٤

أجمل ترتيب ونظر، وبات المسلمون على أتم تيقظ وحذر، فلما كان يوم الجمعة عاشر ذي القعدة تتابع الخبر بعد الخبر، بان القوم قد قربوا، وأنهم ثابوا ووثبوا، ووصى السلطان جنوده في التثبت على ما يجب، وأراهم من نور رأيه ما لا يحتجب.

وطلعت العساكر من جبال مشعرة على صخرات منا من بلد ابلستين، وكان العدو ليته تلك بائتاً على نهر زمان، وهو أصل نهر جهان، وأصل اسمه جيحان، فترتب المغل أحد عشر طلباً^(١) كل طلب يزيد على ألف فارس، وعزلوا عسكر الروم خيفةً منهم، وجعلوا عسكر الكرج^(٢) طلباً واحداً بمفرده، ولما شاهدوا صنائق السلطان ومن حولها وعليهم الخوذ الصفر المقترحة، وكأنها في شعاع الشمس نيران مقتدحة، رجعوا إلى ما كانوا عقدوا من العزائم فحلوا وسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا، وانصبّت الخيال إليهم من أعلى الجبل انصباب السيل، وبطلت الحيلة منهم وبقي الحيل، فشمروا عن السواعد، ووقفوا وقف الرجل الواحد، وكان هؤلاء المغل قد اختارهم ابغاء من كل ألف مائة ومن كل مائة عشرة ومن كل عشرة واحدة لأجل هذا اليوم، وكان فيهم من المقدمين الكبار تداون وتقو وإليه أمر بلاد الروم وارختوا آخر تداون ونمادر يخشى ومن أمراء الألوف زيرك وصهر ابنا وقرلق، وانخلدت من المغل فرقة إلى الأرض فقاتلت، وعاجت على نفوسهم وعاجلت، وجاء الموت العدو من كل مكان، وأصبح ما هان منهم وقد هان، وكم فيه من شهم ما سلم قوسه حتى لم يبق في كنانته سهم، وذي /١٤٣/ سن طارح فيما طارحه حتى تتلم وذي سيف حادثه بالصقال مما جلا محادثه حتى كلام، واشتدت فرقه من العدو من جهة الميسرة، مرجين على الصنائق السلطانية [من الوافر]

فَلَرَّهُمُ الْطَّرَادُ إِلَى قَتَالٍ أَحَدٌ سَلَّحُهُمْ فِيهِ الْفَرَارُ

وثار السلطان إليهم ووثب عليهم، فضحكوا منهم بكل أشمط، وأقرى سباع الوحش والطير فأفرط، ولحق من قصد التحصن في الجبال فأخذهم في كل رابية

(١) الطلب: فرقة مقاتلة.

(٢) الكرج: جيل من النصارى كانوا يسكنون في جبال القبق وببلاد السرير، ثم قويت شوكتهم، وملكوا مدينة تفلبس، ولهم ولاية تنسب لهم مملك ولعة وشوكة وعدد «ياقوت الحموي ٤٤٦/٤»، صبح الاعنى ٣٦٩/١، وهي الآن دولة جورجيا.

الأ خذة الراية، وقتلهم «فَهَلْ تَرَى لَهُم مِنْ بَاقِيَّتِهِ»^(١) وانهزمت جماعة يسيرة طمع فيها من العوام من لا كان يدفع عن نفسه، وأخذتهم المهاوي فما نجا منهم إلا آيس من حياة غده في أمسه [من الوافر]

مَضَوا مُتَسَابِقِي الْأَعْصَاءِ فِيهَا لَأَرْجُلِهِمْ بِأَرْوَسِهِمْ عِثَارٌ
إِذَا فَاتُوا الرِّمَاحَ تَنَاوِلُتِهِمْ بِأَرْمَاحٍ مِنَ الْعَطَشِ الْقِفَارِ

وقصدت ميمونة عسكرنا جماعة من المغل ذوو بأس شديد، فقاتلهم المسلمون حتى ضجر الحديد من الحديد، وأما العدو فتقاسمت الأيدي ما يمتنونه من الصواهيل والصوافن، وما يصولون به من سيف وقصي وكائن^(٢)، وما يلبسونه من خوذ ودروع وجواشن^(٣)، وما يتمولونه من جميع أصناف المعادن، فغنم ما هنالك، وتسلم من استشهد من المسلمين رضوان، ومن قتل من التتار مالك، وأورث الله المسلمين منازلهم فنزلوها، ووطاقاتهم وخركاواتهم فتمولوها، وكان السلطان مع أعدائه كما قيل: [من الوافر]

فَمَسَاهِمْ وَبُسْطُهُمْ حَرِيرٌ وَصَبَّحَهُمْ وَبُسْطُهُمْ تُرَابٌ
وأصبح الأعداء كأنما جزر، أجسادهم يتخللها من الدماء السيل، وكأنما رؤسهم المجموعة لدى الدهليز المنصور أكر تلعب بها صوالحة الأيدي والأرجل من الخيل.
وكم فيهم من مهيب الهامة، حسن الوسامه، يتفرس في جهامة، وجهه الفخامة، قد فض الرمح فاه، فقرع السن على الحقيقة ندامة، وكثرت الأساري، فاختار السلطان من كبرائهم البعض، وعمل فيهم بقول الله ﴿مَا كَانَ لِتَيْنِي أَنْ يَكُونَ / لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْجِنَ فِي الْأَرْضِ﴾^(٤) ودخل البرواناه^(٥)، مدينة قيسارية في سحر يوم الأحد ثاني عشر الشهر، فأفهم غيث الدين سلطانها والصاحب فخر الدين علياً، والأتابك مجد الدين، والأمير جمال الدين المستوفي، والأمير بدر الدين ميكائيل النائب،

(١) سورة الحاقة: الآية .٨

(٢) كائن: جمع مفرد كنانة وهي جعبة السهام.

(٣) جواشن: جمع مفرد جوشن، والجوشن هو الدرع بالفارسية «فرهنگ رازی ۲۰۷».

(٤) سورة الأنفال: الآية .٦٧

(٥) البرواناه هو حامل الرسائل وهو مشتق من الكلمة الفارسية بروانه أي الخادم «انظر: تركستان حاشية ص. ٣٥٩».

والأمير الطغرائي^(١) وهو ولد عز الدين أخي البرواناه وهو يكتب طرر المناشير أن المسلمين كسرموا بعض المغل وبقيتهم منهزمون ويخشى منهم دخول قيصرية واتلاف من يكون بها، فأخذ زوجته كرجي خاتون بنت غيث الدين صاحب ازر، وأمها ملكة الكرج، وزوجها السلطان غيث الدين صاحب الروم في أربعينية جارية، وكان لها مال كان لصاحب الروم من البخاتي والخيام والآلات، وتوجهوا كلهم إلى جهة توقات وهو حصن عن قيصرية أربعة أيام، وهول على بقية أمراء الروم فاتبعوه إلا قليل منهم، وأخفى البرواناه أمره وأمر من معه حتى لا يخبر عنهم.

ورحل السلطان فنزل قريب قرية رمان، وبيوتها حول سن جبل قائم كالهرم إلا أنه ملعم، وعمرت البيوت في سفحه حوله بيتاً فوق بيت، وبدت كأنها مجرة النجوم، وما منها بيت إلا وبه مقاعد ذوات درابزينات^(٢) منجورة، ورواشن قد بدت في أحسن صورة، يختتمها من أعلىها أحسن بنيان، ويعلوها من رأسها منزل مسنن الرأس كما يعلو الصعدة السنان، ويطوف بها الجبال كأنها لها أسوار بل سوار، وكأنها في وسطها إماء فيه جذوة نار، وفيها أنهار ذات قناطر لا تسع غير راكب ومضائق لا تلقى غيرها لمناكب، فنزلنا قريباً منها حتى تخلص من تخلص، وحضر من كان في المضائق قد تربص، وقال كل (الآن حصص)^(٣) ورحلنا والسماء قد حيت الأرض بتيجان أمطارها، وأغرقت الهوام في أحجارها والفتح في أوکارها، وأصبحت الأرض لا تتماسك حتى ولا لمور الأراقم، والجبال لا تتمالك أن تكون للعاصم عواصم (تضع) بها من الدواب (كل ذات حمل)^(٤)، وتزلق على صقليلها أرجل التمل سرنا على هذه الحالة نهارنا كله إلى قريب الغروب، وقطعناه بتسلمنا /١٤٥/ أيدي الدروب من الدروب، فنزلنا عشاء في منتفع أرض يطوف بها جبال شاهقة ومياه دافقة تعرف قاعة تلك الأرض بوطأة قشلار بينار من أعمال صاروس العتيق، ويقرب من تلك الجهة معدن الفضة. وبينما نحن قد شرعنا في أهبة المبيت، ولم نجمع

(١) الطغرائي: وهو القائم بوضع الشعار السلطاني (الطغراء) على الرسائل. «فرهنگ رازی ٥٧٥».

(٢) درابزينات: جمع مفردة درا بيزين، وهي كلمة فارسية تعني سياج يتکيء عليه المرء أثناء صعوده على السالم أو على الكراسي «فرهنگ عمید ٩٢٨/١».

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿...قَالَتْ أُمَّارُ الْعَرَبِ إِنَّكَ حَصَصَ الْحَقِّ...﴾ ^{٦٥} «سورة يوسف: الآية ٥١».

(٤) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ تَرَوْهَا تَنْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَنْصَمَتْ وَقَنَعَ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَلَّمَهَا﴾ «سورة الحج: الآية ٢».

الشمل الشتت فإذا بالصاري قد عقر عقيرته بان فوجاً من التمار هنالك في فجوة قد استرروا، وفي نجوة لغرة قد انتظروا، فركب السلطان والناس في السلاح، وعزموا على المطار، فعاقهم تتابع الغيث، وكيف يطير مبلول الجناح؟ ثم لطف الله وعاد السلطان وهو يقول: لابأس. فمننا نومة السليم وصارت أفكارنا شاعرة سالمة في كل واد تهيم، وأصبحنا فسلكنا جبالاً لا يحيط بها الوصف، ونبسط عنز الطرف فيها حين يكبوا الطرف نحط منها إلى جنادل تضعف عن الهوي إليها قوى الأجادل، ومررنا على قرية أوزاك وتحتها قناطر وخان من حجر منحوت، ثم خان آخر للسبيل على رأس رابية هناك قريب حصن سمندو الذي عرض أبو الطيب به في قوله^(١): [من الوافر]

فإإنْ نَقْدُمْ فَقدْ زُرْنَا سِمْنَدُوْ إِنْ نُحْجَمْ فَمُوَعْدُهُ الْخَلِيجُ

وكان السلطان قد سير إليها خواصه بكتاب إلى نائبهما، فقبله وقبله، وأذعن بالتسليم لحصنها المنيع والنزول لأمر السلطان عنها إن استنزله، فشكر السلطان له تلك الإجابة، ووفاه من الشكر حسابه، وكذلك إلى قلعة درندة، وإلى قلعة دوالو فكلهم أجابوا وأطاعوا، ولكلمة الاذعان والوا، ونزلنا في وطأة قريب قرية تعرف بحمرها، وكان الناس قد فرغت علوفات خيلهم أو كادت وباتت الخيل ليالي بلا عليق فماتت وماتت وشاركتها خيول الكسوب في عليقها، وما ساعدتها في طروقها ولا طريقها، فصادفنا في هذه الليلة بعض أتبان أمسكت أرماقها وأحسنت ارفاقها، وأصبحنا راحلين في جبال كأنها تلك الأول هابطين في أودية /١٤٦/ يتمنى سالكها لشدة مضائقها، لو عاد ترقى قنة الجبل.

ثم أشرفنا على خان هناك يعرف بقرطاي، يدل على شرف همة بانيه، وطلب ثواب الله تعالى فيه وهو من أكبر الأبنية سعةً وارتفاعاً وأحسنها شكلاً وأوضاعاً كله مبني بالحجر المنحوت المصقول الأحمر الذي كأنه رخام، ومن ظاهر أسواره وأركانه نقوش لا يمكن أن يرسم مثلها بالقلم، وله خارج بابه مثل الربض ببابين بأسوار حصينة مبطأ الأرض فيه حوانيت وأبواب الخان حديد من أحسن ما يكون استعماله وداخله أواوين^(٢) صيفية وأمكنة شتوية واصطبلاط على هذه الصورة لا

(١) ديوان المتنبي بشرح البرقوقي .٣٦٢/١

(٢) أواوين: جمع مفرد إيوان، فضاء مسقوف «فرهنگ رازی» .٣٨

يحسن الإنسان أن يعيّر عنها بكيف وما منها إلا ما يجعله المسافر وحلة الشتاء والصيف^(١)، وفيه الحمام والمرستان^(٢) والأدوية والفرش والأواني والضيافة، لكل طارق على قدره، وحمل إلى السلطان لما من عليه وكثير الناس، فما وصل أحد إليها ولا إليه، وعليه أوقاف عظيمة، وضياع كثيرة حوله وفي غيره من البلاد وله دواوين وكتاب ومبashرون يتولون استخراج أمواله والإتفاق فيه ولم تتعرض التمار إلى إبطال شيء من رسومه، وأبقوه على عوائد تكريمه وأهل الروم يبالغون في تمجيل بانيه رحمة الله وتعظيمه، فنزلنا تلك الليلة قريباً قرية قرية من قيسارية شرقى الجبل المعروف بعسيب^(٣)، وفيه قبر امرئ القيس^(٤) الشاعر وفيه يقول: [من الطويل]

أجارَنَا إنَّ الْخُطُوبَ تَنُوبُ وَإِتَيْ مَقِيمُ مَا أَقَامَ عَسِيبُ
أجارَنَا إِنَّا غَرِيبَانَ هَنَا وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ^(٥)

وهذا الجبل يعلوه جبل أرجاس، وهو الذي يضرب به الروم الأمثال لتساميه، وتتضائل الجبال في جميع الدنيا لتعاليه، لا تسحب ذيول السحاب إلا دون سفحه، ولا يعرف شتاوته من صيقه، من ثلوجه، ولا لهيال الأخرة المتضعة عشاوه من صبحه.

فلما كان يوم الأربعاء متصرف ذي القعدة وهو يوم شرف الزهرة، ركبت العساكر المنصورة مترتبة وملاة الفضا /١٤٧/ متسلبة، فركب السلطان في زمرة، وذوي

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: «لَيَأْتِيَنَّ فُرَيْشَ (١) لِمَلَكِهِمْ يَعْلَمَةَ الْشَّتَاءِ وَالصَّيفِ (٢)» سورة قريش: الآيات ٢-١».

(٢) المارستان: دار الشفاء، المستشفى.

(٣) جبل عسيب: جبل قرب دومة الجندي.

(٤) امرئ القيس بن عاتس بن المنذر بن امرئ القيس بن السمط بن عمرو بن معاوية. من كندة: شاعر سخضم من أهل حضرموت. ولد بها في مدينة «تريم» وأسلم عند ظهور الإسلام ووصول الدعوى إلى بلاده، ووفد إلى النبي ﷺ، ثم لما ارتدت حضرموت ثبت على إسلامه.

وشهد فتح حصن النجير وخيانة (في شرقى تريم) وانتقل في أواخر عمره إلى الكوفة فتوفي بها نحو سنة ٢٥٠هـ/ ٦٤٥م. وهو صاحب القصيدة المشهورة التي أولها:

«تطاول ليك بالإثمـد ونـامـ الخـلـيـ وـلمـ تـرـقـدـ»

وفي الرواية من ينسبها إلى امرئ القيس بن حجر، وال الصحيح أنها لابن عاتس كما حفظه العيني.

ترجمة في: العيني /١-٣٠-٣٢ و تاريخ الشعراء الحضرميـن /٤٤ و ضوء المشـاكـةـ خـ ، الاعـلامـ ٢ـ ١٢ـ

(٥) ديوان امرئ القيس، ط دار صادر - بيروت ١٩٥٨ ص ٧٩.

أمره وأمرته، يختال به جواده في أفسح ميدان، ويصبح به مرحًا وفرحاً كأنه نشوان، دري أنه سلطان: [من الطويل]

تظلُّ ملوكُ الأرضِ خاشعَةً لَهُ تفارقُهُ هَلْكَى وَتَلْقَاهُ سُجْدَا

وخرج أهل قيصرية وأكابرها وعلماؤها وزهادها وتجارها ورعاياها ونساءها وصغارها، فأكرم السلطان ممثاهم، وشكر مساعهم، وتلقى قضائهم وعلماءهم ركبانًا، وحادتهم إنساناً إنساناً، وحصلت لجماعة من الفقراء والناس حالات وجذ مطربة وصرخات ذكر معجبة، وكان شعار السلطان غيث الدين صاحب الروم وخيمه وشعار سلطنته قد بقي جمیعه في وطأة قريب الجوسوق والبستان المعروف بكيخرسو، فترجل الناس على اختلاف طبقاتهم في الركاب الشريف من ملك وأمير ومامور وارتقت الأصوات بالتهليل والتکبير، ونزل السلطان في تلك المضارب

وضربت نوبةبني سلجوقد على باب دهليزه على العادة، وأذن السلطان للناس في التقرب إلى شريف فسطاطه، وحضر أصحاب الملاهي بما ظفروا بغير النواهي وقيل لهم ﴿أَرْجِعُوكُمْ وَلَا كُمْ فَالْقِسْوَا﴾^(١) واذهبوا إلى واد غير هذا الوادي فاقتبسوا، وهذه الهنات لا تنفق هنا وما هذا موضع الغناء، بل موضع الغنى.

وشرع السلطان في إنفاق اللئوي، وعيّن في كل جهة شخصاً، وقال: «أنت لها»، وحكم وحكم، وعلم وعلم، واعتمد على الأمير جاليش في النيابة، وأعطي كل بيمنيه كتابه^(٢)، وأقام الحجّة على من نزح بالاستعطاف، وتأمين من خاف، فلما علم أنهم لا يفلحون، ولغير التثار لا يصلحون، وأنهم إن أصبحوا في الطاعة لا يمسون، وإن أمسوا لا يصبحون، عاد عن تلك الوعود، واختار أن ما بدا إليه يعود، فركب يوم الجمعة سابع عشر ذي القعدة مستقبلاً من الله الخير، ونصب جتربني سلجوقد على رأسه، فرأى الناس منه صاحب القنة والسبيع وصاحب تاقبة والطير، ودخل قيصرية في بكرة هذا اليوم وكانت دار السلطنة قد فرشت لنزوله، وتحت بني سلجوقد هيئ لحلوله، وهي / ١٤٨ / منازل تزهو ومنازه من يتبعده ويلهه أنيقة المبتنى، تحف بها بساتين عذبة المجتنى، جدرانها بأحسن أصناف القاشاني مصفحة، وباجمل

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿...قَلَّ أَرْجِعُوكُمْ وَلَا كُمْ فَالْقِسْوَا نُورٌ...﴾ ^(٣) «سورة الحديد: الآية ١٣».

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ أَنْوَقَ كَبَّةً بِعَيْنِيهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ أَقْوَمُ كَبَّةً﴾ ^(٤) «سورة الحاقة: الآية ١٩».

نقوشه مصرحة، فجلس السلطان في مرتبة الملك في أسعد وقت، ونال التخت بحلوله
أسعد البخت: [من الطويل]

وما كانَ هذا التختُ منْ حين نصِّبِهِ
لغيرِ المليكِ الظاهِرِ النَّدِ يصلاحُ
صوارِمُهُ البيضُ المَواضِي وتفتحُ
رأيَناكَ تعفو عنْ كثِيرٍ وتصفحُ
فاؤسَعَهُمْ حِلَماً وجادَ لَهُمْ نَدَى
وأمسوا على منْ وأمِنْ وأصْبَحُوا
وأقبلَ الناسُ على السُّلطانِ يهتَّؤُونَهُ، وعلى كفَّهُ الشَّرِيفِ يقبلُونَهُ، ثمَ حضرَتِ
القضاءُ والفقهاءُ والصوفية، وذُوو المراتبِ منْ أصحابِ العمائِمَ على عادةِ بني
سلجوقي في كل جمعة، ووقفَ أميرُ المَحفل، وهو كبيرُ المُعَدَّلةِ عندَهُمْ، ولهُ وسامَةٌ
وفخامة، ولهُ أوسَعَ كَمَ وأكْبَرَ عمَامَةً وأخذَ في ترتيبِ المَحفلِ على قدرِ الأقدارِ،
وانتصبَ قائِمًا بينَ يديِ السُّلطانِ مُنتَظِرًا ما إِلَيْهِ بِهِ يشارُ، وشرعَ القراءُ يقرؤُونَ جميِعاً
وفرادِيًّا بأَحْسَنِ تلحينِهِ، وأَجْمَلِ تحسينِهِ، ولما فرَغُوا شرعَ أميرُ المَحفلِ صارَخَاً
وبكُورِ فمهِ نافخَاً، فأنشدَ وأوردَ بالفارسيةِ ما يعجبُ مدلولِهِ، ويُهولُ مقولِهِ، وأطَالَ
وَمَا أَطَابَ، واستصوبَ منْ يعرِفُ مقالَةَ قولهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوابِ.

ولما انقضى ذلكَ مدوا سماطاً ليس يناسبُ همَّ الملوکِ، فأكلَ الناسُ منهُ
للشُّرفِ لا للسرفِ، ثمَ عادَ كُلُّهُ إلى مكَانِهِ فوقفَ وقامَ السُّلطانُ إلى مكَانِ الراحةِ فأقامَ
ساعةً أو ساعتينِ، ثمَ خرجَ إلى مخيِّمهِ قريرِ العينِ، وكانَ بدارِ الملكِ حرمُ السُّلْجُوقِيَّةِ
على أبوابِهِمْ أسمَالُ ستورِ حريرٍ ومشابِخُ خدامٍ يستحقِّ كلُّ منْهمْ أنْ يدعى بالكبيرِ
فجبرُهُمْ السُّلطانُ وآنسُهُمْ وأحسنُهُمْ وتوجهَ إلى صلاةِ الجمعةِ بقِيصرِيَّةِ، وبها سبع
جمعٍ تقامُ فيها خطباءٌ إِلَّا أنَّهُمْ كالأَنْعَامِ، فصلينا في جامِعِ السُّلطانِ وهو جامِعٌ لا يدلُّ
عَلَى /١٤٩/ احتفالَ ملوكِها ببيوتِ عبادِهِمْ، ولا فيهِ منْ دلائلِ الخيرِ ما يقضى
بحسنِ إراداتِهِمْ

حضرَ أهلُ المدينهِ وأكابرُها وجلسوا حلقاً لا صفوافَاً وأجرروا منَ البحثِ
بالعجميةِ صنوفاً واجتمعَت جماعةٌ منْ حفاظِ الكتابِ العزيزِ، فتخارجوا القراءةَ آيةَ آيةَ
وهي قراءةٌ بعيدةٌ عن الدرايةِ، بل إنَّها تبرزُها أصواتٌ مترنمةٌ وألحانٌ لتفريقِ الكلماتِ
مقسمةٌ، ينطقونَ بالحروفِ كيف اتفقتَ ولا يتوقفونَ على مخارجِ الحروفِ أنها بها
نطقَتْ أو لا نطقَتْ. ولما آنَ وقتُ الأذانِ قامَ صبيٌّ عليهِ قباءٌ منْ وسطِ جماعةِ عليهمِ

أقيمة قعود على دكّة المؤذنين، فابتداً بالتكبير أولاً وثانياً بمفرده من غير إعانة ولا إيانة، ولما شهد ساعدوه جميعهم بأصوات مجمجمة ملعلة ونغمات متنوعة يمسكون له النغم بأطيب تلحين، ويتزمنون بالأصوات إلى آخر التأذين. وفرغ الأذان وكلهم قعود ما منهم أحد غير الصبي قد وقف، وما من أحد لكلمة من الأذان عرف، ولما فرغ الأذان طلع شيخ كبير السن يعرف بأمير محفل المنبر، فصعد إلى ذروة المنبر وشرع في دعاء لا تعرفه وادعاء لا تألفه، كأنه مخاصم أو وكيل شرع أحضره لمشاهدة خصمه خصم بين يدي حاكم، وطلع الخطيب بعد ذلك فخطب ودعا للسلطان بغير مشاركة، وانقضت الجمعة على هذه الصورة المسطورة

وخربت السكة باسم السلطان وأحضرت الدرهم إليه في هذا اليوم فشاهدنا وجهًا متهللاً باسمه الميمون وأقرت الألسنة بهذه النعمة، وقرت العيون، وشاهدت بقىصرية مدراس وخوانق وريطاً تدل على اهتمام بانيها ورغبتهم في العلوم الشرفية مشيدة بأحسن الحجار الحمر المصقوله المتقوشة، وأراضيها بأجمل ذلك مفروشة، وأوانيها وصففها موزرة بالفashاني الأجمل صورة، وجميعها مفروشة بالبسط الكرجية والقالية^(١)، وفيها المياه الجارية، ولها الشبائك على البساتين الحسنة وسوق قيصرية طائف، بها من حولها وليس داخل المدينة دكان ولا سوق.

والوزير في بلاد الروم يعرف / ١٥٠ / بالصاحب فخر الدين خواجا علي، وهو لا يحسن الكتابة ولا الخط، وخلفه من مماليكه خاصة مائتا مملوك، ودخله غير دخل أولاده وغير الإقطاعات التي له ولأولاده وخواصه سبعة آلاف درهم سلطانية ولقد شاهدت في مدرسته من خيامه وخركاواته شيئاً لا يكون لأكبر الملوك، وله بـ ومعروف وبالخير معروف.

وأما معين الدين سليمان البرواناه وزوجته كرجي خاتون، فظهر لهما من الموجود البداي للعيون كل تفيس، واستولى السلطان من موجودهما على ملك سليمان وعرش بلقسن.

ولما أقام بقيصرية هذه المدة، فَكَرِّرَ فِي أَمْرِ عُسَاَكِرِهِ وَمُصَالِحِهِ بِمَا لَا يُعْرَفُهُ سَوَاءً، وَنَظَرَ فِي حَالِهِمْ بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَقْوَاتَ قَلَتْ، وَالسِّيُوفُ مِنْ

(١) القالية: من قالى، كلمة تركية تعنى السجادة الكبيرة من الصوف بألوان ونقوش مختلفة «فرهتگ رازى».

المضاربة ملت، والسواعد من المصادمة كلّت؛ وأنه ما بقي بالروم من الكفار من يغزى، ولا بجزاء السوء يجزى، وما بقي في البلاد إلا رعايا كالسوائم الهاملة، ولا دية لكرف منهم على عاقل ولا عاقلة، وإن أقام بالبلاد لا تحمله، ومواد بلاده لا تصله، وأعشاب الروم بالدوس قد اضمحلت، وعلوفاتها قد قلت، وزروعها لا ترجى لكفاية، ولا ترضي خيول العساكر المنصورة بما ترضى به خيول الروم من الرعاء والرعاية، وإن الحسام الصقيل الذي قتل به التتار في يد القاتل، وإن إن كان أعجبهم عامهم فيعودون إلى الروم من قابل، فرحل يوم الاثنين العشرين من ذي القعدة بعد أن أعطى أمراءه وخواصه كلما أحضر إليه من الأعنة والأزمة، وكلما يطلق على تموله اسم النعمة، فنزل في منزلة تعرف بقبيلو، وفيها وصل إليه رسول غياث الدين والبرواناه يستوقفونه وكان الأمر شائعاً أنها إلى سيواس، فعدد السلطان عليه حسن وفاء عهده، وأنه أجاب دعاءهم مرة بعد مرة من أقصى ملكه مع بعده، وأنهم ما وقفوا عند الشرائط المقررة، ولا وفوا بمضمون الرسائل المسيرة؛ وأنه لما **﴿الْحَقُّ وَهَقَ الْبَطْلُ﴾**^(١) طلبوا **﴿فَنَظَرَ إِلَى مَيْسَرٍ﴾**^(٢).

وعلم / ١٥١ / السلطان أن عساكر الروم أهل التذاذ، لا أهل نفاذ، وأهل طرب، لا أهل حرب، وأهل طيبة عيش، لا قواد جيش، فرد إلى سليمان البرواناه وهدده وقال قل له : قل له إنني قد عرفت الروم وطرقاته، وأمه أسيرة معي وابن بنته وولده ويكتفي ما جرى من النصر الوجيز، **﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾**^(٣) ولا كل من قضى فريضة الحج تجب عليه المجاورة، ولا بعد هذه المهاجرة مهاجرة، ونحن فقد ابتعينا فيما آتانا الله من حقن دماء أهل الروم وعدم نهب أموالهم الدار الآخرة، وما كان جلوستنا في تخت سلطنتكم لزيادة تبعج بتخت آل سلجوقي، إلا لتعلمكم أنه لا عائق لنا عن أمر من الأمور يعوق، وأن أحداً لا ينبغي أن يأمن لنا سطوة، ولتحقيق كل أن كل مسافة جمعة لنا خطوة، وسرور جنا بحمد الله أعظم من ذلك التخت جلاً وأرفع منالاً، وكم في ممالكنا كرسي ملك نحن آية ذلك الكرسي، وكم لنا فتح والحمد لله فوق الفتح القدسي.

(١) سورة الإسراء: الآية ٨١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٠.

(٣) سورة الحج: الآية ٤٠.

واستصحب السلطان معه أكابر الروميين، ثم رحل فنزل قريب خان السلطان علاء الدين كيقباذ ويعرف بكروانصاري، وهذا الخان بنية عظيمة من نسبة خان قرطاي عليه أوقاف عظيمة من جملتها أغنام كثيرة يذبح نتاجها للواردين عليه، ثم نزلنا في وطأة رویزان کودلو وكودلو اسم جبال تلك الوطأة، ثم رحلنا فعارضنا نهر في وطأة خلف حصن سمندو من طريق غير التي كنا توجهنا عليها بمكان يعرف بنهر قزل صو، وهو صعب المخاض، واسع الاعتراض، عالي المبهبط، زلق المسقط، مرتفع المرتفق، بعيد المستقى، لا يجد السالك من أوحال حافتيه إلا (صعيداً زلقاً)، فوقف السلطان عليه بنفسه وجرّد سيفه بيده، وباشر العمل هو وجميع خواصه حتى هيأ المكان جميعه، ووقف راجلاً يعبر الناس أولاً فأولاً من كبير وصغير وغلام وهو في أثناء ذلك يكبر على من يزدحم ويكرر التأديب /١٥٢/ لمن يطلب بأذية رفيقة أنه يفتحم، فلما خفت البرور، ولم يبق إلا المرور، ركب فرسه وعبر الماء، ونزل في واد هناك به مرعى، ولا كالسعدان ومرأى، ولا كشعبد بوان، ثم رحل فنزل عند صخرات قراجا حصار وهي قرية كانت عامرة فيما مضى قبلة بازار بلو، وهذا البازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض، وبياع فيه من كل شيء يجلب من الأقاليم، ثم سرنا حتى نزلنا وطأة الأبلستين، وعبر السلطان على مكان المعركة المتقدمة مع التتار، ورأى كيف تعاقبت عليهم من العقبان كواسرها، ومن النسور مناسراها، وكيف أصبحوا لا تندبهم إلا البوم، وكيف تحققوا أن التي أهلتهم زرق الأسنة لا زرق الروم، وشاهدتهم والهوا في أجسادهم متصرفة، قد هزا بهم كل شيء حتى الوحش والرياح فهذه من صديديهم متكرعة وهذه عليهم متقصفة: [من الكامل]

قد سوَّدَتْ شجَرَ الجِبَالِ شَعُورُهُمْ فَكَانَ فِيهِ مَسْفَةً الْغَرِبَانِ

وحضرت من أهل الأبلستين هناك جماعة من أهل التقى والدين، فاستخبرهم السلطان عن عدة قتلى المغل، فقالوا **﴿فَتَسَلَّمَ الْمَآذِنُ﴾**^(١) فاستفهم من كبيرهم عن عدة المغل كم من قتيل فقال: **﴿وَقُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾**^(٢) قال الذي عنده

(١) سورة المؤمنين: الآية ١١٣.

(٢) سورة الكهف: الآية ٢٢.

علم من الكتاب: ^(١) أنا عدلت ستة آلاف وسبعمائة وسبعين نفراً وضاع الحساب هذا غير من أولى إلى جبل يعصم من ماء السيف ^(٢) فما عصم، ومن اعتقاد أن فرسه يسلمه بما سلمه فتركهم السلطان ورسم بتقديم الأثقال والخزائن والدهليز المنصور على أقجا دربند، ثم أقام يومين ينتظر صيداً من العدوَّ يعنيَّ، أو دمأً من دمائهم إلى السيف يحن، فلما لم يجد أحداً رحل من طريق غير التي حضر منها فسلك على الأوعار «طريقاً بيساً» ^(٣)، وطلع من قنن الجبال في هضاب كأنَّ كلَّ منها كف حملت من الأنجم قبساً فقاسي الناس، في هذا اليوم من الشدة ما لا يدخل في قياس.

١٥٣ / وكاد الناس أن يهلكوا لولا أن الله تدارك الناس، فساقوا ولكن على مثل حد السيف، وتسللوا ولكن سل حوافر الخيل. كيف وهبطوا من جبال يستصعبها كل شيء حتى طارق الطيف يستصعب الحجر المholm وقوعه في عقابها، ويستهول النجم الثاقب تعلقه بشعابها. وعدينا كوك صو وهو النهر الأزرق، وبات السلطان هناك وكان قضيم الخيل في تلك الليلة ورق البلوط إلا من أمست عنابة الله له بيسير شعير تحوط.

ورحل السلطان، ونزل كينونك المقدم ذكرها، وعدل إلى طريق مرعش فزال بحمد الله عقاب تلك العقاب وقالت الأنهار المتلقية لكل منا **﴿أَرْكُضْ بِرِّجَلِكَ هَذَا مُغْسَلٌ بَارِدٌ وَشَرِبٌ﴾** ^(٤) ونزلنا قريب قلعة خراب تعرف بالأسكريكيس إلى جانب نهر يعرف بالحان، ثم رحل السلطان قريب بركلوجا من بلاد مرعش، ثم رحل فنزل عقبة مرى أحد دريندات سيس إلى جانب النهر الأسود، ورحل فنزل قبالة دريساك، ورحل فنزل قريب حارم فنزل قريب منزله الذي كان به فيما تقدم وألقى عصا التسيار وقال لأهل الخيام هذه الخيام وأهل تلك الديار هذه الدار».

وهذه الرسالة كافية في كثير من أحوال الروم وفيما ذكره عن دخل هذا الوزير

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: **﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَمْ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَبِ أَنَّا عَلَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرَيَّدَ إِلَيْكَ طَرْفَكَ﴾** «سورة النمل: الآية ٤٠».

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة: **﴿قَالَ سَتَّاوى إِلَى جَبَلٍ يَعْصُمُ مِنَ اللَّهِ قَالَ لَا عَاصِمَ آتِيَّمْ مِنْ أَمْرِ أَنَّوِ إِلَّا مِنْ رَّجُمِ﴾** «سورة هود: الآية ٤٣».

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة: **﴿أَنَّ أَنْتَ بِعَيْدَى فَأَنْتَبْ لَمَّا طَرِيقَ فِي الْبَحْرِ بِسَاسًا﴾** «سورة طه: الآية ٧٧».

(٤) «سورة ص: الآية ٤٢».

ومن له المماليك غير بقية من لعله يكون له من الجناد والأتباع ما يعرف به عظم شأن هذه المملكة، ووفور دخلها، ووفود السعود إلى محلها، وتستر أبناء الزمان من عين دهرهم بظلها، ولو قد اجتمعت هذه البلاد لسلطان واحد، وكفت بها أكف المفاسد لما وسع ملوك الأرض إلا انتجاع سحابه وارتجماع كل زمان ذا هب في غير جنابه.

وهذا الذي دخله الملك الظاهر بيبرس من بلاد الروم هو بعض ما لبيت جنكيزان وهو من جلاله المقدار، وكثرة المال على ما قد أشرنا إليه فكيف جميع ما هو من الخليج القسطنطيني / ١٥٤ / إلى بحر نيطش. الله أكبر إن ذلك ملك عقيم، وسلك نظيم، وسلطنة كبرى، ودنيا أخرى ﴿ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمُ﴾^(١).

أما ما نحن بصدده ذكره من ممالك الأ تراك في الروم :

فقد حدثني الشيخ حيدر العريان السبير حصري الرومي وهو من أهل مدينة سبر حصر من بلاد الروم مما هو في أيدي ملوك بيت جنكيزان قال: إن لهؤلاء أمراء الأ تراك نقوداً لا يخرج نقد واحد منهم في بلاد الآخر ودرهمهم في الغالب تقدير نصف وربع درهم من نقدنا، والرطل مختلف عندهم وأكثرها بالتقريب زنة اثنى عشر رطلاً بالمصري، وأقلها رتبة ثمانية أرطال، قال: وأما الغلات فتباع بكيل لهم يعرف بالموط وهو يجيء تقدير أردب ونصف بالمصري، قال: وهذه البلاد بل الروم جميعه فيه من أنواع الفواكه كلها إلا الحوامض كالليمون والنارنج وما لا يوجد في الصرود كالرطب والموز، وقد يوجد ما قل من الحوامض في بعضها مما هو على ساحل البحر. وأما الدواب السوائم فأكثر من أن يقع عليها إحصاء أو حساب من الخيل والغنم والبقر وأعظمها عدداً وأنماها ولداً الغنم؛ فإنها تبسط فرش الأرض منها المعز المرعز ذوات الأوبار المضاهية لأنعم الحرير وغالب قنية أهل الشام وديار بكر وال العراق وببلاد العجم وذباائحهم مما يفضل عنها ويجلب إليها منها، وهي أطيب أغنام البلاد لحمها وأشهى شحاماً، وبها العسل المضاهي للثلج بياضاً والسكر في اللذادة طعمًا لا حدة فيه ولا إفراط حلاوة توقف. الأكل والأسعار كلها بالروم رخيصة لأسباب منها قلة المكوس، وكثرة المراعي المباحة واتساع سبب التجارة، واكتناف البحر.

(١) «سورة الحديد: الآية ٢١».

قال: وقيمة الغلات بها دون قيمتها بمصر والشام أو مثلهما في الغالب، فاما اللحم واللبن على اختلاف أنواعهما فرخيّة رخيصة، أما العنّم فخيار رأس يكون لا يجاوز /١٥٥/ اثني عشر درهماً من دراهمهم يكون بنحو تسعه دراهم من دراهمنا إلى ما دون ذلك، وأما اللبن وما يعمل منه فما هو مما يسأل عنه بكيف لكثره، فأما في زمن الربيع فإنه لا يوجد له من يشتري ولا من يبيع؛ لأنّه لا يكاد يخلو أحد في الروم من أغنان يحليب له اللبن فلا يحتاج لি�شتريه ولا يحتاج إليه أحد فيبيعه له.

قال: وأما العسل فلا يتجاوز الرطل ثلاثة دراهم بروطهم وهو ذلك الرطل الكبير ودرهمهم وهو ذلك الدرهم الصغير، فأما الفواكه في أوانها حكم الألبان في زمان الربيع.

وقال: وببلاد الروم إذا غلت وأقحطت كانت بسعر الشام إذا أقبل وأرخص.

قال: ومع نواب بيت جنكرخان بالروم ثلاثة معادن فضة أحدها بأراضي مدينة لؤلؤة، والثاني بأراضي مدينة كمش والثالث بأراضي مدينة باحرت.

قال: وهي إلى أن فارقها في حدود سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة عماله مستمرة العمل تستخرج الفضة الخالصة بها.

قال: والروم شديد البرد، لا يوصف شتاؤه إلا أن سكانه تستعد له قبل دخوله وتحصل ما تحتاج إليه، وتذخره في بيته، وتستكثر من القديد والأدهان والخمور، فتأكل طول أيام مدة الشتاء، وتلك الأيام بلهنية العيش عندهم ولا تخرج من بيته ولو أرادت ذلك لما قدرت حتى تذوب الثلوج فتخرج إلى معيشها.

وذكر هذا الشيخ حيدر العريان: أن جملة ممالك الأتراك بالروم أحد عشر مملكة غير ما يجد بيت جنكرخان وهذا هو خلاف ما تبين لنا على ما سذكره نقاً عن بلبان الجنوبي، وبلبان أدرى.

فأما ما عده العريان من ممالك الأتراك فهو مملكة أنطاليَا^(١) وصاحبها خضر بن

(١) أنطاليَا: هي أنطاليَا، وهي من بلاد الروم من أحسن المدن، متباينة في اتساع المساحة والضخامة، أجمل ما يرى من البلاد، وأكثر عمارة وأحسن ترتيباً، فيها البساتين والفواكه وعيون الماء وهي غير أنطاكية «رحلة ابن بطوطة ١٨٩ - ١٩٠».

دندار^(١)، وقال: إن لصاحبها مدينة أفينيكا^(٢) وأميرها الذي هو بها الآن من قبله، وهو من أولاد متشا، وقال: إن عدته عسكره نحو أربعين ألف فارس.

قلت: ولهؤلاءبني دندار إلى ملوك مصر انتماء، ولهم من /١٥٦/ تحف سلاطينها نعماء وكان بمصر منهم من له إمرة فيها، ثم عاد إلى بلاده بعد مهلة تمرتاش بن جوبان^(٣)؛ لأنه كان قد ترك بلاده لأجله وفرّ هارباً من يده لعداوة كانت قد اضطررت بينهما شرورها، واضطربت أمرها فلما خلت من مجاورة تمرتاش تلك البلاد عاد. وأخبرني بلبان الجنوبي الآتي ذكره أنه قتل هناك وما استقر له حال ولا سلمت له بلاد.

ومملكة رملاش^(٤) بلاد ابن متشا^(٥)، وقال: عساكره لا يزيد على ثلاثة آلاف فارس.

ومملكة بركري^(٦) بلاد محمد بن ايدين^(٧)، وإن عساكره نحو عشرة آلاف فارس. وهذا ابن ايدين ما أعرف أن له بمن حوله من ملوك الممالك إماماً، ولا أن له أخباراً ترد طررقاً ولا لاماً بل هو في عزلة عن كل جانب لا مخالط ولا مجانب.

ومملكة كاس برديك^(٨) بلاد صاروخان. قال: وعساكره إذا جمع يقارب ثمانية آلاف فارس.

(١) خضر بن دندار: هو خضر بك بن يونس «رحلة ابن بطوطة ١٩١»، حكم من سنة ٧٢٨هـ - ٧٧٦هـ.
انظر: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ٢٢٩.

(٢) أفينيكا هي مدينة الفنية على ساحل الخليج القسطنطيني وهي صغيرة لكنها حسنة مانعة، وكنائسها وديارها حسان والأنهار تخترقها والبساتين تحف بها «رحلة ابن بطوطة ٢٣١» وهي فنكة «معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ٢٣٠».

(٣) دمرطاش بن جوبان: فرّ إلى مصر، فأكرمه ملكها الناصر، وأعطاه الإسكندرية، فأبى من قبولها وقال: إنما أريد العساكر لأقاتل أبي سعيد وأظهر أمراً أوجبت قتلها «رحلة ابن بطوطة ١٥٣».

(٤) هي مملكة بيلاس ومدينتها ميلاس من أحسن بلاد الروم وأضخمها، كثيرة الفواكه والبساتين «رحلة ابن بطوطة ١٩٤».

(٥) هو شجاع الدين أرخان بن المتشا من خيار الملوك حسن الصورة والسمة «رحلة ابن بطوطة ١٩٥».
هي بركي «انظر رحلة ابن بطوطة ١٩٩»، معجم الأنساب ٢٢٧.

(٧) محمد بن إيدين من خيار السلاطين وكرمائهم وفضلاائهم «رحلة ابن بطوطة ١٩٩» حكم في بركي وأربا وصوت وكوشك وأقجشهير وأماكن أخرى سنة ٧٣٤هـ «معجم الأنساب ٢٢٧».

(٨) وهي مملكة مغنية وسلطانها صاروخان من سلاجقة أوج أميراً «معجم الأنساب ٢٢٦» ومحنة مدينة كبيرة حسنة في سفح جبل وسيطها كثير الأنهر والعيون والبساتين والفواكه «رحلة ابن بطوطة ٢٠٣».

ومملكة بالي كسرى^(١) بلاد دمرخان بن قراشي^(٢) قال: وله مدينة كردا، وبينهما يoman وأمير كردا من قبله واسمه سبغا، قال: وهذه البلاد محصنة منيعة، ولها أقطار رحبة وسعة، ومع هذا فعسكره قليل ضئيل لا يجاوز مائتي فارس لكنه مطمئن بمنعة بلاده لا ينافسه فيها منافس.

ومملكة بلاد أورحداد بن عثمان، قال وعسكره خمسة وعشرون ألف فارس وهو مجاور الخليج القسطنطيني، وبينه وبين صاحب القسطنطينية الغلب والحروب، ولها في صدور الروم سهام تشق صدور اليلب ولهذا يداريه ملك الروم على مال يحمله إليه كل هلال.

قال ولقد جاز البحر مرّة إلى بلاد النصارى وعاد في نواحيها وشد على بطارقته^(٣) لا فلاحيها، وألقى علوجها بحيث تعتلي سیول الدماء وتختل ج سیوف النصر / ١٥٧ / من الأعداء أمله الله بتأييده وأدله رغم الكفر لعقبان صناديده.

ومملكة كرمانان^(٤) بلاد أرغدشار^(٥) قال كرسى مملكة كوثاى، قال: ومالكها الآن كرميان بن غدشار. هكذا قال الشيخ حيدر العريان. قال: وهو أمير مطاع وقائد جيوش لبوارق سیوفهم شعاع، وأمراء الأتراك تنتقيه، ويبذل كل منهم في ماتفاقه ما استطاع، قال: وعسكره يقارب أربعين ألف فارس وهم فوارس وغى وفوارع علياء لا تتبعى.

ومملكة كرده^(٦) بلاد شاهين، قال: وعسكره نحو خمسة آلاف فارس.

ومملكة كونيك حصار بلاد أمرحاكو، قال: وعسكره ثلاثة آلاف فارس.

(١) وهي مملكة بلي كسرى وهي مدينة حسنة، كثيرة العمارات مليحة الأسواق «رحلة ابن بطوطة ٢٠٤» وهي باليكسر وتابعة لبني قراس «معجم الأنساب ٢٢٥» حكم في بركي وأربا وصرت وكوشك وأقجشهر وأماكن أخرى سنة ٧٣٤هـ.

(٢) سلطانها دمور خان ولا خير فيه «رحلة ابن بطوطة ٢٠٤».

(٣) بطارقتها جمع مفرده بطريق وبطريرك وبطريرك وهو مقدم النصارى ورئيس رؤساء الأساقفة «المعجم الوسيط ٦٣ / ١».

(٤) بكتاهية واوشاق وقولا وبazar وصارى كيوك «معجم الأنساب ٢٢٧».

(٥) ذكر زميابر إنه محمد بن يعقوب والذي حكم ما بين ٧٠٦هـ إلى ٧٧٩هـ «معجم الأنساب ٢٢٧».

(٦) كرده بولي «معجم الأنساب ٢٢٣».

ومملكة كصطمونية^(١) بلاد سليمان باشا^(٢)، قال: وصاحبها الآن إبراهيم بن سليمان باشا^(٣)، وله مدن وقلاع، ومن مشهور ما له مدينة سنوب وأميرها من قبله وأسمه غازي جلي، ويورا وأميرها مراد بك.

قلت: وصاحب كصطمونية من له بملوك مصر اتحاد، وبينه وبينهم مكاتبات ووداد ونحوه على ما يقال لنا، وبلغنا نحو ثلاثة ألف فارس أو يزيدون، وببلاد الخيل المخاضي الرومية الفاقفة المفضل بعضها على كل سابق من الخيل العراب، وهي بيوت مشهورة مثل خيول العرب بأنساب محفوظة وأحساب ملحوظة، وبغالى في أثمانها خصوصاً في مكانها حتى إن قيمتها لتبلغ قيمة ألف دينار ذهباً، ومنها ما يتجاوز هذا المقدار، وتزيد قيمته على ألف دينار ولا يستكثر من يعرفها فيها بذلك، ولا يستغلي اشتطاط السوم. وإذا قصد في بلاد الروم بيع أكديش^(٤) غال منها بالثمن الغالي، قال: هذا كصطموني ليشرفه بهذا الوسم وينفقه في البيع بجاه هذه النسبة.

ومملكة أرمصال^(٥) وهي بلاد ابن قرمان^(٦) وصاحبها الآن الأمير محمد بن قرمان من أهل بيت توارثوا /١٥٨/ هذه البلاد ولا يخاطب قائم منهم إلا بالإماراة وفي ساحل بلاده مدينة العلائية المعروفة على ألسنة الناس بالعلايا وأميرها من قبله اسمه يوسف وله مدينة قرشاري وهي عنده على ثلاثة أيام، وأميرها من قبله وأسمه

(١) وهي قسطموني وسينوب ويزغله وحاكمها هو غياث الدين إبراهيم بن سليمان حكم سنة ٧٤٠هـ وبعده يعقوب بن تمر ٧٤٢هـ «معجم الأنساب»، وكصطمونيه من أعظم المدن وأحسنها، كثارات الخيرات، رخصة الأسعار «رحلة ابن بطوطة» ٢١٠.

(٢) سليمان باشا السلطان المكرم، حسن الوجه، طويل اللحية صاحب وقار وهيبة يجالسه الفقهاء والصلحاء «رحلة ابن بطوطة» ٢١١.

(٣) إبراهيم بك ابن السلطان سليمان: هو ولی عهد سليمان ووالی مدينة حينوب «رحلة ابن بطوطة» ٢١٢، انظر: «معجم الأنساب والأسوات الحاكمة» ٢٢٥.

(٤) أكديش: يجمع أكاديش وهي نوع من الخيول تجلب من آزاق ببلاد الروم، والأكاديش معروفة في مصر وهي كالغنم في تلك البلاد «رحلة ابن بطوطة» ٢١٨.

(٥) أرمصال هي بلاد العلايا، وهي أول بلاد الروم ومن أحسن الأقاليم، وجمع الله فيه ما تفرق من المحسان في البلاد فأهلها أجمل الناس وأنظفهم وأطيفهم مطاعم «رحلة ابن بطوطة» ١٨٨.

(٦) ابن قرمان هو والد يوسف وإسحاق وقد كانا في فترة رحلة ابن بطوطة «انظر: الرحلة ص ١٨٩ - ١٨٨» وكانتا في لارندة وسيواس وقونية وأرمناك «معجم الأنساب» ٢٣٦.

إسحاق بك وأولاد قرمان عصبة ذات أيد ويد وجيوش كثيرة العدد وهم أصحاب الحروب التي ضعفت الجبال وأنجت الحرب الحيال ولهم مع الأرمن وببلاد التكفور^(١) وقائع لا يجدها إلا الكفور تتخطفهم عقبانه القشاعم وتلتهمهم أسوده الضراجم، وببلادهم معدن حديد لهم به بأس شديد، ومنه درق مدید وهم أهل بيت ألقى الله عليهم محبة منه، وإذا شاء أميرهم جمع أربعين ألفاً وهو مع ما هو عليه يداري ملوك التتار وهواد هو ومن سلف من أهل بيته مع ملوك مصر لا تغب المكاتبات بينهم ولا ينقطع بذلك خدمته لهم، وإنما لهم عليه واعتدادهم بموالاته وقد كان منهم من طلب تقليداً بمصر بانتسابه ما بيده من بلاد الروم، فكتب له ثم إن سلامش الحاكم بالروم كان انحرف عن سلاطين بيته هولاكو وكتب إلى الأبواب السلطانية بمصر لينال تقليداً بملك حكم الروم أجمعه، وأن تكون أولاد قرمان، ومن سواهم في طوعه فكتب من إنشاء شيخنا أبي الثناء محمود بن سلمان بن فهد الحلبي الكاتب رحمة الله، ومنه:

وبعد:

فإن أولى من أصغت عزائمنا الشريفة إلى نداء إخلاصه، وأجبت مكارمنا العميقة دعاء تميّزه بالولاء واحتضانه، وقابلت مراسمنا استنصاره في الدين بالنفير لإعانته على ما ظفر باقتلاعه من يد الكفر واقتناصه، وتكللت له مهابتنا بالأمن على ملك مذ وسمه باسمنا الشريف يئس العدو من استخلاصه وأدت كتبه / ١٥٩ / في الاستنجاد بسرعان الكتائب، ولمعan القواضب وتتابع إمداد جيوشنا التي تنوء بحملها كواهل المشارق والمغارب، وتتدفق أمواج عسكرنا الذي تندش طلائعها ملوك العد (أين المفر ولا مفر لهارب) وتألق. بروق النصر من خفق أوليتنا الشاهدة بأن قبيلنا إذا ما التقى الجمuan أول غالب، وفوّضت إليه مراسمنا الحكم بالعدل والإحسان، وقلدته أوامرنا من عقود النظر في تلك الممالك ما تود جباء الملوك لو حلّت بذرّه معاقد التيجان، وعقدت به من الأوامر ما تنفذ بنا مواقعه وكذا الأمور المعتبرة ما تنفذ إلا بسلطان من ألقى الله الإيمان في قلبه وهذا إلى دين الإسلام فأصبح على بيته من ربه وأراد به خيراً، فنقله من حزب الشيطان إلى حزبه، وأيقظه من طاعتنا التي أوجبها على الأمم لما أبصر به رشده ورأى قصده، وعلم به أن الذي كان فيه **كشكش**

(١) وهو تكفور ابن السلطان جرجيس «رحلة ابن بطوطة» ٢٢٢.

﴿يَقِيْعَة﴾^(١) لم يجده شيئاً وأن الذي انتقل إليه وجد الله عنده وأنهضه من مواليتنا بما حتم به النهوض على من كان مسلماً، وأخرجهم بنور الهدى من عداد أعدائه الذين تركهم خوفنا ﴿كَانُوا أَغْشَيْتُ وُجُوهَهُمْ قَطْعًا يَنَّ أَتَيْلَ مُظْلَمًا﴾^(٢) وأراه الرشد ما علم به أن الله تعالى أورثنا ملك الإسلام، فبطاعتنيا يتم الإنتماء إليه، وأعطانا مقاليد البسيطة، فمن اغتصب منها شيئاً انتزعه الله بجنوده المسمومة من يديه فليجأ من أبوابنا العالية إلى الظل الذي يلجأ إليه كل ذي منبر وسرير ورجا من كرمنا الاعتصام بجيوبنا التي ما رميـنا بها عدواً إلا ظنـ أنـ الرـمالـ تسـيلـ والـجـبالـ تـسـيرـ، وتحـيـزـ منـا إـلـىـ فـئـةـ الإـسـلامـ وانتـصـرـ بـسـيـوـفـنـاـ التـيـ هيـ يـعـلـمـ كـيـفـ نـسـلـهـ عـلـىـ الـأـحـلـامـ، وـمـتـ إـلـيـنـاـ بـذـمـةـ الإـسـلامـ وـهـيـ أـبـرـ الذـمـ وـطـلـبـ تـقـلـيـدـ الـحـكـمـ مـنـ مـعـادـنـ إـذـ أـرـتـهـ الـنـظـرـاتـ الصـادـقـةـ؛ـ أـنـ كـانـ (يـحـسـبـ الشـحـمـ فـيـمـ شـحـمـهـ وـرـمـ)، وـعـقـدـ بـنـاـ رـجـاءـهـ، وـهـلـ لـمـسـلـمـ عـنـ مـلـكـ الإـسـلامـ مـنـ مـعـدـلـ؟ـ /ـ ١٦٠ـ /ـ وـأـنـزـلـ بـنـاـ كـتـابـ آـمـالـهـ وـهـلـ بـعـدـ رـاـمـةـ لـمـرـامـ مـنـ مـنـزـلـ فـتـلـقـتـ نـعـمـاـ مـنـ مـعـدـلـ؟ـ وـتـسـارـعـ إـلـىـ نـصـرـتـهـ جـنـوـنـاـ التـيـ هيـ مـشـهـورـةـ فـيـ عـدـوـهـاـ وـآـثـارـهـاـ مـشـكـورـةـ فـيـ رـوـاحـهـاـ وـغـدـوـهـاـ، وـأـعـلـامـهـاـ مـنـصـورـةـ فـيـ اـنـتـزـاحـهـاـ وـدـوـنـهـاـ، وـتـوـالـتـ يـتـابـعـ بـعـضـهـاـ بـعـضـاـ تـتـابـعـ الـغـنـامـ الـمـتـرـاكـمـ وـالـمـوـجـ الـمـتـلـاطـمـ تـقـدـمـ عـلـيـهـ بـالـنـصـرـ الـقـرـيبـ مـنـ الـأـمـدـ الـبـعـيدـ، وـتـعـلـمـ بـوـادـرـهـاـ أـنـ طـلـائـهـاـ عـنـهـ وـبـاقـيـهـاـ بـالـصـعـيدـ، وـلـمـ كـانـ فـلـانـ هـوـ الـذـيـ أـرـادـ اللـهـ بـهـ مـنـ الـخـيـرـ مـاـ أـرـادـ وـوـطـدـ لـهـ بـعـنـيـاتـهـ أـرـكـانـ الرـشـادـ، وـشـادـ وـجـعـلـ لـهـ بـعـدـ الـجـهـلـ بـهـ عـلـمـاـ وـتـدارـكـهـ بـرـحـمـتـهـ فـمـاـ أـمـسـىـ لـلـإـسـلامـ عـدـوـاـ حـتـىـ أـصـبـحـ هـوـ وـمـنـ مـعـ سـلـمـاـ ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرِحْمَتِهِ فَيَذَلَّ كَفَّارُهُ﴾^(٣)، وـبـكـرـمـهـ الـعـمـيمـ فـلـيـسـفـتـحـوـاـ صـدـورـهـمـ وـيـشـرـحـوـاـ، وـبـإـرـشـادـهـ الـجـلـيـ وـهـدـيـ نـبـيـهـ، فـلـيـدـعـوـاـ قـوـمـهـ إـلـىـ ذـلـكـ، وـيـنـصـحـوـاـ، وـحـيـنـ وـضـحـتـ لـهـ هـذـهـ الـطـرـقـ أـرـشـدـتـهـ مـنـ خـدـمـتـنـاـ الشـرـيفـةـ إـلـىـ الطـاعـةـ، وـدـلـتـهـ عـلـىـ مـوـالـةـ مـلـكـ الإـسـلامـ الـيـ منـ لـمـ يـتـمـسـكـ بـهـ فـقـدـ فـارـقـ الـجـمـاعـةـ، فـإـنـ اللـهـ تـعـالـىـ قـرـنـ طـاعـتـهـ وـطـاعـةـ رـسـوـلـهـ ﷺـ بـطـاعـةـ أـولـيـ الـأـمـرـ، وـحـثـ عـلـىـ مـلـازـمـةـ الـجـمـاعـةـ فـيـ وـقـتـ يـكـونـ التـمـسـكـ فـيـ بـدـيـنـهـ

(١) إـشـارـةـ إـلـىـ الـآـيـةـ الـكـرـيمـةـ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْنَاهُمْ كُثُرٌ يَقِيْعَةٌ يَحْسَبُهُمُ الظَّمَانُ مَأْمَأَةٌ...﴾^(١) «سـوـرـةـ النـورـ» الآية ٣٩.

(٢) «سـوـرـةـ يـوـنـسـ»: الآية ٢٧.

(٣) سـوـرـةـ يـوـنـسـ»: الآية ٥٨.

«كالقابض على الجمر»^(١) وهذا فعل من أراد الله به خيراً، وسعى من يحسن في دين الله سيرة وسيراً، ولذلك اقتضت آراؤنا الشريفة إمضاء عزمه على الجهاد بالإنجاد وإنفاذ سهمه في أهل العnad بالإسعاف والإسعاد، وأرسلنا الجيوش كما تقدم شرحه يطأون الصحاصح ويستقربون المدى النازح، ويأخذون كل كمٍ فلو استطاع السماك لم يتسم بالرماح، ويحتسبون النفقه في طلب علو الإسلام علمًا أنهم لا ينفقون نفقه صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون ﴿إِلَّا كُثُبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَلِحٌ﴾^(٢)، فرسم بالأمر الشريف لا زال يهب /١٦١/ الدول، ويقلد أجياد العظاماء ما تودّ لو تحلت ببعض فرائده تيجان الملوك الأول أن يفوض إليه نيابة المملكة الرومية تفويفاً يصون قلاعها ويصول به على من حاول انتزاعها من يده واقتلاعها ويجريها على ما ألفت ممالكتنا من أمن لا يروع سربه ولا يقدر شربه، ولا يوجد فيه باع يخاف السبيل بسيبه ولا من يجرد سيف بغي، وإن جرده قتل به، وليحفظ من الأطراف ما استودعه وهذا التقليد حفظه، وليعمل في قتال مجاوريه من العدا بقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يُؤْنَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِي كُمْ غَنَظَةً﴾^(٣) وليعلم أن جيوشنا في المسير إليه متى فصد عدواً سابقته خيولها خيالها، وجارت جيادها ظلالها وانفت سناشكها أن تجعل غير جمام الأعداء نعالها،وها هي قد تقدمت وأقدمت ونهضت لإنجاده فلو سامها أن تخوض البحار في سبيل الله لخافت أو تصدم الجبال لصدمت والشرع الشريف نهيه المقدم وأمره السابق على كل ما تقدم فليعمل مناره ويستشف في أمره أنواره ويعتد أحکامه ويعضد حکامه، ومن عدل عن حکمه معانداً أو ترك شيئاً من حکمه جاحداً فقد برئت الذمة من دمه حتى يفيء إلى أمر الله، ويرجع عن عناده، وينبئ إلى الله فإن الله ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَّاب﴾^(٤) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبِلُ التَّوْبَةَ عَنِ عِبَادِه﴾^(٥).

وكان من حديث هذا سلامش المذكور:

أن السلطان محمود غازان قصد إعدامه فأراد الانحياز إلى الشام، وكاتب الملك

(١) إشارة إلى الحديث النبوى الشريف: «القابض على دينه كالقابض على الجمر» انظر مستند أحمد /٢/. ٢٩٠

(٢) سورة التوبه: الآية ١٢١.

(٣) سورة التوبه: الآية ٩.

(٤) سورة الرعد: الآية ٢٧.

(٥) سورة التوبه: الآية ١٠٤.

المنصور لاجين^(١) وأرسل شخصاً من جهته يعرف بالمخلص الرومي، فأقبل السلطان وأرباب الدولة عليه وقيل: إننا لا نكره من هاجر إلينا، واتصل بالسلطان محمود غازان مراسلة المصريين ببعث إليه عسكراً لمحاربته، فاللتقوا معه ببلاد الروم، فلما التحم القتال خامر عليه / ١٦٢ / بعض من كان معه فبقي في قل من أصحابه وحقت عليه الهزيمة فالتحق بالشامي قل من جيشه، فلما أتى حلب جهز معه من يحضره إلى الأبواب السلطانية بمصر، فلما وصل عومن بالإكرام وعوجل بالإنعم وخير في المقام بمصر إن شاء أو الشام، فذكر أنه ترك وراءه ماله وأهله وأولاده وسأل تجريد عسكر لإحضارهم ليقيم بالبلاد الشامية مقطوع الالتفات عما سواها فجهز معه من العسكر الجلو^(٢) طائفة مع بكتمر الجلمي دخل بهم بلاد الروم على بلاد الأرمن، وبلغ متملك سيس الخبر، وكان عنده طائفة من التتار فأمسكوا عليهم الدروب واعجلوهم باللقاء فما كان بأسرع من أن قتل الجلمي، وفر سلامش ولجا إلى قلعة من قلاع الروم، فأرسل السلطان محمود غازان في طلبه فأحضر إليه فقتله شر قتله وذبحه على غير قبله. وكان سلامش قد خلف بالأبواب السلطانية بمصر أخاً له اسمه قطقطو والمخلص الرومي، فاستقرّ بها وأقطعها إقطاعاً بها وأجرى عليهم راتبه فيها. وإنما ذكرنا حديث سلامش في هذا المكان لتعلقه بالروم؛ لأنّ أمراءبني قرمان هم كانوا المؤلفين بينه وبين المنصور لاجين والداخلين معه أولاً وآخرأ فيه وهو لاء أولاد قرمان هم الذين لا يرتاب في رأيهم، ولا يظن في دينهم فمهما ورد من جهتهم تلقي بالقبول، وحمل على أحسن المحامل.

وكذلك طلب أرثنا^(٣) تقليداً ناصرياً بنيابة الروم وتردد في هذا سراج الدين قاضي قيسارية، فكتب له فأخلص الموالاة وأقام دعوة الخطبة الناصرية على منابر البلاد الرومية وضرب السكة باسم الشريف، وجهز من الدر衙ن المضروبة وذلك كله أظهر طاعة لا إذعان لحكم. ولقد حدثني من تردد إليهم، وعرف ما هم عليه أنهم رجال

(١) المنصور حسام الدين لاجين المنصوري، نائب السلطان قلاوون بدمشق سنة ٦٧٨هـ، تولى السلطة سنة ٦٩٨هـ ولمدة ستين «انظر: تالي وفيات الأعيان ١٣٢، المنجد في الأعلام، ط ١٥ / ٥٤٦».

(٢) العسكر الجلو: عسكر الطليعة، وجلو هي الطليعة من اللغة الفارسية «فرهنگ رازی ٢٠٠».

(٣) أرثنا: أمير بلاد التركمان المعروفة ببلاد الروم أيضاً «رحلة ابن بطوطة ١٥٤» وبنو أرثنا كانوا بسيوس وقيصرية ونيكده وأماسية وقراصار وكمش وقد حكم علاء الدين أرثنا بن جعفر سنة ٧٣٦هـ واستقل بسيوس بعد موت أبي سعيد بهادر وخلفه غيات الدين محمد أرثنا سنة ٧٥٣هـ «معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ٢٣٢».

صدق وقوم صير لا تستخف لهم حفيظة، ولا يرد بحقنها لهم صدور مغيبة. ولهذا أمراء الروم لا يطاؤن لهم موطنًا يغيب ، ولا يواطئون لهم عدة شهور / ١٦٣ / في مشتى ولا مقايس ، وما أحد من يحسدهم على ما آتاهم الله من فضله إلا من يستجيش عليهم بالتنار ويعدد عليهم عظام الذنوب الكبار. ووقاية الله تكفيهم وحياطته عن عيون القوم تخفيهم ، ولقد كان السلطان محمود غازان يقول: أنا أطلب الياغي^(١) شرقاً وغرباً والياغي في ثوبى عن أولاد قرمان ، ومع هذا لم يسلط عليهم ، وحکى لي الصدر شمس الدين عبد اللطيف أخوه النجيب أنه قال يوماً: لو لا الأكراد وأولاد قرمان وتركمان الروم دست بخيلى مغرب الشمس.

قال: وكان لا يريد بعد الشام إلا لهم ومع هذا ما قدر عليهم ، ولو خلا وجهه لما انصر إلى إلهم.

ولما استفحلا أمر جويان بك^(٢) بمملكة إيران وكان هو حقيقة السلطان ، واستولى ابنه تمرتاش^(٣) على الروم وانتزع به عدة ممالك ، وجد في طلب الباقي ، رأت أولاد قرمان مصافحة أبيه جويان واستدفعت به شرّ ابنه طول ذلك الزمان مع ما كان لهم من العناية الإلهية والإعانة من سلطاناً عز نصره. ولو لا هذا لأنّي عليهم ، وسلبوا النفس والنفاس لـما كان عند جارهم العجائز من الاستعداد ولموالة التكفور متملّك الأرمن لرفع الشكوى عليهم في كل وقت ، وتضوره مما ينوب أهل بلاده منهم ، وتضرره مما ينوء به من ثقل وطأتهم ، وكانوا في تلك السنين خائفين يتربّقون المصابحة والمماسة ، وييتظرون القيات والمقيل.

قلت: ولأهل هذا البيت روعة في قلوب التكفور والأرمن. وفي كل وقت يبعث التكفور يسأل بروز المراسم المطاعة إلى أميرهم بالكف عن بلاده وهو لا يغمد سيف جهاده. لا يرعى للأرمن حق جوار ولا يدخل في سمعه لضجيجهم جوار. يشن عليهم في كل وقت غاراته (ويجوس خلال ديارهم) جيوشه وسرابيه وكرسيه مدينة أرمناك

(١) الباغي: كلمة تركية بمعنى المتمرد «فرهنگ رازی ۱۰۳۴».

(٢) كان جويان أمير الأمراء في عهد السلطان أبي سعيد بهادر خان ، وقد استولى على الأمر ، وحجر على تعرفات السلطان حتى لم يكن بيده من الملك إلا الأسم ، وكان ابن جويان المسمي خواجه يفتاك بحرريم والد السلطان ، فقتل أبو سعيد ابن الجويان وثار جويان وأولاده وقتل والي خوارزم جويان وولداً له «رحلة ابن بطوطة ١٥٢ - ١٥٣».

(٣) هو دمرطاش بن جويان وكان قد فر إلى مصر وقتل هناك «رحلة ابن بطوطة ١٥٣».

على ذروة جبل أرزاقه متعددة وخيراته كثيرة وبينها وبين العلاية ثلاثة أيام، ولقد يحكى عن أميرها القائم الآن بدر الدين أنه افتضَّ ألف بكر، /١٦٤/ ويوصف من كرمه أنه يطلق كل ما يملك من صامت وناطق حتى لا يدع له شيئاً ثبتة، ثم يتمول فإذا أثرى أطلق كل ما يملكه حتى لا يدع له شيئاً هكذا دأبه، وبهذا يعرض على الله حسابه.

قلت: ولقد وصل من سنين أخيه الأمير بهاء الدين موسى بن قرمان إلى الحضرة السلطانية، وأقام مديدة بالباب الشريف، ثم توجه لأداء فريضة الحج، وعاد إلى الحضرة وحرّك العزائم الشريفة على قصد الأرمن وارتفاع ما يلي الممالك الإسلامية من نهر جهان، ثم عاد إلى بلاده وعوامل بالجميل في إصداره وإيراده، وأجلس مع أكابر الأمراء أمراء المشورة، وأجرى في تكبير القدر مجراهم وطلب منشوراً سلطانياً ببلاد من مملكة التكفور يولي سيفه انتزاعها واستعادة ضالتها من أيديهم وارتفاعها، فكتب له على ما طلب وما أخذها إلى الآن ولكنه في الطلب.

هذه جملة بمعنى ما ذكره العريان وما انساق في إنبائها من أمور هذه البلاد.

وأما ما ذكره ببيان الجنوي عتيق الأمير الكبير بهادر المعزى، وهو ممن له الخبرة التامة بما يحكى، وهو الذي أفاد كيفية تصوير هذه البلاد. واسم هذا ببيان في بلاده دومانوكين دورياً بن بادا دورياً، وهو من بيت حكم في جنوة^(١) اتفق أنه جمعت بيني وبينه المقادير في الاعتقال وعنده أخذت ما قال:

حدثني: أن هؤلاء أمراء الأتراك الذين بالروم الآن أبناء أمرائها الأول وممن تأخر عن سالف تلك الدول وهم فيها إلى يومنا هذا من بقايا تلك البقية، وممن نضت عنهم بروء الأيام السلجوقية استقرّ بأيديهم الجبل وبأيدي بيته هولاكو السهل وجميع هؤلاء الأمراء الأتراك تقرّ لصاحب كرمان وتذعن له بعض الإذعان وتجريه في كثير من أحوالها مجرى السلطان وتعترف له بالتقديم وله على بعضهم مقرر لا ينقض، وعلى بعضهم هدايا بحسب الأوقات، /١٦٥/ وهو في ظاهر الحال فيهم الملك المطاع والبقاء له أتباع أو كالأتبع تكتابه في معضلات الأمور، وتنيم برأيه، ويقوى بعضهم على بعض بمعاضدته، وتسرب بخلعه وإنعاماته وتقاليده وتكريماته، وهو وإن لم يقدر على إمضاء الولاية والعزل فيهم؛ فإن له عندهم مكانة لا يجهل مقدارها وغاية

(١) كان أهل جنوه أهل سفر وترحال لهم حي في القسطنطينية.

لا ينazu فـيها. وـمع هـذا فـي أمره معهم شـبه بـأواخر الخـلفاء مع مـلوك الـبلاد يـلزم معه قـاعدة الأـدب فـي مـخاطبـتها لـتعظـيم، وـهو مع من غـلب أو كـحال آل سـامـان فـي آخر الزـمان وـهو أـوسع الكل بلـاداً وأـكثـر رـعـايا وأـجنـاداً.

وـأما ما هو لـبيـت جـنـكـزـخـان فإـنه لم يـزل بـأـيدي نـوابـهم مع بـقـايا السـلاـجـقة من غـير زـيـادة عـلـيه وـلا نـقـص مـنـه وـبـيـن هـؤـلـاء الأـتـراك مـداـهـنة لا مـهـادـنة حتـى حـكم تـمـرـتـاشـ بن جـوـبـان فـاستـضـافـ من مـمـالـكـ الأـتـراك إـلـيـه ما بلـغـ قـدـرةـ سـيـوفـه وـهو جـانـبـ كـبـيرـ وـمـمـالـكـ لـهـا قـدـرـ جـلـيلـ.

فـمن ذـلـكـ مـمـلـكـةـ اـبـنـ شـرـفـ^(١) وـمـوـقـعـهاـ فـيـ شـمـالـ الرـوـمـ غـرـبـيـ مـمـلـكـةـ أـولـادـ دـنـدـارـ^(٢) وـجـنـوـبـيـ بـلـادـ اـبـنـ قـرـمـانـ وـشـرـقـيـ بـلـادـ بـيـتـ جـنـكـزـخـانـ بـشـمـالـ. وـكـانـتـ مـسـتـقـلـةـ بـذـاتـهـاـ وـكـرـسـيـهـاـ بـكـشـرـيـ وـعـسـاـكـرـهاـ تـنـاهـزـ سـبـعـينـ أـلـفـ فـارـسـ هـمـ إـلـيـ الـآنـ، وـتـجـمـعـ هـذـهـ مـمـلـكـةـ خـمـسـةـ وـسـتـيـنـ مـدـيـنـةـ وـمـائـةـ وـمـائـةـ وـخـمـسـيـنـ...ـ أـمـسـكـ تـمـرـتـاشـ^(٣) صـاحـبـهاـ وـقـتـلـهـ، وـمـثـلـ بـهـ وـقـطـعـ أـنـثـيـهـ وـعـلـقـهـماـ فـيـ عـنـقـهـ.

وـكـذـلـكـ مـمـلـكـةـ اـبـنـ طـرـغـتـ وـهـيـ غـرـبـيـ اـبـنـ أـشـرـفـ وـكـرـسـيـهـ قـرـاصـارـ^(٤)، وـلـهـ مـدـيـنـةـ سـكـنـجـرـ وـعـسـكـرـهـ خـمـسـيـنـةـ فـارـسـ.

وـكـذـلـكـ بـلـادـ شـجـاعـ الدـيـنـ أـغـرـلـوـ وـمـدـنـهـ لـوـلـيـاـ وـكـمـشـ سـارـ وـعـسـكـرـهـ يـزـيدـ عـلـىـ عـشـرـيـنـ أـلـفـ فـارـسـ وـمـوـقـعـ بـلـادـهـ هـذـهـ غـرـبـيـ اـبـنـ طـرـغـتـ. وـبـلـادـ غـرـلـوـ هـذـاـ لـمـ يـنـتـزـعـهـاـ مـنـهـ بـلـ أـبـقـاـهـ بـيـدـهـ كـأـنـهـ مـنـ قـبـلـهـ. وـهـذـهـ كـمـشـ سـهـرـ هـيـ ذـاتـ مـعـدـنـ تـخـرـجـ مـنـ الفـضـةـ، هـذـاـ مـاـ ذـكـرـهـ هـذـاـ بـلـبـانـ/١٦٦ـ /ـ وـأـمـاـ مـاـ ذـكـرـهـ العـرـيـانـ فـإـنـهـ قـالـ: تـخـرـجـ مـنـ لـوـلـيـاـ وـقـدـ تـقـدـمـ ذـكـرـهـ.

وـكـذـلـكـ أـخـذـ بـلـادـ طـوـغـانـ جـقـ وـهـيـ غـرـبـيـ طـرـابـزـونـ وـجـنـوـبـيـ بـلـادـ سـلـيـمـانـ باـشاـ وـهـيـ مـمـلـكـةـ جـلـيلـةـ ذـاتـ عـمـالـ وـعـسـاـكـرـ.

وـكـذـلـكـ أـخـذـ بـلـادـ سـلـطـانـ نـوـبـيـ وـمـاـ لـهـ مـدـيـنـةـ مـمـدـنـةـ وـإـنـمـاـ هـيـ قـرـىـ مـمـتـلـةـ وـمـرـوـجـ.

(١) وكانت في آتشهر وسيدي شهرى بكشهرى «معجم الأنساب» ٢٣١.

(٢) كانت مملكة أولاد دراندر في مدينة أكريدور وهي على مسافة يومين من آتشهر وكان سلطانها في عهد ابن بطوطة القريب من عهد ابن فضل الله هو أبو أسحاق بك بن الدراندر بك «رحلة ابن بطوطة» ١٩١.

(٣) رواية ابن فضل الله العمري عن رواية ابن بطوطة، فعند العمري صار تمرتاش صاحب مملكة، وعند ابن بطوطة أنه قتل في مصر «الشاذلي».

(٤) قراصان استولى عليه أحمد بن محمد سنة ٧٣٠ - ٧٥٠ هـ «معجم الأنساب» ٢٢٣.

فج مستطيلة. وموقعها بين بلاد سليمان باشا وبين كرميان في مشاريق كرميان ومغاريب سليمان باشا.

وكذلك أخذ بلاد يعقوب وهي قيرا ساري، وجار على كل مجاور، وكان تارةً يصايب بالسيف، وتارةً يداور بالخديعة حتى دوخ الممالك، وفتح المعاقل وامتدت أعماله، واتسعت شعوبه، وكثرت جباباته، وعظم خراجه، وقويت شوكته في ذلك الإقليم، وطلب في وقت الاستقلال بالملك، وخطب لنفسه، وضرب السكة باسمه، وحوى مثل ملك آل سلجوقي أو أجل، وقام بهذا العباء واستقل وقرر به تسع تمانات من المغل، ومن التركمان مثلهم أو أكثر، وصار لا يقاوم ولا يقاول، ولا يحارب ولا يحاول، وما هذا موضع ذكره وإنما ذكرناه لذكر ما بأيدي بيت جنكيزخان من الروم، وقد ذكرناه في موضعه. وأما نقود هذه البلاد ومعاملاتها فتختلف في بلادها باختلاف حكامها واعتيادها.

والذي نذكره الآن ما هو بيد الأتراك الآن خاصة وهو ست عشرة مملكة على ما ذكره بلbian الجنوي، وأجلها مملكة كرميان وهي أقربها إلى ما بيد بيت جنكيزخان. وموقع كرميان منها شمالاً يمتد شرقاً بغرب. وما بأيدي بيت جنكيزخان جنوباً وقد دارت عليها ممالك الأتراك من شرقها فطافت نطاقاً وراء نطاق؛ فالنطاق الأول وهو الأقرب إليها المماس لحدودها من شرقها ثلث ممالك أخذت من الجنوب إلى الشمال كأنها قوس يفصل بينها وبين بلاد كرميان جبل متعد على هذه الهيئة.

وأول هذه الممالك الثلاثة مما يلي الجنوب جبل القسيس وهو جبل عظيم منيع، مشجر بأنواع الفواكه، وكل أشجاره مثمرة، وقنة هذا الجبل ومنفوحه مسكنة، ويمشي في طوله عدة أيام بغير زاد ولا ماء. فيه من كل الثمرات / ١٦٧ / رزقاً من عند الله لا بغرس غارس، ولا باحتاجز مالك، بل هو مباح لمن أكل وحمل من سبق إليه اجتنى، ومن وضع يده على شيء من شجرة اقتنى. هو من عجائب الوجود وغرائب ما منّ به الإله المعبد.

وفي آخريات هذا الجبل مملكة طغولو في شمالية.

ثم تليها في شماليتها مملكة توازا.

ثم تليها في شماليتها مملكة عميدلي.

ثم تنتهي مملكة الأتراك هاك إلى ما كان يهد ابن أشرف، وأخذه بيت جنكيزخان. ثم يلي هذه الممالك على شرقها النطاق الثاني وهو اثنتا عشرة مملكة آخذة عليها من الجنوب إلى الشمال كأنها قوس يفصل بينها وبين تلك جبل ممتد على هذه الهيئة، فهذه خارج تلك الممالك الثلاثة، وتلك الممالك الثلاثة خارج كرمينان، وكرمينان خارج بيت جنكيزخان. وهذه الممالك الاثنتا عشرة التي أشرنا إليها أولها مما مال إلى الجنوب مملكة كصطمونية.

ثم تليها مملكة قاويا.

ثم تليها مملكة برشا.

ثم تليها مملكة أكيرا.

ثم تليها مملكة نيف.

ثم تليها مملكة مغنيسيا.

ثم تليها مملكة مرمرا.

ثم تليها مملكة برركي.

ثم تليها مملكة فوكه.

ثم تليها مملكة أنطاليا.

ثم تليها مملكة قراصار.

ثم تليها مملكة أرمناك، وهذا نحن نذكرها مفصلاً:

* * *

الفصل الأول: في مملكة كرمينان

وهي مثل قرن الجاموس أحاط بها جبل في مشاريقها كالقوس أخذ عليها جنوباً بشمال، وأحاط بها في مغاريبها جبل آخر غرباً بشمال، ثم عطف مشرقاً ثم أخذ شمالاً بغرب حتى لاقى الجبل الأول، فاجتمعا فكان كأنه قرن الجاموس فسبحان الخلاق العظيم. وهذه المملكة قد تقدم من ذكرها ما فيه مقنع وينزل من جبلها الغربي نهر مندروس الأعظم، وهو إذا نقص كان كالنيل فاما إذا زاد في البحر زاخر لا له أول ولا آخر، وهو يشق هذه البلاد، ويبحر في وسطها بحيرة جليلة نافعة، يصطاد بها الحيتان وتتنزه فيها أهل تلك الديار، ثم يمضي مندروس على مقطع في الجبل الشرقي

حتى يخرج / ١٦٨ / إلى بلاد طغولو ثم يمر عليها، ثم يخرج إلى بلاد بركي، ثم يصب في البحر المالح الماد من الخليج القسطنطيني إلى مانيطش، وهذا نهر من دروس مجراه السفن والمراكب تصعد وتنحدر فيه وتخرج منه إلى الملح ومن الملح إليه ولأهل تلك البلاد به مرافق في الأسفار ومنه تتجهز الغزاة والتجار وهو قاطع البرد لا يكاد يتغير ولا يؤثر الهواء إذا سخن فيه لكتمة مائه واتساع جوانبه.

وصاحب كرميان هو أكبر ملوك الأتراك وله تسلط على الجميع، وتبسط في ملكهم الواسع وكرسي ملكه مدينة كوتاي^(١) وهي مدينة كبيرة ذات قلعة جليلة، وأعمال واسعة ورساتيق من كل مكان، وببلاد ذات دواب سائمة، وعمار وسكان، ويقال: إن له نحو سبع مائة مدينة وقلعة، وله عساكر كثيرة.

قال العريان: له أربعون ألف فارس مدionate، وقال بلبان أضعافها وأكثر، فقال: إنه إذا جمع وحشد جمع مائتي ألف مقاتل ما بين فارس وراجل ورماح ونابل، قال: وهم أهل حرب وقتل ومصالحة واحتياج، ولهم عدد حصينة وسلاح للحرب وللزينة من الفولاذ والمجوهر والأطلس الأحمر وما يذهب هذا المذهب، ولهم مال جم من صامت وناطق ونعم لا يحصيها إلا الخالق، وخيلهم نهاية في الروميات لا يسبقها سابق ولا يتعلق بغارها الغراء ولا يلحقها لاحق مسومة عندهم بما غلا من الأثمان معروفة بينهم، هذا أمي فلانة وهذا أبوه فلان وله على صاحب القسطنطينية أتاوة مقررة نحو مائة ألف دينار قسطنطينية في كل سنة ويتحفه معها بتحف فاخرة وهدايا مستحسنة وهو في كل وقت يعرض جبوشه بالخيل والعدد والسلاح ويستعد ويدع أماكن الحرب والكافح، وله أمراء ووزراء وقضاة وكتاب وحاشية وغلمان وخزائن واصطبلات / ١٦٩ / ومطابخ وبيوت^(٢) ورخت ملوكية وهيأة سلطانية وأبهة ملوكية، وله مدينة كمش ساري^(٣) مدينة الفضة وهذه غير ما بأيدي بيت جنکرخان وهو معدن كثير المتحصل، جليل الفائدة جزيل العائد، أعظم من الذي بأيدي بيت جنکرخان، وأجود فضة

(١) هي كوتاهية وحاكمها هو محمد بن يعقوب بن علي شير (كرميان خان) استولى على الحكم سنة ٧٠٦ هـ وظل حتى سنة ٧٧٩ هـ «معجم الأنساب» ٢٢٧.

(٢) الرخت: الفرش، كلمة فارسية وتركية تعني سرج الحصان «فرهنگ رازی» ٣٩٢.

(٣) هي من بلاد ملك العراق، مدينة كبيرة عامرة، بها معادن الفضة «رحلة ابن بطوطة» ١٩٨.

وأسهل مكاناً وأهون تخليصاً واستخراجاً، وكذلك بها معدن شبة بيعان منه بحمل أموال، وله مدينة سركوى وهي مدينة لا تزرع إلا الأرز. وأهل هذه المملكة كرام، ولكنهم لا يفكرون في حلال ولا حرام، أهون ما عليهم سفك الدماء وإراقتها، تنهل كمزاؤد الماء لا يبالون بما فعلوا، ولا يعبأون بمن قتلوا لهم في كل أوان موارد دماء مسوغة ومعاهد أعداء بأنيات الأسنة مضغة. لا تروى في الحروب سيوفهم العطاش، ولا يروى لوبيل نبلهم رشاش ولا تزال ظباء الروم تتکاثر من سيوفهم على خداش. ضجر الحديد، ولم يضجروا، ومضت أعمار الأيام وما قالوا ولا هجروا. ما لهم سوى ما هم فيه التذاذ ولا بغير أن تخرج وجوههم وهي سواهم معاذ ولأهل هذه الدولة تصرف في أنواع المعاش والأسباب وأصناف الاتكاسب.

قال: وأما لبسهم ولبس جميع الروم فهو زي واحد لا يكاد يختلف. ودرهم هذه المملكة نصف وربع درهم فضة خالصة، والرطل بها زنته تحريراً ثلاثة آلاف ومائة وعشرون درهماً. وكيلها تسمى المد^(١) وهو نحو اربب وربع مصرى تقريباً. هذا ما قاله فيه بلبان، وقد تقدم ما قاله العريان. قال: وأما السعر المتوسط فمد القمح خمسة عشر درهماً وكذلك الشعير أو دونه بقليل واللحم كل رطل بدرهم واحد، وأما الفواكه والألبان والأعمال فرخيصة جداً. وأوقات الرعايا وال فلاحين والزارع طيبة، لأنهم فيها في بكر مفضضة وأصال مذهبة. ومن جملة بلاد ابن السايب وهذا ابن السايب صاحبها / ١٧٠ / هو صهر صاحب كرميان ولو لا مصاهرته له ما كانت بقيت له إلى الآن؛ لأن بلاده هذه هي خارجة عن كرميان مجاورة لها من غربها وهي من بلاد بيت جنكزخان في شرقها. ولما امتد تمرناش إلى من جاوره من الأتراك وأخذ بلادهم ارتمى هذا إلى صاحب كرميان، وانتمى إليه وصاهره وقوى على تمرناش بيده القاهرة واعتصم به ونامت عينه الساهرة واستمر على مصافاته الظاهرة، وامتنع على من جاهده وجاهره وكرسيه قراساري وهي مدينة مشهورة يحيط بها وببلادها جبل استدار عليها استدارة الحلقة وأحاط بها إحاطة العين بالحدقة وحكمها اليوم حكم بلاد كرميان. وابن السايب وإن كان صاحبها فهو الآن كأنه من قبله فيها، وليس له مدينة سوى قراساري، ولها ألف قرية وعسکره يقارب أربعة آلاف فارس وببلاده

(١) المد: مكيال قديم اختلف الفقهاء في تقديره بالكيل المصري، فقدره الشافعية بنصف قدره المالكية بنحو ذلك، وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز، وعند أهل العراق رطلان، جمعه أمداد ومداد. «المعجم الوسيط» / ٢ / ٨٩٣.

حصينة بما أحاط بها من الجبال وشمخ من ذرائبها التي سما بها فرع إلى النجم لا ينال.

* * *

الفصل الثاني: في مملكة طغلو

وهي أول النطاق الأول وهذه المملكة صاحبها اسمه يلنجد^(١)، ويشقها نهر مندروس وهي إلى جانب جبل القسيس في غربه بشمال، وموقعها جنوبى ما بين مرمر إلى بردى ومدينة طغلو كرسية، وكأنها دمشق في تصوير خطه وبساتين حولها مختطة لكنها أكثر من دمشق ماء وفاكهه، وأوسع غوطه لكن ليس لصاحبها مدينة سواها ولا عمل إلا إياها إلا أن لها عدة قرى وضياع ليست بكثيرة ولا كثيرة ازدراع. وأكثر ما فيها من الفاكهة الرمان وهو على عدة ألوان وبيع ألف بدرهم وكله بلا عجم له مكسر وأنه شرار نار أو بهرمان أدرج في ثوب نضار، أو مدامع عشاق في نهود أبكار، وهو في غاية الكثرة والرخص ولذادة المأكلي، ويعتصر ماؤه ويعمل منه دبس إذا ترك هو والعسل أبهم / ١٧١ / الفرق ما بينهما، وأشكال، ويعمل منه شراب أشد إسکاراً من الخمر وأقرب إليه مشابهة مما يعمل من التمر وهم أكثر معاطة له من الخمر على كثره عندهم وما ذاك إلا لأمر. سالت بلبان عن السبب في هذا مع إجماع العقلاء على تفضيل الخمر على كل مسكر، فقال: إنه لا يعلم السبب، ولا يوجب الحب لها إلا مضاحكة الحبيب. قال: وأهل هذه البلاد كأنما خلقوا لارتفاع كؤوس، ولإماتة نقب عن شموس فما لهم غير اغتيال كأس من معين، واعتناق مائش من قددود الخرد العين، فهم أبداً في بلهنية من الوطر، وأمنية مع الظفر ولأميرهم عليهم عدل لا يشكون معه إلا جور الساقي ولا يخافون معه إلا عقرب صدغ أعزت الرافي، أو دم عاشق يطل، وعلى خدود الغانيات الباقي، قال: وأكثر ما تكون القرى والضياع بطنغلو أربعمائة قرية كلها في حواضرها القرية، ولصاحبها نحو عشرة آلاف فارس ورجل ودرهمهم نصف درهم فضة خالصة، ورطلهم نحو سبعة أرطال بالمصري، ومدهم نحو نصف وربع اردب وأسعارها مشابهة لكرمينان ومقاربة لها في اختلاف كل أوان.

(١) هو شجاع الدين تنج بك علي بك، حكم سنة ٧٣٥ هـ «معجم لأنساب ٢٢٩».

الفصل الثالث: في مملكة توازا

وهي ثانية النطاق الأول، وهذه المملكة صاحبها علي أزية، وهي تقع شرقى كرميان محضاً، وموقعها ما بين جنوبى بردى إلى فوكه وكرسيه توازاً، ولصاحبها أربع قلاع ونحو ستمائة قرية، وعساكره نحو أربعة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل ودرهمهم ورطلهم ومدهم مثل كرميان وهو كثير الترامي إلى صاحب كرميان والأهل هذه البلاد حسن بديع ببياض وحمرة كأنه ضربها لين وخرمة مع لين بشرة وصهوبة شعر كان عليهم ثوب صباح مسبول، أو على ضفائرهم برادة ذهب مسحول مع حلاوة تأكل النظر ويأكلها، وبهجة توقد جمرات الحسن وتشعلها.

* * *

/١٧٢/ .

الفصل الرابع: في مملكة عميدلي

وهي ثلاثة النطاق الأول، وهذه المملكة صاحبها دندار^(١) أخو يوتى صاحب أنطاليا، وكرسيه مدينة بولو^(٢) وهي أم إقليم عميدلي وموقعها من فوكه^(٣) إلى قراصار^(٤) ولصاحبها أيضاً إقليم يلواج وإقليم قراغاج وإقليم أكراى دور، وهذه بلاد مدنهما قليلة وقرها كثيرة ومداها متعد. يقال: إن له تسع مدن وخمس عشرة قلعة وعسکره خمسة عشر ألف فارس ومثلهم رجاله، وهو في كل وقت يتفقد فرسانه ورجاله ويتأهب للحرب ويتوسّع مجاله ويقاتل العدو ويذهب للسيوف آجاله، وهذه هي آخر الممالك الثلاثة التي تلي كرميان، وهي نهاية ما أخذ إلى الشمال وبها تم النطاق الأول ونحن نعقبها بذكر الممالك التي تليها، وهي النطاق الثاني عليها

(١) الدندار بك من كبار سلاطين تلك البلاد، خلفه ابنه إسحاق بك «رحلة ابن بطوطة ١٩١» وهو ينسبون إلى حميد بك أو فلك الدين دندار الذي حكم الروم من قبل المغول سنة ٧٢٤ هـ وقتلته تيمور تاش «انظر: معجم الأنساب ٢٢٩».

(٢) ذكر ابن بطوطة أن مدينة بولو مدينة صغيرة على تل تحتها خندق، ولها قلعة بأعلى شاهق وأميرها على بك بن سليمان باد شاه.. أما ابن الدندار فكان في أكريدور «٢١٠ و ١٩١».

(٣) هي فوجة على ساحل البحر على مسيرة يوم من مغنية «رحلة ابن بطوطة ٢٠٣».

(٤) يقصد أكريدور: وهي مدينة عظيمة، يسافر المركب فيها يومين إلى أشهر وسلطانها ابن الدندار «ابن بطوطة ١٩١».

في شرقها وعدتها اثنتا عشرة مملكة وأولها هو ما نذكره الآن.

* * *

الفصل الخامس: في مملكة كصطمونية

وهذه هي مملكة سليمان باشا وهي الآن لولده إبراهيم باشا وكان في حياة أبيه صاحب سنوب^(١) ثم جرت له مع أبيه أمور لا حاجة بنا إلى ذكرها إلى أن ملك واستمرت سنوب له مع ملك أبيه، وولى سنوب من قبله وهذه هي شمالي بلاد طوغان جق وماجاورها وجنوبي بلاد سلطان بوي المصاقبين لممالك بيت جنكيزخان وهي أولى الممالك الإثنى عشرة المشار إليها من المشرق، وهذه المملكة على ضفة بحر نيطش وقبالتها جزيرة زك، ومن ركب البحر من سنوب خرج إلى سوداق^(٢) لأنها أقرب مدن ذلك البر إليها، ويقع طرف بلاد طرابزون الشرقي على أول حد هذه البلاد ولأجل هذا تقصد هذه الأرض لجواز البحر إلى بر القبجاق^(٣) وببلاد الخزر والروس والبلغار وكرسي هذه المملكة مدينة كصطمونية^(٤) ولصاحبها نحو أربعين مدينة وقلع مثلها أو أزيد وعسکره نحو خمسة وعشرين ألف فارس وخيلهم هي النهاية في جنسها ١٧٣ / والغاية في نفسها، وقد تقدم القول في ذلك وبها البغال والبزة^(٥) وال Shawahin^(٦) في غاية من الجودة، وهي منفردة بمحاسن هذه الأنواع، ومنها تشتري وتبتاع وحسنها لا مخالفة فيه ولا نزاع. وأما الجمال فلا توجد عندهم البطة قد عدم العربي منها حظه، والبختي^(٧) بخته؛ لأنها بلاد جبال وغرة يوذ كل متعلق بها لو تعلق بشعرة، وملوك هذه المملكة لهم مع ملوكنا ملوك مصر انتظام وتشرف بمواهبهم الجمة وأيديهم العظام وتابعت رسليهم إلى سلطاناً مدد الفجاج، ونظرت لديه إلى سماء العليا من وراء زجاج، واستنصرت بها على الأعداء وهي قاطعة البحر الأجاج

(١) جينوب: مدينة يحيط بها البحر من ثلاث جهات «رحلة ابن بطوطة ٢١٢».

(٢) سوداق: هي سرقة مدينة على ساحل البحر من أعظم المراس وأحسنها، وبخارجها البساتين والمياه «رحلة ابن بطوطة ٢٢٩».

(٣) القبجاق: الفجق طائفة على دين النصرانية في أيام ابن بطوطة «انظر: رحلته ٢١٤».

(٤) كصطمونية: هي قصطمونية من أعظم المدن وأحسنها «رحلة ابن بطوطة ٢١١».

(٥) البزة: جمع مفرده باز نوع من الصقر.

(٦) الشواهين: جمع مفرده شاهين، من الصقر.

(٧) البختي: نوع من الإبل الخراسانية جمعها بخت وبختي وبختات «المعجم الوسيط ٤٢/١».

وعادت عليهم الأجوبة الشريفة بقطع الحجاج أو الحجاج وهم حتى الآن في الدولة القاهرة الناصرية، وفي حزبها وفي حسب ذبها، وأما رعايا هذه البلاد فهم أهل طاعة لأمرائهم، وإقبال على مصالح دولتهم ودرهمهم نصف درهم فضة خالصة، ورطلهم نحو ستة عشر رطلاً بالمصري، ومدهم نحو إربب مصرى، وأسعارهم نحو كرميان.

* * *

الفصل السادس: في مملكة قاوايا

وهي الثانية من النطاق الثاني وصاحبها مراد الدين حمزة ومملكته تجاور سمسون من غربها، وببلاد سليمان باشا المقدم ذكره جنوبها، وجبل القسيس غربيها، وببلاد طريق السفار إلى سمسون. وسمسون هي شرقى هذه البلاد خارج الجبل المار على مشاريق بلاد الأتراك بالروم على ضفة بحر نيطش. ومن ركب البحر منها إلى بر القفقاق كان خروجه على الكفا^(١) أقرب عليه، وتبقى زك جنوبية، وعلى بلاد هذا مراد الدين حمزة أكثر طرق المترددين من التجار والسفار المتوجهين من مصر والشام إلى تلك البلاد وكرسيي هذه المملكة مدينة قاوايا، ولصاحبها عشر مدن ومثلها قلاع وعسكره نحو سبعة آلاف فارس، فأما الرجال فكثير عددهم متى اراد استجاش بهم، وجمع ١٧٤ / أممًا وشرع أسنةً وهمما. وليس للأعداء معه طالعة ولا لهم في رداء ملكه منازعة. لا تفرزن البياذق مع رخاخة، ولا تتجاسر العصافير أن تسقط على فخاخه، وأهل هذه البلاد قوم أمنة لا يستحيل بودهم يوم ولا سنة. ودرهمهم ورطلهم ومدهم وأسعارهم مثل كصطمونية بل هي لكثرة الأجلاب لا تقاد تكون مغلية.

* * *

الفصل السابع: في مملكة بُرشا

وهي الثالثة من النطاق الثاني وصاحبها أرخان بن طمان، وكرسيه مدينة برسا^(٢)

(١) الكفا: مدينة عظيمة على ضفة البحر «رحلة ابن بطوطة ٢١٤».

(٢) برسا: هي برصا، مدينة كبيرة عظيمة حسنة الأسواق فسيحة الشوارع تحف بها البساتين من جميع جهاتها، سلطانها اختيار الدين أرخان خان وهو ابن السلطان عثمان جوق وهو من أكبر ملوك التركمان وأكثُرهم مالاً وبلاداً وعسكراً. «رحلة ابن بطوطة ٢٠٥».

وموقعها شرقي بلاد مراد الدين حمزة، وغربي بعض سمسون، وبعض سنوب وجبل القسيس غربيها، ولصاحبها خمسون مدينة وعند قلائعه أكثر من ذلك، وعساكره نحو أربعين ألف فارس، وأما الرجالات فلا تكاد تعدّ خصوصاً إذا استجاش وحشد وحاش لكن يقال: إنه قليل غناهم تهول صورتهم لا معناهم. وهو كثير المسالمة لمنجاوره والمناصرة لمن ناصره، ومع هذا له حروب سجال ودؤوب في أرغام أنوف رجال وخيول تقتنص عليها الأرواح فرسان عجال. وإنما قلة غناء عساكره لعدم استقامة الرعية ومشاقه بعض المجاورين له. يقال: إن رعاياه أخبار تنطوي بواطنهم على الغل، وعمائهم على المكر ثلاثة. وهذه البلاد درهماها وزن الدرهم الكامل وهو فضة خالصة، ورطلها ومدها مثل كرميان وسعها أرخص في غالب الأوان. وفي هذه البلاد ثلاثة حمة يطلع منها الماء الساخن الناضج، ويقصدها المرضى بالبلغم البارد والفالج ليغتسل فيها ويستشفى بها وغالبهم ييرأ بإذن الله عز وجل ويجد الشفاء والصحة عليها.

قلت: وهذه الحمات كثيرة في البلاد وأقطار الأرض، ولكنني لا أعرف اجتماع هذا العدد الكبير في مكان واحد سوى هذا وأظنه لأن تكون هذه الأرض كلها كبريتية سوّاحة. فلهذا كثرت فيها هذه الحمات. / ١٧٥ / هذا ما اتصل بنا علمه (وفوق كل ذي علم عليم) والله أعلم بغييه.

* * *

الفصل الثامن: في مملكة أكيرا

وهي رابعة النطاق الثاني وصاحبها دمرخان بن قراشي وببلاده تجاور بلاد أرخان آخذة إلى الشمال وجبل القسيس جنوبها على تغريب وسنوب شمالها وهي طريق من طرق سنوب، وهذه المملكة مدنها وقلاعها وعساكرها أكثر من بلاد أرخان وأهلها أطول باعاً في المكنته والمكان والإمكان، وصاحبها ذو حرب ويد وأيد وقوة لا تدفع بكيد، وله في البحر مع الروم حروب تطير بها السفائن، وتهتز لها المدائن. كم طاروا من الغراب على جناح، وسخر لهم في سبيل الله ما سخر لسليمان من الرياح، وهذه البلاد يخرج منها ما لا يحصى من الحرير واللاذن، ويحمل إلى بلاد النصارى منه وحريرها يوافق الديباج الرومي والقماش القسطنطيني، ومنه يعمل غالبه، ودرهماها مثل الذي قبله، ورطلها ثمانية أرطال بالمصري ومدتها نحو إربد ونصف، وأسعارها

رخيبة جداً على حال واحد لا تكاد تتجاوزه ولا تعدى.

* * *

الفصل التاسع: في مملكة مرمرا

وهي خامسة النطاق الثاني وصاحبها يحسى بن قراشي أخو دمر خان^(١) المقدم ذكره. وبلاده جوار بلاد أخيه غرباً بشمالي وطرف بلاده جنوباً على شمالي طغلو ولصاحبها نحو خمسة عشر مدينة ومثلها قلاع وكلها على جبال شاهقة على البحر المالح وعسکره نحو عشرين ألف فارس ولا رجاله له وهو مثاغر للروم وله معهم ثارات يقعد فيها ويقوم، وعسکره نفاع له قوة ودفاع وقد ذلت لهم المراكب فامتطوا في البحر متونها وأطاروا غربانها وأجرروا نونها. ولهم أسطول مجهر للركوب على ظهور السفائن والتصريف بها كالصوافن طالما صبح بلاد الروم منها غراب ناعق وسيح راكبها وتعجب لقدرة الخالق، وزحفت لها /١٧٦/ مدن، ورجفت لها أعداء إلا أنه من الجن وأهل هذه المملكة غزاة لا تستكين سراة حصانهم ولا تلين سراه. لا ينزل لهم بلد عن جواد ولا قلع عن سفين. لا يحجبهم عن بلد سوره ولا عن ساكن برّ خباءه ولا يغلبهم سرب يقتنص بهم من الروم جاذبه ومن الخزر ظباءه. وهذه البلاد درهمها نصف درهم فضة خالصة، ورطلها أربعة أرطال بالمصري، ومدتها اردب واحد، وسعها رخيص، والرقيق بها لكترة السبي كثير، ولا تخلو لأجل هذا من تجار وجلابة، ومن دخل في هذه الباب.

* * *

الفصل العاشر: في مملكة نيف

وهي سابعة النطاق الثاني وصاحبها علي باشا أخو صاروخان وهو جاره في المكان وكرسيه مدينة نيف وبلاده شمالي طغلو وجنوبي بيدرون. وهذه بيدرون شماليتها من خارج الجبل الشرقي المحيط ببلاد الأتراك خارجة في البحر ولصاحبها ثمانية مدن ونحو ثلاثة قلعة، وعسکره ثمانية آلاف فارس وخلق كثير من الرجال أكثرهم رماة نبالة، ومملكته كلها على قفن الجبال لا يلحقها الغمام بريشه ولا يلحقها نسر السماء لتعيششه تهوى وفود الرياح دون أوديتها وتستقى السحب فائض أبنيتها،

(١) دمور خان حاكم يلي كسرى «رحلة ابن بطوطه ٢٠٤».

ولا يمر بها البرق إلا وهو مجتاز، ولا البدر إلا وهو على أوفاز تميل قبل رؤيتها العمائم وتتوسوس وعليها من النجوم تمائم، ودرهمها ورطلها ومدها وسرعها من نسبة مغنيسيا.

* * *

الفصل الحادي عشر: في مملكة مغنيسيا

وصاحبها صاروخان^(١) وكرسيه مغنيسيا^(٢)، وهذه البلاد تجاور مملكة يحسي غرباً بـشمال، وجنوبها طغلو، وقبالتها في البحر جزيرة كنول. ولصاحب هذه المملكة نحو خمسة عشر مدينة وعشرين قلعة، وعسكره يزيد على عشرة آلاف فارس وهم أهل حرب وطعن يضيق به فم الدرب، ومنهم غزاة في البحر لأنهم الملوك على الأسرة ١٧٧ / لا تهبل لهم غرة. وحالهم في هذا مثل حال جارهم الأول، ولكل منها جهاد عليه يعول، ودرهمها ورطلها ومدها وسرعها كذلك ومن نسبة ما قبلهم أو ما يقارب ذلك.

* * *

الفصل الثاني عشر: في مملكة بركي

وهي ثامنة النطاق الثاني وصاحبها ابن آيدين^(٣) وكرسيه مدينة بركي^(٤)، وموقعها شمال طغلو وتوازاً وجنوب ندرقل. ولصاحبها نحو ستين مدينة^(٥) وثلاثمائة قلعة أو أزيد، وعسكره سبعون ألف فارس أشلاء حرب وكفاح وعرضة سيف ورماح، ولهم مع الروم والفرنج وطوائفبني الأصفر حروب عظيمة وأيام لها غرر وحجول معلومة، ضج البر والبحر من وقائعها ومج السجايا ما تصعد إليه من نقائعها. لا تهدأ لهم مضاجع ولا تراهم إلا بين متأهب لغزو وآخر راجع. سدوا فروج البر خيلاً، وأوقروا صدور البحر سفناً، وجرروا الكتائب ترسي على هذا جبالاً وتسري على ذاك مدنًا، وكل ملوك الأتراك في غزوات الكفار عليهم عيال، وبسيوفهم المهندة الذكور

(١) صاروخان: في سلاجقة أوج، أميراً حكم من سنة ٧٤٦هـ إلى ٧٠٠هـ «معجم الأنساب» ٢٢٦.

(٢) مغنيسيا: مدينة كبيرة حسنة في سفح الجبل «رحلة ابن بطوطة» ٢٠٣.

(٣) محمد بن آيدين: من خيار المسلمين وكرمائهم وفضلائهم «رحلة ابن بطوطة» ١٩٩.

(٤) بركي، مقر حكمها بها، محبي الدين، والقاضي عز الدين فرشتي «رحلة ابن بطوطة» ١٩٩.

(٥) منها: أريا، وصرت، وكوشك، وقرافة فيونلو، وأفچشهر، وبلين بولي «معجم الأنساب» ٢٢٧.

تلحق الحرب الجبال لا ترضى إلا بصيد المهج، ولا يقضى يوم إلا بقتيل لها لا إثم فيه ولا حرج، كأنما كونوا من جناح غراب أو صهوة، أو خلقوا لمطلية بقار أو أدهم. لا تفرغ لهم شمال ولا يمين. هذه بعنان جواد، وهذه بقلع سفين. ولهمابتهم في قلوب ملوكبني الأصفر ما يخلج به ضمائرهم ويختلف إلا في الإجماع عليه سرائرهم. وإذا قيل: إنه قد تحرك منهم متحرك ظنت أنه يريد نفوسها وشكت في حياتها حتى تلمس رؤوسها. بيدتها وملك هذه البلاد أثابه الله تعالى، وجنوده أجمعون على هذه العزيمة لا يفلّ حدها ولا حديدها، ولا يكف والدها ولا ولیدها، وهم سبب كثرة السبي، ومن يجلب إلى الآفاق من أولاد الروم ونسائهم، فامدهم الله بالظفر، وأعلى كلمتهم على من كفر. وهذه البلاد درهمها ومدتها نحو مملكة صاروخان، فاما رطلها فستة عشر / ١٧٨ / رطلاً بالمصري وأسعارها رخيصة وثمارها مما يحمل البحر وتنبت الأرض سخية.

الفصل الثالث عشر: في مملكة فوكه

وهي تاسعة النطاق الثاني وصاحبها أورخان بن منتشا^(١)، وكرسيه مدينة فوكه^(٢) وموقعها شمالي توازا، وفي شمالي مشاريقها جزيرة دفنوسه وقبالة هذه البلاد جزيرة المصطكي، تقع وراء بلاده سواء بسواء، ولهذا صاحب فوكه نحو خمسين مدينة^(٣) ومائتي قلعة وحصن، وعساكره مائة ألف أو يزيدون وله سيف لا يألف غمده ولا يكف حده، يقاتل من عاده، براً وبحراً، ويختال من نواهه مسلماً كان أو كافراً، يركب السفن والخيل، ويخوض النهار والليل لا يطمئن به وساد ولا يستكن له مفرش جهاد، ولا يزال له ولأعدائه وقائع تشيب مفرق الوليد، وتذيب قلب الحديد، ويبنيت الدهر منها على وعد أو وعيد يبيث سراياه في كل صوب، ويبحث مطاياه في البر والبحر في كل توجه وأوب. فما رأت الكفار خيله إلا طفت تننهد ولا أقبلت طلائعه على سفائنها إلا ورفعت سبابات صواديها تتشهد. وهذه العساكر ميمونة النقية سعيدة الحركات قل أن توجهت إلى جهة إلا وظفرت بمرادها وبلغت قصدها من أعدائها. وهذا هو المعروف منهم والمستفاض حديثه عنهم لا

(١) في رحلة ابن بطوطة ١٩٤ انه حاكم ميلاس وليس فوكه.

(٢) فوجة: مدينة للكفار على ساحل البحر على مسيرة يوم من مгинيسة، أهلها يبعثون هدية في كل سنة إلى سلطان مгинيسة. «رحلة ابن بطوطة ٢٠٦».

(٣) منها: معلا بالاط، ومبلاس، ومكري، ومرموس. «معجم الأنساب ٢٣٠».

يخالف في هذا ممن يعرفهم مخالف، ولا يخالط في هذا شك عندهم في حديث ولا سالف، ولا ظمّ من يداريه صاحب كرميان من أمراء الأتراك سواه ويداهنه ويقنع بأيسير موالاة منه، ولا يقدم عليه إلا صاحب كرميان، فأما كل من سواه فدونه قدرًا ومكانة وله عليهم المزية والمزيد. ودرهم هذه المملكة ورطلها ومدتها وأسعارها مثل كرميان.

* * *

الفصل الرابع عشر: في مملكة أنطاليَا

وهيعاشرةالنطاق الثاني وصاحبها خضر بن يونس^(١) وكرسيه أنطاليَا^(٢) وهي شمالى مملكة عميدلى بلاد ابن دندار، وهي على ضفة البحر والسفر إليها ومنها /١٧٩ والأخبار عليها وعنها، ولصاحبها اثنتا عشرة مدينة وخمس وعشرون قلعة، وعسکره ثمانية آلاف فارس، وليس بأهل حرب طائل ولا منهم هائب ولا هائل، ودرهمها نصف درهم فضة خالصة، ورطلها أربعة أرطال بالمصري، ومدتها اردب واحد.

* * *

الفصل الخامس عشر: في مملكة قراصار^(٣)

وهي حادية عشر النطاق الثاني، وصاحبها زكرياء وهي مملكة ضيقه إلى غاية، وهي شمالى عميدلى بغرب ، وكرسي صاحبها قراصار، وله ثلاث مدن واثنتا عشرة قلعة على ضيق الرقعة وقرب مدي البقعة، وعسکره ألف وخمسمائة فارس وكان أصل هذا زكرياء مملوك يونس صاحب أنطاليَا، ثم لما مات تقوى على ولده وغالبه فغلبه وأخذ الملك بيده، ودرهمهم ورطلهم ومدتهم مثل أنطاليَا، وهذه البلاد من ملك مقطعة، ومما كان في يد مالكها مرتجعة.

* * *

(١) خضر بك بن يوسف بك بن يونس «رحلة ابن بطوطة ١٨٩».

(٢) أنطاليَا: من أحسن المدن، متناهية في اتساع المساحة والفاخامة أجمل ما يرى من البلاد، وأكثره عمارة وأحسن ترتيباً. «رحلة ابن بطوطة ١٨٩».

(٣) وهي عند ابن بطوطة اسمها «قل حصار» ووصفها بأنها مدينة صغيرة بها المياه من كل جانب لا طريق لها إلا طريق كالجسر مهياً بين العقب والمياه. «الرحلة ١٩٢».

الفصل السادس عشر: في مملكة أرمناك

وهي ثانية عشر النطاق الثاني، وصاحبها ابن قرمان، وكرسي مملكته أرمناك، وله نحو اربع عشرة مدينة ومائة وخمسين قلعة، وعسکره يناظر خمسة وعشرين ألف فارس ومثلهم رجالة، ومن مشاهير مدنه مدينة ارنده^(١) وهي مدينة جليلة، ومدينة العلائية وهي المسماة بالعلايا^(٢) عند العوام. وموقع هذه البلاد شرقي بلاد الأرمن بشمال وبلاد ابن شرف جنوبها، وأقرب مدن الأرمن إليها طرسوس وأذنة. وهذه البلاد على ضفة البحر الملح وقد تقدم ذكر أهل هذه المملكة وما هم عليه مواليهم لسلطانا صاحب مصر خلد الله ملكه، وميلهم إليه وما هم عليه من الجهاد في الأرمن، ومن ساكنهم من الكفار، وتجريد سيف غزوهם آناء الليل والنهار، وبهذا تم ذكر ممالك الأتراك وما هي عليه على ما بلغنا، وتبيّن لنا، وقد أوضحنا طرق الروايتين على ما فيهما من الخلاف / ١٨٠ / وعلى أني اجهدت والعهدة على الناقل. ونحن نذكر تتمة ما كنا أشرنا إليه من أحوال الروم عند غلبة التتار ودخول طوائفها هاتيك الديار، فنقول:

إنه لما استقلت قدم التتار فيها واستهلت غمامات كتائبهم على جهاتها، بقي ملوك آل سلجوقي معهم بالاسم لا غير لا لهم حكم ولا تصرف، بل لهم ما يقيم بهم وبيوتهم وشعار ملكهم الظاهر ونفقاتهم الالزمة والأمر كله لنواب التتار وعنهم الإيراد والإصدار، وباسم الملوك الجنكيزخانية يخطب، وتضرب سكة الدرهم والدينار، فلما ضعفت الدولة السلجوقيّة وأذلت أيامها بذهاب تلك البقية وكانت المغل لا تقدر على صعود تلك الجبال ولا تعرف الحصار ومحاولته المعامل والقلاع، فغلبت طوائف الأتراك هنالك على كثير من تلك الممالك ولو لا قوة شوكة التتار وسطوتها التي عمّت الأقطار لاستولت على السهول مع الجبال، وأخذت بجنابتها من كل مكان مع أنها ملكت معظم البلاد إلا بقية حفظت المغل مطالع أفقها، وأمسكت آخر رمقها، ودارت إذ ذاك طوائف الأتراك ملوك المغل على ما غلبت عليه، وبقي كل منهم يدخل في طاعتهم على أنه يسلم إليه ولا يخرج شيء من يديه

(١) مدينة الارنده: مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين سلطانها بدر الدين بن قرجان. «رحلة ابن بطوطه»، معجم الأساطير، ١٩٦٢، ٢٣٦.

(٢) العلايا: أول بلاد الروم، من أحسن المدن وأجمل الناس، حاكمها يوسف بن قرمان. «رحلة ابن بطوطه»، ٨٨.

واستمرت أحوالهم معهم على الطاعة والعصيان والتذكرة والنسيان حتى تما دت المدد، وخر رواق الدولة المغولية أو وهي منه بعض العمد فحيثئذ ثبتت أقدامهم ونبتت في مغارس الاستمرار أيامهم. ومنذ غلبو على ما بآيديهم من الروم لصاحب كرميان عليهم مزيد الفضل كما ذكرنا وكل واحد من هؤلاء الأتراك مستقل بمكانه مشتغل بشأنه. وتبسطوا في جهاد من جاورهم وصار هذا ديدنهم وبقي بينهم من التنافس ما يكون بين النظرة ولهذا كاتبوا عظاماء الملوك ليتقوا بمظاهرتهم ويطيروا بريح /١٨١/ سعادتهم وأكثراهم كاتبوا سلاطيننا ملوك مصر رحم الله من ماضى منهم وحفظ من بقى وأدام حياة سلطاننا مالك ملوك الأرض صاحب الدولة الملكية الناصرية، وخلد سلطانه خلود الليالي والأيام، ولاذوا بهذه الأبواب العزيزة وتطبعوا بالميل إلى هذه الدولة القاهرة حتى صارت الموالة في طباعهم كالغريرة، فاتخذوا ملوك مصر نصرهم الله لهم ظهراً وعدوهم للحوادث ذخراً حتى إن منهم من رغب في تقليد يكتب له بانياية فيما هو فيه، فكتب إليه وجهز إليه بالصنائق والألوية والأعلام والشاريف التمام والسيف المحتلى والحسان المرکوب بالسرج الذهب والعدة الكاملة والجنائب الطائلة وما منهم إلا من تدخل وترامي واقتراح مراماً، والإنعمات تغمرهم والصدقات الشاملة تعمهم وهم إلى يومنا هذا أهل ود وصفاء وحسن عهد ووفاء. ولكثرة ما خلطهم به الامتزاج وصل منهم من اتخذ مصر والشام داراً وأخذ بهما الأمرة والإقطاع وجرى فيهما تحت الأمر المطاع ورسلهم حتى الآن لا تنقطع بصدق نية وإخلاص طوية، والمكاتب واردة وصادرة والهدايا مقيمة وسائلة، ومع هذا كل واحد منهم غني بما آتاه الله من فضله وأمراء الأتراك على ما هم عليه من الامتناع والتحصن بشواطئ الجبال والقلاع، وبعدهم عن المغل، وقوتهم بكثرة العديد والعدد والسلاح، ووفر ذات اليد تداري ملوك بيت جنكيزخان، وتخدم ملوكهم ومن يصل منهم ويتردد من جهتهم وتهاديهم وتعتضد بالمقربين إليهم لكل واحد منهم في الأردو من هو من ورائه ومتকفل بالمدافعة عنه، ويخطب في بلادهم للقائم من بيت هولاكو، وتضرب السكة بأسمائهم ولنائب الروم عليهم الطاف وتحف يتقونها بها ويتوافقون من خلفه من قانات المغل بالأخذ بخاطر نائبهم /١٨٢/ هذا؛ لأنه جارهم المجاور لهم وهم رهن ما يكتب به إلى الأردو في حقهم. ولما كان تمرتاش بن جوبان قد استقل بهذه النيابة، ورست فيها أعلامه، وفتح الفتوحات وأباد

المخالفين له بها خافت أمراء الأتراك بأسه، وكاتب أبا جوبان وتستر بظله، وترست من موقع سيف تمرتاش بجاهه وقضت تلك المدة معه بهذا وأشباحه وهو مع هذا كله، يرميهم بالبواقي ويترصد لهم غفلات الوقت وقال في سلطنة بيت جنكيزخان ما قاله بهرام جوبين^(١) في الأكاسرة. قال: وما الله جعل حتماً على العباد أن تبقى دولة آل ساسان^(٢) إلى آخر الزمان، وأظهر ما كان يسره من هذا الأمر وباح به وهم وما فعل فبلغ ذلك أبا سعيد بهادر خان سلطان ذلك الوقت فعتب على أبيه جوبان، فتبرأ جوبان من فعل ولده تمرتاش، ونهض إليه في وقت شتاء لا طاقة لأحد بسلوكه وقطع إلى الروم كل جبل ثلج يزل عنه النظر، وأراد تمرتاش أن يضرب معه مصافاً فراسله أبوه ولاطفه حتى كف وأذعن، وأخذه أبوه وأحضره إلى الأردو في هيئة المأسور المقهور وجوبان يظهر هذا ويسرّ خلافه، وبيطّن مخادعة السلطان أبي سعيد في أمره، فلما مثل تمرتاش بين يديه فك أساره وخلع عليه وتركه بالأردو مدة، ثم أعاده إلى الروم على ما كان عليه وزاد في تخوileه والتنويه بقدرها، ثم لما آن لدولة جوبان وبنيه الزوال وكان منهم ما كان قويت أمراء الأتراك بالروم وانتعشت قواهم، ثم هم إلى الآن على هذا الحال على كثرة اضطراب أمر المغل وتفرق أهواهم في هذه المدد كلها ومع هذا ما استطاع أحد من أمراء الأتراك أن يلتفت إلى شيء مما بآيديهم من الروم / ١٨٣ / لا ولا ارجاع شيء مما كان تمرتاش بن جوبان قد أبان ملوكه وافتتحه واستضافه إلى ما بيده.

وهذه جملة ما حمله مقدار هذا التأليف من أخبار الروم، وما تضمنه مما دخل فيه بدلالة اللزوم. وبالله نسترشد ونستهدي، وعليه نتوكل وإليه ننيب.

وأما ما هو بآيدي النصارى:

فقد قال بلبان الجنوي: إن ممالك الروم كلها تترامي إلى رومية موضع الباب، ثم مملكة القسطنطينية، ثم طرابزون^(٣).

فأما مملكة طرابزون فهي من ممالك عباد الصليب مملكة جليلة القدر على

(١) بهرام جوبين: قائد كسرى برويز، ثار على كسرى، وفر برويز إلى الروم واستعلن بالروم لا ستعادة ملكه، وتمكن كسرى من قتل بهرام جوبين. «روضة الصفا ١٢٢ هـ».

(٢) آل ساسان: آخر الامبراطوريات الفارسية قبل الإسلام، والتي قضى عليها المسلمين عند فتحهم لبلاد فارس.

(٣) طرابزون: مملكة واقعة بين بلاد الروس وببلاد اليونان «الكامل لابن الأثير ١٦٠ / ١٢».

ساحل البحر على خروجة مانيطش وهي مملكة أخذت غرباً بشرق على طرف مملكة الأتراك في البر المتصل بنا وهي في جنوب الروم دق طرفاها واتسع وسطها كأنما دار على جانبها البيكار^(١) من خارج المركز، فجاءت على شكل الإهليلجة، وعلى هذا التصوير صورها بلبان الجنوبي، وقال: وصاحبها ملك رومي عريق في الملك من أولاد قسطنطين باني مدينة القسطنطينية وهو صاحب تخت وтاج ووظائف ملكية وحاشية سلطانية وقدر رفيع عند الباب وهو وجميع أهله العابر منهم، والباقي أهل جمال فائق وحسن فاتن إلا أن هذا الملك القائم بها الآن وأباء لكل منها على عجم الصلب سلعة رقيقة ممتدة بارزة تكون طول الإيهام وعرضه كأنها ذنب خارج.

قال: وفي هذه المملكة قوم فيهم مثل هذا ولما قال لي هذا. توقفت في نقله عنه وشككت فيه حتى حدثي بمثل هذا بهادر الإيواني، وحكي مثل هذا آخر من أهل السير وآخر، ثم آخر فحيثئذ نقلته في كتابي هذا والعهدة عليهم والقدرة صالحة والله سبحانه وتعالى فاعل مختار ويخلق ما لا تعلمون فسبحان من ﴿يَدُهُ مَلْكُوتُ كُلِّ شَوْرٍ وَلِلَّهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٢) قال وأهل طرابزون أهل نجدة وبأس وعليهم طريق مسلوك لمن ألم بلاد القرم وصحراء القفقاق وطوابق سكان الشمال.

قال: ومملكة طرابزون أوسع من /١٨٤/ مملكة الكرج وأجل مقداراً عند ملوك النصرانية وإنما أولئك أشد أيد وقوة. قال: وملك طرابزون يسمى التكفور كما يسمى ملك الأرمن وهو أعلى نسبياً من ملك الروم القائم الآن في المملكة بها وله عليه فخر لا يعلى على منصبه ولا يعلى رداءه عن منكره، قالوا: وجنته ليسوا بذني عدد غالب ولا مدد مغالب وإنما هم أقران فوارس وأعيان ليوث لا يخلى لها فرائس. قال: وأحوالها كلها تشابه ما يليها من ممالك الأتراك.

قال بلبان الجنوبي: وأما مملكة القسطنطينية، وهي الآن تسمى اسطنبول^(٣) وقدি�ماً بيزانطانية، فإنها كرسى مملكة الروم ولملوكها التقدم على جميع ملوك عباد الصليب، وفي أهلها الملك القديم وكانت لهم اليد العليا على بني المعتمودية وجميع

(١) البيكار، يعني به البركار، وهو بالعربية الفرجار، آلة هندسية. «فرهنگ رازی ۹۶».

(٢) سورة يس: الآية ٨٣.

(٣) اسطنبول أو إسلامبول: وهي قسم من مدينة القسطنطينية بالعدوة الشرقية من النهر، وفيها سكن السلطان وأرباب دولته وسائر الناس، وهي بسفح جبل داخل في البحر نحو تسعة أميال. «رحلة ابن بطوطة» ٢٣٣.

الطوائف العيساوية، وهي مملكة قيصر^(١)، وبها كان تخت الإسكندر وتداولتها دول الروم من أولاد قسطنطين وخرجت عليهم خوارج، ثم هبت للفرنج بها ريح ملك واستعملت لهم بها ذئابة دولة واستعملت لهم بها نار غلبة، ثم عادت إلى الروم واستمرت إلى اليوم. قال: والفرنج تزري بالروم لخروج ملك الشام عنهم وتعيرهم بغلبة العرب عليهم يعني في مبدأ الإسلام وتعييدهم بهذا وتوسيعهم الملام. قال: ومع هذا فلا يسع ملوك الفرنج إلا إجلال هذا الملك الرومي وتوفيقه من التعظيم. وعساكره مائتا ألف فارس مدرونة ما فيهم إلا أصحاب إقطاع أو نقد وأرزاهم لكل واحد منهم في السنة من مائتي دينار إلى ألف وخمسمائة دينار وفيهم من يبلغ ألفي دينار. والدينار اثنا عشر درهماً وهو درهم ينقص عن البندقي بيسير، والدينار ما هو دينار مسمى بل حقيقة دينار مسكونك من ذهب مغشوش فلهذا نقص ثمنه. قال: واسم هذا الدينار بريرو. قال: وأما الأمارة عند الروم فإنها محفوظة في بيوت قديمة يتقدم في إمرة كل بيت واحد منهم يتوارثها كابر عن كابر، /١٨٥/ ويورثها أول آخر.

قال: ولملك القسطنطينية^(٢) قدرة ليست لأحد من الملوك النصرانية سواه. قال: لأنه يركب في كل يوم أحد إلى الكنيسة العظمى بها ومعه البطريرك ويقف على كل باب من أبواب الكنيسة على كثرة أبوابها^(٣) فرس للملك وبغلة للبطريرك وشعار سلطنته كامل بجميع ما يحتاج إليه الملك بما لا بد للموكب الملكي منه فمن أيّ باب خرج من أبواب الكنيسة هو والبطريرك ركباً، وسار الملك في أبهة الملك التمام وشعار السلطنة الكامل بما كان معداً له على الباب الذي خرج منه دون ما كان معداً على بقية الأبواب، وعلى كل باب منها نظير ما كان على الباب الذي خرج منه الملك وسار بشعار الملك الكامل.

قال: وللملك ميزة يتميز بها وهو أنه لا يلبس أحد في مملكته جمعها خفافاً أحمر غيره. وزي الروم في لباسهم من نوع زي الأتراك والمغل من الأقبية التتارية والمخصصة خلا أن الكباس على رؤوسهم متسع مرحراً كأنه الطبق، ويشدون في أوساطتهم المناطق والسيوف ومناطقهم ثقال وسيوفهم كالسيوف المغاربية أخف من

(١) قيصر: لقب ملوك الرومان، يعادل القرآن عند المغول، وتبّع عند اليمن، وكسرى عند الفرس، وراجا عند الهند.

(٢) تكفور ابن السلطان جرجيس «رحلة ابن بطوطة ٢٣٢».

(٣) ثلاثة عشر باباً. «رحلة ابن بطوطة ٢٣٤».

العربيات وعلى أشكالها ولباسهم الجوخ والصوف والحرير والأطلس والديباج، وسائر أنواع الحرير. قال: وللملك داران معروفتان بدار المملكة الواحدة قديمة من بناء الإسكندر، خارجة في كبد البحر ذات محارات طوال ودهاليز بعيدة نائية، وفي جانبيها تماثيل نحاس على صورة الإنسان، وسائر أنواع الحيوان وفيها صورة فرسان على خيل وحيوانات وأشكال آخر وكلها أكبر من الحيوانات المعروفة بما يزيد زيادة ظاهرة على الأشكال الطبيعية وهي في غاية الصنعة والأحكام بالنقوش العجيبة والتخاطيط الغريبة، ولا يعرف هل عملت لظاهر الزينة أو لباطن من الحكمه وهي دار عظيمة هائلة البناء بعقود منتظمة وأفنيه رفيعة واسعة رحبة مفروشة بالرخام الأبيض والمجزع والملون وضروب من المسن الأخضر /١٨٦/. قال: والملوك لم يسكنوها منذ أصغر يتأسمون بها، ويقولون إنها مسكونة بمerde الجن وفساق الشياطين، وإن فيهم من يتراءى على مثال أصلة لا تطاق. والدار الأخرى هي التي يسكنها الآن الملوك وتسكن إليها وهي على جلالة مكانتها وفخامة قدرها لا تقارب دار الإسكندر ولا تدانها في الإمكاني والتسييد ورونق التأنيق والتنميق.

قال: ولقد كانت ملوك القسطنطينية تراقب ملوك القفقاج وتهدي إليهم القطيعة حتى تزوج هذا السلطان أذبك خان منهم فأمنهم ووضع عنهم أثقال تلك القطيعة وأصر تلك الأئمة، وناموا الآن في مهاد الأمن، ورفعت عنهم غم التكليف.

وقال لي غيره وقد سأله عن عدد جيوش الروم، فقال: هم عدد بلا نفع. قلت: وهذا هو المشهور عندهم في كل زمان ومكان، والمتأثر عنهم أنهم وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشيء شيء وإن هان. أقوى اعتدادهم للخمر والخمير وأقوى خبئهم الديباج والحرير، ما فيهن ضارب إلا بجنك^(١) أو عود، ولا طاعن إلا بين أعکان ونهود. ولا يشربون دماً إلا من فم إبريق جريح، ولا يرون قتيلاً إلا من شخص زق طريح، ولا لهم وقائع إلا في ملبيقات الصحاف ولا مواقع إلا بين فراش ولحاف. لا يعرفون البيض إلا كل بيض الدمي، ولا السمر إلا كل سمرة اللمي، ولا العجاج إلا من دخان عنبر، ولا أشر السيوف إلا في ثغر شنبيب كأنه عقد جوهر ولا مقام إلا في محبس راح ولا اهتمام إلا بمجلس أفراح، ولا التماس إلا لغبوق أو اصطباح^(٢)،

(١) جنگ: آلة موسيقية، وهي جنگ أو صنج. «فرهنگ رازی ٥٦٤».

(٢) الغبوق: خمر المساء، والإصطباح: خمر الصباح ويسمى الصبور.

ولا اقتباس إلا مما تتقد ناره في كأس أو يقتدح من أقداح. ما منهم راكب جواد إلا للنلة، ولا صاحب جهاد إلا في فرصة مستلذة، ولا عوال تلعلع أستتها غير الشمع، ولا عوين إلا مما يتحير في ماقي الغيد من الدمع.

قال بليان: وطوائف الروم لا معرفة لهم بامتناء البحر، ولا عادة برکوب السفن، وأبعد سياراتهم فيه إلى مواضع النزهة، وإنما هم أصحاب خيل ولا تعد خيالهم في جياد الخيل، وإنما يجلب إليهم كرائمها /١٨٧/ من بلاد الأتراك من قاطع الخليج، وإنما لهم بغالٌ تباع بغالٍ، ولهم تجمل دبر في الملابس والمراكب والفروش وفي أهلها الجمال البديع والكمال التام، وفي المثل: وجوه الترك وأجسام الروم وظرف العرب.

قال: فأما منابت القسطنطينية فكلها أرض جيدة صالحة للزرع والثمار، ولها نهر متوسط المقدار، عليه مساقي زرع وأشجار والأرزاق بها كثيرة الوجود، والرطل القسطنطيني نظير الرطل المصري، وكيل الطعام بها يسمى مدنی، وهو حمل جمل يكون اربين ونصف بالمصري، وبه تباع الغلال الكثيرة؛ فأما القليل منها فيباع بالرطل.

قال: وهذا الملك لا يفارق مجلسه الطرف، ويضرب له بالألة المعروفة بالأرغل وهي ذات وضع عجيب وألحان غريبة مطربة تأخذ بمجامع القلب.

قلت: وقد رأيت هذا الأرغل بدمشق، ثم بالقاهرة، فقلت: هذا للضارب به. فقال لي: هذا ارغل صغير يفكّك ويحمل وما معه أصوات تسبيز له الضرب، والذي يضرب به لملوك الروم والبحر كبير مستقر في مكان لا يزايه وله عدة من أصحاب الأنغام المطربة تسبيز له، وله بذلك رونق لا يكون في مثل هذا. وصورة الأرغل خشب مركب وله بكر نحاس وأوتار شريط نحاس وبحر بمثيل كور الصائغ، ونغمته شبيه بالألة التي تسمى القانون.

ثم نعود إلى تتمة الحديث.

قال بليان: والملك لا يمد الطعام إلا بين سماطين من المغانی وأصحاب الملاهي.

وحدثني أقسنقر الرومي أحد أمراء العشرات بالأبواب السلطانية وهو من بعض

بيوت الأميرة القديمة بالقسطنطينية، وكان قد حضر في جملة الرسل إلى الأبواب العالية وأسلم، وشمله التشريف والإنعام الشريف والإقامة في الخدمة السعيدة السلطانية بمثل هذه الأحوال، وسمعته يبالغ في تعظيم شأن ملوكهم، ويصفهم بحسن المعاواة والمراعاة لمصالح /١٨٨/ أولياء دولتهم ورعاياهم، وقال: إن عادتهم جارية بأنه من مات من أمراء الروم جرى على أكبر أولاده ما كان يجري على أبيه؛ فإن لم يكن له ولد كان على أكبر أهله، فإن انقرض تصرف الملك فيه برأيه؛ فإن ترك الميت أولاداً لا يقوم بهم ما كان لأبيهم ولا يكفيهم إذا توزع عليهم جرى على الأمائل ما كان لأبيهم ونظر في حال البقية. قال: وعادة هؤلاء الملوك أن لا يعطى ولد أمير رزقاً من جهتهم ما دام أبوه حياً يرزق بل ارتزاقه مما لأبيه، وإن أراد الملك أن يعطيه شيئاً أعطى لأبيه مقدار ما يريد أن يجعله لابنه، ثم أمره أن يجريه هو على ولده من جهة الملك.

قال: وهو أهل عدل فلا يظلم أحد منهم ولا يستحسن الظلم ولا يفسح فيه ولا يتطلع إلى شيء مما في أيدي الناس من أرباب دولته ورعايا مملكته ولا يعرف هذا عهدهم. قال: وجميع من هو في خدمة ملوك الروم لا حجر عليهم ولا تصنيق في الإكرام بحضور خدمة مرتبة ولاأخذ دستور في أمر من الأمور مخلٍّ بين نفسه وما يريد في الركوب والنزول والسفر إلى الصيد والتزلج إلى جهات أملاكهم وإقطاعاتهم بل هو في ذلك كله مع رأيه يسافر متى أراد إلى أي جهة أراد ويعيب ما يقدر له أن يغيب بغير إذن الملك ولا أحد من ينوب عنه، وفيهم من يغيب السنة فما فوقها، ولا يقال له لم سافرت ولا كيف أبطأت ولا لأي شيء انقطعت عن الخدمة، ولا يعتب ولا ينكر عليه، ولا للملك عليهم تشديد في أمر إلا في الإلزام بالتوجه إلى حرب أو المؤاخذة بحق.

قال: وأما أهل مملكة الملك فهم منه في أرגד عيش لا يقوص له بناء ولا يكفا له إباء. قالوا كلهم: والبطريرك هو الحاكم على الملك؛ لأنَّه لا معول إلا على رأيه ولا يفصل حكم إلا بقضائه، وله رزق عظيم يعدل معدله دخل إقليل، وإليه أمر الكنيسة العظمى وسائر الكنائس والديارات، /١٨٩/ ويحصل لها في كل سنة أموال جمة طائلة من الوقوف والندور والقربانات والتحف ومهادة الملوك والكنود والتجار.

وفيما يزعم الروم أن بلاد مقدونية جميعها وقف على الكنيسة العظمى التي لهم

المسمة بالأوصفية^(١) وببلاد مقدونية هي الإسكندرية وما هو مضاد إليها وكان ذلك في قديم الزمان مصر كلها بأسراها إلا الصعيد الأعلى. وعلى هذا جاء الفتوح في صدر الإسلام.

قلت: والروم تبالغ في تعظيم هذه الكنيسة وتعتقد كرامتها وينقل في التواريخ أن بها كان اجتماع قسطنطين على التدين بدين النصرانية وأن عقد الاتفاق كان على المذبح بها. وفيها على ما يقول صليب الصليبيوت وعاصماً موسى وزنار مريم ومسح المسيح مما يقال إنه صار إليها من طليطلة. وفي زمان الملك الناصر صلاح الدين قدس الله روحه جاءت إليه رسل الفرنج تسأله في إرسال صليب الصليبيوت إليها وزعموا أنه كان صار إلى خزائن العبيدين واتصل إليه، ثم إن صلاح الدين ظفر في بعض حروبه بالرجل الذي كان حضر في طلب الصليب، فأمر به فصلب. وكتب الفاضل رحمة الله كتاباً ذكر هذا فيه، فقال: وحصل الظفر بمن كان تقدم حضوره في طلب صليب الصليبيوت وأطلقه في ذلك الوقت، وعلم أنه لا يفوت فلما ظفر به الآن أمر به أن يصلب وجعله مثله وسمره على الصليب الخشب، وجعله مثله.

هذا ما ذكر في هذا المعنى.

وأما الشائع الدائع على ألسنة الناس وكلام المتجولين في الأرض وطلبة الكنوز والخبايا فهو أن علم الكنوز في كنيسة القسطنطينية.

قالوا إن هذه الأعلام كانت بطليطلة ثم صارت إلى القسطنطينية، ومنهم من يقول: إن الروم لما جلت عن الشام وببلاد القبط اكتنرت كثيراً من أموالها في مواضع كانت تعدّها لذلك، وكتبت بها كتباً بأعلام مواضعها وطرق الوصول إليها، وأودعت تلك الكتب مكاناً في كنيسة القسطنطينية وإن منها تستفاد معرفتها، ومنهم من زعم / ١٩٠ / أن سكان الشام من الروم لم يكتنروا، وإنما ظفروا بكتب معالم كنوز من كان قبلهم من اليونان والصيّبة والكلدانيين ومن تقدمهم من الأمم الأولى، فلما غلبوا على الشام استصحبوا تلك المعالم فأودعواها الكنيسة ويقال: إنه لا يصل إليها إلا من خدم الكنيسة مدة معلومة عندهم، فإذا انقضت أعطى ورقة واحدة بحظه ونصبيه فيما يدل

(١) الأوصفية: هي كنيسة أيا صوفيا، ويدرك أنها من بناء آصف بن بريخيا، وهو ابن خالة سليمان عليه السلام، وهي من أعظم كنائس الروم، عليها سور يعطف بها، فكأنها مدينة، وأبوابها ثلاثة عشر باباً. «رحلة ابن بطوطة ٢٣٤» وهي الآن متحف أيا صوفيا في تركيا.

عليه. ولهم في هذا ومثله حكايات وأسمار ما هذا موضعها ولا مكان الاشتغال بها وإشغال الكتاب بجنسها وأنا لا أصدقها ولا أكذبها وإنما ذكرت منها هنا على سبيل الحكاية والتندير، إذ كان هذا مما يدور ذكره في حديث الناس إذا ذكروا هذه الكنيسة وهو مما لا يستبعد إما كله، وإما شيء منه لدخوله في حيز الإمكان؛ ولأنه ما يخلو من فواضل أهل كل زمان. و هو لاء العرب تكنز أموالها في قدور بسلاسل طوال تدفعها في مواضع متغلغلة في البر وتعلمتها بأعلام لا تغير من الجبال والربى وما أشبه ذلك. فأما ما لا شك فيه فهو أن في القسطنطينية كتاباً جليلة من كتب حذاق الحكماء وال فلاسفة القدماء ما لا خرج عن دار قومه ولا وصل إلى فلاسفة الإسلام منه شيء لضيافة بطاركتهم^(١) وقسوسهم^(٢) به ومحافظة خزانه على خزنه وحفظه، ويقال: إن فيها دقائق الموسيقى مما لو عمل به أهل هذا الشأن والقوة على أصحاب الأصوات المطاوعة لاستغنو به في معالجتهم به عن العقاقير حتى يقال: إن فيها ما يلين القاسي ويقاد الصعب ويضحك ويبكي وينوم، ويدعى أصحاب علم الكيمياء أن فيها كتاباً جليلة فيها العلم الصحيح بأسهل الطرق وأقربها إلى الوصول، وتدعى أنه مما تلقى عن موسى صلوات الله عليه.

قال: ويقال إن فيها أثراً من علوم الخضر والإسكندر ذي القرنين، تفتح به المغالم، وتنسلم المعاقل وتملك النواصي، وتهزم الأعداء، فإذا حوج أحدهم يقول هذا القول وحقيق وقيل له: / ١٩١ / أنتم تلوون ضلوعكم على الداء الدفين غيطاً علىأخذ الشام منكم فهلا أخذتم بتلك الآثار وبلغتم المراد وكفيتكم المهم أبلسوا وسكتوا، ولم تكن لهم حجة إلا أن يقولوا: ما بقي من يعرفها أو ذهب زمانها أو تريد طوالع أو باد يعملها أو ما ثم من هو مشتغل بها.

وأما الذي هو الآن عندهم ظاهر من بقايا ذخائر العلماء الحكماء فهو الطين المختوم، ورأيت أطباء الزمان، ومنهم بالديار المصرية رؤساء أفاليل، وعلماء لا تقصرون عن درجات الأوائل ما فيهم من يتتبه على التحقيق لكنه يستحسن ويقول: هو طين مليح يحصل به القصد ويتوقف، ولا يجزم بأنه هو الطين المختوم ويقول: للطين المختوم طين عمل وطبع وختم على عهد جالينوس، ويقول: كانت امرأة في جزيرة

(١) بطاركة: جمع مفرد بطاريك وبطريقك.

(٢) قساوسة: جمع مفرد قس وقسيس.

في البحر تجلس على هيكل على قراره أو بركة يأتيها السيل، فتدفع هناك التيوس على سبيل القربان في وقت معلوم من السنة ويؤخذ من التراب مما جف عنه السيل، وجمد عليه الدم أو قالوا: إنه يجبل بالدم في طالع مخصوص، ويقرص أقراصاً، ويطبع بطباع متخذ لها ومنهم من يقول: إن فعله إنما هو لخاصية تلك البقعة ومنهم من يقول: للطالع المخصوص، ومنهم من يقول: بل لشيء أفيض عليه في الهيأة الاجتماعية. وهذا الطين المختوم المجلوب الآن هو على نوعين: نوع أبيض ونوع أحمر، فأما أبيض منه أغبر منه شديد البياض، وأما الأحمر ف منه وردي ومنه ما يشوه سواد كأنه لون المغزا وطوابعه مختلفة وهذا الاختلاف مما أوقف الأطباء عن الجزم به أنه هو؛ ولأنهم لم يجدوا فيه كلما ذكرت القدماء في أوصافه.

وقال لي الرئيس أمين الدين سليمان بن داود المتطلب رحمه الله وقد أريته منه: هذا ما هو الطين المختوم والطين المختوم عمل على عهد جاليتوس وكان مقدراً ليس بالكبير، ثم لم يعمل بعده وغطى البحر على تلك الجزيرة، والناس منذ عمل تستعمل منه ولها زمان طويل ولو كان /١٩٢/ بقدر ما عمل أضعافاً مضاعفة لكان قد فرغ وإنما هو شيء مشبهه وليس به وأكثر ما يحمد الأطباء من هذا الطين المشتبه بلون المغرا ثم الوردي، فأما أبيض مما رأيت أحداً منهم يقدمه إذا رأهما في وصف، ولا يعبأ به. فأما جلايته من القسطنطينية فنذكره وتصف ضنانة الروم والذي جربت منه فحمدت من أنواعه هو المشبه بالمغرا وقد ذكرت هذا لمحل الفائدة.

ثم نعود إلى الكلام على القسطنطينية.

قال: أقسنقر الرومي، ويلبان الجنوي، وعلي بن بلبان الحلبي قالوا كلهم وقال غيرهم: إن القسطنطينية على جزر من البحر يدخل منه ماء إلى الميناء في جانب القسطنطينية، ويدخل مسورةها والتجار والسفارة من سائر الأقطار من المسلمين والنصارى وغيرهم يأتي إليها وينزل بها ويبيع ويشتري فيها ولا حرج عليهم ولا تضيق، والمسلمون فيها على جانب إعزاز وإكرام فيها سكان من المسلمين يسكنونها إلى اليوم لا يمسهم، والله الحمد، ذل ولا هوان، ولهم مساجد وأئمة تصلي بهم الجماعة فتظاهرة فيها بشعائر الإسلام وللملك اهتمام بكف الأذية عنهم، وإذا شكا المسلم إليه على أحد من النصارى ولو أنه من عظماء البطارقة أشكاه وأنصقه منه ولا اضطهاد ولا ضيم في جميع مملكة هذا الملك عليهم ولو تغيرت الملوك واختلفت الأحوال لا يقدر الملك على تغير حاله في هذا ولا مخالفة لمن تقدمه فيها؛ لأنها

عادة تدين بها ملوكهم وسارت بها في ملوك النصرانية سيرهم فلو عدل الملك عنها لمنعه البطريرك وواخذه به وأخذه بالرجوع إلى سادة أسلافه واشتد في معه؛ فإن رجع وإلا كان السبب لتجريمه، فإن رجع وإنما كان السبب لخلعه، والروم أنسخى من جميع الطوائف النصرانية وأسمك في الكرماء نفوسا وأمسك ناموسا. ومع هذا فما فيهم من يدانى العرب في كرم ولا يقاربهم في جود. والشح غريرة في طباع النصارى لا تنفق إلا فيما / ١٩٣ / يتعم به فينفقه في اللهو والطرب. والنحوة فيهم قليلة. وهذه جملة ما ذكروه من أخبارهم وفهم من كلامهم، ومما أقوله أن أدل دليل على عظم القسطنطينية وما لها الممدود غزوة هارون الرشيد إليها ستة خمس وستين ومائة. كان أبوه المهدى قد وجدها إليها وهو إذ ذاك ولـي عهد أبيه المهدى، فخرج يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة غازياً إلى بلاد الروم وضم إليه المهدى الربع مولاه فتوغل هارون الرشيد في بلاد الروم، فافتتح ماجدة ولقيه خيول نقطيا قومس القوامسة فبارزه يزيد بن مزيد فارجل يزيد، ثم سقط نقطيا فضربه يزيد حتى أثخنه وانهزمت الروم وغلب يزيد على عسكره وسار هارون بمن معه في مائة ألف من المرتزقة وتبعهم مثلهم من المطوعة، وحملوا لهم من العين مائة ألف ألف دينار وثلاثة وسبعين ألف ألف وأربعين ألفاً وخمسمائة درهم وسار هارون الرشيد حتى قطع خليج القسطنطينية، وصاحب الروم يومئذ عصته امرأة اليون. وذلك أن ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو في حجرها فجرت بينها وبين الرشيد السفراء في طلب الصلح والمودعة وإعطاء الفدية، فقبل ذلك منها هارون الرشيد وشرط عليها الوفاء بما أعطت وأن تقيم له الأدلة والأسواق في طريقه وذلك أنه دخل مدخلاً ضيقاً محفوفاً على المسلمين.

قال أبو جعفر الطبرى^(١): وسار هارون في خمسة وتسعين ألفاً وسبعين ألفاً وثلاثة

(١) محمد بن جرير بن يزيد الطبرى، أبو جعفر: المؤرخ المفسر الإمام. ولد في آمل طبرستان سنة ٢٢٤هـ/٨٣٩م، واستوطن بغداد وتوفي بها. وعرض عليه القضاة فامتنع، والمظالم فأبى. له «أخبار الرسل والملوك - ط» يعرف بتاريخ الطبرى، في ١١ جزءاً، و«جامع البيان في تفسير القرآن - ط» يعرف بتفسير الطبرى، في ٣٠ جزءاً، و«اختلاف الفقهاء - ط» و«المسترشد» في علوم الدين، وجزء في الاعتقاد - ط» و«القرارات» وغير ذلك. وهو من ثقات المؤرخين، قال ابن الأثير: أبو جعفر أوافق من نقل التاريخ، وفي تفسيره ما يدل على علم غيره وتحقيقه. وكان مجتهداً في أحكام الدين لا يقل أحداً، بل قللته بعض الناس وعملوا بأقواله وأرائه. وكان أسمراً، أعين، نحيف الجسم، فضيحاً. ترجمته في: معجم الأدباء / ٤٢٣ / ٦، وتذكرة الحفاظ / ٣٥١ / ٢ وبيان الآيات / ٤٥٦ / ١ وطبقات =

وتسعين رجلاً من المرتزقة سوى المطوعة، ثم ذكر مثل هذا. وقال: إنه حررت بينها وبين هارون الرسل والسفراء في طلب الصلح فشرط عليها الوفاء وأن تقيم له الأدلة والأسوق في طريقه فأجابته، والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها سبعون ألف دينار تؤديها في نيسان الأول /١٩٤/ في كل سنة، ومثله في حزيران وقبل ذلك منها وأقامت الأسواق في منصرفه، ووجهت معه رسلاً إلى المهدى بما بعثت له وبما بذلت على أن تؤدي ما تيسر من الذهب والفضة والعرض، وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاثة سنين، وكان الذي أفاء الله على هارون إلى أن أذعن الروم بالجزية خمسة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعين ألفاً وعشرون ألف دابة من الدواب الذلل وذبح من الغنم والمعز مائة ألف رأس، وقتل من الروم في الواقع أربعة وخمسون ألفاً، وقتل من الأساري صبراً ألفان وتسعون أسيراً، وبيع البردون بدرهم، والبلغ بأقل من عشرة دراهم، والدرع بأقل من درهم، وعشرون سيفاً بدرهم، فقال مروان بن أبي حفصة^(١) يمدح الرشيد: [من الطويل]

= السبكي /٢ - ١٣٥ - ١٤٠ ومفتاح السعادة /١٢٥٠ و ٤١٥ ثم ١٧٦ /٢ والبداية والنهاية /١١٤٥ وسير أعلام النبلاء /١٤ - ٢٦٧ - ٢٨٧ رقم ١٧٥. غایة النهاية /٢٠٦٠ و Mizan al-Adl /٣٥ و ابن الشحنة: حوادث سنة ٣١٠ وفيه: «رموه بعد موته بالرفض لكونه صنف كتاباً في اختلاف العلماء ولم يذكر فيه مذهب أحمد بن حنبل، وقال: لم يكن أحمد فقيها إنما كان محدثاً» ولسان الميزان /٥٠٠ وتاريخ بغداد /٢١٦٢ والعرب والروم لفازيليف ٤٢٧ وكشف الظلون ٤٢٧ والأعلام /٦٦٩.

(١) مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة يزيد: شاعر، عالي الطبقة. كان جده أبو حفصة مولى لمروان بن الحكم أعمقه يوم الدار، ولد سنة ١٠٥ هـ /٧٢٢ ونشأ مروان في العصر الأموي، باليمامة، حيث منازل أهله. وأدرك زمناً من العهد العباسي فقدم بغداد ومدح المهدى والرشيد ومعن بن زائدة، وجمع من الجوائز والهبات ثروة واسعة. وكان رسمبني العباس أن يعطيه بكل بيت يمدحه به ألف درهم. وكان يتقارب إلى الرشيد بهجاء العلوية. توفي ببغداد سنة ١٨٢ هـ /٨٩٨. وجمع معاصرنا قحطان بن رشيد التميمي، ما وجد من شعره، في «دراسة» نشرتها مجلة المورد /٣ /٢٢٣.

مصادر ترجمته: الأغاني /٩ - ٣٤ - ٤٧ ورغبة الأمل /٦ - ٨٢ ثم ٢٧ /٧ و ٤٥ و ابن خلكان /٢ - ٨٩ والمرزباني /٣٩٦ والشعر والشعراء ٢٩٥ وتاريخ بغداد ١٤٢ /١٣ وأمالي المرتضى /٢ - ١٥٥ ثم ٤ /٣ و ٢٦٦ وفيه: «كان كثير الشعر، ينتصبه الغوص على المعاني، وهو دون مسلم بن الوليد وبشار بن برد أو هو طبقة بينهما» وسماه «مروان بن يحيى». وفي مطالع البدور /١ - ٧٣ «كان من أبخذ الناس، مع يساره». وفي كتاب «الفلكلة والمفلوكون» /٨٠ بعض أخبار بخله. وفي وفيات الأعيان /٢ - ٨٩ بعد قوله إن جده أبو حفصة كان مولى لمروان بن الحكم وأعمقه يوم الدار لأنه أبلى يومئذ فجعل عنقه جزاءه: «وقيل: إن أبو حفصة كان يهودياً طيبياً أسلم على يد عثمان بن عفان أو على يد مروان»، وجزم Huart 68 بأن ابن أبي حفصة «كان ابنًا ليهودي من خراسان» وهي رواية ضعيفة قد تكون مما لفقه عليه من كان يهوجوه. أضف إلى هذا قول ابن خلكان: «ويحيى ابن أبي حفصة، كنية أبو جميل، وأمه حبا بنت ميمون، يقال: إنها من ولد النابغة الجعدي وأن الشعر أتى إلى أبي حفصة بذلك السبب». الأعلام /٧ - ٢٠٨، معجم الشعراء للجبوري /٥ - ٣٧٠.

أطْفَت بِقُسْطَنْطِينِيَّةِ الرُّومِ مُسْنَدًا
إِلَيْهَا الْقَنَا حَتَّى اكتَسَى الَّذِي سُورُهَا
بِجُزِيَّتِهَا وَالْحَرْبُ تَعْلَى قُدُورُهَا
بِهِ وَوَفُودُ الْمَوْجِ دَانٍ مَسِيرُهَا
أَلْوَافَ قَنَاطِيرٍ عَظِيمٍ يَسِيرُهَا
وَدَامَ عَلَى الْأَعْدَاءِ مِنْهُ مُبِيرُهَا
يُعْضُّ بِهِ يَوْمَ الْلِقَاءِ صُدُورُهَا
وَمِنْ وَجْهِهِ الوضَاحِ أَشْرَقَ نُورُهَا
لِمَسْعَاهُمَا حَتَّى اسْتَقَامَتْ أَمْوَارُهَا
وَكُلُّ سَرِيرٍ لِلْمَلُوكِ سَرِيرُهَا^(١)
وَقَدْ ذَكَرَ الطَّبَرِيُّ هَذِهِ الْوَاقِعَةَ فِي أَحْدَاثِ هَذِهِ السَّنَةِ بِهَذِهِ الْمَقَاصِدِ^(٢).

وَقَدْ أَلْحَقَتْ هَذِهِ الْفَصْلُ بِشَيْءٍ مِمَّا ذَكَرَهُ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ عَسَاكِرٍ^(٣) فِي

(١) بيان منها في ديوان مروان تحقيق د. حسين عطوان ط ٣ ص ٦٠ . وفي شعر مروان بتحقيق قحطان رشيد التعمي ص ٢٣٦ .

(٢) انظر : تاريخ الطبرى ١٥٢/٨ - ١٥٣ حوادث سنة ١٦٥ هـ.

(٣) علي بن الحسن بن هبة الله، أبو القاسم، ثقة الدين ابن عساكر الدمشقي: المؤرخ الحافظ الرحالة. كان محدث الديار الشامية، ورفيق السمعاني (صاحب الأنساب) في رحلاته. مولده سنة ٤٩٩هـ / ١١٧٦ م ووفاته سنة ٥٧١هـ / ١٢١٦ م في دمشق. له «تاريخ دمشق الكبير - خ» يعرف بتاريخ ابن عساكر، اختصره الشيخ عبد القادر بدران، بحذف الأسانيد والمكررات وسمى المختصر «تهذيب تاريخ ابن عساكر - ط» سبعة أجزاء منه، ولا تزال بقية التهذيب مخطوطة، وبasher المجمع العلمي العربي بدمشق نشر الأصل فطبع منه عدة مجلدات. ولا ابن عساكر كتب أخرى كثيرة، منها «الإشراف على معرفة الأطراف - خ» في الحديث، ثلاث مجلدات، و«تبين كذب المفترى في ما نسب إلى أبي الحسن الأشعري - ط» و«كشف المغطى في فضل الموطا - ط» و«تبين الامتنان في الأمر بالاختتان - خ» وأربعون حديثاً من أربعين شيئاً من أربعين مدینة» و«تاريخ المزة» و«معجم الصحابة» و«معجم النساء» و«تهذيب الملتمس من عوالي مالك بن أنس» و«معجم أسماء القرى والأصار» و«معجم الشيوخ والنبلاء - خ» ٤٦ ورقة في شيوخ أصحاب الكتب الستة، في الظاهرية.

ترجمته في: وفيات الأعيان ١/٣٢٥، مفتاح السعادة ١/٢١٦، ٢١٦/٢، ٢١١، البداية والنهاية ١٢/٢٩٤، طبقات الشافعية ٤/٢٧٣، ابن الوردي ٢/٨٧، أداب اللغة ٣/٧٣، التعمي ١/١٠٠، دائرة المعارف الإسلامية ١/٢٣٧، مرآة الزمان ٨/٣٣٦، مخطوطات الظاهرية ١٠٩، ٢٢٦/٢٢٧، الأعلام ٤/٢٧٤ - ٢٧٣ .

تاریخه في ترجمة أبي محمد البطاول^(١)، قال: «عبد الله أبو يحيى الأنطاكي^(٢) كان ينزل أنطاكية».

قال: وكان من خرج مع مسلمة بن عبد الملك بن مروان إلى بلاد الروم، قال: لما أراد عبد الملك أن يوجه مسلمة إلى بلاد الروم قال قد أمرت / ١٩٥ / عليكم مسلمة بن عبد الملك. قال: ولئن على رؤساء أهل الجزيرة والشام البطاول وأقبل على مسلمة فقال صير على طلائعك البطاول وأمره فليعس بالليل العسكر فإنه ثقة أمين شجاع مقدام فخرج مسلمة وخرج عبد الملك يشيعه حتى بلغ إلى باب دمشق.

وذكر الحافظ^(٣) بسنده عن الوليد بن مسلمة، قال: حدثني بعض شيوخنا أن مسلمة بن عبد الملك عقد للبطاول على عشرة آلاف من المسلمين فجعلهم سيارة ما بين عسكر المسلمين وما يليهم من حصون الروم، ومن يتخطوفون اعتراضه في نشر المسلمين وعلاقتهم، ويخرج المسلمون يتعلقون فيما بينهم وبين العسكر، فيصيرون ويخطئون فيأمن بهم العسكر^(٤).

وقال الوليد بن مسلم حدثني أبو مروان الأنطاكي عن البطاول أنه قال سألني بعض ولاة بني أمية عن أعجب ما كان من أمري فيهم فقلت: خرجت في سرية ليلاً، وخرجنا إلى قرية وقلت لأصحابي: ارخوا لجم خيولكم ولا تحرکوا أحداً بقتل ولا سبي حتى تشحذوا القرية؛ فإنهم في نومة، قال: فعلوا وافتقروا في أزقتها ودفعت في ناس من أصحابي إلى بيت يزه سراحه وامرأة تسكت ابنتها من بكائه وهي تقول: لتسكتن أو لأدفعنك إلى البطاول، ثم انتشلته من سريره فقالت: أمسك يا بطاطا فأخذته.

وقال الوليد: حدثنا أبو مروان أنه سمعه يحدث، قال: خرجت ذات يوم متوجداً على فرسي لأصيب غفلة مسمطاً مخلاة فيها عليق فرنسي ومنديل فيه خبز وشواء فيينا أنا أسير إذ مررت بستان فيه بقل طيب، فنزلت فلعت على فرسي، وأصبت من ذلك الشواء بقل البستان، إذ أسهلني بطني فاختلت متوارياً، فأشفقت من دوامه وضعفي عن الركوب فبادرت فركبت ولزمت طريقاً واستفزعني على سرجي كراهة أن أنزل

(١) عبد الله، أبو يحيى المعروف بالبطاول، ترجمته في: تاريخ دمشق ٣٥٦/٣٩ وفيه مصادر ترجمته، ومن هنا يبدأ النقل من تاريخ دمشق.

(٢) أبو مروان الأنطاكي «تاريخ دمشق ٣٥٦/٣٩».

(٣) ابن عساكر.

(٤) تاريخ دمشق ٣٥٧/٣٩.

فأضعف عن الركوب حتى لزمت عنق فرسي خوفاً أن أسقط عنه، وذهب بي ولا أدرى أين يذهب بي إذ سمعت وقع حوافره على بلاط ففتحت ١٩٦١ عيني فإذا دير فوقف بي في وسط الدير، وإذا نسوة يتطلعن من أبواب الدير، فلما رأيني حالي وضعفي عن النزول فاتتني جارية صاحبة منهن حتى وقفت على ونظرت في وجهي، ورطت لهن فنزعن ثيابي وغسلن ما بي ودعت بثياب فالبستنيها وترiac أو دواء فشربتها، ثم أمرت بي فجعلت على سرير لها ودثار وأمرت ب الطعام فهيء لي فأتيت به وأقمت يومي وتلك الليلة لا أدرى ما أنا فيه ومكثت يومين وليلتين حتى ذهب عنى السبات وأنا ضعيف عن الركوب، فلما كان اليوم الثالث جاءها من يخبرها أن فلاناً بطريق قد أقبل في موكيه فأمرت بفرسي غريب وأغلق على باب بيتي الذي أنا فيه، ثم أزلت بطريق وأصحابه وكان قد جاء خطاباً لها فيما هو على ذلك، إذ جاءه من يخبره عن موضع فرسي وإلا قهم على، فهم أن يهجم على فأقسمت إن هو تعرضني لا نال حاجته، فأمسك وأقام قائلة ذلك اليوم، ثم تزوج وخرجت فدعوت بفرسي فخرجت إلي وقالت إني لا آمن أن يكمن لك دعه يذهب فأبيت عليها وركبت فقوت أثره حتى لحقته وشددت عليه فانفوج عنه أصحابه فقتله وطلبت أصحابه فهربوا عنى وأخذت فرسه وسمطت رأسه ورجعت إلى الدير فألقيت الرأس ودعوتها ومن معها من نسائها وخدمتها فوقن بين يدي وأمرتها بالرحلة ومن معها على دواب الدير وسرت بهن إلى العسكر حتى دفعت بهن إلى الوالي فجعل نفلي منهم، فتنفلت المرأة بعينها وسلمت سائر الغنية في المقسم واتخذتها فهي أم بنى.

قال أبو مروان: وكان أبوها بطريقاً من بطارقة الروم، له شرف يهاديه ويكتبه.

وقال الوليد سمعت عبد الله بن راشد الخزاعي يخبر عن سمعه من البطال، يخبر أن هشاماً أو غيره من خلفاءبني أمية كان قد ١٩٧١ استعمله على ثغر المصيصة، وما يليها، وأنه رأى عليه خبر الروم فوجه سرية لتأتيه بالخبر، فتوجهوا وأجلهم أجلاً فاستوعبوا الأجل. قال: فأشفقت من مصيبيتهم ولائمة الخليفة، فخرجت متوجداً حتى أوغلت في الناحية التي أمرتهم بها فلم أجد لهم خبراً فعرفت أنهم أخباروا بغفلة أهل الناحية الأخرى، فتوجهوا إليها، وكرهت أن أرجع ولم أستنقذهم مما هم فيه إن كان عدو يكاثرهم، واعرف من خبرهم ما أسكن إليه. فلم أجد أحداً يخبرني بشيء فمضيت حتى أقف على باب عمورية، فضررت بابها وقلت للباب: افتح لفلان سيف الملك ورسوله، وكنت أشبه به، فاعلم ذلك صاحب

عموريه، فأمره بفتح الباب ففعل وأدخلني، فلما صرت إلى بلاطها وقفت وأمرت من يشتد بين يدي إلى باب بطريقها ففعل ووافت باب البطريق قد فتح وجلس لي ونزلت عن فرسي وأنا متلثم بعمامتي فإذاً لي ومضيت حتى جلست إلى جانبه فرحب بي، فقلت له: اخرج من هنا ل الكلام حملت إليك فأخرجهم وغلق الباب وعاد إلى مجلسه، فاخترطت سيفي وضررت على رأسه، ثم قلت له قد وقعت بهذا الموضع، فأعطني عهداً حتى أكلمك بما أريد، ثم ارجع من حيث جئت، ولا يتبعني منك خلاف فعل، فقلت: أنا البطال فاصدقني عما أسألك عنه وانصحني وإن أتيت عليك، فقال سل عما بدا لك فقلت السرية، فقال: نعم وافت البلاد غارة لا تدفع أهلها يد لامس، فوغلو في البلاد وملأوا أيديهم غنائم، وهذا آخر خبر جاءني أنهم بوادي كذا فغمدت سيفي، وقلت: ادع لي بطعم فدعا فأصبت منه، ثم قمت. فقال لمن حوله: كانوا معه حتى يخرج ففعلا ثم قصدت السرية حتى أتيتها وخرجت بها وبما غنم فهذا من أعجب ما كان مني، ثم قتل رحمه الله شهيداً في غزوة غزاما، وقتل معه خلق كثير من المسلمين وفيها يقول الشاعر: [من الوافر]

١٩٨ / ألم يبلغك من آباء جيشِ
باقرَنْ غُودروا جُثثاً رِماما
لها دفعاً هنائِكَ ولا خِصاما
نوايْحُ يَلْتَدِمَنَ به التَّدَاما
هنائِكَ بغيرو تسقى الهِياما
بخيلٍ تحرقُ الجَيْشَ اللَّهِاما
تَدَاعُوا مِنْ مخافِتهِ انهزاما
فِإِنَكَ كُنْتَ للهِيجا حُسَاما^(١)

تقودُهُمْ حُثُوفُ لمْ يُطِيقوا
معاركَ لمْ يقمْ فيها لشْجُونِ
ولمْ تهملْ على البَطَالِ عينِ
عشيةً باشرَ الأَهْوَالَ صَبراً
إذا ما خيَلَهُ حَمَلَتْ عليهمْ
فلا تبُعَذْ هنائِكَ مِنْ شهيدِ

* * *

(١) إلى هنا يتنهى النقل من تاريخ دمشق.

الباب السادس: في مملكة

نصر والشام والجهان

== الباب السادس ==

في مملكة مصر والشام والجهاز^(١)

هذه الممالك هي مملكة واحدة، يقع معظم مصر في أوائل الثالث، ومعظم الشام في أواخره، وحلب منه في الرابع.

وهي مملكة كبيرة وأموالها كثيرة، وقاعدة الملك بها «قلعة الجبل» ثم «دمشق». وهي من أجل الممالك لما حوت من الجهات المعظمة، والأرض المقدسة، والمساجد التي على التقوى مؤسسة بها المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها^(٢)، وقبور الأنبياء، صلوات الله عليهم والطور والنيل والفرات وهما من الجنة. وبها «معدن الزمرد» ولا نظير له في أقطار الأرض، وحسب مصر فخراً بما انفردت به من هذا المعدن واستمداد ملوك الآفاق له منها.

أخبرنا العدل عبد الرحيم شاهد المعدن بما ذكره من أحواله قال: إن بينه وبين قوص مسافة ثمانية أيام بالسير المعتاد، والبجاة تنزل حوله وقريباً منه لأجل القيام بخفره وحفظه. وهذا المعدن هو في الجبل الأخذ على شرقى النيل في بحري قطعة عظيمة من هذا الجبل تسمى «قرقشنة» وليس في الجبال التي هناك أعلى ولا / ١٩٩ / أشرف منها، وهو في منقطع من البر لا عمارة عنده ولا حوله ولا قريباً منه. والماء عنه على مسيرة نصف يوم منه أو أزيد، وهو ماء يتحصل من المطر ويعرف بغدير أعين يكثر بكثرة المطر ويقل بقلته. أما هذا المعدن فهو في صدر مفازة طويلة في حجر أبيض منه يستخرج الزمرد.

(١) أفادنا في مقابلة هذا الباب مما نشرته د. دورتيا كرافولسكي في دراسة وتحقيق باب (دولة المماليك الأولى) من كتاب مسالك الأنصار لابن فضل الله العمري - ط المركز الإسلامي للبحوث ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م.

(٢) انظر الحديث في مسند أحمد بن حنبل ٢/٢٢٤.

والحجر المذكور ثلاثة أنواع: أحدها يقال له: طلق كافوري، والثاني يقال له: طلق فضي، والثالث يقال له: حجر جروي. يضرب في هذه الحجارة حتى يخرج الزمرد وهو كالعروق فيه والذي يخرج من أجوده.
 وأنواع الزمرد ثلاثة^(١): الذبابي^(٢) وهو أفخرها، ولكنه قليل بل أقل من القليل بل لا يكاد يوجد.

قال العدل عبد الرحيم: إنه ما رأاه في مدة مباشرته ولا خرج منه شيء في طول تلك المدة. قال: وهو يستخرج في طول السنة مهما وجد من يعمل فيه.

قال: وليس للفعلة فيه عدة محصورة بل هم تارات بحسب الاهتمام وعدم الاهتمام باستخراج هذا المعدن.

قال: وإذا استخرج الزمرد يلقى في الزيت الحار، ثم يحط في قطن ويصر ذلك القطن في خرق كتان أو ما يجرى مجراء.

قال: والاحتراز على هذا المعدن كثير جداً، والفعلة تعين عند خروجه من في كل يوم حتى نفتش منهم أماكن لا يليق ذكرها. هذا ما أخبرني به.

وحدثني آخر له معرفة بهذا المعدن وأحواله: أن هؤلاء الفعلة في هذا المعدن مع هذا الاحتراز الشديد لهم حيل كثيرة في سرقة الزمرد ومنها: أن الرجل منهم ليسرق ما يمكنه من الزمرد ويعمله في كيس صغير معد لذلك ويربطه ثم يعلقه بخيط إبريسم مبروم مشدود فيه بين أضلاعه الدواخل، ويكون رأس الخيط معقوداً وثيقاً، فإذا علق الخيط أخرج تلك العقد بين الضرسين إلى جهة الشفة فيبقى ناشباً به فإذا خرج إلى ظاهر المعدن وصار / ٢٠٠ / إلى حيث مأمن آخرجه وأخذ ما فيه^(٣).

(١) صبح الأعشى ٢ / ١٠٩ - ١٠٨ أصناف الزمرد أربعة: الذبابي والريحاني والسلقي والصابوني، وسمّاها المسعودي في مروج ٢ / ٣٣٢ - ١٣٣ : المرّ والبحري والمغربي والأحم. ولم يذكر ابن فضل الله سوى نوع واحد هو الذبابي.

(٢) هذا النوع شديد الخطورة، لا يشوب خصوصاته شيء آخر من الألوان، حسن الصبغ، جيد المائة، شديد الشعاع، وسمى الذبابي لمشابهته لونه في الخطورة لون كبار الذباب الأخضر الريعي الموجود في البساتين. (الإشارة إلى محسان التجارة ١٥، أزهار الأفكار ٨٢، صبح الأعشى ٢ / ١٠٨).

(٣) ذكر التلمساني «في الصبح ٤ / ٤٥٥» نقلاً عن مسالك الأنصار: أنه كان هناك مباصرون وأمناء يعينهم السلطان يتولون استخراج الزمرد وتحصيله ولهם روابط يتشاركونها على ذلك. ثم ينقل كل ما يستخرج منه إلى الخزانة السلطانية فيستخلاص منه ما يحتاجه الخاصة ثم يعرض الباقى للبيع. (صبح الأعشى ٣ / ٢٩٩ - ٢٩٩ / ٤٥٥) وقارن السيوطي ٣٠٠.

وبها «البلسان»^(١) وهو ما هو، وملوك النصرانية تتراءى على طلبه، والنصارى كافة تعتقد فيه ما تعتقد وترى أنه لا يتم تنصر نصراني حتى يوضع شيء من دهن البلسان في ماء المعمودية عند تغطيته فيها.

* * *

فأما وجوه «دخل هذه المملكة» وخراجها وعساكرها وأجنادها وما أوى إليها من الأسم وسكنها من أشتات الخلائق، وعرفت به سلاطينها من حسن السياسة، وقدم الرئاسة، فأمر لا يخفى له خبر ولا يعطي ضوؤه على ذي بصر. وقد تقدم في مواضع من هذا الكتاب، ويأتي في مواضع أخرى منه ما يحقق ما قلنا.

ولا يعتقد معتقد ولا يظن ظان أني قلت في هذا بغرض لكوني من أهل هذه البلاد، وتحت ظل ملوكها وربت أنا وأبائي في نعم سلاطينها. فمعاذ الله أن أقول إلا الحق أو أسطر عني غير الصحيح لاسيما فيما يتحدث به أهل جيل بعد جيل، بل لهذا اختصرت في القول.

ومعامتلتها «الدرارهم»، ثلاثة فضة والثلث نحاس^(٢). والدرهم ست عشرة حبة خروب، الخروبة ثلاثة قمحات، والمثقال أربعة وعشرون خروب. والدرهم منها قيمته ثمانية وأربعون فلساً.

و«الدينار الجيشي»^(٣) مسمى عنه ثلاثة عشر درهماً وثلث درهم^(٤) من العادة عنه

(١) معجم البلدان ٤/٥٦٤.

(٢) هو ما يعرف بالفضة الثقة وهي أعلى عياراً من بقية الدرارهم حدثت في أيام الكامل محمد. (الصحيح ٤٣٩ - ٤٦٢ - ٤٦٣، السلوك للمقرizi ١/٤٥ هـ و ٧٨٦ وفيه أنه يقال لها «الفضة الحجر» والنقود الإسلامية ١٤، النظم الإقطاعية ٥٢٤).

(٣) الدينار الجيشي: اصطلاح تعارف على استعماله ديوان الجيش في عبرة الأقطاعات. فحدد لكل إقطاع عبرة دنانير معينة، فلذلك كان من الممكن أن يكون متاحلاً مائة دينار في إقطاع ما أكثر من متاحلاً مائة دينار فأكثر في إقطاع آخر. (قوانين الدواوين لابن مماتي ٣٦٩، الصحيح ٤٣٨/٢، النظم الإقطاعية ٥٢٥).

والعبرة: هي مقدار المريوط من الخراج أو الأموال على كل إقطاع من الأرضي، وما يتحصل من كل قرية من عين وغلة ونصف. (الخطط للمقرizi ١/٨١ و ٨٧، النجوم الراحلة ٩/٥٣ هـ).

(٤) اتفق مع العمري كل من ابن الجيعان والقلقشندى والسيوطى في تحديد قيمة الدينار الجيشي بـ ١٣ وثلث درهم. (التحفة السننية ٣، الصحيح ٤٣٨/٣، حسن المحاضرة ٢/٣٢١) بينما يذكر المقرizi أن قيمة هذا الدينار في زمان الروك الناصري سنة ٧١٥ هـ كانت متفاوتة من ٧ إلى ١٠ دراهم. (الخطط ٢١٨ - ٢١٩).

مسمى أربعون درهماً سوداً، الدرهم منها ثلث درهم مما ذكر.
ولا يوجد بالديار المصرية من الدراهم السود^(١) إلا المسميات لا الأعيان. فاما بالإسكندرية فإنها توجد بها وهي كل اثنين بدرهم.

وأما «الكيل» فيختلف في مصر: الإرطب وهو ست وبيات^(٢)، الوبية أربعة أرباع^(٣)، الربع أربعة أقداح، القدح مائتان وأثنان وثلاثون درهماً، هذا إرطب مصر. وفي أريافها يختلف الإرطب عن هذا المقدار إلى أنهى ما ينتهي ثمان وبيات^(٤). وإنما المعهود التعامل أنما هو بالإرطب المقدم ذكره.

والرطل هو اثنتا عشرة أوقية، والأوقية اثنا عشر درهماً، فيكون الرطل مائة وأربعة وأربعون درهماً.

وأما دمشق فهي بنظير /٢٠١/ المعاملة المذكورة، خلا أن الصنجة تتفاوت فتنقص كل مائة مثقال شامي مثقالاً وربعاً بمصر، وكذلك الدراهم كل مائة درهم درهم.

والرطل اثنتا عشرة أوقية، والأوقية خمسون درهماً فيكون الرطل ستمائة درهم.
والغرارة للغلات وهي اثنا عشر كيلاً، كل كيل ستة أمداد، المد ينقص قليلاً عن الربع المصري^(٥). ونسبة ما بين الغرارة والإرطب أن كل غرارة ومد ونصف ثلاثة أرطاب بالمصري تحريراً. وفي بر دمشق ربما زاد الرطل والغرارة على الدمشقي حتى يكثر تفاوت ما بينهما لعظم زيادة بعض المواقع. ولكن كيل دمشق ورطلها هو المعتبر وإليه المرجع.

- وأما حلب وحمامة وحمص فأرطالها أزيد من الدمشقي^(٦)، ولا تعرف الغرائر

(١) الدراهم السود: هي كالدينار الجيسي أسماء على غير مسميات. عرفت بذلك لتغير لونها مع طول الزمن، ولذلك ميّزت الدراهم الجديدة في بعض الأحيان باسم الدراهم البيض. وانتشرت الدراهم السود في مصر منذ أواخر العصر الأيوبي. «الصبح ٤٣٨/٣، النظم الإقطاعية ٥٢٥».

(٢) أي يساوي سنة وتسعين قدحاً. (صبح الأعشى ٤٤١/٣).

(٣) أي ستة عشر قدحاً. (نفسه ٤٤١/٣).

(٤) في «الصبح ٤٤١/٣». يبلغ الإرطب في بعضها إحدى عشر وبيبة بالمصري.

(٥) في الصبح: ينقص قليلاً عن ربع الوبية المصري.

(٦) في الصبح ٤/١١٨، ٢١٥: «رطلها سبع مائة وعشرون درهماً، وأوقياية اثنتا عشر أوقية، كل أوقية ستون درهماً».

إنما تعرف المكاكيك^(١) وتختلف زيادة بعضها على بعضها، منها ما هو معتدل الغارة مكوكان ونصف وما بين ذلك. كل ذلك تقريباً.

* * *

فأما مصر فمزروعها على النيل بعد زيادته وعمومه البلاد، سوى قليل لا يعتبر به في بلادها مما يزرع على المطر كأطراف البحيرة، وما يزرع على الأنهر كالفيوم وماؤها من البحر المسمى اليوسفى المشتق من النيل لا ينقطع جريه أبداً على ما هو معروف من أمره.

وأكثر محاسن مصر مجلوبة إليها، حتى بالغ بعضهم فقال: إن العناصر الأربع مجذوبة إليها: الماء وهو النيل مجلوب من الجنوب، والتربة مجلوب من حمل الماء؛ وإلا فهي رمل محض لا تنبت الزرع، والنار لا يوجد بها شجرته وهو الصوان إلا إذا جلب إليها، والهواء لا يهب بها إلا من أحد البحرين، إما الرومي وإما الخارج من القلزم إليها، ولقد زاد هذا في تحامله.

وهي كثيرة الحبوب من القمح، والشعير، والغول، والحمص، والعدس، والبسلة، واللوبيا، والمدخن، والأرز.

وبها الرياحين الكثيرة كالحبق، والأس، والورد والنيلوفر، والنسرين، والبان، والتمر حتا، والمشور، والياسمين.

وبها من المحمضات الأترج، والnarنج، والليمون، والحماض، والكباد، والموز الكبير، وقصب السكر الكبير، والرطب، /٢٠٢/ والعنب، والتين، والرمان، والتوت، والفرصاد، والخوخ، واللوز، والجميز، والنبق، والبرقوق، والقراصيا، والتفاح. وأما السفرجل والكمثرى فقليل، وكذلك الزيتون مجلوب إلا قليل من الفيوم لا اعتبار به، ولا من الجوز إلا ما قل جداً، ولا يوجد بها الفستق ولا البندق، وبها

(١) المُكُوك: مفرد، جمعه: مَكَاكِيك. مكيال للحبوب مقداره صاع ونصف صاع، والصاع قدر نصف وبة، واللوبية ثلاثة كيلات. وهي ليست ذات سعة واحدة في أنحاء البلاد الإسلامية. «نهاية الرتبة للشيزيري ٢١٧، السلوك للممكريزي ٤٠٩/١»، النظم الإقطاعية ٥١٧.

يقول الفلقشندي في الصبع ٢١٦، ١١٨/٤: «والمكوك المعتر في حافرتها سبع وسبعين بلكيل المصري، وأما في نواحيها وببلادها، فيختلف اختلافاً متبيناً في الزيادة والتقصّ».

البطيخ الأصفر أنواع والأخضر أنواع، والخيار، والثفاء على أنواع، والقلقس، واللفت، والجزر، والقنبيط، والفجل، والبقول المتنوعة.

وبها أنواع الدواب من الخيل، والجمال، والبغال، والحمير، والبقر، والجوميس، والغنم، والمعز. وما يوصف من دوابها بالجودة الحمر لفراحتها، والبقر والغنم لعظمها.

وبها الإوز، والدجاج، والحمام.

ومن الوحش الغزلان، والنعام، والأربن.

فاما من أنواع الطير فكثير كالكركي، والإوز وغير ذلك.

* * *

وأواسط «الأسعار» في غالب أوقاتها: الإربد القمح بخمسة عشر درهماً، والشعير بعشرة، وبقيمة الحبوب على هذا الأنماذج، وأما الأرز فيبلغ أكثر من ذلك. وأما اللحم فأقل سعره الرطل نصف درهم وفي الغالب أزيد، والدجاج يختلف سعره بحسب اختلاف أحواله، فجيده الطائر بدرهمين، ومنها ما هو بثلاثة وقد يربو، ومنها ما هو بدرهم واحد.

* * *

ويعمل بمصر معامل كالتنانير ويعمل بها البيض بصنعة، وتقد يحاكي بها نار الطبيعة، في حضانة الدجاجة البيض، وتخرج في تلك المعامل الفراريج، وهي معظم دجاجهم.

وبها ما يستطاب من الألبان والأجبان. وبها العسل بمقدار متوسط بين الكثرة والقلة. وأما السكر فكثير جداً وقيمتها المعهودة من على الغالب من السعر الرطل بدرهم ونصف وربما زاد. وي العمل بها المكرر الفائق وتبلغ قيمته درهمين ونصفاً لكل رطل. ومنها يجلب السكر على اختلاف أنواعه إلى كثير من البلاد، وقد نسي بها ما كان يذكر من سكر الأهواز.

وبها الكتان المعدوم المثل المنقول منه وما يحمل من قماشه إلى أقطار البلاد. ولقد أراني خواجا جمال الدين / ٢٠٣ / يوسف الماخوري مقاطع شرياً أبيض من الصنف المرمرش استعملها بالإسكندرية على أنه يقدمها للسلطان أبي سعيد كأنها جناح الزنبور، لا أظن أنه يعادلها في الدنيا قماش، قال: إنه استعملها وتقوم عليه

كل مقطع منها ساذجاً^(١) بسبعمائة درهم ورقاً، ويقوم طرزه وهو ساذج بمثل ذلك، فيقوم جملة المقطع الواحد بألف وأربع مائة درهم ورقاً عنها سبع مائة درهم نقرة ليس فيه إلا الكتان وما قل من الحرير في طرزه، على أنه لا يكون غالباً لطرز إلا من الكتان، فإن الأبيض فيه لا يكون من الحرير أبداً، ومنه تكون الكتابة وهي حلى الطراز. وقال لي: إن الكتان يبتاع الدرهم منه بأكثر منه، وأما ما يدخل في الطرز فيبتاع بنظير وزنه مرات عدّة.

قلت: وهذا الشرب هو الذي تفوق به الإسكندرية البلاد أكثر من بقية ما يعمل فيها من القماش على اختلاف أجنبائه وأنواعه^(٢).

[مملكة مصر]

ثم نعود إلى ذكر مصر فنقول: وأما مبانيها فقليل منها بالحجر وأكثرها بالطوب وأفلاق النخل والجريد. وخشب الصنوبر مجذوب إليهم من بلاد الروم في البحر ويسمى عندهم النقي.

وبها المدارس والخوانق والربط والزوايا والتراب الضخمة والعمائر الجليلة الفائقة، والأماكن المعروفة المثل المفروضة بالرخام المنقوشة بالأختشاب المدهونة بأنواع الأصباغ الملمعة بالذهب واللازورد. ومن حيطانها ما هو موزّر بالرخام، وتختلف المباني بحسب اختلاف أصحابها.

وحاضرة مصر تشتمل على ثلات مدن عظام: «الفسطاط» وهو بناء عمرو بن العاص وهي المسماة عند عامة أهل مصر «بمصر العتيقة»^(٣).

(١) الساذج: ما لا نقش فيه من القماش. «السلوك ٢/٦٣٢ هـ».

(٢) عن طراز الاسكندرية وما كان يصنع به، انظر: قوانين الدواوين ٣٣٠ - ٣٣١، صبح الأعشى ١١/٤٢٥ - ٤٢٦، الخطط المقرizable ١/٤٦٩.

(٣) عن تاريخ مدينة الفسطاط وتحطيمها، انظر: فتوح مصر وأخبارها ٩١ - ١٢٨، المغرب في حلّي المغرب (قسم مصر)، القاهرة ١٩٥٣، الانتصار لواسطة عقد الأمصار (القاهرة ١٨٩٣) ٤/٢ - ١٠٩، صبح الأعشى ٣٢٥/٣ - ٣٤٣، الخطط ١/٣٨٥ - ٣٠٤، علي بك بهجت: حفريات الفسطاط (دار الآثار العربية - القاهرة ١٩٢٨).

و«القاهرة المعزية». بناها القائد جوهر لمولاه الخليفة المعز بن المنصور بن القائم بن المهدى^(١).

و«قلعة الجبل» بناها قراقوش للملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب رحمة الله تعالى، وأول من سكنها أخوه العادل.

وقد اتصل بعض هذه الثلاثة بسور بناه قراقوش بها إلا أنه قد تقطع الآن في /٤٢٠٤ بعض الأماكن^(٢). وهذا السور هو الذي ذكره الفاضل في كتاب كتبه إلى صلاح الدين، فقال: «والله يحيى المولى حتى يستدير بالبلدين نطاقه، ويمتد عليهم رواقه، فهما عقيلة ما كان معصمهما ليترك بغير سوار، ولا خصرهما ليجلب بلا منطقة نصار. والآن قد استقرت حواطير الناس وأمنوا به من يد تتخطف، ومن طمع مجرم يقدم ولا يتوقف، وقد عظمت».

وبها «المارستان المنصوري»^(٣) المعدوم النظير لعظمة بنائه وكثرة أوقافه، وسعة إنفاقه وتنوع الأطباء وأهل الكحل والجراح به. وهو جليل المقدار جميل الآثار، جزيل الإثمار. وقفه السلطان الملك المنصور قلاوون^(٤) - رحمة الله -

(١) أهم مصادر دراسة تاريخ القاهرة: الخطط (بولاق ١٢٧٠ هـ)، الانتصار (القاهرة ١٨٩٧)، صبح الأعشى ٣٤٤-٣٦٧، النجوم الزاهرة وتعليقات محمد رمزي عليها، الخطط التوفيقية ١-٢٠ (بولاق ١٣٠٤ هـ) وـ ٤ (القاهرة ١٩٦٩-١٩٨١) ومن الدراسات الحديثة كتاب «عاصمة مصر في زمن الفاطميين، تخطيطها وحياتها الاقتصادية والاجتماعية». للدكتور أيمن فؤاد سيد.

(٢) أقيم سور القاهرة ثلاثة مرات: المرة الأولى عند بناء القاهرة في سنة ٣٥٨ وصفه جوهر قائد المعز لدين الله وكان من الطوب اللبن. وفي سنة ٤٨٠ وسع أمير الجيوش بدر الجمامي القاهرة من جهتيها الشمالية والجنوبية ونقل أسوارها إلى حيث يحدد موقعها اليوم أبواب الفتوح والنصر في السور الشمالي وباب زويلة في السور الجنوبي. ولما تولى صلاح الدين الأيوبي عهد إلى بهاء الدين قراقوش بناء سور يحيط ليس فقط بالقاهرة ولكن بالفسطاط وما تبقى من القطاع امتد في جهته الشمالية ليحيط أيضاً بالمقدس. «الخطط ١/٣٧٧-٣٨٠».

(٣) ما زال المارستان المنصوري قائماً بشارع المعز لدين الله في مواجهة بقايا المدرسة الظاهرية وقبة الصالح نجم الدين أيوب. راجع عنه: تشريف الأيام والعصور لابن عبد الظاهر ٥٥-٥٧، الصبح ٣/٣٦٥-٣٦٦، الخطط ٢/٤٠٨-٤٠٦، والسلوك ١/٧١٦-٧١٧ و٧٢٥ و٧٩٧ و١٠٠٠ (ونقلًا عن النويري)، النجوم الزاهرة ٧/٣٢٥-٣٢٦ هـ، تاريخ البيمارستانات في الإسلام (دمشق ١٩٣٩) ٨٣-٨٧، «وثائق وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري» نشرت في آخر كتاب ابن حبيب: تذكرة النبي في أيام المنصور وبنيه (القاهرة ١٩٧٦) ١/٢٩٥-٣٩٦ والأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (القاهرة ١٩٨٠) ١٥٧-١٧٣.

(٤) راجع «وثيقة وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري»، دراسة ونشر وتحقيق محمد محمد أمين، ملاحق كتاب «تذكرة النبي» لابن حبيب ٢٩٣-٣٩٦.

وبها «البساتين» الحسان، والمناظر النزهة، والأدوار المطلة على البحر وعلى الخلجانات الممتدة منه أوقات مدها.

وبها «القرافة» تربة عظمى لمدفن أهلها^(١).

وبها «العمائر الضخمة»، ولها المتنزهات المستطابة، وهي من أحسن البلاد إيان ربيعها للغدر الممتدة من مقطوعات النيل بها وما يحفلها من زروع أخرجت شطأها وفاقت أزهارها.

وبها «الآثار القديمة» الدالة على حكمة بانيها «كالأهرام»^(٢): وأشهرها الهرمان الكبيران بالجيزة وبرابي أحمر. فأما بقية ما يذكر من البرابي والملاعب بالأسمونين وأنصنا فقط وعين شمس ومنارة الإسكندرية والبيت الأخضر بمضرب يوسف عليه السلام. فكل هذه قد غير الدهر معالمها، وطمس آثار غالبتها، وشرع الخراب بالهرمين الكبيرين والبرابي بأحمر لأخذ حجارتها وتغيير بهجتها.

وبها الصنم المقارب للهرمين المسماى عند العامة «أبى الهول»، وهو صنم كبير لا يبين منه إلا إلى قريب من نصفه^(٣).

والقول في الأهرام والبرابي كثير. والأقرب أن الأهرام هيأكل بعض الكواكب. فأما البرابي فقال لي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن شقيق الدمشقي^(٤): إنه رأها وأجاد تأملها فوجدها مشتملة على جميع أشكال الفلك، وأن الذي ظهر له أنه لم يعملها حكيم واحد ولا ملك /٢٠٥/ واحد، بل تولى عملها قوم بعد قوم حتى تكاملت في دور كامل، وهو ستة وثلاثون سنة، لأن مثل هذه الأعمال لا تعمل إلا

(١) عن القرافة، راجع: صبح الأعشى /٣٧٤ - ٣٧٥ - ٣٧٦، الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة ٣٦ - ٣٧ - ٤٤٣ /٢.

(٢) انظر حديث المؤلف عن الأهرام وزيارته لها في المسالك ١ /١، ٣٣٢ - ٣٣٠، رحلة ابن بطوطة ١ /٣١ - ٣٢ - ٧٧ - ٧٨، الإفادة والاعتبار ٣٦ /٥٢ - ٥٣، وراجع: مروج الذهب ١ /١١١ - ١٢٢، حسن المحاضرة ١ /٧٠ - ٧٩.

(٣) انظر حديث المؤلف عن أبي الهول في المسالك ١ /١، ٣٣٣ - ٣٣٢، وفيه أنه لم يكن يظهر منه فوق سطح الأرض إلا رأس الصنم وعنقه، وهكذا عاينه أيضاً عبد اللطيف البغدادي في الإفادة والاعتبار ٤ /١٢٢ - ١٢٣.

(٤) في الصبح ٣ /٣٢٣ محمد بن سعيد الدمشقي، وفي مسالك الأ بصار ١ /٢٤٠ ط زكي: محمد بن النقاش.

بالأرصاد، وما يكتمل رصد المجموع في أقل من هذه المدة المذكورة. هذا ما أخبرني به عنها.

وكتب القاضي محيي الدين بن الزكي^(١) إلى القاضي الفاضل^(٢) كتاباً ذكر فيه مصر وسماتها بالموسمة، فعز ذلك عليه، وذكر في جوابه إليه: «وهجم بي التأمل على لفظة أطلقها على مصر وكنى بها عنها، ووصمها بما وسمها وبث من القلوب عصمتها، وأظنه عاقبها بذنب فرعون حين قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(٣)، وحين قال: ﴿الَّتِيَسَ لِي مُلْكُ مَصْرَ﴾^(٤)، كما فعل الرشيد وولي الخصيب^(٥). فإن كان إلى هنا ذهب فقد عاقبها بذنب لم تجنه، وهدمها بأمر لم تبني. وعلى كل حال فلو كان على

(١) هو القاضي محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن علي بن عبد العزيز قاضي قضاة الشام، ولد سنة ٥٥٠هـ وتوفي سنة ٥٩٨هـ.

ترجمته في: وفيات الأعيان ٤/٢٢٩-٢٣٧، العبر ٤/٣٠٥، الراوي بالوفيات ٤/١٦٩-١٧١، طبقات الشافعية الكبرى ٦/١٥٧-١٥٩، البداية والنهاية ١٣/٣٢-٣٣، النجوم الزاهرة ٦/١٨١، شذرات الذهب ٤/٣٣٧-٣٣٨. قال الصفدي: ومكانت القاضي الفاضل إليه مجلدة كبيرة.

(٢) عبد الرحيم بن علي بن السعيد اللخمي، المعروف بالقاضي الفاضل: وزير، من أئمة الكتاب. ولد بعسقلان (بفلسطين) سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م وانتقل إلى الإسكندرية، ثم إلى القاهرة وتوفي فيها سنة ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م كان من وزراء السلطان صلاح الدين، ومن مقربيه، ولم يخدم بعده أحداً، قال بعض مترجميه: «كانت الدولة بأسرها تأتي إلى خدمته» وكان السلطان صلاح الدين يقول: «لا تظنوا أنني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل!» وكان سريع الخاطر في الإنشاء، كثير الرسائل، قيل: لو جمعت رسائله وتعليقاته لم تقصّر عن مئة مجلد، وهو مجيد في أكثرها. وقد بقي من رسائله مجموعات، منها «ترسل القاضي الفاضل - خ» و«رسائل إنشاء القاضي الفاضل - خ» و«الدر النظيم في ترسل عبد الرحيم - خ» ولابن سناء الملك كتاب «فصوص الفصول وعقود العقول - خ» أكثره من إنشاء القاضي الفاضل. وله «ديوان شعر - ط».

مصادر ترجمته: النجوم الزاهرة /٦٥٦، ووفيات الأعيان /١٢٨٤، وخطط مبارك /٦، وكتاب الروضتين /٢٤١ والكتبخانة /٤ و٢٩٠ Broc. S.I: ٥٤٩، والنعيمي /١ والتونيري /٨ والسبكي /٤ وخريدة القصر: فسم شعراء مصر /١٣٥ وهو فيه «عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد البيساني» وفي هامش الصفحة نفسها: كان أبوه يلي قضاة بيسان في فلسطين فنسب إليها. وفي كشف الظنون /٢ ١٠٦١ «سيرة الملك المنصور قلاوون بربع قرن، وإنما الكتاب من تأليف شافع بن علي العسقلاني؛ روضات الجنات /١٣٨، أعلام العرب /٢١، الأعلام /٣ ٣٤٦. معجم الشعراء للتجوري /٣ ١٣٨.

(٣) سورة النازعات: الآية ٢٤.

(٤) سورة الزخرف: الآية ٥١

(٥) أبو نصر الخصيب بن عبد الحميد، صاحب ديوان خراج مصر. (الخطط ٢٠٥/١، رحلة ابن بطوطة ١٣٧-٣٩). وقصده أبو نواس لمدحه في مصر (وفيات الأعيان ٨/١٠٢ «الفهرس»).

نفسي لكنت معه عليها، ولو بعث سهماً إليها لتولت يدي إلقاءه إليها، فلقد أخرجنني من أرضه بسحره^(١)، وندم خادمه على ما فات فيها من عمره، فهو الآن لا يرفع إليها طرفاً من كسله، ولا يرى نيلها إلا أقل من مسيل بردى ووشله، وإذا رأى دينارها الأحمر قال: به حمرة من خجله، وإذا رأى إبليزها الأسود قال: من سواد عمله، وإذا رأى هرميها قال: انكسر نهداتها، وإذا رأى رملتها الحاقة قال: شاب فؤادها. ثم راجع النظر فإذا اللفظة التي أطلقها سيدنا عليها وهي المومسة تأبى العلقة فكيف له أن يقذف المستورة بهذا القذف، ويهاجم على خدرها بهذا الوصف، وقد وفد إليها عن شامه حين أخذ الكفر يتحقق إسلامه فأنجدته وأصرخته وسكنت الروع وأفرخته، وعاد إلى الفائت الدرك وقال الناس ﴿مَا هَذَا بَشَّرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ﴾^(٢). وإذا كانت دمشق من عتقاء مصر فلا فخر لها أن تكون مولاتها مومسة، وقد سرت بهذه اللفظة فما كأنها دخلت كتابه ولا مجلسه».

قلت: وأما «الشام» فيزرع غالبه على المطر، وهو من جميع ما ذكر في مصر من الحبوب. ومنه ما هو على سقي الأنهر، وهو قليل.

وبها أنواع الأشجار وأجناس الشمار /٢٠٦/ من التين، والعنب، والرمان، والسفرجل، والتفاح، والكمثرى، والإجاص، والقراصيا، والتوت، والقرصاد، والممشمش، والزرعور، والخوخ - وهي المسمى عندهم الدراقن - وأجلها بدمشق من غالب ذلك على أنواع متنوعة وأجناس متعددة شتى. ومنها فواكه تأتي في الخريف وتبقى إلى الربيع كالسفرجل، والتفاح، والرمان، والعنب.
وبها الجوز، واللوز، والفستق، والبندق.

وبها الليمون، والأترج، والنارنج، والكمباد، والموز، وقصب السكر من أغوارها يحمل إليها من نحو يومين وأزيد.

وبها البطيخ الأصفر والأخضر على أنواع، والخيار، والثفاء، واليقطين، واللفت، والجزر، والقنبيط، والهليون، والباذنجان، والملوخية، والبقلة اليمانية، والرجلة، وغير ذلك من أنواع الخضروات المأكولة.

(١) إشارة إلى سورة الشعرا: الآية ٣٤. ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَنْصَافِكُمْ يُسْعِرُهُ﴾.

(٢) سورة يوسف: الآية ٣١.

ونهر دمشق الخاص بها بردى، وبها غيره من الينابيع والأنهار المادة فيما حولها^(١).

وبها الإوز والدجاج والحمام وكثير من أنواع الطير، ولا تكون الفراريج إلا بحضانة، لا كما يعمل في مصر. ولقد أذكر أنه جاءها شخص من مصر في زمن الصيف وعمل بها في حاضرة العقبية معمل الفراريج وطلعت به الفراريج، فلما أتى زمن الخريف لم تطلع معه وخسر وترك ذلك وعاد إلى مصر.

وأسعار اللحم أرخص من مصر. وأما الدجاج فنظيرها، وأما الإوز فأغلى.

وبها العسل متوسط، وي العمل بها السكر ومنه المكرر وهو بأزيد من سعره في مصر ولا يكثرون.

وبها أنواع الرياحين: الآس، والورد، والبنفسج، والنيلوفر، والخلاف، والنرجس، والمنثور، والياسمين، والترنجان، والمرندجوس، والت تمام، والنسرین. وإلى وردها وبنفسجها النهاية، حتى إنه عطل وردها وما يستخرج من مائه ما كان يذكر من جوري^(٢) نصيبين. وماء الورد ينقل إلى غالب البلاد.

وبالشام الزيتون الكثير ومنه يحمل إلى كثير من البلاد. وبها أشياء كثيرة خاصة بها.

وغالب مباني الشام بالحجر، ودورها أصغر مقادير من دور مصر، ولكنها أزيد زخرفة منها، وإن كان الرخام بها أقل، وإنما هو أحسن أنواعاً.

وعناية أهل دمشق بالمباني كثيرة، ولهم في بساتينهم منها ما تفوق به /٢٠٧/ وتحسين بأوضاعه. وإن كانت حلب أجل بناء لعنایتهم بالحجر، فدمشق أزین وأكثر رونقاً لتحكم الماء على مديتها وسلطه على جميع نواحيها.

وبجميع الشام وجوه الخير كثيرة من المدارس، والخوانق، والربط، والزوايا للرجال والنساء، والممارستانات، وأوقاف البر والصدقات على اختلافها، وخصوصاً دمشق فإنه لا يطأول في ذلك باعها، ولا يحاول في هذه الغاية

(١) عن أنهار وبحيرات الشام، انظر: مسالك الأ بصار ١/٨٢-٧٩ ط زكي، الصبح ٤/٧٩-٨٥.

(٢) نوع من الورد معروف ببلاد الشام، ويعرف بالورد الجوري نسبة إلى جور وهي مدينة بفارس.

قال ياقوت: «وهو أجود أصناف الورد وهو الأحمر الصافي» معجم البلدان ٢/١٤٧ مادة (جور).

ارتفاعها. فأما مسجدها الجامع فهو الفارق بينها وبين ما سواها والفارق بحسنه على كل المباني.

وفي هذه المملكة - مصر والشام - من محاسن الأشياء ولطائف الصنائع ما تكفي شهرته. وبها من أنواع الصناع في الأسلحة والقماش والزرκش والمصوغ والكفت^(١) وغير ذلك، مما يكاد يعد تفرداً بها، والرماح التي لا يعمل في الدنيا أحسن منها.

[عاشر المملكة]

وأما عساكر هذه المملكة^(٢) فمنهم من هم بحضورة السلطان، ومنهم من فرق في أقطار هذه المملكة وببلادها. ومنهم سكان بادية كالعرب والتركمان.

وجندها مختلط من أتراك وجركس وروم وأكراد وتركمان، وغالبهم من المالكين الميتاعين، وهم طبقات:

أكابرهم من له «إمرة مائة» فارس، وتقدمة ألف فارس. ومن هذا القبيل يكون أكابر النواب، وربما زاد بعضهم بالعشرة فوارس والعشرين.

ثم «أمراء الطبلخانات»^(٣) ومعظم من تكون له إمرة اربعين فارساً، وقد يوجد فيهم من له أزيد من ذلك إلى السبعين، ولا تكون الطبلخانات لأقل من أربعين.

ثم «أمراء العشرات» ممن تكون له إمرة عشرة، وربما كان فيهم من له عشرون فارساً ولا يعد إلا في أمراء العشرات.

(١) الكفت: هو ما تطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة «الخطط المقريزية ٢/٥٠».

(٢) راجع في هذا الموضوع، السيد الباز العربي: «الفارسي المملوكي»، المجلة التاريخية المصرية ٥١٩٥٦/٤٧-٧٢، إبراهيم حسن سعيد: الجيش في عصر سلاطين الممالك (رسالة ماجستير بجامعة القاهرة ١٩٦٣)، محمود نديم: الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، القاهرة ١٩٨٣.

(٣) الطبلخانة: مفردته، جمعه: طبلخانات. لفظ مركب من الكلمة طبل العربية، وكلمة خانة الفارسية، ويعني بيت الطبل أو الفرقة الموسيقية السلطانية. «السلوك ٤٦/٦٥٤-٢٢٥». وكانت تتكون من عدة طبول تصفعها أبواق وزمز تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص، تدق في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب وتكون صحة الطبل في الأسفار والحروب. «الصبح ٢/٤٣٤-٨١٢». والناصر محمد بن قلاوون هو الذي بنى الطبلخانة تحت القلعة، فيما بين باب السلسلة وباب المدرج ستة٧٢٢هـ في موضع دار العدل القديمة التي بناها الظاهر بيبرس. «الخطط ٢/٢١٣».

ثم «جند الحلقة» وهؤلاء تكون مناشرهم من السلطان؛ كما أن مناشر الأماء من السلطان، وأما أجناد الأماء فمناشرهم من أمرائهم. وهؤلاء، جند الحلقة، لكل عدة أربعين نفراً مقدم منهم ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر، كانت مواقفهم معه وترتيبهم في موقفهم إليه^(١).

ويبلغ بمصر إقطاع بعض أكابر الأمراء المئين المقربين من السلطان مائتي ألف دينار جيشية، وربما زادت على ذلك. وأما غيرهم فدون ذلك ودون /٢٠٨/ دونه، ودون دونه إلى ثمانين ألف دينار وما حولها. وأما الطبلخانات فتبليغ الثلاثين ألف دينار وما يزيد، وينقص عليها إلى ثلاثة وعشرين ألف دينار. أما العشرات فنهايتها سبعة آلاف دينار إلى ما دون ذلك. وأما إقطاعات جند الحلقة فمنه ما يبلغ ألف وخمس مائة دينار. ومن هذا المقدار وما حوله إقطاعات أعيان الحلقة المقدمين عليهم، ثم ما دون ذلك إلى مائتين وخمسين ديناراً. وأما إقطاعات جند الأمراء فإلى ما يراه الأمير من زيادة بينهم ونقص.

وأما إقطاعات الشام فلا تقارب هذا المقدار، بل تكون على الثلثين منها، خلا ما ذكرناه عن بعض أكابر أمراء المئين المقربين، فإن هذا نادر لا حكم له، ولا أعرف في الشام ما يقارب هذا المقدار إلا ما هو لنائب الشام.

وكل جند الحلقة والإمرة تعرض بديوان جيش السلطان ويثبت باسمه وهيأته وحليته، ثم لا يستدل به أميره إذا شاء إلا تنزيل عوضه وعرض المعرض.

وللأمراء على السلطان في كل سنة ملابس، فأما من بحضرته فحظهم في ذلك

(١) قسم القلقشندي والمقربي الجندي الجيش المصري في زمن المماليك البحرية إلى قسمين: أجناد الحلقة والمماليك السلطانية. ويبلغ جند الحلقة ذروتهم في أيام الناصر محمد ابن قلاوون فقد بلغ عددهم كما رأهم المقربي بنفسه في جرائد ديوان الجيش المتعلقة بأوراق الروك الناصري أربعة وعشرين ألف فارس. «الصبح ١٥-١٦، الخطط ١/٩٥».

وجند الحلقة هم محترفو الجندي وكانوا يكتونون عصب الجيش المماليكي. ويمثلون فيما بينهم وحدة اجتماعية عسكرية، ولكنهم قلت أهميتهم قرب نهاية عصر المماليك.

أما اسم الحلقة الذي أطلق عليهم فلا يوجد له تفسير مقنع إلى الآن وإن كان يفترض أنهم كانوا في البداية وحدة تحيط بالسلطان كالحلقة مكونة حرسه الشخصي فاكتسبت من هنا هذا الاسم. (راجع: السلوك ١٢٢-٢٨١هـ، الفنون والوظائف للباشا) ٣٦٨-٣٦٥، النظم الإقطاعية ٤٧٨، إبراهيم سعيد: الجيش في عصر سلاطين المماليك ٨٧-١٠٥، محمود نديم: الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري ١٢٠-١٠٥.

وافر، ولهم الخيول في كل سنة ينعم بها عليهم، ولأمراء المئين مسرجة ملجمة والبقية عرى، وتمتاز خاصتهم على عامتهم بذلك.

ولجميع الأمراء بحضورته، من المئين والطلخانات والعشرات، الرواتب الجارية في كل يوم: من اللحم وتوابله كلها، والخبز، والشعير، والزيت، ولبعضهم الشمع والسكر والكسوة في السنة.

/ ٢١٠ / ومن شعار سلطنة^(١) هذه المملكة أن يركب سلطانها في يوم دخوله إلى مدينة يحبها ويوم العيد وأيام ركوبه إلى الميدان للعب الكرة برقبة وهي بزراش ذهب على أطلس أصفر يعمل على رقبة الفرس من تحت أذنيه إلى نهاية العرف، ويكون قدامه اثنان من أوشاقيته^(٢) راكبين على حصانين أشهبین بربقيتين نظير ما هو راكب كأنهما معدان لأن يركبهما، وعلى الوشاقين المذكورين قباوان أصفران من حرير بطرازين من زركش بالذهب، وعلى رأسيهما قبان مزر堪شان، وغاشية السرج محمولة أمامه، وهي أديم مزركتة بذهب يحملها بعض الركاب دارية^(٣) قدامه، وهو ماش في وسط الموكب، ويكون قدامه فارس يشبب بشباب لا يقصد بنغمها الإطراب بل ما يقع بالمهابة سامعه، ومن خلفه الجنائب^(٤) وعلى رأسه العصائب السلطانية، وهي صفر مطرزة بذهب بألقابه وأسمه.

وفي يوم العيدن ودخول المدينة يزيد على ذلك برفع المظلة على رأسه، وهي

(١) المقصد بشعار السلطة أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التي كان يظهر بها السلطان في المراكب الحفلة. «الصبح ٤-٧، ٨-١، السلوك ٤٤٣ هـ».

(٢) الأوشاقت (أو جاقي) جمع، مفرد: أو شاقت. لفظ فارسي معرب يدل على طائفة كانت مهمتهم، في عصر المماليك، العناية بالخيل وركوبها للتسيير والرياضة. «الصبح ٤-٥، ٨-٥، الخطط ٢١٩٩ و ٢٤٣٣ هـ و ٢١٨٣ هـ، الفنون والوظائف للباشا ٢٨٩، نبيل عبد العزيز: الخيل ورياستها في عصر سلاطين المماليك (القاهرة، مكتبة الأنجلو ١٩٧٦) ١٢١».

وفي تعليق لمحقق بداع الزهور لابن إياس أن الأوجاقي أحد الخاكمية، وظيفته حراسة الأسير بأن يركب خلفه وفي يده خنجر مسلول!. «ابن إياس: صفحات لم تنشر من بداع الزهور ٩٨ هـ». وعن عنابة الناصر محمد بن قلاوون بالخيل وإنشائه ديواناً خاصاً لها، راجع: النجوم الزاهرة ٩/١٦٨.

(٣) الركاب دارية: هم الذين يحملون الغاشية بين يدي السلطان في المراكب الحفلة. وهم من موظفي الركاب خانة، وهو بيت الركاب الذي تكون به السروج واللجم والكتابيش، وموكل به موظف يعبر عنه بمهتر الركاب خانة. «الصبح ٤-١٢، السلوك ١-٤٤٠ هـ».

(٤) الجنائب: وهي الخيل المنقادة جانب الركاب، «تاج العروس ١-١٨٨».

الجِنْتُ^(١)؛ وهو أطلس أصفر مزركش على أعلاه قبة وطائر من فضة مذهبة، يحملها يومئذ بعض أمراء المؤمنين الأكابر وهو راكب فرسه إلى جانبه، وأرباب الوظائف والسلاح كلهم خلفه، وحوله وأمامه الطبردارية - وهم طائفة من الأكراد ذوي الإقطاعات والإمرة - يكتون مشاةً وبأيديهم الأطباق^(٢) مشهورة.

ومن رسم الأمراء أن يركب الأمير منهم حيث يركب وخلفه جنيب، وأما أكابرهم فربما يركب بجنبيين، هذا في المدن والحضر ولهذا في البر. ويكون لكل منهم طلب مشتمل على أكثر مماليكه، وقدامهم خزانة محمولة للطلبخان على جمل واحد يجره راكب آخر على جمل والمال على جملين وربما زاد بعضهم على ذلك. وأمام الخزانة عدة جنائب تجر على أيدي مماليك ركاب خيل وهجن^(٣)، وركابة من العرب على هجن، وأمامها الهجن بأكواها مجنبوبة للطلبخانات قطاراً واحداً، وهو أربعاء ٢١١ / ٢١١ ومركب الهجان والمال قطاران، وربما زاد بعضهم، وعد الجنائب في كثرتها وقلتها إلى رأي الأمير وسعة نفسه، والجنائب على ما يراه، منها ما هو مسرج ملجم، ومنها ما هو بعنه لا غير.

[زي أعيان هذه المملكة]

وأهل هذه المملكة يضاهى بعضهم ببعض في الملابس الفاخرة، والسرور المحلاة، والعدد الفاخرة^(٤).

(١) المظلة المعبر عنها بالجِنْتُ - بجمع مكسورة، قد تبدل سينا معجمة، وفاء مثناة من فوق - قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب، تحمل على رأس السلطان في العيددين، وهي من بقايا الدولة الفاطمية «الصبح ٤ / ٧ - ٨». وضبطها القلقشندي في موضع آخر من الصبح ٢ / ١٣٣ (الجزء) بتون بين العجم والزاي المعجمة.

(٢) الطَّبَرِ: فارسي يمعنى الفأس ويبعد أن أصله من مدينة طبرستان فقد ذكر ياقوت (معجم البلدان) أن طبرستان معناها ناحية الطبر، لأن أهل هذه التواحي كثيرة الحروب وكل أسلحتهم الأطباق. والطبر المملوكي كانت ذات ذات رأس شبه دائري تحلى بزخارف مفرغة أو مموهة بالذهب أو بكليهما، ويغلب أن تكون الزخارف على هيئة جامات تحتوي على تروس محفورة، وكانت هذه البطة تثبت في قائم إما من المعدن أو من الخشب، ويحلق المعلني منها غالباً بالزخارف.

(٣) الهجن: وهي الخيل التي أبواها عربي وأمها من البراذين يعني من العجميات. «الصبح ٢ / ١٤» وفيه أيضاً «المولد بين العراب والبراذين... قيل له هجين».

(٤) عن أنواع الملابس والخلع المختلفة في زمن المماليك راجع «الملابس المملوكية» بترجمة صالح الشيشي (القاهرة)، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٢.

وأما زيهم فالأقبية التترية^(١) والتكللوات^(٢) فوقها، ثم القباء الإسلامي^(٣) فوقها، وعليه تشد المنطقة والسيف^(٤). ثم الأمراء والمقدمون وأعيان الجناد تلبس فوقه أقبية قصيرة الأكمام أقصر من القباء التحتاني بلا تفاوت كبير في قصر الكم والطول، وكلوتات^(٥) صغار غالبها من الصوف الملطي الأحمر وعليها عمامات صغار، ومهايمز^(٦) على الأخفاف، ويعمل المنديل على الحياضة^(٧) على الصولق^(٨) من الجانب الأيمن.

هذا هو زي أهل هذه المملكة.

* * *

(١) القباء مفرده، جمعه: أقبية، ثوب يلبس فوق الثياب، سمي بذلك لاجتماع أطرافه «لسان العرب» ٢٠ /٢٠، والأقبية التترية ذات أصل أجنبي، وهي غير القباء التترى السلاوي. كانت لها كمان يلفا الصدر من اليسار إلى اليمين بدلاً من عمل الشقة المستقيمة التقليدية للقمصان التي كانت تلبس في عصر الفاطميين. وكانت تصنع من الصوف والأطلس والحرير أو القطن البعلبكي، وكان لونه إما أبيض أو مزيّن بأشرطة باللونين الأحمر والأزرق ويطلق عليه اسم «المُشَهَّر» وله أكمام ضيقة.» Mayer,L.A., op.cit, p.21

(٢) يرى ماير أن التكللوات كانت تلبس في الهند ومصر فقط. (Mayer, op.cit., p.21n.6).

(٣) يبدو أن هذا الرداء كانت له طريقة عربية مميزة في التفصيل تخالف القباء التترى واللاري، ولكننا لا نملك وصفاً له. (Mayer, L.A., op.cit., p.22).

(٤) قارن ذلك مع صبح الأعشى ٤٠ /٤ ففيه: «يشد عليه السيف من جهة اليسار، والصولق والكزلك من جهة اليمين».

(٥) كلوتة مفرده، جمعه: كلوتات: غطاء للرأس من الصوف المضرب بالقطن يلبس وحده أو بعمامة. استحدثتها بمصر سلاطين الأيوبيين فكانوا يلبسونها من الجوخ الأصفر بغير عمامات وذوائب شعورهم مرخاة تحتها «الصبح» ٣٩ /٤، حسن المحاضرة ١١١ - ١١٠ /٢، وما زال الأمر كذلك حتى غير الأشرف خليل لونها من الصفرة إلى الحمرة وأمر بلبس العمامات من فوقها، فلما حج الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة حلق رأسه وترك ذوابة شعره واستجد العمامات الناصرية. «الصبح» ٦ /٤، الخطط ٩٨ - ٩٩ /٢، والسلوك ٢١٧، والسلوك ٩٣ /١، النجوم الزاهرة ٧ /٢٣٣٠ هـ».

(٦) الوجهان، مفرد، جمعه: مهايمز، آلة من حديد تكون في رجل الفارس فوق كعبه وفوق الخف وما في معناه ومؤخره إصبع محدد الرأس إذا أصاب جانب الفرس تحركت وأسرعت في المشي أو جدّت في العدو. وهو تارة يكون من ذهب محض، وتارة يكون من حديد مطلي بالذهب أو الفضة. قال القلقشندي: وقد اعتاد القضاة والعلماء في زماننا تركه «الصبح» ١٣٦ /٢.

(٧) الحياضة، مفرد، جمعه: حوايص. حزام العسكريين ويعرف أيضاً بالمنطقة. «راجع، الصبح» ٤٠ /٤، الخطط ٩٩ /٢، وكان في القاهرة سوق لبيع العروائص «الخطط ٩٩ /٢».

(٨) الصولق، مفرد، جمعه: وجمعها صوالق، كان العسكريون يرتدونه فوق القباء. وهو مصنوع من الجلد البلغاري الأسود. وأحياناً يكون كبير الحجم يقدر يتسع لأكثر من نصف وبيه من الغلال ومغروز فيه منديل طوله ثلاثة أذرع. «الخطط ٩٨ /٢، ٢١٧، النجوم الزاهرة ٧ /٧٧٨ هـ».

ومعظم حوايصلهم الفضة، ومنهم من يعملها من الذهب، وربما عملت باليشم ولا ترتص بالجواهر إلا في خلع السلطان لأكابر المئين، معظمهم يلبس المطرز. ولا يكفيت مهمازه بالذهب، أو يلبس المطرز إلا من له إقطاع ف يالحلقة، وأما من هو بعد بالجامكية^(١) فإنه لا يتعاطى ذلك.

وعلى الجملة فزيهم ظريف وعدهم فائقة نفيسة، وملبوسهم منوع من الكمخا^(٢) والخطانى والكنجى^(٣)، والمxmlل والإسكندراني والشرب والتتصافي والأصوات.

[السلطان]

ذكر هيأته في جلوسه للمظالم

عادة هذا السلطان أن يجلس بكرة الاثنين ما كان بالقلعة، خلا شهر رمضان فإنه لا يجلس فيه، ومجلسه هذا هو في إيوان بظاهر قصره قريباً من بابه، وهو إيوان متسع على مرتفع السمك أمامه رحبة فسيحة. يسمى هذا الإيوان «دار العدل»^(٤) وفيه تكون الخدمة العامة واستحضار رسل الملوك غالباً. فإذا قعد للمظالم كان جلوسه على كرسي إذا قعد عليه تقاد تلحق الأرض رجله، وهو منصوب إلى جانب المنبر الذي هو تحت الملك، ويجلس على يمينه: قضاة القضاة من المذاهب الأربع، ثم الوكيل عن بيت المال، ثم الناظر /٢١٢/ في الحسبة. ويجلس على يساره كاتب السر،

(١) جامكية مفرد، جمعه: جامكيات (جوامك)، كلمة فارسية معناها الراتب المربيط لشهر أو أكثر. «النجوم الزاهرة ٨/٥٠ هـ». وذكر القلقشندي أن نفقات المماليك كانت جامكيات وعليق وكسوى وغير ذلك (الصبح ٤٥٣/٣).

(٢) الكمخا. ثياب حريرية تصنع بيغداد وتبريز ونيسابور (رحلة ابن بطوطة ٢٤٥/١).

(٣) الكنجي: قماش منسوج من قطن وحرير، كان يصنع أولاً في كنجه بجهات أرات ثم انتقلت صناعته إلى مناطق أخرى (السلوك ١/٨٤٧ هـ).

(٤) الإيوان المعروف بدار العدل. أنشأه السلطان المنصور قلاوون ثم جدده ابنه الملك الأشرف خليل، واستمر جلوس نائب دار العدل فيه، فلما عمل الملك الناصر محمد بن قلاوون «الروك الناصري» أمر بهدم هذا الإيوان سنة ٧١١ هـ وأعاد بناءه ثم زاد فيه في سنة ٧٣٥ وأنشأ به قبة وأقام به عمداً عظيمة نقلها من المعابد الموجودة بالصعيد، ورثحمه وتُنصب في صدره سرير الملك وعمله من العاج والأبنوس، ورفع سمك هذا الإيوان وعمل أمامه رحبة متسعة. (كتن الدرر ٩/٢٣٨ و ٣٧٣ - ٣٧٢). الصبح الأعشى ٣٦٩/٣، الخطط المقريزية ٢٠٦/٢ والسلوك للمقريزي ١٠٣/٢ و ٥٥٨ - ٥٥٥).

وقد انذر هذا الإيوان الآن ومكانه اليوم الأرض القائم عليها جامع محمد علي باشا وملحقاته بالقلعة «النجوم الزاهرة ٨/٢٣٤ هـ و ٩/٥١ هـ».

وقدامه ناظر الجيش وجماعة الموقعين تكملة حلقة دائرة. وإن كان ثم وزير من أرباب الأقلام كان بينه وبين كاتب السر، وإن كان الوزير من أرباب السيوف، كان واقفاً على بعد مع بقية أرباب الوظائف. وكذلك إن كان ثم نائب يقف مع أرباب الوظائف. ويقف من وراء السلطان مماليك صفان عن يمينه ويساره من السلاح دارية^(١) والجمدارية^(٢) والخاصة^(٣) ويجلس على بعد تقدير خمسة عشر ذراعاً من يمينه ويسرته ذwo السن من أكابر أمراء المئين، وهم أمراء المشورة^(٤)؛ ويليهم من أسفل منهم أكابر الأمراء، وأرباب الوظائف وقوف، وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة، ويقف خلف هذه الحلقة المحبيطة بالسلطان الحجاب والدوادارية لإحضار قصص الناس وإحضار المساكين وتقرأ عليه، فما احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه، وما كان متعلقاً بالعسكر تحدث مع الحاجب وكاتب الجيش فيه، ويأمر في البقية بما يراه.

ذكر هياته في بقية الأيام

عادة هذا السلطان في يوم الاثنين ما تقدم ذكره، وكذلك في يوم الخميس على مثل هذه الهيئة أيضاً، إلا أنه لا يتصدى فيه لسماع القصص ولا لحضور أحد من القضاة وكاتب الجيش والموقعين، إلا إن عرضت حاجة إلى طلب أحد منهم. وهذا

(١) السلاح دار مفرد، جمعه: سلاح دارية، لقب الذي يحمل سلاح السلطان أو الأمير ويتولى أمر السلاح خاناه وما يتبع ذلك. (نهاية الأربع -٢٢٩-٢٢٨/٨، الصبح ٤٦٢/٥).

(٢) الجمدار مفرد، جمعه: جمدارية، لقب الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. وأصله جاماً دار فحذفت الألف بعد الجيم وبعد الميم استثناؤاً وقيل جمدار. وهو مركب من لفظين فارسيين أحدهما جاماً بمعنى الثوب، والثاني دار بمعنى ممسك، فيكون المعنى «ممسك الثوب». (الصبح ٤٥٩/٥).

(٣) الخاصة: فئة من المماليك السلطانية يختارهم السلطان من الأجلاب الذين ينضمون إلى خدمة السلطان وهم صغار، فيتخدذ منهم حرسه الخاص. وكانوا يسمون أيضاً بالجزانية وذلك في مقابل اسم البرانية الذي كان يطلق على المماليك والأمراء غير الخاصة. وكانتوا يلازمون السلطان في خلواته وفراغه. وكانت الخاصة من المؤهلات للوظائف الكبرى بل وللسلطنة في بعض الأحيان. «السلوك ١/٤٦٤هـ، الزيدة ١١٥-١١٦، الفنون والوظائف ٤٦٢-٤٦٤هـ».

(٤) أمراء المشورة، كانوا كهيئة مجلس استشاري للسلطان، يقول أبو المحاسن: «إنهم ينفذون أحوال المملكة بين يدي السلطان بمقتضى علمهم وحسب اختيارهم» (النجوم الزاهرة ١٩٠/١٠) واختلف عدد هؤلاء الأمراء في خلال التاريخ المملوكي فبينما ذكر المقرئي أنهم كانوا تسعة أئنفار في سنة ٧٤٨هـ (السلوك ٧٤٦/٢) يذكر أبو المحاسن أنهم كانوا ستة أئنفار في العام نفسه. (النجوم ١٠/١٩٠). وقارن: «كتنز الدرر ٩/٢٣٩، السلوك ١/٤٥٠ و٤٩٨/٢ و٧٣٥ و٥٥١ هـ و٧٤٦هـ و٧٥٢هـ».

القعود عادته في طول السنة ما دام أنه بالقلعة في الاثنين والخميس غير رمضان أيضاً.

أما بقية الأيام فإنه يخرج من قصوره الجوانية إلى قصره الكبير^(١) البراني، وهو شبابيك مطلة على اصطبلاته^(٢)، وفي صدره تحت الملك المختص فيقعد تارة عليه وتارة يقعد دونه على الأرض، والأمراء وقوف على ما تقدم، خلا أمراء المشورة والقرياء منه فإنه ليس لهم عادة بحضور هذا المجلس. ولا يحضر هذا المجلس من الكبار إلا من دعت الحاجة إلى حضوره، ثم يقوم في الثالثة / ٢١٣ / من النهار يدخل إلى قصوره الجوانية ثم إلى دار حريمه ونسائه، ثم يخرج في أخريات النهار إلى قصوره الجوانية لمصالح ملكه، ويعبر عليه إليها خاصة من أرباب الوظائف في الأشغال المتعلقة به على ما تدعو الحاجة إليه.

ذكر هياته في الأسفار

قد تقدم ذكر هياته في الأعياد وأيام الميادين. فأما في الأسفار فإنه لا يتكلف إظهار كل ذلك الشعار، بل يكون الشعار في موكيه السائر فيه جمهور مماليكه مع المقدم عليهم وأسناذار وأمامهم الخزائن والجناibles والهجن.

وأما هو بنفسه فإنه يركب ومعه عدة كثيرة من الأمراء الكبار والصغار من الغرباء والخواص ونخبة من خواص مماليكه. ولا يركب في السير برقبة^(٣) ولا بعصائب، بل تتبعه جنائب خلفه، ويقصد في الغالب تأخير النزول إلى الليل. فإذا جاء حملت قدامه فوانيس كثيرة^(٤) ومشاعل^(٥)، فإذا قارب مخيمه، تلقى بالشمعة المركبة في

(١) المعروف بالقصر الأبنق.

(٢) الاصطبلات السلطانية كانت أسفل القلعة وقد زاد الاهتمام بها في أيام الناصر محمد بن قلاوون. (راجع عنها الخطط ٢٠٤ و ٢٢٨، النجوم ٩/٣٦ هـ).

(٣) الرقبة: لباس لرقبة فرس السلطان تكون من حرير أصفر مطرزة بالذهب الزركش، ويدق القالب عليها حتى يصبح الحرير غير ظاهر فيها. تُشدّ على رقبة فرس السلطان في المواكب العظام لتكون مضاهية لما يركب به من الكبوش الزركش المغطى لظهر الفرس وكفله. (الصبح ٢/١٣٣ و ٤/٨).

(٤) الفانوس، مفرد، جمعه: فوانيس، آلة كُرية ذات أضلاع من حديد مغشاة بخرقة من الكتان الرقيق الصافي الياضن تغزو شمعة في أسفل باطنه فيشف عن ضوئها، وجرت العادة أن يحمل منها اثنان أمام السلطان أو الأمير في أثناء سفر الليل. (الصبح ٢/١٣٧).

(٥) مشعل، مفرد، جمعه: مشاعل، آلة من حديد تشبه القفص مفتوحة من أعلى، وفي أسفلها خرقة توقد فيها النار بالحطب فيتشير ضؤوها. (الصبح ٢/١٣٧).

الشمعدانات المكفتة^(١)، وصاحت الجاويشية بين يديه، فترجلت الناس كافة إلا حملة السلاح وراءه والأوشاقية وراءه، ومشت الطبردارية^(٢) حوله حتى يدخل الدهليز الأول، ثم ينزل ويدخل إلى الشقة، وهي خيمة مستديرة متسبعة، ثم منها إلى شقة مختصرة، ثم إلى لاجوق. ومدار كل خيمة من جميع جوانبها من داخل سور خركاه^(٣) [من خشب]^(٤)، وفي صدر ذلك الاجوق قصر صغير من الخشب ينصب له للمبيت فيه، وبإزار الشقة الحمام بالقدور الرصاص الحوض على هيئة الحمام المبني في المدن إلا أنه مختصر. فإذا نام طافت به المماليك دائرة بعد دائرة وطاف بالجميع الحرس، وقدور الزفة حول الدهليز في كل ليلة مرتين: الأولى عندما يأوي إلى النوم، والثانية عند قعوده من النوم، كل زفة يدور بها أمير جاندار، وهو من أكابر الأمراء، وحوله الفوانيس والمشاعل والطبول^(٥) والبيان، وينام على باب الدهليز القباء وأرباب النوب من الخدم.

ويصحب هذا السلطان في أسفاره من غالب ما تدعى الحاجة إليه حتى /٢١٤/ يكاد يكون معه مارستان لكثرة من معه من الأطباء وأرباب الكحل والجراح والأشرية والعقاقير وما يجري مجرى ذلك، وكل من عاده طبيب ووصف ما يناسبه، يصرف من الشريخاناه أو الدواخاناه^(٦) المحمولين في الصحة.

(١) يعني شمعدانات من التحاس المطعم بالقصبة. انظر: الخطط ٢/١٠٥.

(٢) الطبردارية، الذين يحملون الأطباء أو الفروس حول السلطان عند ركوبه في المراكب وغيرها لحراسته، وفي صلاة الجمعة والعيددين كانوا يتقدمون السلطان وبأيديهم الأطباء بعد انتهاء الصلاة «معيد التعم ،٣٥ ، الصبح ٢/١٤١ ، حسن الباشا: الفنون والوظائف ٧٣٥».

(٣) الخركاه، بيت من خشب مصنوع بهيئة خاصة، ويغشى بالجوخ وتحوه يحمل في أثناء السفر للمبيت به في الشتاء للوقاية من البرد «الصبح ٢/١٣٨».

(٤) زيادة من الصبح.

(٥) الطبول، ويقال الدبادب والبوقات والرُّزْمُر المعروف بالهشمان الذي يقرب به عشية كل ليلة بباب الملك، وخلفه إذا ركب في المراكب وتحوها، وكانت تعرف في اصطلاح العصر بالطليخاناه، «الصبح ٢/١٣٤».

(٦) الشراب خاناه. أحد الحرمواصل السلطانية الشامية وهي: الطشت خاناه، الفراش خاناه، السلاح خاناه، الرُّكَاب خاناه، الحراجع خاناه، المقطبيخ، الطليخاناه «الصبح ٤/٩ ، ١٣»، وقارن: نهاية الأربع ٨/٢٢١-٢٢٨، فقد عدها خمس حيث أسقط الركا بخاناه والطليخاناه والمطبخ وكذلك فعل الظاهري: زيدة ١٢٤».

والشراب خاناه أو بيت الشراب كانت تحوي أنواع الأشربة على اختلافها والمعالجين والأقراص وما =

[الأسمطة السلطانية]

ومن عادة هذا السلطان مد السماط^(١) طرف النهار في كل يوم لعامة الأمراء، خلا البرانين^(٢) فقليل ما هم.

وأما بكرة فيمد سماط أول لا يأكل منه السلطان، ثم ثان بعده يسمى الخاص قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل، ثم ثالث بعده ويسمى الطارىء ومنه مأكول السلطان.

وأما في أخرىات النهار فيمد سماطان: الأول والثاني المسمى بالخاص، ثم إن استدعي بطارىء حضر وإلا فلا، خلا المشوي فإنه ليس له عادة محفوظة النظام، بل هو على حسب ما يأمر به. وفي كل هذه الأسمطة يؤكل ويفرق نوالات ويُسقى بعدها الأقسيما المعمولة من السكر والأفواية المطيبة بماء الورد والمبردة.

ومن عادة هذا السلطان أن يبيت قريب مبيته في كل ليلة أطباق فيها أنواع من المطجنات والبوارد والفطر والقشطة والجبن المقلبي والموز والكيماخ، وأطباق فيها من الأقسيما والماء المبرد برسم أربا التونة في السهر حوله، ليتشاغلوا بالمائول والمشروب عن النوم. وللليل مقسم بالنوبة بينهم على الساعات الرمل، فإذا انتهت نوبة هبت التي تليها ثم ذهبت هي فنامت إلى الصبح، هكذا أبداً سفراً وحضوراً. وتبيت في المبيت المصاحف الكريمة لقراءة من يقرأ منهم، ويبت الشطرنج ليتشاغل به عن النوم.

[هيأته في صلاة الجمعة]

وهذا السلطان يخرج أيام الجمع إلى الجامع المجاور لقصره في القلعة^(٣) ومعه خاصة الأمراء، وتجيء بقية الأمراء من باب آخر للجامع.

وأما السلطان فيصل إلى يمين المحراب في مقصورة خاصة، ويجلس عنده أكباب خاصة، ويصل إلى يمينه الأمراء - خاصتهم وعامتهم - خارج المقصورة عن يمينها

= في معناها، وكان المالك يصررون منها ما يحتاجونه من أدوية ومعاجن بمقتضى أوراق الأطباء.
«نهاية الأربع ٢٢٤ - ٢٢٥، الصبح ٤ / ١٠».

(١) السماط: مفرد، جمعه، أسمطة. ما يحيط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الأكلين (Dict. Ar.).

(٢) النساء البرانين. المالك والأمراء من غير الخاصة. أما الخاصة فكانوا يسمون بالجوانة.

(٣) يقصد جامع الناصر محمد بن قلاون بالقلعة (راجع: الخطط ٢ / ٣٢٥، النجوم ٩ / ٥٦ هـ).

ويسرتها على مراتبهم، فإذا سمع الخطبة وصلى صلاة الجمعة دخل إلى قصوره ودور خدمه /٢١٥/ وحرمه، وتفرق الناس كل واحد إلى مكانه.

ذكر انتهاء الأخبار إليه

عادة هذا السلطان أن يطالعه نوابه في مملكته بما يتجدد عندهم من مهام الأمور أو ما قاربها، وتأخذ أوامره وتعود أجوبته عليهم بما يراه. وبين حضرة السلطان وجميع بلاد ممالكه مراكز بين المركز والمركز أميال، في كل مركز عدة خيل بريد^(١) وللسلطان من الجندي أناس بريدية في حضرته وفي كل بلد لحمل الكتب والعدو بأجوبتها. فإذا ورد بريدي بلداً من بلاد مملكته أو عاد المجهز من بابه، أحضره أمير جандار - وهو من أمراء المئين - والدوادار، وكاتب السر بين يديه، فيقبل الأرض ثم يأخذ الدوادار الكتاب فيمسحه بوجه البريدي، ثم يناوله السلطان فيفتحه، ويجلس كاتب السر فيقرأ عليه ويأمر فيه بأمره.

ومما ينهى إليه من الأخبار ما يكتب في ورقٍ خفيف صغير، ويحمل على الحمام الأزرق وللحمام مراكز كل مركز منها ثلاثة من مراكز خيل البريد أو أزيد، لا يتعدى الحمام ذلك المركز ولا يمكنه تجاوزه، فإذا حمل الكتاب حلوه بنوع معزى ليعرف فلا يعارض ثم يسرج فإذا وصل إلى المركز المعد لهأخذ عنه، ونقل إلى حمام غيره من ذلك المركز من مكان إلى مكان إلى حضرة السلطان^(٢)

ومن عادة هذه المملكة أن ولاة أمور المدينة، وهم أصحاب الشرطة، تستعمل متجددات ولائياتهم في كل نهار ممن هم على المحلات من قبلهم، ثم يكتب متولي الشرطة مطالعةً جامعةً لما يبعث إ نهاؤه من ذلك، ويحمل إلى السلطان هذا بمتجددات ما يقع من قتل أو نفع أو حريق كبير أو يجري مجرى ذلك، فاما ما يقع للناس في أحوال أنفسهم فلا.

(١) عن مراكز البريد، راجع: التعريف بالمصطلح الشريف ١٨٤-١٩٦، صبح الأعشى /١٤٣٧-٣٨٨.

(٢) عن مراكز الحمام الرسائلي، راجع: التعريف بالمصطلح الشريف ١٩٦-١٩٧، صبح الأعشى /١٤٣٨-٣٩٤، وانظر: إبراهيم أحمد العدوي: «الحمام الزاجل في العصور الوسطى»، المجلة التاريخية المصرية ٢ (مايو ١٩٤٩) ١٣١-١٣٨، نبيل محمد عبد العزيز: «الحمام الزاجل وأهميته في عصر سلاطين المماليك»، المجلة التاريخية المصرية ٢٢ (١٩٧٥) ٤١-٨٠.

فصل

ومن عوائد جيوش هذه الممالك الركوب في يومي الاثنين والخميس في الموكب. وهو مكان فسيح يكون بكل مدينة بها عسكر فيسرون به، ثم يقف العسكر مع نائب السلطان أو الحاجب، إن لم يكن ثم نائب، وبينادي ٢١٦ على الخيل بينهم، وربما نودي على كثير من آلات الجنادل والخيام والخركاوات والأسلحة، وربما نودي على كثير من العقار، ثم إن كانوا بمصر طلعوا إلى الخلعة السلطانية بالقلعة على ما ورد منا ذكره. والإذن لهم في الانصراف بعد أكل السماط، وإن كانوا في غير مصر نزلوا في خلعة النائب إلى مكان سكنه، وهو دار السلطنة، ويجلس النائب وتقرأ عليه القصص وينصف بين المظلومين، ويمد السماط ويأكل عامه الأمراء والجند ثم ينصرفون - وتردد عساكر الشام برکوب يوم السبت على هذين اليومين - والنواب تقدّم لقراءة القصص الاثنين والخميس والسبت، وربما قعدوا طرفي النهار في هذه الأيام لذلك.

[العلامة السلطانية]

ومن عادة هذا السلطان أن يكتب خطه على كل ما يأمر به. أما مناشير^(١) الأمراء والجند وكل من له إطاع فإنه يكتب عليه علامته^(٢). وعلامة السلطان القائم الآن:

(١) منشور، مفرد، جمعه: مناشير، كل وثيقة أو مكتوب لا تحتاج إلى ختم، لأن الوثائق التي تختم يجب أن تطوى حتى يمكن وضع الختم عليها. وعلى ذلك فإن تسمية الوثائق والمكاتب بالمنشور مستمدّة من الشكل المادي للمكتوب.

(محمد محمد أمين: «المنشور بمنع إقطاع من عصر السلطان الغوري»، حوليات إسلامية ١٩ An. Isl. ١٩٤٣)، وكان المنصور في عصر المماليك يطلق على كل ما يكتب للأمراء والجند بما يجري في أرزاقهم من ديوان الاقطاع «التعريف بالمصطلح الشريف»، ٨٩-٨٨.

(٢) العلامة السلطانية. ما يكتبه السلطان بخطه، على صورة اصطلاحية خاصة، على المناشير. (التعريف بالخط ٢١١، وخبر العلامة السلطانية في خطط المقريري منقول كله عن العمري). وقد أشار المرحوم الدكتور زيادة في موضعين إلى تطور الإجراءات الإدارية المتّعة في توقيع الأوراق الرسمية منذ عهد الفاطميين والأيوبيين، ثم لجوء المماليك إلى اتخاذ علامات دينية خاصة بهم. ونقل عن كاترمير وصف كيفية استخدام فوطة العلامة وإثباتها على المناشير «السلوك ١/٣٤٤ هـ و ٢/٥٨٩».

السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبي المعالي محمد ابن الملك المنصور قلاون خلد الله دولته الله أملبي



وأما تقاليد التواب^(١)، وتوقيع^(٢) أرباب المناصب من القضاة والوزراء والكتاب وبقية أرباب الوظائف، وتوقيع الرواتب والإطلقات^(٣) فإنه يكتب عليها اسمه واسم أبيه، صورته:

محمد بن قلاون

وأما كتب البريد وخلاص الحقوق والظلamas، فإنه يكتب عليها أيضاً اسمه، وربما كرم من يكتب إليه، فاما من كرمه من ذوي السيف كتب له:

والده محمد بن قلاون

وأما من كرمه من ذوي العمائم المدوره من القضاة والوزراء، كتب له أخيه بدلًا من والده.

فاما الإقطاعات فالرسم فيها أن يقال:

خرج الأمر الشريف

واما الوظائف والرواتب والإطلقات فالرسم فيها أن يقال:

رسم بالأمر الشريف

وليس هذا بموضع استيعاب أو ضاب المكاتب، ولو أخذنا في هذا لطال، ولكننا نذكر نبذة تتعلق بالمناسير والتقاليد والتوقيع إذ كانت هي الأصل لجريان الأرزاق بها. فأعلاها ما افتحت بخطبة [أولها]: «الحمد لله»، /٢١٧/ ثم ما افتحت بخطبة

(١) تقاليد: مفرد، جمعه: تقاليد، أي أمر التولية وتفتح دائمًا «بالحمد لله» (التعريف ٨٧، الصبح ١١ / ١٠٧ - ١٠١ وبه تفصيلات هامة).

(٢) توقيع، مفرد، جمعه: توقيع: اسم لما يكتب في حواشي الفصص كخط الخليفة أو الوزير هكذا كان مدلولها عند القدماء. (الصبح ١١ / ٥٢ و ١١٤ / ١١٤).

ثم أصبحت علماً على نوع خاص من المكاتب التي تكتب بالوظائف لأرباب السيف الدينية والديوانية. (راجع، التعريف ٨٧ - ٨٨، الصبح ١١ / ١١٤ - ١٢٧، المقصد الربيع ٢٠٨).

(٣) الإطلاق: مفرد، جمعه، إطلقات: وهو تقرير بأطلقه الملوك السابقين من أحباب، أو إطلاق ما لم يكن مقرراً من قبل. (انظر نماذج له: الصبح ١٣ / ٤١ - ٤٧).

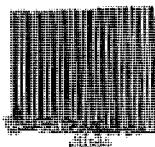
أولها: «أما بعد حمد الله»، حتى تأتي على: «خرج الأمر في المناشير» أو «رسم بالأمر في التواقيع»، ثم بعد هذا انزل الرتب وهو أن يفتح في المناشير «خرج الأمر»، وفي التواقيع «رسم بالأمر». وتمتاز المناشير المفتوحة فيها بخطبة «الحمد لله» ^(١) بالسوداد تتضمن اسم السلطان وألقابه.

[الإقطاع]

ومن عادة هذا السلطان في الإقطاعات ^(٢) للجند أن يتولى بنفسه استخدامهم، فإذا وقف قدامه من يطلب الإقطاع المحلول ووقع اختياره على واحد، أمر كاتب الجيش بالكتابة له فيكتب ورقة مختصرة تسمى «المثال» ^(٣) مضمنوها: حر فلان كذا،

(١) والطغرى وتكتب طغرا، مفرد، جمعه: طغراوات، هي الألقاب السلطانية التي كانت تكتب للمناقير التي تمنح إقطاعاً لكتاب المماليك، والعادة أن تكون فوق وصل بياض فوق البسملة. وكان لها موظف مخصوص بعملها وتحصيلها بالديوان. فإذا كتب الكاتب منشور أخذ من تلك الطغراوات وألصق فيما كتب به «التعريف»، المقصد الربيع ٢٩٢، الصبح ١٣ / ١٦٢.

ومثالها: «السلطان الملك الفلاني فلان الدين والدين سلطان الإسلام والمسلمين ملك البسيطة» بألقاب طوال ذهب مزدوجة سطر واحد ويكتب الاسم بين الألقاب قاطعاً ومقطوعاً وتحته «خَلَدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ».



وقارن: القلقشندي، الصبح ١٣ / ١٦٢ - ١٦٦ وهذه صورة طغرى بألقاب الناصر محمد بن قلاوون: «السلطان الملك الناصر وناصر الدنيا والدين، محمد ابن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون» وتحتها «خَلَدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ».

(٢) الإقطاع: مفرد، جمعه: إقطاعات، اختلف مدلول لفظ الإقطاع بالنسبة للمكان والزمان في الدولة الإسلامية، وفيما يخص مصر فإن السلطان صلاح الدين هو الذي أدخل الإقطاع العربي إلى مصر فصارت أراضي مصر منذ هذا التاريخ تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده. «الخطط» ١ / ٩٧. والإقطاع بمعنى منح أراض بغير انتفاع بها وبدخلها، وقد لجأت الحكومات الإسلامية إلى نظام الإقطاع كوسيلة لدفع رواتب الجنود.

لتفاصيلات أكثر حول هذا الموضوع، راجع: الباز العريني: الإقطاع العربي بمصر زمن سلاطين المماليك (القاهرة ١٩٥٦) و«الإقطاع في الشرق الأوسط منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادي - دراسة مقارنة» حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس ٤ (١٩٥٧) ١١٣ - ١٤٨، طرخان، إبراهيم علي: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٨).

(٣) المثال: مفرد، جمعه: المثلات، أول أول ما كان يكتب من الأوراق الرسمية إذاناً بمنع أحد المماليك إقطاعاً من الإقطاعات المحلولة، وهو عبارة عن ورقة تكتب فيها بيانات الإقطاع بعد ترك ثلثها من أعلىها بياضاً، «الصبح» ١٣ / ١٥٣ - ١٥٤، المقصد الربيع المنشا ٢٩٠، الخطط ١ / الزاهرة ٨ / ٩١، محمد محمد أمين: المرجع السابق (٦-٥).

ثم يكتب فوقه رسم المستقر له، ويناولها السلطان ويكتب عليها بخطه: يكتب، ويعطيها الحاجب لمن رسم له، فيقبل الأرض، ثم يعاد إلى ديوان الجيش فيحفظ شاهداً عندهم. ثم تكتب «المربيعة»^(١) مكملة بخطوط جميع مباشري ديوان الإقطاع^(٢) وهو: [كتاب] ديوان الجيش وعلاقتهم، ثم يؤخذ عليها خط السلطان، ثم تحمل إلى ديوان الإنشاء والمكاتبات فتكتب المناشير، ثم يعلم السلطان عليها علامة على ما تقدم ذكره ثم يكمل ذلك «المنشور» بخطوط ديوان الإقطاع بعد المقابلة على صحة أصله.

فأما الاستخدام في البلاد الشامية فليس للنواب مدخل في تأمير أمير عوض أمير مات، بل إذا مات أمير - سواء كان كبيراً أو صغيراً - طول السلطان بمorte فأمر من أراد عوضه، إما من في حضرته ويخرجه إلى مكان الخدمة، أو من هو في مكان الخدمة أو نقل إليه من بلد آخر على ما يراه في ذلك.

فاما جند الحلقة فإذا مات أحد منهم استخدم النائب عوضه، وكتب على نحو من ترتيب السلطان «المثال» ثم «المربيعة»، وتجهز «المربيعة» مع البريد إلى حضرة السلطان مقابل عليها في ديوان الإقطاع، ثم إن أمضاها السلطان كتب عليها: يكتب، فتكتب بها مربعة من ديوان الإقطاع، ثم يكتب عليها من ديوان الإنشاء كما تقدم في الجندي الذين في الحضرة. وإن كان ما يمضيها السلطان أخرجها لمن يرى، ثم يكون حكم الكتابة به حكم ما تقدم.

ومن مات من الأمراء والجندي، /٢١٨/ قبل استكمال مدة الخدمة حوسب ورثته على حكم الاستحقاق، ثم إما يرجع منهم أو يطلق لهم على قدر حصول العناية بهم. وإقطاعات الأمراء والجندي منها ما هو بلاد يستغلها مقطعاً كيف شاء،

(١) المربيعة: ورقة مربعة الشكل تجعل على هيئة صفحتين متقابلين.
 (راجع نص ما يكتب في المربيعة وكيفيته في: المقصد الرفيع المنشا ٢٩٠ و ٢٩٠ ظ، «الصبح ١٣/١٥٥»، محمد محمد أمين: المرجع السابق ٨-٧).

(٢) في الأصل: «بخطوط جميع الديوان الإقطاع». والمبثت من الخطط ١/٣٩٧ حيث يذكر أن متولي الإقطاعات كان ضمن ديوان المجلس، والمعروف أن هذا الديوان بطل في أيام الكامل محمد في سنة ٦٢٦ «أخبار مصر لابن ميسير ٧٧» ويبدو أن الدولة المملحية استحدثت ديواناً مستقلاً للإقطاع كان يعمل في إطار ديوان الجيش. «المقصد الرفيع ٢٩٠ و، «الصبح ١٣/١٥٣».

ومنها ما هو نقد على جهات يتناولها منها.

[أرزاق أرباب الدولة]

فأما أرزاق ذوي الأقلام فإنها مشاهدة من مبلغ عين وغلة، ولأعيانهم الرواتب الجارية في اليوم من: اللحم بتوابله أو غير توابله، والخبز والعليق لدوا بهم، ولأكابرهم السكر والشمع والزيت والكسوة في كل سنة والأضحية، وفي رمضان السكر والحلوى. وأكبر من هؤلاء كالوزير له في المدة مائتان وخمسون ديناراً جيشية، ومعه ما ذكر من الأصناف والغلة، إذا تسطر وتمت كانت بنظيرها، ثم ما دون ذلك، وما دون دونه، ومن هو في الحضرة أمين في ذلك.

وأما القضاة والعلماء، فالقضاة أرزاقهم على السلطان وأكثرها خمسون ديناراً في كل شهر، ولهم المدارس التي يستدركون من أوقافها.

وفي دمشق معالم حكامها على وقف برسم مصالح المسلمين مضاد إلى مال مسجدها الجامع.

وأما العلماء فليس لأحد منهم شيء إلا من أوقاف مدارسه، إلا من له على سبيل الراتب أو الإداري، وذلك قليل نادر لا حكم له فيخرج على ذكره.

ولهذا السلطان صدقات جارية، ورواتب دارة، منها ما هو أرض من بلاده، ومنها ما هو مرتب على جهات من مبلغ وغلة وخبز ولحم وزيت وكسوة، واللحم والزيت والكسوة قليل نادر لمن حصلت له بعناية، فأما الأرض والمبلغ والغلة والخبز فكثير جداً ومتسع أمره، وفي الغالب يتوارثه الأبناء عن الآباء، والأخ عن الأخ، وابن العم عن ابن العم، حتى إن كثيراً من يموت ويخرج إدارته من مرتبه فيحضر القريب بعد ذلك ويقدم قصة^(١) يذكر فيها أولويته بما كان لقريبه فتعاد له.

وفي هذه المملكة قائمة شعائر الإسلام بالمساجد والخطابات في جميع القرى. وأما الأرزاق والإدارات فلا توجد إلا بتواقيع /٢١٩/ السلطان ما قل منها وما جل.

وهذه المملكة تشتمل على عدة من القلاع والحسون والمعاقل، وبكل منها نائب

(١) القصة: الطلب أو الالتماس أو الشكوى. وهي هنا تعنى الطلب الذي يقدمه الجندي للحصول على الإقطاع، أو إعادة إقطاع خرج عنه. (محمد محمد أمين: المرجع السابق هـ).

وحاكم شرعى وخطيب ومؤذن وكحال وجراحى وحفظة، ولحفظتها جوامك لا إقطاعات. وبها آلات التحصين وذوى أعمال وصناعات، والحجارون والتجارون والحدادون وما تدعوه إليه ضرورة مثل ذلك.

* * *

زي ذوي العمائم المدوربة

نبدأ «بالقضاة والعلماء» وزبهم ^(١) متسع بغير تفريج، فتحته على كتفه، وشاش كبير منه ذؤابة بين الكتفين طويلة.

وأما من دون هؤلاء فالفرجية ^(٢) الطويلة الكلم بغیر تفريج والذؤابة أيضاً. فأما زهادهم فيقصر الذؤابة ويميلها إلى الكتف الأيسر على المسنون ^(٣)، ولا يلبس أحد منهم الحرير، ولا ما فيه حرير، ومنهم من يلبس الطيلسان ^(٤). فأما قاضي القضاة الشافعية فرسمه الطرحة ^(٥) وبها يمتاز ^(٦).

ويركب أعيان هذه الطائفة البغلات بسرور غير مفضضة، ويتخذ عوض الطمnickيات في السروج عرقشينات، وهي شبيه بشوب الهرج مختصر منه وهو من جوخ ^(٧)، وقد يكون من أنواع الأديم، ويشق ويعمل بين السرج ومبيرته. وقضاتهم

(١) البُلْق، مفرد، جمعه: أدلاق، نوع من الملابس خاص بالعلماء، وليبس تحت العباءة الفوقانية.

(٢) الفَرَجِيَّة: ثوب متسع يضيق في العادة من الصوف أو الجوخ، له أكمام طويلة متشعة تتدلى أطراف الأصابع بقليل وهو أشبه بالجلبة ويلبس فوق الدلق.

(٣) في سن الترمذى ٣/١٣٩: «كان النبي ﷺ إذا اعتم سدل عمامته بين كتفيه».

(٤) الطيلسان: أقرب الأزياء شبهها بالطرحة وهو نوعان: فيشار أحياناً إلى طيلسان به قطعة مقطوعة من الوسط، وأحياناً أخرى إلى طيلسان من قماش مقوّر، وقد أطلق على الأخير في القرن الناسخ الهجري اسم «طرحة».

ومع وجود الجزء المقوّر أو المقصوص من الطيلسان فيحتمل أنه لم يكن يلبس فوق الصدر والظهر بل كان يلبس كا لطحة فوق العمامة.

وكان الطيلسان المقصوص من زyi القضاة منذ العصر الفاطمي فقد خلّع الخليفة المستنصر على بدر الجمالى «الخطط ١/٣٨٢».

(٥) الطرحة: وشاح يلبس فوق العمامة ويختلف حول الرقبة ويترسل على الكتفين. «السلوك ١/٥٤٠».

(٦) «الصبح ٤/٤٢» وصار يتميز بذلك في زمانه قاضي القضاة الشافعية. وقاضي القضاة الحنفية، حسن المحاضرة ٢: ٣٢٠».

(٧) قماش مستورد من أوروبا كان يعتبر قليل الجودة.

تعمل ذلك بدلاً من الكتبوش الزناري، وهو من الجوخ شبيه بالعباءة الموجومة الصدر مستدير من وراء الكفل، لا يعلوه بردنب ولا قوش. وربما ركبوا بالكتابيش وهؤلاء لجمهم كبار ثقال الوزن.

وأما «الوزراء والكتاب» فزيهم الفرجيات المفرجة من الصوف، ومن المحربات^(١) عمل الإسكندرية وغير ذلك، والنصافي والبياض، ويعمل أكابرهم الباذهنات^(٢) في الأكمام ويلبس البغلطاق^(٣) من تحت فراجاتهم، وربما لبسوا الجباب المفرجة من ورائها.

ويختلف ركوبهم وغالبه شبيه بالجند أو مقارب له. وتجمل هذه الطائفة بمصر أقل مما هم عليه بالشام في زيه وملبوسهم ومركبهم، إلا ما يحكي عن قبط مصر في بيوتهم من اتساع الأحوال والنفقات، حتى إن الواحد منهم يكون في ديوانه بأردي اللباس وياكل أدنى المأكل ويركب /٢٢٠/ الحمار، حتى إذا صار في بيته انتقل من حال إلى حال وخرج من عدم إلى وجود. ولقد يبالغ الناس فيما يحكي من ذلك عنهم بعد أحوالهم وتبادر أمريهم.

فأما التجار وأخلاق عامة الناس فتختلف أحوالهم في الملابس والزي حتى إن القراء، وإن جمعهم زي الفقر وزيفه وضمهم لباس التصوف، فإنهم تتبعون حالاتهم في الملابس وأطوارهم في التشكيلات.

الكلام على أرباب الوظائف في هذه المملكة

نقول إن جميع الوظائف^(٤) التي في حضرة السلطان لا ذكر منها إلا أعيانها،

(١) في سنن الترمذى /٣/ ١٥٩ : «كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ يلبسها الحبرة» وهي نوع من البرود تستعمل اليوم من النسوان خاصة في وقت السفر. «قاموس ٤٩٩ /٢ - ٥٨٢ /٢».

(٢) الباذهنات: فتحات للتهوية.

(٣) البُلْطَاق ويقال البُلْطُوق، مفرد، جمعه: بَعَالِق (اللفظ فارسي يعني قباء أو رداء من الأردية الفوقيانية ذات الأكمام الضيقية يلبس تحت الفرجية. قال المقرizi: «واستجد الأمير سلار في أيام الملك الناصر محمد القبّاء الذي يعرف بالسلامي وكان قبل ذلك يعرف ببلغطاق». «الخطب /٢/ ٩٩ ، والسلوك /١/ ٥٨٤ - ٩٧ /٢ - ٣٣١ /٧».

(٤) الحديث عن أرباب الوظائف، سواء من ذوى السيف أو الأقلام أو العلم، أكثر تفصيلاً وتنظيمًا عند القلقشندي بما ورد في المسالك - رغم أن القلقشندي يعتمد اعتماداً كلياً على العمري. فقد أجمل العمري ذكر الوظائف واكتفى بشرح بعضها وترك بعضها الآخر دون شرح، بينما عينها القلقشندي وقام بشرحها جميعاً. لذلك فليراجع في هذا الموضوع: صبح الأعشى /٤/ ٣٩ - ١٦ ، والفنون الإسلامية =

وأما صغار الوظائف فجزء من كل، فلا حاجة بنا إلى ذكرها، وكل ما نذكره مما هو في الحضرة نظيره في كل مدينة من قواطع مدن هذه المملكة، ويبقى الفرق ما بينهما الفرق ما بين المكانين.

الوظائف الكبار

فمن ذوي السيوف

إمرة سلاح. الدوادارية. الحجوبية. إمرة جاندار. الأستاذدارية. المهمندارية^(١).

نقابة الجيوش. الولاة.

ومن ذوي الأقلام

الوزارة. كتابة السر. نظر الجيش. نظر الأموال. نظر الخزانة. نظر البيوت. نظر بيت المال. نظر الاصطبغات.

ومن ذوي العلم

القضاة. الخطباء. وكالة بيت المال. الحسبة.

ثم نقول: إن هذا السلطان أبطل النيابة والوزارة بحضرته. ثم لما كانت «النيابة» قائمة كان النائب أولاً سلطاناً مختصراً، وكان هو الذي يفرق الإقطاعات ويعين النساء. وفي هذا القول الكفاية.

وأما «الوزارة» فكان يليها من أرباب السيوف والأقلام على قدر ما يتفق.^(٢)

وكان الوزير ثانى النائب في المكانة، فأما الآن فإن السلطان بقي المفرد بما كان للسلطنة من العظمة، والنيابة من التصرف.

= والوظائف على الآثار العربية ١-٣ (القاهرة، دار النهضة العربية ١٩٦٥-١٩٦٦)، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر (القاهرة، مكتبة الأنجلو ١٩٦٧) ٢/٤٣-٥٦.

(١) المهمندارية: موضوعها تلقي الرُّسُل الواردين وأمراء العريان وغيرهم ممن يرد من أهل المملكة وغيرها. «الصبح ٤ / ٢٢» ومتولتها هو المهمندار، وهو مركب من لفظين فارسيين: أحدهما مَهْمَنْ - بفتح الميمين - ومعناه الضيف، والثاني دار ومعناه ممسك، ويكون معناه ممسك الضيف، والمراد المصدي لأمره. «الصبح ٥ / ٤٥٩».

(٢) عن نظام الوزارة في زمان المماليك، انظر: دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص (القاهرة ١٩٤٤) ٢٥٤-٢٦١، الفنون والوظائف ١٣٣٤-١٣٣٦، دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر (القاهرة ١٩٧٩) ١ / ٤٢-٤٨.

وأما الوزارة فإنه أبطلها واستخدم في أيام هذا السلطان [الناصر محمد بن قلاوون] وظيفة تسمى متأشيرها «نظر الخاص»^(١)

/ ٢٢١/ أصل موضوعها أن يكون مباشرها متحدثاً فيما هو خاص بمال السلطان، يتحدث في مجموع الأمر في الخاص بنفسه، وفي العام يأخذ رأيه فيه، فبقي تحده في ويسيبه كأنه هو الوزير لقربه من السلطان وزيادة تصرفه.

ولنذكر وضع كل وظيفة مما ذكرنا.

ذكر الوظائف

[وظائف أرماب السيوف]

أما «النيابة» فقد تقدم قولنا: إنه سلطان مختصر فيما هو نائب عن الحضرة، وإن النائب هو المتصرف المطلق التصرف في كل أمر يراجع في الجيش والمال والخبر وهو البريد، وكل ذي وظيفة في نيابة لا يتصرف إلا بأمره، ولا يفصل أمراً مفصلاً إلا بمراجعةه، وهو يستخدم الجندي ويرتبط في الوظائف، وأما ما هو جليل منها كالوزراء والقضاء وكتابة السر والجيش فإنه ربما عرض على السلطان من يصلح وقل أن لا يجاب، وربما سمي أكابرهم هؤلاء النواب «ملك الأماء»^(٢). وإذا حصلت المنافسة لا يستحقها إلا من هو بدمشق؛ لأنها ليس بالشام قاعدة الملك سواها.

وأما «النيابة العظمى» فهي نيابة الحضرة، ويسمى هذا النائب «كافل المالك»^(٣)، وقد نبهنا فيما تقدم على كبير محله وهو السلطان الثاني. وجميع

(١) نظر الخاص: وظيفة محلتها فرع من الوزارة حلّت هذه الوظيفة محل وظيفة «نظر الخزانة الكبرى» استحدثها الناصر محمد بن قلاوون. وأوّل من تولى هذا المنصب كريم الدين عبد الكري姆 بن هبة الله بن السديد سنة ٧١٤هـ «الصحيح ٣/٤٥٢ و ١١/٣٣٩، الخطط ٢/٢٢٧، الدليل الشافي ٤٢٦، حسن المحاضرة ٢/١١٥ و ١٣١-١٣٠، بذائع الزهور ١/٤٤٤ و ٤٥٣، وراجع: الصبح ٤/٣٠ و ٥/٤٦٥، الفتون ١٢٠٧-١٢١٠».

(٢) ملك الأماء: من الألقاب التي اصطلح عليها لكتّاب المالك من نواب السلطنة، كأكابر النواب بالمالك الثانية ومن في معناهم. وذلك أنه قام فيهم مقام الملك في التصرف والتنفيذ، والأماء في خدمته كخدمة السلطان. «الصحيح ٥/٤٥٥».

(٣) كافل المالك الإسلامية: هو نائب السلطان بالحضر، يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان، ويعلم في التقليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك... على كل ما يعلم عليه السلطان، وبقية النواب لا يعلم الرجل منهم إلا على ما يتعلق بخاصة نيابته. «التعريف ٦٥». ويعزى عن نواب السلطان بالمالك الشامية بأن يعبر عنه بـ«كافل المملكة الشرفية الإسلامية». «الخطط ٢/٢١٥، الصبح ١١/١٣٤».

نواب المماليك تكتابه في غالب ما تكتاب فيه السلطان ويراجعونه فيه كما يراجع السلطان، وهو يستخدم الجندي من غير مشاورة، ويعين الأمراء ولكن بمشاورة السلطان.

وعادته أن يركب بالعسكر في أيام المواكب وينزل الجميع في خدمته. فإذا مثل في حضرة السلطان، وقف في ركن الإيوان، فإذا انقضت الخدمة، خرج إلى داره والأمراء معه ومدد لهم السماط كما يمد السلطان ويجلس جلوساً عاماً للناس، ويحضره أرباب الوظائف، ويقف قدام الحجاب وتقرأ عليه القصص وتقدم إليه الشكاية، ثم يصرف الناس.

ولما كانت النيابة قائمة على هذه الصورة، لم يكن السلطان يتصدى بنفسه لقراءة القصص / ٢٢٢ / عليه وسماع الشكوى، بل كان يكتفى بالنائب. ثم إن النائب إذا قرئت عليه القصص: فما كان يكفى فيها مرسومه أصدره عنه، وما لم يكن فيه بد من صدور مرسوم سلطاني فيه أمر بكتابته عن السلطان وإصداره فيكتب ويشتبه، فيما يكتب أنه بإشارته ثم يصدر. وما كان من الأمور المعضلة التي لا بد له من إحاطة علم السلطان بها، يعلمه بها تارة منه إليه وقت اجتماعه به، وتارة يرسل من يعلمه بها ويأخذ أمره فيها.

وكان ديوان الإقطاع، وهو الجيش في زمان النيابة، ليس لهم خدمة إلا عنده ولا اجتماع إلا به ولا اجتماع لهم بالسلطان في أمرٍ من الأمور. وأما الوزير وكاتب السر فقد يراجعه في بعض الأمور دون بعض. ثم اضمحلت النيابة بالحضرة وتقهقرت أوضاعها، وأما الآن فقد بطلت.

وأما «الحجبة»: فهي موضوعة^(١) لأن صاحبها ينصف بين الأمراء والجندي تارة بنفسه، وتارة بمشاورة السلطان، وتارة بمشاورة النائب إن كان. وإليه تقديم من يعرض ومن يرد، وعرض الجندي وما ناسب ذلك. وأما مع عدم النيابة فهو المشار إليه في الباب والقائم مقام النواب في كثير من الأمور.

(١) عن أصل وظيفة الحاجب وتاريخها، راجع: الصبح / ٥ - ٤٤٩ - ٤٥٠، معيد النعم - ٤٢ - ٤٠، النجوم - ٧ / ١٨٥، حسن الباشا: الفنون والوظائف ٣٩٣ - ٣٨٨، ماجد: نظم سلاطين المماليك / ٢ - ٤٥.

مسالك الأبصار في ممالك الأوصار / السفر الثالث

وأما «إمرة جاندار»: فصاحبها كالمتسلم للباب^(١)، وله به البرْدَارِيَّة^(٢) وظائف الركابية والحريسانية والجاندارية. وهو يقدم البريد مع الدودار وكاتب السر، على ما قدمنا ذكره. وإذا أراد السلطان تعزير أحد أو قتلـه كان على يد صاحب هذه الوظيفة، وهو المتسلم للزردخانـاه التي هي أرفع قدرًا في الاعـتـقالـات من السـجـنـ المـطـلقـ، ولا تـطـولـ مـدـةـ المـعـتـقـلـ بـهـاـ، بلـ إـمـاـ أنـ يـعـمـلـ بـتـخـلـيـةـ سـبـيلـهـ أوـ إـتـلـافـ نـفـسـهـ، وـقـدـ قـدـمـناـ القـوـلـ إـنـ صـاحـبـ هـذـهـ الوـظـيفـةـ يـدـورـ بـالـزـفـفـةـ حـوـلـ السـلـطـانـ فـيـ سـفـرـهـ مـسـاءـ وـصـبـاحـاـ.

وأما «الأستاذـار»^(٣): فإـلـيـهـ أـمـرـ بـيـوتـ السـلـطـانـ كـلـهـاـ منـ المـطـابـخـ وـالـشـرـابـ خـانـاهـ وـالـحـاشـيـةـ وـالـغـلـمـانـ، وـهـوـ الـذـيـ يـمـشـيـ بـطـلـبـ السـلـطـانـ [ـفـيـ السـرـحـاتـ وـالـأـسـفـارـ] وـ[ـلـهـ] الـحـكـمـ فـيـ غـلـمـانـهـ وـبـابـ /ـ ٢٢٣ـ /ـ دـارـهـ، وـإـلـيـهـ أـمـرـ الـجـاشـنـكـرـيـةـ، وـإـنـ كـانـ كـبـيرـهـ نـظـيرـهـ فـيـ الإـمـرـةـ مـنـ ذـوـيـ الـمـئـينـ، وـلـهـ حـدـيـثـ مـطـلـقـ وـتـصـرـفـ تـامـ فـيـ اـسـتـدـعـاءـ مـاـ يـحـتـاجـهـ كـلـ مـنـ فـيـ بـيـتـ السـلـطـانـ مـنـ النـفـقـاتـ وـالـكـسـاوـىـ وـمـاـ يـجـريـ مـجـرـىـ ذـلـكـ.

واما «إمرة سلاح»^(٤). فهو مقدم السلاح دارية والمـتـولـى لـحملـ سـلاـحـ السـلـطـانـ فـيـ المـجـامـعـ الـجـامـعـةـ، وـهـوـ الـمـتـحدـثـ فـيـ السـلاـحـ خـانـاهـ وـمـاـ يـسـتـعـمـلـ لـهـاـ وـمـاـ يـقـدـمـ إـلـيـهـ وـيـطـلـقـ مـنـهـاـ، وـهـوـ مـنـ أـمـرـاءـ الـمـئـينـ.

(١) المعروف بأمير جاندار: وهو اسم يتـأـلـفـ منـ ثـلـاثـ كـلـمـاتـ: أمـيرـ العـرـبـيـةـ، وجـانـ الفـارـسـيـةـ وـالـتـرـكـيـةـ وـمـعـنـاـهـ الرـوـحـ، وـدارـ الفـارـسـيـةـ وـمـعـنـاـهـ مـمـسـكـ. فـيـكونـ الـمـعـنـىـ الـكـلـيـ «ـأـمـيرـ المـمـسـكـ لـلـرـوـحـ»ـ قالـ القـلـقـشـنـدـيـ: «ـوـلـمـ يـظـهـرـ لـيـ وـجـهـ ذـلـكـ إـلـاـ لـمـ يـأـمـنـ عـاقـبـتـهـ». الصـبـحـ ٤٦١ـ /ـ ٥ـ.

(٢) البرْدَارِيَّةـ وـواـحـدـهـاـ بـرـدـارـ: وـهـوـ الـذـيـ يـكـونـ فـيـ خـدـمـةـ مـبـاشـرـيـ الـدـيـوـانـ فـيـ الـجـمـلـةـ مـتـحـدـثـاـ عـلـىـ أـعـوـانـهـ وـالـمـتـصـرـفـينـ فـيـهـ. وـأـصـلـهـ «ـفـرـدـارـ»ـ بـفـاءـ فـيـ أـوـلـهـ، وـهـوـ مـرـكـبـ مـنـ لـفـظـيـنـ فـارـسـيـنـ أحـدـهـماـ فـرـداـ وـمـعـنـاهـ السـتـارـةـ، وـالـثـانـيـ الدـارـ وـمـعـنـاهـ مـمـسـكـ، وـالـمـرـادـ «ـمـمـسـكـ السـتـارـةـ». الصـبـحـ ٤٦٩ـ /ـ ٥ـ.

(٣) الاستـادـارـ: هـكـنـاـ وـرـدـتـ فـيـ أـغـلـبـ الـمـصـادـرـ، وـنـيـهـ التـلـقـشـنـدـيـ إـلـىـ أـنـهـ «ـإـلـسـتـادـارـ»ـ بـكـسـ الـهـمـزـةـ. وـهـوـ مـرـكـبـ مـنـ لـفـظـيـنـ فـارـسـيـنـ: إـحـدـاهـماـ استـدـ بـمـعـنـىـ الـأـخـذـ. وـالـثـانـيـ الدـارـ وـمـعـنـاهـ الـمـمـسـكـ، فـأـدـعـيـتـ الذـالـ الـأـوـلـىـ، وـهـيـ الـمـعـجمـةـ، فـيـ الـثـانـيـةـ وـهـيـ الـمـهـلـمـةـ فـصـارـ اـسـتـادـارـ. وـالـمـعـنـىـ: الـمـتـولـىـ لـلـأـخـذـ لـأـنـهـ الـمـتـولـىـ لـقـيـضـ الـمـالـ. الصـبـحـ ٤٥٧ـ /ـ ٥ـ». وـقارـنـ ذـلـكـ بـحـسـنـ الـبـاشـاـ، الـفـنـونـ وـالـوـظـائـفـ ٤٠ـ /ـ ٣٩ـ.

(٤) أمـيرـ السـلاـحـ. لـقـبـ عـلـىـ الـذـيـ يـتـولـىـ أـمـرـ سـلاـحـ السـلـطـانـ أـوـ الـأـمـيرـ. وـيـجـمـعـ عـلـىـ أـمـرـاءـ سـلاـحـ. وـهـوـ مـذـكـرـ وـيـجـوزـ تـأـيـيـهـ. الصـبـحـ ٤٥٦ـ /ـ ٥ـ، النـجـومـ ١٨٤ـ /ـ ٧ـ. وـتـخـلـفـ هـذـهـ الصـيـغـةـ مـنـ حـيـثـ التـرـكـيـبـ الـلـغـويـ عـنـ الـوـظـائـفـ الـمـمـلـوـكـيـةـ الـتـيـ يـدـخـلـ فـيـ تـكـوـيـنـهـ لـفـظـةـ أـمـيرـ، مـثـلـ: أـمـيرـ دـوـادـارـ وـأـمـيرـ خـازـنـدـارـ. فـيـ الـحـالـةـ الـأـوـلـىـ أـضـيـفـتـ لـفـظـةـ «ـأـمـيرـ»ـ إـلـىـ اـسـمـ الـآـلـةـ «ـسـلاـحـ»ـ، فـيـ حـيـنـ إـنـهـ فـيـ الـحـالـةـ الـثـانـيـةـ أـضـيـفـتـ إـلـىـ اـسـمـ الـوـظـيـفـةـ «ـدـوـادـارـ خـازـنـدـارـ»ـ. (ـحـسـنـ الـبـاشـاـ: الـفـنـونـ وـالـوـظـائـفـ ٢٢٥ـ).

وأما «الدوادارية»^(١). فهم لتبلغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور، وتقديم القصص إليه، والمشاورة على من يحضر إلى الباب وتقديم البريد، هو وأمير جاندار وكاتب السر كما تقدم، ويأخذ خط السلطان على عموم المناشير والتواقيع والكتب. وإذا خرج عن السلطان بمرسوم يكتب ويعين رسالته.

وأما «نقابة الجيوش»: فهو أحد الحجاب الصغار، وله تحلية الجندي في عرضهم، ومعه يمشي النقباء. وإذا طلب السلطان أو النائب أو الحاجب أميراً لوجه ما، قالوا له: أرسل إليه وأحضره. وإذا أمروا بالترسيم على أحد من هؤلاء أمروه فرسم عليه. وهو من يطلب بالخزانة في الموكب وفي السفر.

وأما «الولاية». فهم أصحاب الشرطة، وطبقتهم معروفة معلومة.

[وظائف أرباب الأقلام]

وأما وظائف أرباب الأقلام فأجلها «الوزارة»؛ لأن ربه ثاني السلطان إذا أنصف وعرف حقه، ولكن في هذه المدد حدثت عليها التباينة وتأخرت الوزارة حتى قعد بها مكانها، وقد تقدم قولنا على أنه ولها أناس من أرباب السيوف والأقلام بأرزاق على قدر الإنفاق.

ووظيفة «الوزارة» أشهر من أن يذكر وضع مبادرتها لتنفيذ كلمته وتمام تصرفه، ولكنها في آخريات هذه الأيام تقهرت حتى كان المتحدث فيها كناظر المال لا يتعدى الحديث في المال، ولا يتسع له في التصرف مجال، ولا تمتد يده في الولاية والعزل لقطع السلطان إلى الإحاطة بجزئيات الأحوال.

ثم إن السلطان أبطل هذه الوظيفة وعطل جيد الدولة من عقودها، / ٢٢٤ / وصار ما كان إلى الوزير منقسمًا إلى ثلاثة: إلى ناظر المال أو شاد الدواوين^(٢) أمر تحصيل

(١) الدّوادار: لقب الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير. وهو مرگب من لفظين: أحدهما عربي وهو الدّواة، والمراد التي يُكتب منها. والثاني فارسي وهو دار ومعناه ممسك. فيكون المعنى «مُمسك الدّواة» وحذفت الهاء من آخر الدّواة استقالاً. (الصبح ٥ / ٤٦٢. المقدمة وانظر: لابن خلدون ٦٨٢ ، والنجوم ٧ / ١٨٥).

(٢) في صبح الأعشى: ناظر المال ومعه شاد الدواوين. وشاد الدواوين: الوظيفة التاسعة عشرة من وظائف أرباب السيوف زمن المماليك، وموضوعها أن يكون صاحبها رفيقًا للوزير متحدثًا في استخلاص الأموال، وما في معنى ذلك، وعادتها إمرة عشرة. (الصبح ٤ / ٢٢ ، معيذ النعم ٢٨ ، وراجع: نهاية الأرب ٨ / ٢٩٨ (وظيفة المشد أو المتولى)، حسن الباشا: الفنون والوظائف ٦١٣ - ٦١١).

المال وصرف النفقات والكلف. وإلى ناظر الخاص تدبير جملة الأمور وتعيين المباشرين. وإلى كاتب السر التوقيع في دار العدل مما كان يوقع فيه الوزير مشاورة واستقلالاً، ثم إن كلاً من المتحدثين الثلاثة لا يقدر على الاستقلال بأمر إلا بمراجعة السلطان ومراجعته عليه^(١).

وأما «كتابة السر»^(٢)، فموضوعها قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها وأخذ خط السلطان عليها، وتفسيرها، وتصريف المراسيم وروداً وصدرأً، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها. وقد صار يوقع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة على حسب ما يرسم به السلطان.

وأما «نظر الجيش»: فقد تقدم في ذكر الإقطاعات، وعند ذكر النيابة مما يدل على حال صاحب هذه الوظيفة مما فيه كفاية. وهذا الناظر معه من المستوفين من يحرز كليات المملكة وجزئاتها^(٣)، فرأسهم هو «مستوفي الصحبة»^(٤) وهو يتحدث في

(١) صبح الأعشى ٤/٣٠ وعن الوزارة راجع: الصبح ٤/٢٨ - ٣٠ و ٥/٤٤٨ - ٤٤٩، معيد النعم ٢٧ - ٢٨، الخطط ٢/٢٢٣ وفيه أنه إذا كان من أرباب الأقلام أطلق عليه «الصاحب» حسن المحاضرة ٢/١٣٢ - ١٣٤٢، حسن الباشا: الفنون والوظائف ١٣٢٢ - ١٣٤٢، ماجد: نظم سلاطين المماليك ١/٤٢ - ٤٨.

(٢) كتابة السر: وصاحبها يعرف بكاتب السر وهو صاحب ديوان الإنشاء (الصبح ٥/٤٦٤). وكان متولى ديوان الإنشاء من أيام الدولة الفاطمية يعرف بكاتب الدّست. وظل الأمر كذلك إلى أن ولّي الديوان القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر في أيام المنصور قلاوون، فلُقب بكاتب السر، ونقل لقب كاتب الدّست إلى طبقة دونه من كتاب الديوان... والعامية يبدلون الباء من كاتب السر بميم فيقولون كاتم السر، وهو صحيح المعنى. (الصبح ١/١٠٤).

وراجع: معيد النعم ٣٠، الصبح ٤/٣٠ و ١١/٢٩٤ - ٢٩٥، الخطط ٢/٢٢٥ - ٢٢٧، حسن المحاضرة ٢/١٣٢، حسن الباشا: الفنون والوظائف ٩٢٢ - ٩٢٥، ماجد: نظم سلاطين المماليك ١/٥٤ - ٥٧، أحمد دراج: «رسوم السلطان قايتباي الخاص بكتاب السر والقضاة والصادر في شهر شوال ٨٧٤هـ»، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي - مكة المكرمة ٣ (١٤٠٠هـ) ٢٥٧ - ٢٨٢ و «ترجم كتاب السر في العصر المملوكي ٦٤٨ - ٩٢٣هـ»، المصدر نفسه ٤ (١٤٠١هـ) ٣١٥ - ٣٥٠.

(٣) نظر الجيش. موضوعها التحدث في الإقطاعات بمصر والشام، والكتابة بالكشف عنها، ومشاورة السلطان عليها وأخذ خطه. (الصبح ٤/٣٠ - ٣١ و ١١/٣٢١ - ٣٢٢)، وراجع: معيد النعم ٣٤ - ٣٣، الخطط ٢/٢٢٧، حسن المحاضرة ٢/١٢٢، حسن الباشا: الفنون والوظائف ١١٩٣ - ١١٩٨.

(٤) استيفاء الصحبة: ويعرف صاحبها بمستوفي الصحبة، والمستوفى موظف مدنى مهمته ضبط الديوان والتنبيه على ما فيه يصلحه من استخراج أمواله ونحو ذلك. (الصبح ٥/٤٦٦).

وراجع: الصبح ١١/٣٤٨، حسن الباشا: الفنون والوظائف ١٠٨٨.

جميع المملكة مصرًًا وشامًّا، ويكتب مراسم يعلم عليها السلطان، تارة تكون بما يعمل في البلاد، وتارة بإطلقات، وتارة باستخدامات كتاب في صغار الأعمال، ومن هذا وما يجري مجرى، وهي وظيفة جليلة تلي النظر، وأما بقية المستوفين فكل منهم حديثه مقيد لا مطلق فإنه لا يتعذر حديثه قطرًا من أقطار المملكة.

وهذا الديوان هو أرفع دواوين الأموال، وفيه ثبت التوقيع والمراسيم السلطانية، وكل ديوان من دواوين الأموال هو فرع لهذا الديوان وإليه يرفع حسابه وتنتهي أسبابه.

وأما «نظر الخزانة» فكانت الخزانة أولاً كبيرة الوضع؛ لأنها مستودع أموال المملكة، فلما استحدثت وظيفة الخاص، ضعف أمر هذه المسماة بالخزانة، وصارت تسمى بالخزانة الكبيرة، وهو اسم أزيد من مسماه، ولم يبق بها الآن إلا خلع تخلع منها أو ما يحضر إليها ويصرف أولاً فأولاً، وفي الغالب يكون ناظرها من القضاة أو من يلتحق بهم.

واما «نظر البيوت». فهو ناظر جليل وهو منوط بالأستاذدارية، / ٢٢٥ / فكل ما يتحدث فيه أستاذدار له فيه مشاركة الحديث، وقد تقدم تفصيل حال وظيفة أستاذدار فيما تقدم.

فاما «نظر بيت المال» فهي وظيفة جليلة معترفة، موضوعها حمل حمول المملكة إلى بيت المال والمنصرف منه تارة بالميزان وتارة بالتسبيب بالأقلام. ولا يلي هذه الوظيفة إلا من ذوي العدالة المبرزة.

واما «نظر الاصطبلات». فهو ديوان جليل، مباشره في اصطبل للسلطان، وله الحديث في أنواع الاصطبلات والمناخات وعليقها وأرذاق المستخدمين فيها، وما لها من الاستعمالات والإطلاق، وكل ما يبتاع لها أو يبتاع منها.

[وظائف ذوي العلم]

واما وظائف ذوي العلم فقد تقدم القول أنها: القضاء^(١) والخطابة ووكالة بيت

(١) في الأصول: القضاة.

وعن القضاة في العصر المملوكي، راجع: بالإضافة إلى كتاب ابن حجر: رفع الإسر عن قضاة مصر، وراجع، الصبح، ٤/٣٧-٣٤ و٥/٤٥١ و١١/١٧٤ و٢٢٢-٢٢٥ و٢١٦-٢٠٩ و٢١٥-٢٠٥.

المال والحساب، وهذه وظائف معروفة ومبشرات أربابها معلومة؛ لأنه لا يكاد تخلو مملكة من ممالك الإسلام منها.

فصل

وفي هذه المملكة وفيما هو متعلق بها مجموع المساجد الثلاثة التي لا تشد الحال إلا إليها : المسجد الحرام، والبيت المقدس، ومسجد النبي ﷺ.

وأول ما نبدأ به ما هو محقق في هذه المملكة وداخل في حدودها وهو «القدس» وبه «المسجد الأقصى» و«الصخرة» التي هي أولى القبلتين، وإليه كان إسراء النبي ﷺ من المسجد الحرام كما قال الله عزَّ وجلَّ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ أَكْبَرَ إِنَّمَا يَعْبُدُهُ الْجَاهِلُونَ﴾^(١) وبجانبه الأيمن الطور وعليه كانت مخاطبة موسى عليه السلام. وفيه وفيما حوله غالب مدفن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

قال التيفاشي في كتاب^(٢) «سرور النفس بمدارك الحواس

(١) سورة الإسراء: الآية .١

(٢) التيفاشي، شهاب الدين، أبو العباس، أحمد بن يوسف بن أبي بكر بن حمدون، شرف الدين القيسي عالم بالحجارة الكريمة غزير العلم بالأدب وغيره، من أهل تيفاش (من قرى قفصة، بأفريقية) ولد بها سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ مـ، وتعلم بمصر، وولي القضاء في بلده، ثم عاد إلى القاهرة وتوفي بها سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ مـ. من كتبه «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار - ط» ومنه نسخ مخطوطة فيها زيادات على المطبوع، و«الأحجار التي توجد في خزان الملك وذخائر الرؤساء - ط» و«خواص الأحجار ومنافعها - خ» و«فصل الخطاب، في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب» موسوعة كبيرة، اختصرها ابن منظور - صاحب لسان العرب - وسمى الجزء الأول منها «ثار الأزهار، في الليل والنهر - ط» و«نزة الألباب»، فيما لا يوجد في كتاب - خ» مبتور الآخر، أدب ومجون. في خزانة الرباط (١٣٣٣ كتاني) وكنيته فيه شهاب الدين. «متعة الأسماع في علم السمع - خ» مسودته بخطه، في خزانة محمد الطاهر بن عاشر، بتونس (كما في مذكرات حسن حسني عبد الوهاب الصمادحي). وهو في صلة التكملة - خ، للحسيني: «المغربي الفقهي التيفاشي» ولم يذكر القيسي.

ترجمته في: الوافي بالوفيات ٢٩١ - ٢٨٨ - ٢٦٦، الديباخ المذهب ١ / ٢٤٧، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٣٩ (١٩٦٤) - ١٢ - ٢٦، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية (تونس ١٩٦٦) ٤٤٨ - ٤٦٠، مقدمة محمد يوسف حسن لكتاب أزهار الأفكار (القاهرة ١٩٧٧) وشجرة النور ١٧٠، والهرس التمهيدي ٥٤٣ - ٥٤٤، ومعجم المطبوعات ٦٥١ ، وفي إيضاح المكونون - ذيل كشف الظنون - ١٥٤٩ أن للتيفاشي كتاب «رجوع الشيخ إلى صياغة» في مجلدين، والمعروف أن المطبوع من رجوع الشيخ هو لابن كمال باشا - أحمد بن سليمان المتوفى سنة ٩٤٠ هـ، الأعلام ١ / ٢٧٣ - ٢٧٤ ..

الخمس»^(١): ذكرت الرواية أن هذه الأرض التي بارك الله فيها وحولها أربعون ميلاً طولاً في أربعين ميلاً عرضاً في تدوير البيت المقدس، والبيت المقدس في وسطها. وكان اسمها في الزمن الأول إيليا، وقول الله تعالى يتحقق أن بيت المقدس في وسط تربيع الأرض المقدسة التي بارك الله تعالى فيها.

و«المسجد الأقصى» في قبة السلسلة، /٢٢٦/ كان مجلس داود عليه السلام، وفيه أيضاً الموضع الذي عرج بالنبي ﷺ إلى السماء منه، وهو تحت قبة المراج، وفيه موضع مصلى أيوب عليه السلام بالملائكة على قبة يقال لها قبة الملائكة، وفيه الصخرة التي كان يقرب إليها يوشع بن نون خلافه لموسى بن عمران، وفيه محراب مريم، وفيه متبعد زكريا وهو نفسه من بناء داود وسليمان عليهما السلام^(٢)

قلت: وفيه قبر إبراهيم الخليل على الصحيح وإن لم يصح القبر المعين الآن بعينه^(٣). وقد تضمن كتاب الله العزيز والأحاديث الواردة عن النبي ﷺ من فضائله ما فيه كفاية.

(١) ليس هذا عنوان كتاب التيفاشي، وإنما هو عنوان أحد مختصراته. فقد وضع التيفاشي موسوعة كبيرة في أنواع العلوم والآداب بلغت عدد مجلداتها نحو أربعة وعشرين مجلدة عنوانها «فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب» استعان في تأليفها بخزانة الصاحب محبي الدين محمد بن محمد سعيد بن ندى الجزري (الوافي /١٧٢/٨٨٨) واختصر هذا الكتاب جمال الدين محمد بن مكرّم بن منظور الأفريقي صاحب «السان العرب» وهو الذي سمى «سرور النفس» منه أجزاء في مكتبة حسن حسني عبد الوهاب (ورقات /٤٥٨/٢)، كما نشر أحمد فارس الشدياق قسماً من مختصر ابن منظور بعنوان «ثار الأزهار في الليل والنهر» (مط الجوائب ١٢٩٨هـ). وبذلك يكون نقل ابن فضل الله العمري عن مختصر كتاب التيفاشي الذي اختصره ابن منظور وليس عن أصل الكتاب الذي وضعه التيفاشي نفسه. «سيد».

(٢) زار العمري هذه الأماكن قال: «ولقد دخلت إلى بعض هذه الأماكن، ورأيت من عجائب الأبنية بها ما يملأ العين». (مسالك الأبصار /٢٦٧).

(٣) راجع ما كتبه العمري عن «قبر الخليل عليه الصلاة السلام وماجاوره من قبور بنيه والأزواج» وزيارة للسراداب الذي فيه قبور الأنبياء. (مسالك الأبصار /٢٦٨).

لم يعتبر اليهود شأنة الربانيون والقرائيون السامرية من اليهود، وترجع اليهود شأنة هذه الفرقة إلى أيام السبي البabلي سنة ٥٨٦ق.م. وعندما أصبحت الديانة المسيحية هي دين الإمبراطورية الرومانية الرسمي تعرض اليهود والسامريون لموجات الاضطهاد، مما أدى إلى اليهود إلى اعتبار السامريين فرقة يهودية ذات صبغة خاصة. وقد وجدت منهم في مصر والشام جماعات صغيرة طوال العصر الإسلامي. (أهل الذمة ١١٣-١١٥، وقارن الصبح ١٣/٢٦٨-٢٦٩). وأخبر عنهم القرآن أنهم معاصرین لموسى عليه السلام «سورة طه: الآية ٨٥».

والصخرة قبلة اليهود الآن، وإلى القدس حجهم. وبالقدس القمامة التي يحجها النصارى من أقطار الأرض وأعماق البحر.

إلى جانب القدس مدينة نابلس محسوبة من الأرض المقدسة، وداخلة في حدودها، وإلى طورها حج السامرية، وهو طائفه من اليهود ينتمي أئمتها إلى نبوا هارون عليه السلام.

فالقدس الشريف معظم عند جميع المسلمين واليهود والنصارى، ومكان زيارة لهم أجمعين، وإنما اختلافهم في أماكن الزيارة منه. وما نبهنا على هذا إلا لما فيه من الفائدة لإبطاق الجميع على تعظيمه وقصده بالزيارة.

وأما الحرمان الشريفان (مكة) و(المدينة) زادهما الله جلاله وتعظيمًا، فهما من الحجاز. ولم يزل أمراء المدينة الشريفة المترامين إلى صاحب مصر في غالب أوقاتهم ومعظم أيامهم إلا القليل النادر، فإنه ربما عصى بعضهم ومع هذا لا يتراهى إلى سواه.

وأما أمراء مكة المعظمة فقد كان منهم من يُسرّ حسوا في ارتقاء يرضي صاحب مصر بأنه سامع له مطبع، ويقول لصاحب اليمن مثل ذلك، وكان أكثر ميلهم إلى صاحب اليمن وحقيقة هواهم معه، ثم ترموا إلى صاحب العراق لقوة سلطانه. / ٢٢٧ / ما برح هذا السلطان يحبس منهم ويطلق ويقيم الواحد بعد الواحد، ويجهز إليهم الجيش مرة بعد أخرى ليصفو له كدرهم وهم على علاتهم. فأما الآن فقد حكم عليهم حكمًا قاهرًا حتى انقاد له صعبهم ولانت له شکائهم، على إباء فيها واعوجاج بها، وذلك لما مات أبو سعيد بهادرخان بن محمد خدابنده، سلطان العراق^(١)، وتشعبت بعده الأهواء، ولم يعد إلى بعد تأليف كتابي هذا إليهم تحمل، ولا صفت لهم أمور.

وأمراء المدينة من بنى الحسين بن علي - رضي الله عنهما - من أولاد جماز بن

شيخة^(٢).

(١) هو آخر من ملوكها من بنى هولاكو، وكان بينه وبين الناصر محمد بن قلاوون مكاتبات ومراسلات وتتوعد بعد وحشة. وبموته تفرقت المملكة بأيدي أقوام، وصارت شبيهة بملوك الطوائف من الفرس. «الصبح» / ٤٢٠ / ٤.

(٢) ملك مكان أخيه عيسى سنة تسع وأربعين وستمائة، وطال عمره وعمي ومات سنة أربع أو خمس بعد السبعمائة، وظللت الإمارة في بيته إلى زمن العُمري. «التعريف» ٢٠، «الصبح» / ٤ / ٣٠٠، التحفة اللطيفة / ١ / ٤١٨ - ٤١٤.

وأمراء مكة المعظمة من أولاد الحسن بن علي رضي الله عنهم من أولاد إدريس بن قتادة، وبكل منها جماعة من الأشراف أقارب أمرائها^(١)

وهؤلاء أمراء مكة والمدينة، على طاعتهم وعصيانهم، لابد للقائم منهم بالأمر من ملاطفة صاحب مصر حتى يأخذ منه تقليداً بالأمر لخوفهم من قربه ومواصلة ركبانهم إليهم من مصر ودمشق. وقد ذكرنا هذا توفيقاً بشرط هذا الكتاب، ولم نتعرض إلى ذكر فضائلهم. كفى الحرمين عن ذلك.

وفيهما البيت الممحوج المحبوب، ونبي هذه الأمة وشفيعها سيدنا محمد ﷺ. فحسبهما بمكان بيت الله ورسوله المصطفى ﷺ شرفاً تتطامن له أعناق السماء ويمسك بأطراف السبطين الثرى والماء.

* * *

ومما هو في حدود هذه المملكة مما له اسم سلطان حاكم وملك منصرف «حماة» وهي مدينة بين حمص وحلب، وهي لقباً ملوكبني أيوب، من أراد صاحب مصر ولاه ومن أراد عزله. ولقد كانت انتزعت منهم بعد موت المظفر شادي بن المنصور محمد بن المظفر ووليت لنواب كبقية نواب هذه المملكة. ثم إن هذا السلطان أعادها إلى أهل البيت الأيوبي وملك بها المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الأفضل بن علي بن المظفر^(٢) ابن عم الذي انتزعت بعد موته، ثم بعده لولده الأفضل

(١) في التعريف ١٩: «وأمرتها في الأشرافبني حسن واستقرت في أولاد أبي نميّ، وهي الآن في رُميثة وهو آخر من يقي من بيته وعليه كان النص من أبيه دون البقية مع تداولهم لها. والقائم بها عنه ابن عجلان».

وراجع: الصبح ٤ / ٢٧٢ - ٢٧٥.

(٢) إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب: أبو الفداء، الملك المؤيد، صاحب حماة. مؤرخ جغرافي،قرأ التاريخ والأدب وأصول الدين ولد سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م، واطلع على كتب كثيرة في الفلسفة والطب، وعلم الهيئة. ونظم الشعر - وليس بشاعر - وأجاد الموشحات. له «المختصر في أخبار البشر - ط» ويعرف بتاريخ أبي الفداء، ترجم إلى الفرنسيية واللاتينية وقسم منه إلى الإنكليزية. وله «تقويم البلدان - ط» في مجلدين، ترجمه إلى الفرنسي المستشرق رينو reinaub، و«تاريخ الدولة الخوارزمية - ط» و«نواذر العلم» مجلدان، و«الكتناش - خ» في النحو والصرف، و«الموازيين» وغير ذلك. ولد ونشأ في دمشق، ورحل إلى مصر فاتصل بالملك الناصر (من دولته المماليك) فأحجه الناصر واقامه سلطاناً مستقلاً في «حماة» ليس لأحد أن ينزعه السلطة، وأركبه بشعار الملك، فانصرف إلى حماة، فقرب العلماء ورتب بعضهم المرتبات، وحسن سيرته، واستمر إلى أن توفي بها سنة ٦٧٣٢ هـ / ١٣٣١.

محمد^(١)، وهو القائم بها الآن، يستقل فيها بإعطاء /٢٢٨/ الإمارة والإقطاعات وتولية القضاة والوزراء وكتاب السر وكل الوظائف، ويكتب المنشاير والتواقيع من جهته، ولكنه لا يمضي أمراً كبيراً مثل إعطاء إمرة أو إعطاء وظيفة كبيرة حتى يشاور صاحب مصر، وهو لا يجيئ إلا بأن الرأي ما يراه، وهذا ومثله.

وهذه حماة مبنية على نهر العاصي وهي من أحسن مدن الشام.

ومما يجب ذكره هنا «بلاد سيس»، وهي ما بين حلب والروم استولى عليها الأرمي من قديم، ومملكتها في بيت لارد بن مليح الأرمي من مدة متقدمة. وببلادها بعضها أغوار على ساحل البحر وبعضها متعلقة بالجبال وهم من العواصم وما يليها، وملكتها متراهم إلى صاحب العراق والعجم منتظم في سلكه. وما خرج عسكره إلى الشام لقتال صاحب مصر إلا وخرج معهم وكثر سواد عسكره وبالغ في نكایة الإسلام وأهله، وهو مع هذا يداري صاحب مصر ويداهنه ويحمل إليه مالاً في كل سنة قطيعة مقدرة. وفي كل وقت وحين تغزوه عساكر مصر والشام في عقر البيرة وفتحت البلاد وسيبي النساء والذراري. وفي سنة تأليفه فيها هذا الكتاب، وهي سنة ثمان وثلاثين وسبعين مائة، جهز السلطان فرقة من العساكر إليها فخاف صاحبها وسلم جانباً من بلاده مما يلي المملكة الإسلامية من نهر جيهان إلى ما لاصق البلاد، وصارت بحمد الله في يد الإسلام وقبضة السلطان وقدر عليه القطيعة على باقي بلاده.

* * *

ومن خصائص هذه المملكة «معدن الزمرد» وهو بالبر المتصل بأسوان، له من جهة السلطان ديوان وشهود وينفق على العمال به ويقام لهم المون لحرقه واستخراج الزمرد منه، وهو في جبال مرملة يحفر فيه وربما سقط على الجماعة به فماتوا. ويجمع ما يخرج منه ويحمل إلى السلطان ومنه يحمل إلى البلاد. ورأيت منه قطعة وسطها

= ترجمته في: الدرر الكامنة /١٣٧١ والبداية والنهاية /٤٥٨ وفوات الوفيات /١٦ وروض المناظر، في حوادث سنة ٧٣٢ وآداب اللغة /١٨٧ والفهرس التمهيدي ٢٥٣ والنجوم الزاهرة /٩٢ وطبقات السبكي /٦ ٨٤ وفي دائرة المعارف الإسلامية /١ ٣٨٦ أن المطبوع من كتاب «تقويم البلدان» لأبي الفداء، أجزاء متفرقة. وفي جغرافية ملطبرون /١٤٤ الكلام على ترجمات «تقويم البلدان» وطبعاته القديمة، الاعلام /١٣٩.

(١) ترجمته في: الوافي بالوفيات /٢٢٧-٢٢٤.

أحضر في نهاية الحسن وأطرافه جميعه أبيض وما بين وسطه وأطرافه بين اللونين، ثم كلما كان أقرب /٢٢٩/ إلى الوسط كان أقرب إلى الخضراء، وما كان إلى الطرف كان أميل إلى البياض إلى أن كان آخره أبيض، والوسط أنضجته الطبيعة نضجاً كاملاً، والأطراف لم يكمل نضجها فسبحان الله مبدع كل شيء.

وبها «البلسان» وهو شجر قصار بالمطيرية، حاضرة عين شمس، بالقرب من القاهرة. ويسقى من بئر هناك، ولا يكون إلا في تلك البقعة. وهذه البئر يعظمها النصارى وتقصدها وتغتسل بها وتسشفى به على زعمها. ويخرج لاعتصار البلسان أوان إدراكه من قبل السلطان من يتولى ذلك، ويحفظه ويحمل إلى الخزانة، ثم ينقل منه إلى قلاع الشام والممارستانات لمعالجه المبرودين، وملوك النصارى من الجبوش والروم والفرنج يهادون السلطان بسببه ويستهدونه منهم؛ لأنهم لا يصح عندهم تنصر إلا بالغمض في ماء المعتمودية. وعندهم أنه لابد أن يكون في ماء المعتمودية من دهن البلسان هكذا أخبرني جماعة من النصارى. وهو ظاهر التقدم في معالجة الفالج وارتقاء الأعصاب وسائر الأمراض.

وفيها القرصنة والصنم السليماني والسبس، من مكان يعرف بدار العربية قريب مصر، أفعى دواء للاستسقاء.

ومنها «الأفيون» وهو عصارة الخشخاش الأسود المصري، وكذلك الجوز المائل وهو يطلع بدمياط. وأما ما يطلع بجبل القدس وببلاد فلسطين والأردن من الحشائش المنصوص عليها في كتب الأطباء فكثير جداً كالمربيات ذات الألف ورقة التي هي من أجل البذورات النافعة من السموم القاتلة.

ولم نذكر هذا إلا على سبيل العرض، وإنما فليس من المقصود.

ذكر عادة هذه المملكة في الخلع ومراتبها

وهي ثلاثة أنواع: أرباب السيوف والأقلام والعلماء^(١)

فأما «أرباب السيوف» فخلع أكابر ذوي المئين منهم الأطلس الأحمر الرومي، وتحته الأطلس الأصفر الرومي، وعلى الفوقاني طرز زركش ذهب وتحته سنجاب وله

(١) نشر كاتمير هذا الفصل وترجمه في كتاب «تاريخ سلاطين المماليك».

سجف من ظاهره مع القباء قندس^(١) وكلوته زركش مذهب، وكلاليب^(٢) ذهب، وشاش لانس^(٣) رفيع موصول به في طرفيه حرير أبيض مرقوم بألقاب السلطان / ٢٣٠ مع نقوش باهرة من الحرير الملون، مع منطقة ذهب، ثم تختلف أحوال المنطقة بحسب مقاديرهم: وأعلاها أن يعمل بين عمدتها بوادر وسطى ومجنبتين مرصعة بالبلخش والزمرد واللؤلؤ، ثم ما كان بيكارية واحدة مرصعة، ثم ما كان بيكارية واحدة من غير تصريح^(٤). فأما من تقلد ولاية كبيرة منهم فإنه يزاد سيفاً محلی بذهب^(٥) وفرساً مسرجاً ملجمًا بكتبوش مذهب^(٦).

وصاحب حماة خلعته من أعلى هذه الخلع^(٧) وبدل الشاش اللانس بشاش يعمل بالإسكندرية من الحرير شبيه بالطول ويوج بالذهب يعرف بالمتّمر^(٨)، ويعطى فرسان أحدهما كما ذكر، والآخر يكون عوض كنبوشه زناري أطلس أحمر. وقد استقر لنائب الشام^(٩) مثل هذا وأزيد بتركيبة مزرتش ذهب دائرة بالقباء الفوقاني.

(١) قندس ويقال المقدنس: القماش المنسوج من فراء القندس، وهو كلب البحر، ويعرف بالكستور. (السلوك / ٢ هـ ٣٣٦).

(٢) كُلَّاب، مفرد، جمعه: كُلَّاب، هو المَسْبِك أو الأَبْزِيم، وأكثر استعماله في تحليه الكلوته. «السلوك / ٢ هـ ٣٣٦».

(٣) الشاش: ما يُفَكُ حول غطاء الرأس من قماش. «السلوك / ٢ هـ ٣٣٦».

(٤) البيكارية: جمع، مفرد: بوادر (بواكي)، رقيقتان مستطيلتان من المعدن عليهما نصوص منقوشة توضح اسم الأمير الذي صنعت من أجله.

(٥) في الخطط / ٢: يحضر من السلاح خاناه ويجلبه ناظر الخاص.

(٦) في الخطط ايضاً: والفرس من الأصطبل وقماشه من الركاب خاناه، ومرجع العمل في سروج الذهب والكنابيش إلى ناظر الخاص.

(٧) انظر وصف خلعة صاحب حماة في: المختصر في أخبار البشر / ٤ - ٨٧ حيث يذكر أنه منح هذه الخلعة في يوم الخميس سابع عشر المحرم سنة ٧٢٠.

(٨) المُتّمر: تبعاً لما يريده أن العمري، ومن نقل عنه، انفردوا بذلك هذا النوع من الطلس. وهذا النوع من القماش كان من أغلى وأثمن أنواع النسيج، وكان يستخدم في صناعة أجل ثياب التشريف الخاصة بالطبقة الرفيعة.

(٩) ذكر المقرizi في الخطط أن نائب الشام المقصود هو تنّكر. «الخطط / ٢ هـ ٢٢٧». وهو تنكز بن عبد الله الحسّامي الناصري، ولنيابة دمشق ثمانية وعشرين سنة، ثم حبسه الناصر محمد في الإسكندرية إلى أن قتل بها في سنة ٧٤١.

ترجمته في: الوافي بالوفيات / ١٠ - ٤٢٠ - ٤٣٥ (ترجمة مفيدة)، فوات الوفيات / ٢ - ٢٥١ - ٢٥٨، السلوك / ٢ - ٥٠٦ ، الدرر الكامنة / ٥٥ ، النجوم الزاهرة / ٩ - ٣٢٧ - ٣٢٨ (والفهرس ٣٤٨) والمنهل الصافي / ٤٣٥ والدليل الشافي / ١ - ٢٢٨.

ودون هذه المرتبة في الخلع نوع يسمى **الطردوحش**^(١) يعمل بدار الطراز بالإسكندرية وبمصر وبدمشق، وهو مجوح جاخص كتابة بألقاب السلطان، وجاخص طرد وحش أو طير، وجاخصات ألوان متدرج بقصب مذهب، تفصل بين هذه الجاخصات نقوش وطراز، هذا من القصب. وربما كبر بعضهم فركب عليه طرازاً مزركشاً بالذهب وعلى [فرو] السنحاب والقندس، كما تقدم، وتحته قباء من المفرج الإسكندراني الطرح، وكلدته زركش وكلاليب وشاش على ما تقدم، وحياضة ذهب تارة تكون بيكارية وتارة لا تكون بيكارية، وهذه لأصغر أمراء المئين ومن يلحق بهم.

ودون هذه الرتبة كمخا عليه نقش من لون آخر غير لونه، وقد يكون من نوع لونه بتفاوت بينهما [وتحته] سنحاب مقدس، والبقية كما قدمنا ذكره، إلا أن الحياضة والشاش لا يكونان بأطراف رقم بل تكون مجوفة بأصفر، ولا تكون بيكارية.

ودون هذه الرتبة **كنجي**^(٢) بلون واحد بستحاب مقدس والبقية على ما ذكر، وتكون الكللّوتة خفيفة الذهب وجانبها يكاد / ٢٣١ / أن يكونا خاليين بالجملة ولا حياضة له.

ودون هذه الرتبة **مجوم** لون واحد والبقية على ما ذكر خلا الكللّوتة والكلاليب. ودون هذه الرتبة **مجوم** وقندس وتحته قباء بجاخصات من أحمر وأخضر وأزرق، أو غير ذلك من الألوان، وستحاب وقندس وتحته قباء ملون إما أزرق أو أخضر، وشاش أبيض بأطراف من نسبة ما تقدم ذكره.

ثم ما دون هذا النوع، ولابد من تقييم ما.

وأما «الوزراء والكتاب»

فأجل خلعهم **كنجي** أبيض مطرز برقم حرير ساذج وستحاب وقندس، ويبطن القندس بالستحاب وتملا الأكمام به، وتحته **كنجي** أخضر وبقيار^(٣) كتان من عمل

(١) **الطردوحش**: وقد ذكره المقريزى: باسم طرز وحش «الخطط ٢ / ٢٢٧» يمعن المطرز عليه صور الوحش ولعل هذا المعنى أقرب وأدق.

(٢) **الكنجي**: قماش منسوج من قطن وحرير، كان يصنع أولاً في كنجه بجهات أرمان، ثم انتقلت صناعته إلى مناطق أخرى. (السلوك ١ / ٨٤٧ هـ).

(٣) في الأصول: كنجي والتوصيب عن الخطط.

البيكار: لباس للرأس خاص بالقضاة وكبار العلماء، كان يصنع من قماش اسكندراني رفع فاخر يسمى «كفرخ». وبذلك يكون أشبه بنوع من العمامات وليس بغطاء رأس من طراز القلسورة.

دمياط مرقوم وطحة.

ثم دون هذه الرتبة عدم تبطين القندس بالسنجب وإخلاء الأكمام منه. ودونها ترك الطرحة. ودونها أن يكون التحتاني مجموعاً. ودون هذا أن يكون الفوقاني من نوع الكنجي لكنه غير أبيض، ثم تحته عتaby طرح أو ما يجري معراه. ثم ما دون ذلك كما قدمنا في خلع أرباب السيوف.

وأما «القضاة والعلماء» فخلعهم من الصوف بغير طراز ولهم الطرحة، وأجله أن يكون أبيض وتحته أحضر. ثم ما دون ذلك على نحو ما قدمناه.

وأما «أهبة الخطباء» فإنها من السواد للشعار العباسي، وهو دلق مدور، كما قدمنا وصفه في ذكر زي العلماء، وشاش أسود وطحة سوداء، وينصب على المنبر علمان أسودان مكتوبان بأبيض أو بذهب. ويخرج المبلغ من المؤذنين قدام الخطيب وعليه سواد مثل الخطيب، خلا الطرحة، وفي يده السيف، فإذا صعد الخطيب المنبر أخذ منه السيف، فإذا رقى المنبر وسلم، أذن لابس السواد تحت درج المنبر وتبعه المؤذنون، ثم ذكر الحديث الوارد: «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة، والإمام يخطب، أنصت فقد لغوت»^(١)، ثم يبلغ عنه الصلاة والرضا والدعاء لل الخليفة /٢٣٢/ والسلطان، هو ثم المؤذنون، ثم إذا انحط إلى الصلاة أخذ السيف من يده.

وهذه الأهب تصرف من الخزانة، ثم تكون في حواصل الجوامع لتلبس في ساعات الجمع، فإذا خلعت أعيدت الخلعة إلى الخزانة وصرف لهم عوضها.

ذكر العيدin قد تقدم ذكرنا لهيأة السلطان في رکوبه أيام الأعياد. وبقي ما لا بد من ذكره هنا وهو: أنه إذا ركب من باب قصره بقلعة الجبل ونزل إلى منفلة من الإصطبل إلى ميدان العيد الملائق له، يترك به في دهليز قد ضرب له على أكمل ما يكون من الأبهة، ف يصل إلى ويسع الخطبة، ثم يركب ويعود إلى الإيوان الكبير - المقدم ذكره - ويمد به السمات ويخلع على حامل الجتر، والسلاح، وأستاذدار، والجاشنكير^(٢)، وكثير من أرباب الذين لهم خدمة في مهم العيد، كنواب أستاذدار،

(١) مسند أحمد / ٤٧٤ / ٢.

(٢) الجاشنكير: الذي يتقدّى للذوّاق المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفاً من أن يُؤسَّ عليه فيه سُمٌّ ونحوه. وهو مركب من لفظين فارسيين: جاشنا ومعنى الذوق، وكثير ومعنى المتعاطي لذلك. فيكون المعنى «الذي يذوق» أو «الذوّاق». الصبح / ٥ / ٤٦٠. وكان يقف على السمات مع أستاذدار =

وصغار الجاشنكير ونقيب النقباء، وناظر البيوت، ومثل هؤلاء.

ومن عادة هؤلاء أن يعد له كل عيد خلعة على أنها لمبوسه من نسبة خلع أكابر أمراء المئين، فما يلبسها هو، ولكن يخص بها بعض أكابر أمراء المئين يخلعها عليه.

ولصاحب مصر في مثل هذا اليد الطولى حتى بقي بابه سوقاً ينفق فيه كل مخلوب، ويحضر إليه الناس من كل قطر حتى كاد هذا ينهك المملكة ويودي بمحاصالتها عن آخرها. وغالب هذا مما قرره هذا السلطان، وقد يتبع من يجيء بعده بكثرة هذا الإحسان.

ولهذا السلطان عادات جميلة، كلها من الخلع، في أوقات لعبه بالكرة على أناس جرت لهم عنده عوائد بالخلع في ذلك الوقت: كالجوكندار^(١)، والولاة ومن يجري مجراهم مما له خدمة في ذلك عادة مما ينعم به ويطلقه، / ٢٣٣ / وإذا حصل له أحد شيئاً مما يصيده في صيوده خلع عليه. وأما إذا خرج إلى صيد الوحش وصادوا الغزلان والنعام فكل من أحضر له صيداً خلع عليه قباء مستجباً بما يناسب خلعة مثله، للكبير الكبير وللصغير صغير كل واحد على قدره، وكذلك البازدارية^(٢) وحملة الجوارح ومن يجري مجراهم، عند كل صيد إنعامات ينعم بها عليهم. ولغلمانه في الطشتخانة والشرابخانات والفراسخانات ومن يجري مجراهم عوائد في كل سنة زمان الصيود، كل هذه عوائد جارية لا تقطع.

ولكل من يتصل بخدمة هذا السلطان، ممن يرد عليه أو يهاجر من مملكة أخرى، أنواع الإدرارات، والأرزاق والإنعمان وغياث لا يبلغها قرارية بلاده واللائذين بظله. وكذلك التجار الذين يصلون إليه ويبيعون عليه، لهم عليه الرواتب الدائمة من الخبر.

الصحبة، وعادة ما يكون كبار الجاشنكيرية من الأمراء المقدمين. «الصبح» ٤/٢٩ وراجع، حسن البشا: *الفنون والوظائف* ٤٤٣ - ٦٣٤.

(١) الجوكندار وصوابه جوكاندار، وجمعها: جوكاندارية، لقب على الذي يحمل الجوكان مع السلطان في لعب الكرة. مركب من لفظتين فارسيتين: جوكان، وهو المُحْجَن الذي تُضُرب به الكرة ويقال له أيضاً المسؤولجان، ودار بمعنى ممسك. فيكون المعنى «ممسم الجوكان». «الصبح» ٥/٤٥٨، وراجع: حسن البشا: *الفنون والوظائف* ٣٧٣ - ٣٧٧.

(٢) في الأصول: البازدارية. والبازدار مفرد، جمعها: بازدارية، الذي يحمل الطيور - الجوارح المعدة للصيد على يده. وتحصّن بإضافته إلى الباز - الذي هو أحد أنواع الجوارح - دون غيره، لأنّه هو المتعارف عليه بين الملوك في زمن القديم.

واللحم والتوابل والحلواه والعليق والمسامحات بنظير كل ما يبتاع عليه من الرقيق المماليك والجواري، مع ما يسامحهم به أيضاً من حقوق تطلق أخرى. وكل هؤلاء إذا باعوا عليه ولو رأساً واحداً من الرقيق، لهم خلع مكملة لكل واحد بحسبه خارجاً عن الثمن وعما ينعم به على بعضهم أو يسفر به من مال السلطان على سبيل القرض ليتاجر به.

فأما جلاية الخيل، من عرب الحجاز والشام والبحرين وبرقة وبلاد المغرب، فإن لهم من ذلك الحظ التوافر والتنصيب الراجح. وربما أعطى عن الفرس نظير ثمنها عشر مرات وأكثر، غير الخلع والرواتب والعلوفات والأنزال ورسوم المقامات، خارجة عن ثمين الخيول، ومسامحات تكتب لهم بالمقررات عن تجارات يتجرون بها مما أحذوه من أثمان الخيول.

* * *

قلت: وبهذه المملكة جميع قيل الملل.

أما القبلة الإسلامية فهو بيت مكة المعظمة، وهو بها كما تقدم. وأما اليهود فقبلتهم البيت المقدس، /٢٣٤/ وقد كان القبلة الأولى في العلة الإسلامية، وهو بها. وأما السامرة - وهم فرع من اليهود - فقبلتهم إلى طور نابلس، وهو بها وعندهم أنه طور سينا. وأما النصارى فلا قبلة لهم وتوجههم إلى الشرق لا لقبلة، وجميع معابدهم التي يعظمونها بها مثل: قمامنة وهي بالقدس وإليها حجتهم من أقطار الأرض من البراري والبحار. وبيت لحم، وبه مولد عيسى المسيح عليه السلام. وكنيسة صيدلانيا ببر دمشق. وكنيسة صور، ومن ملوكهم من لا يصح تملكه حتى يصلّى عليه فيها.

وكنيسة مريحنا بالإسكندرية هي معتقد العياقة^(١) منهم وبها بطريرك القبط^(٢)،

(١) العياقة: هم أتباع مذهب الطبيعة الواحدة. وعرفوا بذلك نسبة إلى أحد زعمائهم هو يعقوب البراذعي. ويمثل أتباع هذه الطائفة غالبية أقباط مصر وهم المعروفون اليوم بالأقباط الأرثوذكس. وكان مقر بطريركيهم بالإسكندرية. الصبح ١٣٩ / ٢٧٨ - ٢٨٠، المقصد الرفيع ٤٨٨ / ٢، الخطط ١٠٦ «أهل الثمة».

(٢) البطريرك أو البطريرك: لقب النصارى اليقوجية بمصر المعروف ببطريرك الإسكندرية. الصبح ٥ / ٤٧٣.

وملوك الحبشة تعظم هذا البطريرك وتشير إليه بالتعظيم، وإذا جاءهم كتابه عملوا به لا خروج لهم عنه ولا مندوحة لهم عن حكمه، وهو يولي عليهم مطراناً بعد مطران^(١)، كلما مات واحد بعث غيره نائباً له فيهم، وذلك المطران يقوم بالحبشة مقام البطريرك في الأمر والنهي فيهم وانقيادهم أجمعين إلى طاعته من غير مخالفة له ولا عليه شيء.

حدثني من أثق به أن بعض التجار بمصر جهز مالاً له مع مسفره إلى الحبشة فمات المسفر، وبئس صاحب المال من ماله وكان مالاً كثيراً فغيل صبره، وشكى إلى السلطنة بمصر حاله، فقيل للبطريرك فكتب كتاباً إلى ملك الحبشة بأمره بإعادة مال الرجل إليه. ثم إن صاحب المال سفر رجلاً اعتمد عليه فيما طال به المكث حتى أتى بجوابه بالامثال وأحضر معه جميع المال بعينه أصله وربحه.

وحكى عن تعظيم الحبشة لكتاب البطريرك أنه منذ دخل حدود بلادهم وعلموا بالكتاب تلقاه عمال الأطراف بها ورفعوا الكتاب على رمح وحملوه هو ومحضره ومن حضر معه على أرفة الدواب ورتبوا له الإنزال والإقامات / ٢٣٥ / يوصله أهل كل عمل إلى الآخر على هذه الصورة حتى انتهى إلى حضرة الملك، فبالغ في إكرامه وإنزاله وإضافته. فلما كان يوم الأحد أخذ منه الكتاب وقرأه المطران في الكنيسة على الملك وهو واقف مكشوف الرأس إلى أن فرغ، ثم أمر بإحضار المال وتسلি�مه إليه، ولم يخرج من مكانه حتى أوصل إليه المال، ثم وصله بصلة جيدة وأعاده مكرماً والإإنزال جار عليه من عمل إلى أن خرج من حدوده.

قلت: ولهاذا جميع ملوك النصرانية، الملكية^(٢) واليعاقبة، تهادى صاحب مصر وتراسله لاحتياجها لتمكن المتردد़ين من عندهم من زيارة قمامة وبقية مزاراتهم. واليعاقبة أكثر حاجاتهم إليه لمقام بطريركهم عنده فإنهم لا باب لهم، بخلاف الملكية فإن لأولئك الباب وهو برومية.

(١) المطران: هو بمثابة القاضي الذي ينفصل في الخصومات بين الأقباط (الصحيح ٥ / ٤٧٣).

(٢) الملكية أو الملكانية: المعروفون اليوم بالروم الأرثوذكس وهم القائلون بالطبيعتين. وكان هو مذهب الإمبراطورية البيزنطية، ولم يكونوا كثريين بمصر كما كان أغلب الموجودين بمصر منهم من غير المصريين.

«الصحيح ١٣ / ٢٧٦ - ٢٧٧، السلوك ١ / ٩١٢ - ٩١٣ هـ، قاسم: أهل الذمة ١٠٣ - ١٠٥».

قلت: والباب^(١) هو طاغيهم العظمى. عندهم أن الحلال ما حلل والحرام ما حرم، ولا لأحد عندهم مندوحة أن يتأخر عن أمره أو يتقدم.

فصل

ومن شيعة هذا السلطان طائفة تعرف «بالإسماعيلية»^(٢) مساكنهم في مصياف،

(١) الباب وهو الباب le pape: وهو القائم بأمور دين النصارى الملكانية وكرسيه بروما. «الصبح ٥ / ٤٨٢، وراجع: السلوك ٢ / ٢٨٦ هـ».

(٢) الإسماعيلية: اسم عام للفرق التي تعتقد بإمامة ابن الأكبر للإمام الصادق - عليه السلام - وهو إسماعيل، أو إمامنة نجله محمد. وسموا بأسماء مختلفة في شتى المناطق، منها: الباطنية، والتعليمية، والسبعية، والخشيشية، والملاحدة، والقرامطة. وكما جاء في التواريخ، فإن الإمام الصادق - عليه السلام - نصب ابنه إسماعيل للإمامية بعده، ولما علم أنه شاب فاسق خلعه. وفي نفس تلك الفترة توفي إسماعيل. فنصب الإمام الصادق - عليه السلام - ولده الرابع وهو الإمام الكاظم - عليه السلام - للإمامية بعده.

كانت وفاة إسماعيل سنة ١٤٠ هـ، أي: قبل وفاة أبيه بخمس سنين. ودفن في مقبرة البقع، وقبل دفنه أحضر الإمام الصادق - عليه السلام - والي المدينة مع جمع من وجهائها وشخصياتها، وأشهدهم على موته رفعاً للشبهة، ومات إسماعيل في دية العريض على بعد أربعة فراسخ عن المدينة، وحُملت جنازته على أكتاف الناس، ثم كتب الإمام - عليه السلام - محضراً على وفاته موشحاً بخطوط الحاضرين، حتى دفونه في البقع. ولما مات إسماعيل، ظن الشيعة أن موته كان فجأة، فقالوا: لقد حصل بداء في أمر الإمامة.

وتتحدث المصادر الأولى للإسماعيلية غالباً عن شخص يُدعى: أبو الخطاب محمد بن أبي زينب أو مقلاص بن أبي الخطاب من مواليبني أسد الذي كان له ضلع في إمامية إسماعيل. كان هذا الرجل في بدء أمره من أصحاب الباقر والصادق - عليهما السلام - وبسبب غلوه، لعنه الإمام الصادق - عليه السلام - وتبرأ منه.

يقول التوخيتي: كان أبو الخطاب في بدء أمره من الدعاة إلى الإمام الباقر والإمام الصادق - عليهم السلام - ثم غالى فيهما حيث أوصلهما إلى درجة الألوهية، فطرده الإمام الصادق - عليه السلام - على أثر ذلك، وكانت عاقبة أمره أنه قتل على يد عيسى بن موسى بسبب غلوه. ولما مات أبو الخطاب التحق أتباعه بمحمد بن إسماعيل حفيد الإمام الصادق - عليه السلام - وعلى عكس ثلاثة كانت لاتزال تشكي في موت إسماعيل، وتنظره غائباً، شهد هؤلاء على موت إسماعيل في حياة أبيه، واعتبروا ولده محمداً إماماً بعده بدلاً عن الإمام الصادق - عليه السلام.

وذكر داعية الفاطمية: أبو حاتم الرازى في كتاب «الزينة»، وهو من مؤلفات القرن الرابع الهجرى، إن أبي الخطاب من مؤسسى المذهب الإسماعيلي.

وذكرت اعتقادات أبي الخطاب في كتابين من كتب الإسماعيلية، أحدهما: «أم الكتاب» وهو كتاب مشهور، ومن الكتب السرية المقدسة عند الإسماعيلية. اعتبر أبو الخطاب فيه كسلمان الفارسي من حيث الأهمية والعظمة، كما جاء فيه: «إن مذهب الإسماعيلية هو المذهب الذي وضعه أبناء أبي الخطاب الذي قدم جسده قرياناً لنجل الإمام الصادق - عليه السلام - كي يبقى ما بقي الدهر». والآخر =

= مجموع كتابات الفرقة النصيرية، وفيها: إن أبا الخطاب مؤسس الفرقة الإسماعيلية، وإن ميمون القداح من أتباعه.

انقسم الإسماعيلية في البداية إلى قسمين: الإسماعيلية الخاصة، والإسماعيلية العامة. وكان الإسماعيلية الخاصة يقولون: كان إسماعيل إماماً في عصر أبيه، وغاب. وهو الإمام السابع للشيعة. أما الإسماعيلية العامة، فكانوا يعتقدون أن إسماعيل مات في زمن أبيه، ونصب نجله محمداً للإمامية بعده قبل أن يموت، فالإمام السابع للطائفة هو: محمد بن إسماعيل، علمأً أنه ليس في أيدينا معلومات صحيحة عن حياة محمد بن إسماعيل ومنذ عصره بدأت مرحلة الأئمة المخلفين .

يقول التوبختي: إن المباركية الذين هم أتباع مبارك مولى إسماعيل بن جعفر نصبوه محمد بن إسماعيل للإمامية بعد الإمام الصادق - عليه السلام - وقالوا: إن الأمـر كان لإسماعيل في حـيـاة أـبـيهـ، جـعـفـرـ بنـ مـوـهـمـ الـأـمـرـ لـمـوـهـمـ بـنـ إـسـمـاعـيلـ، وـكـانـ الحـقـ لـهـ، وـلـاـ يـجـوزـ غـيـرـ ذـلـكـ، لأنـهـ لاـ تـتـقـلـ مـنـ أـخـ إـلـىـ أـخـ بـعـدـ الحـسـنـ وـالـحـسـيـنـ - عـلـيـهـمـ السـلـامـ - وـلـاـ تـكـوـنـ إـلـاـ فـيـ الأـعـاـبـ.

روى مؤرخو الإسماعيلية: أن أسرة محمد بن إسماعيل ذهبوا إلى الشام وسكنوا في مدينة السلمية قريباً من حمص، وتظاهروا بالعمل في التجارة خوفاً من ولاة السلطة العباسية. وكانوا يرسلون الدعاة إلى أطراف البلدان الإسلامية، ويبشرون الناس بقرب ظهور المهدي من نسل إسماعيل بن جعفر. كان محمد بن إسماعيل أكبر من الكاظم - عليه السلام - بسبعين سنة، وكانت ولاته حسب تصريح المنجمين في سنة ١٢١ هـ، أي: قبل ولادة الإمام الكاظم - عليه السلام - بسبعين سنة، ويبدو أنه بقي على قيد الحياة حتى سنة ١٧٩ هـ، أي: قبل وفاة الكاظم - عليه السلام - بأربعين سنة.

ميمون القداح وولده عبد الله كان ميمون من أهل خوزستان اشتغل بالكحول وطب العيون، وكان يجري عمليات لقشع الماء الأبيض الذي يصيب العين، لذلك لقب بالقداح. ويبدو أنه كان إيرانياً، ويحمل أن آباءه كانوا من المجرمين. وبعد من دعوة الإسماعيلية، عرف القداح طفلاً. صغيراً متهماً أنه من أبناء عبد الله بن إسماعيل، واسمـهـ أبو القاسم حـسـنـ، وـهـوـ خـلـيـفـهـ، وـيـعـتـقـدـ عـلـمـاءـ الرـجـالـ منـ الشـيـعـةـ أـنـ مـيـمـونـاـ وـنـجـلـهـ عـبـدـ اللهـ كـانـاـ مـنـ الشـيـعـةـ الإـلـمـامـيـةـ، وـمـنـ أـصـحـابـ الإـلـامـ الصـادـقـ - عـلـيـهـ السـلـامـ - وـأـصـلـهـمـاـ مـنـ خـوـزـسـتـانـ، وـيـسـبـبـ إـقـامـتـهـمـاـ فـيـ مـكـةـ فـقـدـ نـسـبـاـ إـلـيـهـاـ. وـقـالـ مـيـمـونـ بـالـغـلـوـ، وـاعـتـقـدـ

بإمامية إسماعيل بن جعفر وولده عبد الله على أثر معاشرته لأبي الخطاب واختلاطه به. وعندهما مات أبو الخطاب، أصبح قياماً على محمد بن إسماعيل ومربياً له، وقام بتلقينه المذهب الباطني. وبعد وفاته، خلفه ولده عبد الله الذي صارت خدماته تحت تصرف محمد بن إسماعيل.

وكانت وفاة عبد الله في بداية القرن الثالث الهجري.

الإمام المستودع والمستقر إن الإمام - حسب اصطلاح الإسماعيلية - قسمان: مستودع، ومستقر. أما الإمام المستودع فهو ابن الإمام، وأكبر أولاده، وعالم بجميع أسرار الإمامة، وأعظم أهل زمانه، إلا أنه لا يستطيع تفويض الإمامة إلى أبنائه. والإمامية وديعة عنده. وأما الإمام المستقر فهو الذي يتمتع بجميع امتيازات الإمامة، وله أن يفوضها إلى أبنائه ونوابه، وفيما يلي شجرة الأئمة الإسماعيليين المستقررين والمستودعين في مرحلة الخفاء:

الأئمة المستقررون من أولاد إسماعيل: محمد بن إسماعيل، أحمد، الحسين، علي (المعلم)، محمد القائم.

الأئمة المستودعون من أولاد ميمون القداح: ميمون، عبد الله، محمد، الحسين، أحمد، سعيد، =

= شجرة أئمة الدروز، المعروفة بشجرة السماوات السبع: إسماعيل، محمد، أحمد، عبد الله، محمد، الحسين، أحمد (والد سعيد) كانت أول دعوة إسماعيلية مسلحة في اليمن سنة ٢٦٨هـ حيث قام الحسين بن حوشب، وهو من دعاة الإسماعيلية، وكان فارسي المحتد، بتبنيه جماعة من قبائل اليمن، وأظهر دعوة الإمام الإسماعيلي المنتظر، وفتح عدداً من قلاع اليمن وحصونها، فأفلح في تأسيس أول حكومة إسماعيلية في اليمن، وبسبتها أُلقي القبض بمنصور اليمن.

كان إمام الإسماعيلية آنذاك عبيد الله المهدي الذي فرّ من السلمية إلى الرملة خوفاً من القرامطة، ومنها توجه إلى الفسطاط، وهي مدينة مصرية كانت قربة من القاهرة، سنة ٢٩١هـ، وهناك أعلن إمامته ودعوته. فقام الخليفة العباسى بمحاكته من خلال الرسول الذين أوفدتهم إلى الأطراف ليلقوا عليه القبض أيضاً وجدوه.

وكاد المهدي أن يقع في الفخ لولا جهود أحد دعااته حيث خلصه من تلك المحن، فتوجه بعدها إلى تونس ونزل على أبي عبد الله الشيعي أحد أئمة دعوة الإسماعيلية في المغرب، وكان قد كسب قبيلةبني كتامة، وهي من قبائل البربر، إلى المذهب الإسماعيلي. فلما رأى أبو عبد الله، بايعه، ثم أجلسه على دابة، ونادى في هذه القبيلة قائلاً: هذا إمامكم، هذا إمام الحق، هذا هو المهدي. ومنذ تلك الفترة انتقل الإسماعيلية من مرحلة الخفاء إلى مرحلة الظهور والعلن. وبعد مدة (في سنة ٣٠١هـ) أرسل عبيد الله المهدي جيشاً لفتح مصر. وسيطر على الإسكندرية والفيوم. بعد ذلك ذهب من المغرب إلى تونس، وبدأ بتشييد مدينة في جزيرة الخلفاء على ساحل البحر، قريباً من قرطاجنة القديمة سنة ٣٠٣هـ، وانتهى من البناء سنة ٣٠٥هـ.

وسماها المهديدة. بعد ذلك توفي فيها سنة ٣٢٢هـ

الإسماعيلية في إيران: كان الخليفة الفاطمي الثامن، الذي مر ذكر آبائه سلفاً، وهو المستنصر الذي حكم من سنة ٤٢٧هـ حتى سنة ٤٨٧هـ، منافساً للخلفاء في بغداد، وحرّض الناس ضد القائم العباسى، وطرده من بغداد بواسطة أحد أتباعه، وهو أرسلان البساسيرى. ولكن دخول طغرل بك السلاجقى بغداد أنقذ السلطة العباسية، ومع ذلك انبرى دعاة الخلفاء الفاطميين ومبغوثهم في مصر إلى نشر المذهب الإسماعيلي وترويجه في العراق وإيران.

حسن الصباح من الذين اعتنقا المذهب الإسماعيلي في زمان خلافة المستنصر الفاطمي رجل يُدعى حسن الصباح من أهل الري. ترك هذا الرجل الري سنة ٤٦٩هـ متوجهاً إلى أصفهان، ومنها إلى آذربيجان والشام، وبعدها ذهب إلى مصر فوصلها سنة ٤٧١هـ، وهناك اعتنق مذهب الإسماعيلية النزارية، لأن المستنصر انتخب في البداية نجله الآخر: المستعلي إماماً وخليفة له. وبعد وفاة المستنصر، تنازع ولداه: نزار والمستعلي على الإمامة والخلافة، فكان الإسماعيليون في العراق وإيران يقررون بإمامية نزار. وهم بذلك على عكس الإسماعيليين في الشام ومصر وإفريقيا حيث يقررون بإمامية المستعلي. وظل الإسماعيليون في العراق وإيران على ولائهم لنزار، وبعد مقتله أخذوا حفيده إلى الموت (وهي قلعة في جبال اليرز شمال غربى قزوين تعنى: وكر النسور) سراً وعكفوا على تربيته. ثم قاموا بنشر دعوتهم بواسطة حسن الصباح. سيطر حسن سنة ٤٨٧هـ على قلعة الموت وهي معنى «وكر النسور» وعلى منطقة قريبة من رودبار التابعة إلى قزوين.

أطلق حسن على نفسه في الموت لقب شيخ الجبل. وبعد موته سنة ٥١٨هـ خلفه أحد تلامذته ويُدعى «كيابزرك الروذباري» وبعد وفاته عُيِّن نجله محمد إماماً سنة ٥٣٢هـ ثم تلاه ابنه حسن الملقب: «على

ذكرة السلام» فادعى الإمامة، وقتل سنة ٥٦١هـ ومن أحفاده جلال الدين حسن المعروف بالمسلم الجديد (نومسلمان) الذي أقام علاقات ودية مع الخليفة العباسى: الناصر لدين الله. وكان له ولد يسمى علاء الدين محمد بن حسن، نادى بنفسه إماماً سنة ٦١٨هـ وكان يقضى أكثر أوقاته في الفساد والسكر، إلى أن قُتل غيلة سنة ٦٥٣هـ فخلفه ركن الدين خورشاه سنة ٦٥٣هـ، وفي عصره دمر هولاكو الموت، وأطاح بالأسرة الإسماعيلية سنة ٦٥٤هـ.

مراكز الإسماعيلية: يوجد الإسماعيلية في سوريا، في مناطق: قلعة المصياف، وقلعة القديموس، والسلمية؛ وفي إيران، في مناطق: كهك، ومحلات، وبيرجند، وقایان؛ وفي أفغانستان، في مناطق: بلخ، وبدخشان، وفي آسيا المركزية، في خوقدن، وقره تكين. ويسمون في أفغانستان «المفتدون». ويعيش عدد كبير منهم في كافرستان (نورستان)، وجلال آباد، وفي مناطق جيحون الأعلى، وساري گل، وخوان، ويسرين. ويوجد في الهند والباكستان مراكز للإسماعيلية أكثر من الدول الأخرى، ويكثرون في مناطق منها، مثل: اجمير، ومرواره، وراجبوتانه، وكشمير، وبمباي، وبروده، وكوج، علماً أن جميع الإسماعيلية في الهند ليسوا من أتباع آغا خان، بل يطلق على عدد منهم لقب «بهرة» ويعيشون غالباً في گجرات.

ويوجد في عمان ومسقط وزنجبار وتزانيا عدد كبير منهم.

المعتقدات الكلامية للإسماعيلية: ينكر الإسماعيلية صفات الله، ويقولون: إنه أجل من تناول العقل والفكر والوهم، وأجل من أن يوصف بشيء ولا يحد بهدلاً بالسلب ولا بالإيجاب، بدلليل التنزيه في مسألة صدور الأشياء عن الباري تعالى، وذلك لكي لا يظهر إشكال في صدور الكثير عن الواحد. ويعتقدون أن أمر الباري - تعالى - أو كلمة الإبداء، العقل الكلي أو العقل الأول قد ظهر في الوجود، وهو الذي أبدع النفس الكلية. ومن النفس الكلية حدث الطبائع بتأييد العقل الكلي، ومن الطبائع حدث الأمهات، ومن الأمهات حدثت المواليد بفعل الأجرام السماوية.

وتصدر العقل الكلي عن كلمة الأمر بواسطة طريق الإبداع. وكذلك صدرت الموجودات الروحانية والجسمانية بواسطة العقل والنفس من الباري - تعالى - عن طريق الإبداع والانبعاث. والفرق بين الإبداع والانبعاث هو أن الانبعاث شيء ليس في مكان ولا زمان، ولكنه حادث عن شيء آخر. أما الإبداع فهو شيء ليس في مكان ولا في زمان أيضاً، ولكنه لم يحدث أو يظهر عن شيء آخر.

إن مظاهر العقل الكلي في هذا الكون وجود تافق، والناطقين هم الأنبياء أولو العزم، وعددهم سبعة، وكل منهم وصي، ويسمونه: الإمام أيضاً. أول الناطقين آدم ووصيه شيث، والثاني نوح ووصيه سام، والثالث إبراهيم ووصيه إسماعيل، والرابع موسى ووصيه شمعون الصفا (بطرس)، والسادس محمد صلى الله عليه والآله - ووصيه علي، والسابع إسماعيل، لأن وصي محمد صلى الله عليه والآله هو علي، وبعده الحسن، ثم الحسين، ثم زين العابدين، فالباقي، فالصادق - عليهم السلام - وسايهم إسماعيل، وهو القائم.

كتب البعض يقول: من ألقاب الإسماعيلية: الأساسية، أي أنصار الوصي، ويسمون الأساسية، والاصطلاح الفرنسي (Assassin) جاء من ذلك الأصل، ومعنى في تلك اللغة: الأساسية، وليس الحشيشية، لأنهم يسمون وصي الإمام أساساً.

وقال الإسماعيلية: أن الناطق هو واضح الشريعة الجديدة وناتج الشريعة القديمة. والأساس أو الوصي عالم بعلم تأويل الشرعية، ومهمته بيان أسرار الشرعية. و بواسطتها. ويؤول الإسماعيليون آيات =

وما معها من قلاع الدعوة، وهي سبعة قلاع^(١) على مسامته ما بين حمص وحماة متصلة بالبحر الرومي إلى جانب طرابلس الشام، هؤلاء هم الذين يسمون في بلاد العجم تارة بالباطنية وتارة بالملحدة^(٢)

وملخص معتقدهم التناصح، وهم يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية، وهم شيعة الخلفاء الذين كانوا بمصر وتسموا بالفاطميين. وكان قد انتهت رئاسة هذه الطائفة إلى راشد الدين سنان^(٣)، وكان صاحب سيماء أراهام بها ما أضل به عقولهم

القرآن والأحاديث وأحكام الشرع. ولا يعتبرون ظاهرها صحيحاً، بل يميلون إلى باطنها، وذلك لكتمان معانيها التي لا يتمنى لكل أحد معرفتها، ويحتاج الإنسان معها إلى الإمام والمعلم لتوضيحها. ويسمى الإسماعيليون المتمتي الجديد إلى مذهبهم: (المستجيب)، والذي ثبت على الطريق، وله حق الكلام: (المأذون) وإذا بلغ درجة الدعوة: (الداعي)، وإذا ارتقى إلى منصب رئاسة الدعوة: (الحججة)، أي: أن كلامه حجة الله على الخلق. وإذا حصل على درجة الولاية واستغنى عن المعلم: (الإمام). وبعد الإمام يصل إلى مقام (الوصاية والأساس)، وأخر مقام يبلغه هو مقام الناطق. ولكل إمام إثنا عشر حجة، أربعة منهم مرافقون له دائماً وسبعة موكلون على الجماالت السبعة، أي: الأقاليم السبعة.

لا يعتقد الإسماعيليون بالنعم الجسماني المادي في الجنة، أو العذاب الجسماني المادي في النار، بيد أنهم كانوا يفسرون هذه الكلمات للمبتدئين بمعناها الاعتيادي. ويعتقدون أن الجنة في الحقيقة هي العقل، وفيها رسول الله - صلى الله عليه وآله - في زمانه، ووصيه في درجته، وإمام العصر في عصره، وكلام رسول الله - صلى الله عليه وآله - هو مفتاح باب الجنة.

يقسم الإسماعيلية هذا اليوم إلى طائفتين هما: الأغاخانية، وبهرة، وهم بقايا الفرقتين: النزارية والمستعلية. ويبلغ عدد نفوس الطائفة الأولى زهاء المليون، وتنشر في إيران، وأسيا الوسطى، وإفريقيا، والهند، ورئيسها: كريم آفاخان. أما الطائفة الثانية، فيبلغ عددها زهاء خمسين ألفاً، ويعيشون في الجزيرة العربية، وسواحل الخليج، وسواحل البحر، وسوريا.

المصادر: رجال الكشي ٢٤٤ - ٢٤٥، أصول الإسماعيلية ٩٨ - ١١٠، تاريخ مذاهب إسلام ٢٠١ - ٢٢٥. جهانگشای جوینی ٣١١ / ٣ - ٣٣٤. دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية ج ٢، مادة الإسماعيلية. المقالات والفرق ٥٦، ٥٠، ٨١. نامه الموت.

«موسوعة الفرق الإسلامية ١٠٢ - ١٠٨»

(١) هي: مصياف ، والرصافة ، والخوابي ، والقدموس ، والكهف ، والميفنة ، والعليقة . «الصبح ٤ / ٢٤٧».

(٢) عن إسماعيلية الشام راجع، القلقشندي: صبح الأعشى ١٤٦ - ١٤٧ ، ١٣ : ٢٣٩ - ٢٣٩، برنارد لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة (الحسينية). نقله إلى العربية سهيل زكار (بيروت ١٩٧١).

(٣) سنان بن سلمان بن محمد بن راشد البصري ، أبو الحسن ، راشد الدين: مقدمة إسماعيلية ، وصاحب دعوتهم ، في قلاع الشام. أصله من البصرة ولد سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٤م. وكان في حصن «الموت» في حدود الدليم.قرأ كتب الفلسفة والجدل ، وانتقل إلى الشام ، في أيام السلطان نور الدين محمود ، فجدد في إقامة الدعوة إلى مذهبهم ، وجرت له حروب مع السلطان ، واستولى على عدة قلاع بالشام أقام فيها

من تخيل أشخاص، فمن مات على طاعة أئمتهم في جنارٍ ونعميم، وأشخاص ممن مات على عصيان أئمتهم في النار والجحيم. وهم يعتقدون أن كل من ملك مصر كان مظهراً لهم فلهذا تتولاه هذه الطائفة وترى إتلاف نفوسها في طاعته لما ينتقل /٢٣٦/ إليه من النعيم الأكبر. ولصاحب مصر بتشييع هؤلاء مزية يخافه بها أعداؤه؛ لأنه يرسل من هؤلاء إليه من يقتله ولا يبالي أن يقتل معه، ومن بعثه صاحب مصر إلى عدو له يقتله فجبن قته أهله إذا عاد، وإن هرب اتبعوه وقتلوه.

ولقد سألت المقدم عليهم والمشار إليه فيهم وهو: مبارك بن علوان عن معتقدهم وجاذبته في هذا الحديث مرات، فظهر لي أن هذه الطائفة ترى الأرواح مسجونة في هذه الأجسام المكلفة بطاعة الإمام المطهر على زعمهم، فإذا انتقلت على الطاعة كانت قد تخلصت وانتقلت للأنوار العلوية، وإن انتقلت على العصيان هوت في الظلمات السلفية.

وعقیدتهم أن علياً، رضي الله عنه، كان المطهّر ثم الانتقال منه. وليس هذا بمكان التطويل فيه.

[المدن المشهورة بهذه المملكة]

وأكابر المدن المشهورة بهذه المملكة: قاعدة الملك الكبرى وهي «القاهرة»،

٣٠ سنة. وجرت له مع السلطان صلاح الدين وقائع وقصص، ولم يذعن بالطاعة قط. وعزم صلاح الدين على قصده بعد صلح الفرنج، ثم صالحه. واستمر في استقلاله إلى أن مات سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م. وإليه تنسب الطائفة السنانية. وأخبار كثيرة.

ترجمته في: شذرات الذهب ٤/٢٩٤ وفيه قصة عجيبة له مع صلاح الدين، والنجمون الزاهية ٦/١١٧ وهو فيه «سنان بن سليمان» وكذلك في مرآة الزمان ٨/٤١٩ وترجم إسلامية ٥٥ وفي نزهة الجليس ١/ ٢٢٣ أن صاحب قلعة «الموت» هذا، كان رئيس «الخشيشية» وهم من الإسماعيلية، وكانوا أصحاب قوة وشجاعة مفرطة «إذا أرسل رئيسهم واحداً منهم، تزيّأ بزي طبيب أو منجم أو صاحب كيمياء، ويسيّر إلى من يريد اغتياله من الملوك، وإذا أمكنته الفرصة قتله، فإن سلم عاد، وإن هلك سلم الرئيس ديه لولده، ولا يستحقون مخالفته الرئيس ولو كان في الأمر ذهاب العمر، وإن امتنع أحدهم من أمر رئيسهم قتله أهله. وعظمت مخافة الملك منهم من سنة ٦٥٥هـ، ببلاد العجم والعراق والشام والمغرب. وربما استهدى بعض الملوك من صاحب الموت بعضهم إذا أراد اغتيال ملك آخر. ومن قتلهم الآمر بأحكام الله صاحب مصر، ونظام الملك وزير ملكته، وخلائق من الأكابر».

وفي رحلة ابن جبير ٢٥٥ طبعة ليدن، قوله وقد مر بالقرب من ديار الإسماعيلية: «قيض لهم شيطان من الإنس يعرف سنان، خدعهم بآباطيل وخیالات موهٌ عليهم باستعمالها وسحرهم بمحالها، فاتخذوه إليها يبعدونه وينزلون الأنفس دونه الخ». وانظر: أعلام الإسماعيلية ٢٩٥ - ٣٠٣، الأعلام ٣/١٤١.

وقد تقدم القول على أنها هي والقلعة والفسطاط ثلاث مدن صارت مدينة واحدة. وقوص، والإسكندرية، ودمياط، و«دمشق» - وهي قاعدة الملك الثانية - ثم بعلبك، ثم حمص، ثم حماة، ثم حلب، ثم طرابلس، ثم صفد، والقدس، والكرك، وغزة. وتقدم القول على مكة والمدينة المعظمتين وكيف دخولهما في المملكة على ما بینا هنالك.

[قلعة الجبل]

فأما قلعة الجبل^(١)، فهي على نشر عال يسمى الجبل الأحمر من تقاطيع جبل المقطم، بناها قراقوش للملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب، رحمه الله، ولم يسكنها حتى ملك أخوه الملك العادل أبو بكر فسكنها.

وهي مبنية على ذلك النشر، ترتفع في موضع منه وتنخفض في آخر، يدور بها سور حجر بأبراج وبدنات إلى أن يتنهى إلى القصر الأبلق^(٢) الناصري المستجد بناه، ثم من هناك تتصل بدور الملك وليس على أوضاع أبراج القلاع.

يدخل إلى القلعة من بابين: أحدهما /٢٣٧/ ببابها الأعظم مواجه القاهرة^(٣)، والثاني ينفذ إلى القرافة^(٤)، بينهما ساحة فسيحة في جانبيها قبلة شرق وشمالاً

(١) عن قلعة الجبل وتاريخها، راجع: الصبح /٣ - ٣٦٨ - ٣٧٤ - ٢٣٢ - ٢٠١، الخطط /٢، النجوم الزاهرة /٦ - ٥٤ هـ، «تاريخ ووصف قلعة القاهرة» ط أحمد دراج وراجعه جمال محمد محرز ترجمة القاهرة - الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤، «وصف قلعة الجبل» ترجمه جمال محمد محرز وراجعه عبد الرحمن زكي، القاهرة - الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤.

(٢) القصر الأبلق. أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون في شعبان سنة ٧١٣ هـ وانتهت عماراته في ستة ٧١٤ هـ وهو مشرف على الاصطبلات السلطانية التي كانت في أسفل القلعة. (كتاب الدرر /٩ - ٢٦٦)، الصبح /٤ - ٩٤، الخطط /٢ - ٢٠٩ والسلوك /٢ - ١٢٩ وفيه أنه بدأ ببنائه في أول سنة ٧١٣ وكمел في سباع عشر رجب «النجوم الزاهرة» /٧ - ٢٧٨، بدائع الزهور /١ - ١ / ٤٤٥).

وقصد الناصر محمد أن يحاكي به القصر الأبلق الذي بناه الظاهر بيبرس بدمشق سنة ٦٦٥ هـ وقد أطلق عليه هذا اللفظ لأنه بنى بالحجر الأسود والأصفر بالتبادل، والمعروف أن الأبلق في اللغة يعني الأبيض والأسود، أو بصفة عامة الخلط من اللونين. «الخطط» /٢ - ٢٠٩ ويرى كازنوفا أن هذا القصر هو الآخر الذي يعرف في القلعة بقصر يوسف أو بيت يوسف، والذي أصبح في العصر العثماني مقر صناعة كسوة الكعبة. وحَدَّ محمد رمزي موقع هذا القصر في الجهة الغربية من القلعة حيث المكان الواقع على يمين الداخل من البوابة الوسطى للقلعة إلى الساحة التي بها جامع محمد علي باشا ويشغل موضع هذا المكان السجن الحربي بالقلعة. «النجوم الزاهرة» /٩ - ٣٦٥.

(٣) يقال له: باب المدرج. «الصبح» /٣ - ٣٧٠، الخطط /٢ - ٢٠٤.

(٤) يقال له: باب القرافة. «الصبح» /٣ - ٣٧٠، الخطط /٢ - ٢٠٤.

بغرب بيوت، وبالقبيلي سوق للماكل.

وينتهي من صدر الساحة إلى دركاه جليلة يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول. وفي وسطها باب القلعة^(١)، يدخل منه في دهاليز فسيحة إلى ديار وبيوت ومساكن إلى المسجد الجامع^(٢). وقد كان لها مسجد لضيق بنائه فبناء هذا السلطان بناء متسع الأرجاء، مرتفع البناء، مفروش الأرض بالرخام، مبطن السقوف بالذهب، في وسطه قبة عالية، يليها المقصورة مستوره هي والرواقات بالشبابيك الحديد المحكمة الصنعة، وتحف صحنه رواقات من جهاته.

ويمشى من دهاليز باب القلعة - المقدم الذكر - في مداخل أبواب إلى رحبة فسيحة في صدرها الإيوان الكبير المعد لجلوس أيام المواكب، وإقامة دار العدل. وبجانب الرحبة ديار جليلة، وفي مجنبيه ممر إلى باب القصر الأبلق، تليه رحبة صغيرة يجلس هناك خواص الأمراء قبل دخولهم إلى الخدمة الدائمة.

ويمشى من باب القصر في دهاليز إلى قصر عظيم البناء، شاهق في الهواء بإيوانين أعظمهما الشمالي، يطل منه على الاصطبلات السلطانية، ويمتد النظر إلى سوق الخيل والقاهرة وحضارتها إلى بحر النيل وما يليها من بلاد الجيزة وقرهاها. وفي الإيوان الثاني القبلي باب خاص لخروج السلطان وخواصه منه إلى الإيوان الكبير أيام الموكب.

ويدخل من هذا القصر إلى ثلاثة قصور جوانية منها واحد مسامت لأرض هذا القصر الكبير، واثنان مرفوعان يصعد إليهما بدرج في جميعها شبابيك حديد تخترق إلى مثل منظر القصر الكبير.

(١) باب القلعة: يقع أمام الباب الشمالي لجامع الناصر محمد بالقلعة. عرف بذلك لوجود قلعة (برج مرتفع) بناء الظاهر بيبرس، ثم هدمه المنصور قلاوون سنة ٦٨٥ وبني مكانه قبة هدمها الناصر محمد وجدد موضعها باب القلعة. «الصبح» ٣٧٠/٣، الخطاط ٢١٢/٢، النجوم الراحلة ٤٥/٨ و٤٥/١٦ و٣٢٠/٣٢١.

(٢) المسجد الجامع بالقلعة ويعرف بجامع الخطبة بناء الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧١٨ في مكان مسجد قديم ربما كان من بناء الملك الكامل محمد (وهو أول من سكن بالقلعة)، ثم أعاد بناء وتجديد أجزاء منه في رواق القبلة سنة ٧٣٥. وهذا الجامع كان بمثابة مسجد القصر الخاص طوال العصر المملوكي. «كتن الدرر» ٩/٢٩٣ و٣٨٣-٣٨٢، «الصبح» ٣/٣٧١-٣٧٠، الخطاط ٢١٢/٢ و٢٢٥، والسلوك ٢/١٨٤، النجوم ٩/٥٦، سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ٣/١٣١-١٣٩.

وفي هذه القصور مجاري الماء^(١) مرفوعاً من النيل بدوالib تديرها الأبقار من مقررة إلى أخرى حتى تنتهي إلى القلعة، ثم يدخل إلى القصور /٢٣٨/ السلطانية ودور أكابر الأمراء الخواص المجاورين للسلطان، يجري في دورهم وتدور به حماماتهم وهو من عجائب الأعمال لرفعته مما يقارب خمس مائة ذراع من مكان إلى مكان.

ويدخل من القصور الجوانية إلى حرم الحريم وأبواب الستور السلطانية. وهذه القصور جميعها من ظاهرها بالحجر الأسود والأصفر، مؤزرة من داخلها بالرخام والفص المذهب والمشجر بالصدف والمعجون والمطرقات وأنواع الملونات، والسقوف المبطنة، بالذهب واللازورد. يخرق الضوء في جدرانها بطاقاتٍ من الزجاج القبرسي الملون كقطع الجوهر المؤلفة في العقود. وجميع الأرض بها مفروش بالرخام المنقول إليها من أقطار مما لا يوجد مثله.

فأما الآدر السلطانية، فعلى ما يصح عندي خبره، ذات بساتين وأشجار وساحات للحيوانات البدية والأبقار والأغنام والطيور والدواجن. وبافي داخلها، يعني القلعة، للمماليك السلطانية وخواص الأمراء: نسائهم وحريمهم ومماليكهم، دواوينهم وطشت خاناتهم^(٢)، وفراش خاناتهم^(٣)، وشراب خاناتهم^(٤)، ومطابخهم ووظائفهم.

(١) وهي القناطر التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون عوضاً عن القناطر العتيقة التي بناها صلاح الدين وكانت تمثل جزءاً من سور القاهرة الواصل إلى القلعة. «الخطط ٢٣٠ / ٢ و٢٧٦». وفي سنة ٧١٢ أنشأ الناصر محمد بن قلاوون أربع سوائق على بحر النيل تنقل الماء إلى السور، وأدخل تعديلاً كبيراً على هذا المشروع في سنة ٧٤١ وصار الماء يجلب من نواحي الرصد في آبار أعدت لذلك وركبت سوادي فوق الآبار لنقل المياه إلى القناطر العتيقة التي تحمل الماء إلى القلعة. «الخطط ٢٢٩ / ٢ - ٢٣٠، النجوم ٩ / ١٦٠ - ١٦١، بدائع الزهور ١ / ٤٥٩».

وكانت قناطر الناصر محمد تم بمنطقة كوم الجارح حيث ضريح سيد أبو السعود الجارجي اليوم. أما قناطر المياه القائمة اليوم عند منطقة فم الخليج فهي من إنشاء الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري أنشأها في سنة ٩١٢ هـ «بدائع الزهور ٤ / ١١٠»، وما زالت آثار مجرى العيون التي أنشأها السلطان الغوري قائمة عند فم الخليج ومسجلة بالأثار تحت رقم ٧٨.

سعاد ماهر: «مجرى مياه فم الخليج»، المجلة التاريخية المصرية ١٩٥٨(٧) ١٣٤ - ١٥٧.

(٢) الموضع الذي يكون فيه آلة الغسل والوضوء، وآلة الحمام، وألات الوقود وكل ما يتعلق بذلك. «نهاية الأربع ٨ / ٢٢٥».

(٣) حيث تكون أنواع الفرش والخيام والتختوت وما يتعلق بذلك. «نهاية الأربع ٨ / ٢٢٦ - ٢٢٧».

(٤) حيث يوجد أنواع المشروب من المياه، والسكر والدربيات والسفوفات والمعالجين والأقراص، وما يجري هذا المجرى. «نهاية الأربع ٨ / ٢٢٤ - ٢٢٥».

والقلعة فيها مساكن لأكابر الأمراء ومن كبر من أمراء الطلبخانات والعشرات، أو من خرج عن حكم الخاچية إلى طبة البرانيين، ودار الوزارة، ودار كاتب السر، وديوان الإنشاء، وديوان الجيوش، وديوان الأموال، والنقباء، والزردخانه^(١) يجري هذا المجرى، مقسمة المساكن، وفيها المساجد والحوانيت والأسواق في جهاتها. هذه جملة العماره.

ثم نذكر بقية ما يتعلق بالقصر السلطانية فنقول: إنه ينزل منه من جانب إيوان القصر إلى الإصطبات السلطانية، ثم إلى ميدان ممرج بالنجيل الأخضر، فاصل بين الإصطبات وبين سوق الخيل في غربه، فسيح المدى يسافر النظر في أرجائه. يركب السلطان من درج يلي قصره الجوانى /٢٣٩/ وينزل إلى الاصطبل الخاص، ثم إليه راكباً وخواص الأمراء في خدمته لعرض الخيول في أوقات الإطلاق أو قبول القادم أو المشتري، وفي أوقات طعم الطير. وربما وقف به راكباً، وربما نزل فيه ولم ينصب عليه خيام، وربما نصب عليه الخيام إذا طال مكثه وكان زمان حر أو برد وربما مد به السساط، ثم يطلع راكباً إلى قصره.

وبهذا الميدان أنواع من الوحش المستحسن للنظر، وترتبط به خواص الخيول للتنفسح. وفي هذا الميدان يصلى السلطان وخواصه ومن لا يقدر يفارقه من ذوي الخدم صلاة العيددين، ونزوله إليه وطلوعه منه من باب خاص من دهليز القصر غير هذا المعتاد النزول منه لما قدمنا ذكره.

وللسلطان عدة أبواب سر إلى القرافة وإلى غيرها لا حاجة بنا إلى ذكرها.

قلت: هذه القصور، والإيوان الكبير، والميدان الأخضر، والجامع، وغالب العماير الضخمة بالقلة والقلعة عمارة هذا السلطان^(٢) وبناؤه مطرزة الطرز فيها بألقابه وأسمه، ترد الطرف كلياً بأنوارها، وتترف القلوب على ما يفتح من نفوس نوارها. تقر

(١) أي بيت الزرد، وهي الدروع وربما أطلق عليها السلاح خانه. «نهاية الأربع /٨-٢٢٧-٢٢٨ و ٢٤٠ و ٢٤١».

(٢) عن منشأات السلطان الناصر محمد بن قلاوون، راجع: كنز الدرر /٩-٣٨٨-٣٩١، السلوك /٢٢٧-٥٣٧، والمجلة التاريخية المصرية ٩-٦١-٦١٠ (١٩٦٠-٢٤١-٢٥٠)، النجوم الزاهرة /٩-١٧٨-٢١٠، عبد الرحمن زكي: «أبو المحاسن وأثار القاهرة في عصر الناصر محمد» في كتاب «المؤرخ ابن تغري بردي» (القاهرة ١٩٧٤) ١٦٥-١٧٥.

الملوك بها لعلو هممها وسعة إنفاقه وكرمه، تقف عليها الأ بصار ويعرف من رآها أنه
هان عليه العدو والدينار.

والقاهرة

مدينة مبنية في وطأة نائية عن دورة الجبل، أرضها سباح ولأجل هذا يعجل إلى
مبانيها الفساد.

والفسطاط

المسمى الآن على ألسنة العامة بمصر، مدينة مبنية على ضفة النيل الشرقية. وقد بني
قبالتها في الجزيرة المبني بها المقاييس، أبنية كثيرة صارت كأنها فرضة من مصر. ومجرى
النيل بينهما، ولمنظره عند امتداد ضوء القمر أو إيقاد السرج في الليل منظر يجذب القلوب.
وكل من مصر والقاهرة وحواضرهما الممتدة ذات ربع علية، مبلغ بعضها أربع
طبقات في كل طبقة مساكن كاملة بمنافعها ومرافقها وسطح مقطوع لها من الأعلى
بهندسة محكمة وصناعة /٢٤٠/ عجيبة، مع كون البيوت بعضها تحت بعض، لا يرى
مثل صناع مصر في هذا الباب.^(١)

وفي كل من هاتين المدينتين وحواضرهما القصور الشاهقة، والديار العظيمة،
والمنازل الرحيبة، والأسوق الممتدة، والمدارس، والخوانق، والربط، والزوايا.
والجميع على اتساع رقعة البناء وفسحة الشوارع، مزدحمة بالخلق سكناً وممشى، قد
حضرت إليها الأمم واختلفت إليها أنواع الطرائف.

وقال لي غير واحد ممن رأى المدن الكبار والخطط العظام في مشارق الأرض
ومغاربها وبعيدها ومتقاربها: إنه ما رأى مدينة اجتمع فيها من الناس ما اجتمع في
مصر والقاهرة وحواضرهما.

قال لي الصدر مجد الدين إسماعيل السلامي^(٢)، وقد سأله عن بغداد وتوريز

(١) راجع وصف المبني في مصر منذ العصر الفاطمي وتعجب الرحالة من عدد طوابقها عند: المسالك
والممالك للأصطخري (القاهرة ١٩٦١) ٣٦، صورة الأرض ١٤٦، أحسن التقسيم ١٩٨، ناصر
خسرو ١٠١، المغرب لابن سعيد ٣، الخطط ١/٣٤١ أو ٣٤١ وهذه الأوصاف كلها خاصة بالفسطاط.

(٢) إسماعيل بن محمد بن ياقوت السلامي، مجد الدين، المنسوب إلى السلامية وهي قرية في ضواحي
الموصل. عاش بين سنة ٦٧١ - ٧٤٣ هـ.

ترجمته في: الوافي بالوفيات ٩/٢٢٠ - ٢٢١، الدرر الكامنة ١/٤٠٨ رقم ٩٦٤.

وهل يجمعان مثل مصر؟ فقال: في مصر خلق قدر كل من هو في جميع البلاد منها إلى توريز.

وغالب من فيها من العوام والباعة وأهل المهن والصناعات، كما قال القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، رحمه الله: أهل مصر على كثرة عددهم، وما يناسب من وفور المال إلى بلدتهم، مساكين يعملون في البحر، ومجاهيد يدانون في البحر، وأحمله على أنه قصد السجعة، إذ كل بلد فيها مجاهيد في أعمالهم. وما زال هذا في خاطري لا زيادة عندي عليه، إلى أن أقمت بمصر وسافرت في صحبة السلطان غالب بلادها، فرأيت خلقاً من عليهم أرض مسجلة قد ركب المنخفض منها ولم يركب العالي، وهم وقوف كل اثنين على مستنقع ماء وبأيديهم قفة بخيط في أذنيها وهما يتربان الماء بها ضرباً باليد إلى ورائهما في مقررة محفورة يجتمع ما ينزل منها ثم يصرف في مجاري إلى تلك الأعلى، ثم التي لم يركبها الماء يسقوها، وهم من هذا في جهد جهيد وأمر شديد. فعلمت أن هؤلاء الذين أراد القاضي الفاضل رحمه الله، بقوله: مجاهيد يعملون في البر، فإنه ليس في البلاد أشد جهداً منهم؛ فإنهم ملزمون /٢٤١/ بدرهم معين وإردد معين، فإن لم يعملا هذا أضنكهم الطلب ولم يجدوا جهة للوفاء.

* * *

وأما بر الديار المصرية فهو ريف متبدى بين حاجزين واعقد رمل مفصل بالقرى [كذا]، وهي مبنية بالطوب، سود الظواهر، يحفر بها نخل يقل في بعض ويكثر في الأخرى، كلها على أنموذج واحد من رأى واحداً منها فكانما رآها كلها.

وقوص

مدينة على شرق النيل في أعلى الصعيد واقعة في المبني، ذات ديار جليلة، وفنادق، ورباع، وحمامات، ومدارس. يسكنها جلة من التجار والعلماء وذوي الأموال. وهي أول محطة ركاب تجار الهند والحبشة واليمن والحجاج الوافدين من البحر الملح من صحراء عيذاب. وبها المكاسب، ولها البساتين والحدائق ومنابت البقول والخضروات، لكنها شديدة الحر كثيرة العقارب والسام أبرص، وبها صنف من العقارب الفتايات حتى إنه يقال فيها عن الملسوغ: أكلته العقرب؛ لأنه لا يرجى له إفادة.

قال لي عز الدين حسن بن أبي المجد الصفدي، أحد العدول بالقاهرة: إنه عد في يوم صيف على حائط الجامع [بها] سبعين سام أبرص على صف واحد، والمستفاض أن أهل قوص إذا تمشى منهم أحد في مكان أو خرج إلى بيته أو منه، يأخذ بيده الواحدة مسرجة، وفي الأخرى مشك يشك به العقارب.

وبالصعيد بقایا سحر قديم، يحكى عنهم أشياء أصح ما سمعت منها ما حكى لي من أثق به عن طقباصا^(١) والي قوص، قال:

أمسكت امرأة ساحرة فقلت لها: أريد أن أبصر شيئاً من سحرك،

فقالت: أجود عملي أني أسحر العقرب، فقلت لها: كيف تحررين العقرب؟

قالت: أسحره على اسم شخص مخصوص فلا يزال ذلك العقرب يتبع ذلك الشخص حتى يلسعه فيقتله.

فقلت: أريني هذا واسحري العقرب على اسمي، فأخذت عقرباً وسحرته وأرسلته فتعتني فتعتني كلما أنتهي عنه وهو يتبعني، فجلست على تخت منصوب في بركة ماء، فجاءت العقرب إلى البركة وصارت /٢٤٢/ تحاول طلوعها إلى ولا تقدر على اقتحام الماء، فذهبت إلى الجدار وصعدت فيه وأنا أنظرها حتى ترقت إلى السقف وجاءت إلى مسامة مكاني ثم رمت بنفسها إلى أن نزلت إلى الأرض وقصدتني فضربتها بعصا في يدي فقتلتها، ثم أمسكت تلك الساحرة فقتلتها لما رأيت من سحرها العظيم. ويحكى كثير من هذا ليس هذا موضع ذكره.

ثم من قوص إلى أسوان ومن أسوان المدخل إلى بلاد النوبة، ومن أسوان شعبة إلى الصحراء إلى عذاب على ساحل البحر يجاز منه إلى جدة، ميناء مكة المعظمة. ومن هذا البحر مسالك للتجار إلى عدن ثم إلى ما أرادوا من الهند واليمن والحبشة.

ولم نذكر قوص دون ما سواها في الصعيد إلا لأنها هي مدینتها الحاضرة وبها يحط مُصعداً ومنحدراً زمر الرفاق المسافرة.

(١) الأمير سيف الدين طقباصا الحسامي الظاهري، أحد المماليك الظاهرية ببرس، ترقى في الخدم إلى أن ولّي قوص وغزا النوبة في سنة ٧٠٥ وعبر إلى دنقلا وعاد بعد أن مكث هناك بالعسكر تسعة أشهر. ترجمته في: الدرر الكاملة ٢/٣٢٦ رقم ٢٠٤٣، النجوم الزاهرة ١٠/١١١، السلوك ٢/٦٧٤، المعقنى الكبير ٤/٣٣-٣٥.

والإسكندرية

مدينة^(١) قديمة جليلة، وكانت في القديم أكبر مما هي الآن وأعظم في كثرة الأهل والبنيان. بناها الإسكندر ذو القرنين على شاطئ البحر الرومي، وكان بها على ما يقال سرير ملكه ومستقر أمه. وجميع بنائها بالحجر والكلس مبنية البيوت باطنًا وظاهرًا كأنها الحمامات البيضاء، ذات شوارع مشرعة، وسعة الأرجاء، كل خط بذاته لأنها رقعة الشطرونج، يستدير بها أسوار ممنعة وبروج محصنة، عليها السهام المسترة، والمجانيد المنصوبة، وبها عسكر مستخدم لحفظها. وليس بالديار المصرية مدينة حاكمها مرسم بنيابة السلطنة سوى الإسكندرية، لا يزال أهلها على يقظة من أمور ومخالسة العدو.

وبها الديار الجليلة والجوامع والمساجد والربط والخوانق والمشاهد والفنادق والرابع والأسوق الممتدة، ومعامل البز والقماش والطرز الفائق المثل، وإليها تهوي ركائب التجار برأً وبحراً من كل فج عميق ومكان سحيق، وليس في الدنيا نظير شربها وطرازها المعهول بها والمحمول إلى أقطار الأرض شرقاً وغرباً، منها من الحفير المنسرح بالذهب والفضة /٢٤٣/ والمقصب بالقصب وطرد الوحش المنوع، والجر والمنقوش والممزوج والمدفون والديبيقي والساذج والمفترح والمقطاع والممرس والشرب الخام والمقصور وبدلات المقامان وأنواع المقصبات والملون بالذهب والفضة والملاءات والفوط من كلها لا شيء لرقمه ولا نظير لحسنها، بيع كل يوم فيها بآلاف مؤلفة من الذهب الأحمر ولا ينفد متعاعها ولا يقل موجودها.

وبالإسكندرية معاملة الدرهم السود حقيقة مقصورةً عليها، لا يخرج في سواها

(١) راجع عن الإسكندرية: مروج الذهب ١١٤-١١٥ و ٢٠٩-٢٠٩ و ٧٣، معجم البلدان ١/٢٥٦-٢٦٥، الصبح ٣/٤٠٣-٤٠٤، الخطط ١/١٧٥-١٤٤، رحلة ابن بطوطه ١٢-٢٢، حسن المحاضرة ٨٤-٨٨، «تاريخ الإسكندرية من أقدم العصور»، مجموعة مقالات نشرتها محافظة الإسكندرية سنة ١٩٧٣، زكي علي: «الإسكندرية، تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها في عصر البطالمة»، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ٢ (١٩٤٤) ١١٧-١٢١ و ٤ (١٩٣٨) ١٤٠-١٢١، جمال الدين الشيّال: «الإسكندرية - طبغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر»، المجلة التاريخية المصرية ٢ (أكتوبر ١٩٤٩) ١٩١-٢٧١ وله أيضاً: «تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي» (الإسكندرية ١٩٦٧)، حسن عبد الوهاب: «الإسكندرية في العصر الإسلامي»، مجلة الكتاب (يناير ١٩٤٧) -، السيد عبد العزيز سالم: «تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي» (الإسكندرية ١٩٦٩ و ١٩٨٢).

ولا يتعدى حاضرة أسوارها، وهو فيها كل درهمين سودايين بدرهم واحد من نقد الدرهم المصري. يوجد بها الدرام السود حقيقة اسمًا على مسمى، وأما في بقية الديار المصرية، فكما قدمنا، يوجد اسمًا لا مسمى كل ثلاثة سود بدرهم واحد من الدرام المصرية.

والإسكندرية هي فرضة الغرب والأندلس وجزائر الفرنج وبلاط الروم، وإليها ترد شوانيها وتجلب بضائعها، ومنها تخرج أغراضها. فأما دمياط فهي وإن كانت رسيتها في هذا الباب، فإنه لا نسبة لها إلى الإسكندرية، وسيأتي ذكرها.

والإسكندرية لها بحر خليج^(١) من النيل تصل فيه المراكب من مصر إليها ومنها إلى مصر، وفي أوان زيادة النيل يمتد إلى هذا الخليج ويمتد إلى صهاريج داخل المدينة المعدة لاختزان الماء بها لشرب أهلها، نافذة من بعض الدور إلى بعض، يمكن النازل إلى صهاريج منها الصعود من أي دار اختار، وتحت تلك الصهاريج الآبار النبع بالماء الملح، فهي طبقات ثلاث: طبقة الآبار، عليها طبقة الصهاريج، عليها طبقة البناء.

ولا يعتني أهل الإسكندرية ببناء الطبقات على أعلى أبنائهم لقوة الأمطار بها وتجويف قرارها.

وعلى الإسكندرية البساتين الأنيقة والغيطان الفساح، وفيها لجلة أهلها القصور الناهدة، والجواسق الشاهقة محصنة جميعها بإحكام البناء وعلو الجدر خشية من طراق الفرنج وذمار العرب.

وبها من الفواكه المنتخبة الثمار، وهي /٢٤٤/ تفوق مصر بحسن ثمراتها ورخص الفواكه بها، وليس للإسكندرية من إزدراع القمح والشعير والحبوب إلا ما قل، وغالب أقواتها محمول من أرياف مصر إليها.

تنبيه

قد ذكرنا فيما تقدم أن الإسكندر هو الذي بنى الإسكندرية، وذلك صحيح بمعنى أنه جدها وجدد بناءها.

(١) عن خليج الإسكندرية، راجع: مروج الذهب /٢٧١ و٦ /١٤٩، صبح الأعشى /٣٠٠، الخطط /١ - ١٦٩، عمر طوسون: تاريخ خليج الإسكندرية القديم وترعة المحمودية (الإسكندرية ١٩٤٢).

وأما سبب بنائهما القديم فقد ذكره التيفاشي في كتاب «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» قال: ذكر أحمد بن مطرّف في كتاب «الترتيب»^(١): أن الذي بني الإسكندرية أول أمرها جبير المؤتفكي^(٢)، وأن الذي هداه إلى بنائهما أنه غزا بعض النساء اللواتي ملكن مصر وكان اسمها حوريما بنت ألبرت، وأنه لما طال بينهما الحرب أنفذت إليه تقول: إني قد رغبت في أن تتزوجني فيصير ملكنا واحداً ودارنا واحدة، وأصير أنا ومملكتي لك وذلك خير لك من أن تقيم علي الحرب فتفقد مالك ويفنى رجالك، فإن ظفرت بي لم يحصل لك طائل؛ لأن الهزائم تذهب الأموال وتمحقها، وإن أنت خذلت ذهبتك وذهب جميع مالك. فأعجبه مقالها وأجابها وعقد النكاح على ما كانوا يعتقدونه؛ والتمس الدخول بها فقالت: إنه يقعبي بي وبك أن نجتمع في غير مدينة نبنيها لهذا الأمر في أحسن موضع وأجل مكان بحيث لم يكن فيه بناء قط غير ما نبنيه. وإنما كان ذلك منها مكرأً به لتنفيذ أمواله وتبلغ منه ما تريد في لطف موادعة. فأجابها وأنفذ المهندسين إليها، وخيراها المواقع، فاختارت موضع الإسكندرية، وقسمت المدينة وصورها المهندسون، ثم عرفته ذلك فأجاب إلى كل ما طلبت. وسار بجيشه فنزل على ذلك الموضع وشرع في البناء، فكان كلما بني بناء خرجمت دواب البحر وعبيثت به وخدمته، فأقام زماناً ونفذت الأموال وضاق ذرعاً، فوقق له أن دل على بعض السحراء، فأحضره وشكى إليه ذلك الأمر، فوضع له طلسمات وجعلها في آنية زجاج كالتوابيت فكانت في الماء حداء / ٢٤٥ / الأبنية، فإذا جاءت دواب البحر قرأ الطلسمات والتوبابيت نفرت فثبتت البناء، وبنيت المدينة وتمت بعد زمان طويل. ثم راسلها في المسير فسارت بجميع ملكها وعساكرها حتى نزلت حداء عسكره، وراسلته أني قد أحبت أن أحمل عنك مؤنة الإنفاق على العسكريين في أطعمة تصلح وأشربة، وقد أعددت لوجوه الأمراء والقواد خلعاً وتحفاً حملأاً عنك لما لزمك في بناء المدينة، فأحب أن تجيبني إلى ذلك، فأجابها وأمرت بذلك، فعمل، وأنفذت إليه أني أحب أن أراك وأرى سائر عسكرك

(١) أورد صاحب الوافي بالوفيات ٨ / ١٨١ - ١٨٢ ترجم لثلاثة أشخاص اسمهم أحمد بن مطرّف، دون أن يذكر فيها كتاب الترتيب.

انظر أيضاً: معجم الادباء ٥ / ٦٣ - ٦٤ ، هدية العارفين ١ / ٧٢ .

(٢) ورد اسمه في الخطط ١ / ١٤٥ «جিرون وهو قائد ايدا خس ملك الكنعانيين» وفي كتاب المسالك والممالك للبكري «إن أول من بنى الإسكندرية جبرون بأمر حوريا...».

في الميدان يلعبون ضروب اللعب، ويكون من صرفكم بعد ذلك إلى لحضور الطعام والخلع فأجابها. وتقدم بركوب الجيش وحمل السلاح واللعب، فلما فعل واشتدى عرق القوم انصرفوا إليها جميعاً فتلقاهم أصحابها بالخلع المسمومة فلبسها وجوه العسكري، ولبس الملك جيير خلعته - وكانت أقل سماً من غيرها - إبقاء عليه لتبقى فيه بقية لخطابها، مما أقاموا إلا ساعة بالخلع حتى طفوا وماتوا، ورأى ذلك بقية العسكري، فعلموا موضع الحيلة، فتبادروا مستأمين فنودي فيهم بالأمان وبقي في الملك بقية من الحياة، فأمرت أن يحمل إليها، فلما رأته في السياق قالت له: إن ملكاً أنفق ماله وأفنى زمانه وترك ملكه رجاء شهوة، لا يدري أينالها أم لا لملك سخيف. وكان آخر كلامها بخروج روحه فمات ودخلت هي المدينة وأقامت بها زماناً وعادت إلى مصر.

ثم ملك الإسكندر فزاد في بنائها وأطال في مناراتها وجعل فيها مرآة كان يرى منها مراكب العدو عن بعد، فإذا صارت بإزائها وصدمها شعاها أحرقتها كما تحرق المهاة في الشمس ما قابلها من الحرق وإن لم تتصل بها، فسميت الإسكندرية من حيثئذ. وكان اسمها قبل ذلك رقدة، وبذلك يعرفها القبط في كتبهم القديمة.

وأقامت المرأة على ذلك زماناً، وشق ذلك على الروم فاحتلال حكيم من حكمائهم بأن وافق متملكهم على أن يبعث أموالاً مع أصحاب له فيدفعوها في موضع متفرقة /٢٤٦/ من ثغور الإسلام ثم عادوا بعد دفنها فوضع كتاباً مطالب ذكر فيه الموضع وختمه بأن تحت المرأة التي في منارة الإسكندرية كنز لا يحصى ما فيه من الأموال، وعتقد ذلك الكتاب ودفعه إلى إنسان ذكي، وأمر أن يسير به إلى بلد وأن يكون قصده إلى سلطان كل بلد فيعرفه ما في ذلك البلد ويخرجه ويأخذ منه جزءاً يسيراً، ففعل ذلك بأول [من] لقيه وصح قوله فأخرج المال وأخذ منه جزءاً يسيراً.

وأوصلت الأخبار إلى سائر الثغور بذلك، فكان سلطان كل بلد ينفذ إليه من يتسلمه بعد أن يحضر إخراجه الكنز في البلد الذي هو فيه، فلم يزل إلى أن وصل إلى الإسكندرية فقال لملكتها ما قال في المرأة، وقال له: إذا قلعتها وأخذت الكنز أنا أردها إلى أفضل ما هي عليه الآن، فأجابه وقلعت المرأة وشرع في هدم ما تحتها والنسل الإنسان وترك ونزلت تلك الأموال التي أخذها من الكنوز المتقدمة ليطمئنوا ولا يجدوا في طلبه وفاتهم، وحرروا فلم يجدوا شيئاً، فعلموا أن ذلك كله كان حيلة على قلع

المرأة فلم يقدروا على ردها لأن واضعيها كانوا حكماء قد نصبوها بطاعن مختار. واختلف الناس في هذا القول، فمنهم من ذكره ومنهم من ذكر غيره، قال: غير أني قرأت في بعض كتب التواريخ أن أاعاجب الدنيا أربعة: فرس من نحاس بأقصى غرب الأندلس لا يتتجاوزه أحد إلا ابتلעה الرمل، وشجرة من نحاس بروميه عليها صورة طائر من نحاس وهو الذي يسمى الزرزور؛ إذا كان أوان نضح الزيتون فلا يبقى طائر من جنسه - وهو الطائر المعروف - إلا أتى حاملاً زيتونة في مقابلة وزيتونتين في رجليه فيلقيه عند الطائر النحاس المذكور فيعصر أهل رومية من ذلك ما يكفي أدمهم وسرج عامهم، ذلك لأن رومية ليس بها زيتون. ومنارة من نحاس عليها راكب من نحاس بأرض عاد، إذا كان في الأشهر الحرم جرى منها الماء ولا يجري من غيرها. ومرأة بمنارة الإسكندرية ترى بها القطاع الحربي إذا تجهزت من القسطنطينية العظمى فيرى أهل الإسكندرية أهل /٢٤٧/ القسطنطينية وبينهما عرض البحر.

قال: وأما مساحة المنارة فهي ثلاثة طبقات، ومساحتها على ما ذكره بعض المتصلين مائتا ذراعاً وثلاثون ذراعاً، فالطبقة الأولى مربعة وهي مائة ذراع وإنحدر وعشرون ذراعاً، والطبقة الثانية مثمنة وهي إحدى وثمانون ذراعاً ونصف ذراع، والطبقة الثالثة مستديرة وهي ثلاثون ذراعاً ونصف ذراع.

قلت: أما ما حكاها عن منارة الإسكندرية^(١) فقد أصبحت كلها أثراً بعد عين، سقطت أعلامها ومحيت آثارها ولم يبق من المنارة إلا دون العشرين ذراعاً، وأمر السلطان لها بالبناء ولم يصرف إليها وجه الاعتناء، وليس الناظر الآن إلا في منارة استحدثت على كوم عال داخل سور يعرف بكل معلى لا له أساس ثابت ولا جدار معلى. وأما عمود الصواري فباق على حاله والطلل هائل ولا طائل، وهو من الإسكندرية على مسافة نصف يوم من غربتها البر الأفقر المتصل ببرقة إلى الغرب الأقصى.

والرطل الإسكندرى يسمى الجروي^(٢) وهو رطلان وأوقitan بالمصري، وإربتها ثمان وبيات بإرب وبثلث بالمصري. وأسعارها أقرب إلى الرخاء ولو لا الحجير زادت رخاؤها وعظمت أجلابها.

(١) عن منارة الإسكندرية، راجع: مروج الذهب /٢-١٠٨-١٠٤/، رحلة ابن بطوطه /١٣/، الخطط /١٥٨-١٥٥/، حسن المحاضرة /١١/، ٩٣-٨٩.

(٢) راجع عن الرطل الجروي: قوانين الدواوين .٣٦١

و دمّاط

مدينته^(١) على ضفة البحر عند مصب أحد فرقي النيل بناؤها الآن غير موثق يطوف بها جسر النيل إلى مصبه. وهي موضع غرة للعدو من قبل البحر، وقد علقت بها حمة الكفر زماناً طويلاً حتى نصر الله عليهم في آخريات الدولة الأيوبيّة.

حدثني من رأى دمياط أنها مدينة لطيفة فيها مدرسة واحدة وأسواق ليست بالكثيرة. ومنها الإضاء إلى بحيرة تنيس المذكورة في القديم بحسن الأوضاع وجودة القماش والمتعان، وإنما هي الآن جون من البحر الملح أو كالجون.

وبدمياط وما يليها شجر الموز الكثير ومنه مدر مصر والقاهرة وبلا دهما.

فائلہ

قال /٢٤٨/ التيفاشي في «سرور النفس»: يقال إن تنيس^(٢) ودمياط والفرما ثلاثة إخوة ملكوا هذه المدن الثلاث، وسمى كل واحد منهم مدینته باسم نفسه. وكانت تنيس يقال لها تنيس الأخصاص، ويقال إن المسيح عليه السلام دخلها فأكرمه أهلها، فدعا أن يبارك الله لأهلها فيها وأن يأتيها الرزق من كل مكان لما رأها وسط بحيرة، ولم يدخل دمياط.

وأما «الجفار» فهي خمس مدن: الفرما^(٣) والبقارة والوراده والعريش ورفع^(٤).

والجفار كله رمل وإنما سمي جفاراً لشدة المشي فيه على الناس والدواب لكثرة رمله وبعد مراحله، والجفار تحفر فيه الإبل وغيرها فتهلك فاتخذ له هذا الاسم، كما قيل للحجل الذي يهجر به البعير هجّار، والذي يحجر به حجّار، والذي تعقل به

(١) راجع عن دمياط: معجم البلدان / ٢ -٦٠٣ -٦٠٦ ، الروض المعطار / ٢٥٧ -٢٥٨ ، ابن رحلة ابن بطوطة / ١ -٢٣ -٢٥ ، الصبح / ٣ -٤٠٢ ، الخطط / ١ -٢١٣ -٢٢٦ ، القاموس الجغرافي / ٢ -٨ ، مجلمل تاريخ دمياط سياسياً واقتصادياً (الإسكندرية ١٩٤٩).

(٢) راجع عن تبيّن، ابن بسام التنيسي: «أنيس الجليس في أخبار تبيّن» مجلة المجمع العلمي العراقي ١٤ (١٩٦٧) -١.

(٣) الفرما: من المدن المصرية القديمة، وهي من أقدم التحور العربية في مصر. ويبدو أنها لم تكن على ساحل البحر المتوسط ولكن على بعد قليل منه.
 «جغرافية مصر للبكري ٩٢-٩٠هـ، معجم البلدان ٣/٨٨٣، الخطط ١/٢١١-٢١٢، القاموس الجغرافي ١/٩١-٩٢».

(٤) رَجُح: راجع عنها: معجم البلدان / ٧٩٦، القاموس الجغرافي / ٤ / ٢٦٣.

عقل، والذي تبطن به بطّان، وكذلك خطام وزمام ونحوه.

والبقاء من البقر، والورادة من الورود، والعريش أخذ من العرش، ويذكر أنه نهاية التخوم من الشام وأن إليه كان ينتهي رعاة إبراهيم الخليل عليه السلام بمواسيه، وأنه اتخذ به عريشاً كان يجلس فيه ومواسيه تحلب بين يديه فسمى بذلك. ورفع اسم رجل نسب إليه المكان.

* * *

قلت: هذه جملة الكلام في مدن الديار المصرية الشهيرة، وأما براها فأخذ بخناقه جبلان تضيقاً في أوله بأعلى الصعيد، ثم أخذها في التفليس إلى الجزيرة فانفرجاً واتسع مدى ما بينهما حتى انقطع بالبحر الرومي إلى آخر الأعمال. فأوسعه مدى نحو يومين وأصيقه نحو ساعة وغالبه نحو ساعتين وما بين ذلك.

وهذا هو عرض الديار المصرية حقيقة إلا إن نظرت إلى قفار موحشة يهاب الجن سلوكها ويختلف الظلام اقتحامها. على أن مدى العرض الذي ذكرناه عطل الجانبين عن الحرج والنسل والزرع والغروس، الحال من الأنبياء إلا سارٍ في سبيل أو ضالٍ عن طريق، والعامر الأهل من هذا المدى ثلاثة والثالث كثير لكنه ذو ربع ربيع /٢٤٩/ ومتحصل كثير.

وبمصر من أنواع الثعابين والأفاعي والحيات والعقارب والفار وسائر الحشرات ما لولا يهلكه النيل الفائض على البلاد في كل سنة، وما يفر من النيل فيقف أهل البلاد له على الطرق بأيديهم العمد والعصي لقتل ما يهاجمهم منها، لما سكنت مصر ولا تأهلت لها ديار ولا استقر بها لأحد قرار.

وأما زمان ربيعها وما يقيه من المقاطعات بنيلها، وما يوشي حللها من نوار البرسيم والكتان، ويحشر في أرضها من الطير على اختلاف ذوات الجناح فما يملأ عينيك وسامةً وحسناً، ويروّقك صورةً ومعنى، كأن نباتها زمرة خضراء، ومقاطعاتها فيروزجة زرقاء، ونوارها لكل قرط منه لؤلؤة بيضاء، عليها للطيور ظلل من الغمام قد نصب على فروشها للاستبرق خيام. ولما رأيت منظرها البديع في زمان الربع وبين أكناها المخضرة فوارات الماء كأنها النجوم في السماء قلت: [من مجزوء الرجز]

لِمَضَرِّ فَضْلٌ بَاهِرٌ لَعِيشَهَا الرَّغْدُ النَّاضِرُ
فِي سَفَحِ رُوضٍ يَلْتَقِي مَاءُ الْحَيَاةِ وَالْخَضَرِ

[كُور الديار المصرية وأعمالها]^(١)

ونحن نقول: إن الديار المصرية وجهان: قبلي وبحري، جملتها خمس عشرة ولاية.

فالوجه القبلي

أكبرهما وهو تسعه أعمال^(٢) وهي:

عمل «قوص». وقوص شرقي النيل، وهو أجلها. ومنه أسوان وعرب قمولة، وأسوان نهاية حد المملكة من الجنوب.

و عمل «أخميم». وهي شرقي النيل أيضاً.
و عمل «سيوط».

و عمل «منفلوط».

و عمل «الأشمونين»، وبها الطحاوية.

و عمل «البهنسا» ومنه الغرابي، وهو عبارة عن قرى على عرى المنهى^(٣) الماد إلى الفيوم.

و عمل «الفيوم». وهو منقطع.

و عمل «أطفيح». وهو شرقي النيل.

و عمل «الجizة».

(١) لمعلومات تفصيلية عن كور الديار المصرية وأعمالها، راجع: جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك للبكري، بحث وتحقيق عبد الله يوسف الغنيم (الكويت ١٩٨٠)، عبد العال عبد المنعم الشامي: مدن مصر وقرابها عند ياقوت الحموي (الكويت ١٩٨١)، مباحث الفكر ومناهج العبر، صفحات من جغرافية مصر، دراسة وتحقيق عبد العال عبد المنعم الشامي (الكويت ١٩٨١)، محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ (دار الكتب المصرية ١٩٥٣ - ١٩٦٣ و ١٩٦٨)، الصبح ٣٩٢/٣ - ٤٠٦.

(٢) انظر: أمين محمود عبد الله: تطور الوحدات الإدارية في مصر العليا منذ العهد العربي، رسالة الدكتوراه بجامعة القاهرة ١٩٦٣.

(٣) عرى المنهى هو بحر يوسف «الصبح ٣٩٤، الخطط ١/٧٠، محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٢١١، ٣/٢».

والوجه البحري

وهو ستة أعمال^(١):

عمل «البُحَيْرَة». وهو متصل البر بالإسكندرية وبرقة.

وعمل «الغربيّة». جزيرة واحدة تشمل على ما بين البحرين، /٢٥٠/ البحر المار ومسكبه عند دمياط وهو المسمى بالشرقي، والبحر الثاني ومسكبه عند رشيد وهو المسمى بالغربي.

و«المنوفية». وكانت منف المنسوب إليها هذا العمل هي مصر قديماً^(٢)، ومنها إبصار المسمى بجزيرة بنى نصر^(٣)، وهي جزيرة وتأخذ في وسط البحر الغربي.

وعمل «قليلوب». وقليلوب شرقى النيل.

وعمل «الشرقية». وهو متصل البر ببر الشام والقلزم والحجاز، وكذلك أشمون ويعرف بأشمون طناح^(٤).

ومنها «الدقهلية»^(٥) والمرتاحة^(٦). وهنا موقع ثغر البُرُلس وموقع

(١) لمعلومات أدق عن مدن الوجه البحري وأعماله، راجع: الصبح /٣-٣٩٨/، ٤٠٦، ورسالة عبد العال الشامي: مدن الدلتا في العصر العربي (رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة).

(٢) هذا غير صواب فمِنْف عاصمة مصر كانت في المنطقة المعروفة اليوم بالبدرشين على الضفة الغربية للنيل بمحافظة الجيزه. «أيمن»

(٣) وهي اليوم من أعمال الغربية لا المنوفية.

(٤) هي المدينة تقع اليوم في الدقهلية قرب دمياط وتعرف أيضاً بأشمون الرمان. وهذا من ضمن أوهام العجمي. «الصبح» /٣-٤٠١، محمد رمزي: القاموس الجغرافي /٢-١٢٩.

(٥) في الأصول: الدقهلية وجاءت بهذا الرسم في أغلب المصادر القديمة.

(٦) كانت مصر في زمان الفاطميين مقسمة إلىاثنين وعشرين إقليماً (كوره) منها ثلاثة عشرة إقليماً بالوجه البحري من بينها «المرتاحة» واستمرت كورة المرتاحة قائمة بذاتها منذ أيام الفاطميين إلى سنة ٧١٥ هـ التي عمل فيها الروك الناصري، فأصدر الملك الناصر محمد بن قلاوون مرسوماً يضم بلاد المرتاحة إلى بلاد الدقهلية وجعلها إقليماً واحداً باسم «الدقهلية والمرتاحة»

واستمر الإقليم بهذا الاسم إلى سنة ٩٣٣هـ التي عمل فيها فلك الزمام في أوائل الحكم العثماني بمصر فُحُذِف اسم المرتاحة من الأقاليم وبقي الإقليم باسم الدقهلية فقط، وعرف من تلك السنة بولاية الدقهلية وعاصمتها المنصورة. «محمد رمزي: القاموس الجغرافي /١-١٠٩»

والمرتاحة نسبة إلى طائفة من المغاربة الذين قدموا مع الفتح الفاطمي لمصر، ولرغبتهم في الزراعة أزلهم جوهر ببلاد تلك الكورة فعرفت بهم «الخطط» /١٤-٢/، وراجع: مباحث ١٢٧-١٢٩، الصبح /٣-٤٠١، محمد رمزي: القاموس الجغرافي /٢-١٦٥-٢٦٨.

ثغر رشيد والمنصورة المبنية زمان حصار دمياط.

وفي هذا الوجه الإسكندرية ودمياط، وهما مدینتان تندران على البحر لا عمل لهما.

[[الواحات]]

وأما الواحات فمقطعة وراء الوجه القبلي في مغاربه ولا تعد في الولايات ولا في الأعمال، ولا يحكم عليها من قبل السلطان والى وإنما يحكم عليها من قبل مقطعها. وببلاد الواحات بين مصر والإسكندرية والصعيد والنوبة والحبشة بعضها داخل بعض. قال البكري: وهو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره ولا مفتقر إلى سواه. وفي هذه الأرض شَبَّيَّة وزاجية^(١) وعيون حامضة الطعم من الحامض والقابض والملح، ولكل نوع منها مفعمة وخاصية.

ومما يتعلق بذيل هذه المملكة

ذكر برققة

قال ابن سعيد: هي سلطنة طويلة، وإن لم يكن يمكن لها استقلال، لأنها قد استولت عليها العرب. وكان سريرها في القديم مدينة طبرق. قلت: وليس لها سلطان بل ولا سوى أهل العمد سكان. وقربها إلى إفريقيا أكثر من قربها إلى مصر، ولكن ما دون العقبة لصاحب مصر وأمرها إليه.

أخبرني الأمير الفاضل ناصر الدين محمد بن المحسني: أنها بلاد كثيرة الماء سيدة الهواء، وأرضها معادن وجرون وغرة في الغالب، وبها المروج والأشجار الكثيرة. وبها المدن المبنية الباقة/ ٢٥١ / البناء إلى الآن، وهي حالية من السكان، وبها القصور العالية والأثار الدالة على ما كانت عليه من الجلاله. وهي اليوم بيد العرب وهم أصحاب ماشية ودواب سائمة كثيرة من الإبل والغنم، ومنهم من يزرع في بعض أرضها فتخصب زروعها، ولكنهم أهل بادية لا عنابة لهم بعمارة ولا زرع.

وحدثني غير واحد ممن دخلها من العسكر المصري، ممن كان جُرُّد إليها، أنها شبيهة بأطراف الشام وجبال نابلس في منابت أشجارها وكيفية أرضها وما كانت عليه،

(١) الزاج: أنواع، وأحسن أنواع الأبيض الشبت «آثار البلاد / ٢٢٥ - ٢٢٦».

وأنها لو عمرت بالسكان وتأهلت بالزراعة كانت إقليماً كبيراً يقارب نصف الشام.

وقد كانت برقة مقطعة بمناسير صاحب مصر لابن المحسني وكان يتوجه إليها ويأخذ من العريان بهائم أقطعه لأمراء عربان مصر من سليم، وهم الآن يستأدون من عرب برقة العداد.

وحدثني الأمير فائد بن مقدم السلمي، المقطعة له الآن، أن برقة من أزكى البلاد أرضاً للدواب وأمرأها مرعى لها. وأما خيل برقة فهي من أقوى الخيل ببناء، وإذا قيل الخيل البرقية كفى، وهي مدورات ليست بمفترطات العلو ولكنها عراض مرددات صلبة العوارف، قد جمعت بين سبق العربيات وقوه صدماتها وكمال تخطيطها، وصلابة حواffer البراذين وثباتها على الجبال والوعور وإدمان الزركوب. وأما صورها فهي بين العراب والبراذين، عليها منها سمات الشبه، وهي إلى محاسن العراب أميل. وفحول الخيل البرقية أنجب من إناثها، ولجنده مصر بها عناء، وتتابع بالأثمان الغالية ولكنها لا تبلغ مبلغ خيل البحرين والحجاز والشام.

وطولها بالمسافة مقدار شهرين. وكانت قاعدة برقة مدينة أنطابلس. ومن مدنها طبرق وقد تقدم ذكرها وطلمية ولبدة وهي ذات رخام، كثيرة عمد وألواح، وبها إلى الآن الرخام قائماً ونائماً. ومن مدنها المشهورة سرت.

وحدثني قاضي الجماعة أبو إسحاق إبراهيم بن أبي سالم عن لبدة أنها مملوءة بالرخام الأبيض الفائق حتى شوارعها وممشى الناس في أسواقها، وأنها / ٢٥٢ / لا يعوزها من العمارة إلا السكان.

وحدثني الشيخ شرف الدين عيسى الزواوي^(١) قال: مررت ببلاد برقة فرأيتها كلها خراباً يباباً مقفرة ما فيها إلا بادية العرب، وبها القصور المبنية ليس بها إلا غلال مخزونة لهم.

وقال لي: إن في جبال برقة أشجاراً مثمرة من الزيتون والفاكه الكثيرة، ولكن ليس بها مدينة معمرة تذكر لها أخبار. وسكان برقة كلهم أهل بادية لا يتبايعون إلا

(١) عيسى بن محمد بن أبي القاسم، أبو محمد، شرف الدين الهكاري: قائد، من أعيان الأمراء في دولة الظاهر بيبرس، قدمه على العساكر في الحروب غير مرة. له علم بالأدب وشعر فيه رقة. مولده بالقدس سنة ٥٩٣ هـ / ١٩٧ م ووفاته بدمشق سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م ترجمته في: النجوم الزاهرة ٧ / ٢٣٣، الأعلام ٥ / ١٠٨.

بالأمتعة حتى إن منهم من يكون معه دراهم فيعرضها للبيع فيقول: من يشتري مني هذه الدرام؟ لأنها ليست عندهم نقداً ولا معاملة.

ذكر المملكة الثانية

وهي مملكة الشام

وقاعدتها مدينة دمشق. وكانت الشام يقال لها «أرض كنعان»، ثم جاء بنو إسرائيل فقتلواهم بها ونفوهם عنها، وبقيت الشام لبني إسرائيل إلى أن غلت عليهم الروم وانتزعوها منهم.

قال التيفاشي في كتاب «سرور النفس»: قال الشريف الإدريسي في حدود الشام: إنها من المشرق الجزيرة بينه وبين العراق، وسميت الجزيرة؛ لأنها بين نهر دجلة والفرات، وهي أدنى الأرض التي ذكرها الله عز وجل في سورة الروم^(١).

ومن بلاد الجزيرة نينوى - مدينة يونس عليه السلام^(٢) - وقاعدتها اليوم الموصل. ومنها الرقة، ونصيبين، وديار ربيعة وبني تغلب. والجزيرة هي التخوم الفاصلة بين الشام والعراق، وحدها النهران: دجلة والفرات. وحدود الشام من الجنوب وادي القرى، ومن الغرب عسقلان، وال حاجز الذي بين البحرين حيث مدائن لوط عليه السلام، وطوله أكثر من شهر ونحوه، بعضه في الإقليم الرابع وبعضه في الثالث، والتوجه في قبنته إلى المizarب إلى الركن الشامي من جهة الشرق، وأكثر أهله يمن وفيهم معدنه.

ثم قال: روى الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر في تاريخ الشام بحسبه إلى الشعبي قال^(٣): لما هبط آدم من الجنة وانتشر ولده أرخ بنوه من هبوط آدم، وكان /٢٥٣ـ ذلك التاريخ حتى بعث الله نوح فأرخوا بمبعث نوح حتى كان الغرق فهلك من كان على وجه الأرض. فلما هبط نوح وذرته وكل من كان في السفينة إلى الأرض، قسم الأرض بين ولده أثلاثاً. فجعل لسام وسط الأرض، فيها بيت المقدس والنيل والفرات والدجلة وسيحان وجيحان وذلك ما بين قيسين إلى نهر

(١) يقصد الآية: ﴿عَلَيْتَ أَلْرُؤُمَ﴾ في آذن الأرض وَهُمْ يَرْبُّونَ ﴿عَلَيْهِمْ سَكَلَيْشُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٣٢].

(٢) معجم البلدان ٤/٨٧٠.

(٣) تاريخ دمشق ١/٢٩٠.

النيل، وما بين منحر الرياح الجنوب إلى منحر الشمال. وجعل لحام قسمة غربي النيل مما وراءه إلى منحر ريح الدبور. وجعل قسمة يافت في قيسيون فما وراءه إلى منحر ريح الصبا. ثم تفرق بنو نوح من بابل إلى سائر جهات الأرض، فلحقت كل طائفة منهم بجهة.

وفي رواية الحافظ من طريق آخر عن هشام بن محمد عن أبيه قال^(١): كان الذين عقد لهم الأولوية - يعني ولد نوح عليه السلام - فنزل بنو سام المجدل سرة الأرض وهو ما بين ساندما إلى البحر، وما بين اليمن إلى الشام، وجعل الله النبوة والكتاب والجمال والأدمة والبياض فيهم. ونزل بنو حام مجرى الجنوب والدبور، ويقال لتلك الناحية الداروم، وجعل الله فيهم أدمة وبياضاً قليلاً وأغمر بلادهم ورفع عنهم الطاعون، وجعل في أرضهم الأثل والأراك والعسر والغار والنخل، وجرت الشمس والقمر في سمائهم. ونزل بنو يافت القصور مجرى الشمال والصبا وفيهم الحمرة والسنى وأحلا الله أرضهم فاستدبروها وأخلا سماءهم فليس يجري فوقهم شيء من النجوم السبعة الجارية؛ لأنهم صدروا تحت بناة نعش والجدى والفرقدين وابتلوا بالطاعون. ثم لحقت عاد بالشحر فعليه هلكوا بوايadic يقال له مغيث. ولحقت عتيل بموضع يشرب، ولحقت العماليق بصنعاء قبل أن تسمى صنعاء، ثم انحدر بعضهم إلى يثرب فأخرجوا منها عتيلًا ونزلوا موضع الجحفة وأقبل سيل فاجتذفهم فذهب بهم فسميت الجحفة. ولحقت ثمود بالحجر وما يليه فهلكوا. ثم لحقت طسم وجديس باليمامه. وإنما سميته باليمامه بأمرأة منهم فهلكوا. / ٢٥٤ / ولحقت أميم ببارض أبار فهلكوا بها، وهي بين اليمامه والشحر ولا يصل اليوم إليها أحد غلبت عليها الجن وسميت أبار ببار بن أميم. ولحقت بنو يقطن بن عابر باليمن فسميت اليمن حين تיאمنوا إليها. ولحق قوم منبني كنعان بن حام بالشام فسميت الشام حين تشاءموا إليها.

وكانت الشام تسمى أرض كنعان، ثم جاء بنو إسرائيل فقتلواهم بها ونفوه عنها. وكانت الشام لبني إسرائيل وثبت الروم على بني إسرائيل فقتلواهم وأجلوهم إلى العراق إلا قليلاً منهم. وجاءت العرب فغلبوا على الشام.

قال أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري^(١): الشام فيه وجهان يجوز أن يكون مأخوذاً من اليد الشؤمى، وهي اليسرى، ويجوز أن يكون فعلى من الشؤم. ويقال: أنجد أتى نجداً، وأعرق دخل العراق، وأعمن أتى عمان، وأشأم أتى الشام، ومصر وكوف. وفي التنزيل العزيز ﴿وَاصْحَابُ الْمُشَمَّةِ﴾^(٢) ورجلٌ مشأم من أهل الشام. وسميت اليمن؛ لأنها عن يمين الكعبة، وسميت الشام؛ لأنها عن شمال الكعبة. قيل كان اسم الشام أول الأمر سدرية.

ذكر دمشق وبنائتها^(٣)

روي عن كعب الأحبار قال^(٤): أول حائط وضع على وجه الأرض بعد الطوفان حائط حران ودمشق ثم بابل.

وفي رواية أخرى^(٥): أن نوحًا لما نزل من الجبل أشرف فرأى تل حران ما بين نهري جلاب وديصان، فأتاه فبني حائط حران، ثم سار فبني دمشق ثم رجع إلى بابل فبنها.

وفي رواية أخرى^(٦): أن جيرون بن سعد بن عاد بن عوص نزل دمشق وبنى مديتها وسماها جيرون، وهي «إرم ذات العماد»^(٧)، وليس أعمدة الحجارة في موضع أكثر منها بدمشق.

قال الحافظ^(٨): وجدت في بعض الكتب أن جيرون وبريدا كانوا أخوين وهما ابنا سعد بن لقمان بن عاد، وهما اللذان يعرف بباب جيرون وباب البريد بدمشق بهما.

وفي رواية عن وهب بن منبه قال^(٩): دمشق بناها العاذر غلام إبراهيم الخليل،

(١) الظاهر في معاني كلمات الناس ٢/١١٥.

(٢) سورة الواقعة: الآية ٩.

(٣) عن تاريخ مدينة دمشق بالإضافة إلى «تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر و«فضائل الشام ودمشق» للربيعى، راجع: «دمشق الشام - لمحة تاريخية»، ترجمة: فؤاد فرام البستاني بيروت ١٩٣٦ ، صلاح الدين المنجد: مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالة المسلمين (بيروت، دار الكتاب الجديد ١٩٦٧)، نقولا زيادة: دمشق في عصر المماليك (بيروت، مكتبة لبنان ١٩٦٦).

(٤) تاريخ دمشق ١/١٠.

(٥) تاريخ دمشق ١/١١.

(٧) سورة الفجر: الآية ٧: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَا دَرَأَ إِذَا ذَاتُ الْعِمَادِ﴾ (١) الَّتِي لَمْ يُخْلِقْ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ (٢).

(٨) تاريخ دمشق ١/١١.

(٩) تاريخ دمشق ١/١١.

عليه السلام، وكان حبشيأً /٢٥٥/ وله له نمرود بن كنعان، حين خرج إبراهيم من النار. وكان اسم الغلام دمشق، وكان متصرفاً في جميع مال إبراهيم.

وروى الحافظ^(١): أنه وجد في كتاب أبي عبيدة عمر بن المثنى المسمى «فضائل الفرس» أن بيورا سب الملك الكيروانى بنى مدينة بابل ومدينة صور ومدينة دمشق.

قال الحافظ^(٢): وبلغني من وجه آخر أنه لما رجع ذو القرنين من المشرق وعمل السد بين أهل خراسان وبين يأجوج ومأجوج وسار يريد المغرب، فلما بلغ الشام وصعد على عقبة دمر أبصر هذا الموضع الذي فيه اليوم مدينة دمشق، وكان هذا الوادي الذي فيه نهر دمشق غيضة أرز، قيل إن الأرزة التي وجدت في سنة ثلاثة عشرة وثلاثمائة من بقايا تلك الغيضة. فلما نظر ذو القرنين إلى تلك الغيضة، وكان هذا الماء الذي هو في هذه الأنهار اليوم مفترق، مجتمعاً في وادٍ واحد. فأخذ ذو القرنين يفكر كيف يبني فيه مدينة! وكان أكثر [ما فكر فيه] وتعجب منه أنه نظر إلى جبل يدور بذلك الموضع وبالغيضة كلها، وكان له غلام يقال له دمشق على جميع ملكه. ولما نزل ذو القرنين من عقبة دمر سار حتى تزل في موضع القرية المعروفة بيلدا، من دمشق على ثلاثة أميال، فأمر ذو القرنين أن يحفر له في ذلك الموضع حفرة ففعلوا ذلك، ثم مر برد التراب الذي خرج منها. فلما رد التراب لم تمتليء الحفرة، فقال لغلامه دمشق: ارحل فإني كنت نويت أن أوسس في هذا الموضع مدينة، فأما إذ بان لي منه هذا، فما يصلح أن يكون هننا مدينة. قال: ولم؟ قال ذو القرنين: إن بني هننا مدينة فإنها لا يكون زرعها يكفي أهلها.

قال: ثم رحل ذو القرنين حتى وصل إلى البشنة^(٣) وحوران وأشرف على تلك السعة ونظر إلى تلك التربة الحمراء. فأمر أن يتناول من ذلك التراب فلما صار في يده أعجبه؛ لأن نظر إلى تربة كأنها الزعفران، فنزل هناك وأمر أن يحفر حفرة فحفرت وأمر برد التراب إلى المكان الذي أخرج منه فملأه وفضل منه تراب كثير. فقال ذو القرنين لغلامه دمشق: ارجع إلى ذلك الموضع الذي فيه الأرز فاقطع ذلك الشجر

(١) تاريخ دمشق ١/١٤٢.

(٢) تاريخ دمشق ١/١٤٣.

(٣) البشنة، ويقال لها البشنة: قرية بين دمشق وأذرعات. (معجم البلدان ١/٤٩٣، الأعلام الخطيرية ٣/٤٦ و٤٦).

وابن علي حافة الوادي / ٢٥٦ / مدينة وسمها على اسمك فهناك يصلح أن يكون مدينة. وهذا الموضع منه قوتها وعليه ميرتها.

قال الحافظ: وعلامة صحة ذلك أن أهل غوطة دمشق لا تكفيهم غلاتهم حتى يتکفوا من البنية وحوران. فرجع دمشق وبنى المدينة وعمل لها حصنًا، وهي المدينة الداخلة وعمل لها أربعة أبواب: جيرون مع باب البريد مع باب الحديد في سوق الأساقفة، مع باب الفراديس الداخلة. هذه كانت المدينة، إذا غلقت هذه الأبواب فقد أغلقت المدينة. وخارج هذه الأبواب كان مرعى، فبناتها دمشق وسكنها ومات فيها. وكان قد بنى الموضع الذي هو الآن مسجدها الجامع، كنيسة يعبد الله فيها إلى أن مات.

وروى^(١) أن باني دمشق بناها على الكواكب السبعة وأن المشتري كان طالع بنائها، وجعل لها سبعة أبواب، وصور على كل باب أحد الكواكب السبعة، وصور على باب كيسان صورة زحل، فخرجت الصور التي على الأبواب كلها إلا باب كيسان فإن صورة زحل باقية عليه إلى الآن.

وروى الحافظ عن أبي القاسم تمام بن محمد قال^(٢): قرأت في كتاب عتيق: باب كيسان لزحل، باب شرقي للشمس، باب توما للزهرة، باب الصغير للمشتري، باب الجاية للمريخ، باب الفراديس لطارد، باب الفراديس الآخر المسود للقمر.

وروى الحافظ عن أبي مسهر قال^(٣): إن ملك دمشق بنى حصن دمشق الذي حول المسجد داخل المدينة على مساحة مسجد بيت المقدس، وحمل أبواب مسجد بيت المقدس فوضعها على أبوابه. فهذه الأبواب التي على الحصن هي أبواب مسجد بيت المقدس.

أسماء بعض جهاتها:

خرج الحافظ مرفوعاً: ^(٤) أن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ولد اثنا عشر ولداً فسمى منهم دوماً وبه سميت دومة الجندي.

(١) تاريخ دمشق / ١ / ١٥.

(٢) تاريخ دمشق / ١ / ١٥.

(٣) تاريخ دمشق / ١ / ١٦.

(٤) تاريخ دمشق / ١ / ١٩ .

وفي رواية أخرى أنه كان للوط أربعة بنين وابنتان: مآب، وعَمَّان، وجلاَّن، وملكان، والبنات زعر والرية. / ٢٥٧ / فعمان مدينة البلقاء سميت بعمان، ومآب من سائر البلقاء سميت بمآب، وعين زغر سميت بزغر بنت لوط، والرية سميت بالرية.

قال الشرقي بن القطامي^(١): وسميت صيدا بصيدون بن صدوقا بن كنعان بن حام بن نوح. وسميت أريحا بأريحا بن مالك بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وسميت البلقاء بأبلق بن عمان بن لوط، لأنه ملكها وسكنها. قال: وقيل إن الكسوة سميت بذلك، لأن غسان قتلت بها رسول ملك الروم، قدموا عليهم في طلب الجزية فقتلوا لهم وأخذوا كسوتهم. هذا آخر ما نقله التيفاشي.

قلت: وبدمشق مهبط عيسى عليه السلام وهي أن الخوارزمي^(٢) قال: طفت جوانب الأرض الأربع فكان فضل غوطة دمشق عليها كفضلها على غيرها، كأنها الجنة صورة على وجه الأرض.

وأما^(٣) وصفها فكثير جداً يعجبني منه قول ابن عين^(٤): [من البسيط]
دمشق فبِي شوقٌ إِلَيْهَا مُبَرَّحٌ إِنْ لَجَّ وَاثِنْ أوَّلَحَ عَذُولٌ

(١) تاريخ دمشق ١٩/١.

(٢) محمد بن العباس الخوارزمي، أبو بكر: من أئمة الكتاب، وأحد الشعراء العلماء. كان ثقة في اللغة

ومعرفة الأنساب. وهو صاحب «الرسائل - ط» المعروفة برسائل الخوارزمي. وله «ديوان شعر».

ولد في خوارزم سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٥م، ونشأ فيها، ورحل في صباه إلى بعض البلدان، فدخل سجستان، ومدح واليها طاهر بن محمد، ثم هجاوه، فحبسه. وانطلق فتاييع رحلته، وأقام في دمشق مدة، ثم سكن في نواحي حلب. وانتقل إلى نيسابور فاستوطنها واتصل بالصاحب بن عباد، وتوفي بها سنة ٣٨٣هـ / ٩٩٣م.

وكانت بينه وبين البديع الهمذاني محاورات وعجائب نقل بعضها ياقوت في معجم الأدباء. وأورد ابن خلkan والتعالبي طائفة من أشعاره وأخباره. وكان يقال له «الطبرري» لأنه ابن أخت «محمد بن جرير الطبرري» كما يقال له «الطبرخزي» و«الطبرخزمي» لأن أمه من طبرستان وأباه من خوارزم فرُّكب له من الأسمين نسبة.

ترجمته في: معجم الأدباء ١٠١/١، والوفيات ٥٢٣/١، وسير أعلام النبلاء ٥٢٦/١٦ رقم ٣٨٧، واللباب ٣٩١ / ٥١ وبغية الوعاة، والوافي بالوفيات ٣/١٩١، ويتيمة الدهر ٤/١١٤ - ١٦٠، والأعلام ٦/١٨٣.

(٣) من هنا وحتى صفحة ٣٩٤ نشره الدكتور صلاح الدين المنجد، أولاً في مجلة معهد المخطوطات العربية ٣ (١٩٥٧) ١١٨ - ١٢٦، ثم في كتاب «مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالة المسلمين» ٢١٩ - ٢٣١.

(٤) ديوان ابن عين ٦٨، الأعلاق الخطيرة ١/٣٥٦ - ٣٥٧.

بلادُها الحصباءُ درُّ، وترُبُّها عبيرٌ، وأنفاسُ الشمال شمُولٌ
تسلسلُ فيها ماوئها وهو مطلقٌ وصحٌ نسيمُ الروض وهو عليلٌ
وقول عرقلة^(١): [من البسيط]

ما بين «سَطْرًا» و«مَقْرِى» جنةً عرضتْ
أنهارُها من خلال الآس والبان
يظلُّ منثورُها في الأرض منتشرًا
وكذلك قول ابن عين وقد نفي منها^(٢): [من الكامل]

فسقى «دمشق» وواديها والحمى
حتى ترى وجهَ الرياض بعارضٍ
وأعاد أيامًا قَطْعَنْ حميَّةً
٢٥٨/ تلك المنازلُ لا أعقَّةً «عالِج»
أرضٌ إذا مرَّت بها ريحُ الصَّبا
فارقتُها لا عن رضاً وهجرتها
وقول البحيري^(٣): [من البسيط]

متواصلُ الإرداد من فصمُ العُرى
أحوى، ووجهَ الدُّوح أزهَرَ نِيرًا
ما بين حرة «عالقين» و«عكbra»
ورمالُ «كاظمة» ولا «وادي القرى»
حملتُ على الأغصان مسکاً أذفرا
لا عن قِلَّى ورحلتُ لا متخيّرا

العيشُ في ظلٍّ «دارِيَا» إذا بردا
إذا أردتَ ملأَت العين من بلدٍ
أما «دمشق» فقد أبدثَ محسنَها
يمشي السحابُ على أجبالها فرقاً
فلستُ تُبصِّر إلا وادياً خَضِراً
كأنما القيظَ ولَى بعد جيئتهِ
والراح نمزجُها بالراح من «بردي»
مُسْتَخْسِنٍ وزمانٍ يشبه البلدا
وقد وفى لك مُظْرِيَها بما وعدا
ويصبحُ النبتُ في صحرائها بدداً
أو يانعاً حَضْلاً أو طائراً غرداً
أو الريْبِيْعُ أتى من بعد ما بَعْدَا
ومدامتها هي الموصوفة في الأفاق، المعروفة في مغارسها بكرم الأعرق، تنشر
كاساتها ألوية حمرا، تتقد في صفحات الخدود جمرا، فمن حمراء كنار تتلهب،

(١) هو عرقلة الكلبي، أبو الندى حسان بن نمير الأئور المتوفى سنة ٥٦٧هـ.
ترجمته في: خريدة القصر (قسم الشام) ١/١٧٨-٢٢٩، مرآة الزمان ٨/٢٨٦، الواقي بالوفيات ١١/٣٦٤-٣٦٨، النجوم الزاهرة ٦/٦٤.

(٢) الديوان ٣، الأعلاق الخطيرية ١/٣٥٧-٣٥٨.

(٣) ديوان البحيري، تحقيق الصيرفي، دار المعارف ١٩٦٣، ١٩٦٣/٧٠٩-٧١٠، تاريخ مدينة دمشق ٢/١٧١، الأعلاق ١/٣٣٥.

ومن صفراء كالزجاج المذهب، ومن بيضاء كأنها نقطة غدير، أو فضة طافت بها قوارير، أو وردية تتضاحك في الشفافة اللعس ثغورها المفترة، ويختاللها الصفار كخد أبيض تشرب بحمرة، تضيء في دجي الليل مصباحاً، وتهدي إلى الجلسae بريحها تفاصحاً، وببلاد «الشوف»^(١) منها ما يرق عن الزجاج، ويخف عن مخالطة الامتزاج، فيتعلق فوق الماء على الأقداح، وتتعلّى حمرته عليه كالشفق على المصباح، يطير عليها الشعاع، ويطيب إلى قهقهة قيابها السماع. و«صيدنaya» معدن ذهبها، وأفق كوكبها، وإليها أشار ابن عين بقوله^(٢): [من الكامل]

ومداماً من «صيدنaya» نَسْرُهَا من عنبر وقميصها من صندل
مسكية النفحات يشرف أصلها عن «بابل» ويجل عن «قطريل»
وقد خالف القاضي الفاضل الناس حيث قال يذم دمشق: «ودخلت دمشق وأنا /
٢٥٩ / ملثاث لتغيير مائتها و هوائتها وأبنيتها وأوديتها ، ومن لي بمصر فإني أبيع بردى
بشربة من مائتها ، فالطلل هايل ولا طائل ، وما سمعناه من تلك الفضائل متضائل».
وقال وقد وقع عليها الثلوج: وأما دمشق فآدرها اليوم للثلج قوالب ، وقد أخذ في
أن يذوب ، فالشوارع تحتاج إلى مراكب.

وبدمشق من كل ما في مصر من الوظائف. وليس هذا في بقية بلاد الشام. مثل قضاة
القضاة الأربعه من المذاهب الأربعه، وقاضي العسكرية، وخزانة تخرج منها الإنفاقات
والخلع، وخزائن سلاح وزرداخانات، وبيوت تشتمل على حاشية سلطانية مختصرة،
حتى لو حضر السلطان إليها جريدة وجد بها من كل الوظائف القائمة بدولته.

وكل أمير أمر فيها أو في غيرها من الشام أو رب وظيفة ولها وظيفة من عادة
متوليه أن يخلع عليه، أو خدم في مهم من المهمات أو أمر من الأمور يستوجب عليه
خلعة أو إنعاماً ولم يخلع عليه من مصر أو لم ينعم عليه من مصر، كان من دمشق
خلعته وإنعامه.

ومنها تخرج أعلام الأمراء وطلائعهم وشعار الطلداخانات. وفي خزائن السلاح
بها يعمل المجانيق والسلاح والزرداخانات، ويحمل إلى جميع الشام وتعمر به البلاد

(١) بلدة في جبل لبنان.

(٢) ديوانه .٨٤

والقلاء، ومن قلعتها يجرد الرجال وأرباب الصناع إلى جميع قلاع الشام، ويندب في التجاريد والمهماض.

وهي مدينة جليلة. وقلعتها مرحلة على الأرض، يحيط بها وبالمدينة أسوار علية، يحيط بها خندق يطوف الماء منه بالقلعة، وإذا دعت الحاجة أطلق على جميع الخندق المحيط بالمدينة فيعماها.

وهي في وطاءة مستوية من الأرض، بارزة عن الوادي المنحط عن منتهى ذيل الجبل، مكسورة الجوانب لمرأ الهواء، إلا من الشمال فإنه محجوب بجبل قاسيون، وبهذا تعاب وتنسب إلى الوخامة، ولو لا جبلها الغربي الملبي بالثلوج صيفاً وشتاء لكان أمرها في هذا أشد وحال سكانها أشق، ولكنه درياق ذلك السم، ودواء ذلك الداء.

وهي مدينة حسنة الترتيب، جليلة / ٢٦٠ / الأبنية بالحجر والخشب. والأجر مضبب بين مداميك البناء بالخشب الملبن. وأخشابه من خير أخشاب الأرض يسمى الحور، ينصب في بساتينها ويربى ويقطع في انتهائه يعطي الليان، فإذا انكسر عود منها يبقى في مكانه متسلساً عدة سنين وأكثر، ولو أنه متعلق بقدر شعرة واحدة.

ولهذه المدينة حواضر فسيحة من جهاتها الأربع، والماء حاكم عليها من جميع نواحيها بإتقان محكم، على ما نذكره في صفة نهرها.

وهذه المدينة مقسمة على جوانب الجامع بها، لا على أنه واسطتها من كل الجهات. فإن ما بينه وبين نهاية المدينة من القبلة وما بينه وبين نهاية المدينة من الشرق أوسع مدى مما بينه إلى نهاية المدينة من الجانبين الآخرين الشمالي والغربي. وأشارف هذه المدينة ما قرب إلى جامعها.

وبها الديار الجليلة، المذهبة السقوف، المفروشة بالرخام، ومنها ما هو مؤزر الحيطان بالرخام المنوع المفصل بالصدف والذهب، والبرك الجارية. وقد يجري الماء في الدار في أماكن.

وبها الطباق الرفيعة، والأفنية الواسعة، والأسواق المليحة الترتيب، والقياسر الحصينة.

وبها الصناع المهرة في كل فن من البناءين، وصناعة السلاح، والمصوغ، والزرتش، وغير ذلك. وتعمل بها لطائف الأعمال من كل نوع، وصناعتها تفخر على

بقية صناع هذه المملكة إلا فيما قل، مما بمصر والشام والعراق والروم، فتستمد من لطائفها خصوصاً في القسي، والنحاس المطعم، والزجاج المذهب، وجلود الخراف المدبوغة بالقرظ المضروب بها المثل.

هي إحدى جنات الدنيا الأربع. قال الخوارزمي : رأيت جنان الدنيا الأربع، وكان فضل غوطة دمشق عليها كفضلها على سواها ، كأنها الجنة على وجه الأرض حسما ذكرا ناه.

وبها البساتين الأنثقة تتسلسل جداولها، وتفيء دوحتها، وتتمايل أغصانها، وتغدر أطيارها، وفي بساتين النزهة بها العمائر الضخمة، والجوا_sq العلية، والبرك العميقـة، والبحيرـات/ ٢٦١/ الممتدة، عليها العرش الممددة المظللة، تتقـابل بها الأوانيـن والمجالـس، وتحفـ بها الغراس والنـصوب المطرـزة بالسرـوـ الملـفـ البرـودـ، والـحورـ المـمشـوقـ الـقدـودـ، والـريـاحـينـ الـمـتـأـرـجـةـ الـطـيـبـ، والـفـواـكهـ الـجـنـيـةـ، والـثـمـراتـ الشـهـيـةـ، والـبـدـائـعـ الـتـيـ تـغـيـيـهاـ شـهـرـتهاـ عـنـ الـوـصـفـ.

وبها في سفح قاسيون الصالحية،^(١) وهي مدينة ممتدة في سفح الجبل بإذاء المدينة في طول مدي. ذات بيوت، وجنائن، ومدارس، وربط، وترب جليلة، وعمائر ضخمة، ومارستان، وأسواق حافلة بالبزّ وغيره. وبأعلىها من ذيل الجبل المقابر العامة. وجميع الصالحية مشرف على دمشق وغوطتها وكل بساتينها وشرفها وميادينها وجري واديها. وبجانبها الغربي كان دير مران المشهور. ومكانه الآن من المدرسة المعظمية إلى قرب عقبة دمر. ومنه هناك بقايا آثار.

وأما حواضر دمشق فهي كما قدمنا القول جليلة من جميع جهاتها، وأجلها ما هو في جانبيها الغربي والشمالي. فأما الغربي فإنها تفضي من تحت القلعة بها في ساحة فسيحة هي سوق الخيل، على ضفة الوادي، ويخرج إليها من جوانب المدينة من أمتعة الجندي، فتباع في أيام المواكب بها، وتنتهي فيما يليها من الوادي إلى شرفين محيطين به قبلة وشاماً، في ذيل كل منهما ميدان أخضر بالنじيل، والوادي يشق بينهما.

وفي الميدان القبلي منها القصر الأبلق، بناء الملك الظاهر بيبرس البندقداري

(١) راجع عنها، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، راجع عنها: الأعلاق ١/٢٢٠، الدارس في تاريخ المدارس ١/٥٧٩.

الصالحي^(١). مبني من وجه الأرض إلى نهاية أعلاه بالحجر الأسود والأصفر مدمماً من هذا ومدمماً من هذا، بتأليف غريب وإحکام عجيب. ويدخل من درکاه له على جسر راکباً بعقد على مجرى الوادي إلى إیوان برانی يطل على المیدان القبلي، استجده آقوش الأفروم زمان نیابتہ بها. ثم يدخل إلى القصر من دهالیز فسیحة تستمل على قاعات ملوکیة تستوقف الأ بصار، وتستوھب الشموس من أشعتها الأنوار، بالرخام الملون، قائماً ونائماً، في مفارشها وصدورها، وأعالیها وأسافلها، مموهة بالذهب واللازورد والفص المذهب، وأزر من الرخام إلى سجف السقوف.

وبالدار الكبیر بھا إیوانان متقابلان تطل شبابيك شرقیهما على المیدان الأخضر الممتد، وغربیهما على شاطئ الوادي المخضر، والنهر به كأنه ذواب الفضة.

وله الرفارف العالية المناقية للسحب، تشرف من جهاتها الأربع على جميع المدينة والغوطة.

والوادي كامل المنافع بالبيوت الملوکیة والاصطبلات السلطانية، والحمامات، والمنافع المکملة لسائر الأغراض.

وتجاه باب القصر باب يتوصل من رحبته إلى المیدان الشمالي، وعلى الشرفين المقدم ذكرهما أبنية جلية من بيوت ومناظر ومساجد ومدارس وربط وخوانق وزوايا وحمامات، ممتدة على جانبيين ممتدين طول الوادي.

وقد بني في هذه السنین نائب السلطان بھا على الشرف القبلي منهمما جامعاً بدیعاً - تلیه تربة ضخمة - وداراً ملوکیة. ومدقبة الجامع سوقاً لطیفاً وحماماً فائقاً زاد المكان حسناً على حسن، وإبداعاً على إبداع.

وأما حاضرها الشمالي ويسمى العقبة، فهو مدينة مستقلة بذاتها ذات جوامع ومساجد ومدارس وربط وخوانق وأسواق جليلة وحمامات. وبها دیار كثيرة للأمراء والجناد.

وأما نهر دمشق وهو بردی فمحراه من عینین: البعيدة منها دون قرية الزبدانی، ودونها عین بقرية تسمى الفیجة بذيل عزتا، والماء خارج من صدع في نهاية سفل

(١) كان بناؤه في سنة ٦٦٥ هـ. (السلوك ١/٥٦١، وقارن: النجوم ٧/١٧٤ و١٩٥ و٢٧٨ هـ، خطط الشام ٤/١٢٢ و٥/٢٨٥-٢٨٦) وعلى مثاله بنى الملك الناصر محمد ابن قلاوون القصر الأبلق بقلعة الجبل بمصر.

الجبل، وقد عقد على مخرج مائه قبو رومي البناء، ثم ترفله متتابع في مجرى النهر، ثم يقسم النهر أربعة: اثنان عن اليمين واثنان عن الشمال، مرفوعان على مجرى النهر في قراره الوادي، دائمة بمقسم معلوم.

وعليه ألفاف البساتين ممتدة من الجانبين، إلى أن يمر على المكان المسمى بالربوة. وقد بنى الملك العادل الشهيد نور الدين محمود بن زنكي رحمة الله بها المقام المعروف بمهد عيسى. يقال: إن مريم أوت إليه بولدها عيسى عليه السلام، وإن هذه الربوة هي المعنية بقوله تعالى ﴿وَأَنْتَمْ هُمَا إِلَّا رَبُّكُمْ ذَاتُ قَرْبَةٍ وَمَعِينٌ﴾^(١) ومنظر هذا الوادي /٢٦٣/ من أعجب المناظر لترابك الظل والماء، وإظلال الشمس والهواء، وافتراض الجبلين المحدقين به في أرضه بالبنفسج، تحت الأشجار المتمايلة على غصون البان، تفتح بينهما خدود الورد، وتفتر مباسم الياسمين، وتندلق أسن السوسن، ويتجاوب فيها هدير الماء والحمام، وتتلاقى خيول النسيميين الطائر من الشمال على منابت الشيح، ومن القبلة على الحدائق الفيح.

إلى جانب هذا الوادي في قبليه بشمال سطح يمتد على ظاهر المزة كأنه قطعة بيداء مقفرة ينبع بها الشيح والقيصوم، وتتلاعب بها الصبا والدبور، عرفت بصحة الهواء وفسحة الفضاء، فطاب به ما جاورها، وصح لأجله ما قاربها.

ثم نعود إلى ذكر النهر ونسمى الأنهر السبعة: مجرى الوادي والستة المقصومة. فمجرى الوادي بردى أفق عليه هذا الاسم لا يعرف بغيره. وعلى سمت بردى في الجانب الغربي الأعلى الآخذ قبلة نهر داريا، ودونه المزة، ودونه نهر القنوات، ودونه نهر باناس. وعلى يسرة بردى في الجانب الشرقي الآخذ شماليًا نهر يزيد، ودونه نهر ثورا. فأما القنوات وباناس فهما نهراً المدينة حاكمان عليها وسلطان على ديارها. يدخل باناس القلعة بها ثم ينقسم قسمين: قسم للجامع وقسم للقلعة، ثم ينقسم كل قسم منهما على تقاسيم تتفرق في المدينة بأصابع مقصومة وحقوق معلومة. وكذلك تنقسم القنوات في المدينة، ولا مدخل له في القلعة ولا الجامع. ويجري الماء في قنوات مدفونة في الأرض إلى أن يصل إلى مستحقاتها وتسع في منافعها. ثم تنصب فضلات الماء والبرك ومجاري الميضاوات والمرتفقات إلى قنوات وسخ معقودة تحت أزجاجات الماء

(١) سورة المؤمنين: الآية ٥٠.

المشروب. ثم تجتمع وتتنهى وتخرج إلى ظاهر المدينة لسقي الغيطان.

وأما بقية الأنهر خلا مجرب بردى فإنها تصرف إلى البساتين والغيطان، وعليها القصور والبنيان، خصوصاً ثوراً، فإنه نيل دمشق، عليه أجل مباراتهم، وبه متزهاته، وإليه أكثر تسياراتهم وتوجهاتهم، يخاله من يراه زمرة خضراء لتراكم الأفياض عليه، والتلفاف الدوح من جانبها.

ويجري / ٢٦٤ / يزيد في ذيل الصالحة ليشق خيطاً في عمارتها.

وأما مجرب بردى فإنه تتفرق منه فرقة بجانب المدينة تدخل إلى داخل سورها وتدور به أرحاؤها، وينصب بقاياها إلى مجرب الوادي، إلى أن يخرج من حدود العمارة والأرحاء المنصوبة عليه إلى تتمة الوادي، تحفّ به الغياض المتکاثفة من السفرجل والحور، والبساتين. ثم يرمي إلى ظاهر قرى دمشق يسقى ما يحكم عليه، ثم ينصب في بحيرة هناك متصلة بالبرية.

هذه أمehات الأنهر من بردى وما ينقسم منه. على أن كل نهر من هذه الأنهر ينقسم منه أنهار كبيرة وصغرى. ويتشعب من تلك الأنهر جداول، ثم تتفرق في البساتين والغيطان لسقي أراضيها وإدارة أرحائها مما لا يكاد يعدُّ كثرة.

فأما مسجدها الجامع^(١) فصيته طائر في الدنيا. كان هيكلأً لعبد الكواكب، ثم كنيسة للنصارى إلى أن فتحت دمشق على أيدي أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد، رضي الله عنهم. فجرى عليه حكم المناصفة فوقع نصفه الشرقي لل المسلمين وبقي نصفه الغربي بأيدي الروم إلى خلافة الوليد بن عبد الملك فاستخلصه وأتمه جاماً للمسلمين. فهو بيت عبادة من قديم. وقد ذكرناه فيما تقدم^(٢).

أما جملة أعمال دمشق

فهي ثمانية وعشرون عملاً وهي ما يذكر:

عمل ضواحيها وتسمى «بولاية البر» وهو الغوطة والمرج وجبة عسان والإقليم. كل هذا عمل واحد.

(١) عن الجامع الأموي بدمشق، راجع: الأعلاق الخطيرة (تاريخ مدينة دمشق) ٤٣-٨٨، تاريخ مسجد دمشق لعله للبرزالي (تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٤٩)، مسالك الأ بصار / ١ ١٧٨-٢٠٣ . ط زكي، رحلة ابن بطوطة / ١٧٥٧١، الصبح ٩٦/٤ .

(٢) مسالك الأ بصار / ١ ٢٩٩-٢٧٧ . إلى هنا انتهى ما نشره الدكتور المنجد عن دمشق.

والبلاد الساحلية القبلية وما يتبعها وهي عبارة عن بلاد غزة وما جاورها سهلاً ووعراً وهي تسعه أعمال:

فخاصة غزة ثلاثة أعمال وهي: عمل غزة، وعمل فرنينا، وعمل بيت جبريل.
والساحل ثلاثة أعمال وهي: عمل الرملة، وعمل لد، وعمل فاقون.
والجبل وهو ثلاثة أعمال: عمل نابلس، وعمل القدس الشريف، وعمل بلد الخليل عليه السلام.

فهذه جملة هذه الأعمال. والمشاهير منها مذكورة في عمله من موضعه إلا نابلس فإننا نذكرها هنا فنقول: إنها مدينة متمدنة يحتاج إليها ولا تحتاج إلى سواها.

والصفقة القبلية

وهي بلاد حوران والغور وما مع ذلك /٢٦٥/ وهي عشرة أعمال، وهي:
عمل «بيسان». ويبسان لها قليعة من بناء الفرنج وهي مدينة الغور.
و عمل «بانيس» وهي مدينة الجولان وبها قلعة الصبيبة.
و عمل «الشعراء».

و عمل «نوى» وهي مدينة قديمة وبها قبر أیوب عليه السلام.
و عمل «أذرعات» وهي مدينة البثنية. قال البلاذري: ولما فتح المسلمون بصرى أناتهم صاحب أذرعات فصوّل على مثل ما صوّل عليه أهل بصرى على أن تكون البثنية خراجاً، ومضى يزيد بن أبي سفيان حتى دخلها.

و عمل «عجلون» ومنه الصوّيت وقلعة عجلون بين الأردن وبلاد السراة، وهي محدثة صغيرة المقدار مبنية على جبل مطل على الغور يعرف بجبل عوف؛ لأنه كان به قوم من بني عوف أهل عتو، فلما أقطع الملك العادل أبو بكر بن أیوب هذا الجبل عز الدين أسامة [بن منقذ]^(١) بنى هذه القلعة لتحسين نوابه منهم بعد ممانعة منهم وإياء، فلما تكاملت مد سماطاً وحضره مشائخ بني عوف فقبض عليهم وحبسهم. وكان مكانها دير يسكنها راهب اسمه عجلون فسميت به.

(١) زيادة من صبح الأعشى وفيه: أنه أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أیوب وأنه بناها في سنة ثمانين وخمسين.

وأما الباعونة فكان مكانها أيضاً دير به راهب اسمه باعونه، فلما بنيت سميت باسمه.

و عمل «البلقاء» ومنه الصلت.

قال البلاذري: ومن البلقاء كورة السراة، وفيها الحمية وفيها كان متزل علي بن عبد الله بن العباس. ومن البلقاء مآب وعمان، فأما عمان فإن يزيد بن أبي سفيان فتحها، وأما مآب فإن أبا عبيدة رضي الله عنه فتحها.

وأما الصلت فإن قلعتها من بناء الملك المعظم عيسى بن العادل، وكان السبب في بنائها أنه عبرت له جوار هناك فخرج عليهم طائفة تعرف ببني دحمان من أهل قرية كفر يهودا فسيوهن وأخذنوا جماعة منهم، فبنوا على قمة جبل يعرف برأس الأمير وكان مكانها شعراء متلفة.

و عمل «صرخد» وهي مدينة قديمة وقلعتها محدثة بنيت قبل الشهيد نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله وأخر ما انتهت إليه في الدولة الأيوبية إلى يد نواب الظاهر علي بن العزيز، كان بها من قبله مسعود بن فليح النقيب /٢٦٦/ ، فلما جاءها عسكر هولاكو، بعد أخذ دمشق، هدموا شرفاتها وأبقوها بيده، فجدد الملك الظاهر بيبرس تحصينها وتحسينها.

و صرخد مدينة حوران العليا.

و عمل «بصري» وهي مدينة حوران السفلى، بل حوران كلها، بل الصفة جميعها، قال البلاذري: وبصري قصبة حوران وهي مدينة على سيف البرية ولها ذكر في حديث النبي (عليه السلام)، ودخل إليها قبل بعثته وهو تاجر لخديجة بنت خويلد الأسدية، رضي الله عنها، وفيها لقي بحيرا الراهب ^(٢)، وبها قبره إلى عصرنا هذا.

وقال البلاذري: اجتمع المسلمون عند قدوم خالد بن الوليد على بصري ففتحوها صلحًا، ولبئوا على حوران فغلبوا عليها.

وقال ابن جرير، وقد ذكرها في هذه الكورة: قلعة صرخد وهي محدثة ثم كان

(١) في مسند أحمد بن حنبل ٥ / ١٤٤ عن النبي بطريق أبي ذر «تخرج نار من اليمن... تضيء منها أنفاق الإبل ببصري...».

(٢) السيرة النبوية لأبي هشام ١ / ١٩١-١٩٢، تاريخ الطبرى ١ / ١١٢٣-١١٢٦. وغيرها.

بها مملك بعد مملك. قلت: وهكذا جرت العادة في عصرنا وما تقدمه مما قاربه أن تكون لمن أنزل عن رتبة سلطنة أو ما قاربها.

و عمل «زرع».

فهذه جملة الأعمال [القبلية]

والصفقة الساحلية

والجبلية الشمالية وهي أربعة أعمال وهي:

عمل «البقاع العزيزي».

و عمل «البقاع البعنكية».

و عمل «بيروت» وهي ثغر على ضفة البحر وعليها سور من حجارة، وبها جبل فيه معدن حديد، ولها غيبة من أشجار الصنوبر تكسيرها اثنا عشر ميلاً يتصل بلبنان. وشرب أهلها من الآبار وهي بندر فرضة دمشق.

و عمل «صيدا» وعليها سور حجر، وهي تنسب لرجل من ولد كنعان بن حام، وكورتها كثيرة الأشجار، غزيرة الأنهر، وهي ولاية جليلة واسعة العمل ممتدة القرى تشمل على نيف وستمائة ضيعة، وشرب أهلها من ماء يجري إليهم من قناة.

فهذه جملة هذه الأعمال.

والصفقة الشرقية الشمالية

وهي البلاد الحمصية وهي أربعة أعمال وهي:

عمل «حمص».

و عمل «قارا».

و عمل «سلمية».

و عمل «تدمر». وتدمير مدينة شامية عراقية لاتصالها ببر العراق وبر الشام. وهي مدينة جليلة سليمانية البناء، وبها بساتين جليلة ومتاجر مفيدة وأهلها يسار ومنها تجارة تضرب في الأرض.

وبعلبك

مدينة قديمة البناء شمالي دمشق، يقال: إنها من بناء سليمان بن داود عليهما السلام، لها قلعة عظيمة مرجلة على وجه الأرض مثل قلعة دمشق، يستدير بها وبالمدينة سور منيع محصن، عظيم البناء بالحجارة الثقل الكبار من الصخر الشديد المانع، وبه ثلاثة أحجار عظيمة ممتدة تحت برج ويدنتين كواهل ذات أطوال وعروض وسمك مرتفع كأفلاق الجبال. وفي القلعة عمد عظيمة شواهد وسية الدور منيف العلو. وفي هذه القلعة من عمارتها من تفرد بها من الملوك الأيوبيه آثار ملوكية جليلة القدر جلية الحسن كالدار الأمجدية والبحيرة.

وأما المدينة فمحصورة من دمشق في كمال محاسنها في حسن الترتيب والبناء، وجهات الوقف العامرة من الجامع والمساجد والمدارستان ودار الحديث والمدارس والربط والخوانق والزوايا والأسوق النظيفة المشتملة على أنواع المبيعات، ويجري الماء في ديار هذه المدينة ومشاريعها وأسواقها. ويعمل بها الدهان الفائق في الماعون مما يستحسن ويحمل منه إلى كثير من البلاد.

ويحفل بالمدينة غوطة عظيمة أنيقة ذات بساتين مشتبكة الأشجار بأنواع الثمرات الحسان والفاكه المختلفة الألوان.

وبعلبك في ظاهرها عين ماء سارحة، متعددة الدائرة، مشهورة بالزينة، ماؤها في غاية الصفاء، عليها بهجة الحسن بين مدرج أخضر وبستان مونق. وعليها مسجد واستجدر إلى جانبها مسجد جامع كامل به طرازها المذهب وجمالها المبدع. يمد منها نهر يتكسر الحصباء في خلال تلك المروج كتصيل سيف يسن فوق مسن إلى أن يدخل للمدينة وينقسم منه في بيوتها وجهاتها، ويسمى «ماء رأس العين».

ولبعلك عين أخرى أبعد من هذه الأولى مدى يقال لها «عين اللوجوج» في طرف بساتينها البعيدة، خفيفة الماء هاضمة، لا يشرب أكابر بعلبك وأهل النعمة بها إلا من مائها، ويتصل منها فرع إلى الجانب الشمالي /٢٦٨/ من بعلبك ويصب منه في قناة هناك ويدخل إلى القلعة منه، وهو من الماء المستطاب الموصوف في البلاد.

وبعلبك بلد لطيف ظريف كثير الخير والأرزاق أرخي أسعاراً من دمشق، كثيرة الأطiable وبها الملبن المعمول على أنواع يقل وجود مثلها في الأرض، لا يكاد يفوتها من دمشق فائت.

وبها جبل لبنان المشهور المبارك البقعة موطن الأولياء والصلحاء والسواع، يأوي إليه كثير من انقطع إلى عبادة الله عز وجل، وهو مدرج طريق الفقراء وقطب مدار الأولياء يقر بهذا من عرفه، ولا يستطيع الكاره من جهله.

ومع ما ذكرنا من حسنها قد ذمَّها القاضي الفاضل فقال: «وكتابي إليها من إحدى المضايق بل المطابق المسماة بعلبك، وأنا نازل على عين يضم السمع هديرها، فوق جبال ينمر العين صديرها، تحت سماء قد رابني منها الغداة سفورها، أمامي قتال يدير كأس المنون فيه مديرها، ورأى أحجار المنتجنيقات التي إذا رأت نفطها حروف البروج محيت سطورها. والله المستعان على ما يصفون».

حمص

مدينة قديمة اسمها القديم سوريا كانت معظمة عند ملوك الروم، كرسي ملك لهم، ولم تزل يشار إليها بينهم بالتعظيم. وهي في وطاعة ممتدة على جانب نهر العاصي في شماليه مبنية بالحجر الأسود الصغير، وبها قلعة لا تمنع، ويستدير بها سور هو أمنع من القلعة، وأسمح من أبراجها في الرفع، ولها من العاصي ماء مرفوع يجري إلى دار نائب السلطنة^(١) بها وبعض مواضع بها. ولها من بر بعلبك أنواع البر، وظاهرها أحسن من باطنها، لاسيما في زمان الربيع، وما تلبس به ظواهرها من حلل الربيع الموسعة بالأزهار ما مد النظر، ترنو بأحداق النرجس وثبور الأقاح، وتتوسط بها البحيرة الصافية الماء الضافية النساء ذات السمك المنقول من الفرات إليها حتى تولد فيها، والطير مبثوث في نواحيها.

وبها إلى جانب مسجدها الجامع قبة العقارب لا يوجد/٢٦٩/ لها نظير يقال: إنها طلس قديم موضوع لدفع العقارب عنها، ولأجل هذا لا يوجد بها شخص عقرب، ولا يحمل عقرب إليها إلا ويموت بها. ومن أخذ تراباً من أرض حمص وخلطه بماء حتى يصير طيناً ثم ألقى ذلك الطينة بعض جدران تلك القبة من داخلها وتركها حتى تسقط بذاتها من غير أن يلقيها أحد، ثم أخذها ووضع شيئاً منها في بيته لا تدخله عقرب، فإن ذر على عقارب منه أحدها بها مثل السكر وربما زاد عليها فقتلها. هذا لا يحتاج يسأل عن تحقيقه، ولا يأبى من هو في غاية المشرق أو المغرب من تصديقه، بل والذي يقال: إن هذا الأمر لا يختص بهذه القبة وإنما هو خاصة في

(١) عن نيابة السلطنة، راجع: الصبح /٤/ ٢١٧.

عامة أرض حمص لا تقرب عقرب ثيابه وأمتعته ما دام عليه من غبار ترابها.

حدثني خلق بهذا، ورأيت بعيني وجرت ما يتعلق بالطين الملصق بالقبة، وإلى هذا وأشار الفاضل في البشري بفتحوها: «وَدَبَ إِلَيْهَا مِنْ عَقَارِبِ الْمُجَانِقِ مَا خَالَفَ عَادَةَ حَمْصَ فِي الْعَقَارِبِ، وَرَمِيتَ بِهَا الْحِجَارَةَ عَلَى الْحِجَارَةِ فَظَهَرَتِ الْعَدَاوَةُ الْمُرْعُوفَةُ بَيْنَ الْأَقْرَبِ».

وَحِمْصَ تَنْلُو الإِسْكَنْدَرِيَّةَ فِيمَا يَعْمَلُ فِيهَا مِنْ الْقَمَاشِ الْفَاقِقِ عَلَى اختلاف الأنواع وَحِسْنِ الْأَوْضَاعِ لَوْلَا قَلَّةُ مَائِهٍ وَفَحْوَلَةُ جَسْمِهِ، مَعَ أَنَّهُ يَبْلُغُ الْغَايَةَ فِي الشَّمْنِ، وَإِنْ لَمْ تَلْحُقْ إِسْكَنْدَرِيَّةَ مَصْرُ فَإِنَّهَا تَفُوقُ صُنْعَاءَ الْيَمَنِ.

حِمَاءُ

مَدِينَةٌ قَدِيمَةٌ وَهِيَ فِي وَهَدَةِ حَمْرَاءِ مَمْتَدَةٌ عَلَيْهَا نَشْزَانٌ عَالِيَّانْ مَطْلَانٌ عَلَيْهَا يَسْمِيَانْ قَرْوَنْ حِمَاءُ. ذَكَرَهَا امْرُؤُ الْقَيْسُ هِيَ وَشِيزِرُ فِي شِعْرِهِ لِمَا مَرَّ بِهِمَا فِي طَرِيقِهِ إِلَى قِصْرٍ^(١).

وَهِيَ مَدِينَةٌ عَلَى ضَفَّةِ الْعَاصِي بِنَاءً مَكِينًا بِالْحِجَارَةِ، وَلَهَا قَلْعَةٌ مَلُونَةُ الْأَحْجَارِ يَسْتَدِيرُ بِهَا سُورٌ، وَبَيْوَاتٌ مَلُوكَهَا وَسَرَوَاتُهَا مَطْلَةٌ عَلَى النَّهْرِ. بَهَا الْقُصُورُ الْمَلُوكِيَّةُ، وَالدُّورُ السَّرِيَّةُ وَالْمَسَاجِدُ وَالْمَدَارِسُ وَالرِّبَطُ وَالزَّوَافَا وَالْأَسْوَاقُ الَّتِي لَا تَعْدُمُ نَوْعًا مِنَ الْأَنْوَاعِ وَلَا صِنْفًا مِنَ الصُّنُوفِ جَلِيلَهَا وَحَقِيرَهَا. وَغَالِبُ مَبَانِيهَا الْعُلِيَّةُ، وَآثَارُ الْخِيرِ الْبَاقِيَّةُ فِيهَا مِنْ فَوَاضِلِ نَعْمٍ / ٢٧٠ / الدُّولُ الْأَيُوبِيَّةُ فِيهَا. وَلَهَا النَّوَاعِيرُ الْمَرْكَبَةُ عَلَى الْعَاصِيِّ، تَدُورُ بِذَاتِهَا وَتَرْفَعُ الْمَاءُ إِلَى الدُّورِ الْسُّلْطَانِيَّةِ وَدُورِ الْأَمْرَاءِ وَالْبَسَاتِينِ وَالْغَيْطَانِ. وَفِي بَسَاتِينِهَا الْأَشْجَارُ وَالْغَرَاسُ الْمَفْنُونُ الْأَفْنَانُ، وَبِهَا بَقَائِيَّ النَّاسُ وَأَنْمُوذِجُ الْكَرَامِ يَخْدُمُهُمُ الْعُلَمَاءُ بِتَصَانِيفِهِمْ وَالشِّعْرَاءُ بِمَدَائِحِهِمْ، وَيَقْصِدُهُمُ الْفَقَرَاءُ وَالسُّؤَالُ وَطَوَافَهُ بْنِي الْآمَالِ، وَيَقْنَنُ أَرْبَابُ الصَّنَاعَةِ فِي دَقَائِقِ الْأَعْمَالِ وَتَقْدِيمُهُمْ إِلَيْهِمُ التَّحَفُّ وَيَخْتَصُّهُمُ التَّجَارُ بِبَدَائِعِ الْطَّرْفِ، وَكَرْمُهُمْ يَرْبِي عَلَى الْأَمْلِ وَيَزِيدُ عَلَى الرِّجَاءِ، حَتَّى إِنْ كُلُّ أَحَدٍ لِيَعْلُقَ مِنْ مَلُوكَهَا لِلْطَّمَاعِيَّةِ بِنَصِيبٍ وَيَفْرَدُهُمْ بِقَصْدٍ، وَهُمْ أَجْوَدُ مِنَ الْغَمَامِ السَّكُوبِ وَأَنْدَى مِنَ الْرِّياحِ نَدِيَّاً عِنْدَ الْهَبُوبِ.

(١) فِي قَوْلِهِ: [مِنَ الطَّوْبِلِ]

تَقْطَعُ أَسْبَابُ الْبَيَانِ وَالْهَوَى عَيْشَيَّةُ جَاؤْنَا حَمَاءَ وَشِيزِرَا
(ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة ١٩٧٩، ص ٦٢).

ثم نعود إلى ذكر حماة فنقول: إنها لم تكن في القديم نبيهة الذكر، وكان الصيت دونها لحمص، ثم تنبه في الدولة الأتابكية ذكرها. فلما جاءت الدولة الصلاحية الناصرية، وانتقلت حماة إلى ملوكبني أیوب مصرواً مدينتها بالأبنية العظيمة والمساكن الفاخرة، وتأمير الأمراء فيها وتجنيد الجناد بها، وعظمواً أسواقها وزادوا فيها القصور والغراس وجلبوا إليها من أرباب الصنائع كل من فاق في فنه، وبقي كل ما لمحاسنها يكبر ويزاد إلى أن أصبحت الآن تامة المحاسن معدودة في أمهات البلاد وأحسان الممالك.

وبها الفواكه الكثيرة والخيرات الغزار. وأسعارها حية وسمتها ملوكيّة، خلا أنها ذات وغر في الصيف لحجب الهواء عن اخترافها، ويعرض لها في الخريف تغير ينسب إلى الوخم، ولا يبقى بها الثلج كما يبقى في بقية الشام مدخراً إلى الصيف ولكنّه يجلب إليها مما جاورها.

وحوال حماة مروج ممتدة وبر فسيح يكثر به مصائد الطير والوحش. وليس بعد دمشق في الشام لها شبيه، ولا يداريّها في لطف ذاتها من مجاورتها قريب ولا بعيد. وليس لها سوى عاملين: عمل «بارين» وعمل «المعرة».

وحلب

مدينة عظيمة قديمة، أم أقاليم وبلاد وأغوار وأنجاد، وبها معظم قلاع الشام ومعاقله وحصونه /٢٧١/ وتشعوره وتسمى «حلب الشهباء» وهي ذات القلعة البدية العلية المنار، وهي - أعني حلب - في وسط وطاعة حمراء ممتدة، والقلعة على تل عليٌ.

كانت قد عظمت أيامبني حمدان، وتأهت بهم شرفاً على كيوان، ثم جاءت الدولة الأتابكية فزادت فخاراً واتخذت لها من بروج السماء منطقة وأسواراً، ولم تزل على هذا يشار إليها بالتعظيم ويأبى أهلها في الفضل عليها لدمشق التسليم، حتى وطئها هولاكو بحوافر خيله، وأقام عليها مفرقاً في أقطار الشام بعوث سراياه وجنده فهدمت أسوارها وخربت حواضرها، فأصبحت يرثى لها الشامت، ويبكي بها اللاهي، وهي على ما توالى عليها من المحن وأطاف بها من نوب الأيام، مصر جامع ومبصر رائع، مبنية بالحجر الأصفر الذي لا يوجد مثله في البلاد، كأنها به رافلة في حلل الديباج مائلة في ذهبيه الأصيل.

وبها الديار العظيمة والجامع ذو المأذنة العليا الفائقة، والممارستان والمساجد والمدارس والربط والخوانق، ووجوه البر الدائم والصدقات الجارية. ويجري إلى داخل المدينة فرع ماء يتشعب في دورها ومساكنها وهو قليل نذر لا يبل صداتها ولا يكفي نغيتها. ولها الصهاريج المملوكة من ماء الأمطار، صافية النطاف باردة الزلال، منه شرب أهلها ويدخل إليها الثلج من بلادها، وليس لأهلها إليه كثير التفاف لبرد هواهم ومائهم وقرب اعتدال صيفهم وشتائهم.

وبها نهر قويق^(١)، وهو نهرها القديم. ونهر الساجور، مستجد فيها ساقه هذا السلطان إليها وحكمه جارياً عليها.

وحلب أوسع الشام بلاداً وأوطأ أكتافها لخيل الأمل مجالاً. ولها المروج الفيح والبر الممتد حاضرة وبادية، ومنازل عرب وأتراك بها جند كثيف وأمم من طوائف العرب والتركمان. وبها البطيخ القليل في الشام مثله، وأنواع من الفواكه أكثرها مجلوبة من بلادها، متصلة بسيس والروم وبلاط ديار بكر / ٢٧٢ / وبرية العراق.

وفي أعمالها وادي الباب وبزاعة، الوادي المشهور، نزل به المنازي الشاعر^(٢)
ووصفه بقوله^(٣): [من الوافر]

وقان الْفَحَّة الرَّمْضَاءِ وَادِ
نَزَلَنَا دَوْحَهُ فَحَنَّا عَلَيْنَا
وَأَرْسَفَنَا عَلَى ظَمَاءِ زُلَّا
تَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةُ الْعَذَارِيِّ
تَصُدُّ الشَّمْسَ أَنَّى وَاجْهَتْهَا
وَأَمَا عَمَلُهَا فَهُوَ كَثِيرٌ مِنْهُ قَلَاعٌ وَحَصُونٌ، وَمِنْهُ مَا لَيْسَ لَهُ قَلْعَةٌ، وَعَدَةُ الْجَمِيعِ
ثَلَاثَةٌ وَعِشْرُونَ عَمَلاً وَهِيَ :

عمل «شيزر» المدينة المشهورة.

(١) عن نهر قويق، انظر: الأعلاق الخطيرة ١/١ - ١٣٨ / ١٣٩ - ١٤٠.

(٢) هو أحمد بن يوسف المنازي المتوفى سنة ٤٣٧ هـ.

ترجمته في: «وفيات الأعيان ١ / ١٤٣ - ١٤٥، العبر ٣ / ١٨٧، الوفي بالوفيات ٨ / ٢٨٥ - ٢٨٨، شذرات الذهب ٣ / ٢٥٩».

(٣) الأبيات في الوفيات ١ / ١٤٣ - ١٤٤ والوفي ٨ / ٢٨٥، وقارن: نفح الطيب ٤ / ٢٨٨ وفيه أنها لحمدة العوفية.

وعمل «الشعر وبكاس» وهي قلعة.

وعمل «القصير» وهي قلعة.

وعمل «دبركوش».

وعمل «حارم».

وعمل «أنطاكية» المدينة العظيمة المشهورة المذكورة.

وعمل «بغراس». وهي قلعة حصينة ثغر الأرمن.

و«الدربيساك» وهي قلعة.

وعمل «حجر شغلان» وهي قلعة.

وعمل «الرونдан» وهي قلعة.

وعمل «عينتاب» وهي مدينة مليحة جليلة.

وعمل مدينة «بهنسى» وهي مدينة جليلة على ما يذكر.

وعمل «كركر» وهي قلعة.

وعمل «الكختا» وهي قلعة.

وعمل «البيرة» وهي القلعة الجليلة المشهورة.

وعمل «قلعة المسلمين» وهي قلعة جليلة.

وعمل «منبع».

وعمل «الحبول».

وعمل «تيزين».

وعمل «عازاز».

وعمل «سرمين» ومعها الفوعة وقنسرين.

وعمل «كفرطاب».

وعمل «الباب وبزاعة» المقدم الذكر^(١).

(١) راجع تفصيل هذه الأعمال في: الصبح / ٤ - ١١٩ - ١٣٩.

أطْرَابُلْس

قد قدمنا القول على أنها بنيت عند الفتح عوض أطربلس العتيقة^(١)، وكانت تسمى قديماً بدار العلم وتداولها ملوكبني عمار وكانوا في الأول لهم القضاء بها. ولما بنيت هذه المدينة الجديدة، كانت وخيمة البقعة ذميمة المسكن، فلما طالت مدة سكناها وكثراً بها الناس والدوااب، وصرفت المياه الأجنبية التي كانت حولها نصائع وعملت بساتين، ونصب بها المنصوب والغراس فخف بقلها وقل / ٢٧٣ / وخمها.

وقد كان بها أستندر الكرجي^(٢) نائباً، وبقي لا يستقل من لوثة وخم، فشكى إلى الحكيم الفاضل أمين الدين سليمان بن داود^(٣) المتطلب وخامتها، وسأله عما يخفف بعض ذلك، فاشار عليه أن يستكثر بها من الجمال وبقية الدواب ففعل ذلك، وأمر به النساء والجند فخف ما بها وكان الأمر كما أشار به الحكيم. وسألت عن تعليل هذا كثيراً من الأطباء فقال: إنه لا يعرفه. وفوق كل ذي علم عليم.

وأما ما قاله لي الصدر بهاء الدين أبو بكر بن غانم^(٤)، رحمه الله، فإنه قال: إن السبب فيما يعرض للأجسام بها أنها لمجاورة البحر وعراة حارة فتكون في أول الليل كذلك فلا يقبل فيها قبل الغطاء، فإذا نام النائم قليل الدثار يفاجئه البرد الشديد في آخر الليل من قبل الجبال المجاورة لها، فيجيء البرد عقب الحر والمسمى مفتحة والنائم في غفلته فيحدث له ما يحدث.

(١) معجم البلدان / ١ - ٣٠٧ و ٣٠٩ - ٥٣٣ ، الروض ، ٣٩٠ ، الأعلاق / ٣ - ١٠٤ - ١١٢ ، التعريف ، ١٨٢
رحلة ابن بطوطه: / ١ - ٥٣٥٢ ، الصبح / ٤ - ١٤٣ - ١٤٢ وفيه: «قال السمعاني: وقد تسقط الألف منها فرقاً بينها وبين طرابلس التي في الغرب، وأنكر ياقوت في «المشتراك» سقوطها وعاب على المتنبي حذفها منها في بعض شعره»، «طرابلس الشام، تاريخها وآثارها في العصر الإسلامي»، مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ١٦ (١٩٦٢ - ٤٣) ، ١٢٧ ، تاريخ وأثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك (طرابلس - دار البلاد ١٩٧٤) ، نفسه: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري - عصر دولة المماليك (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات ١٩٨١) ، ولعبد العزيز محمود عبد الدايم: إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي (رسالة ماجستير بجامعة القاهرة).

(٢) أستندر الكرجي بن طرابلس المملوكي (ت ٧٢١ هـ / ١٣٢١ هـ)
ترجمته في: الوافي بالوفيات ٩ / ٢٤٨ .

(٣) هو سليمان بن داود بن سليمان الدمشقي: كان رئيساً لأطباء دمشق، توفي سنة ٧٣٢ هـ.
ترجمته في: الدرر الكامنة / ٢ - ٢٤٦ ، الوافي ١٥ / ٣٨٠ رقم ٥٢٧ .

(٤) أبو بكر، محمد بن غانم، كاتب السر في طرابلس (ت ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م)
ترجمته في: الوافي بالوفيات ١٠ / ٢٥٣ - ٢٥٨ رقم ٤٧٤٩ .

ولها نهر يحكم على ديارها وطبقها يتخرق الماء في مواضع من أعلى بيوتها التي لا يرقى إليها إلا بالدرج العلية. وحولها جبال شاهقة صحيحة الهواء خفيفة الماء ذوات أشجار وكروم ومرج وأغنام ومعز. ومجتمع بها الجوز والموز وقصب السكر والثلج، ويعمل بها السكر، ويهوى إليها وفود البحر ترسى بها مراكبهم موضع زرع وضرع.

وهي الآن مدينة ممتدة كثيرة الزحام، ذات مارستانين، ومساجد، ومدارس وزوايا، وأسوار جليلة، وحمامات حسان موصوفة وجميع أبنيتها بالحجر والكلس مبيضاً ظاهراً وباطناً، تحيط بها غوطتها ويحيط بغوطتها مواضع مزدرا عاتها بدعة المشترف تحسن بعين من يشرف من هضبة عليها.

وهي مملكة ذات جيش وتركمان. وخاصة لأهل الجبال بها يد في الرمي على القوس الثقيل بالنشاب الخارج.

ولها حصون وقلاع وتجاورها قلاع الدعوة المعروفة، وبقاعاتها مصياف ومن جملتها: «قلعة القدموس». وبها حمام يخرج بها أنواع حيات كثيرة / ٢٧٤ / لا تحصى، حتى إن القاعد في داخلها ليغتسل والحيات طافرة من الأنوب مع الماء، حتى إن الخارج من الحمام ليعرف قماشه من الأرض ليلبسه والحيات تساقط منه، ولكنها لا تؤدي أحداً ولا عرف هذا عنها في وقت من الأوقات.

وبالقرب من هذه القلعة «قلعة الخوابي». حدثني الأديب بدر الدين حسن الغزي أن في سورها - أعني قلعة الخوابي - مكاناً إذا لدغت أفعى أو حية أحداً وحمل لكي يشاهد ذلك الموضع من سور الخوابي بعينه، أو كان الملدوغ عاجزاً فأرسل رسول له في ذلك الموضع فأتى إليه وشاهده بعينه قبل عطبه السليم الملدوغ، نجا السليم وكانت عاقبته إلى سلامه. وهذا من عجائب ما يُحدث به في الآفاق، فما أدرى أحداً لطลسم هناك أو لخاصية في ذلك الحجر. وعلى كل الحالين هذا السر عجيب غريب وأغرب ما فيه هذا يفيد نفع اللديغ برؤية رسوله له إذا لم يره هو بنفسه. فسبحان من له الحكم وإليه مرجع الأمر كله.

«وادي الفوار» قريب حصن الأكراد^(١) غرباً شمال على الطريق السالكة، صفتة

(١) عن حصن الأكراد، راجع: الأعلاق الخطيرة / ٣ / ١١٥-١٢٠، رحلة ابن بطوطه / ١ / ٥٣.

هناك صفة بئر قائمة في الأرض. وفي سفل البئر سرداب ممتد إلى الشمال يفور في كل أسبوع يوماً واحداً لا غير، فتسقى به أرض ومزدرعات، وينزل عليه التركمان ويردوه، وبقية الأيام يابسٌ لا ماء فيه، ويسمع له دوي كالرعد قبل فورانه، والسرداب خلفه البناء. وذكر لي من دخل السرداب أن في نهايته نهرًا كبيراً آخذناً من الغرب إلى الشرق تحت الأرض وله جريان معين وبه موج وريح عاصف ولا يعرف إلى أين يجري ولا من أي جهة يجيء.

وداخل البحر الشامي بطرا بلس عند برج الخصاص بقدر رمية حجر فواره ماء حلوا عذب يطلع على وجه الماء علو ذراع أو أكثر يبين ذلك عند سكون البحر لكل أحد.

وصفد

مدينة^(١) في سفح جبل، صحيحة الهواء، خفيفة الماء، يحمل إليها /٢٧٥/ الماء على الدواب من واديها، وبها عين ماء لو أنها دمع لما بلت الآماق ولا ملأت بلى البكاء به الأحداق. وأكثر ما يدخل أهلها حمامات الوادي بها، ولا ترضى حمامات المدينة لقلة مائها وسوء بنائها.

وبها عسكر من الجن والحلقة وهي على مسافة يومين من دمشق، فحكمها حكمها وكل ما يوجد بدمشق فيها مما هو من صفد وبلادها وما هو مغلوب من دمشق إليها. وهي إلى جانب عكا وقد خربت عكا وبقيت هي مدينة ذلك الساحل وقاعدة ذلك.

ولها قلعة قل أن يوجد لها شبيه، كأنما عليها من ذهب الأصيل تمويه، لا تروم السحب إلا من صَبَّ، ولا يطوف عليها سوى الشفق لمدام عليه من موقع التجوم حبب، ولا تجاوز الأرض إلا وهي إذا رامت السماء لا يعوقها سبب. ولما فتحها الملك الظاهر بيبرس عظم أمرها، وهي تستحق التعظيم وتستوجب الرفع بما رفع الله من بنائها العظيم.

ولقد ذكرها ابن الواسطي الكاتب^(٢) فقال: وقلعة صفد بنتها الفرنج، وكانت

(١) عن صفد، راجع: معجم البلدان /٢، ٣٩٩، الأعلاق الخطيرة /٣ - ١٣٦ - ١٥١، التعريف ، ١٨٢ الصبح /٤ - ١٤٩ - ١٥٠، وله ثلجي الطراونة: مملكة صفد في عهد المماليك (بيروت، دار الآفاق ١٩٨٢).

(٢) ابن الواسطي، هو أبو بكر، محمد بن أحمد بن محمد المقدسي، كان موجوداً في القرن الخامس =

أولاً تلاً عليه قرية عاصرة تحت برج اليتيم بنتها الداوية في سنة خمس وتسعين وأربعين، وقال: وهي قلعة حصينة على جبل تحف به جبال وأودية.

ولها أحد عشر عملاً^(١) وهي:
ولاية «برها».

وولاية «الناصرة»^(٢) منبع الطائفة النصرانية.

وولاية «طبرية»^(٣) ذات البحيرة المشهورة^(٤) والحمدَّة العجيبة^(٥).

وطبرية في سفح جبل مطل على البحيرة، وطول البحيرة اثنا عشر ميلاً وحمتها يقصدها المبرودون للاستشفاء ويقاد أن يسلق بها البيض والجدا. وماؤها حلوي ويخرج منها نهر الأردن. ومن عملها قدس، وكان بها قديماً السواد ويسان ثم خرجا عنها. ولاية «تبين» ومنها هونين. وهما حصنان منيعان بناهما الفرنج بعد الخمسين، وهما من جبل عاملة بين بانياس وصور.

وولاية «عثليث».

/ ٢٧٦ / ولاية «عكا».

وولاية «صور». وشهرتهما تغنى عن ذكرهما.

وولاية «الشاغور».

وولاية «الإقليم».

الهجري ونقل عنه ابن فضل الله في الجزء الأول من المسالك ١ / ٢٥٣.
ألف حوالي عام ٥٠٠هـ كتاباً في فضائل بيت المقدس حققه أ. حسُّون ونشره معهد الدراسات
الأسيوية والإفريقية - بالجامعة العبرية بالقدس سنة ١٩٧٩.

(١) ذكر صاحب «تاريخ صفد» الذي نشره لويس أن لها عشرة أعمال فقط هي: عمل المدينة ويسمي
الزنار، بلاد الشقيق والنحاري ومرج العيون، بلاد تبين، ولاية صور، ولاية عكا، ولاية عثليث...
وبها جبال الكرمل، مرج بنى عامر وبه ولايتان: اللجون وجنين، ولاية الناصرة، ولاية الشاغورين،
ولاية طبرية.

(٢) عن الناصرة، راجع: معجم البلدان ٤ / ٧٢٩، الروض المعطار ٥٧١، الأعلاق الخطيره ٣ / ٢٨٤.

(٣) عن طبرية، راجع: معجم البلدان ٣ / ٥٠٩، الروض ٣٨٥ - ١٢٩ / ٣، الأعلاق ١٢٥ - ١٣٥،
الصبح ٤ / ١٥١.

(٤) راجع عن البحيرة: الأعلاق ٣ / ١٣١ - ١٣٠، الصبح ٤ / ٨٣.

(٥) راجع عنها: الأعلاق ٣ / ٣٠، الصبح ٤ / ٧٣.

ولاية «شقيف أرنون». وعلى الشقيف قلعة حصينة يقاربها شقيف نيرون، وهو حصن جلة مغرة منيعة وما هي من صفد [وأهل هذا العمل رافضة].
ولولاية «جيدين».

فهذه جملة أعمال صفد.

ومما يذكر فيها:

«حيفا» وهي خراب على الساحل.

و«قلعة كوكب» وهي [التي] قال فيها العmad الأصفهاني: راسية راسخة، شماء شامخة.

و«قلعة الطور» وهي مفردة على جبل الطور بناها العادل أبو بكر بن أيوب، ثم غالبه عليها الفرج فهدمها.

والقدس الشريف

الأرض المقدسة^(١) مشتملة على مدينة القدس وما حوله إلى نهر الأردن المسمى بالشريعة، إلى فلسطين المسممة بالرملة طولاً، ومن البحر الشامي إلى مدائن لوط عرضاً. غالبها جبال وأودية، إلا ما هو في جنابتها.

وأما مدينة «القدس الشريف»^(٢) فعلى جبل مدينة مستديرة في وسطها سور

(١) اكتسبت مدينة القدس مكانة خاصة عند المسلمين، فهي أول قبّة ولئن المسلمين وجههم شطرها، وهي ثالث الحرمات التي لا تشد الرحال إلا إليها يغفّوها في ذلك مكة والمدينة. وعندما نشأت الحركة الصليبية في آخر القرن الخامس من الهجرة، قادت مصر والمدن الشامية، خاصة منذ عهد الأيوبيين وفي زمن خلفائهم، حركة تحرير فلسطين والأرض المقدسة من الاحتلال الصليبي.

وواكب هذه الحركة التحريرية ازدهار المؤلفات الخاصة بالتعريف بالأرض المقدسة في فلسطين سواء منها ما جاء على نمط الفضائل، وهو الذي يرجع في أغلبه إلى القرنين الرابع والخامس للهجرة، أو ذو الطابع الطبوغرافي التاريخي الذي ازدهر ابتداء من القرن السابع الهجري، وبلغ ذروته في القرن العاشر الهجري بتاريخ القدس والخليل.

انظر: تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٥٠٦-٥١٦، مقدمة حسُون لكتاب «فضائل البيت المقدس» للواسطي (الجامعة العبرية ١٩٧٩).

(٢) القدس بضم القاف والدال لفظ غالب على مدينة بيت المقدس يفتح الميم وسكون القاف وكسر الدال المهملة. (ن. م ٤ / ١٠٠)، وراجع: معجم البلدان ٤ / ٣٨، الأعلاق ٣ / ١٨٥-٢٢٨، الروض ٣٤٤ و ٥٥٦ - ٥٥٧ والكتب الخاصة بتاريخ بيت المقدس.

المحيط على «الصخرة» والمسجد المسمى الآن «المسجد الأقصى»، وإنما حقيقة المسجد الأقصى جميع ما يحيط به سور المذكور وهو المعروف بالسور السليماني. ويشرف عليها من شرقها جبل أعلى منها يفصل بينهما الوادي المعروف بوادي جهنم ويعرف بالطور، وبه إلى الآن بناء جليل رومي يقال: إن منه كان صعود المسيح، عليه السلام، إلى السماء. وبهذا الوادي عين سلوان وهي تخرج من مكان في الجبل الذي عليه بناء مدينة القدس، ويجري إلى داخل ذلك الجبل أزيد من غلنة نشاب تقديرًا، ثم يخرج من صدع في الجبل إلى ساحة لطيفة في انفراجة في الجبل لا يرى إلا جدولًا جاريًّا، والنبع من داخل الصدع ثم يسرح على وجه الأرض ويرمي إلى الوادي ويُسقي المباقل. وماؤها قليل ليس بالكثير.

ومدينة القدس مبنية بالحجر والكلس، وغالب حجرها أسود. وهي وعرة المسالك. وكان بها آثار / ٢٧٧ / بقلعة قديمة خربة جدت في أيام هذا السلطان سنة عشرة وسبعين مائة على يد بكتمر الجوكنadar^(١)، إذ كان كافل الممالك، ووجودها وعدمها سواء إذ لا نفع بها ولا تحصين لها.

وبالقدس مدارس وخانقاه وربط وزوايا وتراب. وللمسجد الأقصى بها وقوف كثيرة جارية على مصالحة والمؤذنين به وخدمه وجماعة من العلماء والقراء به. وقد تقدم في أول هذا الكتاب على أن في القدس لكل الملل معتقدًّا وإليه توجهها، وأن اليهود تزوره، والنصارى تحجج به قمامه وتزور كنيسة بيت لحم مولد عيسى، عليه السلام.

وقد كانت مدينة القدس، بعد تولي أيدي الفرنج عنها، يغلب عليها الهدم والخراب إلى هذه المدة القريبة، انصرفت الهمم إلى عمارة أماكن بها، وتوفرت الدواعي عليها، ووفر نائب السلطان بالشام الآن الاهتمام بذلك، وساق إليها قناة بسطها إلى بركة، هو مجتمع يرفلها بالماء زمان قلة الماء، وتجري إلى مدينة القدس وتدخل إلى سور المسجد الأقصى وتجري به.

(١) الأمير سيف الدين بكتمر الجوكنadar.

ترجمته في: الوافي بالوفيات / ١٠ - ١٩٨ - ١٩٩ ، الدرر الكامنة / ٢ ، المنهل الصافي / ١ ، ٣٤٨ ، الدليل الشافي / ١ ، ١٩٤ .

وعمر نائب السلطان إلى ما جاور الرباط المنصوري قلاوون مدرسة جليلة وقفها على مدرس وفقهاء ومتفقهة على مذهب الإمام أبي حنيفة، رضي الله عنه. وبأعلاها خانقاہ مشرفة، وبحضارتها مكتب أيتام حصل له به الأجر التام وللناس الرفق العام وأثابه الله وتقبل منه.

وعمر بها حمامين جليلين، كانت أحوج شيء إليه؛ لأنه لم يكن بها حمامات مرضية. وأنشأ بها الأسواق والعمائر، وأصبحت مدينة القدس ضاحية المرأة آهلة الرحاب، وعادت إلى ما كانت إليه من التمدن بعد أن كانت لا تعد من القرى ولا ينדי في جوانبها الثرى.

وأما بلد «الخليل» عليه السلام^(١)، وهي مزرعة إبراهيم، فإنها بلدة غير مسورة على نحو يوم من القدس بالسير المعتاد /٢٧٨/ وهي منطوية بين جبال، لا هي في صحراء ولا في واد، وهي قرية أم عمل، ولولا مكان الخليل، عليه السلام، بها لم تذكر فيما يذكر، وأنما عادت عليها بركات ذلك المثلوي الكريم، فباخت الأقطار بفضلها، وتأهلت الأنصار بأهلها. وأجرى بكتمر الجوكندا، قبل أن يكون كافل الممالك، إليها عين ماء كانت على بعد منها. ولقد شاهدت بها الماء جارياً في طبقة عليه، يصعد إليها من نحو عشرين درجة في العلو. و[قب] الخليل، عليه السلام، بها يحيط به سور هو داخل ذلك المسور، ولا يصح مكان القبر به على التخصيص. وبه سردار الخليل، المنسوب إليه، داخل ذلك سور يوقد عليه قنديل، ولهذا يقول العامة: صاحب السردار والقنديل، وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم.

والكرك

مدينة^(٢) ذات قلعة تعرف بكرك الشوبك، والشوبك أقدم منها. والكرك مدينة

(١) تعرف أيضاً بجبرون، راجع: معجم البلدان /٤١٨، ٤٢٩-٢٣٩، الأعلاق /٣، ٢٤٢-٢٤٣، الصبح /٤-١٠٢-١٠٣، وانظر زيارة المؤلف لها سنة ٧٤٥ في المسالك /١، ٢٧٠-٢٧٣-٢٧٢، وذكرها الروض ١٨٦ تحت جبرون وعلق على ذلك الفلكشندي بأن ما ذكره الحميري يدل على إيدال الحاء بجيم وباء الموحدة بمثابة تحت (الصبح /٤-١٠٢)، بينما اعتبره محقق الروض من أوهام الحميري.

(٢) عن الكرك، راجع: معجم البلدان /٤، ٢٦٢، الأعلاق الخطيره /٣، ٦٩-٧٩، الروض ٢٠٢-٢٠٣، التعريف ١٨٤-٤٩٣، الصبح /٤، ١٥٥-١٥٦، ولمحمد أحمد بخيت: مملكة الكرك في العهد المملوكي (رسالة ماجستير بالجامعة الأمريكية في بيروت ١٩٦٥).

محدثة البناء كانت ديراً يتديره الرهبان، ثم كثروا فكبروا بناه وکثروا ابناه، وأوى إليهم أناس من مجاوريهم من النصارى فقامت لهم به أسواق ودارت لهم به معايش، وأوتوت إليه الفرنج فأدارت أسواره فصار مدينة مشهورة، ثم بنوا حصنها فكانت قلعة مذكورة، فاستولى عليها الفرنج حتى فتح في زمان السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب، رحمة الله تعالى.

وهو في مكان صعب المرتفق لا تلين عقارب صخوره للرُّقَى، قد زاحم الشُّعُرِي العَبُورِ بمناكبه، وعلا في السماء فالقى الهلال ثقل راكيه، وقعد من البر المفتر على نشر عال لا يبلغه النسر إلا محلقاً، ولا يغدو مصباح الصباح إلا على شرفاتها معلقاً. فلهذا اتخذته الملوك لمالها حرزاً ولمالها كنزاً. ولم يزل لأولاد السلاطين في الأمور ملجاً ومن الدهر منجاً.

ومأواها من مطر السماء، وله واد تتفجر عيونه بالماء، وهو /٢٧٩/ بلد خصب وإقبال، ومنبت زرع ومسرح مال.

وفيه يقول القاضي الفاضل: «وكان الكرك شجّى في الحناجر وقدى في المحاجر، ورصد الطرق المسلوكة وصبر في السبل المشكوكة، قد أخذ من الآمال بمخفقها، وقعد بأرصاد العزائم وطرقها، وصار ديناً للدهر في ذلك الفجر، وعذرًا لتارك فريضة الله من الحج، وجلس من هام الإسلام مكان عمamته، وحشم على أنفاس الحجاز فلم يدع نفساً يصعد من تهاجمه؛ فواديء من مائل المعاقل بمجمعها، وظله من نجوم الأسنة بمطلعها، وهو الشوبك سر الله الآخر كبيت الواصف للأسينين: [من المنسرح]

ما مَرَّ يَوْمٌ إِلَّا وَعِنْدَهَا لَحْمُ رِجَالٍ أَوْ يَوْلَعَانَ دَمَّا

وكفى إشارة أنه مكان الغزاة ومقرها، ومستودع الفريضة ومستقرها، مجاورتها لتبوك وغزاتها آخر الغزوات النبوية، وإلى طريقه انتهت الخطى الحميده المحمدية، والعمل على آخر الأعمال الشرعية، والوقوف عنده إشارة لا تخفي على الأفهام اللوذعية. وتحف بهذه القلعة مدينة قد عقل الجبل حبوبها، وأزلق الغراب أن يطا ذروتها، وعصم سوار الوادي الملك معصمها، وحمت غرة الوادي المطل أدھمها، فمنكبها حاطم والله يحطمها، وفمها من ندى الغمام راضع ومهد المنجنيق يفطمها،

وهصروه هصرة؛ فإذا البلد قائم على عروشه بل طريح على نعوشة، قد محيت سلة دنانيره من الدور فما يتعامل بالسكن فيه أهل الغرور، وصار كل مذبح في الكنيسة مربطاً، وكل مصعد من قلّه مهبطاً، وكل مسقط رأس بالحقيقة لرأس مسقطاً.

وفيه يقول أيضاً: «ومما فتحه الله على سلطاناً بلاد الكرك، وما أدرك ما هو، قلعة كانت على الإسلام أية مصرة، بل كانت لكتيبة الإسلام زادها الله شرفاً أية صره. وإن نعم الله لأكثر من أن يقصر لها حديثاً، وأن الله قد أعشى ليل الشرك / ٢٨٠ / نهار الإسلام بطلبه حثيناً^(١)، وما أشك في أن أهل الحرم الشريف مع الرماة رماة بسهام الأسحار ومجاهدون، وبالمجاورة ما خرجوا ولا بعداً عن البيكاد، ﴿وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخَيْرَ﴾^(٢).

والشوبك

المنسوب إليه الكرك مدينة صغيرة^(٣) أكثر في البر دخولاً منها وانحرافاً إلى التغريب في القبلة عنها. ذات أكواب من جداول الأنهر موضوعة، وسرر من مقاعد الأبراج مرفوعة وفاكهه، كما قال الله تعالى في الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة^(٤).

قلت: والشوبك فتح وقت فتوح الكرك بعد أن دام الحصار سنتين على الكرك، وأقطعهما الملك الناصر لأخيه الملك العادل ولم يزالا في يده حتى أعطاهما لولده الملك المعظم عيسى، فصرف إليهما العناية حتى ترك الكرك مدينة تعنى بنفسها وزادها تحصيناً وتحسيناً، وجلب إلى الشوبك غرائب الأشجار حتى تركها تصاهي دمشق في روائحها وتتدفق مائها، وتزيد بطيب هواها.

قلت: وذكر ابن جرير كورة الجبال فقال: وقد أحدثت بها مدينة تسمى الكرك. وقال البلاذري في كتاب «فتح البلدان»: مدينة هذه الكورة العرندل^(٥).

(١) إشارة إلى الآية الكريمة ﴿مَ أَسْتَوَى عَلَى الْمَرْءِينَ يُعْشِي الْأَيَّلَ الْأَنْهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِينًا﴾ [سورة الإعراف: الآية ٥٤].

(٢) سورة الحديد: الآية ١٠.

(٣) عن الشوبك، راجع: معجم البلدان ٣ / ٣٣٢، الأعلام الخطيرة ٣ / ٨٠ - ١٥٦ - ١٥٧.

(٤) إشارة إلى الآية: ﴿وَفَتَكَهَهُ كَثِيرٌ لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْوَعَةٌ﴾ [الواقعة: الآيات ٣٢ - ٣٣].

(٥) في الأصول بالعين الم ungeمعة تصحيف، وفي معجم البلدان ٣ / ٦٧٥ بالعين المهملة، وكذلك ضبطها الدكتور سامي الدهان في الأعلام الخطيرة ٦٧.

وأما أعمال الكرك فهي أربعة:

«زغر» وهي مدينة قديمة حارة متصلة بالبادية وبها نبل جيد^(١)
و«معان» وكانت مدينة قديمة خربت هي وعملها.
و«مؤنة» وهي باقية ووقعتها معروفة، وبها قبر جعفر بن أبي طالب، عليه السلام.
و«الشوبك» وهو محدث كما ذكرنا.

وغزة

وهي مدينة^(٢) بين مصر ودمشق بها دفن هاشم بن عبد مناف، وبها ولد الشافعي، رحمه الله.

وهي مبنية بالحجر والكلس، موثقة البناء على نشر عال على نحو ميل عن البحر الشامي. ذات هواء صحيح، وماء مصرف هاضم لا يستلذ، وشرب أهلها من الآبار، ولها مجمع للمطر يدوم به ماء الشتاء لكنه يستقل. / ٢٨١ / ولها فواكه كثيرة أجلها العنبر والتين. وبها مارستان بناه هذا السلطان، أثابه الله، أحوج ما كانت المارة إليه في مكانه. وبها من المدارس والترب ما ازدانت به.

وهي نيابة جليلة، وبها طائفة من العسكر والعرب والتركمان، وهي آخذة من البر والبحر بجانيها متصلة بيتهبني إسرائيل، في قبليها موضع زرع وماشية، وموضع مجمع حاضرة وبادية، وقرارية أهلها عشرون بعضهم عدو لبعض، لولا مهابة الدولة لما خمدت فيها نار ولا ألم فيها بالجفون غرار. لا يطمئن فيها ساكن ولا يستقر ظاهر ولا باطن.

ومما استجد مضافاً إلى هذه المملكة فهي البلاد الجهانية، ومحل النيابة بها مدينة «إيساس» وهي الآن عامرة آهلة وكذلك «كاروه» و«اسفندكار» ونصف «المصيصة» لأن الذي استقر لل المسلمين هو كل ما هو إلى هذه الجهة الشامية من جهان ونصف إذنه منه ونصفها الآخر قاطع جهان من جهة الأرمن فهو لهم. وأما ما خربه المسلمين وبقي عمله لهم فهو الهارونية وحميص وتل حمدون والنمير، وكل ذلك من دون جهان إلى الشام. وكذلك مما استجد قلعة جعبر وهي شرقي الفرات. وقلعة درنده وهي قاطع بهنسي إلى الروم.
فهذه جملة هذه المملكة.

(١) الصبح ٤/١٥٧ وفيه أنها سميت بزغر بنت لوط عليه السلام.

(٢) راجع: معجم البلدان ٣/٧٩٩، الروض المعطار ٤٢٨، الأعلاق الخطيره ٣/٢٦٤-٢٦٦، الصبح ٤/٩٨-٩٩، وانظر: وفيات الأعيان ١/٦٠-٦٢.

فائدة جليلة تتعلق بذكر غزة:

قالوا: يجوز أن يكون اسمها مأخوذاً من الغز، والغز الشذق وهم غزان، سميت بذلك لأنها في فم الشام مما يلي شقه البحري. أو يكون مأخوذاً من قول العرب: أغزت البقرة فهي مغز إذا عسر حملها، سميت بذلك لعسر السير إليها على الناس والدواب للرمل المتاخم لها. وتعرف في القديم بغزة هاشم، سميت بها شم بن عبد مناف^(١)، جد رسول الله ﷺ، وإليها كانت رحلة قريش - وهي إحدى الرحلتين المذكورة في القرآن^(٢) رحلة الشتاء والصيف، وهي الصيفية منهمما - وكان عليها حصن منيع قد بقيت منه بقية إلى الآن هدمته /٢٨٢ قيس لما جاء إليها بعض قبائل اليمن. وفيها يقول أبو عامر السلمي في قصيده المسممة بالذاهية، وهي ثلاث مائة بيت، يهجو بها اليمن ويذكر مثالبهم من القرآن والأخبار ويذكر مناقب قريش: [من الوافر]
 ونحن الموقدون على حرورى ونحن لحصن غرّة هادمونا
 وفي غزة هاشم بن عبد مناف، وكانوا أربعة أخوة: هاشم هذا وقبره بغزة، ثم مات بعد أخيه عبد شمس وقبره بمكة بالحجون، ثم مات بعدهما أخيهما نوفل بطريق العراق بموضع يقال له سلمان: وقبره هناك، ثم مات بعده أخيه المطلب بأرض اليمن في موضع يقال له: ردمان وقبره هناك. فهؤلاء بنو عبد مناف الأربع.
 تتمة في ذكر سبب سفرهم الموجب لموت من مات منهم غريباً.

اتفقوا على أنه كان لعبد مناف خمسة بنين وهم سادة قريش كلها: هاشم والمطلب ونوفل وعبد شمس وأبو عمرو، وكان يقال لها شم والمطلب البدران، ولنوفل وعبد شمس الأزهران. وأبو عمرو مات صبياً فلم يكن له خبر مع إخوته وكانت العرب وقريش كلها تسمىبني عبد مناف هؤلاء الأربع «قداح النضار» لشرفهم وجمالهم وبهائهم. وكانت قريش كثيرة التجارة، إلا أنهم كانوا لا يخرجون من مكة والحجاز، وكانت الأعاجم تأتיהם بالبضائع فيشترون منهم وبيعون لهم، فأقاموا على ذلك زماناً طويلاً حتى ركب هاشم بن عبد مناف فخرج إلى الشام فنزل بقيصر، ملك الروم، واسم هاشم يومئذ عمرو العلا، فكان يذبح كل يوم شاة، ويصنع جفنة ثريد ويجعل اللحم عليها أوصالاً ويدعو من حوله فياكلون معه. وكان هاشم من أحسن الناس وجهها وأكرمهم أخلاقاً، فقيل لقيصر: ها هنا رجل من قريش

(١) راجع: نهاية الأربع ١٦/٣٨، ولصدر الدين شرف الدين كتاب «هاشم وأمية في الجاهلية» طبع.

(٢) سورة قريش: الآياتان ١ و ٢ «لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف...».

انظر: السيرة البهوية لابن هشام ١٤٣/١، تاريخ الطبرى ١٠٨٩/١.

يَهْشِمُ الْخَبْزَ وَيَصْبِرُ عَلَيْهِ الْمَرْقَ / ٢٨٣ / وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ الْلَّحْمَ، إِنَّمَا كَانَ الْعِجمُ تَجْعَلُ الْمَرْقَ فِي صَحَافِ الْلَّحْمِ فِي الْمَرْقِ وَيَأْتِدُمُونَ بِذَلِكَ، وَلَمْ يَكُونُوا رَأَوْا الشَّرِيدَ فَسَمِيَ هَاشِمٌ «بِهَشِيمِ الشَّرِيدِ». وَفِيهِ يَقُولُ شَاعِرُهُمْ بِمَكَّةَ^(١): [مِنَ الْكَاملِ]

عَمْرُو الْعَلَاءُ هَشَمُ الشَّرِيدَ لِقَوْمِهِ وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْتَنْتَوْنَ عِجَافٍ
وَهُوَ أَوْلُ مَنْ فَعَلَهُ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعِجمِ. فَدُعَاهُ قِيَصَرُ، فَلَمَّا رَأَاهُ وَكَلَمَهُ أَعْجَبَهُ
إِعْجَابًا عَظِيمًا، فَقَالَ لَهُ هَاشِمٌ: أَيْهَا الْمَلِكُ إِنِّي قَوْمًا هُمْ تَجَارُ الْعَرَبِ، فَإِنْ رَأَيْتَ
أَنْ تَكْتُبَ لِي كِتَابًا تَؤْمِنُهُمْ فِيهِ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَمَا مَعَهُمْ مِنْ الْمَالِ وَالْبَضَائِعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ،
فَإِنَّهُمْ يَقْدِمُونَ عَلَيْكَ بِمَا تَسْتَطِرُفُهُ مِنْ أَدَمَ الْحَجَاجَ وَثَمَرَهُ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِمْ وَلَا
يَبْلُغُكُمْ مِنْ طَرْفِ الْبَلَادِ. فَأَمَرَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ كِتَابًا جَامِعًا لِلْعَرَبِ، وَأَخْذَهُ هَاشِمٌ وَسَارَ
فَصَارَ كَلِمًا جَاءَ حَيًّا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ عَلَى طَرِيقِ الشَّامِ أَخْذَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ إِيلَافًا -
وَالْإِيلَافُ أَنْ يَأْمُنُوا عَنْهُمْ وَفِي أَرْضِهِمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ - وَأَخْذَ هَاشِمٌ الْإِيلَافَ
مِنْ جَمِيعِ الْقَبَائِلِ مِمَّنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّامِ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَأَتَاهُمْ بِشَيْءٍ لَمْ يَأْتِهِمْ بِمُثْلِهِ أَحَدٌ
قَطُّ، فَسَرُوا بِذَلِكَ سُرُورًا عَظِيمًا، وَخَرَجُوا بِتِجَارَةٍ عَظِيمَةٍ، وَخَرَجَ هَاشِمٌ مَعَهُمْ
يَحْوِطُهُمْ وَيَؤْمِنُهُمْ وَيَجْمِعُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رُؤْسَاءِ الْعَرَبِ فِي جَمِيعِ طَرِيقِهِمْ حَتَّى وَرَدُّهُمْ
الشَّامَ فَأَحْلَمُهُمْ غَزَّةً. وَمَاتَ هَاشِمٌ فِي ذَلِكَ السَّفَرِ فُدْنَ بَغْزَةً.

ثُمَّ خَرَجَ أَخُوهُ الْمَطْلُوبُ إِلَى الْيَمَنِ فَفَعَلَ كَفَعَلَ هَاشِمٌ بِالشَّامِ وَأَخْذَ مِنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ
عَهْدًا لِمَنْ يَجِيءُ وَيَسْافِرُ إِلَيْهِمْ مِنْ قَرِيشٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَأْخُذُ الْإِيلَافَ مِمَّنْ يَمْرُ بِهِ مِنْ
الْعَرَبِ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ، كَمَا فَعَلَ هَاشِمٌ، وَكَانَ الْمَطْلُوبُ أَكْبَرُ وَلَدُ عَبْدِ مَنَافِ وَكَانَ
يُسَمَّى «الْفَيْضُ» لِكَرْمِهِ. وَهُلُكَ الْمَطْلُوبُ بِرَدْمَانَ مِنْ أَرْضِ الْيَمَنِ فِي سَفَرِهِ سَافِرَهَا.

وَخَرَجَ عَبْدُ شَمْسٍ بْنُ عَبْدِ مَنَافَ إِلَى مَلِكِ الْحَبْشَةِ فَأَخْذَ مِنْهُ كِتَابًا وَعَهْدًا لِمَنْ
يَجِيءُ مِنْ قَرِيشٍ وَرَجَعَ يَأْخُذُهُ / ٢٨٤ / الْإِيلَافَ مِنْ كُلِّ مَنْ مَرَّ بِهِ مِنْ الْعَرَبِ مِنْ بَلَادِ
الْحَبْشَةِ إِلَى أَنْ أَتَى مَكَّةَ - كَمَا فَعَلَ هَاشِمٌ وَالْمَطْلُوبُ - فَمَاتَ بِمَكَّةَ وَقَبْرُهُ بِالْحَجَاجِ،
وَكَانَ أَكْبَرُ مِنْ هَاشِمٌ.

وَخَرَجَ نُوفَلُ بْنُ عَبْدِ مَنَافَ - وَكَانَ أَصْغَرُ إِخْوَتِهِ - إِلَى الْعَرَاقِ فَأَخْذَ عَهْدًا مِنْ
كَسْرَى، ثُمَّ عَادَ يَأْخُذُ الْإِيلَافَ إِلَى أَنْ أَتَى مَكَّةَ. ثُمَّ رَجَعَ تَاجِرًا إِلَى الْعَرَاقِ،
فَمَاتَ بِسَلْمَانَ فِي طَرِيقِ الْعَرَاقِ.

(١) فِي الطَّبقَاتِ الْكَبِيرَى / ١ / ٤٣ نَسَبَ ابْنَ سَعْدَ الْبَيْتِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبَرِيِّ، وَفِي الطَّبَرِىِّ / ١ / ٨٨، أَنَّهُ
لَمْ تَرُدْ بْنَ كَعْبَ الْخَرَاعِيَّ، لَكِنَّ الْعُمَرِيَّ يُرْجِعُ نَسْبَتَهُ إِلَى ابْنِ الزَّبَرِيِّ.
«انْظُرْ: ص ١٢٠ - ١٢١».

تبنيه: البيت المقدم ذكره اختلف فيه، واصح الروايات أنه لابن الزبعرى^(١) - والزبعرى في اللغة القصیر الأذن الكبير شعر الأذنين والرأس وفيه قصر وغلظ - وهو من قصيدة له في هاشم وإخوته على إقواء في البيت الأخير منها وهي: [من الكامل]

يا أيها الرجلُ المحؤُلُ رحلَةٌ هَلَّاً مَرِرْتُ بِآلِ عَبْدِ مَنَافِ
هَبْلَثْكَ أَمَكَ لَوْ مَرِرْتُ بِدَارِهِمْ لَحَمَوكَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ إِقْرَافٍ
المطعمنَ إِذَا الرِّيَاحُ تَنَاهَى وَالظاعنُونَ لِرَحْلَةِ الإِيلَافِ
وَالآخذُونَ الْعَهْدَ مِنْ أَلْفَافِهَا عَمْرُو الْعُلَاءُ هَشْمَ الشَّرِيدَ لِقَوْمِهِ
وَرَجَالُ مَكَةَ مُسْنِتُونَ عِجَافَ

[الرملة]

قلت: وهذه خاتمة في ذكر الرملة^(٢) ، جر الكلام إليها قربها من غزة. يقال: إن الذي أحدثها سليمان بن عبد الملك بن مروان، وإن مدينة فلسطين كانت قبلها له، وإن سليمان وليها من قبل أبيه وهو صبي، وكان معه من قبل أبيه من يدبره ويشير عليه، والاسم في الإمارة لسليمان. وكان إلى جانب كنيسة لد بستان حسن العمارة مليح الموضع كثير الفواكه، وكان سليمان كثيراً ما يستحسنها ويجلس فيه ويستطيعه، فقال يوماً للشيخ الذي يرجع إلى رأيه - وكان يسمى رجاء بن حيوه -: أحب أن تشتري لي هذا البستان حتى أبني فيه من الأبنية ما يصلح لمثلنا.

وكان البستان للقسیس الذي يتولى أمر الكنيسة، فأحضره رجاء /٢٨٥/ وقال له ذلك، فقال: سمعاً وطاعة أحضرني القاضي والشهدود حتى أشهد على نفسي بذلك وأفرغ منه الساعة، فأحضرهم وحضر القسیس فقال لهم جميعاً: ألستم تعلمون أن هذا البستان لي وفي ملكي ويدي لا مانع لي ولا معارض لي فيه؟ فقال له القاضي والشهدود: نعم، يريدون بذلك تصحيح الملك ليصح البيع. فقال لهم: اشهدوا الآن أنني قد حبسته على الكنيسة حبسًا بتاً نعایيلاً [كذا] لا رجعة لي فيه ولا مشنوية فيه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فسقط في أيديهم وتم مكره وعظم ذلك على من حضر، وهم سليمان بقتله فمنعه من ذلك رجاء ورفق به وشاغله وقال له: سر بنا

(١) طبقات فحول الشعراء ٢٣٥-٢٤٣.

(٢) معجم البلدان ٢/٨١٧-٨٢٠، الروض المعطار ٢٦٨، الأعلاق الخطيرية ٣/١٨١-١٨٤، الصبح ٤/٩٩.

تترجح ونبرم أمراً يكون فيه هلاك الكنيسة وغيرها، فركب وأمر سليمان أن لا يتبعهما أحد. فلما فصلا من لد رأيا بيتاً من الشعر مضروباً على ربوة من الأرض - هي الآن موضع المصلى - وكان الحر قد اشتد فقال له رجاء: اعدل بنا إلى هذا البيت لنظر من به ونريح فيه إلى أن يبرد النهار، فقربا من البيت وسلموا على من فيه، وهما لا يريان أحداً، فبرزت لهما امرأة ذات برقع ردت عليهما السلام بأحسن رد ولفظ، وسألتهما النزول عندها بلسان فصيح وعزم صحيح، فنزلتا وسألتهما أن يتخفقا ويستريحَا عندها وأعجبهما فعلها، ونبي سليمان أمر البيستان إعجاباً بكرمهها وعقلها وسألها عن اسمها فقالت: رملة وعرفتهما أن لها بعلاً في ماشية اسمه لد وعرضت عليهما الغداء واللبن وقالت: عندي اللبن الحلو والبن الحامض والخبز الحار والبارد؛ لأن إيثاري يخالف إيثار بعلي في الطعام وأن أعد له ما يؤثر وأعد لنفسي ما أشتله، وقدمت لهما من كل شيء من ذلك وثرت لهما وقد ذهلا من حسنها وجمالها وأدبها وحسن فعلها في جميع ما تحاوله، وأقسمت عليهما ليأكلان وقالت: لو جاز لي أن آكل معكما لفعلت والطعم يدعو الكرام /٢٨٦/ إلى نفسه، فأكلا ونظرا إلى ما حول البيت من الشجر والضياع وغير ذلك، فاستحسنا الموضع وإشرافه على ما حوله من العمارة فقال رجاء لسليمان: لو أمرت ببناء دير هاهنا للنصارى ومسجد للمسلمين، وأمرت في النداء بالناس: من أحب أن يكون في حمى من المسلمين والنصارى فليبن داراً إلى جنب مسجده وديره لصارت مدينة ولتعطلت الكنيسة بالدير، وهذا الموضع أحسن من موضع لد وأعلا ففعل ذلك.

وتباشر الناس من كل أوب من المسلمين والنصارى يخطون المنازل والقصور على قدر هممهم ونعمتهم. وكان سليمان خط مسجداً صغيراً وداراً للإماراة لطيفة، فقال له رجاء: غير هذا، فإنها ستكون مدينة عظيمة فخط جاماً كبيراً وداراً واسعة، وهو هذا الجامع وهذه الدار المعروفة بدار الإمارة.

ثم إن سليمان أراد هدم الكنيسة وأخذ رخامها وعمدها للجامع فراجعه رجاء عند ذلك وبعث إلى عبد الملك يخبره بما فعل القسيس من غدره ومكره، وما فعله من بناء المدينة والجامع. فكتب عبد الملك إلى ملك الروم - وكان الإسلام في ذلك الوقت ظاهراً على الروم - فأنفذ ملك الروم إلى عبد الملك من دله على موضع أخرج منه عمداً لم ير مثلها في الاعتدال والحسن، وأخرج معها رخاماً منشوراً وغير منشور

ما كفى الجامع وفضل عنه، يقال: إنه كان في ضياعة من الداروم - داروم غزة - يقال لها: عمودا. وكان أكثر ما نال النصارى من ذلك أن ملك الروم ألزمهم نقل العمد والرخام من عمودا إلى الجامع. وسميت المدينة الرملة - باسم المرأة المقدم ذكرها - وأحسن سليمان إليها وإليها بعلها^(١).

* * *

(١) في مخطوطة أحد الثالث (صورة سزكين) بعدها بياض بمقدار ٣ أسطر، وما يظهر ان الجزء الرابع يلحق به مباشرة دون إشارة، كما هو ملحوظ في بداية الجزء الرابع.
ولى هنا انتهت نسخة أيا صوفيا، ونسخة باريس، وهي الأصول التي قابلت عليها هذا السفر.

مصادر ومراجع التحقيق

- آثار البلاد وأخبار العباد: لزكريا بن محمد بن محمود القزويني (ت ٦٨٢ هـ) ط دار صادر - بيروت (دت).
- أئمة اليمن: محمد زبارة، محمد بن يحيى بن عبد الله الصناعي (ت نحو ١٣٨٠ هـ) ج ١، ط تغر ١٩٥٢.
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: لشمس الدين، أبي عبد الله محمد بن أحمد البشاري المقدسي (ت نحو ٣٨٠ هـ) نشر: دي خويه ط ليدن ١٩٠٦ م.
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية: لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) ط ٣ - القاهرة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م.
- إحياء التذكرة في النباتات الطبية والمفردات العطارية: د. رمزي مفتاح، ط البابي الحلبي - القاهرة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م.
- أخبار الدول وآثار الأول: للقرمانى، ط على هامش الكامل لابن الأثير ط بولاق ١٢٩٠ هـ.
- أزهار الأفكار في جواهر الأحجار: لشهاب الدين أحمد بن يوسف التيفاشي (ت ٦٥١ هـ) تحقيق وتعليق: محمد يوسف حسن ومحمود بسيونى خفاجى، ط القاهرة ١٩٧٧ م.
- الإسلام والحضارة العربية: لمحمد كرد علي، ط مصر ١٩٣٤ - ١٩٣٦ م.
- أطلس تاريخ الإسلام: د. حسين مؤنس، ط القاهرة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.
- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة: لعز الدين، ابن شداد، أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي (ت ٦٨٤ هـ) تحقيق: دومنيك سورديل وسامي الدهان، ط المعهد الفرنسي - دمشق ١٩٥٣ - ١٩٦٣.

- الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشارين: خير الدين الزركلي (ت) ط٤ / دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٩.
- الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر: موقف الدين، عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي (ت٦٢٩هـ) ط المجلة الجديدة - القاهرة ١٩٣١.
- الألقاب الإسلامية: د. حسن الباشا، ط دار النهضة المصرية - القاهرة ١٩٧٨ م.
- أمراء البيان: محمد كرد علي، ط مصر ١٣٥٥هـ / ١٩٣٧م.
- أنباء الزمن في أخبار اليمن: يحيى بن الحسين بن المنصور بالله القاسم بن محمد، القسم الأول من سنة ٢٨٠-٣٢٢هـ، تحقيق: محمد عبد الله ماضي، ط ليتسج - برلين ١٩٣٦.
- الانتصار لواسطة عقد الأنصار: لابن دقماق، ط بولاق ١٣٠٩، ١٣١٤هـ.
- أنباء الغمر في أبناء العمر: لشهاب الدين، أبي الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ). تحقيق: حسن جبشي، ط المجلس الأعلى - القاهرة ١٩٧٢-١٩٧٩م.
- الأنساب: لعبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت٥٦٢هـ) ط حيدرآباد - الدكن - الهند ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- أهل الذمة في مصر العصور الوسطى: قاسم عبد قاسم، ط دار المعارف - القاهرة ١٩٧٧.
- الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣هـ / ٢٥٠-١٥١٧م، دراسة تاريخية وثائقية: محمد محمد أمين، ط دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٨٠.
- بدائع الزهور في وقائع الدهور: لابن إياس، أبي البركات محمد بن أحمد (ت٩٣٠هـ) ط١ - مط الأميرية - بولاق - القاهرة ١٣١١م، ثم بتحقيق محمد مصطفى - ط القاهرة ١٩٦٠-١٩٧٥م.

- **البداية والنهاية:** للحافظ ابن كثير، عماد الدين، أبي الفدا، إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ١٣٥١ هـ - ١٣٥٨ هـ) ط مصر ١٣٧٤ هـ، ثم ط مكتبة المعارف - بيروت ١٩٦٦ م.
- **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع:** لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ط القاهرة ١٣٤٨ هـ.
- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة:** لجلال الدين السيوطي، ط مصر ١٣٢٦ هـ.
- **بلدان الخلافة الشرقية:** كي لسترانج ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد ط مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
- **بهجة الزمن في تاريخ اليمن:** تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد (ت ١٧٤٤ هـ) نشر: مصطفى حجازي - القاهرة ١٩٦٥ .
- **تاج العروس من جواهر القاموس:** لمحمد مرتضى الزبيدي، ط مصر ١٣٠٦ - ١٣٠٧ هـ.
- **تاريخ آداب اللغة العربية:** جرجي زيدان، ط ٢ - دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٧٨ م.
- **تاريخ الأدب الجغرافي العربي:** اغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكو فسكي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، ط ليننград ١٩٥٧ م. ثم ط القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٦٥ م.
- **تاريخ الإسلام في الهند:** عبد المنعم النمر، ط دار العهد الجديد ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م.
- **تاريخ بخارى:** للغرشخى، ترجمة: د. أحمد الساداتي، ط القاهرة.
- **تاريخ بخارى:** لفامبرى.
- **تاريخ بغداد:** للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) ط دار الكتاب العربي - بيروت.

- تاريخ البيمارستانات في الإسلام: لأحمد عيسى بك، ط ٢/ دار الرائد العربي - بيروت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.
- تاريخ ثغر عدن: لأبي محمد عبد الله الخطيب بامخرمة (ت ٩٤٧ م) تحقيق: أوسكل لوفجرين ط ليدن ١٩٣٦.
- تاريخ حكماء الإسلام: للبيهقي، ط دمشق ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م.
- تاريخ الخلفاء: لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق: محمد محبي الدين عبد الحميد، ط السعادة - مصر ١٩٥٢ م.
- تاريخ خليج الاسكندرية القديم وترعة المحمودية: عمر طوسون، ط الاسكندرية ١٩٤٢.
- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس: لحسين بن محمد الديار بكري، ط مصر ١٢٨٣ هـ.
- تاريخ ابن خباط: لخليفة بن خباط (ت حدود ٢٤٠ هـ) تحقيق: د. أكرم ضياء العمري ط ٢ - بيروت ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م.
- تاريخ دول الإسلام: رزق الله منقريوس، ط مصر ١٩٠٧ م.
- تاريخ دول آل سلجوقي: للأصفهاني، محمد بن محمد بن حامد (ت ٥٩٧ هـ) اختصار: الفتح بن علي بن محمد البنداري (ت ٦٤٣ هـ) ط ٢ دار الأفاق الجديدة - بيروت ١٩٧٨ م.
- تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء: لحمزة بن الحسن الأصفهاني، ط برلين ١٣٤٠ هـ.
- تاريخ الشعراء الحضريين: لعبد الله بن محمد بن حامد السقاف، ط مصر ١٣٥٣ هـ وما بعدها.
- تاريخ الطبرى (تاريخ الرسل والملوك): لمحمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢/ دار المعارف - القاهرة (دت).
- تاريخ العراق بين احتلالين: عباس العزاوى، ط بغداد ١٣٥٣ - ١٣٧٦ هـ.

- **التاريخ الكبير**: للبخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي (ت ٢٥٦هـ) د.م، د.ت.
- **تاريخ فاتح العالم جهانكشاي**: عطا ملك جويني حاكم بغداد، ترجمة: د. محمد التونجي ط حلب ١٩٨٥.
- **تاريخ مدينة دمشق**: للحافظ ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت ٥٧١هـ) مج ٢ (خطط دمشق) تحقيق: صلاح الدين المنجد، ط المجمع العلمي العربي - دمشق ١٩٥٤.
- **تاريخ مدينة دمشق**: للحافظ ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت ٥٧١هـ) ط دار الفكر - بيروت ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- **تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري**: أيمن فؤاد سيد، ط القاهرة ١٩٧٤.
- **تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم**: لأحمد محمد الساداتي ط مكتبة الآداب - القاهرة.
- **تاريخ المماليك البحرينية**: د. علي إبراهيم حسن ط، ٣ - مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٧م.
- **تاريخ اليعقوبي**: لأحمد بن إسحاق ابن واضح اليعقوبي، ط النجف ١٣٥٨هـ.
- **تنمية المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي)**: لابن الوردي زين الدين عمر (ت ٧٤٩هـ) تحقيق: أحمد رفعت البدراوي ط دار المعرفة - بيروت ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م.
- **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**: لمحمد بن عبد الرحيم الغرناطي - المعروف بأبي حامد الأندلسى (ت ٥٦٥هـ).
- **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**: لشمس الدين، أبي عبد الله، محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) ط القاهرة ١٩٥٩ - ١٩٦٢.
- **تحقيق ما للهند من مقوله مقبولة في العقل أو مرذولة**: لأبي الريحان، محمد بن

- أحمد البيروني (ت ٤٤٠ هـ) ط حيدرآباد - الدكن - الهند ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م.
- تذكرة الحفاظ: لأبي عبد الله، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ط دار إحياء التراث العربي - بيروت [دت].
- تذكرة النبي في أيام المنصور وبنيه: لابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر (ت ٧٧٩ هـ) تحقيق: د. محمد محمد أمين، ط الهيئة المصرية - القاهرة ١٩٨٢ م.
- تركستان من الفتح العربي حتى الغزو المغولي: ف. ق. بارتولد، ترجمه عن الروسية: صلاح الدين عثمان هاشم، ط الكويت ١٩٨١.
- التعريفات: لعلي بن محمد الشريفي الجرجاني (ت ٨١٦ هـ) ط مكتبة لبنان - بيرت ١٩٨٥ م.
- التعريف بالمصطلح الشريف: لشهاب الدين، أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ) ط القاهرة ١٣١٢ هـ ثم تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.
- تعريف مدن الهند وتحديدها، الواردة في كتاب فتوح البلدان للبلاذري: د. سيد رضوان علي، بحث منشور في مجلة العصور - الرياض ميج ٢، ج ١ / ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.
- تقويم البلدان: لأبي الفداء، عماد الدين، إسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢ هـ) ط باريس ١٨٤٠ م.
- تكميلة المعاجم العربية: رينهارت دوزي، ترجمة: د. محمد سليم النعيمي، ط دار الرشيد - بغداد ١٩٨١ م.
- تهذيب التهذيب: لأحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) ط حيدرآباد - الدكن ١٣٢٧ هـ.
- الجامع لمفردات الأدوية والأغذية: لابن البيطار، ضياء الدين، أبي محمد، عبد الله بن أحمد الأندلسبي (ت ٦٤٦ هـ) - ط بولاق ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م ثم ط مكتبة المثنى - بغداد (دت).

- الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربع الأولى: موريس لومبارد ترجمة: د. عبد الرحمن حميده. ط دار الفكر - دمشق (دت).
- جغرافية القارات: د. محمد الحمادي ود. علي موسى، ط١ - دار الفكر - دمشق ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- جغرافية مصر في كتاب الممالك والمسالك لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت ٤٨٧هـ) : بحث وتحقيق: عبد الله يوسف الغنيم، ط الكويت ١٩٨٠.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: للحافظ جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، ط دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.
- حضارة الهند: د. غوستاف لوبيون ترجمة: عادل زعير، ط دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م.
- حفريات الفسطاط: علي بك بهجت (ت ١٣٤٢هـ) ترجمة محمود عكوش، ط دار الآثار العربية - القاهرة ١٩٢٧.
- الحكومات العربية في الهند والستاند: لأطهر مبارك بوري، ترجمة: د. عبد العزيز عبد الجليل، ط مؤسسة المذاہة - الرياض ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- حماسة سرای در ایران: ذبیح الله صفا، ط طهران ١٣٦٩.
- الحوادث الجامدة، والتجارب النافعة، في المائة السابعة: المنسوب لابن الفوطی ، ط بغداد ١٣٥١هـ.
- خريدة القصر وجريدة العصر - قسم شعراء الشام: للعماد الأصفهاني الكاتب تحقيق: شكري فيصل، ط المجمع العلمي العربي - دمشق ١٩٥٥ - ١٩٦٨.
- خطط الشام: محمد كرد علي (ت ١٣٧٢هـ) ط بولاق ١٢٧٠هـ، ثم ط دار صادر - بيروت (دت).
- الدارس في تاريخ المدارس: لعبد القادر النعيمي الدمشقي، ط المجمع العلمي العربي - دمشق ١٣٦٧ - ١٣٧٠هـ.

- درر الفوائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المكرمة: لعبد القادر بن محمد الأننصاري الحنفي (ت نحو ٩٧٧هـ) ط السلفية - القاهرة - ١٩٦٥.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: لأحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) تحقيق: محمد سيد جاد الحق ط دار الكتب الحديقة - القاهرة - ١٩٦٦.
- الدليل الشافي على المنهل الصافي: لابن تغري بردي، جمال الدين، أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ) ط مكتبة الخانجي - القاهرة (د. ت) ثم تحقيق: فهيم محمد شلتوت، ط مركز البحث العلمي - مكة ١٩٨٣.
- دولة المماليك الأولى: دراسة وتحقيق: دوروثيا كرافولسكي ط ١ - المركز الإسلامي للبحوث - بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦.
- الديارات: للشافستي تحقيق: كوكيس عواد، ط بغداد ١٩٥١م.
- ديواج المذهب في تراجم أعيان المذهب: لبرهان الدين، إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري (ت ٧٩٩هـ) تحقيق: محمد الأحمدى أبو النور، ط دار التراث - القاهرة ١٩٧٩.
- ديوان امرئ القيس: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار المعارف - مصر ١٩٦٩.
- ديوان مروان تحقيق د. حسين عطوان.
- الذريعة إلى تصانيف الشيعة: لمحمد محسن الشهير بأغا بزرگ الطهراني، ط النجف ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م وما بعدها.
- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك: لتقي الدين، أحمد بن علي المقرizi (ت ٨٤٥هـ) تحقيق: جمال الدين الشيّال، ط القاهرة ١٩٥٥.
- ذيل على ذيل العبر في خبر من غير للذهبي: لأبي المحاسن، محمد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسيني (ت ٧٦٥هـ) تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن البسيوني زغلول، ط ١ - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٥هـ.
- رحلة ابن بطوطة (تحفة النّثار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار): ط القاهرة ١٩٣٩م ثم ط دار بيروت - بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- رحلة ابن جبير: لأبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي (ت ٦١٤ هـ) ط دار صادر - بيروت ١٩٦٤.
- رسالة ابن فضلان في وصفة الرحلة إلى بلاد الترك، والخزر، والروس، والصقالبة: لأحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد (ت ٣٠٩ هـ) تحقيق: د. سامي الدهان، ط المجمع العربي - دمشق ١٩٥٩ ، ثم ط مديرية إحياء التراث - دمشق ١٩٧٧ م.
- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر: للقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢ هـ)، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، ط الرياض ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦.
- الروض المعطار في خبر الأقطار: محمد عبد المنعم الحميري: (ت أوائل القرن الثامن الهجري) تحقيق: إحسان عباس، ط مكتبة لبنان - بيروت ١٩٧٥.
- روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء: لمير خواند، ترجمة: د. أحمد عبد القادر الشاذلي، ط القاهرة ١٩٨٨.
- زبدة الحلب من تاريخ حلب: لابن العديم، كمال الدين، عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جراده العقيلي (ت ٦٦٠ هـ) تحقيق: سامي الدهان، ط المعهد الفرنسي - دمشق ١٩٥٣ - ١٩٦٨.
- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك: غرس الدين، خليل بن شاهين (ت ٨٧٣ هـ) اعتنى بتصحيحه: بول رافيس، ط باريس ١٨٩٤.
- كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك: لغرس الدين، خليل بن شاهين الظاهري (ت ٨٧٣ هـ) ط باريس ١٨٩٤ م.
- سفرنامة: ناصر خسرو، ترجمة: يحيى الخشاب، ط دار الكتب الجديد - بيروت ١٩٧٢.
- السلوك لمعرفة دول الملوك: لتقي الدين، أحمد بن علي المقرizi (ت ٨٤٥ هـ) تحقيق: محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، ط القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٧٣.
- السبط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغرّ باليمن: لبدر الدين محمد بن حاتم

اليامي الهمداني (ت بعد ٧٠٢هـ) تحقيق: ج. ركس سمت، ط لندن - بيروت ١٩٧٤.

• سبط اللآلبي: يحتوي على «اللآلبي في شرح أمالى القالى» لأبي عبيد البكري، و«شرح ذيل الأمالى وصلة ذيله والتتبیه على الأغلاط المعدودة فيهما» و«فهارس سبط اللآلبي» تنسیق وتعليق: عبد العزیز المیمنی، ط مصر ١٣٥٤هـ / ١٩٣٦م.

• سیر أعلام النبلاء: لأبي عبد الله، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) تحقيق: عدة محققين، ط ١ - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٣م.

• السیرة النبویة: ابن هشام (ت ٢١٨هـ)، تحقيق: مصطفی السقا، ابراهیم الأیاری، عبد الحفیظ شلبی، ط مصر ١٩٣٦م، ثم ١٩٥٥م.

• شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لأبي الفلاح، عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) نشر: حسام الدين القدسی، ط القاهرة ١٣٥٠هـ / ١٣٥١هـ، ثم ط المکتب التجاری - بيروت [دت].

• الشرفناہ: في تاريخ الدول والإمارات الكردية: أله بالفارسية: شرف خان البدلیسی ترجمة: ملا جمیل بندي روزیانی، ط بغداد ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م.

• صبح الأعشى في صناعة الإنسا: لأبي العباس، أحمد بن علي الفزاری القلقشندي (ت ٨٢١هـ) ط الأمیریة - القاهرة (دت) ثم ط دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩١٢-١٩٣٨.

• صفة جزيرة العرب: لسان الیمن، الحسن بن أحمد (ت ٣٦٠هـ) تحقيق: محمد بن علي الأکوع، ط دار الیمامۃ - بيروت ١٩٧٤.

• صورة الأرض: لأبي القاسم ابن حوقل النصيبي (ت بعد ٣٦٧هـ) تحقيق: كریمز، ط لیدن ١٩٦٧) ثم ط دار مکتبة الحياة - بيروت ١٩٧٩م.

• الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: لشمس الدين، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) ط مکتبة القدسی ١٣٥٣-١٣٥٥هـ.

- الطالع السعيد الجامع أسماء النجاء الصعيد: لكمال الدين، أبو الفضل جعفر بن ثعلب (ت ٧٤٨هـ) تحقيق: سعد محمد حسن ط الدار المصرية - القاهرة ١٩٦٦.
- طبقات الشافعية الكبرى: لتاج الدين، أبو نصر، عبد الوهاب بن علي السبكي (ت ٧٧١هـ) تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو و محمود محمد الطناحي، ط البابي الحلبي - القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٧٦.
- طبقات فقهاء اليمن: لعمر بن علي بن سمرة الجعدي (ت بعد ٥٨٦هـ) تحقيق: فؤاد سيد، ط السنة المحمدية - القاهرة ١٩٥٧.
- الطبقات الكبرى: لمحمد بن سعد بن منيع الهاشمي مولاهم، أبو عبد الله البصري (ت ٢٣٠هـ) ط دار إحياء التراث (دت).
- الطبقات الكبرى (الواقع الأنوار في طبقات الأخبار): لعبد الوهاب الشعرااني ط مصر ١٢٧٦هـ.
- طبقات النحوين واللغويين: للزبيدي، ط مصر ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م.
- العبر في خبر من غبر: لشمس الدين، محمد بن أحمد بن قايماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ) تحقيق: صلاح الدين المنجد و فؤاد سيد، ط الكويت ١٩٦٠ - ١٩٦٦.
- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات: لزكريا بن محمد بن محمود الفرزوني (ت ٦٨٢هـ) تحقيق: فاروق سعد، ط ٢ - دار الآفاق الجديدة - بيروت ١٩٧٧.
- المسجد المسبيوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك: لإسماعيل بن العباس بن رسول المعروف بالأشرف الغساني (ت ٨٠٣هـ) تحقيق: شاكر محمود عبد المنعم، ط دار التراث الإسلامي - بيروت، دار البيان - بغداد ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥.
- العصر المملوكي في مصر والشام: د. سعيد عبد الفتاح عاشور، ط ٢ - دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٧٦م.

- عطا ملك جويني وكتابه جهانگشاپی : د. محمد السباعي رسالة دكتوراه - جامعة القاهرة ط إيران.
- العقد الشمین في تاريخ البلد الأمین: لتقی الدین، محمد بن أحمد الفاسی المکی (ت ٨٣٢ھـ) تحقیق: فؤاد سید ط القاهرة ١٩٥٩-١٩٦٨.
- العقد الغرید: لأحمد بن محمد بن عبد ربه (ت ٣٢٨ھـ) تحقیق: د. محمد مفید قمیحة، ط دار الكتب العلمیة - بیروت ١٤٠٨ھـ / ١٩٨٧م.
- العقود اللؤلؤیة في تاريخ الدولة الرسولیة: لموفق الدین، أبي الحسن علي بن أبي بکر الخزرجی (ت سنۃ ٨١٢ھـ) نشر: محمد بسیونی عسل، ط القاهرة ١٩١١.
- العلاقات السياسية بين دولة الخطأ والدول الإسلامية المعاصرة: د. حامد غنیم أبو سعید، بحث منشور في مجلة كلية العلوم الاجتماعية - الرياض ع ١٤٠١ / ٥ هـ / ١٩٨١م.
- عيون الأخبار: لابن قتيبة، أبو محمد، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ھـ) ط دار الكتب المصرية - القاهرة (دت).
- الفتح الوھی على تاريخ أبي نصر العتبی: للمنیبی، ط مصر ١٢٨٦ھـ.
- فتوحات هولاکو خان في میزان النقد التاریخي : د. أحمد عبد القادر الشاذلي ، ط القاهرة ١٩٩٠.
- فتوح البلدان: لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩ھـ) نشر: صلاح الدين المنجد ط القاهرة ١٩٥٦م.
- فتوح مصر وأخبارها: لأبي القاسم، عبد الرحمن بن عبد الله القرشي (ت ٢٥٧ھـ) نشر: تشارلز توري ، ط لیدن ١٩٢٠.
- الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: لمحمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي ، ط مصر ١٣٤٠ھـ.
- فرهنگ أدیبات فارسی: زهراء خانلری کیا ، ط ١٣٦٦.

- فرهنك عميد.
- الفن العربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري: محمود نديم، ط القاهرة ١٩٨٣.
- الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية: حسن البasha، ط دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦٥ - ١٩٦٦.
- الفنون الجميلة في العصور الإسلامية: لعمر رضا كحالة (ت) ط المطبعة التعاونية - دمشق ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م.
- الفوائد البهية في تراجم الحنفية: محمد بن عبد الحي اللكنوی (ت ١٣٠٤ هـ) ط القاهرة ١٣٢٤ هـ.
- فوات الوفيات: لمحمد بن شاكر الكتبى (ت ٧٦٤ هـ) تحقيق: د. إحسان عباس، ط دار الثقافة - بيروت [دت]، وطبعه دار صادر - بيروت ١٩٧٤.
- الفهرس التمهيدي للمخطوطات المصورة: الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية استتنسل، مصر ١٩٤٨.
- فهرس الكتب العربية المحفوظة بالكتبة العامة: (دار الكتب المصرية) ط مصر ١٣٤٢ - ١٣٦١ هـ.
- كتاب الفهرست: النديم، أبي الفرج، محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بالوراق (ت ٣٨٠ هـ) تحقيق: رضا تجدد.
- القاموس الجغرافي للبلاد المصرية: محمد بن عثمان رمزي (ت ١٣٦٤ هـ) ط دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٦٨.
- القاموس المحيط: لمجد الدين، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧ هـ) ط المؤسسة العربية - بيروت (دت).
- قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين: دراسة وتحقيق: دوروثيا كرافولسكي ط ١ - المركز الإسلامي للبحوث - بيروت ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م.
- قوانين الدواوين: لابن مماتي، أبي المكارم، أسعد بن مهذب الخطير أبي سعيد بن مينا (ت ٦٠٦ هـ) تحقيق: عزيز سوريان عطية، ط الجمعية الملكية الزراعية - القاهرة ١٩٤٣.

- قرآن العيون في أخبار اليمن الميمون: لوجيه الدين عبد الرحمن بن علي الشيباني (ت ٩٤٤هـ) نشر: محمد بن علي الأكوع ط القاهرة ١٩٧٧.
- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، عز الدين، أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت ٦٣٠هـ) ط دار صادر - دار بيروت ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.
- كتاب السلاح: لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) ط - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- كشف الأسرار العلمية بدار الغرب المصرية: ابن برة، منصور الذهبي الكاملي (كان معاصرًا للسلطان الكامل الأيوبي) تحقيق: عبد الرحمن فهمي، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة ١٩٦٥.
- كشف الظنون عن أسمى الكتب والفنون: لحاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي، الشهير بملأ كاتب الجلبي (ت ١٠٦٧هـ) ط دار الفكر - دمشق ١٤٠٢هـ.
- كنز الدرر وجامع الغرر (ج٩ المسمى: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر) لأبي بكر، عبد الله بن أبيك الدواداري (ت بعد ٧٣٦هـ) تحقيق: هانس روبرت رويمير، ط المعهد الألماني للآثار - القاهرة ١٩٦٠.
- اللباب في تهذيب الأنساب: ابن الأثير، عز الدين، أبي الحسن، علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت ٦٣٠هـ) ط بغداد - مكتبة المثنى (د.ت).
- لسان العرب: ابن منظور، جمال الدين، محمد بن مكرم الانصاري (ت ٧١١هـ) ط بولاق - القاهرة.
- لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني ط حيدرآباد - الدكن ١٣٣١هـ.
- مباحث الفكر ومناهج العبر، صفحات من جغرافية مصر: للوطواط، جمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتببي (ت ٧١٨هـ) نشر: عبد العال عبد المنعم الشامي، ط الكويت ١٩٨١.

- **المهير**: لمحمد بن حبيب، ط حيدرآباد - الدكن ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ م.
- **محيط المحيط**: المعلم بطرس البستاني ط مكتبة لبنان - بيروت ١٩٧٧ م.
- **مختر الصاح**: لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت بعد ١٦٦٦ هـ) ط مكتبة لبنان - بيروت ١٩٨٦ م.
- **مختصر أخبار الخلفاء**: لابن الساعي، ط مصر ١٣٠٩ هـ.
- **مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي**: لسيد أمير علي (بالإنكليزية) نقله إلى العربية: رياض رافت، ط مصر ١٩٣٨.
- **المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفداء)**: لعماد الدين، إسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢ هـ) ط مصر ١٣٢٥ هـ، ثم ط دار المعرفة - بيروت (د.ت.).
- **المخصص**: لابن سيده، أبي الحسن علي بن إسماعيل النحوى اللغوى (ت ٤٥٨ هـ) ط دار الفكر - بيروت (د.ت.).
- **مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين**: صلاح الدين المنجد، ط دار الكتاب الجديد - بيروت ١٩٦٧.
- **مرأة الجنان، وعبرة اليقظان، في معرفة حوادث الزمان**: لعفيف الدين، عبد الله بن أسعد اليافعي (ت ٧٦٨ هـ) ط حيدرآباد - الدكن ١٣٣٧ - ١٣٣٩ هـ ثم تحقيق: عبد الله الجبورى، ط مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م.
- **مرأة الزمان في تاريخ الأعيان**: لشمس الدين، أبي المظفر، يوسف بن قزاؤغلى، سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ) مج ٨ ط حيدرآباد - الدكن ١٣٣٧ - ١٣٣٩ هـ.
- **مراصد الاطلاع**.
- **مروج الذهب ومعادن الجوهر**: لأبي الحسن، علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) تحقيق: شارل بلا، ط الجامعة اللبنانية - بيروت ١٩٧٠ - ١٩٧٩، ثم دار الأندلس (د.ت).
- **مساجد مصر وأولياؤها الصالحون**: سعاد ماهر، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة ١٩٧١ - ١٩٨٠.

- مسالك الأ بصار في ممالك الأ بصار: لشهاب الدين، أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ) ج ١ تحقيق: أحمد زكي باشا، ط دار الكتب المصرية ١٩٢٤.
- مسالك الأ بصار في ممالك الأقطار، الباب الأول، في مملكة الهند والسندي: لأحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ) دراسة وتحقيق: د. محمد سالم بن شديد العوفي، ط المدنى - القاهرة ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.
- المسالك والممالك: للإصطخري، أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد الفارسي (ت في النصف الأول من القرن الرابع الهجري) تحقيق: محمد جابر عبد العال الحيني، ط دار القلم - القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.
- المسالك والممالك: لابن خرداذبة، عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ) ط مكتبة المثنى - بغداد (د.ت).
- مستفاد الرحلة والاغتراب: للقاسم بن يوسف السبتي التجيبي (ت ٧٣٠هـ) تحقيق وإعداد: عبد الحفيظ منصور، ط الدار العربية - تونس ١٩٧٥م.
- مسند أحمد: أحمد بن حنبل، ط الميمونة - مصر ١٣١٣هـ.
- مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي: أيمن فؤاد سيد، مط المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية - القاهرة ١٩٧٤م.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: للرافعي: لأحمد بن محمد بن علي المقرى الفيومي (ت ٧٧٠هـ) ط مصطفى البابى الحلبي (د.ت).
- مطالع البدور في منازل السرور: علي بن عبد الله النبهاني الغزولي الدمشقي (ت ٨١٥هـ) ط مصر ١٢٩٩ - ١٣٠٠هـ.
- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: لعبد الرحيم بن أحمد العباسي، ط مصر ١٣٦٧هـ.
- معجم الأدباء: لياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ) نشر: أحمد فريد رفاعي ط القاهرة ١٩٣٦.

- معجم الألفاظ العالمية: أنيس فريحة، ط بيروت ١٩٧٣.
- معجم الأنساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي: للمستشرق زامباور، إخراج: زكي محمد حسن وأخرين، ط مصر ١٩٥١.
- معجم البلدان: لشهاب الدين، أبي عبد الله، ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ) نشر: وستنفلد ط ليبيتسج ١٨٦٦ - ١٨٧٠م، ثم ط دار صادر - بيروت ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.
- معجم الشعراء: من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م: كامل سلمان الجبوري، ط دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: لعبد الله بن عبد العزيز البكري (ت ٤٨٧هـ) تحقيق: مصطفى السقا، ط ٣ / عالم الكتب - بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- معجم المؤلفين (ترجم مصنفي الكتب العربية): لعمر رضا كحالة، ط مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي - بيروت (د.ت).
- معيد النعم ومبيد النقم: لثاج الدين، أبي نصر، عبد الوهاب بن علي السكري (ت ٧٧١هـ) تحقيق: محمد علي النجار وأبو زيد شلبي ومحمد أبو العيون، ط الخانجي - القاهرة ١٩٤٨.
- المغرب في حل المغرب: لأبي سعيد، علي بن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ) ج ١ من القسم الخاص بمصر، نشر وتحقيق: زكي محمد حسن وشوقى ضيف وسيدة كاشف، ط جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣.
- مفاتيح العلوم: لمحمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي (ت ٣٨٧هـ) تقديم وإعداد: د. عبد اللطيف محمد العبد، ط دار النهضة المصرية - القاهرة (د.ت).
- مفتاح السعادة، ومصباح السيادة في موضوعات العلوم: لأحمد بن مصطفى طاش كبرى زاده، تحقيق: كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، ط دار الكتب الحديثة - القاهرة (د.ت).

- مفرج الكروب في أخباربني أيوب: لابن واصل، جمال الدين، أبو عبد الله محمد سالم بن نصر الله (ت ١٩٧هـ) تحقيق: جمال الدين الشيالي، ط القاهرة ١٩٥٣-١٩٦٠، وتحقيق: حسنين محمد ربيع، ط القاهرة ١٩٧٢-١٩٧٧.
- المقاصد النحوية: لمحمود بن أحمد العيني ط على هامش خزانة الأدب للبغدادي ط مصر ١٢٩٩هـ.
- مقدمة ابن خلدون: لابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) تحقيق: د. علي وافي ط ٣، دار النهضة المصرية - القاهرة (د.ت).
- المقفى الكبير: لتقي الدين، أحمد بن علي المقرizi (ت ٨٤٥هـ)، ط دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- الملابس العربية الإسلامية في العباسى من المصادر التاريخية والأثرية: د. صلاح حسين العبيدي، ط دار الرشيد - بغداد ١٩٨٠م.
- الملابس المملوكية: أي. جي. ماير ترجمة: صالح الشيتى، ط الهيئة المصرية - القاهرة (د.ت).
- الملل والنحل: لأبي الفتح، محمد بن عبد الكريم بن أبي أحمد الشهري (ت ٥٤٨هـ) ط دار المعرفة بيروت ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- ممالك مصر والشام والججاز واليمن (مسالك الأ بصار في ممالك الأ بصار): تحقيق: أيمن فؤاد سيد، ط المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية - القاهرة ١٩٨٥.
- مملكة صفد في عهد المماليك: طه ثلجي الطراونة، ط دار الآفاق - بيروت ١٩٨٢.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: لأبي الفرج ابن الجوزي، ط حيدرآباد - الدكن ١٣٥٧هـ، ١٣٥٨.
- من ذيول العبر: لشمس الدين، محمد بن أحمد بن قايماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ) تحقيق: محمد رشاد عبد المطلب، ط - الكويت ١٩٧٠.

- منشور بمنع إقطاع من عصر السلطان الغوري: محمد محمد أمين، مجلة حوليات إسلامية ١٩ An.Isl ١٩ (١٩٨٣) ص ١ - ٢٣.
- المنهل الصافي والمستوفي بعد الواقفي: ابن تغري بردي، جمال الدين، أبي المحاسن، يوسف (ت ٨٧٤هـ)، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد محمد أمين ط دار الكتب المصرية ١٩٥٥م. ثم ط الهيئة المصرية - القاهرة ١٩٨٤م، مورد اللطافة: ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) ط كمبرج ١٧٩٢م.
- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السندي والبنجاب (باكستان الحالية) في عهد العرب: د. عبد الله مبشر الطرازي ط - ١ عالم المعرفة - جدة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- الموسوعة العربية الميسرة: إشراف: محمد شفيق غربال، صورة عن طبعة دار الشعب ومؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ١٩٦٥م.
- موسوعة الفرق الإسلامية: د. محمد جواد مشكور، ترجمة: علي هاشم، ط مجمع البحوث الإسلامية، بيروت ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- مؤيد الدين ابن العلقمي: محمد الشيخ حسين الساعدي. ط النجف.
- النبات: لأبي حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ) تحقيق: برنهاور دلفين، ط - دار القلم - بيروت ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي، جمال الدين، أبو المحاسن، يوسف (ت ٨٧٤هـ) ط - دار الكتب - مصر ١٩٢٩-١٩٧٢م.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء: عبد الرحمن بن محمد الأنباري، ط - مصر ١٢٩٤هـ.
- نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر: عبد الحي بن فخر الدين الحسني، ط - حيدرآباد - الدكن ١٣٥٠هـ.
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (وصف الهند وما يجاورها من بلاد): لladrisi، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (ت ٥٦٠هـ) جمع وتصحيح السيد مقبول

- أحمد، ط - الجامعة الإسلامية على كره - الهند ١٩٥٤ م
- النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى: إبراهيم علي طرخان، ط - دار الكاتب العربي - القاهرة ١٩٦٨ .
 - نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر: عبد المنعم ماجد، ط - مكتبة الأنجلو - القاهرة ١٩٦٧ و ١٩٧٩ .
 - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: للمقربي، ط مصر ١٣٠٢ هـ.
 - كتاب النقود الإسلامية (شذور العقود في ذكر النقود): لتنقى الدين، أبي العباس، أحمد بن علي (ت ١٣٤٥ هـ) تحقيق: السيد محمد بحر العلوم، ط - المكتبة الحيدرية - النجف ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م
 - نهاية الأرب في فنون الأدب: لشهاب الدين، أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ١٣٣٣ هـ) ط - دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٢٣ - ١٩٨٤ م.
 - نهاية الرتبة في طلب الحسبة: لعبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشافعي الشيزري (ت نحو ١٥٨٩ هـ) تحقيق ومراجعة: السيد الباز العربي، ط لجنة التأليف - القاهرة ١٩٤٦ .
 - هدية العارفين، أسماء المؤلفين، وأثار المصنفين من كشف الظنون: لإسماعيل باشا البغدادي (ت ١٣٣٩ هـ) ط - دار الفكر - دمشق ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.
 - الوافي بالوفيات: لصلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي (ت ١٣٦٤ هـ) تحقيق: مجموعة من العلماء استامبول - بيروت - النشرات الإسلامية ١٩٤٩ - ١٩٨٣ .
 - ورقات عن الحضارة العربية بإفريقيا التونسية: حسن حسني باشا عبد الوهاب (ت ١٣٨٨ هـ) ط تونس ١٩٦٦ .
 - وصف دمشق في مسالك الأ بصار للعمري: صلاح الدين المنجد، مجلة معهد المخطوطات العربية ع ٣ / ١٩٥٧ ص ١١٣ - ١٢٦ .
 - وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان: لشمس الدين، أبي العباس أحمد بن محمد بن

خلكان (ت ٦٨١ هـ) تحقيق: إحسان عباس، ط دار الثقافة - بيروت ١٩٧٩.

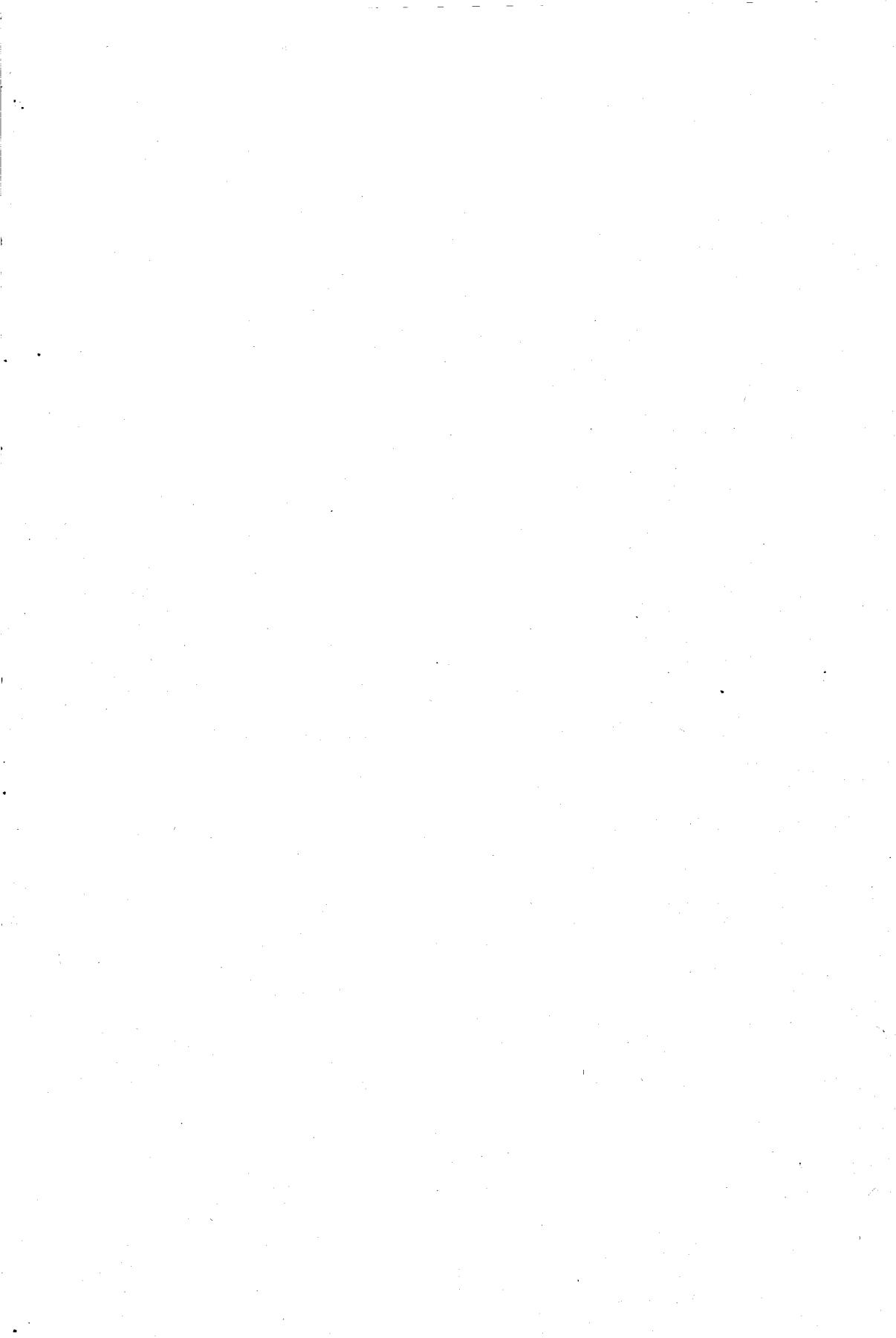
م ١٩٧٢

• الوفيات: لتقى الدين، أبو المعالي محمد بن رافع السلامي (ت ٧٧٤ هـ) تحقيق:
صالح مهدي عباس، ط - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٢ هـ / م ١٩٨٢.

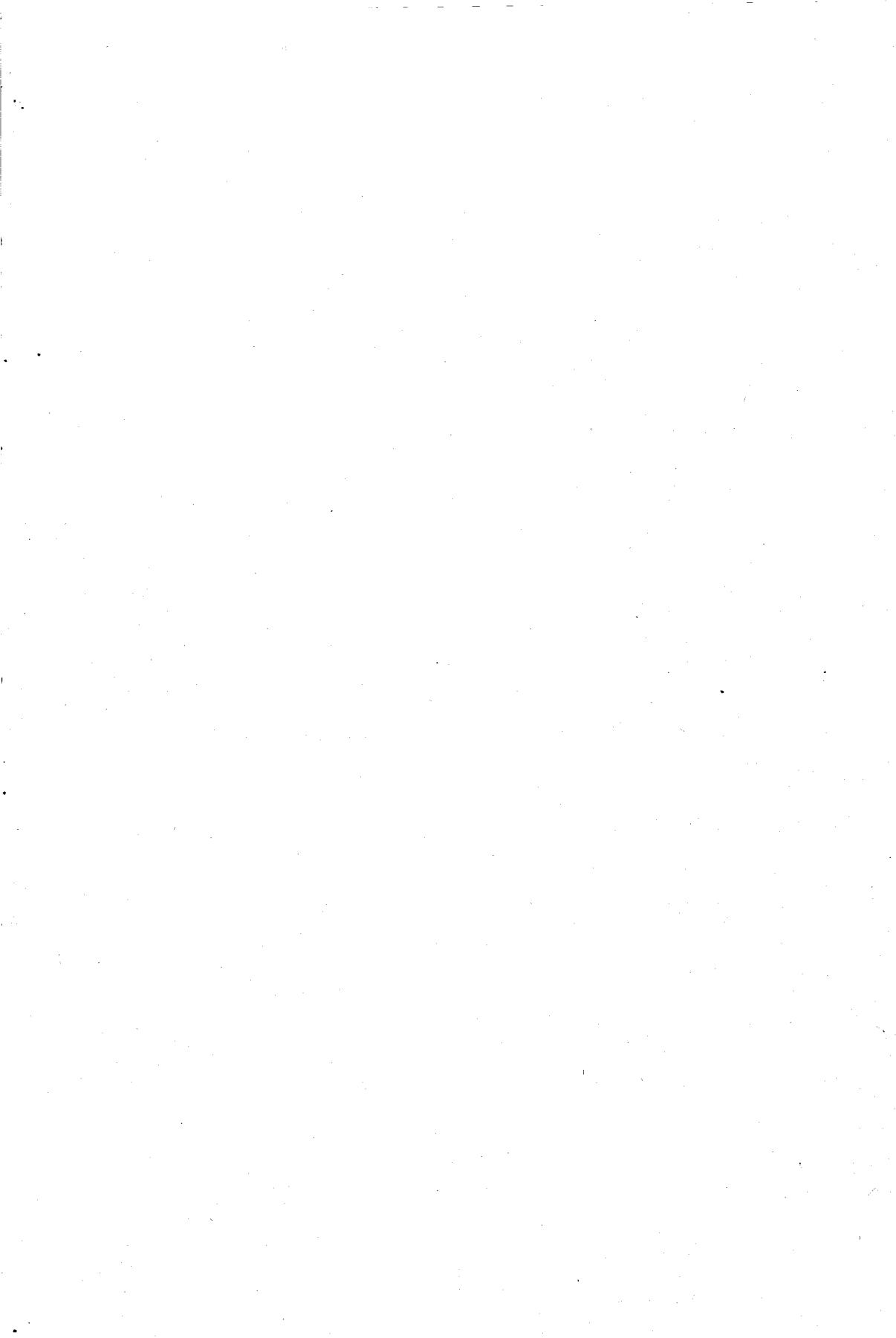
• الولاة والقضاة: لمحمد بن يوسف الكندي، ط - بيروت ١٩٠٨.

• يتيمة الدهر في محسن أهل العصر: لأبي منصور عبد الملك الشعالي
النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ) تحقيق: مفید محمد قمیحة، ط - دار الكتب العلمية
- بيروت (د ت)

* * *



فهرس المحتويات



فهرس المحتويات

٣	مقدمة التحقيق
٧	صور المخطوط
١٩	مسالك الأنصار في ممالك الأنصار بن فضل الله العمري
٢١	النوع الثاني : في ذكر ممالك الإسلام جملة
٣١	الباب الأول : في مملكة الهند والستاند
٤٩	الباب الثاني : في ممالك بيت جنکر خان
٩١	الفصل الأول : في الكلام عليهم جملياً
٩٣	[جنکر خان]
١١١	الفصل الثاني : في مملكة القان الكبير صاحب التخت ، وهو صاحب الصين
١١٧	الفصل الثالث : في التورانيين
١١٧	الفرقة الأولى : في ما وراء النهر وما قبلها وما بعدها من ممالك تركستان
١١٩	قاعدة خوارزم
١٢٠	أما أكباد مدنه المشهورة
١٢٩	أما بخارى
١٤٣	الفرقة الثانية : في خوارزم والقبيحاق
١٤٧	«عين جالوت»
١٥٩	الفصل الرابع : في مملكة الإيرانيين
١٨٩	الباب الثالث : في مملكة الجيل
١٩٢	الفصل الأول : في بومن
١٩٣	الفصل الثاني : في صاحب توليم
١٩٣	الفصل الثالث : في كسر

الفصل الرابع: في رسفت	١٩٣
الباب الرابع: في مملكة الجبال	١٩٥
الفصل الأول: في الأكراد	١٩٧
الفصل الثاني: في اللر	٢٠٧
الفصل الثالث: في الشول	٢٠٩
الفصل الرابع: في شنكارة	٢٠٩
الباب الخامس: في مملكة الأتراك بالروم	٢١٣
الفصل الأول: في مملكة كرميان	٢٤٣
الفصل الثاني: في مملكة طغلو	٢٤٦
الفصل الثالث: في مملكة توازا	٢٤٧
الفصل الرابع: في مملكة عميدلي	٢٤٧
الفصل الخامس: في مملكة كصطمونية	٢٤٨
الفصل السادس: في مملكة قاويا	٢٤٩
الفصل السابع: في مملكة بُرشا	٢٤٩
الفصل الثامن: في مملكة أكيرا	٢٥٠
الفصل التاسع: في مملكة مرمرا	٢٥١
الفصل العاشر: في مملكة نيف	٢٥١
الفصل الحادي عشر: في مملكة مغنيسيا	٢٥٢
الفصل الثاني عشر: في مملكة برركي	٢٥٢
الفصل الثالث عشر: في مملكة فوكه	٢٥٣
الفصل الرابع عشر: في مملكة أنطاليا	٢٥٤
الفصل الخامس عشر: في مملكة قراصار	٢٥٤
الفصل السادس عشر: في مملكة أرمناك	٢٥٥
الباب السادس: في مملكة مصر والشام والحجاج	٢٧٥
مملكة مصر	٢٨١

٢٨٧	عاشر المملكة
٢٩٠	زي أعيان هذه المملكة
٢٩٢	السلطان
٢٩٢	ذكر هيأته في جلوسه للمظالم
٢٩٣	ذكر هيأته في بقية الأيام
٢٩٤	ذكر هيأته في الأسفار
٢٩٦	الاسمطة السلطانية
٢٩٦	هيأته في صلاة الجمعة
٢٩٧	ذكر انتهاء الأخبار إليه
٢٩٨	العلامة السلطانية
٣٠٠	الإقطاع
٣٠٢	أرزاق أرباب الدولة
٣٠٣	زي ذوي العمائم المدوراة
٣٠٤	الكلام على أرباب الوظائف في هذه المملكة
٣٠٥	الوظائف الكبار
٣٠٥	من ذوي السيوف
٣٠٥	ومن ذوي الأقلام
٣٠٥	ومن ذوي العلم
٣٠٦	ذكر الوظائف
٣٠٦	وظائف أرباب السيوف
٣٠٩	وظائف أرباب الأقلام
٣١١	وظائف ذوي العلم
٣١٧	ذكر عادة هذه المملكة في الخلع ومراتبها
٣١٩	أما «الوزراء والكتاب»
٣٢٩	المدن المشهورة بهذه المملكة

قلعة الجبل	٣٣٠
القاهرة	٣٣٤
الفسطاط	٣٣٤
قوص	٣٣٥
إسكندرية	٣٣٧
دمياط	٣٤٢
كُورُ الديار المصرية وأعمالها	٣٤٤
الوجه القبلي	٣٤٤
الوجه البحري	٣٤٥
الواحات	٣٤٦
ما يتعلّق بذيل هذه المملكة	٣٤٦
ذكر برقة	٣٤٦
ذكر المملكة الثانية وهي مملكة الشام	٣٤٨
ذكر دمشق وبنائها	٣٥٠
أما جملة أعمال دمشق	٣٦٠
الصفقة القبلية	٣٦١
الصفقة الساحلية	٣٦٣
الصفقة الشرقية الشمالية	٣٦٣
وبعلبك	٣٦٤
حمص	٣٦٥
حماة	٣٦٦
حلب	٣٦٧
أطربالس	٣٧٠
صفد	٣٧٢
القدس الشريف	٣٧٤

٣٧٦	الكرك
٣٧٨	الشَّوَيْكُ
٣٧٩	غزة
٣٨١	الرملة
٣٨٥	مصادر ومراجع التحقيق
٤٠٧	فهرس الموضوعات

MASĀLIK AL-^۲ABSĀR

FĪ MAMĀLIK AL-^۳AMŞĀR

by

Šahābuddīn Ibn faḍlullāh al-^۴Umari

Edited by

Kāmil Salmān al-Jubūrī

Volume II
Volume III

